التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس

في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي

دراسة تحليلية مقارنة

تأليف

الدكتور عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح

قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

المجلد الأول

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

التاريخ والمؤرخون في مصر والأندلس

في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي

دراسة تحليلية مقارنة

تأليف
الدكتور عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح
قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الأول

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ١٣/١٢/١١/٨٠٤٨١٠ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤-١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Etage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3931-2

http://www.al-ilmiyah.com/
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، سيدنا ومولانا محمد (صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله، وصحبه أجمعين).

ثم أما بعد، فإننى أحاول فى هذه المقدمة الموجزة المركزة أن أُعَرِّف بموضوع كتابى : (التاريخ والمؤرخون فى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى)، وأُبرز مقصوده، وأُبَيِّن مضمونه، ومحتوياته، ومنهجى الذى اتبعتُه فى عرض مادته العلمية، والتغلب على العقبات الكثيرة، التى اعترضت طريق البحث، واحدة بعد الأخرى، حتى وصل هذا العمل المضنى إلى غايته المرجوة، ونهايته المنشودة ما أمكن، بفضل الله (تعالى).

ويمكننى حَصْر نقاط هذه المقدمة المختصرة فيما يلى :

أولاً - موضوع الكتاب، ومضمونه :

يتضح موضوع هذا الكتاب من عنوانه، وهو كالآتى :

(التاريخ والمؤرخون فى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى - دراسة تحليلية مقارنة)

ويلاحظ على هذا العنوان الملاحظات التالية :

١ - أننى لم أطلق عليه اسم (المصادر التاريخية)؛ وذلك كى لا يتطرق إلى ذهن القارئ أننا سنعالج كتباً كثيرة ليست تاريخية صرْفه، وإن كانت بها مادة تاريخية، فهى من مصادر التاريخ المساعدة، وليست هى المصادر التاريخية الرئيسية، مثل : كتاب (العِقْد الفريد) لابن عبد ربّه الأندلسى (ت ٣٢٨هـ)، وكتاب (المكافأة) لابن الداية المصرى (ت ٣٤٠هـ)، فهما كتابان أدخل فى باب (الأدب) منه فى باب (علم التاريخ). ومن هنا - ومنعاً لاختلاط المفاهيم - استبعدت صيغة (المصادر) رغم دلالتها على تناول الكتب الأساسية، التى تمثل نتاج مؤرخى مصر والأندلس فى القرن المذكور.

٢ - أنـــى لم أرجح استخدام مصطلح (الدراسات التاريخية)،على الرغم من أن منجزات مؤرخى البلديْن فى قرن النضج والازدهار(ق ٤هـــ)قمينة بأن يطلق عليها هذا؛ لبلوغ المؤرخين- فى هذا العصر - درجة عالية من المنهجية والموضوعية،وإلمام بعضهم بثقافات،جعلت التأريخ - علـــى أيديهم - أكثر منطقية وموضوعية. لقد آثرتُ ألا أفرض على القارئ، مثل هذا العنوان، ورأيت أن أترك له فرصة الحكم على هؤلاء المؤرخين، ومستوى مؤلفاتهم بنفسه.

٣ - أننى اخترت الصيغة المرادفة صيغة (التاريخ والمؤرخين)؛ لأنها تُجَنِّبنى ما أردتُ تَجَنُّبه فى المصطلحين السابقين، ثم إنها - فى الوقت ذاته - تعطى ظلالاً حقيقية، يمكن لمن أراد أن يقف عليها أن يرصدها من خلال قراءة العمل بدقة وأناة من بدايته حتى منتهاه.

إن الموضوع - ببساطة شديدة - يُعْنَى بدراسة أهم وأبرز اتجاهات التأليف التاريخى فى مصر والأنـــدلس فى القرن الرابع الهجرى، فيقوم الباحث - فى سبيل ذلك - بالترجمة لعدد من مؤرخى هذا القرن، ويقوم بدراسة مؤلفاتهم التاريخية - سواء كانت مطبوعة، أم مفقودة - ببيان محتوياتها، ومواردها، واختبار مدى صحة بعض ما ورد فيها من الوجهة التاريخية، والمنهج العلمى الذى اتُّبع فى تألـــيفها، مـــع المقارنة بين مؤرخى كل إقليم على حدة مقارنة داخلية، ثم رصد أوجه الاتفاق والاختلاف بين مؤرخى الإقليمين، فى إطار وحدود عدد من اتجاهات التأليف التاريخى، التى رأى الـــباحث أنهـــا يمكن أن تمثل حصاد جهود هؤلاء المؤرخين إلى حد مقبول؛ إذ إن استقصاء كافة زوايا البحث التاريخى فى هذا القرن مما يستحيل أن ينهض به باحث بمفرده.

ثانياً - دوافع اختيار هذا الموضوع، وتاريخ البحث فيه :

١ - أن هـــذا الموضوع يعد امتداداً لدراسة أخرى، تناول فيها الباحث التاريخ والمؤرخين فى مصر الإسلامية فى القرون الثلاثة الأولى مع مقارنات بمؤرخى الأقاليم الإسلامية الأخرى ما أمكـــن. وأحـــب أن أُنَوِّه إلى أن هذا الكتاب، وإن كان يتناول قرناً واحداً (هو القرن الرابع الهجـــرى فقط)، فى مقابل ثلاثة قرون فيما مضى، إلا أن هذا الكتاب أضخم حجماً، وأصعب منالاً، **وذلك من وجوه هى :**

أ - أن الدراســـة الأخـــرى كانت مُنْصَبّة على مصر (مع مقارنات يسيرة - حسب المادة العلمية - بالأقاليم الإسلامية الأخرى). أما فى هذا الكتاب، فهى تشمل مصر، والأندلس معاً، وهو عبء جسيم وكبير.

ب - أن القرون الثلاثة الأوائل لم يَنْضَج فيها التاريخ والمؤرخون نضجه وإيـــاهم فى القرن الرابع الهجرى، فمؤلفات القرون الثلاثة فى مصر لم يبق منها سوى (فتوح مصر وأخبارها) لابن عبد الحكم، بينما فُقدت مؤلفات سابقيه، وإن أمكن تجميع بعض بقاياها، إلا أنها بقايا يسيرة.

أمـــا القرن الرابع، فهو يَعِجُّ بالمؤرخين، وبه مؤلفات كثيرة مطبوعة، وقليل مخطوط، وعدد مـــن المصـــادر المفقـــودة، التى أمكن تجميع قدر كبير منها[1]، فبلغت كَمًّا هائلاً من النصوص التاريخية، التى لا نظير لها من قبل.

جـــ - أن الباحث اتبع فى دراسته الأخرى منهجاً، اضطرته إليه طبيعة العصر، وثقافات مؤرخيه، فكان لا بد أن يُحَدَّد نصيب كل مؤرخ من تلك العلوم، التى مَثّلت ثقافة العصر (من قـــراءات، وتفســـير، وحـــديث، وفقه، ولغة، وأدب)، حتى ظن البعض أن ذلك خروج عن الموضوع، ومخالفة لمنهج البحث القويم. وهو - فى الحقيقة - فى صميم الموضوع، إلا أنهم غاب عـــنهم أنه منهج جديد وعسير، وصل بنا - فى النهاية - إلى أن نعرف - بالضبط - أين يقف علم التاريخ بين هذه العلوم، وأين مكانة المؤرخين وسط الفقهاء، والمحدثين، وغيرهم.

أما فى القرن الرابع الهجرى - وهو موضوع كتابنا هذا - فالأمر جِدُّ مختلف؛ لأن التاريخ استوى على سُوقه فى ذلك القرن، وتخلص - إلى حد بعيد - من سيطرة منهج المحدّثين عليه، وغدا المؤرخ ذا شخصية مستقلة، وأضحى ملمًّا بعلوم جديدة كالمنطق، والفلسفة، والطب، والفلك، ومعرفة لغات أُخرَى إلى جانب مؤرخين ظلوا يحافظون على ثقافاتهم التقليدية المعروفة -وغير ذلك من العلوم، التى طوّعها بعض المؤرخين لخدمة (علم التاريخ). ومن هنا كانت الصعوبة الحقيقية، التى تمثّلت فى ضرورة أن يقف الباحث على أدوات جديدة فى تحليل مناهج المؤرخين فى ذلك القرن الجديد، وأن يزداد عمقاً فى بحثه؛ نتيجة الاقتصار على دراسة اختصاص واحد هو (التاريخ)؛ مما تطلب مزيداً من القراءة، ووقتاً طويلاً من التأمل والدرس، والمقارنة والتركيز.

وهكـــذا، كانت مواصلة القراءة الجادّة لتراثنا التاريخى المجيد، والرغبة فى رصد ما لحقه من تطورات عبر القرون، دافعاً لمواصلة السير فى هذا الطريق، الذى يوقفنا على حقيقة تفكير هؤلاء النفر من المؤرخين، وما ألَذّ النظر والتأمُّل فى عقول الرجال، كما يقولون. وأعتقد أن ذلك عمل مهـــم للغاية؛ لأنه يعيد تقويم تراثنا، ويعد خطوة مهمة وضرورية وأساسية لإعادة كتابة (تاريخ الأمة) من جديد، بعد قراءة تراثها فى هدوء وأناة.

٢ - أن هذا البحث كان فرصة نادرة، ومحاولة جادّة، لابتعاث كوامن الحياة فى مؤلفات تاريخية، صدرت فى هذا القرن عن مؤرخين كبار، لكننا لا نقف عليها؛ نظراً لضياعها. ويقابل البـــاحثُ - وهو يلهث لاقتناص معلومة يريدهـــا - نصاً من هنا، وآخر من هناك كشَذَرات

---

(١) من ذلك : (تاريخ المصريين)، و(تاريخ الغرباء) للمؤرخ المصرى ابن يونس الصدفى (ت ٣٤٧هـ)، وقد صدرا فى مجلدين كبيرين بتحقيقى (ط.دار الكتب العلمية - بيروت) سنة ٢٠٠٠م.

متفـــرقات مــــن تلك المؤلفات، فلا يستطيع أن يحسن الإفادة منها، ولا يستطيع إدراك أهميتها، وحجمها، وما فيها من إبداع، وجُهْد مبذول، ومنهج صحيح سلكه أصحابها، حتى بلغوا بها ما أرادوا أن يبلغوا، فكان إقدام الباحث على تجميع ما تيسر له من بقاياها، وهو كبير كبير، عملاً جديـــراً بأن يُبحث، ويُبذل فيه العرق والدم، والوقت المطوَّل؛ حتى نخرج بجديد، لا عهد للناس به، فيما نعلم. لذا اخترتُ هذا الموضوع.

٣ – وقـــد يـــثور ســـؤال، مفاده : ولِمَ مصر والأندلس بالذات ؟ و لم كان القرن الرابع الهجرى على وجه التحديد ؟ والجواب جدُّ يسير. فمن جهة : لم تُدرس مصر والأندلس – فيما أعلـــم – دراســـة علمية مستقلة مفصّلة من هذه الزاوية من قبل. ومن جهـــة أخرى : فالقرن الـــرابـــع – بالـــتحديد – لم يَحْـــظ بالعـــناية، التى هو جدير بها حتى الآن فى مجال (التاريخ والمؤرخين) فى هذين الإقليمين من أقاليم أمة الإسلام.

إنـــى أعتقد أن المقارنة بين مصر والأندلس فى ذلك المجال الخِصْب ليست بالأمر الهَيِّن ولا اليســـير؛ لتنائى ديارهما، ولأن إدراك عوامل الالتقاء بينهما تحتاج إلى تفكير عميق، فنحن أمام بلـــديْن، إذا نُظـــر إلى علاقاتهما السياسية فى ذلك القرن، ألفيتَها أقرب إلى التعادى والتخاصُم والتدابُـــر، مــــنها إلى التلاقى والتعاون. ورغم ذلك، فإننى أعتقد أن هناك مجموعة من أرضيات مشتركة غير مباشرة بينهما على مستويات عدة، منها :

أ – معانــــاة كلـــيهما مــــن الاضطرابات والثورات والفتن (فى مصر فترة ما بين العصرين الطولونى، والإخشيدى (٢٩٢ – ٣٢٣هـــ). وفى الأندلس (فى فترة ما قبل الناصر، خاصة عهد الأمـــير عبد الله بن محمد (٢٧٥ – ٣٠٠هـــ)، وأوائل عصر الناصر حتى استقامت له الأمور). إلا أن البلديْن حَظِيا بالاستقرار فى عهد (الإخشيد فى مصر، والناصر فى الأندلس). ويضاف إلى ذلك استقلال كليهما تماماً فى عهد (العُبيديين فى مصر، والناصر فى الأندلس)، وذلك بإعلانهما الخلافة فى مواجهة العباسيين بالشرق. كان هذا على الصعيد السياسى.

ب – وبالنسبة للجانب الثقافى، فهو الباقى بين الشعوب، فعلماء الأندلس - رغم ازدهار العلم فى بلدهم، واستقلالهم كثيراً عن الشرق، خاصة مصر فى مجال التاريخ بالذات - إلا أنهم لم تـــنقطع رحلاتهـــم إلى المشرق عامة، وإلى مصر خاصة، فقام التلاقح الفكرى بينهما عن طريق الرحلات والمكاتبات، والمراسلات فى مجال (التاريخ، والحديث، والفقه، وغيرها من العلوم).

جـــ – انعكست الأوضاع السياسية والاقتصادية على حالة الشعبين : المصرى، والأندلسى الاجتماعـــية. لقد ذاقا وبال الثورات والفتن فقراً مُدْقعاً، وضيقاً ونَعِمَا بحياة الاستقرار واتساع العيش ورخائه – على تفاوت بينهما – فى أوقات الهدوء والسكينة والاطمئنان.

إذاً الموضـــوع جديد شكلاً ومضموناً. وإذا بحثنا فى (التاريخ العلمى) له، فإننا لا نجد مَنْ تـــناوله هذا التناول. وعلى كل، فنحن نؤمن أنه لا يوجد موضوع جديد كُلَّ الجدَّة، ولا يمكن أن نـــبحث موضـــوعاً مـــن فراغ؛ ولذلك فقد سبقتْنا إلى طرق بعض جوانب هذا الموضوع دراســـات ســـابقة، نقدر لها جهودها، التى أضاءت لنا السبيل، ووضعت أقدامنا على الطريق الصـــحيح، وكشفت لنا عن ثغرات، نفذنا منها إلى الموضوع، محاولين معالجته بتفصيل وعمق.

ومن أمثلة هذه الدراسات ما يلى :

أ - دراسات دكتور أحمد مختار العبادى عن المؤرخين الأندلسيين فى مقال له بمجلة (عالم الفكر) الكويتية، وما كتبه عنهم فى كتابه : (فى تاريخ المغرب والأندلس).

ب - ما كتبه دكتور حسين مؤنس عن مصادر التاريخ الأندلسى فى كتابه : (معالم تاريخ المغرب والأندلس).

جـــ - كتابات د.طه ذى النون عن التاريخ العربى بالأندلس.

د - بحـــثان للدكتور محمد عبد الحميد صقر، والدكتور عبد الله جمال الدين، عن مرويات التاريخ الأندلسى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى.

هـــ - مؤلفات الأستاذ محمد عبد الله عنان عن (مؤرخى مصر الإسلامية).

و - مجمـــوعة من الرسائل العلمية الجامعية، التى أسهمت فى تعميق هذه الدراسة، منها : ماجســـتير الدكتور سيد محمد قطب عن (كتاب المكافأة) لابن الداية، و(حضارة مصر فى عهد الدولـــة الإخشـــيدية) رسالة ماجستير للباحث (فرج الأحول)، و(الحركة الأدبية والعلمية فى الفســـطاط مـــنذ الفتح العربى إلى نهاية الدولة الإخشيدية) للباحثة (صفى على محمد)، و(الحياة الاجتماعية والثقافية فى قرطبة فى القرن الرابع الهجرى) للدكتورة سلوى عبد الخالق على... إلى آخر هذه الدراسات التى سُجِّلت بياناتها تفصيلاً فى (قوائم المصادر، والمراجع).

والخلاصـــة : أنى أدَعُ القـــارئ يقارن بنفسه بين هذه الأعمال، وبين تناولنا لهذا العمل، وأعـــتقد أنه سيجد أنها كانت معالجات سريعة، تتلاءم مع الموضوعات التى تُنوولت فيها؛ فلا يـــتعدى تـــناول مؤرخى مصر فى رسالة (الأحول)، وغيره سوى صفحات قليلة. وكذلك لم تتـــناول رســـالة الباحثة (سلوى عبد الخالق) مؤرخى الأندلس إلا فى تعريفات مقتضبة سريعة، تتوافق مع موضوعها، الذى يتناول - فيما يتناول - الحياة الثقافية ككل. **وحتى دراسات كبار المشـــتغلين بالتاريخ الأندلسى، مثل : الدكتور العبادى، والدكتور مؤنس،** لم تتعد التعريف العام المقتضب بمصادر التاريخ الأندلسى ككل فى مختلف القرون والعصور. وهكذا، فإنى أعتقد أن دراســـتى هذه تُعد من الدراسات القليلة، التى حاول صاحبها أن يخص (الكتابات التاريخية) فيها بالدرس والفحص، والتأمل والمقارنة.

ثالثاً، وأخيراً – خُطّة الكتاب، وفلسفة التقسيم، ومنهج التناول :

١- يبدأ الكتاب بـ (فصل تمهيدى) بعنوان :

(مصـــر والأنـــدلس فى القـــرن الرابع الهجرى) : فى هذا الفصل المهم أرسيتُ الأرضية الأساســـية للكتاب ككل. وفيه تناولت أبرز الأوضاع **السياسية فى مصر** - خلال القرن الرابع الهجـــرى، وأهـــم سماتهـــا خـــلال الفترات التاريخية المتعاقبة (ما قبل حكم الإخشيد، والدولة الإخشيدية، والفترة التى حكمت فيها دولة العبيديين مصر من ذلك القرن).

ثم انتقلتُ – بعد ذلك- إلى دراسة **(الأوضاع السياسية فى الأندلس)**، خاصة فترات حكم الناصر، والمستنصر، والمنصور. وختمت ذلك بعقد مقارنة بين البلدين فى ذلك المجال.

ثم تـــناولت **الأوضاع الاقتصادية، ثم الاجتماعية، وأخيراً الثقافية (خاصة ما يتصل بعلم التاريخ)**، ومتبعاً المنهج السابق نفسه، مطبقاً منهج الخلاصات المقارنة بين الإقليمين فى كل مجال من المجالات السابقة. وأخيراً، قمت بكتابة **(خلاصة عامة)** للتمهيد ككل.

وهكـــذا، يمكن القول بأننا عالجنا فى هذا (التمهيد) الأوضاع فى هذا القرن بطريقة شاملة مـــتكاملة، ورتَّبـــناها وفق ترتيب منطقى محكم، بحيث تصب الظروف السياسية، والاقتصادية، والاجتماعـــية - فى النهاية — فى المجال الثقافى بعامة، والتاريخى بخاصة. ولا أظن أننا أسهبنا فى علاجـــه، بل تناولناه بتركيز شديد، وإن تجاوزت صفحات معالجة الأوضاع السياسية مقدار ما تُنووِل فى بقية الجوانب، فتلْكُم هى طبيعة الظروف السياسية فى كل عصر.

وأتمنى أن أكون قد وُفِّقت فى إعطاء صورة واضحة عن ذلك القرن، الذى عايشه مؤرخو مصـــر والأنـــدلس؛ كـــى ننظـــر أثر وانعكاس ذلك على هؤلاء المؤرخين، ونتاجهم العلمى، والموضوعات التى طرقوها بالبحث والتأليف، ومدى مشاركتهم فى الأحداث الجارية على أرض بلادهـــم، والمنهج الذى عالج به كل منهم مؤلفاته، وفقاً لطبيعة ثقافته، وظروف بيئته ومجتمعه، الذى نشأ فى رحابه.

ملاحظة :

قـــبل أن أنتقل إلى عرض وبيان أبواب الكتاب الثلاثة، أشير إلى أننى كنتُ بين منهجين فى التناول :

أ – إمـــا أن أدرس كـــل مدرسة تاريخية على حدة دراسة كاملة بكافة مؤلفات التاريخ المتيسرة فيها، وفق تسلسل زمنى، يضع فى الاعتبار مواليد، ووفيات المؤرخين.

ب – أو أن أقســـم الفصـــول تقســـيماً موضوعيًّا، بحيث أضع كل مجموعة من المؤلفات

التاريخـــية، تشـــترك فى اتجاه من (اتجاهات التأليف التاريخى) معاً، مرتباً إياها ترتيباً زمنيًّا، بادئاً بمدرســـة (مصر التاريخية)، ومُثَنِّيًا بـــ (مدرسة الأندلس التاريخية)، ثم عاقداً فى نهاية دراسة كل اتجاه مقارنة مركزة بين المدرستين.

وقد رجَّحتُ المنهج الأخير فى التناول؛ لأن إيجابياته كثيرة، منها :

أ - أنه يحقق للموضوع وحدته وتماسكه، وانسجام جزئياته.

ب - أنـــه سيحقق الترابط المنطقى بين الأبواب (فنبدأ بالسير التاريخية على اعتبار أنها أقـــدم ألـــوان الكتابة التاريخية، ثم يأتى الباب الثانى، فيسجل فيه المؤرخون حركة النهضة العلمـــية فى بلادهـــم، بعد ازدهار العلم، ونمو الثقافة، فتأتى كتب (التراجم، والطبقات). وأخـــيراً، يأتـــى دور كـــتب (الحضارة، والنظم)، التى سجل فيها المؤرخون معالم النظام السياسى، والإدارى، والقضائى فى بلادهم.

جـــ - أن هذا المنهج يضمن تحقيق المقارنات بدقة داخل كل فصل، على أن تتم الإشارة إلى خلاصتها فى (خاتمة الكتاب).

وقد لاحظتُ على هذا المنهج أمرين :

أولهما - أنه يؤدى إلى تكرار ذكر المؤرخ الواحد فى أكثر من فصل، إذا تعددت مؤلفاته، مـــن حيث الكم والنوع، فأين نترجم له ؟ وحلاً لتلك المشكلة رأيتُ الترجمة الوافية له فى أول مرة يُذكر فيها فقط؛ حتى يتم التعريف به جملة واحدة، إلا إذا وجد سبب وجيه يستدعى تأخير الترجمة قليلاً.

ثانـــيهما - أن نـــتاج بعض المؤرخين ذوى الإنتاج العلمى المتنوع كابن زولاق فى مصر، والخُشَنِىِّ فى (الأندلس) سيكون مبعثراً، عبر أبواب الكتاب. ويُرَدّ على ذلك بأنه يمكن تجميعه فى (جداول إحصائية بيانية فى قسم الملاحق).

والآن، نتابع عرضنا لبقية أبواب الكتاب، ومنهجنا فى تناولها :

٢- الباب الأول - (مؤرخو السِّيَر التاريخية) :

فى هـــذا الباب بدأنا بدراسة هذه النوعية من المؤلفات التاريخية فى مصر، فقمتُ بالترجمة للمؤرخ المصرى (ابن الداية ت ٣٤٠هـــ) ترجمة مفصلة، مستعيناً بمؤلفاته، التى أمكن استنباط الكثير عن شخصيته منها، ممـــا لم يكن متيسراً، لو تم الاكتفاء بما أوردته كتب (التراجم) عنه.

ثم تـــرجمتُ - بعد ذلك - للمؤرخ المصرى (البَلَوِىّ، المتوفى فى منتصف ق ٤هـــ)، متـــبعاً الطـــريقة نفسها، ثم قمت بدراسة مؤلَّفَيْهما معاً، بطريقة مقارنة، على اعتبار أن

موضوعهما واحد، وهو (سيرة أحمد بن طولون)، **واشتملت الدراسة على بيان** :

أ - محتوى السيرة.

ب - موارد كل من المؤرخيْن.

جـ - النقـــد الداخلى لبعض أحداثها، ووضـــع تصور شامل للحكم التاريخى على دولة (ابن طولون).

د - المنهج الذى اتبعه كلا المؤرخيْن فى معالجة مادته التاريخية.

وأتـــى دور المـــؤرخ العظيم (ابن زولاق ت ٣٨٧هـــ)، فترجمتُ له، وقمتُ بتحليل كتابه : (سيرة الإخشيد) على المنهج نفسه المُتَّبع من قبل. ثم أعقبتُ ذلك بكتابة (خلاصة مقارنة) بين (سيرة ابن طولون) لابن الداية، و(سيرة الإخشيد) لابن زولاق. بقى - بعد ذلك — دراسة (سير العلماء)، ومَثَّل ذلك فى مصر كتاب (أخبار سيبويه المصرى) لابن زولاق.

و لم أشأ التوقف عند هذا الحد، فهنالك مادة مهمة لعدد من كتب السير التاريخية - خاصة كـــتب المؤرخ الفَذّ ابن زولاق — لكنها مفقودة، فقمتُ بجمع ما تيسّر لى منها، ورتبتها ترتيباً تاريخيًّا، وقمت بدراستها والتعليق عليها. وبذلك انتهت دراسة (سير الحكام والعلماء فى مصر).

أمـــا بخصوص **الأندلس**، فلم أقف — بعد طول بحث، وسؤال — على كتاب مطبوع فى مجال (السير التاريخية)، فقمتُ بتجميع ما تيسر لى من بقايا الكتب المفقودة، والإشارة إلى أسماء مؤلفـــيها، وعناوينها، وما تدل عليه من موضوعات. وحاولتُ - فى النهاية— التعليل لفقد هذه النوعـــية من تلك المؤلفات التاريخية فى الأندلس بالذات، وحاولتُ — كذلك — عقد شئ من المقارنة بين ما بقى منها فى مجال (سير العلماء)، وبين ما أُثر عن مدرسة مصر التاريخية، وذلك من خلال ملاحظات عامة، قمتُ بتسجيلها. وعلى كل، فقد تنكشف — عما قريب — بعض هذه المفقودات، فنستكمل هذا النقص فى تلك الدراسة، وعزاؤنا - الآن — أننا لا دخل لنا به، ولا حيلة لنا فيه.

٣- الباب الثانى (مؤرخو التراجم، والطبقات) :

جمعـــت - فى هذا الباب - ما تيسر لى من كتابَى (ابن الربيع الجيزى ت ٣٢٤هـــ) عن (تـــاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر)، والكندى (ت ٣٥٠هـــ) عن (العلماء الموالى فى مصر)، وحاولـــت استخلاص ملاحظات عامة منهجية على كل منهما، حسب المادة العلمية المتوفرة. وأحب أن أُذَكّر بأن المؤرخ المصرى ابن يونس له كتابان فى التراجم، يندرجان تحت هذا الباب إلا أننى لن أتعرض لهما؛ لأنى خصصتهما بدراسة مستقلة أشرت إليها من قبل.

وعلى صعيد **الأندلس** كانت المؤلفات متعددة ومتنوعة فى اتجاهاتها، وقمت بدراسة كتاب (أخبار المحدّثين والفقهاء) للخُشَنى (ت ٣٧١هـ)، وقارنت مطبوعه ومخطوطه، وأبرزت أهميته من خلال كثرة نقول المصادر التالية له من تراجمه ومعلوماته. وكنتُ - كما تعودتُ - قدمتُ للمؤلف - قبل ذلك - ترجمة وافية، ألقت الأضواء على شخصية هذا المؤرخ الأندلسى العظيم، ذى الصلات العلمية الطيبة، والمراسلات المتبادلة مع مؤرخ مصر الأشهر (ابن يونس الصدفى).

بقى ثلاثة من المؤرخين الأندلسيين فى هذا الباب، ترجمت لهم، وحَلّلتُ كتبهم، وبينتُ مناهجهم، وهم (ابن جُلْجُل ت بعد ٣٧٧هـ)، صاحب (طبقات الأطباء والحكماء)، والزُّبَيْدِىّ (ت ٣٧٩هـ) صاحب (طبقات النحويين واللغويين). وأخيراً، المؤرخ الأندلسى العظيم ابن الفَرَضِىّ (ت ٤٠٣هـ) فى (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس). وفى نهاية هذا الباب رصدنا أوجه الاتفاق والافتراق، والصلات بين مدرستى مصر، والأندلس فى مجال (التراجم، والطبقات).

٤- الباب الثالث والأخير - (مؤرخو الحضارة، والنظم) :

وهو باب جديد، يعكس اهتمام مؤرخى مصر والأندلس الكبير بهذا الجانب المهم من جوانب المكتبة التاريخية الإسلامية فى ذلك القرن، ويدحض دعاوى باطلة، تزعم أن المؤرخين ما كتبوا إلا حكايات، وما سردوا إلا قصصاً وروايات. فها هو باب كامل يثبت أن لهم اهتماماً بالكتابة الحضارية، وأنهم عُنوا بالأسس الحضارية، والنظم السياسية والإدارية والقضائية، ضمن ما عُنوا به فى كتاباتهم.

تناول هذا الباب الختامى ما يلى :

أ - دراسة كتاب الولاة، للكندى.

ب - دراسة كتاب (القضاة) للكندى أيضاً.

وأخيراً، فإننا لم نجد فى **الأندلس** كتاباً مطبوعاً سوى كتاب (قضاة قرطبة)، للخشنى، وهو كتاب يُعنَى بمن ولى قضاء الجماعة بقرطبة، وأغفل القضاء والقضاة فى بقية نواحى الأندلس. وعلى كل، فقد تمت دراسته وتحليله، وبيان منهجه. وفى النهاية، كتبتُ خلاصة مقارنة بين إنجاز مؤرخ مصر الكندى فى هذا المجال، وبين العمل الأوحد الباقى الذى كتبه الخشنى بالأندلس.

* * * *

وفى الـــنهاية، ختمتُ هذا الكتاب بـــ (خاتمة) لَخَّصْتُ فيها أبوابه، وركزتُ أهم النتائج، والتوصـــيات، ثم أوردت ملاحق الكتاب، وبعدها كانت (قوائم المصادر، والمراجع) مرتبة وفق منهج معين، ارتضيتُه لنفسى، وذكرته هناك. والمطالع لتلك القوائم المفصّلة، التى تبلغ عدة مئات من الكتب، يدرك - على الفور - مقدار ما بُذل من جهود شاقة مضنية، عبر سنوات متلاحقة متعددة فى مسح كثير منها، واستخراج المادة العلمية اللازمة لإتمام هذا الكتاب. وتجدر الإشارة إلى أننى اكتفيت فى الحواشى بالمواظبة على ذكر طبعة الكتاب، متعدد الطبعات. أما غير ذلك، فمن أراد معرفة طبعة، فعليه بالبيانات المفصّلة فى (قوائم المصادر، والمراجع)، فالحواشى مثقلة لا تحـــتمل المـــزيد، وقد يتكرر المصدر بعد عشرات الصفحات، فينسى القارئ طبعته التى ذُكرت بالحاشية فى المرة الأولى، فلا غنى - إذن - عن العودة إلى هذه القوائم.

وأخيراً، فإنه لا يسعنى مع نهاية هذه المقدمة المقتضبة، إلا أن أسجد لله (تعالى)؛ شكراً على عظيم نعمه، وموفور آلائه، التى مَنّ بها عَلىّ، حتى وصلتُ بهذا العمل إلى نقطة النهاية، وممنحى من الصبر الدءوب، والعمل المتواصل، ما مَكّنّى من تحويله من حلم وخاطر إلى حقيقة واقعة، لا خيال فيها، وأسأله أن يجعل كل ما تحملتُه من المشاق والصعاب خالصاً لوجهه الكريم، ويجعله فى ميزان حسناتى، وأن يكلل جهودى بالنجاح والتوفيق فى الدنيا والآخرة.

(وصَلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسَلّم تسليماً كثيراً)

دراسة في أهم المصادر والمراجع

تقديم :

اعــتمدت فى تأليف هذا الكتاب على عدد كبير من المصادر والمراجع، وأود - هنا - أن أقــدم تعريفاً سريعاً مختصراً ببعض هذه الكتب، مبيّناً - ما أمكن - مدى إفادتها فى تأليف هذا الكـتاب، ذاكراً بعض ما فيها من إيجابيات، أو سلبيات، أو هما معاً؛ كى يستفيد الباحثون من بعــد. وغنى عن البيان أننى سأُعنَى بذكر الكتب المساعدة على إتمام تلك الدراسة، ولن أتعرض للمصادر، التى كانت موضوع الكتاب، دراسة وتحليلاً؛ وذلك منعاً للتكرار.

أولاً - مخطوطات :

١ - **مخطوط (تفسير كتاب الثمرة لبطلميوس)، لأحمد بن يوسف بن الداية (ت ٣٤٠هـ)**: وهــو مخطوط نادر، يدخل فى علم (الفلك والتنجيم)، ولكنه به مادة تاريخية نادرة، فقد أفادنى كـثيراً فى الترجمة لمؤلفه، ومعرفة عقليته وشخصيته، وأوقفنى على ملمح جديد من ثقافته، وقد ربــط فــيه ابــن الدايــة — ببراعة، ورصانة، وإحكام — بين الفلك، والرياضيات، والتنجيم، والتاريخ. وقد كشف عن مكان وجود والده (يوسف بن إبراهيم) عند اختفاء ابن المهدى، وهو مــا لم نجــده فى غيره، ورسم لنا صورة واضحة لطبيعة التفكير فى مصر فى العصر الطولونى. (فكانت إفادته متركزة فى الفصل الأول من الباب الأول).

٢ - **مخطوط (مختصر تاريخ مصر) لابن زولاق (ت ٣٨٧هـ)** : وهو مخطوط اختزل فيه ابــن زولاق تاريخاً كبيراً ألّفه عن مصر، وهو - للأسف - مفقود، وقام بحذف الأسانيد التى تشير إلى موارد مروياته، إلا أننى أفدت منه فى معرفة (تاريخ التشيع فى مصر، وتاريخ علمائه بها، والصــلة الوثــيقة لبــيت ابن زولاق بهذا المذهب؛ مما كان له أثره فى مواقفه من العبيديين بعد دخولهم مصر (فأفادنى ذلك فى الفصل الثالث من الباب الأول).

٣ - **مخطــوط (تاريخ دمشق) لابن عساكر (ت ٥٧١هـ)** : وقد أمدنى هذا السِّفْر الجليل الضــخم بمــادة كثيرة متنوعة فى (الفصل الثانى من الباب الأول)، فيما يتصل بالطولونيين بالشام، ووقائع الملاعنة بين ابن طولون والموفق. ويلاحظ أن هذا المخطوط الضخم اكتمل تحقيقه وطبعه منذ فترة وجيزة، وبعد إعدادى هذا الكتاب، وسأعود إلى المطبوع فى المؤلفات القادمة، إن شاء الله.

٤ - **مخطــوط (عيون التواريخ) للكُتُبِيّ (ت ٧٦٤هـ)** : وترجع أهميته فى إمداده هذا الكــتاب - فى الفصل الرابع من الباب الأول - بعدد من مؤلفات المؤرخ المصرى العظيم ابن زولاق، لم تذكرها معظم المصادر الأخرى، مثل: (سيرة المادَرَائيين).

٥ - **مخطوط (رفع الإصر)، لابن حجر (ت ٨٥٢هـ)** : ونقصد به التراجم التي لا تزال مخطوطة، لم تمتد إليها يد التحقيق بعدُ. ولا شك أنه من المصادر المهمة فى (التأريخ لقضاة مصر). وقد أفادنى فى (الباب الثالث) من هذا الكتاب، وهو المَعْنِيّ فى جزء كبير منه بـ(القضاة فى مصر)، فساعد على كشف النقاب عن حياة بعض القضاة، وحوى مادة غير قليلة.

ثانياً - مصادر :

ونعني بها الكتب المطبوعة، التي صنفها علماؤنا الأقدمون، وهي كثيرة متنوعة، لكني سأجتهد فى تصنيفها وتقسيمها، مع بيان مدى أهميتها فى ذلك الكتاب، **وهي على النحو الآتي** :

(١) **مجموعة كتب الصحابة** (رضوان الله عليهم) : وهذه أفادتنى إفادة هائلة فى (الفصل الأول من الباب الثانى) تحديداً، و ذلك فى تجميع بقايا كتاب (تاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر) لابن الربيع الجيزى. وهذه المصادر هى (طبقات ابن سعد)، و(الاستيعاب) لابن عبد البر، و(أسد الغابة) لابن الأثير، و(الإصابة) لابن حجر.

(٢) **كتب التراجم والطبقات الأخرى** : وهذه كتب تُعْنَى بتراجم العلماء. ويمكن أن نُقِرّ بأن لهذه النوعية من المصادر أهمية قصوى؛ إذ وجدنا بها مادة غزيرة، لا عهد لكتب التاريخ العام والمحلى بها. ويمكن أن نقسمها إلى مجموعة من الفئات :

أ - **فئة عُنيت بتراجم الأندلسيين (محدِّثين، وفقهاء، ومؤرخين، وأدباء، وأمراء)** : ومن هذه المصادر : (**جذوة المقتبس**) للحُميدى (ت ٤٨٨هـ)، و(**الصلة**) لابن بَشْكُوال (ت ٥٧٨ هـ)، و(**بغية الملتمس**) للضبى (ت ٥٩٩هـ)، و(**الحُلَّة السِّيَرَاء**) لابن الأَبَّار (ت ٦٥٨هـ)، وكذلك كتابه الآخر (**تكملة كتاب الصلة، ط.الحسينى**)، و(**ط.مدريد**) على وجه الخصوص، التي أمدتنا بمادة نادرة عن بعض بقايا كتب السير التاريخية بالأندلس فى (الباب الأول من الكتاب)، ولولاه لجهلنا كل شئ بهذا الخصوص تقريباً. وأفاد - كذلك - فى التعريف بالمؤرخ الأندلسى (ابن جلجل) فى (الفصل الثالث من الباب الثانى).

وجدير بالذكر أن الكتب المتقدمة خاصة (الجذوة، والبغية) أفادتنى كثيراً فى التعريف بعلماء الأندلس فى (الفصل التمهيدى).

وكذلك كتاب (**المُغرِب فى حُلَى المَغْرِب**) لابن سعيد (ت ٦٨٥هـ)، الذى يمتاز بالدقة الكبيرة فى إيراد المعلومات، وأفادنى فى (الفصل التمهيدى) فى التعريف بعدد من الشخصيات المهمة فيه. وكذلك كتاب (**نَفْح الطِّيب**) للمَقرى (ت ١٠٤١هـ)، وذلك فى معرض تناول الصلات الثقافية بين مصر والأندلس فى (الفصل التمهيدى)، وكذلك (الحياة الاجتماعية بالأندلس). ولا ننسى كتاب (المغرب - قسم مصر) لأبى سعيد، فهو من الكتب التي لمؤلفها

الفضـــل الأكبر فى حفظ (سيرة ابن طولون) لابن الداية، ومعظم (سيرة الإخشيد) لابن زولاق من الضياع؛ مما كان له أكبر الأثر فى إتمام دراسة (الباب الأول) من هذا الكتاب، وكذلك أفاد قبلها فى كتابة (التمهيد)، وعلى وجه الخصوص فى دراسة (الأوضاع السياسية فى مصر فى القرن الرابع الهجرى).

ب - **وهـــناك مصادر ترجمت لفئات مخصوصة، منها** : **(ترتيب المدارك)** للقاضى عياض (ت ٥٤٤هـــ)، وفيه ترجم لأعيان مذهب الإمام مالك (ووزعهم على طبقات، وترجم لعلماء كـــل إقليم على حدة). وهو مصدر غاية فى الأهمية، وبه نصوص ليست فى غيره، منها : أجزاء من كتاب (أعيان الموالى) للكندى، و(أخبار المحدثين والفقهاء) للخشنى، وإن عابه أنه لم يميز بينه وبـــين (القضـــاة)، و(طبقات المالكية)، و لم يوضح منتهى مقتبساته من تلك الكتب المفقودة. وأعـــتقد أن (طبعة مكتبة الحياة) فى بيروت، تحتاج إلى تحقيق من جديد؛ نظراً لكثرة ما فيها من تحريفات وتصحيفات، وعدم خدمة النصوص فى الحواشى، وعدم دقة ووفاء الفهارس المفصلة. وقد طالعت طبعة مغربية لهذا الكتاب، فلعلها أفضل من حيث ضبط النص، لكنها لم تخدمه هى الأخرى فى الحواشى؛ مما يتطلب جهداً جديداً فى هذا المضمار.

وكـــتاب (طبقات الأطباء) لابن أبى أُصَيْبِعَة (ت ٦٨٨هـــ) كتاب مفيد فى بابه، ساعدنى علـــى تتبع أخبار (يوسف بن إبراهيم)، والوقوف على كثير من بقايا كتبه، وحياته فى بغداد، ودمشـــق، وذلك كله أفادنى فى كتابة (الفصل الأول من الباب الأول). وكذلك كان له دور كبير فى دراسة (طبقات الأطباء) لابن جلجل فى (الفصل الثالث من الباب الثانى).

وهـــناك كـــتاب **(تهذيب التهذيب) لابن حجر**، وهو خاص بتراجم المحدّثين، الذين لهم مـــرويات فى كتب الحديث الستة المشهورة. ولما كان الحديث قاسماً مشتركاً ثقافياً بين معظم علماء القرن الرابع، وعدد من مؤرخيه، فقد كان الاحتياج إلى هذا المصدر كبيراً جداً، وتغلغلت مادته فى كافة أبواب الكتاب، وعلى رأسها (الباب الثانى).

جـــ - **وهناك كتب التراجم التى عُنيت بالعلماء، والأعيان، والأدباء عامة، ومنها** : **(معجم الأدباء)** لياقوت (ت ٦٢٦هـــ)، وهو مصدر مهم ترجع أهميته إلى مطالعة مؤلفه كثيراً مـــن الكتب التاريخية المفقودة الآن، كان قد رآها بنفسه رَأْىَ العين. ومن هنا وجدنا لديه منها مـــادة ليست عند غيره، فهو أفضل من ترجم لابن الداية، وبه نص مطول من (سيرة العزيز)، لابن زولاق. وكذلك ترجم لابن زولاق ترجمة بها ما ليس فى المصادر الأخرى. وكل ذلك أفاد فى (الفصـــلين : الأول، والـــرابع مـــن الباب الأول) من الكتاب. أما (الفصل الثانى من الباب الثانى)، فحوى ترجمة للخشنى المؤرخ الأندلسى، كشفت النقاب عن عمق الصلات بينه، وبين مؤرخ مصر (ابن يونس).

وهناك كتابا : (**وفيات الأعيان**) لابن خَلِّكان (ت ٦٨١هـ)، و(**الوافى بالوفيات**) للصَّفَدىّ (ت ٧٦٤هـ)، وكلاهما أفاد فى كتابة أجزاء مهمة من فصول الكتاب ككل، فكلاهما أسهم فى معرفة الكثير عن تراجم حكام مصر، فأفادا فى كتابة (الحياة السياسية) فى (التمهيد) خاصة أولهما، وكذا ما عُرف به ابن خلكان من دقة فى إيراد الأنساب، وضبط الأعلام. وأفاد فى ترجمة ابن زولاق فى (الفصل الثالث من الباب الأول). وبه تراجم لبعض (قضاة مصر)، أفادت فى كتابه (الفصل الأول من الباب الثالث) من هذا الكتاب. وبالنسبة لكتاب الصفدى، فقد كان من المصادر المهمة، التى أسهمت تراجمها فى الإلمام بـ (الحياة الثقافية فى القرن الرابع الهجرى).

د - **وتوجد مصادر للتراجم، اهتمت بالعلماء الموجودين فى قُطْر بعينه** : وعلى رأس تلك المصادر (**تاريخ بغداد**) للخطيب البغدادى (ت ٤٦٣هـ)، الذى اهتم بالترجمة لكل من نزل حاضرة الخلافة (بغداد). وبه ترجمة طيبة للقاضى ابن حَرْبُويَه أحد كبار قضاة مصر، وأفادنا فى (ترجمة ابن الربيع فى الفصل الأول من الباب الأول من الكتاب). وبعدُ، فإن (تاريخ بغداد) موسوعة علمية كبرى، تحتاج إلى من يقوم بتحقيقها، وإخراجها فى ثوب جديد.

وهناك رائعة المقريزى (**المقفى الكبير**)، الذى أُخرج الموجود منه فى ثمانية مجلدات كبار، بفهارسه المفصَّلة، ذلك المصدر الذى ترجم فيه مؤرخنا لكل من وقف عليه من العلماء، الذين قدموا مصر عبر قرون طويلات ممتدات (من قبل الإسلام حتى عصر المؤلف المتوفى سنة ٨٤٥هـ). ومن ثم، فإن فائدته لا تقف عند باب من أبواب الكتاب، بل تتوزع عبر مختلف الأبواب (فى الفصل التمهيدى : به كتاب تكين إلى العبيديين، وهو مهم للغاية فى تفسير توالى حملاتهم على مصر، وفى نجاح شعب وجيش مصر فى صَدّها، وأورد تفاصيل الخلاف بين كافور وأونوجور). وفى (الفصل الثالث من الباب الأول) نقلنا عنه خطبة ابن زولاق المؤرخ بين يدى المعز لدى دخوله مصر، وأكد تشيعه، وتوليه منصب المظالم لبنى عُبيد فى مصر، وكان ذلك من المعالم الجديدة فى ترجمة ذلك المؤرخ. وبه العديد من تراجم (قضاة مصر)؛ مما ساعدنا فى دراسة (الفصل الأول من الباب الثالث).

هـ - وأخيراً، أفاد هذا الكتاب من مصادر التراجم، التى جمعت - إلى جانب ذلك - ذكر الحوادث التاريخية. ويأتى - فى المقام الأول - موسوعة الذهبى، التى لعلها قاربت الخمسين مجلداً حتى الآن (**تاريخ الإسلام**)، الذى طالعتُ منه (ثمانية وعشرين مجلداً)، تخص القرون الأربعة الأولى من الهجرة، وهو مصدر به ما ليس فى غيره من المصادر الأخرى (خاصة ذكره تاريخ ميلاد ابن الربيع الجيزى، وما أفاده ذلك فى ترجمته، والتعريف به، ودراسته، إلى غير ذلك من الفوائد الجَمّة المبثوثة فى تضاعيف أبواب هذا الكتاب).

(٣) **كتب التاريخ العام** : ويمثلها الطبرى فى (**تاريخ الرسل والملوك**). ورغم ما يقال عن معايب النظام الحولى الذى اتبعه فى تنظيم كتابه (من تقطيع أوصال الحادثة الواحدة الممتدة عبر السنين)، ورغم قلة المادة العلمية التى أوردها خاصة بمصر، إلا أنه لم يَخْلُ من بعض الفوائد، التى أفاض بها على هذا الكتاب (فى ذكره تواريخ أحداث مهمة، أهمل ذكرها ابن الداية، والبلوى فى سيرتهما، وذلك فى الفصل الثانى من الباب الأول، وساعدنا - أيضاً - على توثيق أشعار، وردت على لسان الواسطى، وهو يكتب للمعتضد يحرضه على خمارويه).

وهناك - أيضاً - كتابا : (**الكامل**) **لابن الأثير** (**ت ٦٣٠هـ**)، و(**نهاية الأرب**) **للنُّوَيْرى** (**ت ٧٣٣هـ**). وقد أفادا فى كتابة (الفصل التمهيدى، خاصة ما يتصل بالجانب السياسى منه). وأفادنا النويرى فى (الفصل الرابع من الباب الأول) فى جزئية تتعلق بسيرة (جوهر) لابن زولاق.

(٤) **كتب التاريخ المحلى** : وهذه مصادر مهمة، ترجع أهميتها إلى أنها تركز وتعمق اهتمامها بتاريخ إقليم محدد، أو إقليمين مرتبطَيْن معاً. ومن أهم هذه المصادر : **كتاب** (**المقتبس**) لابن حَيّان القرطبى (ت ٤٦٩هـ)، وهو أعظم مصادر الأندلس قاطبة، رغم ضياع جزء ليس بالقليل منه، لكن الأجزاء التى حُقِّقتْ وصدرت منه، توقفنا على عظمة هذا الكتاب، وعبقرية صاحبه. وقد أفادنى المجلد الذى حققه د.محمود مكى، فبه مادة لا بأس بها، ساعدت فى دراسة المؤرخ ابن الفرضى (ت ٤٠٣هـ) فى (تاريخ علماء الأندلس)، وبه كذلك مادة من كتاب (قضاة قرطبة) لمحمد بن حارث الخشنى (ت ٣٦١هـ)، أثبتت أهميته عند دراسته. ولا شك أن لكليهما أهمية قصوى فى كتابة الشق الخاص بالمؤرخين الأندلسيين فى (الباب الثانى). ويضاف إلى ذلك الدروس والفوائد الجَمَّة، التى استقيناها من عمل المحقق فى دقته، وعمقه، وغزارة عمله، وثراء حواشيه وتعليقاته. وبالنسبة للجزء الخامس من هذا الكتاب، فقد بلغت أهميته المنتهى فى كتابة (الفصل التمهيدى) بجانبيه : (السياسى، والاجتماعى)، فهو مصدر أساسى موثوق به فى فترة حكم الناصر، وسياسته الداخلية، ثم أخبار غزواته ضد نصارى الإسبان بالشمال، خاصة (غزوة الخندق) سنة ٣٢٧هـ.وكذلك الجزء الخاص بجانب من حكم (المستنصر) من سنة ٣٦٠ - ٣٦٤هـ، وتعليق ابن حيان الرائع، وتحليله أسباب الفتنة، وعلاماتها الكبرى مع نهاية القرن الرابع الهجرى بالأندلس.

وكتاب (**بغية الطلب**) لابن العَديم (ت ٦٦٠هـ) : وهو خاص بتاريخ حلب، وبه نصوص نادرة من بقايا مصادر تاريخية مفقودة لابن زولاق. فأفادنا فى كتابة (**الفصلين الثانى، والرابع من الباب الأول**)، خاصة فيما يتصل بتاريخ بنى طولون بالشام. وصاحبه رجل ثقة، ودقيق، وقدم إلى مصر، وذكر لنا أسانيد مروياته.

وكـتاب (**البيان المغرب**) لابن عذارى (توفى فى ق ٧هـ) : وهو خاص بتاريخ المغرب والأندلس، ونقلت عنه مادة غزيرة فى (**الفصل التمهيدى**)، تتصل بالسياسة الداخلية والخارجية للأندلس فى عهدى : الناصر، والمستنصر، وكذلك أخبار (الدولة العامرية).

وكـتاب (**أعمال الأعلام، قسم الأندلس**)، لابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ) : ومؤلفه علاّمة فيما كتب، وقد استمتعت بلغته وأسلوبه البليغ، وهو يصوغ الأحداث التاريخية برشاقة وعمق كبير، فنقلتُ عنه ما يتصل بمبايعة الفقهاء لـ(هشام المؤيَّد) بالخلافة فى الأندلس، ونص ولاية العهد لـ (شنجول)، وأسباب الفتنة العارمة ببلاد الأندلس نهاية ق ٤هـ.

وكـتاب (**اتعاظ الحُنَفا**) للمقريزى (ت ٨٤٥هـ) : وهو كتاب اختص به صاحبه الدولة العبيدية فى مصر والشام بالتأليف. ومؤلفه دقيق فيما يورد، ويعتمد على وثائق مفيدة، وشخصيته حاضرة، فيعلق أحياناً على بعض الأحداث والوقائع. وقد أفادنى كثيراً فى عرض النواحى السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية فى مصر فى العهد العُبيدى. وحوى بعضاً من (كتاب سيرة المعز) لابن زولاق، خاصة أحداث سنة ٣٦٥هـ (التى يبدو أنه نقلها عنه كاملة). فخدم الكتاب فى (الفصل التمهيدى، والفصل الرابع من الباب الأول).

وكـتاب (**النجوم الزاهرة**) لابن تَغْرى بَرْدى (ت ٨٧٤هـ) : وهو موسوعة تاريخية مصرية مفصلة، تبدأ من فتح مصر إلى عصر المؤلف فى القرن التاسع الهجرى. وقد أفادنا بمعلومات قيمة جديدة، لا تجدها بهذا الوضوح والتفصيل فى غيره (خاصة فى كتابة التاريخ السياسى لمصر فى ق ٤هـ). وكذلك أفاد - من خلال تراجمه الكثيرة - فى دراسة الولاة والقضاة فى (الفصل الأول من الباب الثالث) من الكتاب.

وأخيراً، كتاب (**حسن المحاضرة**) للسيوطى (ت ٩١١هـ) : وهو كتاب مهم فى النواحى السياسية، والثقافية فى مصر بما احتواه من أحداث سياسية، وتراجم عديدة لعلماء مصر من محدثين، وفقهاء، ومؤرخين، وغيرهم. وقد كان المصدر الأول الذى أعاننى فى إعادة تشكيل وتكوين كتاب ابن الربيع الجيزى عن (الصحابة)، فأفاد فى (الفصل الأول من الباب الثانى)، وكذلك أفاد فى كتابة (الفصل الأول من الباب الثالث) بما حواه من مادة عن تاريخ مصر، وتراجم ولاتها وقضاتها. وأعتقد أن السيوطى ألّف هذا الكتاب على عجل، فبه عدد غير قليل من الأخطاء التاريخية، ولعل النساخ أسهموا فى الوقوع فى الكثير منها، إلى جانب أن محققه لم يبذل فيه جهداً، يتناسب مع كتاب كهذا، يحتاج إلى مزيد توثيق لنصوصه، فكثرت التحريفات والتصحيفات فيه، إلى جانب عدم خدمة النصوص بالشرح والتعليق الكافيين فى الحواشى.

(٥) **كتب الحضارة والنظم** : وهى المصادر التى تركز على **الأسُس النظرية السياسية، وتطبيقاتها العملية** - مثلاً - فى شريعة الإسلام فى مجال الحكم والإدارة والقضاء. ومن الكتب

المفـيدة فى هذا المجال : (**الأحكام السلطانية، والولايات الدينية**)، للماوَرْدى (ت ٤٥٠هـ)، و(**الأحكـــام السلطانية**) **لأبى يَعْلَى الفَرّاء** (**ت ٤٥٨هـ**). وهما كتابان جيدان يساعدان على تقويم الولاة والقضاة فى (الباب الثالث) من الكتاب. وكذلك يدخل فى مصادر النظم، الكتب الـــتى تناولت النظم الإدارية، ونواحى الخطط والعمران، ويأتى على رأسها : (الانتصار) لابن دُقْماق (ت ٨١٤هـ)، فهو رغم ضياع معظمه، وحاجته الماسّة إلى التحقيق، إلا أن ما بقى منه يشهد بدقة مؤلفه، وبراعته فى مجال (الخِطَط والعمران).

وهـــناك (صـــبح الأعشـــى) للقلقشندى (ت ٨٢١هـ) : وهو مفيد فى كتابة (الفصل التمهـــيدى) فى التعـــريف بالنواحـــى الإدارية والتنظيمية (مثل : نقابة الأشراف، والطالبيين)، وكذلك أفادنا فى النواحى الاجتماعية، حيث ذكر الكثير من مظاهر الاحتفالات والأعياد لدى القبط، والمسلمين فى العصر العبيدى خاصة.

وأخيراً، رائعة المقريزى (**الخِطَط**) : وهو كتاب جامع حافل بكل مفيد سياسياً واقتصادياً، واجتماعـــياً فى (الفصـــل التمهيدى من الكتاب). وبالنسبة للفصل الرابع من الباب الأول من الكـــتاب، فقد احتفظ لنا بقطعة مهمة من (سيرة المادَرَائيين) لابن زولاق، وكذلك احتفظ لنا بقدر كبير من (سيرة المعز) لابن زولاق أيضاً.

(٦) **كـــتب الســـير التاريخـــية** : ويأتى على رأسها : (**أخبار الراضى بالله، والمتقى لله**) **للصُّـــولى** (ت ٣٤٥هـــــ). وتنبع أهمية هذا الكتاب إلى معاصرة مؤلفه للأحداث، ومصاحبته للمتقـــى، فهو يكتب أخباره عن كَثَب، ويعرض لأدق دقائق حياة (الراضى)، وعلله وأمراضه، وبِطانته، وحقيقة صلة الإخشيد به. ومن ثم، أفادنا فى (الفصل التمهيدى).

وكـــتاب (**المجـــالس والمســـايرات**) للقاضى النعمان (ت ٣٦٣هـ) : وهو من المقربين الملازمين للمعز العبيدى، فسجّل لنا حواراته وكلامه، وحِكَمه ومواعظه، ومواقفه. إلا أننا يجب ألا نُسَـــلِّم بكل ما فيه؛ لأنه يكتب عن عصبية وهوى. وعلى كل، فقد أفادنا فى معرفة أفكار المعز وأهدافه، وعلاقات بلاده بالأمويين فى الأندلس، وسر الصدام والتعادى بين الجانبين. وهذا مفيد فى (الفصل التمهيدى).

(٧) **كتب المؤتلف والمختلف، والأسماء والكُنَى، والأنساب** : وهذه النوعية من المصادر قـــد تبدو فى نظر البعض غير ذات أهمية. والحقيقة أنها ذات أهمية قصوى؛ لأن ضبط الأعلام، وتحقيق صحة الأنساب من عمل المؤرخ الحق:

أ - كتاب (**الإكمال**) لابن ماكولا البحّاثة المدقق (ت ٤٧٥هـ) بمجلداته السبعة يُعد من مصادر الكتاب المفيدة؛ وقد حَظِيَ الكتاب بفهرس محتويات فى كل مجلد من مجلداته، وتحقيقات

وتعليقات واسعة فى حواشيه، باستثناء (المجلد السابع)، الذى حققه محقق آخر (هو نايف العباس)، فلم يحظ بدقة وجودة تحقيق المجلدات الستة الأولى. وعلى كل، فقد أفدنا منه بعض الإفادة فى (العلماء الموالى) للكندى (فى الفصل الأول من الباب الثانى). وبالكتاب تراجم العديد من (عمال الخراج، والولاة، والأمراء، وأصحاب الشرطة، وغيرهم)؛ مما ساعد على دراسة (الفصل الأول من الباب الثالث). وإنى لأرجو أن يُعاد طبع الكتاب بعد تنسيقه، وتحسين إخراجه، وعمل فهارس مفصلة له، تيسر على الباحثين استخدامه، وتوقفهم على المعلومة المرادة بسرعة فائقة، نظراً للمنهج المعقد الذى اتبعه ابن ماكولا فى تبويبه. ويستحق هذا المؤرخ دراسة متأنية منهجية لكتابه المذكور.

ب - كتاب **(الأنساب) للسمعانى** : وهو يأتى فى المقام الثانى بعد (الإكمال) لابن ماكولا. وقد عَمّت فائدته فى (البابين : الثانى، والثالث)، وامتاز بتحقيق نصوصه، وضبطه أعلامه بالحروف، وتنظيم فقراته. وترجم للكثير من الشهود، والقضاة فى مصر، وذلك مفيد فى دراسة (الفصل الأول من الباب الثالث). والكتاب - بعد طبعته الجديدة - ينقصه بعض التصويبات، والفهارس التفصيلية، التى تيسر سبل استخدامه.

جـ - كتاب (تبصير المنتبه) لابن حجر : وفيه تتجلى دقة ابن حجر فى الضبط، وتوزعت فوائده على أبواب الكتاب المختلفة.

(٨) **كتب الجغرافية** : وهى كتب تفيد فى التعريف الجغرافى بالأماكن، التى يرد ذكرها فى الأحداث التاريخية، لكنها لا تخلو فى الكثير من الأحيان من مادة تاريخية نادرة مهمة تنفرد بها. وقد أفاد هذا البحث من كتاب **(المسالك والممالك)** للإصطخرى (المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى)، فى الوقوف على وصف الفسطاط فى ذلك القرن، ومظاهر الثراء الاقتصادى بها، وكثرة حلقات العلم بمساجدها، وكثرة المصلين بها، خاصة يوم الجمعة (فأفاد فى رصد الحياة الاقتصادية، والثقافية فى مصر فى ذلك القرن). وهناك كتاب **(صورة الأرض)** لابن حَوْقَل (ت ٣٦٧هـ)، وقد أفاد فى معالجة التمهيد، فيما يخص الأوضاع الاقتصادية بالأندلس فى عهد الناصر، ورواج وازدهار الحياة هناك، ووجود تبادل تجارى مع المشرق. وكذلك تعرض لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية، وطبيعة أهل الأندلس، وأوردنا ذلك فى مكانه من (الفصل التمهيدى). ويعد كتاب **(نزهة المشتاق)** للإدريسى (ت ٥٦٠هـ) من المصادر المفيدة فى التعريف بالبلدان الأندلسية الواردة فى الكتاب، وكذلك فى وصف المعالم العمرانية بالأندلس (كجامع قرطبة مثلاً)، وذلك عند التعرض لذلك فى (التمهيد).

وأخيراً، يأتى كتاب **(معجم البلدان) لياقوت (ت ٦٢٦هـ)** : وهو على رأس المصادر التى تفيد فى التعريف بالأماكن والبلدان بدقة كبيرة. فقد زار مؤلفه معظم البلدان التى وصف

مواقعها فى كتابه، وضبطها بدقة (بالحروف فى معظم الأحايين). وقد اعتمدتُ عليه فى التعريف بـ (معظم ما مَرّ من الأماكن فى الكتاب، سواء كان ذلك فى مصر، أم بالأندلس). ويمتاز على غـيره مـن المصادر الجغرافية بأنه كان يتطرق إلى ذكر أحداث تاريخية وقعت بالمكان الجغرافى الـذى يُعَرّف به، بل يقوم - كذلك - بالترجمة لعدد من أبرز علمائه المنتسبين إليه. ومن هنا، فلا غرو أن نتخذه مصدراً لعدد من الأحداث التاريخية.

وأخيراً، فإن الطبعة الجيدة الجديدة المحققة، التى اعتمدنا عليها، لها فهارس مفصلة، يَسَّرتْ لـنا الكـثير، ونأمـل أن يصدر العاملون فى الحقل الجغرافى كتاباً، يذكرون فيه ما يقابل تلك الأماكن القديمة فى العصر الحديث، كما نرجو أن تراجع بعض الفهارس؛ لتكون أكثر دقة، وأن تكـون الإحالات لها على (أرقام الأجزاء، والصفحات، لا أرقام التراجم)؛ كى يكون العثور على المعلومة أيسر منالاً، فبعض التراجم يمتد عبر صفحات طويلة.

(٩) **كـتب اللغة** : وهذه كان لا بد منها؛ للوقوف على معانى بعض الألفاظ الواردة فى النصوص التاريخية؛ حتى يحسن توجيه النص **وفهمه**، وحسن الاستنباط منه. وقد اعتمدت كثيراً على (**لسان العرب**) لابن منظور (ت ٧١١هـ)، ثم يليه (**القاموس المحيط**) للفيروزابادى (ت ٨١٧هـ)، الذى كنا نجد به بعض المعلومات التاريخية المهمة. واعتمدت - أحياناً قليلة - على (**مختار الصحاح**) للرازى (ت ٦٦٦هـ). وقد نجحت فى الوقوف على المعانى الحقيقية لمعظم ما جـاءنى مـن ألفـاظ، وعبارات وردت فى المصادر. وجدير بالذكر، أننى كنتُ أستعين بأحد المعـاجم الحديـثة (**المعجم الوسيط**) كثيراً؛ لِمَا يمتاز به من وضوح وشمول، وسهولة ويسر فى التناول، فيكون كالضوء الذى يرشدنى للبحث فى المصادر المعجمية الكبرى. وقد امتاز باحتوائه على كلمات محدثة، ومفاهيم جديدة للألفاظ، نفتقدها فى المعاجم القديمة.

(١٠) **كـتب الحديث النبوى الشريف** : وهذه استعنتُ ببعضها - قدر ما تيسر لى - فى معرفة مظان ورود عدد من الأحاديث النبوية الشريفة بالكتاب (خاصة التمهيد، والفصل الأول مـن الباب الثانى). فاستخدمتُ فى ذلك التوثيق عدداً من هذه المصادر، مثل: (صحيح الإمام البخارى، ومسلم، ومسند أحمد، ومستدرك الحاكم، والمعجم الكبير للطبرانى، وغيرها).

ثالثاً - مراجع :

استعان الباحث بمطالعة العديد من الكتب الحديثة، التى لها نظرات جديدة مفيدة، ووجهة نظر معتبرة فى موضوع الكتاب، منها على سبيل المثال:

١ - (**مصـر فى عصر الإخشيديين**)، **للدكتورة سيدة كاشف** : وهى دراسة رائدة علمية مـوثقة فى ذلـك المجـال، درست العصر من مختلف زواياه، وأفادتنا إفادات طيبة فى (التمهيد)،

ومناقشـــة عصر الإخشيد، ودراسة سيرة ابن زولاق عن (الإخشيد) فى (الفصل الثالث من الباب الأول). ورغـــم مضـــى حوالى نصف قرن على تأليفها هذا الكتاب، فلا يزال الباحثون يعتمدون على هذا المؤلَّف حتى الآن، رغم وجود بعض هَنات يسيرة هنا أو هناك، نشير إليها فى مكانها من الكتاب.

٢ - (**تاريخ الدولة الفاطمية**) **د.حسن إبراهيم حسن** : وقد أفادنا هذا المؤلَّف فى دراسة علاقة العبيديين بالروم فى عهد العزيز (وذلك فى الفصل التمهيدى).

٣ - (**الأدب الأندلســـى**)، **للدكتور أحمد هيكل** : وقد أفادنا هذا الكتاب القيّم فى كتابة (الحياة الثقافية والاجتماعية بالأندلس) فى (الفصل التمهيدى).

٤ - (**معالم تاريخ المغرب والأندلس**)، **للدكتور حسين مؤنس** : وهو كتاب فريد فى بابه، اســـتفدت مـــنه خلاصة علمية مركزة عن رأيه فى عصر الناصر، والمستنصر، والمنصور (المزايا، والعيوب)، وكذلك تحليله للفتنة فى نهاية عهد العامريين. (وأفادنى ذلك فى الفصل التمهيدى).

٥ - (**دولـــة الإسلام فى الأندلس**)، للأستاذ محمد عبد الله عنان، وكتاب (**العلاقات بين الأنـــدلس الإسلامية، وإسبانيا النصرانية**) للدكتور رجب عبد الحليم. وقد استفدت منهما فى التركيز على العلاقات مع نصارى الشمال (وذلك فى الفصل التمهيدى).

٦ - وهناك مجموعة من المراجع جمعت مؤرخى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى، وألقـــت علـــيهم الأضواء، ترجمة، ومؤلفات، فساعدنى ذلك على دراستهم فى مختلف أبواب الكـــتاب. ومن ذلك : (**تاريخ الأدب العربى**) لبروكلمان، و(**تاريخ التراث العربى**) لسزكين، و(**التاريخ العربى والمؤرخون**) لشاكر مصطفى.

٧ - (**القـــبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة**)، للدكتور البرى : وقد أفـــادتنى هـــذه الدراســـة القيمة فى تحليل، ومناقشة بعض القضايا المثارة فى كتابَى الكندى : (**الولاة**)، و(**القضاة**)، وذلك فى (الفصل الأول من الباب الثالث).

٨ - مجموعة من الكتب الطيبة المفيدة فى دراسة النظام الإدارى، والقضائى فى مصر : على رأسها : (**الشرطة فى مصر الإسلامية**)، لأحمد عبد السلام ناصف، وكتاب (**الإدارة المحلية فى مصر فى عصر الولاة**) للدكتورة صفاء حافظ، وكتاب (**القضاء فى مصر الإسلامية من الفتح الإســـلامى حتى قيام** الدولة الطولونية) د. عبد المجيد بدوى. ولا شك أن هاتيك المؤلفات كان لها دور طيب فى دراسة (الفصل الأول من الباب الثالث من الكتاب).

٩ - كـــتب مفـــيدة فى معالجة (النظام القضائى بالأندلس) : منها : (**تاريخ القضاء فى الأندلس من الفتح الإسلامى إلى نهاية ق ٥هـــ**)، للدكتور محمد عبد الوهاب خلاف. وكتاب

(نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ الإسلامى) لظافر القاسمى. وهى مفيدة فى كتابة (الباب الثالث).

رابعاً – دوريات :

هناك مجموعة من الأبحاث والمقالات أفادت الكتاب، منها : بحث الدكتور حسن علي، عن **(أبعاد النشاط السياسى لحملات الفاطميين على مصر)**. وهو بحث مفصل يعالج بدقة وإسهاب وتحليل طيب هذه الحملات. وقد أفادنى كثيراً فى معالجة الجانب السياسى فى مصر (فى الفصل التمهيدى). وكذلك ساعدنى فى تفهم سياسة العبيديين فى مصر بحث د.فهمى عبد الجليل عن **(أهل الذمة والإدارة فى العهد الفاطمى)**.

وللدكتور محمود مكى بحث عن **(التشيع فى الأندلس)**، استفدت منه فى دراسة (الفصل التمهيدى)، فى الجزئية الخاصة بعلاقات العبيديين بالأمويين فى الأندلس.

وبخصوص الأبحاث المتصلة بعرض التراث التاريخى الأندلسى، والتعريف به، وهو ما أفادنى فى (البابين : الثانى، والثالث من الكتاب)، طالعت بحث الدكتور العبادى عن **(التراث العربى الإسلامى بالأندلس)**.

خامساً – رسائل جامعية :

طالع الباحث عدداً كبيراً من الرسائل، التى أفادته فى كتابه، ويسرت له سبيل البحث فيه، منها :

١ – **(التخطيط الإعلامى للدعوة الفاطمية فى مصر)** للباحث شعبان أبى اليزيد، بكلية اللغة العربية بالأزهر، وهى رسالة نجح فيها صاحبها فى الربط بين مصادر التاريخ الإسلامى، ومفاهيم الإعلام الحديثة، فطَوّع المادة التاريخية للكشف عن دعايات العبيديين، وتخطيطهم الذكى، وإجادتهم إطلاق الشائعات، وسياسة جوهر الذكية فى بنود أمانه الذى منحه المصريين، فتمكن من إخضاعهم له بسهولة ويسر. وقد زادتنى هذه الرسالة معرفة بطبيعة سياسة العبيديين فى مصر.

٢ – رسالة ماجستير : **(أحمد بن يوسف المصرى، وكتابه : المكافأة)** للباحث سيد محمد قطب، بكلية الألسن/جامعة عين شمس. كتبها صاحبها ببراعة واقتدار، لفت نظرى إلى الجديد فى الترجمة لأحمد بن يوسف، وعرّفنى نواحى ثقافته المختلفة، وطبيعة عصره وتفكيره، وطبيعة شخصيته. وكل ذلك كان له أثر طيب فيما كتبته عنه، وعن دراسة مؤلفه عن (سيرة ابن طولون) فى (الفصلين : الأول، والثانى من الباب الأول).

٣ – رسالة دكتوراه : **(الحياة العلمية فى قرطبة على عهد الناصر، والمستنصر)** للباحث مصطفى محمد إبراهيم، بكلية اللغة العربية – جامعة الأزهر. وقد أفادتنى تلك الدراسة الجديدة فى الإلمام بالحياة الثقافية فى الأندلس فى (الفصل التمهيدى). وكذلك تعرفت منجزات مؤرخى

الأنـــدلس فى ذلك العهد الزاهر، وأفادتنى فى دراستى المفصلة التحليلية المنهجية لمؤلفات هؤلاء المؤرخين فى (البابين : الثانى، والثالث) من هذا الكتاب.

سادساً وأخيراً – مراجع أجنبية :

لم تســـنح للباحث الفرصة كافية لمطالعة قدر من المراجع الأجنبية؛ نظراً لضخامة وكثافة المراجع العربية، لكن ذلك لم يمنع من مطالعة بعض الكتابـــات، التى تطرقت إلى هذا الموضوع المنهجـــى، الذى يحتاج إلى مراجعة المصادر العربية أكثر من مطالعة ما كُتب بأقلام أجنبية. ومما أفاد فى هذا الموضوع دراسة (بونس بويجس) بالإسبانية عن عدد من مؤرخى الأندلس الداخلين فى الدراســـة، مثل : ابن الفرضى، والخشنى، وغيرهما. وكذلك ما كتبه تورى فى (مقدمة فتوح مصـــر لابن عبد الحكم)، وجست فى مقدمة (الولاة، والقضاة للكندى) من دراسة منهجية فى تحلـــيل المـــوارد، وكذلك ما ذكر عن ابن الربيع ومؤلفاته، وما ورد من أسماء مؤلفات الكندى المفقودة الأخرى، ومحاولة بيان ما تدور حوله من موضوعات.

وهكـــذا، سطّر قلمى هذه العجالة السريعة، التى كتبتُها – بإيجاز – عن عدد من مصادر ومراجع الكتاب، وإيجابيات بعضها وسلبياتها، ومدى إفادتنا منها فى أبواب الكتاب المختلفة.

* * * *

القسم الأول

الدراسة التمهيدية لمناهج المؤرخين

(مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى)

ويشمل هذا القسم:

أولاً - الأوضاع السياسية فى مصر والأندلس .

ثانياً - الأوضاع الاقتصادية فى مصر والأندلس .

ثالثاً - الأوضاع الاجتماعية فى مصر والأندلس .

رابعاً - الأوضاع الثقافية فى مصر والأندلس .

مدخل

نحاول - فى صدر دراستنا عن: (التاريخ والمؤرخين فى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى) - أن نعطى صورة واضحة شاملة، بأسلوب مركز، لمصر والأندلس فى القرن المشار إليه سلفاً. ويأتى ذلك من خلال رسم الملامح العامة، وبيان الخطوط العريضة للأوضاع السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية فى كلا الإقليمين موضع الدراسة.

وغنى عن البيان أن هذا التمهيد لا يُقصد لذاته قصداً، وإنما هو مجرد وسيلة فَعَّالة لخدمة الموضوع الأساسى، بمعنى: أننا ما دمنا ندرس ونحلل المصادر التاريخية، التى أبدعتها قرائح مؤرخى البلدَيْن، فلا بد من إلمامة - تُقَدَّر بقَدْرها - بالظروف السياسية، التى نشأ وعاش - فى ظلها - هؤلاء المؤرخون. ولما كانت السياسة موجِّهة للاقتصاد فى ذلك العصر - وفى كل عصر - رأينا الإبانة عن أهم الملامح والمعالم الاقتصادية المؤثرة فى كلتا المنطقتين. ومعلوم أن مردود الأوضاع السياسية والاقتصادية ينعكس - سلباً وإيجاباً - على أفراد المجتمع، ويؤثر فى تشكيل أدَقّ دقائقه، وأخَصّ خصوصياته، من طبائع وسلوكيات، وطرائق للتفكير، وعادات وتقاليد، ومطاعم ومشارب، وأعياد وأساليب احتفالات، إلى غير ذلك من الأمور المهمة، التى حَدَتْ بنا لبيان مجمل الأحوال الاجتماعية.

وأخيراً، فإن الظروف السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية جميعها تصب - فى النهاية - وتؤثر فى تشكيل الأوضاع الثقافية لأى مجتمع من المجتمعات. وإذا كان المؤرخون فى طليعة المثقفين المتأثرين بكل هاتيك الظروف السابقة، أيقنّا ضرورة التعرض لها؛ لأجل إخراج دراسة محكمة عن التاريخ والمؤرخين فى ذلك العصر، فالمؤرخ يراقب - عن كثب، وعلى بصيرة - الأحداث التى يعاصرها ويتأثر بها حتماً، سواء عند التأريخ لها، أم الكتابة عما سبقها. ولما كانت كتابات المؤرخين هى خلاصة تجاربهم وأفكارهم وثقافاتهم فى هذه الحياة؛ فقد رأيت التعرض السريع للجو الثقافى العام فى كل من: مصر، والأندلس؛ كى أبرز صورة واقعية للعلم وللعلماء عامة (وللمؤرخين خاصة)، تأثرت - ولا شك - بمعطيات السياسة، ومتجهات الاقتصاد، وخصائص المجتمع، فأفرزت لنا ما نعتز به من كتابات تاريخية فى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى، مهمة هذه الدراسة أن تجلى جوانب هذا التأثر من خلال تراجم المؤرخين، ودراسة مؤلفاتهم بواسطة بيان محتوياتها، ومصادر معلوماتها، ومناهج عرضها، ونقد وتقويم لبعض أحداثها، كل ذلك فى إطار منهجى مقارن يضع الكتابات التاريخية المصرية والأندلسية فى الميزان.

أولاً – الأوضاع السياسية فى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى

(٣٠٠- ٣٩٩هـ / ٩١٢- ١٠٠٨م)

أ – الأوضاع السياسية فى مصر:

بعد سقوط الدولة الطولونية على يد القائد العباسى (محمد بن سليمان) فى مستهل ربيع الأول سنة ٢٩٢هـ[١]، عادت مصر ثانية إلى عهد التبعية للخلافة العباسية. وورد كتاب الخليفة العباسى المكتفى (٢٨٩- ٢٩٥هـ/ ٩٠٢- ٩٠٨م) بولاية الحسين بن أحمد على الخراج، وجعل إليه النظر فى أمر بنى طولون وضياعهم، ثم ورد منه كتاب آخر **بولاية عيسى النُّوشَرِى**[٢] على مصر[٣].

تسلم الوالى الجديد عمله فى مصر لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٩٢هـ[٤]. وفى عهده وقعت أحداث ابن الخليج[٥]، ذلك القائد المصرى الذى تخلف عن جيش محمد بن سليمان عند مغادرته مصر، واستمال إليه بعض الجند وغيرهم حتى كثرت جموعه، يبغى الاستقلال بالبلاد عن سيطرة الخلافة. ولم يستطع الوالى النوشرى مقاومة ابن الخليج؛ الذى

---

(١) الكندى: كتاب الولاة (ط.جست) ص٢٤٧.

(٢) له ترجمة فى (سير أعلام النبلاء)، للذهبى ٤٦/٤١ (ط.مؤسسة الرسالة – بيروت)، وأخرى ضافية فى: (النجوم الزاهرة)، لابن تغرى بردى (ط.دار الكتب العلمية – بيروت) ج٣ ص١٦٢-١٧٣. وذكر السمعانى أن هذا اللقب منسوب إلى (نُوشَر)؛ ولم يَرِد تعريف به (الأنساب، ط.دار الكتب العلمية – بيروت) ٥٣٦/٥.

(٣) الكندى: كتاب الولاة ص٢٥٨.

(٤) المصدر السابق: ص٢٥٨.

(٥) لمزيد من التفاصيل يراجع: تاريخ الطبرى (ط.دار المعارف): ج١٠ ص١١٩-١٢١، ١٢٨-١٢٩، وصلة تاريخ الطبرى، لعَريب بن سعد القرطبى (ضمن ذيول تاريخ الطبرى، ج١١؛ ط.دار المعارف) ص٢٠-٢١، و(الكامل) لابن الأثير (ط.دار الكتب العلمية – بيروت)، ج٦ ص٤٢٨، والعبر للذهبى ٤٢٢/١-٤٢٣، و(تاريخ الإسلام) للذهبى ج٢٢ ص١٢، ١٤، والبداية والنهاية، لابن كثير (ط.دار الريان للتراث) جـ١١ صـ١٠٧، وتاريخ ابن خلدون ٤٤٤/٣ (ط.دار الفكر)، و(النجوم الزاهرة) لابن تغرى بردى جـ٣ صـ١٦٤-١٦٩، ولين بول: سيرة القاهرة (مترجَم) صـ٩٥، و(مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين)، للدكتور حسن محمود، ود.سيدة كاشف: صـ١٢٨-١٢٩، و(مصر العربية الإسلامية)، للدكتور الخربوطلى صـ٨٦، والعلاقات بين الشام ومصر، للدكتور زبود صـ١٧٦-١٧٧، والشرطة فى مصر الإسلامية، لأحمد ناصف ١٨٦، ٢٢١، ورسالة دكتوراه: (التيارات المذهبية والنزعات التحررية) لحسن عبد الحميد جبر صـ١٨٦-١٩٢.

ألحـــق الهزيمة ببعض القواد؛ مما جعل الخلافة تُهْرَع إلى إرسال جيش بقيادة فاتك مولى المعتضد، ومعــه القائــد بدر الحَمَامي[١]. وازداد قلق الخلافة، حتى إن الخليفة نفسه أعد مضاربه، يبغى الخروج على رأس جيش آخر؛ للقضاء على هذا الثائر، إلا أن الأخبار توافدت بهزيمة ابن الخليج وأسْــره لســت خلــون من رجب سنة ٢٩٣هـــ[٢]، ثم أُمر به وحُمل إلى بغداد ومعه وجوه أصـــحابه، فطـــيف بهـــم هـــناك؛ ثم قُتل شر قِتْلَة. ومرت سنوات حكم هذا الوالى، يسودها الاضطراب وعدم الاستقرار، إلى أن وافته المَنِيَّة لأربع بقين من شعبان سنة ٢٩٧هـــ.

ولى **أبو منصور تكين**[٣] حكم مصر لإحدى عشرة خلت من شـــوال سنة ٢٩٧هـــ من قِبَل الخليفة العباسى المُقتدر بالله (٢٩٥هـــ- ٣٢٠ / ٩٠٨- ٩٣٢م)، وصدرت إليه الأوامر بالجد فى أمر المغرب والاحتراس من العُبيديين هناك؛ مما دفعه إلى إرسال جيش كثيف بقيادة (أحمـــد بن صالح)، الذى نجح فى فرض سيطرته على برقة، وجَبَى منها الأموال، وسار حتى سُرْت[٤]، لكنه واجه جيشاً عبيدياً بقيادة (حَباسة بن يوسف الكُتامىّ)[٥]. و لم يستطعْ أى من القائدين فرض إرادته على الآخر، فلجأ حباسة إلى إضعاف غريمه غريمه بإخباره عن عزم الوالى تكـــين علـــى عزله عن برقة؛ مما جعله يعود القَهْقَرَى إلى مصر، ويترك المجال رحبًا لخَصْمه، يستولى عليه أنَّى شاء[٦]!

اضـــطر تكـــين إلى إرسال جيش آخر إلى برقة بقيادة خير المنصورى، وعبد العزيز بن كُلـــيب، لكنهما تنازعا، ففَشلا، وذهبت ريحهما، فهزمهما جيش حباسة، فارتدَّا إلى مصر، تاركيْن برقة لعدوهما[٧].

أحوال مصر السياسية من (سنة ٣٠٠- ٣٢٣هـــ/٩١٢- ٩٣٥م):

بعـــد سقوط برقة فى أيدى العبيديين كتب والى مصر تكين كتاباً إلى صاحب إفريقيَّة، وجعله على لسان أمير المؤمنين الخليفة المقتدر بالله العباسى، يدعوه فيه إلى الطاعة والتمسك بها، وكان ذلك

---

(١) نسبة إلى الحمام الذى يُقتنى (الأنساب ٢/٢٥٥).

(٢) الكندى: الولاة صــ٢٦٧.

(٣) ترجم له ابن تَغْرى بَرْدى فى (النجوم الزاهرة) حــ٣ صــ١٩١-١٩٤.

(٤) مدينة على ساحل البحر الرومى (الأبيض) بين برقة وطرابلس، لأهلها نخل، وبساتين، وآبار عذبة، وهم من أسوأ الناس معاملة، لا يبيعون ولا يبتاعون إلا بسعر قد اتفق جميعهم عليه، وهم بذلك يختلفون عن أهل طرابلس، ذوى الأخلاق الحسنة، والمعاملة الجيدة. (معجم البلدان، لياقوت، ط.دار الكتب العلمية) ج٣ ص٢٣٢-٣٣.

(٥) ورد فى (الأنساب)، للسمعانى فى مادة: (الحَباسىّ) ج٢ ص١٦٣: أن هذه النسبة إلى (حَباسة) بفتح الحاء، وهو قائد الجيش، الذى وافى من الغرب بطلب مصر، أيام المقتدر بالله.

(٦) الكندى: الولاة ص٢٦٨، والمقريزى: المقفّى (ط.دار الغرب الإسلامى) ج٢ ص٦٠١.

(٧) المصدران السابقان: الجزء نفسه، والصفحة نفسها.

سنة ٣٠٠هـ. وقد حرص تكين – قبل إنفاذ هذه الرسالة – على جمع وجوه أهل مصر، وقراءتها عليهم[١]. ولى على هذا النص الفريد، الذى يكاد ينفرد بالسبق إليه المؤرخ المصرى الكندى، تعليق يسير، وهو أنه أراد بهذا الكتاب، الذى كان على يقين من تجاهل العبيديين له، أن يُعَرِّيَهم أمام المنخدعين بهم فى مصر، ويكشف بغيهم وخروجهم على الخلافة العباسية[٢]، فيقف الناس على حقيقة هؤلاء، فإذا غزوا مصر، كان الشعب وممثلوه على بيِّنة من أمرهم، فيتم التلاحم بينهم وبين الجيش لمطاردة الغزاة.

كانت هزيمة جيش تكين فى برقة[٣]، ثم وَقْع كتابه المشار إليه سلفاً إلى العبيديين من أكبر الدواعى، التى حفزت جيوشهم للمضى قدمًا تجاه مصر للاستيلاء عليها. ففى يوم السبت لثمان خلون من شهر المحرم سنة ٣٠٢هـ، قدمت جيوش حباسة بن يوسف من برقة إلى الإسكندرية، واستنجد تكين بجيوش الخلافة، فأغاثته بجيش عليه القاسم بن سيما، ثم تبعه دخول الحسين بن أحمد المادَرائى ومحمد بن على بن أحمد المادَرانى؛ لتدبير شئون مصر الإدارية والمالية أثناء تلك الظروف العصيبة. كما وفد إلى مصر عدد من القادة الكبار، مثل: أحمد بن كَيْغَلَغ، وغيره. وخرج عامة أهل مصر وخاصتهم على قلب رجل واحد، يصدّون اعتداءات العبيديين، وأبلوا فى قتالهم بلاء حسناً، حلّت على إثره الهزيمة الفادحة بجيوش العُبيديين، حتى اضطر حباسة إلى الانسحاب لإفريقية، حيث قتله صاحبها؛ نتيجة فشله الذريع فى تلك الموقعة[٤].

---

(١) الكندى: الولاة ص٢٦٨-٢٦٩، والمقريزى: المقفى – نقلاً عن الكندى دون أن يذكر، فيما أرى – ج٢ ص٦٠١. وترى د.سيدة كاشف أن ذلك من قبيل الشورى (مصر فى عصر الإخشيديين) ص٢٦، و(مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين – القسم الثانى) ص١٣٠. الحق أنها لو كانت شورى، لأحضر كبار القوم قبل أن يكتب الكتاب، وكذلك قبل استشارة الخلافة، لكن الرواية تفيد أنه أحضرهم بعد إبرام الأمر وانقضائه، فهو لا يبغى منهم رأياً ولا مشورة، وإنما يحيطهم به علماً.

(٢) رسالة دكتوراه حسن عبد الحميد جبر: (التيارات المذهبية، والنزعات التحررية فى مصر من منتصف القرن الثالث الهجرى إلى منتصف القرن الرابع الهجرى) ص٢١٠.

(٣) د.سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين ص٢٦، ود.عبد الله جمال الدين: الدولة الفاطمية: قيامها ببلاد المغرب وانتقالها إلى مصر ص٩٥.

(٤) تاريخ الطبرى ١٤٩/١٠-١٥٠، وصلته ص٥١-٥٢، والولاة للكندى ص٢٦٨-٢٧٣، وتكملة تاريخ الطبرى، للهمذانى (ط.دار المعارف، ضمن ذيول تاريخ الطبرى، ج١١) ص٢١٧، وسير أعلام النبلاء، للذهبى ٢٢٣/١٤-٢٢٤، وتاريخ الإسلام، للذهبى (ط.دار الكتاب العربى – بيروت، تحقيق:د.عمر عبد السلام تدمرى): ج٢٣ ص١٦، واتعاظ الحنفا للمقريزى (ط.١٩٤٨، تحقيق: د.الشيال) ج١ ص٩٩-١٠٠، والمُقفّى للمقريزى ج٣ ص١٥٢، وبحث الدكتور حسن على حسن بعنوان: (أبعاد النشاط السياسى والعسكرى فى استيلاء الفاطميين على مصر)، المنشور فى مجلة: (ندوة التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم – المجلد الرابع ١٩٨٤م) ص٣٢٢-٣٣٦.

قدم مؤنس بجيوشه من قبل الخلافة إلى مصر، فقام بعزل الوالى تكين عن مصر(١)، وأقام بالفسطاط يُصرِّف شئون البلاد، مطلق اليد فى تصريف أمورها،حتى قدم كتاب المقتدر بتولية **ذكا الأعور**(٢)، فدخلها يوم السبت لاثنتى عشرة ليلة خلت من صفر سنة ٣٠٣هـ. وخرج مؤنس عن مصر فى ربيع الآخر من العام نفسه يقود جيوشه راجعاً إلى دار الخلافة(٣)، بعد استقرار الأحوال فى مصر.

بدأ الوالى ذكا عهده باتخاذ عدد من التدابير الوقائية؛ تحسباً لمجئ جيوش المهدى إلى مصر ثانية. وقد قام - فى هذا الصدد - بالقبض على عدد ممن يكاتبون المهدى، ويوافونه بأخبار مصر، ويُطلعونه على أسرارها ونقاط الضعف بها، وسجن كثيراً منهم، ونَكَّل بهم بقطع أيديهم وأرجلهم؛ حتى يرتدع الآخرون. وبعد ذلك اهتم اهتماماً خاصًّا بالإسكندرية، باعتبارها المكان الذى يَلِج منه الأعداء سريعاً إلى داخل مصر، ولا بد أنه أقام التحصينات الدفاعية اللازمة، كما عمرها بالجند والمقاتلة، ورتَّب لها القواد، يتفقدون شئونها بين الحين والآخر، بقيادة ابنه مُظَفَّر، الذى ولاَّه المدينة نفسها(٤).

وفى شهر صفر سنة ٣٠٧هـ، قدمت جيوش القائم ولىّ عهد المهدى إلى الإسكندرية، ويبدو أنه دخل بقواته على حين غفلة من جندها وأهلها؛ مؤملاً الدخول سريعاً إلى الفسطاط. وشاع الرعب والفزع بين الناس ففروا إلى الشام برًّا وبحراً، وتعرض أكثر الفارين للهلاك. وأراد الوالى ذكا الخروج بجنده إلى الجيزة؛ استعداداً للقاء الأعداء، لكن الجند أبوا الانصياع لأوامره، وسألوه العطاء. ويبدو أنه نجح فى إرضاء الجند بعد جَهْد جَهيد، وصرف لهم الحسين بن أحمد المادَرائى العطاء. وقام ذكا ببناء حصن على الجسر الغربى بالجيزة، وحفر خندقاً يحيط بالجيزة وبعسكره داخلها؛ حرصاً على الدفاع عنها، لكن المرض داهم الوالى، فتخطَّفته يد الرَّدَى بغتة، وهو مقيم بين جنده فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٠٧هـ(٥).

نظراً لخبرة وكفاءة **تكين** الحربية فى مواجهة جيوش المغاربة، أعادته الخلافة إلى ولاية مصر ثانية؛ فكان عند حسن الظن به، فأتم استعداداته البرية بحفر خندق ثان حول الجيزة. ويبدو أن قيادة الجيش

---

(١) وذكرت د.سيدة كاشف أن سبب عزل تكين غير معلوم، والراجح أن كبار القواد المقربين من الخليفة كان لهم سلطان واسع، وفى استطاعتهم عزل الولاة الذين يفدون لنجدتهم. (مصر فى عصر الإخشيديين ص٣٠).

(٢) له ترجمة فى (النجوم الزاهرة) ج٣ ص٢٠٧-٢٠٨. هكذا ضُبط بالفتح فى (الولاة) ص٢٧٣. وذكر أنه بالضم، وأن اسمه بالإغريقية ducas، وأنه رومى الأصل:

lane – Poole: Ahistory of Egypt in the middle ages ,P. 80

(٣) الكندى: الولاة ص٢٧٣.

(٤) الكندى: الولاة ص٢٧٤، والمقريزى: الخطط ١/٣٢٨.

(٥) الكندى: الولاة ص٢٧٥-٢٧٦.

العبيدى فَطِنَتْ إلى صعوبة الغزو البرى، ففاجأت جيش تكين بأسطول بحرى، يحاول غزو مصر من طريق البحر بقيادة سليمان الخادم، فأمدت الخلافة مصر بأسطول من طَرَسُوس عليه (ثَمْل الخادم)[1]، استطاع الإجهاز على أسطول المغاربة، وساعدهم رياح هُوج عاتية تجاه الأعداء، أغرقت مراكبهم، فسقط جندهم بين أسير وقتيل.ولما كان للعبيديين قوات برية بالفيوم وغيرها،فقد تكفَّلتْ بها جيوش الخلافة التى أقبلت مسرعة إلى مصر بقيادة مؤنس الخادم، الذى طهَّر البلاد منهم،ففروا أمامه لا يَلْوُون على شئ إلى برقة، بينما عاد مؤنس وتكين بقواهما إلى الجيزة فى ربيع الأول سنة ٣٠٩هـ[2].ولم يرحل مؤنس عن مصر- كعادته- إلا بعد أن أبْعَدَ نفوذ تكين عن مصر بعزله عن ولايتها، وصرفه إلى الشام[3].

ولى مصر **هلال بن بدر** فى ربيع الآخر سنة ٣٠٩هـ، فلم يستطع السيطرة على الجند الرجَّالة (المشاة) والبحريين، الذين كان يحرضهم محمد بن طاهر صاحب الشرطة؛ للمطالبة بأرزاقهم. وقام بالقبض على صاحب الشرطة وأخيه، وأمر بقتلهما، لكن الأحوال ازدادت سوءاً عبَّر عنه الكندى بقوله: "وكانت مصر فى أيام هلال من النهب والقتل والفساد على نهاية "[4].

حاول الخليفة المقتدر إصلاح الخلل الواقع فى ولاية مصر، فعزل ابن بدر، وجعل مكانه (أحمد بن كيغلغ)[5]، وذلك أواخر شهر رجب سنة ٣١١هـ. وقد بدأ عهده باتخاذ إجراءات عقابية مشددة ضد الجند المشاغبين، ولكن شدته جوبهت بثورة عنيفة، ألقت به خارج الفسطاط، فلم يجرؤ على دخولها؛ مما أدى إلى عزله[6]، وتولية تكين مكانه شئون مصر للمرة

---

(١) ترجم له المقريزى فى (المقفى): ج٢ ص٦٤٦-٦٤٧، وذكر أنه توفى سنة ٣١١هـ.

(٢) صلة تاريخ الطبرى: ص٧٣، ٧٥، ٧٨، والولاة ص٢٧٥-٢٧٧، وتكملة تاريخ الطبرى ص٢١٧، ونهاية الأرب للنويرى ٤١/٢٨، وتاريخ ابن الوردى ٣٥٣/١، ومرآة الجنان، لليافعى ٢٤٦/٢، واتعاظ الحنفا (ط.١٩٤٨م، تحقق: د.الشيال) ج١ ص١٠٣-١٠٤، والنجوم الزاهرة ٢١٩/٣-٢٢٠، والقيروان ودورها فى الحضارة الإسلامية، للدكتور محمد زيتون ص١٤٠، وبحث الدكتور حسن على حسن: (أبعاد النشاط السياسى والعسكرى فى استيلاء الفاطميين على مصر)، نشر فى مجلة (ندوة التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم – المجلد الرابع ١٩٨٤م) ص٣٣٦-٣٤٤.

(٣) الكندى: الولاة ص٢٧٨. وعلقت د.سيدة كاشف على هذا العزل بأنها ترجح أن مؤنساً كان يحقد على تكين؛ لأنه محبوب من أهل مصر. وأقول: إن ابن تغرى بردى فى (النجوم) ج٣ ص٢٢٥، زاد هذا الأمر توضيحاً، وذكر اعتراض أهل مصر على عزل تكين، وإلحاح أعيانها على مؤنس أن يعيده؛ حتى لا تحدث فتنة، فاضطر لإعادته أربعة أيام فقط، حتى رتب مؤنس أموره، وأقنع القواد بعزله، ثم عزله، وأخرجه من مصر؛ خوف الفتنة. وقد نقلت د.سيدة كاشف ذلك عن المصدر المذكور، وذكرته فى: (مصر فى عصر الإخشيديين) ص٣٤.

(٤) الولاة: ص٢٧٩. وترجم له كل من: المقريزى فى (الخطط): ٣٢٨/١، وابن تغرى بردى فى (النجوم): ٢٢٦/٣-٢٢٧.

(٥) ترجم له المقريزى فى (المقفى): ج١ ص٥٦٩-٥٧٢، وأشار إلى شاعريته، وأورد له بعض الأشعار، وذكر وفاته سنة ٣٣٠هـ.

(٦) الكندى: الولاة ص٢٨٠-٢٨١. ابن تغرى بردى: النجوم ٢٣٢/٣.

الثالثة، ففرض هيبته على الجند، وأسقط الرجالة الثائرين منهم، ونفاهم خارج الفسطاط؛ مما أدى إلى هدوء الأحوال، واستقرار وأمن الناس، فأتوا إليه - وقد اكتسب حبهم واحترامهم - يقدّمون له أسمى آيات الشكر والعرفان، بعد أن خلصهم من فساد الجند ونهبهم وفجورهم. وظلت مصر تنعم في ظل الأمير تكين، حتى لَبّى نداء ربه في السادس عشر من ربيع الأول سنة ٣٢١هـ[١] مُخَلِّفاً وراءه أثراً طيباً؛ نتيجة حسن السياسة، والدُّرْبَة بالأمور، ومعرفة الحروب[٢].

تدهورت شئون مصر بعد وفاة تكين، فحفلت بصراع مرير بين **محمد بن تكين** وصاحب الخراج **محمد بن علي المادَرائي**، وصراعات طوائف الجند المشارقة والمغاربة[٣]، وتخبّطت الخلافة في تولية وعزل الولاة في مصر، لدرجة أنها ولّت أحد ولاتها - وهو مقيم بدمشق - على مصر، فلم يستطع دخولها؛ لكثرة الاضطرابات بها، وظل على ذلك مدة اثنين وثلاثين يوماً، ثم عُزِل عنها، وهو لم يدخلها بعد[٤].

ويمكن تلخيص أهم سمات تلك الفترة فيما يلي:

١- شيوع الاضطرابات وعدم الاستقرار الداخلي؛نتيجة صراع الجند والرعية[٥] من جهة،وصراعات وانقسامات طوائف الجند من جهة أخرى.والشعب المصري يعاني الأَمَرَّيْن من ذلك الفساد، إضافة إلى معاناته من ولاة عاجزين، وعمال خراج مستبدين، وجيوش هائلة متوالية، تزاحمهم في ديارهم، وتضيّق عليهم في مآكلهم ومشاربهم، يقدم بها مؤنس الخادم، وقواد العباسيين، في أثناء حملات المغاربة وفي أعقابها. وأثّر كثرة تغيير الولاة بَلْه[٦] الصالحون الأكْفاء منهم (مثل: تكين) تأثيراً سيئاً للغاية في حياة الناس، فأبدلهم بالأمن خوفاً، وأيقنوا معه أن الخلافة لا يحكمها في التولية والعزل إلا مصالحها الخاصة، دون اعتبار لمصلحة الشعب، ودون إدراك نمو

---

(١) الكندي: الولاة ص٢٨٠-٢٨١. وقد علل ابن تغري بردي إعادة تكين لولاية مصر للمرة الثالثة سنة ٣١١هـ، بأن ذلك كان حرصاً من الخلافة على دفع المخاطر المحتملة للعبيديين على مصر، وتكين - بالطبع - أجدر من يلي هذا الأمر بحكم نجاحاته السابقة.(النجوم الزاهرة ٣/٢٣٢-٢٣٣).

(٢) ابن تغري بردي: (النجوم الزاهرة) ج٣ ص٢٣٧.

(٣) تفاصيل هذه المواجهات أوردها الكندي في (الولاة) ص٢٨٢-٢٨٤.

(٤) المصدر السابق: ص٢٨٢، وزامباور: معجم الأسرات الحاكمة (مترجَم) ص٤٢. وهذا الوالي هو مؤسس الدولة الإخشيدية بعدُ، إنه (محمد بن طُغْج الإخشيد).

(٥) كان ذلك في عهد الوالي (ذكا الأعور) سنة ٣٠٥هـ، حينما ذُكر الصحابة والقرآن بما لا يليق (الولاة: ص ٧٤، والنجوم ٣/٢٠٨).

(٦) اسم فعل بمعنى: دَعْ، ويكون ما بعدها منصوباً، أو تكون مصدراً، ويكون ما بعدها مجروراً. وقد تكون بمعنى كيف (كما هو هنا)، ويكون ما بعدها مرفوعاً. (المعجم الوسيط)، مادة: (بَ. لِ. هَ) ج١/٧٣.

روح الاســـتقلالية فيه بعد أن ذاقها زمن الطولونيين، وتطلع إليها فى ثورة ابن الخليج[١]. فلم يعد شعب مصـــر بعـــد الطولونيين كما كان قبلهم[٢]، لكنهم - جهالةً منهم - ساسوه السياسة نفسها، فدفعوه دفعاً للالتفاف حول أول داعٍ إلى رعاية مصالحه، والاستقلال عن الخلافة، كما سنرى.

٢- التعرض لخطر العبيديين الخارجي:

تطلع العبيديون نحو احتلال مصر، يدفعهم إلى ذلك أهداف يريدون تحقيقها: مذهبية، وسياسية، واقتصادية، وأمنية[٣]. وهناك مجموعة من العوامل شجعتهم للتعجيل بمحاولة تحقيق تلك الأهداف[٤]، منها: أهمية موقع مصر الإستراتيجى، وما تتمتع به من ثراء وخيرات، لا تقارن بها طبيعة بلاد المغرب المجدبة القاحلة. وكذلك الضعف الداخلى الذى تعانيه مصر فى تلك الآونة، ووجود نشاط شيعى مستتر بها، ومكاتبات ومراسلات تشجع هؤلاء على القدوم إلى مصر، بل تحثهم على ذلك[٥]. وأخيراً، حالة الضعف والتفكك الذى تعانيه الخلافة العباسية[٦]، والضربات المتتالية، التى تتعرض لها على أيدى القرامطة[٧]. لذلك كله، انتهز العبيديون الفرصة، وحاربوا كلاًّ من: مصر، والخلافة العباسية عن طريق الهجمات الحربية المباشرة، والمؤامرات غير المباشرة[٨]، ولئن لم تحقق نتائجها المرجوة لأسباب

---

(١) رغم أنها لم تكن على المستوى المأمول، وصاحبها أفسد ديار مصر، وتركها يباباً من كثرة الفتن والمصادرات والظلم، الذى لحق أعيان البلد، وإن كان إذا أخذ من أحد شيئاً، أعطاه إيصالاً، ووعده برَدّ ما أخذ منه أيام الخراج، لكنه - فى النهاية - كما قال صاحب النجوم فى شعر استشهد به:

رام نفعاً وضَرّ من غير قصدٍ ومــن البرّ ما يــكون عُقوقا

(النجوم الزاهرة: ج٣ ص١٦٧، ١٧١).

(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور مؤنس ص٥٧.

(٣) تفاصيل ذلك فى بحث د.حسن على حسن (مجلة ندوة التاريخ - مجلد ٤، سنة ١٩٨٤م) ص٢٩٥-٣١٠، ورسالة ماجستير (التخطيط الإعلامى للدعوة الفاطمية فى مصر)، للباحث شعبان أبى اليزيد ص١٦١-٦٧.

(٤) من هنا لا يصح عندى ما أورده القاضى النعمان فى (المجالس والمسايرات) ص٢٥٢، حيث زعم المهدى أن فتح مصر لن يتم على يديه، ولكنه يرسل ابنه على رأس الجيوش إلى مصر؛ كى لا يضيع الجهاد، وأنه إن نقل الأمر على القائم، لمض المهدى له بنفسه، وهذه دعاية كاذبة؛ لأنه لا يعلم الغيبَ إلا الله. وقد سعوا حثيثاً لفتح مصر، لكن الظروف لم تكن مواتية لهم.

(٥) الكندى: الولاة ص٢٦٨، ٢٧٢، ٢٧٤، والخطط ٢/٣٣٤، ٣٤٠، والنجوم ٣/٢٢٠، ود.حسن إبراهيم حسن: الفاطميون فى مصر ص٨٩، ود.سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين ص٢٨، والقرآن وعلومه فى مصر للدكتور البرى ص٨٣.

(٦) الذهبى: سير أعلام النبلاء ١٥/٩٨، ١٠١-١٠٤، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/١٩٦-١٩٧، والنجوم ٣/ ٢٧٢، وشاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون ١/٢٦٩-٢٧٠.

(٧) النجوم ٣/٢٩٩، وعطية القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر ص٥٨-٥٩.

(٨) مثل: مقتل المقتدر على أيدى بعض دعاة البربر المغاربة، وأثره الخطير فى دار الخلافة، وفى جند مصر (صلة تاريخ الطبرى ص١٥٦-١٥٧، ومسكويه: تجارب الأمم ١/٢٣٧، وابن الأبّار: الحُلّة السِّيَرَاء ١/٢٨٩، والذهبى: تاريخ الإسلام ٢٣/٦٠٤.

عديدة[١] فقد كانت خطوة مهمة على الطريق، كان من الممكن أن تصل إلى نهايتها المأمولة، لولا قيام الدولة الإخشيدية فى مصر، الذى أجّل تحقيق أحلامهم فى السيطرة على مصر إلى حين.

أحوال مصر السياسية تحت حكم الإخشيديين (٣٢٣- ٣٥٨هـ/٩٣٥- ٩٦٩م):

هذه مرحلة جديدة من مراحل الحياة السياسية فى مصر فى ذلك القرن، لها وضع والى مصر الجديد نهاية لعصر الفوضى والضعف والاضطرابات، وحظيت مصر فى عهده بكثير من الأمن والاستقرار.

ولاية محمد بن طُغج[٢] على مصر:

منذ ولاية ابن طغج الصورية الأولى على مصر[٣]، وهو يرقب الأحداث، ويعد العدة للاستيلاء على ولاية مصر[٤]، فى وقت أصبحت فيه الغلبة للأقوى، و لم يعد للخلافة سيطرة على ولاياها، وغدا تقليد الخلافة لولاها لا يحظى بشئ من الاحترام، وصارت القوى هى اللغة الوحيدة التى يفهمها الوالى القديم، وذوو المصلحة فى الإبقاء عليه؛ حتى يسلموا مقاليد السلطة للوالى الجديد[٥].

انتهز محمد بن طغج حالة الفوضى السابقة، وتحرك فى كلا الإطارين السياسى والعسكرى؛ للوصـــول إلى مآربـــه. فعلى المستوى السياسى نجح فى استغلال نفوذه صهره الوزير الفضل بن جعفر فى الحصول على تقليد منه بولايته على مصر[٦]. وعلى المستوى العسكرى، حاول التفاهم

---

(١) منها: مهارة وصلابة الوالى تكين، وجهود المصريين، ومشاكل وقلاقل المغرب الداخلية، واهتمام الخلافة الفائق وإرسالها الجيوش إلى مصر (الوزراء للصابئ ٣٨٠-٣٨١، ود. على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى ص٢١٦).

(٢) تفسيره: عبد الرحمن. (المغرب)، لابن سعيد (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر) ص١٤٩، ولهاية الأرب للنويرى ٤٤/٢٨.

(٣) ورد كتاب ولايته من قبل (القاهر بالله) يوم الأحد ٧ من رمضان ٣٢١هـ (الولاة ص٢٨٢).

(٤) أقصد: أنه يأخذ فى الاستعداد الحاسم لدخول مصر وامتلاكها بالقوة المسلحة، التى أخذ فى تكوينها وتنميتها وتوطيد نفوذه عن طريقها ببلاد الشام منذ ولايته على الرملة، ثم دمشق المشار إليها سلفاً. (العلاقات بين الشام ومصر فى العهدين: الطولونى، والإخشيدى)، للدكتور زبود ص٢٧٧-٢٧٩.

(٥) وذلك واضح من الصراع السياسى والحربى على ولاية مصر بين محمد بن تكين، وأحمد بن كيغلغ فى ولايته الثانية وأنصارهما، وتخبط الخلافة فى التولية والعزل لأكثر من والٍ، وفى الصلاحيات الواسعة المعطاة للمادّرائى (الولاة ص٢٨٢-٢٨٥، والعلاقات بين الشام ومصر فى العهدين الطولونى والإخشيدى ص٢٧٩).

(٦) المغرب، لابن سعيد (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر): ص١٥٧. وكان الإخشيد قد زوّج ابنته من جعفر بن الفضل بن جعفر، وتوطدت العلاقة بينهما، وكان الفضـــل بن جعفر ولى الوزارة للخليفة المقتدر سنة ٣٢٠هـــ (الكامل، لابن الأثير ٧٢/٧). ثم لما ولى الخليفة الراضى، استعمله على شئون الخراج فى مصر والشام، فاشترط -

مع (محمد بن على المادَرائى) المسيطر على شئون مصر الإدارية والمالية؛ ليتركه يدخل إلى مصر دون صـــدام. فلمـــا فشلت المحاولة[١]، لم يجد مفرًّا من دخول مصر بقواته برًّا وبحراً. وقد أُجبر الوالى ابن كيغلغ[٢] على دخول معركة، لم يكن يريد خوضها، أرغمه عليها المادَرائى، الذى لا يريد لوالٍ قوى كابن طغج أن يكون له سلطان بجانبه. ونجحت قوات ابن طغج فى دخول مصر بـــرًّا وبحراً، وألحق الهزيمة بقوات ابن كيغلغ، الذى لم يجد بُدًّا من التسليم بعد أن عاين قوة بن طغج واستبسال جنده، بينما رأى جنده هو يطلبون الأمان، ولا يثبتون عند النـــزال[٣].

وعلى صعيد آخر، رفض الجند المغاربة بقيادة (حَبَشيّ بن أحمد) التسليم لابن طغج، وأنفوا المقام مع رجل حاربوه وقاوموه، وسيتقلص نفوذهم المادى والمعنوى إلى جوار شخصيته المهيبة الحازمة. سار هؤلاء الجند ومعهم قادتهم نحو الفيوم، فأرسل إليهم ابن طغج قائده صاعداً فى مراكبه، الذى اشتبك معهم فى معركة، أسفرت عن هزيمة صاعد وأسره وقتله مع أصحابه، وذلك فى شهر شوال سنة ٣٢٣هـــ. وشجعهم ذلك على مهاجمة الفسطاط، فتصدى لهم ابن طغج ففروا إلى الإسكندرية، ومنها إلى برقة، وكاتبوا صاحب إفريقية أن يرسل إليهم جيشاً، يستولون به على مصر، فهم أقدر الناس معرفة بطرقها، وسبل السيطرة عليها. لكن القدر لم يمهل القائد حبشيًّا، فاعتلّ، ثم وافتْه منيته؛ متحسراً على ما خلّفه بمصر[٤]، وذلك فى صفر سنة ٣٢٤هـــ. بعد ذلك قاد بحكم الجند المغاربة بعد مجئ مدد العبيديين، متوجهاً نحو مصر، فسارع ابن طغج بإخراج جيوشه إلى الصعيد والإسكندرية بقيادة أخيه الحسن، والقائد صالح بن نافع، فأحرزوا النصر على المغاربة، وطيف بالأسرى منهم، وذلك فى شهر جمادى الآخرة فى سنة ٣٢٤هـــ[٥].

- على كل من: الخليفة، ووزيره محمد بن على بن مُقْلة أن يكون له مطلق التصرف فى هذا الأمر، فالشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فوافقاه على ذلك. فلما جاء إلى مصر، كتب للإخشيد بولاية مصر؛ استناداً إلى الشرط السابق (المغرب، لابن سعيد – قسم مصر - ص١٥٧).

(١) المصدر السابق: ١٥٧، ود.سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين: ص٧١.

(٢) ذكر القلقشندى فى (صبح الأعشى) ج٣ ص٤٢٥: أن القاهر بالله ولى (محمد بن طغج) على مصر سنة ٢١هـــ، ثم ولى (أحمد بن كيغلغ) ثانية ٣٢٣هـــ. وأقره عليها المكتفى ثم المستكفى بالله بعده. وهذا كلام ينافى الحقائق التاريخية الثابتة؛ إذ لم يذكر ولاية محمد بن طغج الثانية، التى امتدت من ٣٢٣-٣٣٤هـــ، والتى عاصر فيها الخليفة الراضى(٣٢٢ ٣٢٩هـــ)، والمتقى لله (٣٢٩-٣٣٣هـــ)، ثم المستكفى(٣٣٣-٣٣٤هـــ).

(٣) الولاة ص٢٨٥-٢٨٦، والمغرب (قسم مصر) ص١٥٨-١٥٩، ونهاية الأرب ٤٥/٢٨، والخطط ٣٢٩/١، والنجوم الزاهرة ٢٧٨/٣، ود.سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين ٧٢-٧٣.

(٤) المغرب (قسم مصر) ص١٦١.

(٥) الولاة ٢٨٦-٢٨٨، والمغرب (قسم مصر)، ص١٥٩، ١٦١، ونهاية الأرب ٤٥/٢٨-٤٦، والخطط ٣٢٩/١، واتعاظ الحنفا (ط.المجلس الأعلى) ج٧٤/١، والنجوم ٢٨٨/٣-٢٨٩، ود.سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين ٧٤-٧٥، وبحث د. حسن على فى (مجلة ندوة التاريخ) – المجلد الرابع ص٣٤٥-٣٤٨.

تمكن محمد بن طغج من فرض إرادته وولايته على مصر، عن طريق قوته الحربية، التي استطاع بها أن يحقق الانتصارات العسكرية سالفة الذكر في الداخل والخارج على سواء. وقد توطد ملكه بمصر وتثبت برضا الخلافة العباسية عنه[١]، واطمئنانها إلى قوته، واستقرار مصر في عهده، وقدرته على حمايتها من مطامع العبيديين بالمغرب[٢]. فلا غَرْوَ في أن يسارع الخليفة الراضى إلى توليته على مصر (صلاتها، وحربها، وخراجها)[٣]، فتم له بذلك السيطرة الإدارية، والمالية على تلك الولاية المهمة من ولايات الخلافة. ولا عجب – أيضاً – في أن تجمع له الخلافة بين ولايتى مصر، والشام معاً[٤] فيحقق بذلك الوحدة المصرية الشامية التقليدية، التي ستمنحه فرصة نادرة بعد ذلك للاستقلال بدولته في ظل شرعية الخلافة، واحترامها، وكسب ودها. وأخيراً، لم يبخل الخليفة الراضى على ابن طغج بمنحه اللقب[٥] الذى تمنى، بما يتلاءم مع نفوذه الكبير، ومكانته السامية.

علاقات الإخشيد بقوى عصره:

لم يكن من الممكن أن يبلغ الإخشيد ما بلغ من نفوذ وتوسعات، وامتلاك لزمام

---

(١) كان الإخشيد حسن الطاعة للخليفة الراضى، ويرسل إليه الهدايا الرائعة التي تخلب اللب. وفي المقابل يقول الصولى: ما رأيت الراضى يقرظ أحداً تقريظه الأمير أبا بكر محمد بن طغج، وكان يستحسن هداياه، ويفرق علينا منها، وكان يصفه بأنه رجل كبير العقل، حسن الطاعة، وهو لا يدرى بم يكافئه!(أخبار الراضى بالله، والمتقى لله) من كتاب (الأوراق) للصولى ص٤٤. وفي المقابل أرسل الراضى إلى الإخشيد- بعد توليته مصر والشام-برسول خاص من لدنه، يحمل الخِلَع إليه، والطَّوق، والسُّوارَيْن؛ تعبيراً عن عظيم مكانته عنده.وقد استقبل ابن طغج، والوزير الفضل بن جعفر هذا الرسول في مصر سنة ٣٢٤هـ، وذلك في احتفال كبير، وركب ابن طغج إلى الجامع العتيق ومعه الوزير، فصلى فيه، وعليه خلع الراضى(المغرب)لابن سعيد (قسم مصر)ص١٦٥-١٦٦.

(٢) وقد أورد ابن سعيد في (المغرب) بالقسم الخاص بمصر ص١٦٦: أن الراضى كتب إلى الإخشيد كتاباً – أرسله بعد كتاب الإخشيد إليه في شعبان ٣٢٤هـ بشأن ضياع المادَرائى في مصر والشام – يأمره فيه بالجد في أمر المغاربة، وقتال عساكرهم، وإنفاذ العساكر إليهم. ولا شك أن هذا ورد بعد صد ابن طغج المغاربة، وفرار فلولهم المنهزمة إلى برقة. ولعل الراضى لم يقتنع بذلك، فأراد مبادأتهم بالهجوم. إلا أن ابن طغج رأى بعقله الكبير انشغال المغاربة عنه بقلاقلهم، وانتهاجهم سياسة مسالمة معه، بما لا يدع مجالاً لفتح جبهة جديدة عليه وعلى الخلافة لا داعى لها.

(٣) الولاة ٢٨٦.

(٤) تجارب الأمم، لمسْكَوَيْه ج١ ص٣٣٢، وتكملة تاريخ الطبرى، للهمذانى ص٢٩٨، والكامل لابن الأثير ٧/ ١٢٦، وتاريخ الإسلام للذهبى ٣٤/٢٤.

(٥) وهو لقب الإخشيد (بالدال، أو بالذال)، ويعنى: ملك الملوك بالتركية(سير أعلام النبلاء ٣٦٦/١٥، والنجوم الزاهرة ٣/ ٢٦٩). وورد كتاب الراضى به، ودُعى به على المنبر في رمضان ٣٢٧هـ (الولاة ٢٨٨، ووفيات الأعيان ٥٨/٥، والمغرب – قسم مصر – ص١٧٤). أما ما ذكرته د.سيدة كاشف في كتاب (مصر في عصر الإخشيديين) ص٥٥ (هامش١)، من أن ابن سعيد يرى أن تاريخ منح الراضى ابنَ طغج لقبَ الإخشيد كان سنة ٣٢٦هـ، فغير دقيق؛ لأن الرجل جعله تاريخ كتاب ابن طغج إلى الراضى يطلب إليه فيه تلقيبه بهذا اللقب (المغرب ١٧٣)، ثم رد عليه بمنحه إياه سنة ٣٢٧هـ. وكذلك لا يصح تاريخ ٣٢٨هـ، الذى ذكره النويرى لمنح اللقب (نهاية الأرب ٤٦/٢٨).

الأمور فى مصر والشام دون أن يصطدم برجالات عصره، ذوى النفوذ الكبير، والتأثير العظيم فى مجريات الأمور بدار الخلافة، تلك القوى التى كانت ترقب بزوغ نجم الإخشيد بكثير من الخوف والقلق،وتُلقى فى رُوع الخلافة مخاطر انفراد الإخشيد بحكم مصر والشام، وما يمكن أن يفضى إليه ذلك من تكرار تجربة استقلال الطولونيين عن الخلافة.

١- علاقته بأمير الأمراء ابن رائق:

كانت الخلافة العباسية فى عهد الخليفة الراضى بالله تعالى أشد المعاناة من الضعف والانحلال، وكان الخليفة المذكور - وقد تعاورت عليه علله وشهواته - ليس له من الأمر شئ، وكان يستعين على تصريف أمور الدولة (أو بغداد بالأحرى) بإحدى الشخصيات القيادية الفذة، التى منحها منصب (أمير الأمراء)، تلك هى شخصية (محمد ابن رائق)[١]، الذى سيطر على مقاليد السلطة فى العراق، وتطلع إلى بلاد الشام؛ لتقليص نفوذ الإخشيد بها[٢]، ثم النفاذ منها إلى مصر بعد ذلك.

تقدم ابن رائق بقواته سريعاً نحو الشام، وسيطر على دمشق سنة ٣٢٧هـ؛ مما دفع الإخشيد لتجهيز جيش، يقوده بنفسه لمواجهة ابن رائق، وذلك فى المحرم سنة ٣٢٨هـ، لكن سفراء الصلح بين الطرفين حقنوا الدماء. وتم الاتفاق على تسليم ابن رائق مدينة الرملة[٣] للإخشيد[٤].

نجح ابن رائق فى هجوم مباغت سريع فى السيطرة على كثير من مدن الشام، وتوجه نحو مصر. جرت معركة شديدة مع الإخشيد وقواته بالعريش، انتهت بانتصار الإخشيد، الذى عادت قواته مظفرة بالأسرى ورءوس القتلى إلى الفسطاط فى شوال سنة ٣٢٨هـ. وفى النهاية عقد صلح بين الطرفين امتلك بموجبه ابن رائق الشام إلى الرملة، واتفق أن يرسل له الإخشيد ١٤٠ ألف دينار سنويا[٥].

---

(١) حول مكانة ابن رائق وسيطرته على مقاليد الأمور، يمكن مراجعة: كتاب (أخبار الراضى بالله) للصولى ص٤٢-٤٤، ١٤٦، ٢٠٩، والكامل لابن الأثير ١٢٣/٧، ووفيات الأعيان ٤٢٥/٣، وسير أعلام النبلاء ٣٢٥/١٥-٣٢٦، وتاريخ الإسلام ٢١/٢٤، ٦٦، والبداية والنهاية ١٩٧/١١، وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص٤٤٦، ومصر فى عصر الإخشيديين ٧٩-٨٠.

(٢) خاصة أنه ارتفعت مكانته لدى الراضى، وغدا منافساً لابن رائق. ولعل ما أسَرّ به الراضى لبعض جلسائه من تمنّيه إحلال الإخشيد محل ابن رائق وصل إلى مسامع الأخير، بعد تغير الراضى عليه (أخبار الراضى بالله) ص٤٥، ١٠٢-١٠٣، ١٤٣.

(٣) مدينة عظيمة بفلسطين، كانت رباطاً للمسلمين . اختطها الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك، وكانت موضع اهتمام الخلفاء فى مختلف العصور، وتخرج فيها عدد من العلماء والأئمة . (معجم البلدان ٧٩/٣-٨٠) .

(٤) الولاة ٢٨٨-٢٨٩، والمغرب (قسم مصر) صـ١٧٨-١٨٠ .

(٥) تكملة تاريخ الطبرى ٣٢٢، وتاريخ الإسلام للذهبى ٥٧/٢٤، والمقفى ٦٥٨/٥ .

لقد أسفر اتفاق الإخشيد وابن رائق عن مكاسب واضحة للأخير[١]، لكن القدر عاجل ابن رائق، ففقد حياته على يد الحمدانيين سنة ٣٣٠هـ[٢]، فانتهز الإخشيد الفرصة، وأرسل جيوشه إلى الشام مع على بن محمد بن كلا[٣]، ثم خرج بنفسه وبسط نفوذه على بلاد الشام وتسلمها ثانية، وعاد إلى مصر فى جمادى الأولى سنة ٣٣١هـ[٤]. وبعد عودته أحس أنه أصبح من القوة وبسط النفوذ فى كل من: مصر والشام، بحيث يمكنه أخذ البيعة - دون رجوع إلى الخلافة المتهاوية - لابنه أونوجور على جميع القواد، وذلك فى آخر ذى القعدة ٣٣١هـ[٥].

٢- علاقته بالخليفة العباسى المتقى لله (٣٢٩- ٣٣٣هـ):

ولا أقصد بهذه الجزئية أن الخليفة المتقى كان من القوة والنفوذ المادى، بحيث يعد من رجالات تلك الفترة المؤثرين فى أحداثها؛ إذ الوقائع التالية تثبت خلاف ذلك تماماً. لكنى أعرض للقاء الإخشيد به؛ لألقى الضوء بطريق غير مباشر على الشخصيات المؤثرة، مثل: أمير الأمراء توزون التركى، وأمراء الحمدانيين، ثم ما نتج عن هذا اللقاء من نتائج، تتعلق بالإخشيد، وأسرته، وممتلكاته بالشام.

تعد فترة حكم الخليفة المتقى لله امتداداً لفترة الضعف، الذى عانته الخلافة أيام سلفه الراضى، بل ازداد نفوذ الأتراك اتساعاً، ودخل فى حلبة الصراع أطراف آخرون كالحمدانيين، وكلهم يحاول بسط نفوذه والتحكم فى مجريات الأمور، والخليفة بينهم حائر لا حول له ولا قوة، يلتمس النصراء المدافعين عنه. وبلغ به الأمر أن أرسل يستنجد بالحمدانيين من هول بطش ونفوذ أمير الأمراء توزون التركى. وبالفعل أرسل ناصر الدولة جيشاً بقيادة ابن عمه (الحسين بن سعيد)، وتمكنوا من إخراج الخليفة فى حرمه، وأهله، ووزيره، وبعض أعيان بغداد. وحدثت مواجهات بين توزون والحمدانيين هُزم فيها الحمدانيون، وتقهقروا إلى الموصل، ثم إلى قريب من بلاد الشام[٦]. وأقام الخليفة فى حماية الحمدانيين، حتى

---

(١) وقد دافع عن موقف الإخشيد من هذا الاتفاق، وعَدّه عملاً له ما يبرره من الظروف المحيطة به كل من: د.حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى ١٤٥/٣، ود.زبود: العلاقات بين الشام ومصر صـ٢٩٨ .

(٢) حول ظروف مقتله راجع: (أخبار الراضى بالله) صـ٢٢٦، وتجارب الأمم ٢/٢٧-٢٨ (وذكر أنه قُتل بالموصل على يد غلمان أبى محمد الحسن بن عبد الله بن حمدان، المعروف بـ (ناصر الدولة)، وتكملة تاريخ الطبرى صـ ٣٣٢-٣٣٣، و(مخطوط تاريخ دمشق ٣٢٥/١٥، ووفيات الأعيان ١١٨/٥ .

(٣) الولاة ٢٩١ .

(٤) الولاة: ٢٩١-٢٩٢، ونهاية الأرب ١٦٧/٢٣، والبداية والنهاية ٢١٥/١١.

(٥) المغرب (قسم مصر)، ص١٩١ (كان الدعاء فى مصر للخليفة المتقى، ثم للإخشيد، ثم لابنه أونوجور، ثم لعمه أبى المظفر الحسن بن طغج)، والخطط ٣٢٩/١، والنجوم ٢٩١/٣، وتاريخ الإسلام، للدكتور حسن إبراهيم حسن ٣ /١٤٥، و(مصر فى عصر الإخشيديين) للدكتورة سيدة كاشف ص٨٩.

(٦) كان ذلك خلال عامى٣٣١-٣٣٢هـ (نهاية الأرب٢٣/١٧٠-١٧٣، وتاريخ ابن خلدون ٢٩٨/٤).

أحس منهم الضجر والسأم[١]، ففكّر فى مراجعة توزون ببغداد. ويبدو أن الخليفة المتقى لم يكن يثق بجواب توزون ولا بتمام حماية الحمدانيين له، فأرسل إلى الإخشيد يشكو له حاله، ويستدعيه لحمايته. واقتنص الإخشيد تلك الفرصة الذهبية النادرة، وقدم بقواته، حاملاً الأموال والهدايا. وتم اللقاء بالرَّقّة فى منتصف المحرم سنة ٣٣٣هـ[٢]. وقد بالغ الخليفة فى إكرام الإخشيد، وبالغ الإخشيد فى احترام الخليفة وتقديره. وحمل الإخشيد إلى الخليفة الكثير من الأموال والهدايا والتحف الثمينة النادرة، وبَرَّ وأحسن إلى جميع من مع الخليفة، وعلى رأسهم: وزيره أبو الحسين على بن محمد بن مُقْلَة[٣]. وقد عرض الخليفة على الإخشيد أن يصطحبه إلى بغداد، ويوليه إمرة الأمراء. وبعد موافقة سريعة، بادر الإخشيد إلى التخلص من هذا الأمر بذكاء[٤]. وفى الوقت نفسه عرض هو أن يصطحب الخليفة إلى مصر، أو يبقى ببلاد الشام ولا يعود إلى توزون. فالأتراك لا أمان لهم، وهو على استعداد لإمداده بالأموال والرجال، لكن الخليفة اعتذر[٥]، وكذلك اعتذر وزيره[٦]. وتحرك الخليفة فى طريقه إلى بغداد، فتحققت مخاوف الإخشيد، وقبض توزون على الخليفة ووزيره[٧]، ووكّل بهما، وسُمِلَت عينا المتقى، فدخل بغداد فاقد البصر، مخلوعًا من منصبه فى المحرم ٣٣٣هـ[٨]، بينما مَرّ الإخشيد على بلاد الشام، فاطمأن على أوضاعها، ودبر

(١) أقام عندهم المتقى من شهر ربيع الآخر سنة ٣٣٢هـ إلى نهاية هذه السنة (راجع: تجارب الأمم ٦٧/٢، وتاريخ ابن خلدون ٥١٩/٣).

(٢) نهاية الأرب ١٧٦/٢٣. والرقة: مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حَرّان ثلاثة أيام، وهى داخلة فى بلاد الجزيرة؛ لأنها من جانب الفرات الشرقى (فهى واقعة بين العراق والشام). (معجم البلدان ٦٧/٣).

(٣) انفرد المسعودى من بين المصادر بجعل كنيته (أبا الحسن)، وذلك فى (مروج الذهب مجلد ٢، ص٦٩٢)، ولعله تحريف من الناسخ. ويجب التفرقة بينه وبين الوزير (محمد بن على بن الحسن بن مقلة)، الذى قُبض عليه سنة ٣٢٦هـ فقطعت يده، ثم لسانه بأمر ابن رائق؛ لتحريضه عليه.وسجن عامين حتى مات فى محبسه ٣٢٨هـ. (راجع النجوم ٣/ ٣٠١-٣٠٢، ٣٠٨).وبَدَهِىٌّ أن هذا المترجَم له ليس هو المصاحب للخليفة المتقى إلى الرقة، ويغلب على الظن أن المذكور أعلاه فى المتن هو ابنه؛ بدليل استفساره عن أحوال ولده أبى الحسين أثناء معالجة يده بواسطة الطبيب ثابت بن سنان، وكانت تطيب نفسه عندما يبلغه الطبيب باستتار وسلامة ولده (وفيات الأعيان ١١٥/٥).

(٤) لما تدارك الموقف المتأزم، وأدرك الخطورة التى يمكن تعرضه لها فى بغداد، وضياع ملكه فى مصر والشام، فاعتذر بأن العبيديين سيغزون مصر، فأمره الخليفة بالعود سريعاً (المغرب – قسم مصر – ص١٩٢).

(٥) فهو لا يريد أن يدع عاصمة ملكه، كما أن وسطاء الصلح بينه وبين توزون أكدوا له أنهم أخذوا عليه أغلظ الأيمان وأوثقها، وأشهدوا عليه القضاة والعلماء، أن يسمع ويطيع الخليفة فى أمره ونهيه، فوثق به الخليفة وصدقه (تجارب الأمم ٦٧/٢، والكامل ١٨٦/٧، وفوات الوفيات ١٧/١). ولا يصح ما ذكره د.على إبراهيم حسن فى (تاريخ جوهر الصقلى) ص٢٨، من أن الإخشيد كان يفاوض توزون؛ ليتعهد بحماية الخليفة.

(٦) وذلك مراعاة للخليفة المتقى (تاريخ الإسلام ١٢/٢٥).

(٧) ندم الوزير على عدم استجابته لنصح الإخشيد له، فقد قُبض عليه، ونُهِبَ ما منحه الإخشيد من أموال (تجارب الأمم ٦٨/٢). وكانت وزارته سنة، وخمسة أشهر، واثنى عشر يوماً (الكامل ١٨٧/٧).

(٨) تجارب الأمم ٦٧/٢-٦٨، وتكملة تاريخ الطبرى ص٣٤٧، والكامل ١٨٦/٧-١٨٧، وتاريخ الإسلام ١١/٢٥ -١٢، والنجوم ٢٩١/٣-٢٩٢. ومات توزون بعد جرمه فى حق المتقى بأقل من عام، بينما مات الخليفة فى =

شئونها[١]، ثم عاد إلى مصر فى جمادى الأولى سنة ٣٣٣هـ[٢] تتناوشه مشاعر متباينة، فهو – من جهة – يشعر بالغبطة والسرور بما أنعم عليه المتقى من توطيد ملكه فى مصر والشام، وتوليته وأسرته حكم تلك البلاد مدة ثلاثين عاماً، يخلفه عليها من بعده ابنه (أونوجور)[٣]، ومن جهة أخرى يملؤه الأسف على ما جرى للخليفة المتقى من إيذاء وخلع. وعلى كل، فقد أقَرّه الخليفة الجديد (المستكفى ٣٣٣- ٣٣٤ هـ/٩٤٤- ٩٤٦م) على مصر والشام، على ما جرت عليه عادة الخلفاء من قبل[٤].

٣- علاقته بالحَمْدانيين

نركزها فى النقاط الآتية:

أ- دور الحمدانيين المؤثر فى الصراع الدائر بين القوى المختلفة فى عصر الخليفة المتقى لله، وقوة الإخشيد المتصاعدة فى مصر والشام؛ مما أدى إلى صراع خفى بين القوتين.

ب- تحول العداء المستتر إلى صراع ظاهر سنة ٣٣٣هـ، تمكن سيف الدولة على أثره من السيطرة على حلب وسائر الشام، لكن الإخشيد سار بقوته، وهزم سيف الدولة، الذى ظل معسكراً رغم ذلك[٥].

ج- تيقن الإخشيد أن الانتصار على سيف الدولة ليس حاسماً؛ مما دفعه إلى الدخول فى مفاوضات صلح معه فى ربيع الأول سنة ٣٣٤هـ[٦]. وتم دعم الاتفاق بإقامة علاقة مصاهرة بينهما[٧]، ثم توفى الإخشيد بعدها بقليل فى دمشق فى شهر ذى الحجة سنة ٣٣٤هـ[٨].

= سجنه فى شعبان ٣٥٧هـ (سير أعلام النبلاء ١١١/١٥، وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص٤٥١).

(١) النجوم ٢٩٢/٣.

(٢) الولاة ٢٩٢، والنجوم ٢٩٢/٣-٢٩٣.

(٣) المغرب (قسم مصر): ص١٩٢.

(٤) الولاة ٢٩٢، والنجوم ٢٩٣/٣.

(٥) الكامل ٢٠٣/٧، والمغرب (قسم مصر) ص ١٩٣-١٩٤، ومصر فى عصر الإخشيديين ص٣٥٠-٣٥١.

(٦) حول وجهة نظر الإخشيد فى هذا الصلح ونصوصه يراجع: المغرب (قسم مصر) ١٩٤-١٩٥، وبغية الطلب ٥ /٢٤٠٩، وتاريخ الإسلام السياسى، للدكتور حسن إبراهيم حسن ١٢٨/٣، ومصر فى العصور الوسطى للدكتور على إبراهيم حسن ٢٢٤، وبحث (دور الحمدانيين فى حماية الثغور الإسلامية) للدكتور فهمى عبد الجليل فى (ندوة التاريخ ع ٨، ١٩٩٠م ص٢٤١-٢٤٢).

(٧) تكملة الهمذانى ٣٥٢، وتاريخ الإسلام للذهبى ٢٥/٢٤.

(٨) الولاة (ط.حسنت) ص٢٩٣.

وقبل أن نسدل الستار على فترة حكم الإخشيد، نركز سمات عصره فى النقاط الآتية:

١- تميزت فترة حكم الإخشيد بشيوع الهدوء والاستقرار إلى حد بعيد[١]. وقد ساعد على تحقيق ذلك: شخصية الإخشيد القوية، وثباته فى منصبه لفترة لا بأس بها[٢]، وقضاؤه على الفتن فى مهدها[٣]، وحسن التنظيم الإدارى لأجهزة دولته[٤]، وإشرافه على تحقيق العدالة فى البلاد[٥]. وبمقارنة يسيرة بين مصر والشام فى عهده، وبين دولة الخلافة العباسية وحاضرتها (بغداد)، نجد الأمن والاستقرار فى دولة الإخشيد، بينما الخلافة تُنتقص من أطرافها[٦]، وتتلاحق الفتن بها، حتى نزح كثير من أهل بغداد وتجارها إلى مصر والشام مع الحجاج[٧]؛ فراراً مما حَلّ ببلادهم، وطلباً للسكينة والطمأنينة.

٢- حظيت دولة الإخشيد بجيش قوى وأسطول متمكن[٨]، أحسن الإخشيد تكوينهما وإعدادهما، ورَدّ بهما أطماع الداخل (أمير الأمراء ابن رائق، وسيف الدولة بن حمدان)، وأطماع الخارج (العبيديين).

---

(١) لم تذكر المصادر سوى ثورة واحدة قام بها رجل علوى فى مصر فى عهد الإخشيد، ويدعى (ابن السرّاج)، قام بها فى الصعيد، مستغلاً فرصة خروج الإخشيد؛ لبسط نفوذه على بلاد الشام بعد مقتل ابن رائق، إذ خرج بالجيوش فى السادس من شوال سنة ٣٣٠هـ. فلما خلت الفسطاط من الجند، خرج هذا الخارج فى حركة نهب وسلب، ثم هرب إلى العبيديين بالمغرب (الولاة ٢٩١، المقفى ٤٥٣/٧، ود.سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين ٣٣٨). ولعله كان على صلة بالعبيديين، وأوعزوا إليه بضرب الاستقرار فى مصر.

(٢) من ٣٢٣-٣٣٤هـ. ودولته نموذج للدول المستقلة عن سلطان الخلافة العباسية مع الاحتفاظ لها بسلطتها الروحية، مستغلة ما حل بها من ضعف وهرم (مقدمة ابن خلدون ٧٦٤/٢).

(٣) قضاؤه على تنازع المالكية والشافعية وأتباعهم فى مصر، وكراهيته التلاحى فى مجلسه (المغرب - قسم مصر - ص١٧٣، ١٨٢).

(٤) يمكن مراجعة ما يتصل بالنظام الإدارى فى العصر الإخشيدى (خاصة الشرطة) فى: د.على إبراهيم حسن: مصر فى العصور الوسطى ٣١٤-٣١٥، ود.سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين ص١٥٥ وما بعدها، وأحمد عبد السلام ناصف: الشرطة فى مصر الإسلامية ص١٢٨.

(٥) عن طريق جلوسه للمظالم (المغرب - قسم مصر - ص١٩٠-١٩١، ومصر فى عصر الإخشيديين ص٢٢٨).

(٦) فمثلاً لم يبق للراضى سوى بغداد وأعمالها، والحكم فيها لابن رائق. وبقية أطراف الخلافة فى أيدى المتغلبين عليها (فالبصرة فى يد ابن رائق، وخوزستان فى يد البريدى، وفارس فى يد عماد الدولة بن بويه... والموصل، وديار بكر، ومُضَر، وربيعة فى يد بنى حمدان، ومصر والشام فى يد الإخشيد، والمغرب وإفريقية فى يد القائم، والأندلس فى يد الناصر... والبحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القِرْمِطِىّ (تجارب الأمم ٣٦٦/١، والكامل ١٢٣/٧، ونهاية الأرب ١٣٥/٢٣-١٣٦).

(٧) تكملة تاريخ الطبرى (أحداث ٣٣١هـ): ص٣٤٠، وتاريخ الإسلام ٦/٢٥.

(٨) يراجع: وفيات الأعيان ٥٩/٥، وسير أعلام النبلاء ٣٦٦/١٥، وتاريخ الإسلام ٣٠/٢٥-٣١، ١١٢، والخطط ٨٦/١، ومصر فى عصر الإخشيديين ص٢٤٥ وما بعدها.

٣- نجح الإخشيد فى إقامة علاقات سياسية متوازنة مع مختلف القوى ذات النفوذ الروحى والمادى - داخليًا وخارجيًا - فى عصره، فحصل على ما يريد من مُلْك له ولولده من بعده فى عهود الخلفاء العباسيين المعاصرين له (الراضى، والمتقى، والمستكفى، والمطيع)[١] ، مانحاً إيّاهم كل ود واحترام وتقدير. كما استخدم نظام المصالحات والمصاهرات السياسية مع المنافسين له (ابن رائق، وسيف الدولة) فى الوقت المناسب. وأخيراً، نجح - بذكاء - فى إقامة علاقات سلميّة مع قوتى: الروم[٢]، والعبيديين فى عهد القائم[٣]. وبذلك ضمن بقاء حكمه، وامتداد نفوذه، واتساع دولته.

مصر بعد الإخشيد:

بعد وصــول نبأ وفاة الإخشيد إلى مصر فى يــوم الاثنــين لليلتين خلتا من المحرم ٣٣٥ هـ[٤]، دخلت البلاد منعطفاً جديداً بعد خلو مركز القيادة من مؤسس الدولة الإخشيدية. واجتمع أهل الرأى والحكم يتشاورون فيمن يلى الأمر بعده. ورغم وجود تقليد لأونوجور[٥] أكبر أولاد الإخشيد بولاية العهد بعد أبيه، إلا أنه يبدو أن صغر سنه[٦] جعل هؤلاء المجتمعين يترددون فى توليته بادئ الأمر، خاصة فى ظل وجود أمثال: محمد بن على المادَرائى، والوزير جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات، وصاحب الخراج محمد بن على بن مقاتل، وأبى المظفر الحسن بن طغج أخى الإخشيد. ولا بد أن يكون من هؤلاء من له تطلع إلى السلطة. و لم يطل التشاور بين هؤلاء الكبراء، حتى حسمه المادَرائى لصالح أبى القاسم أونوجور بن الإخشيد. ولعل فى كتاب التعزية، الذى أرسله الخليفة المطيع لأونوجور، وقرئ فى المسجد الجامع، إقراراً من الخلافة بما تم الاستقرار عليه[٧].

---

(١) الولاة ص٢٩٣ (دعى للمطيع لله فى مصر يوم الجمعة ٣ من شوال ٣٣٤هـ)، وأقر الإخشيد على عمله (المغرب - قسم مصر - ص١٩٥).

(٢) يلاحظ رد الإخشيد على كتاب رومانوس البيزنطى إليه، وما احتواه من بيان سياسة الإخشيد، وما يدل عليه من مكانته العظيمة لدى الروم (المغرب - قسم مصر - ص١٦٧-١٧٢، وصبح الأعشى ٧/١٠-١٨).

(٣) يراجع فى العلاقة بينهما: المغرب (قسم مصر) ص١٧٥-١٧٧، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم حسن ١١٩-١٢١.

(٤) الولاة ص٢٩٣.

(٥) ويعنى بالعربية اسم (محمود). (وفيات الأعيان ٤/٩٩، وتاريخ الإسلام ٢٦/١٥٠). وقد وقع كلا المصدرين فى وهم واحد؛ إذ ذكرا أن الراضى هو الذى عقد لأونوجور على ولاية مصر.

(٦) ولد أونوجور يوم الخميس التاسع من ذى الحجة سنة ٣١٩هـ بدمشق (وفيات الأعيان ٤/٩٩). وهذا يعنى أنه ولى مصر وعمره حوالى ١٥ سنة.

(٧) حول ظروف تولية أونوجور مصر يراجع: مؤلف مجهول: الذيل على كتاب الولاة للكندى ص٢٩٤، والمغرب (قسم مصر) ص١٩٧-١٩٨، والمقفى ٢/٣١٣-٣١٤.

وفى شهر ربيع الأول سنة ٣٣٥هـ، ورد الخبر باستيلاء سيف الدولة بن حمدان على دمشق، وطَبَرِيَّة، وتوجه نحو الديار المصرية، حتى وصل إلى الرملة، وأنه دُعى له على جميع منابر الشام. أقلق هذا الأمر أونوجور والقادة فى مصر، فتحركت الجيوش على رأسها كافور غلام الإخشيد، وتم اللقاء بين الجانبين فى معركة هائلة، هُزم فيها سيف الدولة، وارتدَّ إلى الشام، وتبعته جيوش مصر، فتخلى عن دمشق وحلب، وانهزم إلى الرقة[1]. واضطر سيف الدولة إزاء هذا الانكسار، الذى تعرضت له قواته إلى العود إلى اتفاق الصلح، الذى أُبرم من قبل مع الإخشيد، فكانت دمشق لأونوجور، وحلب وما وراءها شمالاً فى يد سيف الدولة، وأقر أونوجور يأنس المؤنسى على دمشق، وعاد بقواته مع عمه الحسن، وقائده كافور إلى مصر سالمين[2].

استغل أبو نصر غَلْبُون بن سعيد المغربى (متولى أسيوط وإخميم من صعيد مصر) خروج الجيوش لمجابهة سيف الدولة بالشام، فخلع الطاعة، فأرسل إليه كافور من الشام جندًا لمحاربته، لكنه نجح فى إنزال الهزيمة بهم واتسع نفوذه، فوصل إلى الشرقية، ومنها وصل إلى الفسطاط، ونزل دار الإمارة بها، فخرجت إليه جماعة من الجند الإخشيدية، وطاردوه ولحقوا به وقتلوه، وخلّصوا البلاد من شره المستطير، الذى أدى إلى تعطيل الحج فى مصر؛ لشدة الانشغال بثورة هذا الثائر، وذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٣٣٦هـ[3].

يبدو أن المكانة التى شغلها كافور فى عهد الإخشيد، ودوره فى إلحاق الهزيمة بسيف الدولة بالشام باعتباره قائد الجيش، وجهوده فى تهيئة الأوضاع بالشام، ثم خلو الساحة من بعض ذوى النفوذ والسيطرة فى مصر آنذاك[4]. كل ذلك مَهَّد له الأمر لفرض نفسه على مجريات الأمور، فأصبح مدبر شئون أونوجور، والقائم على أمر ولايته. ووصل الأمر به أن شغل الأميرَ الحدث

---

(١) حول تفاصيل صراع كافور وسيف الدولة بالشام تراجع المصادر والمراجع الآتية: المغرب – قسم مصر – ص ١٩٧-١٩٨، ومختصر تاريخ دمشق ١٢٩/٢١، ونهاية الأرب ج٢٨ ص٥٠، ومرآة الجنان ٣١٩/٢، والبداية والنهاية ٢٢٧/١١، وتاريخ ابن خلدون ٣٠١/٤، وصبح الأعشى ١٦٤/٤، والمقفى ٣١٥/٢، ومصر فى عصر الإخشيديين ص٣٥٣-٣٥٤، والعلاقات بين الشام ومصر فى العصرين الطولونى والإخشيدى، للدكتور زبود ٣١٥-٣١٧، وبحث (دور الحمدانيين فى حماية الثغور الإسلامية)، للدكتور فهمى عبد الجليل (فى مجلة ندوة التاريخ)، العدد الثامن ١٩٩٠م، ص٢٤٤-٢٤٥.

(٢) النجوم ٣٣٥/٣.

(٣) الذيل على كتـــاب الولاة للكندى ص٢٩٥-٢٩٦، ونهاية الأرب ٥٠/٢٨-٥١ وتاريخ الإسلام ٣٦/٢٥، والمقفى ٣١٥/٢

(٤) مثل: صاحب الخراج محمد بن على بن مقاتل، الذى قبض عليه فى بداية عهد أونوجور، وسجن حتى مات ٣٥٠هـ (المغرب – قسم مصر – ص١٩٨، والمقفى ٣١٤/٢، والنجوم ٣٧٦/٣)، والحسن بن طغج الذى توفى سنة ٣٤٢هـ بالرملة (المصدر السابق ٣٥٤/٣). ومحمد بن على المادَرائى الذى توفى ٣٤٥هـ(المصدر السابق ٣٦١/٣).

عن شئون البلاد[(١)]، وأصبح هو الآمر الناهي، والحاكم الحقيقي لها. والظاهر أن الخلاف الذى دَبَّ بين أونوجور وكافـــور تصاعد شيئاً فشيئاً بدءاً من سنة ٣٤٣هــ بازدياد نفوذ كافور، حتى بلغ أوْجَه سنة ٣٤٧هــ، بعد أن شَبّ أونوجور، وأصغى لوجوه الأمراء والقواد، الذين حرضوه، بل تآمروا معه ضد كافور؛ ليسترد ملكه المغتصب، وليدفع عن نفسه الحَجْر الذى فرضه كافور عليه، ولعله سيئم حياة اللهو والصيد والملذات التي يعيشها. لكن كافوراً تنبه لذلك الأمر، وتدخلت أم أونوجور، وأصلحتْ بينهما؛ خوفاً على ابنها من بطش كافور،وإشفاقاً عليه من عواقب الفتنة[(٢)] وظلت الأمور تسير على هذا النحو حتى توفى أونوجور - بعد مرض شديد ألَمّ به- يوم السبت السابع، أو الثامن من ذى القعدة سنة ٣٤٩هــ، ودفن بالقدس عند أبيه[(٣)]

بعد وفاة أونوجور بن الإخشيد، أقام كافور أخاه **أبا الحسن على بن الإخشيد** مكانه، وأقره الخليفة المطيع على إمرة مصر على الجند والخراج، وأضاف إليه الشام، كما كان لأبيه ولأخيه من قبل[(٤)]. وبالرغم من كبر سن عليّ نسبيًّا عن أخيه أونوجور عند ولايته مصر[(٥)]، إلا أنه كان أضعف من أخيه وأقل شأناً؛ نظراً لازدياد نفوذ كافور[(٦)] عن ذى قبل.

وقد تعرضت مصر والشام وأقْرِيطِش[(٧)] فى عهده لنكبات متواليات، أسفرت عن تآمر سيف

---

(١) فكان يطلق له كل عام ٤٠٠ ألف دينار (الخطط ٣٢٩/١، والنجوم ٣٣٤/٣)، ويتركه مُغْرًى بالصيد والأكل والشرب والتنزه (المقفى ٣١٧/٢).

(٢) يراجع ذلك الخلاف فى: (تاريخ الإسلام ٢١٨/٢٥، وتاريخ ابن خلدون ٤٠٨/٤، والمقفى ٣١٧/٢ (وفيه أن أنوجور شكا كافوراً لفاتك غلام أبيه الإخشيد، عندما ذهب إلى الفيوم، فوعده فاتك النصرة، ثم لم يجرؤ على مخالفة كافور، فغضب أونوجور، وتمادى فى لهوه ولعبه).

(٣) وفيات الأعيان ٩٩/٤، والخطط ٣٢٩/١، (مع ملاحظة وجود تحريف - فى الغالب - فى تاريخ وفاته فجعل لفظة سبع بدلاً من تسع)، والنجوم ٣٣٥/٣.

(٤) النجوم ٣٣٦/٣.ذكر أن كنية (عليّ بن الإخشيد) هى (أبو الحسين) على سبيل التحريف.

(٥) فقد كان عمره حوالى ٢٣ سنة؛ لأنه ولد يوم الثلاثاء ٢٦ من صفر سنة ٣٢٦هــ بمصر (وفيات الأعيان ١٠٠/٤).

(٦) هو كافور بن عبد الله الإخشيدى. كان عبداً لبعض أهل مصر، ثم اشتراه الإخشيد سنة ٣١٢هــ. وظل يترقى فى المناصب، حتى غدا قائد جند وَلَدَى الإخشيد؛ لنشاطه، وذكائه، وإخلاصه. وكان له موقع متميز لديه. وساعدته الظروف على الاستبداد بالحكم فى مصر، وكان له فضل تأخر استيلاء العبيديين على مصر، وتوفى سنة ٣٥٧هــ (ترجمته فى مصادر كثيرة، منها: المصدر السابق ٩٩/٤-١٠٥، والخطط ٢٦/٢-٢٧، ومخطوطة (ترجمان الزمان فى تراجم الأعيان) لابن دقماق (نسخة مصورة عن أحمد الثالث) ورقة ٤٥-٤٦، والنجوم ٢/٣-١٢).

(٧) جزيرة مهمة يونانية تقع فى بحر المغرب (الأبيض)، وهى جزيرة كريت الآن. (الأنساب ٢٠٠/١ومعجم البلدان ٢٨٠/١، وهامش ٦ ص١٢ لمحقق (عيون الأنباء) لابن أبى أصيبعة، وتعليق محقق (نهاية الأرب ج٢٨ ص١٢١، هامش١). وحول فتح هذه الجزيرة وارتباطها الإدارى بمصر، وسقوطها على يد رومانوس البيزنطى٣٥٠هــ، واستنجاد أهلها بكافور وبالمعز فى المغرب، واستعداد المعز تحريك أسطوله بالتعاون مع أسطول مصر؛ لضرب الروم. لكن عدم استجابة مصر له، جعله يتراجع فيما يبدو. حول ذلك كله، وهدف المعز من وراء هذا التدخل يراجع: =

الدولة مع القرامطة، فأمدهم بما احتاجوا إليه من الحديد لتصنيع السلاح اللازم للهجوم على طَبَرِيَّة، والاستيلاء عليها من أيدى على بن الإخشيد وجنده، وذلك سنة ٣٥٣هـ[١]. وكانت قد سبقتها اضطرابات فى مصر سنة٣٥١هـ؛ بسبب الغلاء الفاحش الذى تعرضت له مصر بعد انخفاض مياه النيل[٢]. ويبدو أن الروم استغلوا هذه الظروف القاسية، فهاجموا بلاد الشام، وامتلكوا كلاً من: حلب، والمَصِّيصَة، وطَرَسُوس[٣]. وظلت الأحوال تنتقل من سيئ إلى أسوأ، حتى مات على بن الإخشيد عليلاً لإحدى عشرة خلت من المحرم سنة٣٥٥هـ[٤].

استبد كافور بالأمر صراحة بعد موت على بن الإخشيد، وأعلن أنه ولى من قبل الخليفة المطيع على مصر والشام، وذلك فى صفر ٣٥٥هـ[٥]، رافضاً تولية (أحمد بن على بن الإخشيد)؛ لصغر سنه[٦]. وفى فترة حكم كافور تلك لم تعرف البلاد الهناءة والاستقرار ما بين هجوم القرامطة[٧]، والعبيديين[٨]، والزلازل المروعة والقحط والمجاعات[٩]. ولم يستطع كافور - رغم كفاءته[١٠] - السيطرة على شئون البلاد، حتى رحل عن دنيانا فى جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ[١١].

- المجالس والمسايرات ص٤٤٢-٤٤٧، والمعز لدين الله، للدكتور حسن إبراهيم حسن وغيره ص٤٨-٥١، وتاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام ص٦٩.

(١) البداية والنهاية ١١/٢٧٠، ومخطوط (عقد الجُمان) للعينى (نسخة أحمد الثالث) ورقة ٤٨.

(٢) الخطط ١/٣٢٩-٣٣٠.

(٣) وفيات الأعيان ٤/٩٩، وتاريخ الإسلام ٢٦/١٥٠.

(٤) وفيات الأعيان ٤/٩٩، والنجوم ٣/٣٧٤.

(٥) سير أعلام النبلاء ١٦/١٩١.

(٦) كان ابن إحدى عشرة سنة يوم وفاة كافور (النجوم ٤/١١).

(٧) هاجم أعراب بنى سليم ركب الحجيج من مصر والشام سنة ٣٥٥هـ، ومزق الناس فى الصحارى، وفقد أهل الشام أموالهم، التى فروا بها من هجوم الروم عليهم (الكامل ٧/٢٩٦، ومرآة الجنان ٢/٣٥٨). ويبدو أن هؤلاء الأعراب كانوا من القرامطة - أو على صلة بهم - ويبدو أن كافوراً كان على علاقة حسنة بصاحب هَجَر القرمطى، إذ وافت رسله مصر، عائدة بما تيسر استرجاعه من متاع هؤلاء الحجيج. ورد كافور ذلك المتاع إلى أصحابه (الذيل على الولاة للكندى ص٢٩٧).

(٨) كان كافور يظهر الود واللين للمعز، ويظهر الخضوع للعباسيين، ويخدع هؤلاء وهؤلاء (سير أعلام النبلاء١٦/١٩٢). وكان يتبادل الهدايا مع المعز (مخطوطة عقد الجمان، نسخة أحمد الثالث، أحداث ٣٥٣هـ) ورقة ٤٤، وتاريخ الإسلام ٢٦/١٥١). لكن هذا لم يمنعه من صد حملة المعز على الواحات (الخطط ٢/٢٧).

(٩) المصدر السابق ٢/٢٧.

(١٠) حول مواهب كافور وعناصر نجاحه فى حكم مصر، لولا انخفاض النيل والكوارث (راجع: مخطوط أعيان العصر وأعوان النصر - نسخة دار الكتب المصرية)، للصفدى ورقة ١٤٣-١٤٤، والخطط ٢/٢٠٧، ومصر فى عصر الإخشيديين ١٣٣-١٣٤.

(١١) وهو الراجح عندى؛ بدليل ما ذكره الذهبى، وابن خلدون من أنه ولى مستقلاً بمصر عامين، وأربعة أشهر (تاريخ الإسلام ٢٦/١٥٢، وتاريخ ابن خلدون ٤/٤٠٩).

اجتمع الرأى على تولية أبي الفوارس **أحمد بن على بن الإخشيد** شئون مصر على أن يدبر له الأمر الوزير جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات[١]، لكن الدولة الإخشيدية كانت تعانى الاحتضار؛ نتيجة عدم وجود القيادات القادرة على انتشال البلاد مما هى فيه، ناهيك عن الأزمات الاقتصادية الطاحنة الناتجة عن نقصان مياه النيل؛ مما أدى إلى انتشار الأوبئة والمجاعات بين الناس[٢]، بالإضافة إلى سيطرة الحسن بن عُبيد الله بن طغج على الرملة، وأخذه البيعة لنفسه هناك، واحتجانه أموال كافور بالشام لنفسه[٣]؛ مما عجّل بمقدم جيوش العبيديين بقيادة جوهر، الذى لم يلق سوى مقاومة من بقايا الإخشيديين فى مصر والشام[٤]، استطاع بعدها أن يقنع أهل مصر أنه أمين على أرواحهم، وأموالهم، وعقائدهم، فدخلها دخول الفاتحين فى شهر شعبان سنة ٣٥٨هـ[٥].

مصر تحت نير[٦] العبيديين من سنة (٣٥٨هـ- ٣٩٩هـ/٩٦٩- ١٠٠٨م)[*]:

رأينا - فيما مضى - كيف دأب العبيديون منذ بدايات القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، على توجيه الحملات العسكرية، واحدة تلو الأخرى إلى مصر؛ لإخضاعها لنفوذهم،

---

(١) له ترجمة فى: (تاريخ بغداد، ٢٣٤/٧-٢٣٥، ومعجم الأدباء ١٦٣/٧-١٧٦).

(٢) المغرب (قسم مصر)، ص٢٠١، والخطط ٩٩/١.

(٣) الذيل على كتاب الولاة ٢٩٧.

(٤) وفيات الأعيان ٦١/٥، ونهاية الأرب ٦١/٢٨-٦٢، والنجوم ٣١/٤-٣٢.

(٥) حول أمان جوهر للشعب المصرى براجع: اتعاظ الحنفا (ط.الفكر العربى ١٩٤٨) ص١٤٨-١٥٣، ومصر فى عصر الإخشيديين ٣٦٦-٣٧٠، ودكتوراه حسن عبد الحميد ٢٦١-٢٦٤.

(٦) الخشبة المعترضة فوق عنق الثور، أو عنقي الثورين المقرونين؛ لجرّ المحْراث أو غيره. (المعجم الوسيط، مادة:ن.ى.ر) ج٢ ص ١٠٠٥. وهذا يدل على مقدار ما سيعانيه المصريون من قيود وأغلال تحت الحكم العبيدى.

(*) اختلف المؤرخون حول صحة ما ادَّعَوْه من الانتساب إلى (إسماعيل بن جعفر الصادق)، وانتهاء بالسيدة (فاطمة الزهراء)، التى لُقِّبُوا لأجل انتسابهم إليها بـ (الفاطميين):

١- من المؤيدين: ابن حَمَّاد فى: (أخبار ملوك بنى عُبَد وسيرتهم) ص٣٥ وبعدها، وابن الأثير فى: (الكامل) ٤٤٦/٦-٤٤٨، والمقريزى فى: (اتعاظ الحنفا- ط.دار الفكر - ص١٧، ٢٥-٧٠)، والمقفى ٥٢٣/٤-٥٧٠).

٢- ما عليه أغلب المحققين: وهم علماء أهل السنة والثقات من أصحاب التواريخ والأنساب، الذين يرون أنهم كاذبون فيما ادعوه من نسب؛ لأنهم رافضة خبثاء. وهم أصل القرامطة، الذين هلك الدين على أيديهم. وأثبتت الوثائق أن الصلة حد وثيقة بين العبيديين والقرامطة. (راجع: الفَرْق بين الفِرَق للبغدادى ص٤١-٤٢، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم (ط.بروفنسال) ص٥٤، وكشف أسرار الباطنية للحمادى ص٢٠-٢٩، ٣١ وما بعدها، والمِلَل والنِّحَل للشهرستانى ١٤٧/١، ١٦٧-١٦٨، ١٩١، ومعالم الإيمان ٣٤/٣، وكتاب (قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخى) للدكتور عبد الحليم عويس.

٣- خلاصة الرأى عندى: أنه لا يصح نسب هؤلاء العبيديين؛ لعدم جدارتهم بالانتساب إلى بيت النبوة. ولو فُرض - جدلاً - صحة نسبهم، فأفعالهم لا تجعلهم جديرين حقيقة بهذا الانتساب.وسبقنا إلى اتهامهم جِلّة المؤرخين -

ماواتتهم ظروفهم الداخلية، وشجعتهم أحوال البلاد المصرية. وتعد آخر هذه المحاولات وأنجحها تلك الحملة التى قادها جوهر[١] من قبل المعز،التى تضافرت على تحقيق أهدافها عدة عوامل سبقتها[٢]، وسياسة متوازنة صحبتها[٣]، وأخيراً حُنْكَة ومهارة فى إدارة شئون البلاد تبعتها. والذى يعنينى فى – المقام الأول- الخطوط العامة للسياسة، التى انتهجها جوهر فى مصر بعد دخولها، **ويمكن تركيز تلك الخطوط فيما يلى:**

أولاً – بذل القائد جوهر جهوداً كبيرة؛ لبسط نفوذ الدولة الشيعية الإسماعيلية على كافة أنحاء مصر، مع تهيئة كافة الأجواء فيها؛ لتستقبل سيده ومولاه المعز. ومن هنا، فقد بادر إلى إنشاء عاصمة للدولة الجديدة سميت (القاهرة)، وعُنى بإنشاء قصر للمعز بها، يكون مقرًّا للحكم، وإقامة مسجد جامع بها، يكون مركزاً لنشر المذهب الشيعى للدولة الجديدة[٤].

ثانيـــاً – تخفـــيف المعاناة عن جموع الشعب المصرى، الذى طحنته المجاعات سنوات

– الثقات كالذهبى، الذى سمّاهم العبيديين، ووصم من لقّبهم بالخلفاء الفاطميين بأنهم جهلة الناس (تاريخ الإسلام: ٢٣/٢٤). وأخيراً، فالحديث يقول:"وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُه، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ ".(ذيل حديث طويل لرسول الله ﷺ، أخرجه مسلم فى (صحيحه)، كتاب (الذكر والدعاء)، باب (فضل الاجتماع على تلاوة القرآن) ج٤ ص٢٠٧٤ (رقم ٢٦٩٩). وشرحه النووى فى شرح (صحيح مسلم) ج١٧ ص٢١-٢٢. وكذا أخرجه ابن ماجة فى (سننه) فى (المقدمة)، باب (فضل العلماء والحث على طلب العلم) ج١ ص٨٢ (حديث ٢٢٥) بلفظ: " وَمَنْ أَبْطَأَ ".

(١) هو القائد أبو الحسن جوهر بن عبد الله الرومى، المعروف بـــ(الكاتب).كان من موالى المعز، وارتفعت مكانته لديه بدءاً من سنة ٣٤٥هـــ، وبلغ مكانة كبرى بفتح المغرب الأوسط والأقصى ٣٤٧هـــ.ورشحه ذلك لإرسال المعز له فى الجيوش إلى مصر، فكان عند حسن الظن به وفتحها ٣٥٨هـــ، وضبط أمورها حتى دخلها مولاه ٣٦٢هـــ. ثم خبا ذكره حتى ظهر أيام العزيز فى حرب هفتكين التركى.توفى جوهر ٣٨١هـــ. (مخطوط تاريخ دمشق ٥٣/٤، والـــكامل ٢٦١/٧، ٤٥٦، ووفيات الأعيان٣٧٥/١-٣٨٠، والبيان المغرب ٢٤٥/١ وسير أعلام النبلاء ٤٦٧/١٦-٤٦٨، وتاريخ الإسلام ٣١/٢٧-٣٢، والوافى بالوفيات ٢٢٤/١١-٢٢٦، والخطط ٣٧٧/١-٣٧٩، والنجوم ٢٩/٤-٣٥).

(٢) تتمثل فى ضعف الخلافة العباسية وانشغالها عن مصر بالفتن والصراعات وما عانته مصر من مجاعات وقحط، وأوبئة وأمراض، ثم انتشار الدعاة العبيديين يبثون أفكارهم بين الناس بحرية وعلانية، خاصة أيام حكم كافور، إلى جانب مكاتبات جعفر بن الفضل بن جعفر بن الفرات للمعز، وإغراءات ابن كِلّس له بالمغرب بالمجئ إلى مصر، إلى غير ذلك من العوامل الدعائية، التى تراجع تفاصيلها فى: (النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهـــرة لابن سعيد ص١٠١، وكنز الدرر ١٢٠/٦-١٢١، ١٣٨، ٢٢٦، وسير أعلام النبلاء ٤٦٧/١٦، وفوات الوفيات ٢٩٣/١، والفضائل الباهرة لابن ظهيرة ص١٨٠، وصبح الأعشى ٣/ ٣٤٥، واتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر العربى) ص١٤٣، والخطط ٢٧/٢، ومصر فى عصر الإخشيديين، للدكتورة سيدة كاشف ص٣٦٠-٣٦٥، وبحث دكتور حسن على حسن فى (مجلة ندوة التاريخ)، المجلد الرابع (١٩٨٤م) ص٣٤٩-٣٨٠).

(٣) فى بنود الأمان الذى أعطاه لأهل مصر (حلّلها كل من: على إبراهيم حسن فى: تاريخ جوهر الصقلى ص٤٣-٤٤، ومصر فى عصر الإخشيديين ص٣٧٠، وبحث د.حسن على فى (مجلـــة نـــدوة التاريخ)، المجلد الرابع (١٩٨٤) ص٣٨٠-٣٩٠، وماجستير شعبان أبى اليزيد عن (التخطيط الإعلامى) ص١٣٥-١٣٨ وما بعدها).

(٤) الخطط ٣٧٨/١، ٢٧٣/٢-٢٧٤، واتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر العربى) ص١٥٤-١٦٢، والنجوم ٣٥/٤ وما بعدها، وسَمْط النجوم العوالى ٤٠٧/٤.

متوالـيات، فاسـتحدث من السياسات ما يضمن به توفير الأقوات لتلك الأفواه الجائعة، والـبطون الخاويـة[١]. وفى الوقت نفسه اتبع طريق الحزم والشدة مع كل من يعكر صفو الأمن، أو يلجأ لأسلوب السلب والنهب، فضمن بذلك احترام ممتلكات الناس، وعم ترويع الآمنين منهم[٢]، فاستقرت الأوضاع، ووثق الناس بما وعدهم فى وثيقة الأمان. وسهَّل ذلك علـيه القضاء على شراذم الجند الإخشيدية ومن ثار معهم من القادة[٣]، الذين ساءهم أن يفقدوا سلطانهم ونفوذهم.

ثالـثاً – بعـد أن اطمأن الناس إلى عدله وكفايته[٤]، أخذ فى القيام بإجراءات وتعديلات إداريـة ومذهبـية متدرجة[٥]؛ كى يضمن بها عدم ثورة الناس من جهة، وصبغ الدولة بالصبغة الشيعية، التى يدين بها من جهة أخرى.

رابعـاً – وَجّه جوهر القائد جعفَر بن فَلاَّح[٦] إلى الشام؛ للسيطرة عليها، فالتقى بالرملة الحسنَ بن عُبيد الله بن طغج (صاحب الشام)، فهزمه جعفر وأسره، وأرسله إلى مصر[٧]. ثم سار

---

(١) نهاية الأرب ١٣٠/٢٨، وإغاثة الأمة بكشف الغمة، للمقريزى ص١٣، واتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر العربى) ص ١٦٩، وتاريخ جوهر الصقلى، لعلى إبراهيم حسن ص٧٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤٦٧/١٦، واتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر العربى) ص١٦٨، وتاريخ جوهر الصقلى ص٧٦، والشرطة فى مصر الإسلامية ص٦٧.

(٣) مثل: ثورة القائد تبر الإخشيدى، الذى ثار بأسفل الأرض، داعياً للخليفة المطيع لله، ولم يجب جوهراً إلى الطاعة، وذلك فى شعبان سنة ٣٥٩هـ، وأعمل النهب والسلب، فحورب، فانهزم وطورد، ففر بريد الشام، لكنه قبض عليه فى صور بالشام، وحُبس، فجرح نفسه، فمات سنة ٣٦٠هـ. (نهاية الأرب ١٣٤/٢٨، والخطط ٤١٣/٢، والمقفى ٥٨٥/٢).

(٤) كان جوهر يجلس للمظالم كل أسبوع يوماً، ثم عين صاحباً للمظالم. وهذا يدل على مدى حرصه على رد الحقوق لأهلها، وإشاعة العدل، حتى أثنى عليه الناس؛ لحسن سيرته فيهم. (وفيات الأعيان ٣٧٩/١، واتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر العربى) ص١٦٥، ١٨١، والخطط ٢٠٧/٢، والنجوم ٣٤/٤).

(٥) وتمثل ذلك فى وضع موظف مغربى مع كل موظف مصرى فى الدواوين، وكذلك مع القاضى المصرى أبى طاهر الذُهْلى وُضع قاضٍ للمغاربة (ابن ثوبان). وبالتدريج يتم إلغاء دور الموظف والقاضى المصرى؛ ليحل محله المغربى؛ لئلا يثور الناس. بالإضافة إلى تعديلات فى الأذان، وزى الخطباء، وقطع الخطبة للعباسيين، وجعلها للمعز العبيدى، وغير ذلك من مبتدعات فى العبادات. (أخبار الدول المنقطعة ص٢٩، وأخبار ملوك بنى عبيد ص٥٠، والكامل ٧/ ٣٠٩-٣١٠، ونهاية الأرب ١٣٣/٢٨، وكنز الدرر ١٣١/٦، وتاريخ الإسلام ٣١/٢٧-٣٢، ومخطوطة (عيون التواريخ) – النسخة التيمورية ٥٦/١٢، والخطط ٢٧٠/٢، ٣٤٠، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم حسن ص٣٠٧، وبحث (أهل الذمة والإدارة الإسلامية)، للدكتور فهمى عبد الجليل، المجلد الثانى، ١٩٨٢ (ص١٤٢).

(٦) له ترجمة فى: (وفيات الأعيان ٣٦١/١-٣٦٢، وتاريخ الإسلام ٢٠١/٢٦).

(٧) البيان المغرب ٢٢١/١، ونهاية الأرب ١٣٥/٢٨، وتاريخ ابن خلدون ٦١/٤-٦٢. وقد أرسله جوهر ومجموعة الإخشيديين من مصر إلى المعز بالمغرب (تاريخ الإسلام ٤٤/٢٦، واتعاظ الحنفا – ط.دار الفكر العربى – ص١٦٧).

جعفر - بعد ذلك - إلى دمشق، فملكها سنة ٣٥٩هـ[١]. وفى سنة ٣٦٠هـ، غزا الحسن الأعصم[٢] القرمطىّ الرملة[٣]. وتقدمت جيوش القرامطة سريعاً، قاصدة السيطرة على مصر، فأخذ جوهر يتأهب لقتالهم، وقام بحفر عدة خنادق؛ للدفاع عن البلاد، وفرق السلاح على المغاربة والمصريين معاً؛ مما يدل على دقة موقفه وحرجه الشديد. وواصل القرامطة زحفهم حتى بلغوا (عين شمس) فى المحرم سنة ٣٦١هـ. وفى مستهل ربيع الأول التحم الفريقان على باب القاهرة، واستمر القتال أياماً، حتى أوقع جوهر الهزيمة بأعدائه، الذين سقط منهم قتلى كثيرون، ونُهبت خيامهم بتدبير جوهر مع الأعراب من بنى عقيل، وبنى طَيّ، مقابل جوائز أنفذها إليهم. واضطر القرمطى بعد هزيمته المنكرة، التى لم يذق القرامطة مثلها من قبل، إلى الانسحاب. ولولا خشية جوهر من الحيلة والمكيدة فى القتال ليلاً، لطارد فلولهم، وقبض على زعيمهم. وقام جوهر بالقبض على نحو ألف من الجند الكافورية والإخشيدية، الذين كانوا يقاتلون مع القرامطة[٤]؛ نكاية فى العبيديين. وبذلك هيّأ جوهر الأمور، ومهد البلاد لاستقبال مولاه المعز تمهيداً.

استنهض القائد جوهر مولاه المعز، وطلب إليه المسير إلى مصر، شارحاً له خطورة القرامطة على مصر والشام[٥]. هنا نظر المعز فى شئون المغرب قبل الرحيل عنه، واستناب عنه يوسف بن زِيرى، وفوَّض إليه أمور البلاد، وأمر الناس له بالسمع والطاعة[٦]، وزوده بنصائح تعينه على حكم تلك البلاد[٧]. وبعد ذلك سار المعز فى طريقه إلى مصر، حاملاً ركائبه وخزائنه، ومعه جيوشه وآل بيته وحاشيته، وتوابيت آبائه، فوصل إلى الإسكندرية لست بقين من شعبان سنة ٣٦٢هـ، فاستقبله قائده جوهر، وكبار رجالات مصر وأعيانها، وقاضيها أبو طاهر الذُهْلىّ. وقد أحسن المعز استقبالهم، فأكرمهم وخلع عليهم،

---

(١) نهاية الأرب ١٣٥/٢٨.

(٢) هو أبو على الحسن بن أحمد بن أبى سعيد حسن بن بَهْرام الجَنّابىّ القرْمطِىّ. ولد ٢٧٨هـ، وأصله من الفرس. سيطر على الشام سنة ٣٥٧هـ، ثم عاد إليها سنة ٣٦٠هـ، وهزم جعفر بن فلاح وقتله. وتوفى بالرملة سنة ٣٦٦هـ، وبوفاته كتبت نهاية القرامطة إلى حد كبير (سير أعلام النبلاء ٢٧٤/١٦-٢٧٥، والعبر للذهبى ١٢٣/٢، والوافى بالوفيات ٣٧٣/١١-٣٧٦، ومرآة الجنان ٣٨٥/٢، والبداية والنهاية ٣٠٥/١١-٣٠٦)

(٣) البيان المغرب ٢٢٨/١، ووفيات الأعيان ١٤٩/٢-١٥٠، والدولة الفاطمية للدكتور عبد الله جمال الدين ص١٦٠.

(٤) ذيل تاريخ دمشق، لابن القلانسى - (ط.أمدروز) ص٢، والكامل ٣٢٦/٧-٣٢٧، وفوات الوفيات ٦٢/٢، واتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر العربى) ص٢٥٠-٢٥١، وتاريخ الخلفاء ص٤٥٩.

(٥) تاريخ الدول المنقطعة ص٢٥.

(٦) النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة، لابن سعيد ص٤٤-٤٥، واتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر العربى) ص١٤٢-١٤٣. ويراجع التعليق على هذا الاختيار فى: (معالم تاريخ المغرب والأندلس ص١٣٨-١٣٩، وقيام الدولة الفاطمية، لعادلة على الحمد ص٢٤٨).

(٧) اتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر العربى) ص١٤٥، والمؤنس لابن أبى دينار ص٧٥، ويراجع شرح د.حسين مؤنس لهذه الوصايا والنصائح فى المعالم ص١٣٨.

وأعلمهم أن هدفه الحق والجهاد ضد الروم، وأن غايته أن يقيم أوامر جده ﷺ، وأن يُختَم له بالصالحات[١]. وتقدم بعد ذلك نحو القاهرة، ودخل قصره بها فى الخامس من رمضان سنة ٣٦٢هـ[٢].

ظهرت أولى ملامح سياسة المعز، لما جمع أشراف أهل مصر، وكان قد سأله بعضهم عن نسبه، وسَلَّ لهم نصف سيفه، وقال: هذا نسبى. ونثر عليهم ذهباً كثيراً، وقال: هذا حسبى. فقالوا جميعاً: سمعنا وأطعنا[٣]. وهذا يعنى أن سياسته قائمة على (الترغيب، والترهيب)، وأنَّ مَنْ لم يُغره المال أرهبه السيف. إلا أن ذلك لا يمنع من بيان بعض الخطوات الإيجابية، التى سلكها المعز فى إدارة شئون مصر، مثل اهتمامه بالمظالم[٤]، وتنظيمه أمور الجند ومكان سكناهم خارج القاهرة[٥]؛ لئلا يضيقوا على الناس دورهم، إلى جانب التنظيمات الداخلية، التى أحدثها فى شئون المال والخراج، والشرطة، والحسبة، وغيرها من الأعمال[٦]. وحرص المعز على إشاعة الأمن بين الناس[٧]، ويُذْكَر له تأمينه طريق الحج البرى، فسلكه الحجيج بعد انقطاع دام سنين[٨].

وعلى الصعيد الخارجى كان اهتمام المعز بشئون الحجاز عظيماً[٩]، وكان حريصاً على بسط نفوذه هناك، وأن يُدْعَى له بالحرمين الشريفين بدل الخليفة العباسى[١٠]، على اعتبار أن ذلك نوع من الزعامة الروحية، التى يتطلع إليها المعز؛ لتحقيق أهدافه فى إمامة المسلمين

---

(١) مخطوطة (تاريخ القضاعى)، نسخة البلدية، ورقة ١١٨، والكامل ٣٣٢/٧، وسير أعلام النبلاء ١٦١/١٥-١٦٢.

(٢) مخطوطة (تاريخ القضاعى)، نسخة البلدية، ورقة ١١٨، وأخبار الدول المنقطعة ص٢٥، والكامل ٣٣٢/٧، ووفيات الأعيان ٢٢٧/٥، وكنز الدرر ١٤٧/٦.

(٣) أخبار الدولة المنقطعة ص٢٧-٢٨، ووفيات الأعيان ٨٢/٣.

(٤) كان النظر فيها يضاف إلى (قاضى القضاة) تارة، وأخرى ينفرد بها أحد عظماء الدولة (الخطط ٢٠٧/٢).

(٥) اتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر العربى) ص١٩٧، والمؤنس ٦٦.

(٦) تراجع أعماله الداخلية، والمناصب المسندة إلى وزيره يعقوب بن كلس فى: (اتعاظ الحنفا- ط.دار الفكر العربى - ص ١٩٢-١٩٦، والشرطة فى مصر الإسلامية ص٢٠٩).

(٧) اتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر العربى) ص١٩٤.

(٨) كان ذلك سنة ٣٦٤هـ (المصدر السابق: الطبعة الثانية، طبعة المجلس الأعلى ١٩٦٧م) ج١ ص٢٢٣.

(٩) أدرك المعز بثاقب فكره أهمية الحجاز منذ كان بالمغرب؛ لذلك رأيناه يتدخل فى الحرب بين بنى حسن، وبنى جعفر بن أبى طالب بالحجاز، فأرسل مالاً ورجالاً سرًا، سعوا بالصلح بين الطرفين، ودفعوا ديات القتلى عن بنى حسن، وتم الصلح فى المسجد الحرام سنة ٣٤٨هـ. عرف بنو حسن ذلك الجميل للمعز، وبادروا بالدعاء للمعز لما فتح جوهر مصر، فقلد حسن بن جعفر الحسنى الحرم وأعماله. (اتعاظ الحنفا- ط.دار الفكر العربى) ص١٤٥-١٤٦.

(١٠) دُعى للمعز فى الحرمين مكان الخليفة العباسى سنة ٣٦٣هـ (الكامل ٣٤٩/٧، ومرآة الجنان ٣٧٩/٢، والبداية والنهاية ٢٩٥/١١).

جميعاً، وسحب البساط من تحت قدمى الخلافة العباسية[١].

أما بالنسبة للقرامطة، فإن المعز لما قدم إلى مصر وتيقّن خطرَهم عليه وعلى دولته، أرسل إلى زعيمهم (الحسن بن أحمد القرمطى) كتاباً مُطَوَّلاً مفصلاً،يهدده فيه ويتوعده، ويحضه على اتباع آبائه الذين كانوا يتبعون العبيديين، ولا يخرجون عن مراسمهم فى جميع تصرفاتهم[٢]. وكان رد القرمطى موجزاً معبِّراً[٣]، أردفه بتسيير جيوشه إلى مصر، وذلك سنة ٣٦٣هـ. وقد توجهت سرايا من هذه الجيوش للسيطرة على الوجه البحرى، بينما توغلت الأخرى فى الصعيد. وقد أعمل المعز الجانب الحربى[٤] والمعنوى[٥] معاً فى مواجهة القرامطة، حتى تمكن – فى النهاية – من إلحاق الهزيمة بهم، وطاردهم قواته إلى بـلاد الشـام[٦]. وهكذا، تمكن المعز بخبرته ودهائه من السيطرة على مصر، ورد الخطر الخارجي عنها، وظل – كذلك – النجم الأوحد اللامع فى حكم مصر، حتى وافته المنية فى شهر ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ[٧].

بعد وفاة المعز ولى بعده ابنه **العزيز**، الذى اتسم عهده بالتسامح المفرط مع أهل الكتاب، فاتخذ يعقوب بن كِلّس اليهودى الأصل له وزيراً، يدير له دولته، ويُصَرِّف له شئونها[٨]، فقام ابن كلس بهذه المهام أحسن قيام[٩]، حتى إن العزيز لم يعزله من منصبه سوى

(١) د.حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص٢٣٧، ود.عطية القوصى: تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ص١٠٩-١١٠.

(٢) انفرد المقريزى بإيراد الكتاب بنصه كاملاً فى (اتعاظ الحنفا). وقد نشره د.الشيال فى (ط.دار الفـكر العربى ١٩٤٨) ناقصاً؛ لنقص المخطوطة (ص٢٥١-٢٦٥)، ثم نشره كاملاً فى (الطبعـة الثانية، ط.المجلس الأعلى ١٩٦٧)، فورد باقى الكتاب ج١ ص٢٠٠-٢٠١.

(٣) أخبار الدول المنقطعة ص٢٦، وتاريخ ابن أبى الهيجاء ص٥٢، ونهاية الأرب ١٤٨/٢٨-١٤٩، واتعاظ الحنفا (ط ٢-المجلس الأعلى) ج١ص٢٠٢.

(٤) بالاشتباك المباشر (نهاية الأرب ١٤٩/٢٨، واتعاظ الحنفا (ط٢ – المجلس الأعلى) ج١ ص٢٠٢-٢٠٣.

(٥) بإعمال الحيلة عن طريق التآمر مع أمير العرب بالشام (وكان فى جند القرامطة بقواته الكثيرة)، وهو حسان بن الجَرَّاح الطائى، فينهزم الطائى بجنده، ويفر من المعركة أمام المغاربة، وذلك مقابل منح المعز له مائة ألف دينار. وقد خدعه المعز بتزييف معظمها. وكان فراره سبباً فى هزيمة القرامـطة. (ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ص٣، والكامل ٣٤٣/٧-٣٤٤، وتاريخ ابن أبى الهيجاء ص٥٢-٥٣).

(٦) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ص٣، والكامل ٣٤٤/٧، وتاريخ ابن أبى الهيجاء ص٥٣، واتعاظ الحنفا (ط٢-المجلس الأعلى): ج١ ص٢٠٦.

(٧) مخطوط تاريخ القضاعى (البلدية) ورقة ١٤٨، وأخبار الدول المنقطعة ٢٦-٢٧، ووفيات الأعيان ٢٢٨/٥.

(٨) كان وزير تنفيذ، كوسيط بين الإمام ورعاياه، معتمداً على رأى الإمام وتدبيره. وعُبِّرَ عنها – بعد ذلك – بالوساطة. (حول معنى الوزارة، ونوعيها: التفويض، والتنفيذ يراجع: قوانين الوزارة للماوَرْدى ص٦١-٦٩، وصبح الأعشى ٤٤٩/٥).

(٩) راجع مواصفات الوزير الجيد، والتى كان – ولا شك – يتحلّى بها ابن كلس فى (المصدر السابق١/٧٧-٨٠).

فترة قليلة[١]، اضطر بعدها إلى إعادته؛ لاضطراب شئون البلاد. وظل هذا الوزير فى منصبه حتى وفاته سنة ٣٨٠هـ[٢]، فضرب العزيز فى الوفاء له، والحزن عليه إبَّان مرض موته، وبعد وفاته، أروع الأمثلة[٣].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، فبعد وفاة ابن كلس ولى الوزارة للعزيز عدد من الوزراء[٤]، حتى وجد بغيته سنة ٣٨٤هـ فى عيسى بن نَسْطُورَس النصرانى، فسلّم له الدواوين، فنظر فيها جميعاً وأمر ونهى، وصار الواسطة بين العزيز وسائر الناس[٥]. واستناب بالشام يهودياً اسمه (مَنَشَّا إبراهيم بن القَزَّاز)، فاعتز بهما النصارى واليهود، وآذوا المسلمين وظلموهم، حتى شكا المسلمون إلى العزيز، فأدرك خطأه فى الاعتماد الكامل على أهل الذمة، وظهرت له خطورة ذلك على استقرار البلاد، فقبض عليهما، وصادر منهما مالاً كثيراً[٦]. وقد علل بعض الباحثين ظاهرة ميل العزيز إلى استخدام أهل الذمة فى المناصب الإدارية الكبرى، بأنه كان فى حاجة ماسَّة إلى رجال أكْفاء يديرون له البلاد، كما أن بعضهم (مثل: ابن كلس) تفانى فى خدمة الدولة والإخلاص لها. ويشيرون إلى سبب مهم، وهو أن العبيديين وجدوا أنفسهم أمام أهل البلاد السّنّيّين (وهم الغالبية)، الذين يعادونهم، فتعاونت الأقلية الحاكمة مع أقلية محكومة (أهل الذمة)؛ لتحقيق أغراض أهل السلطة، الذين يطمئنون إليهم؛ إذ لا خطر عليهم منهم[٧]. ولا بأس من كبح جماحهم، عندما يشيع ظلمهم، بدرجة تثير جماهير أهل السنّة.

---

(١) مدتها شهران (سنة ٣٧٣هـ)، وصودرت منه خمسمائة ألف دينار متهماً بدَسّ السم ل (ألف تكين)، ثم أُعيد إلى منصبه، ورُدَّت له أمواله، بعد أن اختلّت دواوين البلاد. (تكملة تاريخ الطبرى، للهمذانى ص٤٤٨، والكامل ٧/ ٣٥٨، واتعاظ الحنفا (ط.المجلس الأعلى) ١/٢٦٢).

(٢) المصدر السابق (ط.المجلس الأعلى) ج١ ص٢٦٨.

(٣) ذيل تجارب الأمم ص١٨٥، وذيل ابن القلانسى ٣٢، واتعاظ الحنفا (ط.المجلس الأعلى) ج١ ص٢٦٩.

(٤) المصدر السابق ١/٢٦٩-٢٨٣.

(٥) اتعاظ الحنفا (ط.المجلس) ١/٢٨٣.

(٦) الكامل ٧/٤٧٧، واتعاظ الحنفا - ط.المجلس - ج١ ص٢٩٧، ومخطوط عقد الجمان- نسخة أحمد الثالث - ١٠/ ١٢٣، وحسن المحاضرة ١/٦٠١. وأضافت بعض المصادر أن ابن نسطورس أُعيد بشفاعة ست الملك بنت العزيز، على أن يستخدم المسلمين فى دواوينه (الذيل على تجارب الأمم) ١٨٦-١٨٧، وكذلك ابن القلانسى ص٣٣، وأخبار الدولة المنقطعة ٤١، وبحث (أهل الذمة والإدارة الإسلامية)، للدكتور فهمى عبد الجليل فى (مجلة الندوة) مجلد ١٩٨٢/٢م ص١٤٤-١٤٥.

(٧) بحث د.فهمى عبد الجليل السابق ص١٧٣-١٧٤، وأهل الذمة فى مصر للدكتور سلام شافعى ص٢٨، وموسوعة التاريخ الإسلامى، للدكتور أحمد شلبى ٥/١٣١.

ويمكن تركيز أهم عناصر أحداث بقية فترة حكم العزيز فى النقاط الآتية:

١- موقفه من بلاد الشام:

اهتم العزيز بإخضاع بلاد الشام لسلطته[١]، لذا أقلقه استيلاء (ألْف تكين)[٢] على دمشق، وتهديده عدداً من بلاد ساحل الشام (مثل : صَيْدا، وعَكّا، وطَبَرِيَّة). وقد حاول العزيز استمالته، فأبى إلا مخالفته، فأرسل إليه الجيوش بقيادة (جوهر). لما علم ألف تكين بذلك، تحالف مع القرامطة بقيادة الحسن القرمطى، الذى أناب عنه بعض القُوّاد، وتمكنت قواتهما معاً من إلحاق الهزيمة بجوهر، الذى تقهقر من الرملة إلى طبرية، ثم عَسْقَلان، وقد عانت جيوش جوهر حصاراً شديداً، أشرفت معه على الهلاك، إلى أن تمكن جوهر بدهائه من الحصول على أمان، انسحب على أثره بما بقى من جنده إلى مصر، بعد معارك طاحنة وظروف قاسية، استمرت من ذى القعدة سنة ٣٦٥هـ، إلى أواخر سنة ٣٦٧هـ[٣]، حينما هَبَّ العزيز لنجدة جوهر، وخرج بنفسه على رأس جيش كبير، قاتل به ألف تكين فى المحرم من سنة ٣٦٨هـ، ونجح فى إنزال الهزيمة به وأسره، والعود به إلى مصر، حيث عزّزه وكرّمه، وخلع عليه[٤]. واسترضى القرامطة بسبعين ألف دينار، يدفعها لهم سنوياً[٥]، يستجلب بها ودهم، ويتخلص من شرهم. ولعل سياسة العزيز القائمة على التسامح والعفو، هى التى أثمرت ثمرتها المرجُوّة مع الزمن، فإذا به ينجح فى احتواء القرامطة، فيأتيه رسولهم سنة ٣٨٢هـ، يُعْلمه أنهم فى دعوته ونصرته[٦].

٢- صلاته بكل من المغرب والحجاز:

جمعتُ بين كلا هذين الإقليمين؛ لأن صلة العبيديين بهما -فى عهد العزيز - غدت إلى حد

---

(١) تعرض للأسباب الإستراتيجية لتلك الاهتمام الباحث سمير عبد الفتاح فى ماجستير (مصر فى عهد العزيز بالله الفاطمى) صـ١٢ .

(٢) ورد اسمه بصور متعددة فى المصادر: الفتكين (الكامل ٣٥٨/٧)، وهفتكين (سير اعلام النبلاء ٣٠٧/١٦)، وأفتكين (نهاية الأرب ١٥٦/٢٨) . وقد حققه د.صبحى عبد المنعم، ورجّح صورته المذكورة أعلاه بالمتن ومعناها بالتركية: عبد خَلَد (تاريخ ابن أبى الهيجاء هامش ٥ صـ٥٨) . وهو مولى مُعِزّ الدولة بن بُوَيْه، وسار بقواته بعد هزيمته فى فتنة الأتراك بالعراق . وتوجه إلى الشام، وسأله أهل دمشق أن ينزل بينهم ويزيل عنهم حكم العبيديين، فأجابهم، وأصلح كثيراً من أحوالهم، وقطع خطبة المعز، وخطب للخليفة العباسى الطائع لله فى شعبان سنة ٣٦٤هـ . ثم دخل فى معارك كثيرة ضد جوهر أيام العزيز وانتصر فيها، حتى تغلّبت عليه جيوش العزيز، ووقع أسيراً بعد أن ضرب أروع الأمثلة فى الثبات والشجاعة؛ مِمّا دفع العزيز للعفو عنه وتقريبه منه فى مصر . مات بعد دس ابن كلس السم له؛ لخلاف بينهما أول ٣٧٣هـ . (الكامل ٣٥٥/٧-٣٥٨، وسير أعلام النبلاء ٣٠٧/١٦-٣٠٨، وتاريخ الإسلام ٢٦/ ٤٠٦-٤٠٧، واتعاظ الحنفا - ط.المجلس الأعلى - جـ١ صـ٢٦٢) .

(٣) هذا هو التاريخ الذي اخترته موافقاً تفاصيل الأحداث في (اتعاظ الحنفا -ط. المجلس الأعلى- جـ١ صـ ٢٣٩-٢٤٢).

(٤) الكامل ٣٥٧/٧-٣٥٨، واتعاظ الحنفا -ط. المجلس الأعلى -جـ١ صـ٢٤٢-٢٤٥.

(٥) تكملة تاريخ الطبرىصـ٤٤٨، والكامل٣٥٨/٧(جعلها عشرين الف دينار-أحداث سنة ٣٦٤هـ).

(٦) اتعاظ الحنفا (ط.المجلس الأعلى) جـ١ صـ٢٧٤.

مـــا صـــلة معـــنوية روحية. ومع ذلك، فقد حرص العزيز منذ بداية عهده على توثيق علاقته بالمغرب، إذ أرسل سنة ٣٦٥هـــ، أموالاً من دنانير الذهب إلى هناك، حيث وزعت على الناس، وأقر بُلُكِّين (يوسف) ابن زِيرى[(١)] على ولاية إفريقية.

وزاده مـــا لم يكن تحت إمرته فى عهد المعز (مثل: أطْرَابُلس، وسُرْت، وأجْدابيَة)، فأرسل إلـــيها يوســـف عماله، وعظم شأنه، وأمَّنَ[(٢)] ناحية العزيز، واستبد بالملك، وكان يظهر الطاعة للعزيز؛ بمجاملة ومراقبة لا طائل وراءها[(٣)].

بالنســـبة للحجـــاز، فقد ظل على ولائه للعزيز، فخُطب له بالحرمين سنة ٣٦٥هـــ، ولم تعتـــرض السلطة البويهية الحاكمة بالعراق؛ نظراً للخلافات المحتدمة بين التُّرْك والدَّيْلَم هناك[(٤)]. ويبدو أن عطاء ماديًّا كان يصرف لأمراء الحجاز مقابل ذلك[(٥)]، فلعله ضعف أو توقف، وربما تجرأ هؤلاء؛ لانشغال العزيز بالحروب فى الشام، فلم يخطبوا له فى هذا العام، إلا بعد أن استخدم القـــوة ضـــدهم، فأرســـل جيشاً حاصر مكة بالتحديد، وضيَّق على أهلها، حتى قَل الطعام، وارتفعـــت الأســـعار، وعادوا سِيرتَهم الأولى[(٦)]. وبعد ذلك لا تفيد المصادر وجود أى تمرد، فخُطب للعزيز - مثلاً -فى سنوات: ٣٧٠، ٣٨٠، ٣٨٥هـــ[(٧)].

٣- صلته بالبويهيين، والروم، وأمويى الأندلس:

تتســـم علاقة العزيز بهذه القوى الثلاث بالعداء، الذى حال دون تحويله إلى صدام مباشر ظروف خدمت العزيز، ووفرت عليه ما ينتج عن ذلك من المخاطر الجسام.

---

(١) وفيات الأعيان ٢٨٦/١، والخطط ٢٨٤/٢ (وتوقف عند إقراره على إفريقية، وسماه تحريفاً : يوسف بن ملكين). وهو أبو الفتوح يوسف بن زيرى بن مَنَاد الحِمْيَرِىّ الصِّنْهاجىّ. ولاه المعز إفريقية ٣٦٢هـــ، وكان حسن السيرة، تام النظر فى مصالح دولته ورعيته، حتى توفى فى يوم الأحد ٢١، أو ٢٣ من ذى الحجة ٣٧٣هـــ فى عهد العزيز). (وفيات الأعيان ٢٨٦/١-٢٨٧، والبيان المغرب ٢٣٩/١).

(٢) ورد مشدداً فى (الكامل) جـــ٧ صـــ٣٦١، وقد يعنى أن ولايته على كل تلك المناطق تأمين للوجود العبيدى فى مصر. وورد مُعَرًّى من التشديد فى (اتعاظ الحنفا -ط.المجلس الأعلى) : ٢٣٨/١، وقد يعنى هذا أن العزيز بتوليته إياه على تلك المناطق قد أعطاه الأمان والثقة، ومنحه رضاه، فيداوم على طاعته.

(٣) ورد النص كاملاً فى (الكامل) ٣٦١/٧، ونقله عنه المقريزى (اتعاظ الحنفا -ط.المجلس الأعلى) جـــ١ صـــ٢٣٧-٢٣٨ بزيادة لفظة : (ومراقبة) فى (الكامل).

(٤) أخبار الدول المنقطعة ٣٣.

(٥) د.عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر صـــ ١١١-١١٢.

(٦) الكامل ٣٦٢/٧، وتاريخ ابن خلدون ٦٥/٤، واتعاظ الحنفا -ط.المجلس الأعلى -جـــ١ صـــ٢٣٨.

(٧) البداية والنهاية ٣٠٦/١١، ٣١٦، ٣٣٥ (على التوالى).

فبالنسبة للعلاقة مع بنى بويه، فقد كانت أعمال الجاسوسية بينهما قائمة[١]، والرسائل الودية متبادلة[٢]. وقرب وفاة عَضُد الدولة (ت ٣٧٢هـ) كاد أن يُسَيِّر الجيوش لمهاجمة مصر، لكن خروج أخيه فخر الدولة عليه حال دون ذلك، ثم أدركته الوفاة[٣].

وبخصوص علاقته بالروم، فقد عزم العزيز على جهادهم أكثر من مرة، وجهز لذلك الأساطيل اللازمة، لكن يبدو أن هناك عيوناً للروم بين الصفوف تآمرت على سفن بنى عبيد فأحرقتها[٤] وقد حكمت العلاقات مع الروم هدنةٌ بين الطرفين، أظهرت ما للإسلام آنذاك من عزة ومنعة[٥].

بالنسبة للعلاقة مع الأندلس:

لم أجد بخصوص صلة العزيز بالأمويين فى الأندلس من علاقة مباشرة، سوى ما تناقلته المصادر من حادثة وحيدة، تُنمّ عن مدى البغض والكراهية بين الجانبين. وملخص الواقعة: أن العزيز العبيدى كتب إلى الخليفة الحكم المستنصر الأموى بالأندلس كتاباً، يَسُبُّه فيه ويهجوه، فرد عليه المستنصر ردًّا مفحماً قائلاً له: " أما بعد، فإنك قد عرفتنا فهجوتَنا، ولو عرفناك لأجبناك[٦]. ويعلق الذهبى قائلاً: يعنى أن العزيز دَعِيّ فى نسبه لا تُعْرَف له قبيلة ينتسب إليها حتى يهجوه[٧] وهكذا، عرضنا لأهم أحداث عهد العزيز، الذى توفى يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من رمضان ٣٨٦هـ[٨].

ولى **الحاكم بأمر الله** بعد وفاة والده العزيز، وكانت سنه يومئذ حوالى إحدى عشرة سنة ونصف[٩]. وطَبعيّ ألا يكون الحاكم - فى تلك السن المبكرة - قادراً على الاضطلاع

---

(١) راجع أخبارها المبالغ فيها فى : أخبار الدول المنقطعة ٣٤، وتاريخ الإسلام ٢٦/٤٧١، واتعاظ الحنفا (ط.المجلس) ١/٢٦١.

(٢) الكامل ٧/٣٩٠، والعبر للذهبى ٢/١٣١، والبداية والنهاية ١١/٣١٤، وتاريخ الخلفاء ٤٦٥.

(٣) أخبار الدول المنقطعة ٢٥، واتعاظ الحنفا (ط.المجلس) ١/٢٥٢.

(٤) حدث ذلك سنة ٣٧٧هـ (تاريخ الإسلام ٢٦/٤٨١، والنجوم ٤/١٥٥). وسنة ٣٨٦هـ (اتعاظ الحنفا - ط.المجلس - ١/٢٩٠، والخطط ٢/١٩٦).

(٥) راجع شروط الهدنة فى : (النجوم الزاهرة ٤/١٥٥، وتاريخ الدولة الفاطمية د.حسن إبراهيم حسن صـ٢٥٧).

(٦) وفيات الأعيان ٥/٣٧٢-٣٧٣، وتاريخ الإسلام ٢٧/١٣٠، ومخطوط (أعيان العصر وأعوان النصر)، للصفدى (مصورة بدار الكتب) صـ٢١٠ (وذكر أنه لا تصح الرواية بالعكس (أى : لا يصح أن يكون العزيز هو صاحب الرد المفحم)؛ لأن الدعىّ فى نسبه هو العزيز لا المستنصر، فالأمويون نسبهم معروف مشهور، لا مجال للريبة فيه)، والنجوم ٤/١٥٣، والنفح ٣/٥٥٨، والمؤنس صـ٦٨.

(٧) تاريخ الإسلام ٢٧/١٣٠.

(٨) أخبار الدول المنقطعة صـ٤٢ (وذكر أنه توفى عن ٤٢ سنة، و٨ أشهر، و١٤ يوماً)، ووفيات الأعيان ٥/٣٧٤.

(٩) اتعاظ الحنفا (ط.المجلس الأعلى) جـ٢ صـ٤، ومصادر ترجمة الحاكم كثيرة، منها : مخطوط تاريخ القضاعى، =

بمسئوليات الحكم فى دولة متسعة الأرجاء كالدولة العبيدية. وقد كان الحسن بن عمار (شيخ كُتامة) ذا مكانة بارزة أيام العزيز، وتولى إدارة الدولة للحاكم، الذى خلع عليه فى الثالث من شوال سنة ٣٨٦هـ، ولقّبه (أمين الدولة)، فصارت إليه مقاليد الأمور. وقد أشار عليه أصحابه بالتخلص من الحاكم، لكنه لم يعبأ بذلك؛ استهانة به لصغر سنه. وفى الوقت ذاته، كان بَرْجَوان[1] يلازم الحاكم ويحرسه، ويمنعه الركوب، والظهور من قصره، ويتربص بابن عمار الدوائر؛ كى ينفرد بالوصاية على الحاكم من دونه. وحانت الفرصة لما اقتتل المغاربة والترك، وشارك ابن عمار فى القتال، فسادت الفوضى، وتدخّل برجوان فى الأمر ليصلحه فى الظاهر، وليغرى الغلمان والجند بابن عمار فى الباطن، حتى إنهم نهبوا داره، وكادوا يفتكون به. وتم المراد، وعُزل ابن عمار فى السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٨٧هـ، بعد حوالى أحَدَ عَشَرَ شهراً من النظر فى شئون الدولة[2].

حَلَّ برجوان محل ابن عمار فى الوصاية على الحاكم، ويذكر أبو شجاع[3] أنه كان يواصل النظر فى قصر الحاكم نهاره كله إلا ساعة وقت الظهيرة، ثم يعود إلى مباشرة أعماله حتى منتصف الليل، وأنه كان يوفى السياسة حقها، وينفذ كاتبه فهد بن إبراهيم الأمور بين يديه كأحسن ما يكون التنفيذ. وفجأة دبر الحاكم مع الخادم رَيْدان[4]، وبعض العبيد مؤامرة قتل برجوان، وتم تنفيذها فى السادس عشر من ربيع الآخر سنة ٣٩٠هـ[5]. وقد أحدث قتل

= ورقة ١٢٠، ومخطوطة التاريخ المُظَفَّرى، لابن أبى الدم الحَمَوِىّ (نسخة ٦٠٤ تاريخ بالمعهد) صـ١٦١، ووفيات الأعيان ٥/٢٩٢-٢٩٨، والبداية والنهاية ١١/٣٤٠، والخطط ٢/٢٨٥ وبعدها، والنجوم ٤/١٧٧ وبعدها.

(١) ترجمته فى : تاريخ الإسلام ٢٧/١٩٦، والبداية والنهاية ١١/٣٤٩-٣٥٠، والمقفى ٢/٥٧٢-٥٧٥.

(٢) تراجع تفاصيل ما دار من أحداث منذ ولاية الحاكم حتى عزل ابن عمار فى (الكامل ٧/٤٧٩-٤٨٠، وتاريخ ابن خلدون ٤/٧١-٧٢، والخطط ٢/٣٦-٣٧، واتعاظ الحنفا (ط.المجلس الأعلى) جـ٢ صـ٥، ١١-١٣ (حيث حُدِّدَتْ إقامته فى داره، وأُطلقت له عطاياه كالمعتاد). وفى المصدر السابق ٢/٢٦ : أُذن له بالركوب إلى القصر عدة أيام من (٥ من شوال إلى ١٤ من شوال ٣٩٠هـ)، ثم أوعز الحاكم إلى مجموعة من الأتراك أن يقتلوه عند مُنْصَرَفِه من القصر.

(٣) ذيل تجارب الأمم ص ٢٣٠.

(٤) يُنسب إليه البستان المعروف بـ (الرَّيْدانيّة) الموجود خارج باب الفتوح، وهو أحد أبواب القاهرة. وقد قتل الحاكم ريدان الصقلبى هذا بعد ذلك على يد صاحب السيف مسعود الصقلبى أوائل سنة ٣٩٣هـ. (وفيات الأعيان ١/٢٧١، والخطط ٢/١٣٩). وقد فات مُحَقِّقَىْ كتابَىْ : (تاريخ الإسلام) ٢٧/١٩٦، و(اتعاظ الحنفا) جـ٢ صـ٢٥ وغيرها، تصويب هذا العَلَم، فأثبتاه بالزاى (زيدان) بدل الراء، وهو غير صحيح.

(٥) ذيل تجارب الأمم ٣١، وذيل ابن القلانسى صـ٥٥، والكامل ٧/٤٨٢ (قتل ٣٨٩هـ، وهو غير صحيح)، وتاريخ الزمان لابن العبرى صـ٧٤ (قال مقالة ابن الأثير)، وتاريخ ابن أبى الهيجاء ٧٧-٧٨، والخطط ٢/٣-٤، واتعاظ الحنفا ٢/٢٥-٢٦.

برجوان غِيلَة هزة عنيفة فى الدولة بين الأولياء والعوامّ على سواء، حتى اضطر الحاكم إلى جمع الناس، وشرح ملابسات قتله برجوان، بل أصدر مرسوماً، ضَمَّنَه أسباب ذلك، حتى هدأت الأحوال، واستقرت البلاد[١].

دخل الحاكم - بعد تخلصه من برجوان - مرحلة جديدة، انفرد خلالها بالحكم، وتخلص من الوصاية، التى كانت مفروضة عليه، فإذا به وكأنما أُطلق من عِقال، وفُكَّ من إسار، وإذا به يقوم بعدة إجراءات، ويصدر مجموعة من القرارات الغريبة التى هزت المجتمع هزاً[٢]، وتحول إلى وحش كاسر متعطش إلى الدماء، يسفكها بغزارة، ولا يكاد ينجو من سيفه البتّار أحد من رجالات دولته المقربين إليه[٣]. وانعكس ذلك -ولا شك- على الناس جميعاً بجميع فئاتهم وطبقاتهم، فكأنما يعيشون فى سجن كبير. وقد حاول الباحثون[٤] تعليل هذه الظاهرة العجيبة (عهد الحاكم، وأفعاله)، وحاولوا تَفَهُّمَه، وتعليل تصرفاته، وتَلَمُّسَ الجوانب المضيئة خلال فترة حكمه. ورغم ذلك، فإنى أعتقد أننا لا نزال فى حاجة لتضافر الجهود لدراسة نفسية هذا الرجل، وتحليلها على النحو المَرْضِيّ.

وعلى كل، فقد ظلت أمور الدولة وعلاقاتها الخارجية تمضى بقوة الدفع، التى خلّفها له جده وأبوه من قبل. فقد ظلت هيمنة العبيديين على الحجاز[٥]، ونفوذهم فى إفريقية قائمًا.

---

(١) أسهب أبو شجاع فى ذكر أسباب قتل برجوان، فذكر أنه شدد على الحاكم، وضيق عليه بكثرة النصح والتهذيب، فمنعه الركوب؛ خوفاً عليه، ومنعه التبذير فى غير موضع الاستحقاق، فاحتملها الحاكم ذنوباً له. كما أن ريدان أوقع بينهما لما أغرى الحاكم به، بأنه يريد أن يجعل من نفسه كافوراً، ومن الحاكم ابن الإخشيد فى الحجر عليه. (ذيل تجارب الأمم ٢٣٠-٢٣١). واقتضب ابن الأثر (الكامل ٤٨٢/٧)، وابن خلدون (تاريخه ٧٢/٤) الأسباب بقولهما : لازم برجوان خدمته، فثقل مكانه على الحاكم. أما الأسباب التى ذكرها الحاكم بنفسه، فهى عدم قيامه بالخدمة وتهاونه، وانشغاله باللهو، وإساءته الأدب معه (ذيل ابن القلانسى ٥٥-٥٧، واتعاظ الحنفا ٢٥/٢-٢٩). ويمكن أن أضيف تقربه للقلوب، واصطناعه الغلمان والمشارقة (النجوم الزاهرة فى حُلَى حضرة القاهرة) صـ٥٥. فلعل ذلك كله عجّل به؛ لينفرد الحاكم بالحكم.

(٢) تراجع تفاصيل إجراءاته حول : العمل ليلاً، ومنع النساء من الخروج عشاء، واضطهاد أهل الذمة وهدم كنائسهم، ومنع بيع وأكل بعض الأطعمة، وإشاعة التجسس على الناس فى : ذيل ابن القلانسى ٦٦-٦٨، وتاريخ الزمان ٧٦-٧٧، وكنز الدرر ٢٧٨/٦، والخطط ٢٨٦/٢، ٤٩٦، واتعاظ الحنفا ٣٨/٢، ٥٣.

(٣) رأينا قتله برجوان، وابن عمار، وريدان. وقتل جماعة أعيان ٣٩٥هـ (النجوم ٢١٣/٤).

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور شلبى ١٣٣/٥-١٤١ (إيجابياته، ونشأته المضطربة)، و(مصر العربية الإسلامية)، للدكتور الخربوطلى صـ٥٢، ١٥٥ (غاياته طيبة، لكن أخطأ فى الوسائل، فبدا شاذًا)، و(الحاكم بأمر الله) لعنان صـ١٦٥-١٧٤ (وتفسير مجمل لتصرفاته الشاذة)، والدكتور أحمد كامل فى ماجستيره (الحاكم بأمر الله فى عصره) صـ٥٢-٥٣، ٦٩، ٧٨ - ٨٧ (كان على وعى بما يدور حوله، ثم انتقم لنفسه، ويحرص على العدالة، ومن قتلهم يستحقون القتل).

(٥) خُطب له هناك ٣٩٤، ٣٩٥هـ (البداية والنهاية ٣٥٦/١١-٣٥٧).

وبفضـــل الأسطول الذى أقامه العزيز تم صد الهجوم البيزنطى على الشام(١)، فعُقدت هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات(٢). ويبدو أن سياسته الداخلية الغاشمة الباطشة(٣) كانت من عوامل ثـــورة أبي رَكْوَةَ على الحاكم، والتي كلفته كثيراً، حتى تغلب عليها(٤). وتمضى الأمور على هذا النحو حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، وهو منتهى تلك الدراسة، بإذن الله.

ب- الأوضاع السياسية فى الأندلس فى القرن الرابع الهجرى:

ولى الأمير **عبد الله بن محمد** حكم الأندلس فى الفترة الممتدة من يوم السبت السابع عشر مـــن صفر سنة ٢٧٥هـــ إلى يوم وفاته (الثلاثاء) التاسع والعشرين من صفر سنة ٣٠٠هـــ(٥). وخـــلال هذه الفترة التى تربو على خمسة وعشرين عاماً أياماً قلائل(٦)، لم يهدأ للأمير عبد الله بال، ولم يَقَرَّ له قرار؛ ذلك أنه ورث تركة ثقيلة فى حكم البلاد. لقد تتابعت طَوالَ عهده المحن والـــثورات، وتغلـــب الخارجون على مختلف الجهات بالأندلس(٧)، حتى أتى على الأمير وقت، كانت فيه خيول عمر بن حَفْصُون(٨) زعيم الثوار غادية ورائحة بجوار قرطبة وضواحيها، تهدد

---

(١) جعله ابن الأثير أول فتح خلال وصاية برجوان سنة ٣٨٦هـــ. (الكامل ٧/٤٨٠-٤٨١). والظاهر وقوع اشتباكات بحرية أخرى سنة ٣٨٩هـــ (ذيل تاريخ ابن البطريق) صـــ٢٤٣-٢٤٦.

(٢) ورد ذكر الهدنة سنة ٣٦٨هـــ، لمّا راسل برجوان بسيل ملك الروم (ذيل أبي شجاع صـــ٢٣٠، والكامل ٧/ ٤٨٢). وورد ذكر هدنة أخرى سنة ٣٩٠هـــ (ذيل تاريخ الأنطاكى) صـــ٢٤٨.

(٣) ذكر ابن خلدون فى المقدمة ٢/٥٧٥ : أن مغالاة أى حاكم فى البطش مُضرّ بالمُلْك، ومفسد له فى الأكثر. وقد أدى ذلك لمقتل الحاكم ٤١١هـــ، وهناك روايات تفيد تألُّهه، وتذكر مظاهر ذلك (النجوم ٤/١٨٤-١٨٧)، وحسن المحاضرة ٢/٢٩١، (وتاريخ الخلفاء) صـــ٤٧١. وأرجح وقوعه، فهو من مظاهر تقديس الأئمة عندهم (دعائم الإسلام) للقاضى النعمان ١/٣٤٩-٣٥٠.

(٤) يُنسب لبنى أمية بالأندلس، ويزعم دعوته إلى التقوى والعدل فى الحكم بدل بطش الحاكم وجبروته، وكان يريد أخذ مصر، ولأنصاره الشام، وقُتل ٣٩٦هـــ. (البيان المُغرب ١/٢٥٧-٢٥٨، والنجوم ٤/٢١٦-٢١٨).

(٥) هذا هو التاريخ الذى اخترته ؛ لمعاصرة صاحبه للأحداث (العقد الفريد لابن عبد ربه، مجلد ٣ جـــ٥ صـــ٢٥٩).

(٦) جعل ابن الخطيب هذه الأيام ١٥ يوماً (أعمال الأعلام ـقسم الأندلس) : صـــ٢٨. والصواب - عندى - أن هذه الأيام تبلغ اثنى عشر يوماً.

(٧) كبير الثوار فى الأندلس، بدأ خروجه وعصيانه فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـــ)، وذلك سنة ٢٦٧هـــ بناحية (ريَّة)، وقويت شوكته بانضمام المُوَلّدين إليه، زاعماً أنه يريد تحريرهم من العبودية. كاد الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـــ) يقضى عليه لولا موته. تحصن بقلعته الحصينة فى (بُبَشْتَر)، وتمكن الأمير عبد الله من هزيمته، ثم توفى سنة ٣٠٥هـــ، وولى بعده أولاده : جعفر، ثم سليمان، ثم حفص، وبعد ذلك انقرض أمرهم. (المقتبس، ط.العربى) صـــ٧٢ وما بعدها، وجذوة المقتبس ٢/٤٦٧-٤٧٧، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) صـــ٣١ وبعدها، والإحاطة ٤/٣٨-٤٢).

(٨) كبير الثوار فى الأندلس، بدأ خروجه وعصيانه فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـــ)، وذلك سنة ٢٦٧هـــ بناحية (ريَّة)، وقويت شوكته بانضمام المُوَلّدين إليه، زاعماً أنه يريد تحريرهم من العبودية. كاد الأمير المنذر بن محمد (٢٧٣-٢٧٥هـــ) يقضى عليه لولا موته. تحصن بقلعتـــه الحصينة فى (بُبَشْتَر)، وتمكن =

قصر الأمير نفسه كل حين[١].

وبالرغم مما حل بالأندلس خلال عهده؛ نتيجة تراكمات عهود سابقة، وعدم قدرة الأمير على تدارك الأمر، إلا أنه امتاز بالثبات العظيم فى مواجهة الثورات والضربات المتوالية[٢]، ونجح فى إنـــزال الهزيمة بابن حفصون[٣]، وظل حتى أواخر عهده يرسل الصوائف ضد الخارجين[٤]، على قلـة فى الموارد، وضعف فى الإمكانات، وندرة فى النُّصَراء.

هيأت الأقدار الأمير **عبد الرحمن الثالث**[٥] حفيد الأمير عبد الله، لإنقاذ الأمة الأندلسية من التـردى والضياع. لقد ولى حكم البلاد، والأعداء متربصون به من كل جانب، وكان عليه أن يـتوج كفاح جده، فيعيد الوحدة للبلاد، والهيبة للأمويين، فينقذ الأندلس من نفسها، ويتفرغ لنصارى الشمال المُحْدقين بها.

الأمير عبد الرحمن الثالث وتوحيد الجبهة الداخلية:

حـــدد عـــبد الرحمن الثالث أعداءه جيداً، وسلك الطرق العملية الموصلة إلى القضاء على هـــؤلاء الأعداء، واحداً تلو الآخر. ومن أوائل المناطق التى أخضعها الأمير عبد الرحمن لسلطانه

- الأمير عبد الله من هزيمته، ثم توفى سنة ٣٠٥هـــ، وولى بعده أولاده : جعفر، ثم سليمان، ثم حفص، وبعد ذلك انقرض أمرهم. (المقتبس، ط.العربى) صـــ٧٢ وما بعدها، وجذوة المقتبس ٢/٤٦٧-٤٧٧، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) صـــ٣١ وبعدها، والإحاطة ٤/٣٨-٤٢).

(١) أخبار مجموعة صـــ١٣٣.

(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور حسين مؤنس صـــ٣٠٦.

(٣) من أهمها : غزوة بُلى poley ضد ابن حفصون، التى أسستْ كل غزوة تقدمتْها (العقد الفريد مجلد ٣ جـــ٢ صـــ٢٥٩). وتناولها الذهبى فى (تاريخ الإسلام) ٢٢/١٨٥، وقال: نكّد فيها ابن حفصون خسائر فادحة، وكان لها دورها فى انكسار شوكته بعد ذلك أيام عبد الرحمن الثالث. وجعلها ابن الخطيب فى (الإحاطة) جـــ٤ صـــ٤١، سنة ٢٧٧هـــ. والصواب: أنها سنة ٢٧٨هـــ (المقتبس -ط د.إسماعيل العربى) صـــ١١٦ وما بعدها، وعنان فى : دولة الإسلام فى الأندلس، العصر الأول، القسم الأول صـــ٣٢٥.

(٤) منها صائفته إلى (ببشتر) معقل ابن حفصون الحصين، وكذلك إلى غيره من الخارجين سنة ٢٩٩هـــ، (المقتبس - ط.العربى) صـــ١٦٨، ١٦٩.

(٥) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية (الداخل). أهَّلته كفاءته أن يلى بعد جده، وكان عمره يوم قُتل أبوه يوماً، أو عشرين يوماً. وكفله جده وأحسن تنشئته للمهمة المقبلة، التى تنتظره. ولد حوالى ٢٧٧هـــ، وولى ٣٠٠هـــ، وتوفى ٣٥٠هـــ بعد ما نجح فى توحيد الأندلس، والقضاء على الأعداء فى الداخل والخارج (العقد الفريد مجلد ٣ جـــ٥ صـــ٢٦٠، ٢٦٤، وأخبار مجموعة ١٣٥-١٤١، والكامل ٧/٢٧٠، والحلة السيراء ١/١٩٧-٢٠٠، والبيان المغرب ٢/١٥٦ وما بعدها، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) صـــ٢٨-٤١).

(إشْبيلَة)[١]. وكان بنو حَجَّاج قد استقلوا بالأمر هناك[٢]. وبعد وفاة (إبراهيم بن حَجَّاج) سنة ٢٨٨هـ[٣]، ولى ابنه عبد الرحمن حتى توفى سنة ٣٠١هـ. فلما مات اجتمع أهل إشبيلية على تولية (أحمد بن مسلمة)؛ مما دفع (محمد بن إبراهيم بن حجاج)[٤] إلى مخالفته، والاتصال بالأمير عبد الرحمن الثالث، الذى بعث جيوشه لمحاربة ابن مسلمة، وأمر محمد بن إبراهيم بن حجاج بالتضييق على أهل إشبيلية، وعقد له مع قاسم بن الوليد صاحب شرطة الأمير لإتمام هذه المهمة. فلما حوصر ابن مسلمة، استغاث بجيوش عمر بن حفصون، الذى أغاثه بالفعل، لكن جيوش الأخير هُزمت، واضطر إلى الفرار من المعركة. هنا قلّب ابن مسلمة الأمر على وجوهه، وعلم أن لا طاقة له بالحرب، وأصلح ما بينه وبين الأمير عبد الرحمن مقابل أن يوليه إشبيلية. وبذلك دخلت قوات الناصر هناك دون قتال. لم يعجب هذا الأمر محمد بن إبراهيم بن حجاج، واعتدى على بعض أغنام لأهل قرطبة، وهو فى طريقه إلى قَرْمُونَة[٥]، ولم يرفع الحصار عن إشبيلية كما أُمر بذلك، بل سار من قرمونة إلى إشبيلية مهاجماً إياها. هنا أرسل الأمير عبد الرحمن مزيداً من القوات لتأمين إشبيلية، وما زال يتودد إلى محمد بن إبراهيم بن حجاج ويلاينه،

---

(١) مدينة كبيرة عامرة حصينة ذات أسوار، وأسواق كثيرة. أهلها مياسير، وجُلّ تجارتهم الزيت. هواؤها طيب، ولها شجر الزيتون، وسائر الفواكه. تفوق غيرها من نواحى الأندلس بزراعة القطن، وتصدره للمغرب وبقية مدن الأندلس، وتقع على النهر الكبير (نهر قرطبة)، وتسمى حمص الشام ؛ لنزول أهل حمص من المشرق بها، (البلدان لليعقوبى ١١٠، ونزهة المشتاق للإدريسى ٢٣٩/١، ٥٤١/٢، ورحلة ابن جبير ٢٣٢-٢٣٣، ووصف الأندلس لابن الشّباط ١٣٨-١٣٩، ١٦٤).

(٢) كان بيت بنى حجاج بيت رياسة وشرف بإشبيلية، وقد استبدوا بالأمر دون بنى أمية، وكان إبراهيم بن حجاج زعيمهم، فخالف الأمير عبد الله، ثم هادنه على أن يوليه بلده ولا يعرض له. فجبى الأموال، وأخضع الرجال، وتبسط على الأمير عبد الله، حتى ساء ما بينهما، فحدث الخلاف والتحالف مع ابن حفصون، (البيان المغرب ٢/ ١٢٥-١٢٩، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) صـ٣٤-٣٥.

(٣) البيان المغرب ١٢٩/٢، وأعمال الأعلام ٣٥. ومن ثم، فلا يصح ما ورد فى كتاب : (التاريخ السياسى لمدينة إشبيلية فى العصر الأموى) للدكتور حمدى عبد المنعم صـ١٠١، من أن وفاته سنة ٢٩٨هـ/٩١٠-٩١١م).

(٤) وكان محمد هذا مقيماً فى مدينة قَرْمُونَة، وله بها فضل وشهرة زاد بها على أبيه، وظل يحكم حتى بعد وفاة أبيه، وإلى ممات أخيه. ولم يستقر بإشبيلية ولا حكمها. وكان له جاه يفوق أخاه، فمُدح بجيد الأشعار، ومنح المادحين، وكانت دولته أضخم من دولة أخيه وأطول ؛ إذ عاش بعد وفاة أبيه ١٤ سنة. وتوفى أخوه سنة ٣٠١ هـ، فقيل : دس لأخيه جارية سَمَّته، فمات. توفى هو سنة ٣٠٢هـ، وبموته انقضى أمر بنى حجاج (البيان المغرب ١٢٩/٢، وأعمال الأعلام ٣٥).

(٥) سماها ياقوت (قرمونية)، وذكر أن أكثر الناس يسميها (قَرْمُونَه). قال فى (معجم البلدان) ٣٧٥/٤ : هى كورة بالأندلس، يتصل عملها بأعمال إشبيلية، غربى قرطبة وشرقى إشبيلية، قديمة البنيان، عصت الأمير عبد الرحمن بن محمد، فخربها بجنده وفتحها، ثم عادت إلى بعض ما كانت عليه.

حـــتى عـــاد إلى الطاعـــة والجماعة. ثم أنزله الأمير قُرْطُبَة[(١)]، على أن يترك نائباً عنه فى قرمونة، وأحســـن الأمير إليه وإلى من معه، وأكرمهم ووصلهم، بل ولاه الوزارة من حينه، حتى وقع ما أغضـــب الأمير عليه فحبسه وعزله[(٢)]، ثم أطلقه، فمات بعدها بقليل فى شهر شوال سنة ٣٠٢ هــ[(٣)]. وبذلك انقضت أيام بنى حجاج الثائرين بإشبيلية.

من الثوار الذين عُنِى الأمير عبد الرحمن بالقضاء على ثورتهم **عمر بن حفصون وأولاده من بعـــده**. وقد كان عمر قد حل به الضعف فى عهد عبد الرحمن، ورأى أن يسالم الأمير، فأمّنه، وكـــتب لـــه عهـــداً ولعَقِبه من بعده ما وَفَوْا. وارتهن عنده عبدَ الرحمن بن عمر بن حفصون؛ لضمان تنفيذ الاتفاق. لكن الأمر اختلف بعد موت ابن حفصون سنة ٣٠٥هــ[(٤)] إذ عاود بنوه نُكْثَ العهد، وشق عصا الطاعة، وقطع الطرق، والاعتداء على الآمنين، لكن الأمير عبد الرحمن وجيوشه كانوا لهم بالمرصاد، حتى وفاة حفص آخرهم بعد سنة ٣٢٠هــ[(٥)].

بعد أن نجح الخليفة عبد الرحمن الناصر فى افتتاح مدائن غربىّ الأندلس[(٦)]، سَمَتْ همته لفتح مديـــنة طُلَيْطِلَة[(٧)]. ورأى الناصر -قبل أن يرسل إليها الجيوش -أن يقدم الإعذار والإنذار أولاً؛

---

(١) هى أعظم مدن الأندلس، وهى قاعدة الأندلس، وأم المدائن، ومُستقَرّ الخلافة، ودار الإمارة. بينها وبين الساحل خمس ليال. وآثار بنى أمية بها ظاهرة، وبها الجامع المشهور. وهى حصينة بسور من حجارة، ومبانيها متصلة من الشرق والشمال، ومساكن العامة فى ربضها، وأكثر ركوب أهلها البغلات (المسالك والممالك لابن خُرْدَاذْبَة ٨٩، والمسالك والممالك للإصْطَخرى ٣٥، ونزهة المشتاق ٢/٥٧٤-٥٧٥، وفرحة الأنفس لابن غالب صـــ٣٦).

(٢) ابن حيان فى (المقتبس) : ٥/٨٣-٨٤.

(٣) تراجع التفاصيل فى المقتبس ٥/٦٩ وما بعدها، والبيان المغرب ٢/١٢٩-١٣١، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ٣٥، وتاريخ ابن خلدون ٤/١٧٥، والتاريخ السياسى لمدينة إشبيلية، للدكتور حمدى عبد المنعم صـــ١٠٢-١١٨.

(٤) المقتبس لابن حيان ٥/١٣٨، وهو أرجح من تاريخ ٣٠٦هــ، الذى أورده ابن الخطيب فى (الإحاطة) ٤/٤٢، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) صـــ٣٢. وقد بعد كل من الضبى فى (بغية الملتمس) صـــ٤٠٦، والذهبى فى (تاريخ الإسلام) ٢٠/٤٠٧، لما ذكرا وفاته سنة ٢٧٥هــ.

(٥) تعاقب بعد وفاة عمر بن حفصون بنوه : جعفر، ثم سليمان، ثم حفص. وقد حاصرتهم قوات الناصر فى قلعتهم الحصينة (بُبَشْتَر)، التى مات بها أبوهم (فى كورة رَيّة). وقاد الناصر الحملات بنفسه سنة ٣٠٨، ٣١١هــ، ثم أوفد قائده الوزير عبد الحميد بن بسيل سنة ٣١٤هــ (بسبب القحط). وأنزل بهم ضربات موجعة، وماتوا واحداً بعد الآخر، و لم ينخدع الناصر بطلبهم الأمان ؛ لتعدد نكثهم وخيانتهم، خاصة بعد التأكد من ارتدادهم، ودفن أبيهم عمر، وأخيهم سليمان على النصرانية (المقتبس ٥/١٦٨-١٦٩، ١٨٤-١٨٥، ٢٠٤-٢٠٦، ٢٠٩-٢١٢، والبيان المغرب ٢/١٨٠، ١٨٣-١٨٤، ١٩٢-١٩٧، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ٣٢-٣٤، ودولة الإسلام فى الأندلس لعنان (العصر الأول، القسم الثانى) صـــ٣٨٣-٣٨٦).

(٦) مثل : باجَة، وأكْشُونِيَة، ومارِدَة، وبَطَلْيَوْس، وشَنْتَرِين. وذلك سنة ٣١٧هــ (المقتبس ٥/٢٤٥-٢٨٠).

(٧) هى أم المعاقل، وقاعدة المدائن منذ الملوك الأوائـــل، وليس فى الجزيرة أمنع منها. وأهلها أخلاط من العـــرب، =

كـــي يقطـــع على أهلها وقادتها الحجة، فأرسل إليهم وفداً من أكابر الفقهاء والشخصيات[١]، داعـــياً إياهم إلى الطاعة والجماعة. فلما تبين له خداعهم، خرج إليهم بالجيوش سنة ٣١٨هـــ، وقـــد أعمل فكره وعقله وخبرته فى تشديد الحصار على طليطلة ومن بها[٢]. وفى سنة ٣١٩هـــ واصـــل إرسال قادته وجيوشه إلى هناك؛ لمزيد من تشديد الحصار[٣]. وفى سنة ٣٢٠هـــ خرج الناصـــر بنفســـه يغـــزو تلك المدينة الحصينة للمرة الثانية.وقد حاول أهلها وقادتها الاستنجاد بالنصارى فى الشمال، لكن قوات الناصر تصدت لهم، وأجبرتهم على الفرار؛مما دفع قائد وأمير طلـــيطلة (ثعلبة بن محمد بن عبد الوارث) إلى طلب الأمان، فأمّنه الناصر، وعفا عنه.فامتثل أهل طلـــيطلة فعله، فأمّن الناصر الجميع، وهدم ما رأى هدمه من المدينة، وأعاد تجديد ما رآه، وترك فيها من القوات والقادة ما يضمن حسن السيطرة عليها[٤].

تعد غزوة الخليفة الناصر لسَرَقُسْطَةَ[٥] سنة ٣٢٥هـــ، وما تبعها من استئمان صاحبها (محمد ابن هاشم التجيـــبى) سنة ٣٢٦هـــ[٦] أعظم برهان على ما يمتلكه الناصر وجيوشه وقادته من قدرات فائقة على الحرب والتدبير، والحصار الطويل، وإرغام العدو – فى النهاية – على الانصياع للطاعة، والاستسلام للجماعة[٧].

- والبربر، والموالى. وبها نهر عظيم (تاجُه)، وأهلها خارجون عن الطاعة، ولا يدفعون لبنى أمية جباية. كانت عاصمة الروم، ووجد بها المسلمون كنوزاً هائلة. بها فواكه وبساتين عديمة المثال (البلدان صـــ١١١-بكسر الطاء الثانية، والمسالك والممالك للإصطخرى ٣٦، ونـــزهة المشتاق ٢/٥٥١، ٥٥٢، ومعجم البلدان ٤/٤٥-٤٦، بفتح الطاء الثانية، وفرحة الأنفس صـــ١٩، بضم الطاء الثانية، ووصف الأندلس لابن الشباط صـــ١٤٨، والمغرب فى حلى المغرب (قسم الأندلس)، ٢/٨-٩، ونفح الطيب ١/١٥٦-١٥٧).

(١) من أكابر الفقهاء:محمد بن عبد الملك بن أيمن، ومحمد بن عبد الله بن أبى عيسى.ومن وجوه أهل الخدمة:عُبيد الله ابن عبد الله الزَّجَّالى فى نفر معهم.(المقتبس ٥/٢٨٠).

(٢) البيان المغرب ٢/٢٠٢-٢٠٣، والمقتبس ٥/٢٨٠-٢٨٤).

(٣) البيان المغرب ٢/٢٠٤، والمقتبس ٥/٢٨٧-٢٨٨.

(٤) مروج الذهب ١/١٣٩، والمقتبس ٥/٣١٧-٣٢٢، والكامل ٧/٣٦-٣٧ (وجعل تاريخها سنة ٣١٥، وهو غير صحيح)، والبيان المغرب ٢/٢٠٦-٢٠٧، ومخطوط عيون التواريخ (نسخة الظاهرية) ورقة ١٦ (ومعلوماته غـــير صحيحة، إذ جعل الفتح تم قهراً ؛ لنقض الطاعة، وأن خلقاً من أهلها قتلوا، كما جعل تاريخها ٣١٦هـــ)، وتاريخ ابن خلدون ٤/١٨١، والمسلمون فى الأندلس لدوزى (ترجمة:د.حسن حبشى)١/٢٣١-٢٣٦).

(٥) بلدة مشهورة بالأندلس، تتصل أعمالها بأعمال تُطيلة. ذات فواكه عذبة، ولها فضل على سائر فواكه الأندلس، وتقع على نهر كبير، وتنتج الثياب والمنسوجات الرقيقة الراقية، وتشتهر بالملح الأبيض الصافى. (معجم البلدان ٣/ ٢٤٠، ووصف الأندلس لابن الشباط ١٥٠).

(٦) نص الأمان فى (المقتبس) ٥/٤٠٥-٤٠٧. وشهده من الفقهاء : عمر بن يحيى بن عمر بن لبابة (الذيل والتكملة، للمراكشى، السفر الخامس، القسم الثانى صـــ٤٧٢ (رقم ٨٣٩). لكن به تحريفاً ؛ إذ جعل انخلاع هذا الثائر سنة ٣٣٦هـــ، بدلاً من ٣٢٦هـــ.

(٧) المقتبس ٥/٣٥٧-٣٦٥، ٣٩٣، ٣٩٩، وترصيع الأخبار للدّلائى ص٤٥.

وهكذا، نجح الناصر بهذه المعارك التى خاضها، وبغيرها[١]، وبإجادته فن الحصار، واستنزال القواد وتأمينهم، فى توحيد البلاد تحت رايته.

علاقات الناصر مع نصارى الشمال:

لم يكن حرص الناصر على إخضاع كافة الثائرين لسلطان بنى أمية بالأندلس نابعاً من فراغ، وإنما كان عملاً له ما وراءه من مواجهة اعتداءات نصارى الشمال، وكَفّ ترويع الآمنين فى مناطق الثغور خاصة، وإبراز هيبة المسلمين كعامل مهم يردع به أطماع ممالك الشمال المسيحية[٢]. لقد توالت انتصارات الناصر الداخلية، وأحسن قيادة جيوشه، وأحسن التصرف مع شعبه ومع الثائرين عليه، حتى استقطبهم، وضمهم إلى صفوفه، فحرم أعداء الشمال من تأييد حكام الثغور. لقد كان نجاح الناصر -فى تحقيق ذلك كله - يُعَظِّم فرصة انتصاره على النصارى، ويحقق أهدافه حِيالَهم[٣].

علاقة الناصر بالمغرب:

ونعنى بذلك موقفه من العبيديين المناوئين لأهل السنّة، وموقفهم منه. ولا شك أن العداء الشديد متبادل بين الطرفين؛ نظراً لاختلاف المذهب من جهة، ولتناقض المصالح من جهة أخرى. وقد بذل كلا الطرفين ما فى وسعه -فى ضوء ظروفه الداخلية، وعلاقاته الخارجية - للسيطرة على الآخر، بل لتقليص نفوذه فى مناطق سيادته؛ توطئة للقضاء عليه. لقد تطلع العبيديون للسيطرة على المغرب الأوسط والأقصى؛ تمهيداً للعبور إلى بلاد الأندلس ونشر التشيع بها. وفى الوقت نفسه أحسَّ الناصر -منذ ادعاء العبيديين الخلافة -خطورتهم الشديدة، وتهديدهم القوى لدولته، خاصة وهم يمتلكون أسطولاً بحرياً قوياً، يستطيعون به العبور إلى الأندلس.

---

(١) مثل، فتح إِلْبِيرَة (٣٠٠هـ). (المقتبس ٥/٦٦)، وفتح القائد أحمد بن محمد بن إلياس ماردة صلحاً ٣١٦هـ (السابق ٥/٢٣٨ وبعدها). وقبل ذلك إخضاع بنى ذى النون بكورة شَنْتَ بَرِيّة ٣١٢هـ (السابق ٥/١٩٥-١٩٦، وثورات البربر فى الأندلس فى عصر الإمارة الأموية (١٣٨-٣١٦هـ) للدكتور حمدى عبد المنعم ص٦٣).

(٢) وهى ممالك : ليون، ونبره (نافار)، وقشتالة. (حول التعريف بها، وبظروفها الداخلية التى أثرت فى علاقاتها بالمسلمين فى الأندلس يراجع : صبح الأعشى ٥/٢٧٠، وكتاب الدكتور رجب عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية) ص١٩٣-٢١٠.

(٣) حول عوامل القوة فى عهد الناصر، وتأثيرها فى العلاقات بإسبانيا النصرانية ينظر فى (العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية) ص١٦٦-١٦٨، ويمكن مطالعة أخبار بعض حروب الناصر ضد نصارى الشمال سنوات : ٣٠٨، ٣١٢، ٣٢٧هـ (ضد نصارى جليقية، والبشكنس، وجموع النصرانية من الجلالقة فى موقعة الخندق) فى : (المقتبس ٥/١٥٩-١٦٨، ١٨٩-١٩٥، والبيان المغرب ٢/١٨٤-١٨٩، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ص٣٦.

ويمكن تحديد المعالم العامة لسياسة الناصر فى بلاد المغرب فى النقاط الآتية:

١ – قطع الصلة بين العبيديين بالمغرب، وثوار الأندلس (خاصة عمر بن حفصون)(١).

٢ – استغلال الصراع القائم ببلاد المغرب بين صِنْهاجة وكُتامة الموالين للعبيديين من جهة، وبين زَنَاتَة المعادين لهم من جهة أخرى، إذ قام الناصر بتأييد زناتة، ومدها بما تحتاج إليه من سلاح وعتاد؛ لزعزعة استقرار العبيديين بالمغرب(٢).

٣ – إعلان الناصر قيام الخلافة الأموية بالأندلس فى ذى الحجة سنة ٣١٦هـ، ونصَّب نفسه أميراً للمؤمنين(٣)، متحدياً بذلك بنى عبيد، مهدداً نفوذهم.

٤ – الترحيب بكافة الخارجين على طاعة العبيديين، وتقديم الرعاية لهم فى الأندلس(٤)، وإرسال الجيوش الأندلسية التى تمكنت من ضم سَبْتَة(٥) وطَنْجَة(٦)؛ مما ساعد على التحكم فى الشواطئ القريبة من الأندلس، ومنع الأسطول العبيدى من الهجوم على الأندلس.

وبعد، فقد وُفِّق الخليفة الناصر فى إدارة شئون الأندلس (داخلياً، وخارجياً)، رغم قسوة وصعوبة الظروف، التى ولى فيها أمور البلاد، لكن كما يقول المثل العربى: (وَافَقَ شَنٌّ طَبَقَة)(٧). ولعل من أفضل من عبّر عن منجزات الناصر بصدق مُنْذر بن سعيد القاضى فى خطبة له بين يديه، إذ يقول: " ألم تكن الدماءُ مسفوكةً فحقنها، والسبلُ مَخُوفَةٌ فأمَّنها، والأموالُ مُنْتَهَبَةٌ فأحرزها، والبلادُ خراباً فعمرها، والثغورُ مُهْتَضَمَةً فحماها ونصرها ؟"(٨).

وبالنظر والتأمل فى عوامل نجاح الناصر، يمكن رصد الخطوط العامة لسياسته كما يلى:

١ – تقديم الاهتمام بالأولويات دون التشاغل بتوافه الأمور(٩)، التى يمكن أن يقوم بها

---

(١) البيان المغرب ٢/١٦٥، وتاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والأندلس للدكتور سيد سالم، والدكتور مختار العبادى ص١٧٤.

(٢) البيان المغرب ١/١٨٠.

(٣) المقتبس ٥/٢٤١-٢٤٢، وبحث: (مظاهر من الصراع المذهبى بالأندلس) د.فرحات الدشراوى فى (المجلة العربية للثقافة) ع ٢٧، ١٩٩٤م، ص٢٥-٢٦.

(٤) البيان المغرب ١/١٧٥.

(٥) السابق ١/١٨٨.

(٦) الاستقصا ١/١٧٨.

(٧) وهو يُضرب للمتوافقين فى الشدة وغيرها، فظروف الأندلس عند تولى الناصر شئونها كانت قاسية، وهو رجل هذه الظروف، وعلى موعد مع القدر؛ لمصارعتها والتغلب عليها. (لمزيد من شرح مورد المثل، وأصل مضربه، يراجع: لسان العرب، مادة ش.ن.ن، ج٤ ص٢٣٤٥، والمعجم الوسيط ١/٥١٦، ومعجم الأدباء لياقوت ج١١

سواه: فاهتم بشأن الثغور وحمايتها، وتأمين أهلها وحل مشكلاتهم، واستشارة ذوى الخبرة فيما يصلح لهم[١].

٢ – حسن تنظيم الدولة، والتدقيق فى اختيار المسئولين والوزراء والقواد[٢]:

فحظيت الأندلس فى عهده بنظم إدارية راقية[٣]. وكانت له سياسة فى كثرة تغيير الوزراء، ونقلهم من وظائفهم كل عام تقريبا[٤]، كما كان يحسن توزيع الأعمال على وزرائه؛ حتى يتم تصريف شئون الرعية، والتسهيل على الناس[٥]. وكان شديد الحرص على تحقيق العدل فى البلاد، فاهتم بخطة المظالم[٦]، وبتولية القضاة وتوجيههم[٧].

٣ – سياسته مع المتمردين والثائرين: العفو خُلّة أصيلة فى الناصر[٨]. وقد أحسن عندما ولى الأندلس، وقام بإصدار عهود أمان لكافة الخارجين عند استسلامهم، على أن يعودوا إلى

- الأمير عبد الله بن محمد انشغاله بالأمور اليسيرة، كالحكم للمرأة فى غزلها، والحَمّال فى ثمن ما يحمله، والدلاّل فى ثمن ما ينادى عليه. وأضاع الأمور المهمة، والنظر فى الحروب، ومداراة الثائرين، حتى اضطرمت جزيرة الأندلس. وأمر الناصر بضرب رجل، أتاه يشكو ويصيح ؛ لأنه اشترى حماراً من السوق، فإذا به عيب، وقد ألزمه أهل السوق به، وهو لا يريد أخذه. فعاقبه الناصر ؛ لأنه شغله بأمر يمكن لصاحب السوق علاجه.

(١) اهتم الناصر بثغوره سواء المطلة جهة بلاد المغرب، أم تلك المتاخمة للنصارى فى الشمال.وأعتقد أنه كان يتخيَّر لها مرابطوها، وقوادها (يمكن معرفة بعض مواصفات المرابطين بها، وشروط قادتها والقائمين عليها فى (مخطوطة تحفة الأنفس لابن هذيل ورقة ١٣، ٣٨).وكان الناصر يستشير ذوى الخبرة بالثغور لِمَا فيه صلاحها (ترتيب المدارك مجلد ٢ ج٤ ص٤٥٤). وكان يزيل شكاوى أهلها، ويخفف عنهم مغارمهم، كما حدث مع أهل ثغر طَرْطُوشَةَ فى ربيع الآخر سنة ٣٢٩هـ (المقتبس ٥/٤٦٨)، وبحث دكتور كمال أبو مصطفى (تاريخ مدينة طرطوشة)، فى ندوة السعودية ١٩٩٣م، ص١٢.

(٢) اعتمد الناصر على عدد من الوزراء والقادة العظام، ويمكن معرفة أسماء بعضهم والتعريف لهم فى : أخبار مجموعة ١٣٧-١٣٨، وجذوة المقتبس ٢/٥٣٦، ٥٥٤، والبغية ص٤٥٥، وتعريف د.محمود مكى بالقائد العظيم أحمد بن محمد بن أبى عبدة (ت ٣٠٥هـ) فى تعليقاته على (المقتبس) لابن حيان (بتحقيقه) ص٥٥٥-٥٥٦، ود.حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس ص٣٠٨. وأعتقد أن الناصر كان يطبق معايير اختيار الأكفاء للقيادة (الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة) للدميجى ٣٦١ وما بعدها. وكان الناصر يعزل كثيراً من الوزراء دفعة واحدة ؛ لما يذكره عليهم، فلعلهم قصَّروا فى أداء واجبهم (المقتبس ٥/٤٧٠-٤٧٢).

(٣) يمكن معرفتها من خلال كتاب : (نظم وإدارة بنى أمية بالأندلس) للدكتور التهامى الراجى ص٢٨ وبعدها.

(٤) فلعله أراد عدم استئثار أحد بسلطة دونه، فهو يريد جمع كل السلطات فى يده، وعدم إعطاء فرصة للخروج عليه، أو للتبسط معه. (شيوخ العصر فى الأندلس، للدكتور حسين مؤنس ٦٢-٦٣، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ٣٢٣-٣٢٥).

(٥) البيان ٢/٢٢٠.

(٦) تاريخ القضاء فى الأندلس، للدكتور خلاف ٥٤٧-٥٤٨.

(٧) تراجع بعض توجيهاته لقضاته فى : (قضاة قرطبة ط.الكتاب المصرى اللبنانى) ص٢٣٢-٢٣٣.

(٨) البيان ٢/٢٠٦.

الطاعـــة والجماعـــة[١]. وكانت سياسته مع المعاندين منهم تقوم على الإرهاب وإظهار القوة، والمحاصـــرة للقلاع والحصون فترة طويلة، حتى يستسلم الثوار، ويطلبوا الأمان، فيمنحهم إياه، وينزلهـــم بجـــواره فى قرطبة مكرمين، حتى ينصلح حالهم، فيستفيد منهم فى حروبه وغزواته، ثم يوليهم بلادهم بعد الاطمئنان إلى إخلاصهم. فهى سياسة تتراوح بين الشدة واللين الحذر، الذى يحفظ للدولة هيبتها، ويحقق بالسلم ربما ما يمكن الاستغناء به عن الحرب[٢]. والناصر خلال ذلك كلـــه لا يقـــف مـــدافعاً عما بقى تحت سلطانه كما فعل جده عبد الله[٣]، بل كان بشخصيته وعـــزمه، وعلمه بسوء حال شعوب الثائرين، يجبرهم على الاستسلام والانقياد له[٤]، حتى بسط نفـــوذه علـــى كافة النواحى. وقد يؤخذ عليه قسوته أحياناً[٥]، ونعتقد أنها كانت فى ظروف استثنائية، وفى أمور لا تهاون فيها، ولا تسامح من وجهة نظره.

٤ – **حسن متابعته تنفيذ توجيهاته:** فقد كان يهتم بمصالح أهل الكُوَر والثغور والحصون التى يفتحها، فينظم شئونها، ويأمر بتعميرها، وإصلاح ما خرب منها، ثم يعود بعد فترة -بصورة مفاجـــئة – فى زيارات ميدانية، أو عند العود من إحدى الغزوات الأخرى فيشرف بنفسه على تنفيذ ما أمر به من قبل[٦].

٥ – **موضـــوعيته واتـــزان علاقاته الخارجية:** أيقن الناصر أنه لا سبيل إلى القضاء على العبـــيديين بالمغرب، فقام بالممكن مُمَثّلاً فى إثارة القلاقل، وإمداد الثائرين عليهم بصفة دائمة، بحـــيث تنشغل الدولة العبيدية عن التفكير فى ضرب الأندلس، بالإضافة إلى السيطرة على أهم المـــدن المغربية، التى تعد مفاتيح دخول الأندلس (سبتة، وطنجة) وإعداد أسطول ضخم مستعد للدفاع عن الشواطئ الأندلسية. وبالنسبة للنصارى فى الشمال، فهو وإن لم يستأصل شأفتهم[٧]،

---

(١) المقتبس ٥/٥٥، ٥٨ وغيرها، والبيان ٢/٢٠٠-٢٠١، ودولة الإسلام فى الأندلس، العصر الأول، القسم الثانى ص٣٧٧-٣٧٨، وفى تاريخ المغرب والأندلس ١٨٠، ومعالم ص٣١٣.

(٢) النقود الإسلامية (الكتاب الثانى) د.طاهر راغب ص٨٨-٨٩.

(٣) دكتوراه (الحياة العلمية فى قرطبة)، لمصطفى محمد إبراهيم ص٥٧.

(٤) موسوعة التاريخ الإسلامى ٤/٥٣.

(٥) مثل : قتله بعض جواريه أو إحراقهن، وتسليط أسود مغربية على بعض من يسخط عليهم، ، وقتله ولده عبد الله بيده. (البغية ٣٤٦-٣٤٧، ٣٥٠، والمغرب -قسم الأندلس- ١/١٨٦، والبيان ٢/٢١٧، ومخطوط عيون التواريخ (الظاهرية) ورقة ٦٠، وتاريخ ابن خلدون ٤/١٨٤، والنجوم ٣/٣٤٦).

(٦) يراجع فى ذلك ما يختص بـــ (ببشتر) سنة ٣٠٨هـــ (البيان ٢/١٧٩-١٨٠، وسنة ٣١٧هـــ (المقتبس) ٥/٢٥٠. وكذا ما يتعلق بـــ (سرقسطة) سنة ٣١٦هـــ، ٣٢٦هـــ فى (المقتبس) ٥/٢١٥، ٤١٩.

(٧) يذكر عنان فى (دولة الإسلام فى الأندلس) ع١ ق٢ ص٤٧٥-٤٧٧: أن حروب الناصر وفتوحاته فى بلاد النصارى يراها البعض أقرب إلى المغامرة وحب الغنيمة، إلا أن فيها معنى الجهاد، ولم تتح فيها فرصة الاستقرار. وينظر للأمر بمثالية باحث آخر، فيرى أن الناصر -من بعده المستنصر، والمنصور -أغرقوا فى الاهتمام بالمغرب، ومواجهة الشيعة به على حساب تحويـــل الأندلس كلها إلى دولة إسلامية (يقصـــد : بما فيها ممالك نصارى –

إلا أنه نجح في إلحاق عدة هزائم بهم، وأظهر لهم من القوة والهيبة ما جعلهم يتورعون عن الاعتداء على الثغور الأندلسية. ووصل الأمر - في النهاية - إلى وجود سفارات، ووفود تأتي إلى قرطبة بالهدايا والرسل والكتب، تخطب ود. الناصر، وتلح في السلم، والمصالحة،[١] فاستجاب لهم مع الحذر من غدرهم وعدوانهم.

الخليفة الحَكَم المستنصر بالله[*] (٣٥٠ -٣٦٦هـ/٩٦١ -٩٧٦م):

توفي والده الخليفة الناصر بعد عمر مديد بلغ ثلاثاً وسبعين سنة، بعد أن قضى في حكم الأندلس ما يزيد على نصف قرن[٢]، حقق خلالها إنجازات طيبة على المستوى الداخلي والخارجي على سواء. وعلى الرغم مما عِيب على الناصر من حكم مطلق، إلا أنه أحسن إعداد ولي عهده الحكم، ودَرَّبه على تحمل مسئوليات الحكم، والنهوض بأعبائه الضخمة[٣]. ولا شك

- الشمال). (بحث : الأندلس بين الاختبار والاعتبار : محاولة لدراسة ضياع الأندلس من الفتح حتى نهاية العصر الأموي) ص١١ (ندوة السعودية ١٩٩٣م).

(١) تراجع السفارات الوافدة على الناصر من قبل ملوك القسطنطينية، والصقالبة، والجلالقة، وبرشلونة وغيرهم في سنوات ٣٢٣هـ، ٣٢٤هـ، ٣٣٤هـ، ٣٣٨هـ، ٣٤٢هـ في: المقتبس ٥/٣٦٥-٣٦٨، ٣٧٩-٣٨١، ٤٤٩-٤٥٠، ٤٥٤، والبيان ٢/٢١٣، ٢١٥-٢١٦، ٢١٨، وتاريخ الإسلام ٢٦/١٣٣-١٣٤، وأعمال الأعلام ٣٧، والنفح ١/٣٦٤-٣٦٦، وأزهار الرياض ٢/٢٥٨ وبعدها، وعنان : دولة الإسلام في الأندلس ع١ ق٢ ص ٤٥٤-٤٥٨، وفي تاريخ المغرب والأندلس ٢١٣-٢١٨، وماجستير سلوى عبد الخالق ص١١٤-١١٦، ودولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين ٢٥٤-٢٥٥. وأخيراً، فإن ابن خلدون يذكر أنهم كانوا يُحكِّمون الناصر فيما شجر بينهم من منازعات(تاريخه ٤/١٨٢-١٨٤).

(*) له ترجمة في : الجذوة للحميدي ١/٤٢-٤٦، والبغية ص١٨-٢١، والحلة السيراء ١/٢٠٠-٢٠٥، والمغرب (قسم الأندلس) ١/١٨٦-١٨٧، والبيان المغرب ٢/٢٣٣ وبعدها، ونهاية الأرب ٢٣/٤٠٠-٤٠٢، وتاريخ الإسلام ٢٦/٣٥٨-٣٥٩ (وفيات سنة ٣٦٦هـ)، والإحاطة ١/٤٧٨-٤٧٩، والنفح ١/٣٨٢-٣٨٦.

(٢) لا يفوقه في طول فترة حكمه سوى المستنصر العبيدي، الذي حكم ٦٠ سنة. (البداية والنهاية ١١/٢٥٣).

(٣) ودلائل ذلك موفورة متضافرة في المصادر : لقد عُني الناصر بتربيته تربية خاصة متميزة عن سائر إخوته في قصر الإمارة (المقتبس ٥/١٨-٢٠). واستخلفه على قصره مع الوزير ابن حُدَيْر لما خرج الناصر للغزو سنة ٣٠٨هـ (البيان ٢/١٧٦)، وسنة ٣٠٩هـ (المقتبس ٥/١٧١-١٧٢)، وكان ما بين السادسة من عمره. وفي حوالي ٣١٠ هـ (وهو ابن ثماني سنين) أخذ له الناصر البيعة بولاية العهد من بعده وقد ترعرع (البيان ٢/٢٢٨، وأعمال الأعلام ٤١). وفي سنة ٣١٥هـ أحضره الناصر من قرطبة؛ اشتياقاً إليه، وتعويداً له على جو المعارك والجهاد في بداية غزوة ببشتر، ثم أمر القادة بإعادته، فأعادوه، وعادوا للمعركة ثانية دون أن يلم أحد منهم بمنزله ولا بأهله. (المقتبس ٥/ ٢١٢). ثم خرج لأول مرة مع والده للغزو في العام التالي (البيان ٢/١٩٣-١٩٤). وأخرجه معه سنة ٣١٦هـ؛ ليرى أباه وهو يضبط أمور ببشتر، ويصرف شئونها (المقتبس ٥/٢١٥-٢٢٠). وفي سنة ٣٢٩هـ اختبر الناصر كفاءته، فأسند إليه عدة أعمال للإشراف عليها كالجباية والخزانة، ودار الضرب، ففهم ما في هذا كله، وأحسن إدارته، فاستراح الناصر إلى كفايته. (المقتبس ٥/٤٦٩-٤٧٠). وفي سنة ٣٣٠هـ قلده أبوه الإشراف على مملكته ككل بدل (أحمد بن شُهَيْد)، الذي صُرف عن خطة الإشراف، فاستراح الناصر بذلك إلى أمين ذي قوة (المقتبس ٥/٤٨٧). وفي عام ٣٤٥هـ، عهد أبوه إليه بالنظر وإبداء الرأي في شروط الصلح مع ملك جليقية (أُردُون بن رُذمير)، فأمضاه الحكم (البيان ٢/٢٢١). ويعلق دوزي في كتابه:(المسلمون في الأندلس)، مترجم، ج٢ ص٤٥ : أراد الناصر وقد كبرت سنه، ورأى الأمر يتعلق بابنه الحكم من بعده، فأشركه في ذلك الأمر.

أن طول عمر الناصر[١] أعطى الفرصة كاملة لنضج شخصية الحكم، وتراكم خبراته. وبالإضافة إلى ذلك، فقد تسلم بعد وفاة والده دولة مستقرة قوية مهيبة الجانب موحدة. ومن هنا، فإن عهد المستنصر يعد امتداداً لعهد أبيه، وجَنْى لثمرات كفاحه الطويل. وعلى الجملة، فقد كانت سياسة الابن كأبيه، فلم يغب إلا شخصه[٢].

وأحب أن أبيِّن الملامح العامة لسياسة المستنصر الداخلية مركزة فيما يلي:

١ - حرصه الشديد على إقامة شرع الله بين رعيته: فقد تطلع المستنصر إلى القضاء على الخمر نهائياً فى الأندلس، وأمر بإراقتها، وتشدد فى ذلك، حتى استشار المقربين منه فى استئصال شجرة العنب من كافة جهات الأندلس، لكنه توقف عن ذلك لما قيل له: إنما يمكن عملها من التين وغيره[٣].

٢ - **اهتمامه بأحوال رعيته وتفقده لها**: وسلك فى سبيل ذلك طرقاً عدة، منها: الاهتمام بإقامة العدل بين الناس، فهو يستشير الثقات من أهل العلم والخبرة قبل تولية المناصب[٤]، ويهتم بتوجيه قضاته للحكم بالعدل، وإعطاء كل ذى حق حقه[٥]. وكان يرسم لعماله ولولاته منهج الحكم الصحيح، الذى يجب أن يتوخوه فى مهامهم الموكلة إليهم[٦]. وكان يرقب عماله، ويتابع سيرهم فى رعيتهم، وذلك عن طريقين: إما أن يرسل من لدنه مندوبين يسألون أهل كل

(١) أحس الناصر بذلك، فقال يوماً للحكم: " لقد طَوَّلْنا عليك يا أبا العاصى ". (الحلة السيراء ١/٢٠٠). ومن هنا، فقد ولى الحكم الخلافة وهو فى سن الكهولة، فقد ورد فى (الجذوة) ١/٤٣، والمغرب (قسم الأندلس) ١/١٨٦ : أنه ولى وهو ابن ٤٧ سنة. ووردت رواية أخرى فى (الجذوة) تقول : وقيل : ٤٨ سنة، وشهرين، ويومين (الخميس ٣ من رمضان ٣٥٠هـ). وأعتقد أن الرواية الأخيرة هى الأرجح، فهى تتفق تماماً مع ما ورد من تحديد مولد الحكم بغرة رجب، ساعة صلاة الجمعة سنة ٣٠٢هـ. (المقتبس ٥/١٠١-١٠٢، والبيان ٢/١٦٦).

(٢) النفح ١/٣٨٢، وأزهار الرياض ٢/٢٨٦.

(٣) جذوة المقتبس ١/٤٣، والبغية ١٨، والحلة السيراء ١/٢٠٣، والمغرب (قسم الأندلس) ١/١٨٦، ونهاية الأرب ٢٣/٤٠٠، وتاريخ الإسلام ٢٦/٣٥٩.

(٤) كان أحمد بن مطرِّف بن عبد الرحمن المعروف بـ(ابن المشّاط)، المتوفى ٣٥٢هـ صاحب الصلاة، وكان رجلاً مُعظّماً عند حكام الأندلس، يشاورونه فيمن يصلح للأمور، ويرجعون إليه فى ذلك. وقد سأله المستنصر يوماً عمن يلازمه من أحداث (شباب واعد) قرطبة، يصلح أن يُؤَهَّل لحال رفيعة، فأشار المشاط بـ(خلف بن أحمد) المعروف بـ(ابن أبى جعفر)، الذى كان من ألزم تلاميذه له، وكان أحد رجال القاضى محمد بن يَبْقَى بن زَرْب العُدول (جذوة المقتبس ١/٢٢٨، ٣٢١).

(٥) تراجع توجيهاته الصادرة فى ظَهِير (مرسوم) ولايته للقاضى محمد بن إسحاق بن السليم. (تاريخ قضاة الأندلس، للنُّباهى ص ٧٥-٧٦).وقد انتصف لشاعر ضُرب ظلماً من عامل مُرْسِيَة (الذيل والصلة للمراكشى، السفر الخامس، القسم الأول ص٢٤٠-٢٤٢)، وكان يهتم بالمظالم(تاريخ القضاة فى الأندلس) للدكتور خلاف ص٨٢-٨٤، ٥٥٠.

(٦) كفعله مع عامله على شطر كورة ريَّة. (المقتبس، ط.الحجى) ص٧٧-٧٨.

إقليم عن أحوالهم، ويعرفون منهم رأيهم فى عمالهم، ويلمسون بأنفسهم رضا الناس أو سخطهم علـــى معايشهم وحياتهم[١]. وإما أن يستدعى وفود الولايات والكور إلى حضرته بقرطبة، وهى وفــود تضـــم العمال، وممثلى عامة الناس، ويستمع من العمال إلى تقارير عن كورهم، ويسأل الطرف الآخر عن مدى صدق ما رُفع إليه، فإن صدّقوا عاملهم كافأه، وإن كذّبوه عاقبه[٢].

٣ – الهـــدوء والـــرفق: وهـــذه سمـــة بارزة فى عهده، فلم نقرأ -فيما قرأنا- عن ثورة ثائر، أو اضـــطراب إقلـــيم، أو خروج عن الطاعة. لقد مر عهده فى أمن وسلام، وسكينة واطمئنان. ولعل مرد هـــذا يـــرجع إلى جهـــود أبـــيه الناصر من قبل، وإلى صفتى: التسامح[٣]، والرفق[٤] اللتين يتحلى بهما المستنصر.

والآن، أحـــاول تركيز العنصر الثانى والأخير فى سياسة المستنصر، وهو **علاقاته الخارجية**، على النحو الآتى:

موقفه من المغرب:

أ – استمرار النفوذ الأموى الأندلسى فى المغرب فى بدايات عهد المستنصر، كما كان أيام الناصر. وزاد الاهتمام بمدينة سَبْتَة، فَبُنِى حولها سور سنة ٣٥١هـــ[٥]، وأُسقطت الضرائب عن أهلها سنة ٣٥٣هـــ[٦].

ب – اســـتكمال المستنصـــر تحصينات ثغر ألْمَرِيَة المتاخم للسواحل المغربية؛ لمواجهة أى هجوم عبيدى محتمل، وذلك سنة ٣٥٣هـــ[٧].

ج – استمرار المستنصر استقبال وفود المغرب المبايعة له، المعادية للعبيديين[٨].

---

(١) السابق : ص١٠٠.

(٢) المقتبس (ط.الحجى) ص٥٧، ١٥١-١٥٢.

(٣) الأمثلة على تسامحه متعددة، منها : أنه كان يوقع العقوبة بمستحقيها، ثم يقبل فيهم شفاعة الشافعين، ويردهم بعد فترة إليه، ويعفو عنهم (عفا عن كبير خدمه وبعض خدمه الصقالبة لما أهملوا، فعزلهم، وقلل عطاء كبيرهم، ثم عفا عنهم). (السابق ١٠٣-١٠٤، سنة ٣٦٢هـــ). وعفا عن محمد بن سعيد (ابن خال أبيه الناصر)، فأخرجه من السجن سنة ٣٦٣هـــ (السابق ١٥٣). وسخط على خازن بيت المال (أحمد بن محمد بن حاجب) سنة ٣٦٤ هـــ، ثم أطلقه ورده إلى منصبه (السابق ٢٠٢).

(٤) جزم المؤرخون بأن عصره كان عصر هدوء ورفق بالرعية. (جمهرة أنساب العرب لابن حزم (ط.بروفنسال) ص ٩٢، والحلة السيراء ١/٢٠٣، وأعمال الأعلام ٤١، وعنان : دولة الإسلام فى الأندلس، العصر الأول، القسم الثانى ص٤٨٤). ومن أبرز مظاهر رفقه وإشفاق قلبه : إكثاره من إخراج الصدقات وتوزيعها هو وابنه هشام، خاصة فى رمضان، على الفقراء والمحتاجين. (المقتبس، ط.الحجى) ص٢٣، ٢٢٦، ٢٣٣، ٢٣٤).

(٥) البيان المغرب ١/٢٢٧.

(٦) السابق : ١/٢٢٧.

(٧) السابق : ٢/٢٣٦.

(٨) راجع فى ذلك : المقتبس (ط.الحجى) ص٢٦-٢٧، ٣٢، ٨٠-٨١ وبعدها، والبيان المغرب ٢/٢٤١-٢٤٣.

موقفه من نصارى الشمال:

أ - واجه المستنصر نكث الجلالقة بعهودهم عقب وفاة الناصر، فردّ جيوشهم التي طمعت في اجتياح ثغور المسلمين، وضرب بلادهم بنفسه سنة ٣٥١هـ[١]، وسنة ٣٥٢هـ[٢].

ب - رغم أحداث الغدر والنكث المتوالية[٣] من جانب النصارى في الشمال، إلا أن المستنصر لم يغلق الباب أمام المصالحة معهم، فظل يستقبل وفودهم ورسلهم وسفراءهم، ويجدد المعاهدات معهم[٤]، بل حَكّموه فيما شجر بينهم من خلافات، وسارعوا إليه؛ ليحوزوا رضاه وتأييده[٥].

وهكذا، مضى عهد المستنصر الأموي بالأندلس، وبقي أن نذكر بعض الملاحظات النقدية، التي وجهت إليه، وكان لبعضها آثار بعيدة المدى في عدم استقرار الأندلس، وهي كما يلي:

١ - يذكر الدكتور حسين مؤنس[٦] أن المستنصر أسرف في الانصراف إلى العلم، وأن ذلك صرفه عن القيام بمطالب الحكم كما ينبغي. ويرى أنه لو عَدَّلَ سلوكه نوعاً ما، فاكتفى بتشجيع العلم دون الاشتغال به (قراءة، وتأليفاً، وتعليقاً)، ما ظهر مثل ابن أبي عامر، وما وجد له سبيلاً إلى السلطان.

والحق أن الوضع السياسي في عهد المستنصر كان مستقرًّا، وأحسن المستنصر توزيع مهام الدولة على خيرة رجاله وقواده، وكان أخف استبداداً من أبيه الناصر. أما ظهور ابن أبي عامر وسيطرته على السلطة، فليس راجعاً إلى انشغال المستنصر بالعلم، وإنما إلى ضعف صحته واعتلاله أواخر حياته، وإصابته بالفالج[٧]؛ مما شجع على نمو نفوذ كبار رجالات الدولة، ومنهم: ابن أبي عامر، الذي استطاع بكفاءته -أمام الحكم- التدرج السريع في المناصب. هذا إلى جانب عوامل أخرى، سنظهرها بعد قليل.

٢ - أعطى الحكم لأمر العبيديين في المغرب اهتماماً مبالغاً فيه، وظل مشغولاً بخطرهم حتى بعد رحيلهم إلى مصر واستقرارهم بها، وجنّد كل إمكانات الدولة من جند وقادة وأساطيل وأموال، وحفلات استقبال ضخمة للمئات منهم، ونفقات إسكانهم وإعاشتهم في قرطبة، وإرسال الهدايا إلى مناصريه هناك، كل ذلك لأجل أن يعلنوا الطاعة له، والدعاء على منابرهم.

---

(١) المصدر السابق: ٢/٢٣٥.
(٢) السابق: ٢/٢٣٦.
(٣) كما حدث ذلك سنة ٣٦٣هـ (المقتبس ط.الحجي) ص١٨٨-١٨٩، وسنة ٣٦٤هـ (السابق ٢١٨-٢٢٢).
(٤) التفاصيل في المقتبس (ط.الحجي) ص٢٠-٢٢، ١٣٨-١٣٩، ١٨٢-١٨٣، وتاريخ ابن خلدون ٤/١٨٦-١٨٧، والنفح ١/٣٨٤-٣٨٦، وغيرها.
(٥) دولة الإسلام في الأندلس، لعنان ع١ ق٢ ص٤٨٩.
(٦) معالم تاريخ المغرب والأندلس ص٣٣٣.
(٧) المقتبس (ط.الحجي) ص٢٠٣ وبعدها (سنة ٣٦٤هـ)، ودولة الفرنجة ص١٣٠.

وكان يكفيه ما اكتفى به والده من حماية سواحل الأندلس، والاحتلال المستديم لسبتة وطنجة. ويبدو أن هناك أطرافاً مستفيدة من إعطاء صورة غير حقيقية لخطر العبيديين، فاكتسبت من ذلك جاهاً ونفوذاً ومناصب وأموالاً. ولا شك أن ذلك أثر فى احتياجات الأمن والدفاع عن الثغور الشمالية، وكان الأولى توجيه وتكثيف جهوده إلى أولئك النصارى ناكثى العهود، وناقضى المواثيق[١]. ويضاف - إلى ذلك - أن الإكثار من اجتلاب هؤلاء البربر بجندهم إلى قرطبة، ومزاحمتهم أهلها، لم يعد على الأندلس بشئ، بل كلف خزانتها الكثير، وثبت - بعد قليل - عدم جدارة هؤلاء المجتلَبين، وعدم إخلاصهم وولائهم للمستنصر؛ مما جعله يتزل بهم النكبات، ويخرجهم من الأندلس[٢]. ويا ليته أخرج جميع البربر الوافدين من المغرب، إذاً لجنَّب البلاد مأساة ستقع بعد سنوات قليلة، فيها يتقاتل البربر مع سكان قرطبة فى الفتنة الكبرى، التى هدمت الخلافة الأموية بالأندلس[٣].

٣ - وأخيراً، دفعت عاطفة الأبوة الحكم المستنصر إلى الوقوع فى خطأ قاتل، مال فى ارتكابه إلى هواه، وعاطفته الشخصية، وهو ما لا يليق برجل دولة مثقف سياسى؛ خبير محنك مثله. وذلك عندما عهد بالأمر من بعده لابنه الوحيد هشام الطفل الصغير[٤]، مما يعنى فتح الباب لتدخل الأوصياء والطامعين من ذوى النفوذ فى تسيير شئون الحكم؛ مما أضعف نفوذ الخلافة، ومهَّد الطريق إلى إحلال سلطة العامريين محلها؛ مما جرَّ على البلاد الويلات، وأنذر بأوخم العواقب، عندما خلت الساحة من القائد، الذى يستطيع إدارة الدولة.

الأندلس بعد وفاة المستنصر:

توفى الخليفة الحكم المستنصر فى الرابع من شهر صفر سنة ٣٦٦هـ[٥]، وخلَّف وراءه دولة قوية مستقرة فى الداخل، مرهوبة الجانب فى الخارج. وكانت فى الأندلس بعض القوى ذات

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ٣٣٥-٣٣٧.

(٢) أساء جعفر ويحيى ابنا علىّ الأندلسى الأدب مع المستنصر، وأظهرا له من التبسط والجفاء ما لا يحتمل، فحبسهما. وبعد فترة أكرمهما، وأطلقهما، وسيَّرهما إلى بلاد المغرب ٣٦٣هـ (المقتبس، ط الحجى) ص١٧١-١٧٤. وكذلك الحسن ابن كنُّون الذى ظل فى كنف المستنصر حتى ٣٦٥هـ، ثم اختلفا، فصادر أمواله، وأجلاه وعشيرته إلى المشرق، فتوجَّه إلى تونس. وكان هدف الحكم التخفف منهم، والراحة من نفقاتهم، مع التخلص من لوم قومه له عليهم. ونزل الحسن مصر، وأعلن الطاعة للعزيز، فأكرمه، وأقام مع عشيرته حتى سنة ٣٧٣هـ ثم ولاه العزيز المغرب، وأمر يوسف بن زيرى بإمداده. ودخل المغرب فأطاعه البربر، وأظهر دعوة بنى عبيد. (الاستقصاء ١٨٤/١-١٨٥).

(٣) تنبه إلى هذه العواقب فى تحليل علمى رائع ابنُ حيَّان فى (المقتبس، ط.الحجى) ص١٨٩-١٩٣.

(٤) فى سنة ٣٦٥هـ أعلن المستنصر عن أخذ البيعة لابنه هشام من الخاصة والعامة بسائر كور الأندلس وقرطبة، ومن فى طاعته ببلاد المغرب. وهذا يعنى : أنه بويع له وهو ابن ١١ سنة، وولى الخلافة وهو ابن ١٢ سنة. (البيان ٢٤٩/٢، وتاريخ القضاء فى الأندلس، للدكتور خلاف ص٤٨٤-٤٨٥)، وبالتالى، فغير دقيق ما ذكره الذهبى من أن هشاماً ولى وله ٩ سنين (تاريخه ٣٥٩/٢٦).

(٥) البداية والنهاية ٣٠٤/١١، وأعمال الأعلام (قسم الأندلس) ٤٣.

الـــتطلعات المتباينة حول مستقبل الخلافة الأموية بالأندلس، منها: وليّ عهد الحكم (ابنه هشام) وأمـــه (صُـبْح)، والحاجب (جعفر بن عثمان المصحفى)[١]، وهؤلاء يريدون إنفاذ عهد الخليفة الراحل. وهناك الفتيان الصقالبة القائمون على شئون الحكم والقصر، وكانوا يرون تولية المغيرة ابن الناصر[٢]. وهناك (ابن أبي عامر)[٣]، ذلك الرجل الكفء اللامع، ذو المواهب المتعددة، الذى حـــاز إعجاب وثقة الحكم، فتدرَّج فى المناصب، حتى صار من المقربين إليه[٤]. وكان يتطلع إلى حكم الأندلس من خلال الوصاية على الخليفة الصغير (هشام المؤيَّد).

لقـــد أفلـــح ابن أبي عامر -بغض النظر عن مراعاة القيم والأخلاق -فى القضاء على كافة منافسيه، واستولى على الحكم فى الأندلس دون منازع. ودون دخول فى تفاصيل مؤلمة، نكتفى بإيـــراد عـــبارة جامعة تعبر عن مراحل بلوغه هدفه المأمول: " استعان -أولاً- بالمُصْحَفِيّ على الصـــقالبة[٥]، ثم بغالـــب على المصحفى[٦]، ثم بجعفر ممدوح ابن هانئ على غالب[٧]، ثم بعبد الرحمن بن هاشم التجيـــبى على جعفر[٨]، وعدا بنفسه على عبد الرحمن[٩]، وقال للدهر: " هل من مبارز ؟!"[١٠].

---

(١) مؤدب الحكم فى صغره. ولما ولى الخلافة استوزره، وجعله على كتابته الخاصة، وولاه الشرطة أيضاً، وأخدمه ابنه هشاماً. أشرف على أخذ البيعة لهشام المؤيد وحجبه. استطال عليه ابن أبي عامر ؛ لعدم كفايته فى الدفاع عن الثغور، وتغلب عليه بمساعدة صهره غالب القائد مولى الخليفة الناصر .قبض عليه ابن أبي عامر، وظل فى محبسه حتى توفى سنة ٣٧٢هـــ. (الجذوة ٢٨٩/١، والبغية ٢٥٧، والحلة السيراء ٢٥٧/١-٢٥٩).

(٢) البيان المغرب ٢٦٠/٢.

(٣) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر. دخل جده عبد الملك الأندلس مع طارق بن زياد، وله أثر جميل فى فتحها، ونـــزل الجزيرة الخضراء، فسادَ أهْلَها، وكثر عقبه بها. وكان والد المنصور من أهل الدين والعفاف والزهد. صحب الخليفة الحكم، وولى له الأعمال من القضاء وغيره، وصار فى أهل الخدمة، ثم اختصه بخدمة أم ولده هشام، فاتصل بولى العهد، وعظمت منـــزلته عند الناس لقضاء الحاجات. تولى الحجابة بعد جهد كبير، واستبد بالأمر، وغزا النصارى، ودوَّخ بلادهم وجيوشهم حتى توفى سنة ٣٩٢هـــ (الجذوة ١٣١/١-١٣٣ جعل وفاته ٣٩٣هـــ، والبيان ٢٥٦/٢ وما بعدها، وتاريخ الإسلام ٢٩١/٢٧، والإحاطة ١٠٢/٢-١٠٨).

(٤) يمكن مراجعة المناصب التى تقلدها المنصور أيام الحكم فى : (المقتبس، ط.الخجى) ص٤٣-٤٤، ٧٢، ١٢٣، ١٣٨، ١٦٩-١٧٠، والمعجب ٢٩-٣٠، والبيان ٢٣٩/٢).

(٥) المصدر السابق : ٢٦٠/٢-٢٦٤.

(٦) أظهر ابن أبي عامر تخاذل المصحفى فى الدفاع عن الثغور، وإنجاد أهلها، وقَوَّى شوكة غالب، وتزوج ابنته أسماء، ثم صرف المصحفى عن الحجابة سنة ٣٦٧هـــ، وقبض عليه (السابق ٢٦٥/٢-٢٧٠).

(٧) المقصود به : جعفر بن على بن حمدون، الذى ولى المغرب مع أخيه يحيى من قبل المستنصر (البيان ٢٧٨/٢-٢٧٩).

(٨) ذكر ابن عذارى (المصدر السابق ٢٧٩/٢) : أن الذى قتله بإيعاز من المنصور هو أبو الأحْوَص مَعْن بن عبد العزيز التجيبى فارس العرب مع طائفة من أصحابه الأندلسيين سنة ٣٧٠هـــ، ثم قتله المنصور.

(٩) ظروف مقتل عبد الرحمن بن مطرف صاحب سرقسطة، الذى أغرى عبد الله بن المنصور بالقيام على والده سنة ٣٧٩هـــ فى (السابق ٢٨٣/٢-٢٨٤).

(١٠)المغرب (قسم الأندلس) ٢٠٢/١.

تحقـــق لابن أبي عامر أمله، واستطاع عزل الخليفة هشام المؤيد وحجبه عن إدارة شئون دولته، ومنعه من لقاء رعيته، ومن التصرف فى أمواله[١]، واتخذ مجموعة من الإجراءات، التى تهـــدف -فى النهاية -إلى تركيز سلطات الدولة كلها فى يديه، وتشـــكل - فى مجموعها - **الملامح العامة للسياسة الداخلية، وهي:**

١ - تمزيق الروابط بين أفراد القبائل العربية بالأندلس، فشتَّت شمل القبيلة الواحدة، بعد أن كانت كل قبيلة تمتاز بأفرادها وبمكان معين تقطنه، وبراية تقاتل تحتها. وأحَلَّ محل ذلك أن يكون الولاء للقائد، وله شخصياً فى النهاية، فضمن بذلك إضعاف هذه القبائل، والقضاء على العصبية[٢].

٢ - إضعاف شأن البيوتات القرطبية ذات الأصول العريقة بالأندلس، والتى كانت تتوارث المناصـــب والخِطَـــط (مـــثل: أسرة بنى حُدير، وابن أبى عَبْدَة، وغيرها)، فاستغنى عن كفاءات رجالها، وخبرات قادتها ووزرائها؛ خوفاً من ولائهم لبنى أمية. وبذلك أضعف نفوذهم فى سبيل تفرده بالسلطة، واستبداده بشئون الحكم[٣].

٣ - قضى على نفوذ العلماء والفقهاء الروحى، وأضعف مكانتهم أمام عامة الناس، فقلّت قيمـــتهم وانحط إجلالهم فى عيونهم. لقد جمعهم على بيعة هشام المؤيد[٤]، رغم مخالفتها لشرط الإمامـــة، فأظهرهم أمام الناس مشاركين فى هذا الأمر، أو على الأقل اضطروا للموافقة؛ تهاوناً وخـــوفاً[٥]. وكـــان يتدخل فى أحكام القضاة أحياناً، فيسيِّرها تبعاً لهواه[٦]، أو يتدخل لإصدار الفـــتاوى الـــتى يريدها من بعض العلماء[٧]. وقد دفع البعض للتآمر ضده، لكن يقظته وعيونه المنبثة فى كل مكان أحبطت كل تخطيط معادٍ له، ساعٍ إلى إقصائه عن السلطة[٨].

---

(١) الجمهرة لابن حزم ٩٢، وتاريخ الأندلس لابن الكَرْدَبُوس ٦٢، والبيان ٢/٢٧٢.

(٢) نفح الطيب ١/٢٩٣.

(٣) مقدمة الدكتور محمود مكى لكتاب (المقتبس) لابن حيان ص١٢٣.

(٤) أورد ابن الخطيب أسماء الفقهاء، الذين شهدوا بيعة المؤيد بالخلافة (أعمال الأعلام) ص٤٨-٥٧.

(٥) شيوخ العصر فى الأندلس، للدكتور حسين مؤنس ص٧٤، وما بعدها.

(٦) كما فى حالة الشاعر (قاسم بن محمد القرشى المروانى) شاعر الدولة العامرية، الذى شُهد عليه عند القضاة بما يوجب القتل، فسُجن، فكتب إلى المنصور قصيدة طويلة يستعطفه فيها، فخلّصه. (جذوة المقتبس ٢/٥٢٥-٥٢٦).

(٧) فكان يتعرض لأحكام القاضى محمد بن إسحاق بن السليم (ت ٣٦٧هـ)، وينقض قضاياه؛ حتى يجبره على تغيير رأيه المعارض لتولية صبى كهشام المؤيد، فاضطر ابن السليم إلى مداراته حتى توفى (ترتيب المدارك ج٤ ص٥٤٨-٥٤٩، والقضاء والقضاة فى الأندلس، للدكتور السيد محمد داود ص١٨٩-١٩٠).

(٨) كانت عيون المنصور فى كل مكان فى دولته(أعمال الأعلام ٧٦-٧٧، وتاريخ قضاة الأندلس للنباهى ص٨٠). ولاحظ إحباط مؤامـــرة استهدفت حياة هشام المؤيـــد، وبالتالى سلطان المنصور (الحلة السيراء١/٢٧٩-٢٨٠)، وفيها صلب عبد الملك بن منذر ٣٦٧هـــ.

٤ - استطاع بشدته وصرامته أن يحفظ أمن الناس، ونشر الاستقرار فى عهده[١]، وفى مقابل ذلك كان حريصاً على الارتقاء فى الألقاب، وإحاطة نفسه بكل مظاهر الفخامة والوقار، فلقب بالمنصور[٢]، وأمر أن يُخاطَب بالملك فى المكاتبات والمراسلات[٣]، بل فكر جدياً فى انتزاع لقب الخلافة، لكن عواقب ذلك دفعته إلى التراجع[٤].

سار المنصور فى **علاقته بالمغرب** مسير الناصر والمستنصر، وإن فاقهما فى استجلاب جند البربر والاستعانة بهم فى حروبه وغزواته. وقد استدعى المنصور جعفر بن على بن حمدون المعروف بـ(ابن الأندلسى) من المغرب؛ ليستعين به على القائد (غالب)، فحضر ومعه ستمائة من خيرة جند البربر، فأكرمهم المنصور وأحسن إليهم، وتمكن بهم من القضاء على منافسه (غالب) سنة ٣٧٠هـ. وعلى طريقة المنصور المعهودة فى الغدر، قتل جعفراً بعد أن دعاه إلى مجلس أنس وشراب، فشرب حتى الثُّمَالة وسَكِر، ثم وكّل به مَنْ قتله فى طريق منصرفه إلى داره، وذلك سنة ٣٧٢هـ[٥].

وفى سنة ٣٧٥هـ، جهز المنصور جيشاً كثيفاً، أرسله إلى المغرب؛ لمجابهة الحسن بن قَنُّون الشريف الحَسَنِىّ، الذى حاول الخروج على الدعوة المروانية. وقد أراد المنصور بذلك أن يظهر أنه حامى حمى الخليفة هشام المؤيد، المحافظ على ممتلكاته بالمغرب، رغم أنه -فى الحقيقة -يدافع عن نفوذه هو، فهو الآمر الناهى. هذا، وقد نجح الجيش فى محاصرة ابن قنون، الذى لم يجد مفرًّا من الاستسلام، فأمَّنه قائد الجيش، لكن المنصور - على طريقته - خان العهد والميثاق، فأمان قائده أمانه، وأمر بقتله، وبتشريد أتباعه[٦].

كانت للمنصور إستراتيجية جديدة، تختلف عمن سبقه من خلفاء بنى أمية، إذ كان يهدف إلى القضاء الكامل، والاستئصال التام لقوى الشمال النصرانية[٧]. ولذلك وجدناه يواصل الغزو لها طوال سنى حكمه، حتى بلغت ٥٢ غزوة[٨]. وكان المنصور لا يُعَوِّل كثيراً على سفارات

(١) نهاية الأرب ٢٣/٤٠٥.
(٢) البيان المغرب ٢/٢٧٩-٢٨٠ (٣٧١هـ).
(٣) السابق ٢/٢٩٤ (سنة ٣٨٦هـ).
(٤) حول هذا الأمر يراجع : (نَقْط العروس لابن حزم ٧٧، ودولة الإسلام فى الأندلس ع١، ق٢ ص٥٥٤).
(٥) الحلة السيراء ١/٣٠٦، والبيان المغرب ٢/٢٧٩-٢٨١، وتاريخ ابن خلدون ٤/١٠٩. وقد جانب ابن خلكان الصواب لما جعل وفاة جعفر بالأندلس ٣٦٤هـ. (وفيات الأعيان١/٣٦٠).
(٦) الحلة السيراء ١/٢٢٦، والبيان المغرب ٢/٢٨١.
(٧) العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، للدكتور رجب عبد الحليم ص١٦٥.
(٨) النفح ١/٤٠٢، ومقدمة د.محمود مكى لديوان ابن دَرَّاج ص٥٢.

الصلح والمسالمة؛ لأنه يوقن أنها ستار يخفى وراءه استعدادات هائلة لغزو بلاد المسلمين[١]. ولم يكن المنصور ينتظر حتى يهاجم نصارى الشمال الثغور الإسلامية، فيهب للدفاع عنها، أو يكتفى برُسُوّ الأساطيل هناك؛ لمنع العدو من مجرد التفكير فى الهجوم، وإنما كان يبدأ بالهجوم، ويغزو الأعداء فى عقر دارهم، ويوسعها تدميراً وتخريباً[٢]، وغزواته خير شاهد على منهجه، الذى اتبعه فى التعامل مع ممالك الشمال النصراني[٣]. وظل المنصور على غرامه بجهاد النصارى، حتى أواخر أيامه، إذ وافته منيته وهو عائد من إحدى غزواته قَشْتالة ليلة الاثنين السابع والعشرين من رمضان سنة ٣٩٢هـ[٤].

ولى **عبد الملك بن المنصور** حجابة الخليفة هشام المؤيد بعد وفاة والده[٥]. وملخص أحداث ولايته ذات السنوات السبع تتمثل فى نجاحه فى ضبط الأمور داخل الأندلس، رغم ضعف مؤهلاته وإمكاناته بالقياس إلى والده[٦]. وقد أُخذ عليه انهماكه فى الشراب والملذات[٧]، وتركه تصريف الدولة لغلمانه ووزيره عيسى بن سعيد بن القَطَّاع، حتى انكشفت أمامه مؤامراتهم ضده، فانتقم منهم[٨]، وأفاق إلى نفسه، ودبر شئون دولته، فحظى بحب الناس ورضائهم[٩]. وظل فى علاقته بالخليفة هشام حريصاً على حجبه والاستبداد بالأمر دونه، رغم ثورة بعض الناس مطالبين بظهور الخليفة[١٠]، وحصل عبد الملك بن المنصور على لقب المظفر[١١].

وبالنسبة للمغرب، فقد حرص على مخاطبة أمرائه الموالين للخلافة الأموية، وإجابته المعز بن زيرى بتوليته على فاس والمغرب الأقصى[١٢].

---

(١) فقد اعتدوا على ثغور المسلمين بعد وفاة المستنصر، وخارت العزائم عن ردهم على أعقابهم إلا ابن أبى عامر، الذى غزا بلادهم ٣٦٦هـ، و ٣٦٧هـ فى ثلاث غزوات خلال عامين ؛ مما ملّكه جبوش الأندلس. (البيان ٢/٢٦٤-٢٦٧).

(٢) أعتقد أن التدمير والتخريب الذى كان يحدثه المنصور فى غزواته للنصارى سلوك غير إسلامى ؛ فقد ورد فى توجيهات عمر لعمرو وجنده فى فتح مصر : " لا تخربوا ولا تفسدوا، ولا تعرضوا لأهل قرى مصر ومنازلها ". (المغرب -قسم مصر ص١٧).

(٣) تفاصيل حروبه مع النصارى تراجع فى : (البيان ٢/٢٩٤-٢٩٨، وأعمال الأعلام ٦٧-٧٣، وأزهار الرياض ٥/١٠٦-١٠٩).

(٤) الإحاطة ٢/١٠٧.

(٥) وكان والده قد رشّحه للحجابة من بعده سنة ٣٨١هـ. (البيان ٢/٢٩٣).

(٦) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ٦٦.

(٧) البيان ٣/٣، وأعمال الأعلام ٨٤.

(٨) الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول ص١٢٣-١٢٩، والمغرب (قسم الأندلس) ج١ ص٢١٣، والبيان ٣/٢٤-٢٩.

(٩) المغرب (قسم الأندلس) : ٢١٢/١.

(١٠) نهاية الأرب ٢٣/٤٠٧.

(١١) البيان ٣/١٥.

(١٢) أعمال الأعلام ٨٤، وتاريخ ابن خلدون ٧/٤٦-٤٧، وصبح الأعشى ٥/١٦٨، ١٨٦، والنفح ١/٤٢٣.

وبالنسـبة لجهـاد النصارى، فقد واصل هجومه على ممالك النصارى الشمالية، مقتفياً بـذلك آثار والده، وظل فى غزو بلادهم وتخريبها حتى عند اشتداد علته، التى مات فيها فى صفر سنة ٣٩٩هـ[١].

ولى عـبد الرحمن بن المنصور بعد وفاة أخيه عبد الملك، ولم تكن له أيّة مؤهلات للقيادة، بـل إن المـؤرخين يتهمونه بالفسق والمجون والخلاعة. وقد كان فتى غرًّا مغروراً، دفعه جنون العظمة للضغط على الخليفة المحجوب المقهور، وهدده بالقتل، حتى أصدر مرسوماً بتوليته العهد من بعده[٢]. هنا انقلب الناس - خاصتهم وعامتهم- على عبد الرحمن، وأظهروا له التأييد، بينما أبطـنوا له الكراهية والبغضاء. وأراد تقليد أخيه فى غزو بلاد النصارى، وفى أثناء ذلك وصلت إليه أنباء استيلاء محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر على شئون الحكم، فأراد العود إلى قرطبة. وفى الطريق خذله جنده ورجاله، وانفضوا من حوله، حتى قُبض عليه، وتم قتله وصـلبه فى شهر رجب من سنة ٣٩٩هـ[٣]. وبذلك فتح باب شر كبير على بلاد الأندلس، ودخـل أهلها مع البربر فى صراعات دامية، شاع فيها القتل والنهب والسلب، والتدمير فى كل مكان، حتى خربت قرطبة ومدينة الزاهرة، وظلت الفتنة متأججة، حتى نهايتها المحتومة، التى أدت إلى سـقوط الخلافـة الأمـوية بالأندلس سنة ٤٢٢هـ[٤]، ودخلت البلاد فى طور جديد من الضعف على يد (ملوك الطوائف).

خلاصة مقارنة:

فى هذه الخلاصة المركزة نذكر أوجه الاتفاق والاختلاف بين كل من: مصر، والأندلس من حـيث الأوضـاع السياسية، التى عايشها كل منهما خلال القرن الرابع الهجرى، **وذلك على النحو الآتى:**

أولاً - مـرت مصـر فى القـرن الرابع الهجرى بمراحل ثلاث متعاقبات: مرحلة ما بين العصرين الطولونى والإخشيدى، وهذه عانت خلالها مصر من الفوضى والاضطرابات السياسية، وصراعات الجند الداخلية. ويضاف - إلى ذلك - حالة النفير العام والطوارئ؛ نتيجة للخطر العبيدى على مصر، ومحاولات غزوها أكثر من مرة، وتخبط الخلافة العباسية ورجالاتها فى سياسة تولـية وعزل الولاة فى مصر؛ مما أدى إلى عدم الاستقرار. وفى مرحلة حكم الدولة الإخشيدية عرفت مصر الاستقرار والهدوء فى ظل الاستقلال شبه التام عن العباسيين؛ نتيجة الاهتمام الأكبر باسـتقرار أوضاعها الداخلية، والاتزان فى علاقاتها الخارجية. ثم انتقلت مصر إلى مرحلة جديدة

(١) البيان ٣/٣٦-٣٧.

(٢) المصدر السابق: ٣/٣٨-٣٩، وأعمال الأعلام ٩١-٩٣ (فى ربيع الأول ٣٩٩هـ).

(٣) البيان ٣/٤٩-٥٠، وأعمال الأعلام ٩٦-٩٨.

(٤) تفاصيل الفتنة فى: (البيان ٣/٥٠ وما بعدها، وكتاب العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، د.رجب عبد الحليم ٢٦٤-٢٦٨، وقيم المجتمع الإسلامى من منظور تاريخى، للدكتور العمرى ج٢ ص١٢٢-١٢٣).

خضعت فيها لحكم العبيديين، الذين سيطروا على شئون البلاد من كافة نواحيها. ولم تستقر الأوضاع السياسية فى ظلهم على النحو المعقول، فعانت مصر من هجمات القرامطة، وسيطرة أهل الكتاب على مقدراتها فى شئون الإدارة والمال، إلى جانب عمليات الابتزاز المالى، واصطناع الرجال بالأموال، بالإضافة إلى القرارات والإجراءات المتناقضة، التى أشاعت جوًّا عامًّا من السخط والكراهية، والخوف والفزع فى كافة طبقات الشعب المصرى.

أما الأندلس، فإنها لم تمر بتلك المراحل، وإنما حُكمت بخلافة أموية، يعد عهد الناصر والمستنصر أفضل فتراتها، بما تحقق من قضاء على الثائرين، وحماية البلاد من هجمات نصارى الشمال، وبما تم إرساؤه من نظم إدارية ناجحة تقوم على الكفاءات، وتحقق للأندلس الاستقرار والوحدة، والهيبة والعزة. وبدأ الانهيار بترشيح المستنصر ولده الصغير للخلافة من بعده، ففتح ذلك البابَ لتدخل الأوصياء والصراع فيما بينهم، حتى سيطر على الحكم المنصور دون وجه حق وبطرق غير سَوِيَّة، إلا أن مهارته وكفاءته غطّت على سلبياته، خاصة انتصاراته المدوية على النصارى. وبموته ظهرت عوامل الانهيار فى عهد ابنه عبد الملك، ثم وقع الانهيار الكامل فى حكم ولده الآخر عبد الرحمن؛ مما أدى إلى نهاية مأساوية مبكرة للمسلمين بالأندلس.

ثانياً - كانت العلاقات السياسية بين مصر والأندلس فى هذا القرن عدائية؛ نتيجة تعادى العبيديين والأمويين، ووصلت فى بعض مراحلها إلى التهديد[١] والسباب واللعن المتبادل بين الطرفين بعد فشل الاتفاق السلمى بينهما. وقد حال رحيل العبيديين إلى مصر دون وقوع الصدام الحربى المباشر بين الطرفين، وإن ظل أسلوب الدس والوقيعة، والتحريض وإثارة القلاقل قائماً بين الطرفين عن طريق أنصارهما فى بلاد المغرب.

ثالثاً، وأخيراً - كان الاستبداد فى الحكم هو الطابع الغالب والمسيطر على أوضاع مصر والأندلس السياسية، وكأنه كُتب على شَعْبَيِ الإقليمين أن يُحْكَما حكماً وراثياً مستبدًّا، وإن كان حكم العبيديين أشد قهراً وتسلطاً لاختلاف المذهب العقدى مع الشعب المحكوم. وقد نتجت عن طبيعة الحكم الواحدة نتائج خطيرة كانت سريعة حاسمة فى الأندلس، وبطيئة تظهر على المدى البعيد فى مصر؛ نظراً لاختلاف ظروفهما، وطبيعة شعبيهما[٢].

---

(١) وآخر ما لدينا فى هذا الشأن أبيات شعر، أُثِرتْ عن المنصور بعد أن اشتد سلطانه وتوالى ظَفَره، كتب بها إلى صاحب مصر العبيدى يتوعده. ولا ندرى مناسبتها، ولا ظروفها، ولا تاريخها بالتحديد. (الأبيات فى :الحلة السيراء ١/٢٧٥-٢٧٦).

(٢) كان الإسراف فى اجتلاب البربر وانثيالهم من المغرب إلى الأندلس، والاعتماد عليهم فى جيوش المنصور وولديه ذا دور خطير فى الفتنة، التى أعقبت مقتل عبد الرحمن بن المنصور فى ظل صراع سكان قرطبة حادّى الطباع مع البربر البُداة الجفاة. وكان جلب العزيز فى مصر للترك سبباً فى اضطراب الأحوال فيما بعد عهد الحاكم فى مصر؛ للتنازع بين طوائف الجند (حول اتخاذ العزيز لهم وخطورة ذلك يراجع : (الخطط ٢/٢٨٤-٢٨٥، واتعاظ الحنفا (ط٢-المجلس الأعلى) ١/٢٩٤، وموسوعة التاريخ الإسلامى ٥/١٢٦).

ثانيا - الأوضاع الاقتصادية العامة فى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى

١- مجمل الأوضاع الاقتصادية فى مصر:

مـــن خلال معالجتنا للأوضاع السياسية فى مصر فى ذلك القرن، اتضح لنا أن فترة ما قبل الدولة الإخشيدية كانت مملوءة بالاضطرابات، وعدم الاستقرار؛ ولذلك لا نتوقع وجود نشاط اقتصـــادى واضح بها[١]. ومن هنا فإن تركيزنا سيكون حول فترة الحكم الإخشيدى، والعبيدى خاصـــة؛ إذ عـــرفت مصر خلال هذين العصرين الاستقرار، وما يترتب عليه من وجود سياسة اقتصادية واضحة، تنعكس آثارها على مجالات الحياة المختلفة.

فى عهد الإخشيد يذكر ابن سعيد[٢] أنه كان إذا أقبل شهر رمضان، أطلق النفقات للمسجد الجامع، وأمر بعمارة المساجد وترميمها، والعناية بمظهرها، وإضاءتها بالمصابيح، وتوفير الأئمة لها. وهذا لون من الاهتمام بالعمران فى ذلك العصر. وكان الإخشيد يهتم بإقامة المتنـــزهات الفخمة الـــتى تـــتكلف أموالاً كثيرة؛ كى يفاخر بها أهل العراق[٣]، وكان كثيراً ما يقيم ببستانه المعروف بـــ(المختار)، والذى أقام إلى جانبه ميداناً. وكان كافور - من بعده- يقيم به أيضاً[٤]. وبخصوص كافور فقد أمر ببناء دار له، يبدو أنها كانت على قدر كبير من الأبهة، وذلك بمدينة العَسْكَر[٥] سنة ٣٤٦هـــ، بجوار بِرْكَة قارون. وقد تكلفت مائة ألف دينار، وهو رقم مبالغ فيه. وعلى كل، فقد سكنها شهر رجب من السنة المذكورة، وانتقل منها بعد أيام؛ بسبب الوباء الذى وقع لغلمانه من بخار تلك البركة[٦]. وهذا - ولا شك - لون من الإسراف فى الإنفاق. وفى العام نفسه قام كافور الإخشيدى بعمل نافع فى دولة الإخشيديين، لما قام ببناء مَارَسْتان لعلاج المرضى[٧].

---

(١) بالإضافة لبعض الكوارث التى أصابت الزراعة، كما فى سنة ٣١١هـــ، لما هاجمت أسراب الجراد غلة مصر، فأتت عليها، (مخطوطة نـــزهة الأنام فى تاريخ الإسلام) لابن دُقْمَاق : ورقة ٢٨.

(٢) المغرب (قسم مصر) ص١٦٣.

(٣) السابق : ١٦٠-١٦١.

(٤) وصفه المقريزى فى (الخطط) ١/٣٦٠، ٤٥٧.

(٥) هى ثانى مدينة اتخذها العرب عاصمة لمصر بعد الفسطاط. بناها أبو عَوْن بأمر صالح ابن على ١٣٣هـــ، وصار أمراء مصر ينـــزلون بها، وكثرت بها الأسواق. (م.البلدان ٤/١٣٩، والخطط ١/٣٠٤، والقاموس الجغرافى (القسم الأول -البلاد المندرسة) ص٨٤.

(٦) الخطط ١/٣٠٤.

(٧) المصدر السابق : ٢/٤٠٦.

شهدت الدولة الإخشيدية عدداً من مظاهر النشاط الاقتصادى، فقام كافور سنة ٣٣٦هـ بمشروع حفر خليج بساحل مصر، يَسَّر على الناس وصول الماء إليهم عند جفاف النيل[١]. وشهدت الصناعة رواجاً، خاصة صناعة السفن[٢]، وازدهرت التجارة[٣]، وانتعشت حركة البيع والشراء، وبدت مظاهر ذلك فى مدينة الفسطاط وأسواقها وحوانيتها[٤]، وكذلك فيما يدخل إلى خزينة الدولة من الأموال، وانتشار الثراء والضِّياع[٥]. وقد عنى الإخشيد بدار الضرب وبلغت العملة فى دولته درجة من القوة تدل على نمو الاقتصاد فيها[٦]. وساعد ذلك الإخشيد - ومن بعده كافور - على صرف الرواتب لأرباب الحاجات والفقراء، وكان منهم طائفة من الأشراف الذين افتقروا بعد النعمة[٧].

وأخيراً، فقد عانت البلاد من محن وبلاء بعد الإخشيد، تمثل فيما حل بها من جفاف وانخفاض لمياه النيل، وزلازل مدمرة[٨]، وما نتج عن ذلك من أوبئة وغلاء فى الأسعار شديد، وتفاقمت الأزمات فى المجاعة التى امتدت بعد وفاة كافور[٩]؛ مما أرهق الناس وأضعفهم، وساعد على ترحيب الكثيرين بمقدم العبيديين، على أمل الخلاص مما هم فيه من ضيق وعنت شديد.

اهتم العبيديون فى مصر ببناء عاصمة جديدة لملكهم (القاهرة). وقد شرع جوهر قائد المعز فى حفر أساساتها بمجرد دخوله مصر بجيوشه، وحرص على تقسيمها إلى خِطَط وحارات، تنزل فيه فرق الجيش المختلفة[١٠] وبُنيت بها عدة قصور لنزول المعز وحاشيته وقواده وكبار رجال دولته[١]،

(١) السابق : ٣٤٤/١، ومصر فى العصور الوسطى، لعلى إبراهيم حسن ٣٩٩.

(٢) المغرب (قسم مصر) ص١٦٠، ١٦٦، ١٧٣، ١٩٧.

(٣) مصر فى عصر الإخشيديين ٢٧٩، وتجارة مصر فى البحر الأحمر، للدكتور القوصى ٧٩-٨٠، ورؤية الرحالة المسلمين ٣٠٨-٣٠٩. وراجع كتاب رومانوس للإخشيد، وبه طلب تيسير التجارة بين مصر وبيزنطة (المغرب - قسم مصر -ص١٧٢).

(٤) المسالك والممالك للإصطخرى ٣٩-٤٠؛ وأحسن التقاسيم للمقدسى ١٦٨-١٦٩، والخطط ٣٣٠/١-٣٣٣.

(٥) راجع مقدار خراج مصر - الذى بلغ فى عهده مليونَىْ دينار سوى ضياعه التى يمتلكها - فى: الخطط ٩٩/١، ومصر فى عصر الإخشيديين ٣٤٢-٣٤٣. ومما يدل على عظم الأموال والثراء فى مصر أخبار مصادرات الإخشيد لأثرياء مصر، ويمكن مراجعتها فى : المغرب (قسم مصر ص ١٥٤، ١٦٠، ١٦٣-١٦٥). وكذلك تركة كافور الهائلة، التى خلفها من بعده (الخطط ٢٧/٢).

(٦) حول أهمية سك العملة فى دعم الاستقلال السياسى والاقتصادى، وجهود الإخشيد فى ذلك المضمار. راجع المغرب (قسم مصر) ص١٨١-١٨٢، ومقدمة ابن خلدون ٦٣٧/٢، ٧٠٠-٧٠٦، ومصر فى العصور الوسطى ٣١٤.

(٧) الخطط ٩٩/١، وتاريخ الدولة الفاطمية، د.حسن إبراهيم ٢٩٧، ومصر فى عصر الإخشيديين ص٢٠٠.

(٨) كما حدث سنة ٣٤٤هـ، والذى هدم البيوت، وأفزع الناس (تاريخ الإسلام) للذهبى ٢٠/٢.

(٩) مثل : غلاء سنة ٣٣٨هـ، ٣٤١هـ، ومجاعة استمرت ٩ سنوات متوالية بدءاً من ٣٥٢هـ، واشتداد الغلاء آخر عهد كافور (إغاثة الأمة ١٠-١١، والخطط ٢٧/٢).

(١٠) صورة الأرض ١٣٨، وصبح الأعشى ٣٤٤/٣، والخطط ٣٦١/١ وبعدها، والنجوم الزاهرة ٣٥/٤ وبعدها.

دولـــته[1]، كما بنيت بها دور لتخزين ما يحمل إلى الناس من أطعمة ونحوها فى الأعياد والاحتفالات المخـــتلفة[2]، وأقيمت بها مخازن لحفظ الغلال[3]؛ كى توزع على الناس عند انخفاض النيل، وانتشار المجاعات. ومن أوائل ما وضعه جوهر فى الحسبان إنشاء الجامع الأزهر بمدينة القاهرة؛ ليكون منطلقاً لنشـــر الدعوة الشيعية فى أرجاء مصر وبين جموع شعبها. وقد حَظِيَ هذا الجامع باهتمام كبير عبر العصـــور، وأدخلـــت فـــيه عدة تجديدات[4]. وعُنِيَ المعز -كذلك- بتهيئة مصلى العيد، واتخذ من التـــرتيبات مـــا يوصل التكبيرات إلى الحُرَم بالقصر[5]. وتوسع بنو عبيد فى إنشاء مزيد من المساجد، فأقـــام العزيز مسجداً تم بناؤه فى عهد ابنه الحاكم ونُسب إليه[6]. وكذلك أنشئ مسجد راشدة فى عهـــد الحـــاكم ٣٩٣هـــ[7]. وفى المقابل دفع التعصب الحاكم إلى هدم مسجد عمرو بن العاص بالإســـكندرية سنة ٣٩٤هـ[8]. وإذا كان العبيديون تسامحوا فى ترميم بعض الكنائس، بل فى إقامة الجديـــد مـــنها[9]؛ فإن الحاكم كان يأمر - أحياناً -بهدم بعض الكنائس، وذلك فى ثورات غضبه وهياجه المعهودة[10] ولم يعدم العزيز بناء منظرة يجلس فيها، وأمامها بستان عظيم، وكانت كأنها من جنّات الدنيا المزخرفة، وبها عدة أماكن مجهزة لنـــزول الوزير وغيره من رجال الدولة[11].

---

(١١)الخطط ١/٣٨٣-٣٨٥، ٤٥٧، ومخطوط عقد الجمان ١٠/ورقة ١٢٤.

(١) وتسمى كل دار منها بـــ(دار الفطرة). (الخطط ١/٤٢٥).

(٢) وتعرف بالأهراء السلطانية، وتتعدد أماكنها بالقاهرة (السابق ١/٤٦٤-٤٦٥).

(٣) الخطط ٢/٢٧٢-٢٧٥. وذكر المقريزى أنه بدأ فى إنشائه السبت ٢٤ من جمادى الأولى ٣٥٩هـــ، واكتمل ٩ من رمضان ٣٦١هـــ، وصُلِّيت فيه الجمعة ٧ من رمضان ٣٦١هـــ، ومكتوب فى لوحة بالمسجد بجوار المحراب أنه مبنى بأمر المعز على يد جوهر، وذلك سنة ٣٦٠هـــ (السابق ٢/٢٧٣). والحق أن التاريخين الأولين صحيحان، وأما تاريخ اللوحة، فقد يحتاج إلى تفسير، ولعله يعنى تاريخ الانتهاء من هذا الجزء من المسجد. أما بخصوص تاريخ أول جمعة جُمِّعَتْ فيه، فالصواب أنها كانت سنة ٣٦٢هـــ؛ لأن المعز كما ذكرتُ من قبل دخل مصر فى الخامس من رمضان (وكان يوم الثلاثاء)، ثم افتتح الجامع الأزهر، وصلى فيه أول جمعة بعد دخوله بثلاثة أيام (الثامن من رمضان). ومن ثم، فإن القلقشندى لم يكن على صواب (صبح الأعشى ٣/٣٦٠) عندما ذكر أن جوهراً بنى الجامع بعد دخول المعز إلى القاهرة، وإقامته بها، وأنه جمعت فيه الجمعة فى السابع من رمضان سنة ٣٦١هـــ. ومن عجب أن نص المقريزى الذى نقلتُه آنفاً، واحتاج إلى تعليق وتصويب منى، قد نقله مؤلفا كتاب : (المعز لدين الله) ص٢١٩، ولم يُعلِّقا عليه!

(٤) كان مصلى العيد يقع شرقى القصر الكبير من خارج باب النصر. وقد بناه جوهر- أولاً- فى رمضان ٣٥٨هـــ لصلاة العيد، ثم جدّده العزيز. وقد أمر المعز بعمل مصاطب، تصل المصلّى بالقصر، ويقف عليها المؤذنون ؛ حتى يصل التكبير من المصلى إلى القصر. (الخطط ١/٤٥١، واتعاظ الحنفا -ط.دار الفكر ص١٦١).

(٥) الخطط ٢/٢٧٧ (٣٨٠هـــ)، ومخطوط (عقد الجمان) ١٠/ورقة ١٢٤.

(٦) صبح الأعشى ٣/٣٤١، والخطط ٢/٢٨٢-٢٨٣.

(٧) اتعاظ الحنفا (ط.المجلس) ٢/٤٩ (٣٩٤هـــ).

(٨) أهل الذمة فى العصر الفاطمى الأول، د.سلام شافعى ٢٢٤.

(٩) هُدمت كنيستان بجوار جامع راشدة (اتعاظ الحنفا) ٢/٤٨ (٣٩٤هـــ).

(١٠)الخطط ١/٤٦٥، ٤٧٠.

دخل العبيديون مصر بقيادة جوهر الصِّقِلّيّ، وهى تعانى مجاعة شديدة ممتدة منذ سنوات، ولنا أن نتوقع ما يبذله جوهر؛ لتخفيف تلك المعاناة على المدى العاجل والممتد؛ لمحاصرة تلك الأزمة الغذائية الطاحنة[١]. وقد اعتنى العبيديون بالأراضى الزراعية، وخفضوا وطأة الضرائب على الفلاحين[٢]، فعمرت الأرض بصنوف المحاصيل الزراعية طوال العام[٣]. وساهم المعز فى منع احتكار التجار السلع؛ تجنباً لارتفاع الأسعار، وكذلك لم يسمح بهبوط الأسعار هبوطاً حادًّا، يؤدى إلى خسائر فادحة لهؤلاء التجار، وذلك عندما نهى فى شوال سنة ٣٦٢هـ عن النداء العام بمقدار زيادة النيل[٤].

اهتم العبيديون بالصناعة اهتماماً كبيراً، ولعل فى تنوع النشاط الصناعى فى عصرهم دليلاً على الازدهار، فوجدت صناعة المنسوجات، وصناعة الأسلحة، والسفن، والصناعات الخشبية، والصناعات النباتية والزيتية[٥]. ويعد عهد العزيز من أفضل عصور الابتكار فى كثير من المجالات خاصة المجال الصناعى[٦]. ومن البَدَهِيّ أن تزدهر التجارة فى ظل نمو الزراعة والصناعة، وتَقَدُّم العبيديين فى شئون النقل البحرى خاصة، فتوطَّدتْ صلاتهم التجارية مع بيزنطة[٧]، ومع بلاد المغرب والأندلس[٨]. ورغم العداء السياسى الشديد مع الأندلس، إلا أن الحدود كانت مفتوحة فى ذلك الزمان، ولا توجد قيود تمنع انسياب حركة التجارة بين المشرق والمغرب. وساعد على رواج التجارة موقع مصر الجغرافى الممتاز، وتعدد مراكزها التجارية داخلياً وخارجيًا[٩].

زاد الخراج فى العصر العبيدى فى مصر زيادة ملحوظة، إذ يذكر المقريزى أن الخراج بلغ فى السنة، التى دخل فيها جوهر القائد مصر (٣٥٨هـ) ثلاثة ملايين دينار، وأربعمائة دينار

---

(١) على المدى العاجل : وزرع القمح بين الناس، ثم قام بتوزيع الصدقات (نهاية الأرب ٢٨/ ١٣٠)، وقام المحتسب ٣٥٩هـ بتوجيه الأوامر إلى القَمَّاحين بعدم توزيع القمح إلا فى وجوده، وعاقب المخالفين من الطحَّانين (اتعاظ الحنفا - ط.دار الفكر - ص١٦٩، ١٧٢). وعلى المدى البعيد قام بحفر الترع والجسور ؛ للانتفاع بماء النيل. (الخطط ١/ ٦١، ١٠١، وتاريخ الأمة القبطية ٣/ ١٠، وتاريخ جوهر ٧٥).

(٢) اتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر) ص١٦٦.

(٣) أنواعها بالتفصيل، وأوقات زراعتها فى (الخطط) ١/ ١٠١-١٠٣.

(٤) المصدر السابق : ١/ ٦١، وتاريخ الدولة الفاطمية ٥٧٢-٥٧٣.

(٥) راجع : صورة الأرض ١٤٣، واتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر) ص١٩٢، والحرف والصناعات لأبى سديرة ١٧٢-١٧٣، ٢٠٦، ٢٢٨-٢٢٩، ٢٣٢-٢٣٤، ٢٤٤، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم ٥٩٤ وبعدها، وتاريخ البحرية الإسلامية فى مصر والشام، للدكتورين العبادى، وسالم ص٨٨-٩٣.

(٦) ابتدعت أيامه عمائم مذهبة، بها حرير وعزل غالية الثمن بدمياط (الخطط ١/ ٢٢٦)، وأنواع مبتدعة من السفن (نهاية الأرب ٢٨/ ١٦٣)، وغير ذلك.

(٧) رؤية الرحالة المسلمين، للدكتورة أمينة الشورنجى ص ٣٧٢ وبعدها.

(٨) رؤية الرحالة المسلمين، للدكتورة أمينة الشورنجى ص ٣٨٥-٣٨٩.

(٩) تاريخ الدولة الفاطمية ٥٩٨-٦١٨ وما بعدها.

ونيفا[١]. وقد اتخذت مجموعة من الإجراءات الاقتصادية على يدى: يعقوب بن كلّس، وعُسْلوج ابن الحسن، فيما يتصل بالشدة فى استخراج الأموال، والمطالبة ببقاياها عند الناس، والاستقصاء فى طلبها، وطرح مزيد من الضّياع للمتقبلين، كل ذلك شجع على زيادة إيرادات الدولة[٢]، بالإضافة إلى تخفيض قيمة الدينار الراضى، الذى كان يُتعامل به فى مصر؛ إذ رفض ابن كلس ومسيئولو الخراج التعامل إلا بالدينار المُعِزّىّ، فهبطت قيمة الآخر أكثر من الربع[٣]، ولم يستطع الوقوف أمام عملة العبيديين الجديدة القوية المعبِّرة عن قوة اقتصادهم[٤]. وقد أورد لنا المقريزى أرقاماً لقيمة ما استخرج من أموال عدد من مدن وبلدان مصر، ترجع إلى عهدى: (المعز، والعزيز)[٥]، إلا أنها مبالغ فيها جدًّا، لكنها على أية حال تدلل على مقدار الطفرة الحادثة فى إيرادات الدولة.وعلى الجانب الآخر يجب ألا نغفل الأثر السلبى لذلك على عامة الناس، ففى الوقت الذى أراد فيه المعز تعويض الأموال الطائلة التى أنفقها فى غزو مصر[٦]، وتخفيف آثار المجاعة بها، كان الناس يفقدون أموالهم، ويعانون الأزمات المالية الخانقة[٧]، وكانت المبالغة -من جانب ابن كلس- فى جباية الضرائب من بلد، مثل:تِنِّيس، وهى مشهورة بصناعة المنسوجات، تؤثر تأثيراً سلبياً فى إنتاجها ورواج صادراتها[٨]؛ لانعدام التوازن بين الإيرادات والمصروفات[٩].

وأخيراً، فلا ينبغى أن نُخدع بمظاهر العمران من قصور ونحوها، أو بكَمٍّ الكنوز والثروات والذهب والمجوهرات، والمقتنيات النادرة لدى الحكام وبطانتهم ورجال دولتهم[١٠]، فعلى الجانب الآخر توجد أخبار تظهر وتختفى -على استحياء -فى المصادر، تعبر عما يقاسيه الناس من

---

(١) الخطط ١/٨٢.

(٢) اتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر) ص١٩٧، وأهل الذمة فى مصر فى العصر الفاطمى الأول د.سلام شافعى ٤٧-٤٨.

(٣) اتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر) ص١٩٩، ورؤية الرحالة المسلمين ص٧٦.

(٤) وهى قوة مصطنعة؛ لأنها تنافس عملة أُضعفت (الدينار الراضى).

(٥) اتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر) ص١٩٩.

(٦) فسر المقريزى خيبة أمل المعز فى مصر، فقال : كان يظن أنه سيجد فيها الأموال مجتمعة، فوجدها قد فرقتها مؤن مصر وكثرة عساكرها. وما أنفقه المعز على مصر لا يُضبط، ولا يعرف مقداره إلا هو، أو خزّانه.(اتعاظ الحنفا، ط.دار الفكر ص١٩٩).

(٧) لأنهم خسروا أكثر أموالهم بعد هبوط قيمة العملة، التى كانت معهم (الدينار الراضى). (المصدر السابق، ط.دار الفكر ص١٩٩).

(٨) صورة الأرض ١٤٣، وأحسن التقاسيم للمقدسى ص١٨١.

(٩) فهناك عوامل تتحكم فى زيادة الجباية الحقيقية وقلتها. ومن ذلك : ضرورة مراعاة مستوى الإنتاج وقيمته ومقداره عند فرض الضرائب، وإلا أحس المنتجون بالظلم الفادح، فانهار الاقتصاد. (المقدمة ٢/٧٢٩-٧٣١، وبحث التفكير الاقتصادى لدى ابن خلدون)، لسليم التكريتى، فى مجلة (الأقلام البغدادية)، ج٦، السنة الأولى، رمضان ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م). ص٩٦-٩٧.

(١٠)راجع : الجماهر فى معرفة الجواهر، للبيرونى ٢٣٨، ووفيات الأعيان ٣/١٠١-١٠٢ (حيوانات نادرة)، ونهاية الأرب ٢٨/١٤٣، واتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر) ص١٤٤، والخطط ١/٣٣١، ٤٠٩، ٤١٥، ٤١٨، وتاريخ الدولة الفاطمية ٥٥١-٥٥٨، وتجارة مصر فى البحر الأحمر، لعطية القوصى ص١٣٤.

غلاء فاحش فى الأسعار[١].

مجمل الأوضاع الاقتصادية فى الأندلس فى القرن الرابع الهجرى:

لعل جهود خلفاء بنى أمية بالأندلس فى مجال العمران فى هذا القرن هى أبرز آثار حضارتهم الماثلة للعيان فى زمنهم، والتى لا تزال بعض بقاياها شاهدة على عظمة منجزات هؤلاء القوم حتى العصر الحالى[٢]. لقد أُولع هؤلاء الخلفاء بكل مظاهر التشييد والعمران أيَّما إيلاع، حتى بلغوا فى ذلك درجة من الإسراف، عرَّضهم لانتقادات بعض رجال زمانهم[٣]، وجعلهم فى عِداد المسرفين فى نظرنا، ونظر الباحثين الآخرين[٤]. لقد رأى الخليفة الناصر أن أبهة الملك تقتضى ما قام به من منشآت وتجديدات، وأن تخليد آثار الملوك من بعدهم إنما يكون بهذه الطريقة[٥]. ومن هنا رأينا أكبر حركة عمران فى عصره، الذى امتد أكثر من نصف قرن. لقد حظى المسجد الجامع بقرطبة بعمليات تجديد وتوسيعات متتالية؛ ليلائم النهضة الحضارية والعمرانية، وكثرة عدد السكان بقرطبة عاصمة الخلافة. واستمر ذلك فى عهد ابنه المستنصر من سنة ٣٥٤هـ إلى سنة ٣٥٥هـ، فجددت منارته، وأبوابه، ومقصورته، ومنبره، وتضاعفت مساحته، وتم إجراء الماء العذب إليه فى أنابيب، تحفظها من التلوث. وأنشئت دار الصدقة؛ لتكون مقرًّا لتوزيع الصدقات على الفقراء والمُعْوِزين[٦]. كما أنشئ مسجد آخر فى عهد الحكم، استمر بناؤه خمس سنوات كاملة، واكتمل بناؤه سنة ٣٦٥هـ، وتكلف أموالاً طائلة[٧]. وإذا كان الناس على دين ملوكهم، فقد كثرت المساجد جدًّا فى قرطبة وغيرها[٨]، وشرح ذلك الدكتور مؤنس بأن الناس -فيما يبدو -كانوا ينشئون زوايا صغيرة فى بيوتهم، ويعدونها مساجد،

---

(١) كما فى سنة ٣٨٦هـ (اتعاظ الحنفا -ط. المجلس الأعلى) ١/٢٩١ : غلاء سعر القمح، وسنة ٣٨٧هـ (السابق ٢/٨: وتثبيت سعر الخُبز). وفى سنة ٣٩٧هـ (السابق ٢/٦٩): مواجهة اضطرابات الأسعار بتسعير السلع، وغلاء ٣٩٨هـ وانعدام الأقوات، وظهور الأوبئة (الكامل ٨/٤٩-٥٠، والخطط ٢/٢٨٦).

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامى، للدكتور شلبى ٤/٩٦-٩٧، ١٠٠-١٠١.

(٣) مثل : قاضى الجماعة منذر بن سعيد البلوطى. (المغرب، قسم الأندلس)١/١٧٩-١٨٠، وتاريخ قضاة الأندلس للنباهى ٧١-٧٢، وأزهار الرياض ٢/٢٨١-٢٨٢).

(٤) انتقد ابن خلدون هذا المسلك بعامة (المقدمة ٢/٥٥٦، ٥٩٩-٦٠٠)، وانتقده من المعاصرين د.عبد الحليم عويس فى (التكاثر المادى وأثره فى سقوط الأندلس) ص٥-١٩، وقيم المجتمع الإسلامى من منظور تاريخى، للدكتور العمرى ١/١٣٦-١٣٧.

(٥) للناصر شعر مأثور، يدافع فيه عن وجهة نظره، ويعلل شغفه بالعمران (النفح ١/٥٢٠-٥٢١، ٥٧٥).

(٦) نزهة المشتاق ١/٣٥٩-٣٦٠، ٢/٥٧٥، والبيان (٣٤٨هـ) ٢/٢٢٩-٢٣١، ٢٤٠ (أحداث ٣٥٦هـ)، والنفح ١/٥٤٨ وبعدها، وبحث د.سحر سالم : (مصحف عثمان بن عفان فى الأندلس) فى (المجلة العربية للثقافة) السنة ١٤، ع ٢٧، سبتمبر ١٩٩٤م، ص٦٣ وبعدها.

(٧) البيان ٢/٢٥٩.

(٨) النفح ١/٥٤٠.

وبكثرة عدد الدور، وانتشار حركة العمران، بلغت هذه المساجد أعداداً هائلة[١].

تطلبت مقتضيات التوسع العمراني، ثم أُبَّهَة الخلافة أن ينشئ الناصر عاصمة جديدة، تتسع طرقها وشوارعها لجيوشه الجَرَّارة دون إيذاء عامة الناس. ومن هنا بدأ ينشئ مدينة الزهراء وجامعها[٢] وقصر الحكم، مع توصيل المياه العذبة إليه فى مشروع ضخم. وقد بدئ فى إنشاء هذه المدينة -بإشراف ولى العهد الحكم – أول المحرم سنة ٣٢٥هـ، واستوعب ذلك طوال عهد المستنصر تقريباً، حتى انتهى من بنائها سنة ٣٦٥هـ (أى: استغرقت حوالى أربعين عاماً[٣]، ولنا أن نتصور -بعد ذلك -مقدار ما تكلفته من جهد ومال، وهو لون من الإسراف الممقوت. وفى عهد المنصور أنشأ مدينة الزاهرة على مقربة من جنوبيّ قرطبة سنة ٣٦٨هـ، وأنشأ بها مسجداً وقصراً، وجعلها مقر دواوين الحكم ومركزه، بينما كان المؤيد يتنقل بين قرطبة والزهراء[٤].

واهتم الناصر ببناء مدن ثغرية، تكون فى مواجهة النصارى، وتكون شَجًى فى حلوقهم، وتعمر بالمرابطة والسفن الحربية؛ لمواجهة الهجمات البحرية، فأقام مدينة ألْمَرِيَة سنة ٣٤٤ هـ[٥]، ومن قبل أعاد الناصر إحياء مدينة سالم سنة ٣٣٥هـ[٦]. ويضاف -إلى ما سبق من مظاهر العمران -ما يتعلق ببناء الحصون، والقلاع فى مناطق الثغور[٧]، وتعمير المناطق المفتوحة بعد سقوطها فى أيدى المسلمين[٨]. واهتم الخليفة المستنصر بتنظيم عمارة السوق، وتوسيع طريقها؛ تيسيراً على الناس الصادرين والواردين[٩]، كما لمس الحكم بنفسه – وهو فى طريقه إلى دار الطِّراز -وقد مَرّ على مقبرة باب اليهود المعروفة بـ(أم سلمة)، فرأى ضيقها؛ لتكاثر الدفن بها، فاشترى دوراً كثيرة من أصحابها، وأمر بهدمها، وتوسعة المقبرة[١٠].

ساعد الاستقرار السياسي والأمن الداخلى فى عهد خلفاء بنى أمية على ازدهار مظاهر

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس ٣٢٧.

(٢) تم بناؤه ٣٢٩هـ (أزهار الرياض ٢/٢٦٦). وتعريف الزهراء فى (صورة الأرض ١٠٧، ومعجم البلدان ٣/١٨١).

(٣) المغرب (قسم الأندلس) ١/١٨١، والبيان ٢/٢٣١ وبعدها، وأزهار الرياض ٢/٢٦٧، ٢٧١، والنفح ١/٥٢٣-٥٢٤، ٥٦٣-٥٦٨.

(٤) أزهار الرياض ٥/١١١، وبحث عنان عن (جغرافية الأندلس) فى مجلة (تطوان) بالمغرب (العددان : ٣، ٤)، ١٩٥٨/١٩٥٩م، ص٤١.

(٥) تراجع أهميتها فى : (تاريخ الجغرافية، والجغرافيين بالأندلس) للدكتور مؤنس ص٣٨٢، وتاريخ مدينة ألمرية، للدكتور محمد أبى الفضل ص٤٤-٤٥، ٥٦.

(٦) صورة الأرض ١١٢، والبيان ٢/٢١٣-٢١٤.

(٧) المقتبس ٥/٤٥٦-٤٥٧ (سنة ٣٢٨هـ).

(٨) مثل : متابعة البناء فى قلعة بيشتر ٣١٧هـ. (البيان ٢/٢٠١).

(٩) المقتبس (ط.الحجى) ص٦٧-٦٨، ٧٠، ٧١.

(١٠) المقتبس (ط.الحجى) ص٩٢.

النشـــاط الاقتصادى من زراعة وصناعة وتجارة[١]. ومن هنا، فقد ازدهرت الزراعة بالأندلس، وكثـــر الإنتاج خاصة عند هطول الأمطار بغزارة كافية[٢]. كما اهتم المستنصر بتنظيم عمليات الـــرى، فأقـــام السدود والقناطر لتنظيم الاستفادة من مياه الأنهار[٣]، واستخدمت آلات الرى المختلفة[٤]، وأثمر هذا كله زراعة جيدة لمختلف المحاصيل والفواكه التى تشتهر بها كثير من مدن الأندلس[٥]. وفى بعض السنوات كان القحط يعم البلاد[٦]؛ نتيجة منع القَطْر من السماء، فترتفع الأسعار مع قلة المحاصيل وندرتها، وهلاكها أحياناً؛ مما كان يدفع الخلفاء إلى سد حاجات الناس، والإكـــثار مـــن توزيع الأطعمة والصدقات على الناس[٧]، لدرجة كانت تمنع الناصر من الخروج بنفسه فى غزواته المعتادة[٨]؛ مشاركة للناس، وإشرافاً على توزيع الغذاء، وضبط أمور البلاد.

وبخصـــوص الصـــناعة، فقد عمرت أرض الأندلس بالكثير من المعادن كالنحاس والذهب والفضـــة، والـــرخام الأبيض، فقام على ذلك العديد من الصناعات المعدنية والحربية[٩]. وبرع الأندلســـيون فى صـــناعة الســـفن، وقاموا بإنشاء الأساطيل البحرية اللازمة للدفاع عن ثغور الأندلس[١٠]. وطَبعىٌ أن تروج التجارة بين مدن الأندلس، وأن تساعد ثغورها فى تيسير حركة التبادل التجارى مع المغرب[١١]، ومصر[١٢]، وممالك الشمال النصراني[١٣].

---

(١) ابن حزم وجهوده فى البحث التاريخى والحضارى، للدكتور عبد الحليم عويس ٢٨-٢٩.

(٢) كما فى سنة ٣٦١هـ (المقتبس، ط.الحجى) ص٦٦، والنقود الإسلامية (الكتاب الثانى)، للدكتور طاهر راغب ٩٣.

(٣) أشرف المستنصر على هذا بنفسه، واستعجل إنجازه قبل حلول الشتاء (السابق : ٥٨).

(٤) مثل : آلة تعرف بـ (السانية)، وهى كلمة أندلسية تقابل (الساقية). (الإحاطة ٢/٢٥د بالهامش).

(٥) النفح ١/٢٠٠.

(٦) مثل : قحط سنة ٣٠٣هـ، ويُشبِّه بمجاعة ٢٦٠هـ (المقتبس ٥/١٠٩-١١٠). وفى سنة ٣١٧هـ ظهر القحط أيضاً (البيان ٢/١٩٩)، ومجاعة ٣٥٣هـ (السابق ٢/٢٣٦).

(٧) السابق : ٢/٢٣٦

(٨) كما فى قحط ٣١٤هـ (السابق ٢/١٩٢).

(٩) النفح ١/٢٠٠-٢٠٢.

(١٠) المقتبس ٥/٣٢٣-٣٢٤ (٣٢١هـ) و(ط.الحجى) ص٢٣-٢٥؛ وتاريخ مدينة المرية، للدكتور أبى الفضل ٧٢-٧٤.

(١١) كاستيراد سبائك الفضة الخالصة والديباج، وغيرها من نفيس المتاع بأوسط الأسعار، واستفاد بتلك الصفقات تجار الأندلس (استوردوها من تجار جزيرة سَرْدانية بالمحيط الأطلنطى (المقتبس ٥/٤٧٨؛ ٤٨٥، أحداث سنة ٣٣٠هـ).

(١٢) حيث وجدت منسوجات مصرية بأسواق الأندلس. وقد تعيد الأندلس تصديرها إلى أقاصى خراسان وغيرها. (صورة الأرض ١٠٥). وذكرت د.سعاد ماهر فى (النسيج الإسلامى) ص١٢٣-١٢٤ : أن نسيج الأندلس يشبه جدًا نسيج مصر، وقالت : توجد قطعة نسيج تعود إلى عصر المؤيد ؛ مما يدل على وجود مصانع طراز بالأندلس، استقدمت نسَّاجين من مصر للعمل بها.

(١٣) حول العلاقات الاقتصادية مع تلك الممالك تراجع التفاصيل فى كتاب : (العلاقات بين الأندلس وإسبانيا النصرانية) ص٤٦٦ ٤٧٦ (وذكر أن التبادل التجارى كان يتم على الحدود، وفى مناطق الثغور فى المرية، وطرطوشة، وغيرهما).

وعلـى الجملـة، فقد حظيت الأندلس ونعمت - نتيجة الازدهار الاقتصادى - بوفرة فى الدخل، وارتفاع فى إيرادات الدولة، فبلغ الخـراج فى قرى وكور الأندلس خمسـة ملايين، و ٤٨٠ ألـف دينـار[١]، وكـان الناصـر يقسم تلك الجباية أثلاثاً: للجند، وللبناء والتعمير، وللادخـار[٢]. وكانت الدولة لا تتهاون فى جباية الخراج من مختلف أقاليمها[٣]، فهو ضرورى لبسط سيادتها، ووسيلة للوفاء بالتزاماتها، وقد تُفرض ضريبة خاصة عند غزو الجيوش سنويّاً[٤]، لكـن ذلك لا يعنى أنها تتعنت فى جمع الخراج، أو تكلف الناس مالا يطيقونه، بل كان الخليفة يُعَـنِّف عماله إذا اشتطوا فى استخراج الأموال من الرعية[٥]، وفى بعض المناسبات السارة كانوا يسـقطون قـدراً من الضرائب عن كاهل الناس[٦]، أو يسقطون ضريبة مستثقلة لدى الناس؛ لتحقـيق هدف سياسى[٧]. وقد شهد الرحّالة ابن حَوْقَل[٨]، الذى زار الأندلس فى القرن الرابع الهجـرى بمـدى مـا تَتَمتَّعُ به هذه البلاد وأهلوها من الغنى والثراء، وما تمتلئ به أسواقهم من صنوف الأطعمة والفواكه وبأسعار رخيصـة. ومن ثم، نتوقع لعملة بلاد الأندلس الثبات والقوة الاقتصـادية الحقيقـية فى ظـل ذلك الرخاء الحقيقى على مستوى العامة والخاصة[٩]، وفى ظل إشـراف الخلفاء على دور الضرب، وحرصهم على نقاء العملة وخلوص وزنها[١٠]، ومعاقبة أى تلاعب فى هذا الشأن[١١]. وامتد النفوذ الاقتصادى وراء السيطرة السياسية والعسكرية للأندلس

---

(١) أزهار الرياض ٢/٢٧١. ونقل ابن حوقل فى (صورة الأرض) ص١٠٧ : أنه سمع غير واحد من ثقات محصلى الخراج بالأندلس و عهد الناصر أن قيمة ما جمعه إلى سنة ٣٤٠هـ، كانت ٢٠ مليون دينار إلا قليلاً، بخلاف ما فى خزائنه من حلى ومتاع ونحوه.

(٢) البيان المغرب ٢/٢٣١-٢٣٢، وأزهار الرياض ٢/٢٧١. وفى (تاريخ الأندلس) لابن الكردبوس ص٥٩: جعل بدل ثلث البناء (توزيع العطاء على الشعراء، والوافدين). وأرى أن رواية ابن عذارى أرجح. فالخليفة يرسل الجيوش لإجبار الخارجين على الوفاء بالخراج (المقتبس ٥/٤٨٦).

(٣) فالخليفة يرسل الجيوش لإجبار الخارجين على الوفاء بالخراج (المقتبس ٥/٤٨٦).

(٤) وهى ضريبة الحشد التى تُفرض على أصحاب الضياع فى الريف، وتُعْطَى لجيش الخليفة و غزواتـه (الحلة السيراء ٢/١٠ بالهامش).

(٥) البيان ٢/٢٣٩ (أحداث ٣٥٦هـ).

(٦) مثل : إسقاط سدس المغارم عن الرعية ؛ فرحاً بشفاء المستنصر، (المقتبس، ط.الحجى، أحداث ٣٦٤هـ) ص ٢٠٧-٢٠٨، والبيان ٢/٢٤٩.

(٧) مثل: إسقاط ضريبة الزيتون المأخوذة على الزيت المستخرج منه بقرطبة، وكانت مستكرهة للناس. وقد سُرَّ الناس بإسقاط هشام المؤيد لها فى صفر ٣٦٦هـ. ثم أُشيع أن الذى أشار على الخليفة بذلك ابن أبى عامر. فأحبه الناس. (المصدر السابق ٢/٢٥٩).

(٨) صورة الأرض ١٠٩، وبعدها.

(٩) عن الخاصة وثرائهم الفاحش معروف، ومثاله : الهدية التى قدمها ابن شُهيد للناصر (أزهار الرياض ٢/٢٦٢-٢٦٣).

(١٠) البيان ٢/١٩٨ (٣١٦هـ)، والنقود الإسلامية (الكتاب الثانى)، للدكتور طاهر راغب ص١٢٧.

(١١) عزل الناصر صاحب السكة، عندما غش فى وزن الدينار سنة ٣٣٠هـ (المقتبس ٥/٤٨٦-٤٨٧).

فى بلاد المغرب، فضُربت السِّكَّة باسم الخليفة المستنصر هناك[١].

خلاصة مقارنة:

١ - شهدت كل من: مصر، والأندلس نهضة اقتصادية واضحة فى المجال الزراعى والصناعى والتجارى. وقد انعكس ذلك على ازدياد قيمة إيرادات الدولة، لكن الفارق بينهما أن هذه النهضة كانت حقيقية منعكسة على حياة الشعب الأندلسى، بينما لم نشهد لها انعكاساً واضحاً على حياة الناس فى عصر بنى عُبيد فى مصر. فالأسعار رخيصة فى أسواق الأندلس، ومظاهر الغنى والازدهار بارزة للعيان فى الأسواق، وفى حياة الناس. أما ما يحدث من أزمات اقتصادية ومجاعات، فهو يعود فى الأندلس إلى القحط، ويحاولون علاجه بتوزيع الغذاء والصدقات على الناس، مما يدخره الخليفة للنكبات والنوائب. أما فى مصر، فالغلاء وارتفاع الأسعار متكرر لا لانخفاض مياه النيل فحسب، وإنما لسوء تدبير الحكام[٢]، ووجود انحرافات فى القائمين على شئون الغذاء. صحيح أن العقاب ينزل على المنحرفين[٣] والمختلسين[٤]، لكن تكراره يعنى وجود خلل إدارى اقتصادى. ثم إن موائد الأطعمة التى تَحْفل بها الأعياد والاحتفالات الكثيرة، التى يقيمها العبيديون وإقبال الناس عليها بنَهَم شديد، لهو دليل على تفشى الفقر والحاجة بين صفوف عامة الشعب.

٢ - مقدار ما خلّف كل فريق من آثار تشهد له بالتقدم والازدهار الاقتصادى، يتضح بصورة كبيرة فى مجال العمران وتتفوق فيه الأندلس على مصر. وللأسف فحكام الأندلس مدانون لهذا السرف الشديد، الذى كان ينبغى أن يُنفَق فى أمور تعود بالنفع والفائدة على جموع الناس. وكذلك ما أنفقه حكام الأندلس من أموال باهظة فى سبيل السيطرة على بلاد المغرب، واصطناع الرجال والمؤيدين هناك كان من قبيل الإنفاق المبالغ فيه، والموضوع فى غير محله. وقد أدرك المستنصر ذلك، وندم عليه[٥].

٣ - يمكن الحكم -بصفة عامة -من الناحية الاقتصادية -على عصر الخلافة فى الأندلس بأنه كان عصر ازدهار ورخاء (فيما عدا بعض سنوات القحط والمجاعات)، وأن عهد المستنصر ثم

---

(١) السابق (ط.الخجى) ص١٨٢ (٣٦٣هـ).

(٢) إغاثة الأمة، للمقريزى ص٨٤، ٨٧.

(٣) ارتفعت الأسعار، فمنع العزيز بيع القمح لغير الطحّانين (اتعاظ الحنفا -ط.المجلس الأعلى) ج١ ص٢٩٠-٢٩١. وفى سنة ٣٩٨هـ عاقب الحاكم الخبازين؛ لعدم وجود الخبز مساء (السابق ٢/٧١).

(٤) كمعاقبة الحاكم صاحب ديوان النفقات فى دولته بضرب عنقه (سنة ٣٩٤هـ)؛ لسرقته ٢٠٠ ألف دينار ذهب (اتعاظ الحنفا ٢/٤٨).

(٥) وذلك أواخر أيامه (البيان المغرب ٢/٢٥٢).

المنصـــور فالمظفــر[١] كانت عهود رخاء واستقرار، أعقبها ضياع وانهيار. أما مصر، فإن عهد الإخشـــيد كـــان علـــى درجة كبيرة من الازدهار، وبعده حلَّتْ بالبلاد النكبات. وفى عصر العبـــيديين يعـــد عهد العزيز[٢] فى ذلك القرن أفضل العصور، فقد استقرت فيه أمور الاقتصاد، وظهـــرت فيه علامات الازدهار والرخاء، ثم اهتزت الأوضاع فى عهد الحاكم؛ لطبيعة حكمه، وتناقض تصرفاته وقراراته !

---

(١) يعد عصره عصر رخاء وخصب ؛ لأنه جنى ثمرات كفاح سابقيه (الناصر، والمستنصر، وأبيه المنصور). (المعجب ص٤٠، ومقدمة : د.محمود مكى لديوان ابن درّاج ص٢٧).

(٢) تذكر المصادر أن أيام العزيز كلها أعراس وأعياد، ويُضرب بها المثل فى ذلك. (النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة) لابن سعيد ص٤٨، واتعاظ الحنفا، للمقريزى (ط.الثانية -ط.المجلس الأعلى) ج١ ص٢٩٧.

ثالثاً – الأوضاع الاجتماعية العامة في مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى

١- مجمل أوضاع مصر الاجتماعية:

عانت مصر فى فترة ما قبل العصر الإخشيدى فى ذلك القرن من الاضطرابات السياسية المفضية إلى المتاعب الاقتصادية. وقد انعكس ذلك على المجتمع المصرى، الذى لا بد أن عامته تكبدت ويلات الفقر، والقلق النفسى وسط أجواء تمور بصراعات الجند الداخلية واعتداءاتهم على أموال الناس وممتلكاتهم، إلى جانب مُقاساتهم تحول بلادهم إلى هدف لهجمات العبيديين، ومرتع يعيث فيه جند الخلافة، الذين تتواتر إمداداتهم لمواجهة الخطر العبيدى بما له من تأثير بالغ فى حياة الناس ومعيشتهم.

وطبيعى فى مثل هذه الأجواء الفاسدة أن تظهر عوامل الانحلال الخلقى واللهو والمجون، الذى تصدى لشئ منه الوالى تكين[1] فى محاولة منه – فيما يبدو – لإعداد شعب مصر لمواجهة خطر العبيديين. وقد أثمرت جهود هذا الوالى المخلص، فنجح فى جمع المصريين على قلب رجل واحد بصورة لا مثيل لها من قبل، وألحق بالعبيديين هزيمة كبيرة سنة ٣٠٢هـ؛ بفضل توحيد كلمة الناس ومشاعرهم وتضحياتهم، وحسن بصيرتهم عند الخطر، رغم ضعف خبرتهم القتالية، واستشهاد عشرة آلاف منهم[2]. وظل الروح الجهادى نامياً ومتصاعداً فى صفوف شعب مصر، وظهر دورهم الإيجابى، عندما وجدوا القيادة الواعية الأمينة ممثلة فى الوالى تكين، فشاركوا فى صد الغزوة العبيدية الثانية، وشاركوا الجند فى قتل الأسرى المغاربة من الجيش العبيدى، وذلك فى شوال سنة ٣٠٧هـ[3] وعندما قام مؤنس بعزل الوالى تكين، غضب شعب مصر وثار، وأرسل نوابه يطالبون مؤنساً بردّ واليهم الكفء إلى منصبه، فاضطر إلى الموافقة صاغراً، ريثما يدبر أموره لإخماد أية ثورة شعبية، ثم قام بعزله بعد أيام قلائل[4]. ويبدو أن الناس لم تستطع

---

(١) يذكر الكندى أنه أمر بجمع المؤنثين (المتشبهين من الرجال بالإناث)، وأمرهم بإظهار المعازف والمزامير والطبول، وشهّرهم فى لباسهم، وطيف بهم الفسطاط، وذلك يوم الثلاثاء السابع من ذى القعدة سنة ٣٠٠هـ. (الولاة صـ٢٦٩).

(٢) المصدر السابق: صـ٢٧٠.

(٣) الولاة: صـ٢٧٦. ويلاحظ أن الوالى أمر بتمييز الأسَارَى، فأطلق أهل القيروان، وطرابلس، وبرقة، وصقلية. وأذن للناس بقتل الأسرى من كُتامَة وزَوِيلَة (البربر المغاربة). ولا شك أنها حكمة من ذلك الوالى، الذى أدرك أن أشد عناصر الجيش العبيدى هم الكتاميون. وهم عموده الفقرى الذى قامت دولتهم على أساسه. أما الآخرون، فقد يكونون مجبرين على القتال فى صفوف العبيديين.

(٤) وذلك سنة ٣٠٩هـ (النجوم ٣/٢٢٥).

المقاومـــة، فظلـــوا يترقبون الأحوال، حتى أُعيدَ تكين إلى منصبه ثانية، فخلّص الناسَ من الجند المشاغبين، فأحس شعب مصر، الذى لا يعرف النكران، بالأثر الطيب لهذا العمل، فتوجه الناس يشكرون الوالى، ويحمدون له حسن صنيعه[١] وهكذا، استخلصنا سمة مهمة لهذا الشعب فى تلك الفتـــرة، وهـــى أنه يتوحد فى ساعات الخطر[٢]، ويتوق إلى القيادة الماهرة الحكيمة، التى تحسن توجـــيهه، وعند ذلك يعطيها إخلاصه وتفانيه بلا حدود، ويطالب ببقائها، ويحرص على إظهار الامتنان لها، ويتأسف لفواتها[٣].

لا نلمـــس تطوراً كبيراً فى الحياة الاجتماعية فى مصر فى العصر الإخشيدى؛ لأن التغيرات الاجتماعية تحتاج إلى زمن طويل، ولا تتم بين يوم وليلة. وعلى كل، فالمادة المتوفرة لدينا عنها أكـــبر حجمـــاً ممـــا علـــيه الحال فى الفترة السابقة؛ نظراً لما حظيت به مصر فى ظل استقلال الإخشيديين شبه التام من اهتمام، وما تمتعت به مصر من استقرار سياسى واقتصادى. وقد كان المجـــتمع المصرى مجتمعاً متآلفاً متناسقاً فى ذلك العصر، ويعد العلويون فيه على رأس عناصره[٤] المكونة لنسيجه، المتمتعة بمنزلة اجتماعية واقتصادية طيبة.

وقـــد كـــان الإخشـــيد على صلة وثيقة بزعيمى الأشراف فى عهده: عبد الله بن طباطبا الحَسَنِىّ، والحسن بن طاهر الحُسَيْنِى، على ما بينهما من تنافس على الرئاسة[٥]. وكان الحسن بن طاهر وسيطاً فى الصلح بين الإخشيد وابن رائق، وكان أبو إبراهيم الرَّسِّىّ العلوى موضع احترام وتقديـــر الإخشـــيد؛ إذ قبل شفاعته فى الكاتب البغدادى المستتر (سهل بن محمد)[٦]. ولم تتغير مكانة العلويين بعد وفاة الإخشيد، فقد لقوا معاملة طيبة، وتَجِلّة واحتراماً فى عهد كافور، الذى تفقّد نساء الأشراف، وخَصَّهن بالإحسان والعطاء والرعاية[٧]. وبالإضافة لما تقدم، فقد كانت لهم نقابة تعرف بـــ (نقابة الطالبيين)[٨].

---

(١) الولاة صـــ٢٨٠ (سنة ٣١١هـــ).

(٢) ومن هنا فلا صحة لما يذكره الذهبى من فزع العوامّ من جيوش العبيديين، وإظهارهم القلق الشديد وكثرة البكاء، والتأهب للهروب، لما ملكت جيوش القائم الجزيرة من الفسطاط، وذلك سنة ٣٠٨هـــ. (تاريخ الإسلام ٣١/٢٣).

(٣) كان ذلك – أيضاً – موقف الناس لما استعفى القاضى العادل الحازم ابن حَرْبُوَيْه من منصب القضاء، فأُعفى سنة ٣١١ هـــ. (السابق ٣٥٠/٢٣).

(٤) تناولت د.سيدة كاشف عناصر المجتمع المصرى وطبقاته فى: (مصر فى عصر الإخشيديين) صـــ٢٣٣-٢٤٤.

(٥) المغرب (قسم مصر): صـــ١٦٦.

(٦) السابق: صـــ١٨٨.

(٧) المغرب (قسم مصر): صـــ ٢٠٠-٢٠١.

(٨) وهى التى عرفت – بعد ذلك – بـــ (نقابة الأشراف)، ويتولاها شيخ هذه الطائفة وأجلها قدراً، وله النظر فى أمورهم، ومنع من يدخل فيهم من الأدعياء، وإذا ارتاب بأحد طالبه بإثبات نسبه. ويقوم بعيادة مرضاهم، والسير فى جنائزهم، والسعى فى حوائجهم، والأخذ على يد المعتدى منهم، ولا يقطع أمراً يتعلق بهم إلا بموافقة مشايخهم. (صبح الأعشى ٤٨٢/٣). وكان أبو القاسم أحمد بن محمد بن طباطبا العلوى نقيب الطالبيين (ت٣٤٥هـــ). (وفيات الأعيان ١٢٩/١-١٣١، وتاريخ الإسلام ٣١٢/٢٥).

ووجـــد فى المجتمع المصرى – آنذاك – طائفة من كبار الموظفين والملاك والتجار، وهؤلاء هـــم الأثـــرياء مـــن القوم، وكانت بأيديهم إدارة شئون البلاد، وعلى رأسهم أسرة المادَرائيين المشهورة[١].

وأخـــيراً، هناك عامة الناس وأهل الذمة، والأولون منهم من المسلمين هم غالبية السكان، وهم المقياس الحقيقى لحال المجتمع وسماته فى تلك الفترة. وأعتقد أنهم كانوا أحسن حالاً فى ظل دولة شبه مستقلة، يسعى مؤسسها ومن بعده غلامه كافور لتثبيت أركانها ودعائمها، ولا يكون ذلك إلا بالاهتمام بهذا العنصر السكانى المهم، الذى على أكتاف أفراده تنهض تلك الدولة. وقد تعرض عوام الناس لبلاء كبير وفناء عظيم فى المجاعة الحادثة فى عهد كافور؛ بدليل أن الأغنياء لم يجدوا من يقبل الزكاة (ربما لأن الفقراء يريدون الطعام لا المال)، فأتوا إلى كافور، فقال: ابنوا بها المساجد، واتخذوا لها الأوقاف[٢]. أما أهل الذمة، فلم نسمع عن وقوع اضطهادات لهم من قبل الدولة، وكان الإخشيد يتدخل باستخدام القوة، عندما تلجأ إليه بعض الطوائف النصرانية ضد الأخـــرى، ويقـــوم بإنهاء الخلاف بينهم[٣]. وقد وردت بعض النصوص تفيد وقوع مصادمات واعـــتداءات مـــن عامة المصريين على بعض كنائس النصارى فى مصر كرد فعل غاضب غير مسئول؛ نتيجة اعتداءات البيزنطيين على المسلمين فى أطراف الشام[٤]، وعندما يحتج العوامّ على السماح لنصارى مصر بتعمير الكنائس[٥].

يمكننا أن نشير – فى عجالة – إلى أبرز مظاهر الحياة الاجتماعية، وأهم خصائص المجتمع فى العصر الإخشيدى **على النحو الآتي**:

١- فى ظـــل حالة الاستقرار السياسى، والنمو الاقتصادى أحب الناس الإخشيد، وسُرُّوا بـــرجوعه سالماً من حربه فى الشام أمام ابن رائق، وزينوا له الطرق والأسواق، فأقرَّ الزينة على حالها (يوم رجوعه الخميس سنة ٣٢٨هـــ)، ثم ركب من الغد إلى الجامع العتيق لصلاة الجمعة، فكان يوماً عظيماً مشهوداً[٦].

٢- كثـــرة المواكب والاحتفالات[٧]: مثل موكبه الأسبوعى إلى مسجد ابن طولون لأداء

---

(١) سنتعرض لهذه الأسرة بالتفصيل عند دراسة بقايا كتاب المؤرخ ابن زولاق عنها، إن شاء الله.

(٢) صبح الأعشى ٣٤٢/٣.

(٣) عرض تفاصيل هذا الخـــلاف يحيى بن سعيد الأنطاكى فى ذيله على (تاريخ ابن البطريق – أحداث ٣٢٨هـــ) صـــ٢٣-٢٧، ومصر فى عصر الإخشيديين صـــ٢٤١-٢٤٢.

(٤) تفاصيله فى (تاريخ ابن البطريق – أحداث ٣٤٩هـــ): صـــ٩٢-٩٣.

(٥) المغرب(قسم مصر) ١٨٣-١٨٤.

(٦) المغرب(قسم مصر) صـــ١٧٥.

(٧) مثل: عيدَى النَّوْرُوز، والمَهْرَجان الفارسيين، اللذيْن كانت تُمنح للإخشيد فيهما الهدايا(خاصة العنبر). =

صـــلاة الجمعة[١]، وحضوره ختم القرآن فى شهر رمضان[٢]، واستعراضه الجند ليلة عيد الفطر مقتدياً فى ذلك بابن طولون[٣].

٣- شيوع الترف فى حياة القوم فى حفلات السمر[٤]، ومآدب الطعام والشراب[٥].

٤- ظهور بعض ألوان الانحراف فى المجتمع؛ مما دفع الإخشيد لمحاربة ذلك، ومحاولة القضاء عليه[٦].

٥- وأخيراً، نما وعى الشعب المصرى فى تلك الفترة، فازدادت إيجابيته ومتابعته للأحداث، وانفعاله بها وتفاعله معها.ولعل اتباع الإخشيد سياسة اللين والمداراة، مع ما تحقق من ازدهار مع حـب الناس للتطلع[٧]، شجع الناس على ألا تكون على هامش الأحداث، بل كانت فى قلبها، وتتدخل فى مجرياتها[٨]، ويُعمل لها حساب فى هذا الصدد[٩].

- (السابق ١٨٦). وكذلك الاحتفال بليلة عيد الغطاس النصرانى(ليلة ١١ طوبة – ٦ كانون الثانى(يناير).وقد شهد المسعودى بنفسه مظاهر الاحتفال بذلك العيد، عندما كان بمصر سنة ٣٣٠هــ. وشارك فيه الإخشيد بنفسه، ومعه مئات الآلاف من المسلمين والنصارى فى الزوارق النيلية، وعلى الشواطئ؛ حيث يشعلون المصابيح طوال الليل، ويسرفون فى الأكل والشرب، والملبس والملاهى، ويغطس أكثرهم بالنيل؛ زاعمين أنه أمان من المرض، وشفاء من الداء.(مروج الذهب مجلد ١ صــ٢٩٨-٢٩٩، والخطط ١/٢٦٥).

(١) المغرب(قسم مصر) صــ١٥٩، ١٨٥.

(٢) السابق ١٦٠، ١٨٥.

(٣) المغرب (قسم مصر) ١٦٣.

(٤) بعض ملامح مجالس السمر فى (المصدر السابق صــ١٦٣، ١٨٤).

(٥) السابق: ١٥٤، ١٨١، والخطط ١/٣٣٢.

(٦) فقد أمر بهدم المواخير (جمع ماخور)، وهى بيوت تجمع الفَسَقة والفاسدين، وأهل الريبة، وهدم دور المقامرين وعاقب أهلها. (المغرب – قسم مصر – صــ١٨٠، ١٨١، و (المسعودى) للخربوطلى صــ١٦). ولا يصح ما ورد فى (اتعاظ الحنفا – ط.دار الفكر ١٤٣، والخطط ١/٣٥٣) من أن ابنة الإخشيد ذهبت إلى سوق الرقيق؛ لتشترى جارية، تستمتع بها. ذلك فى – غالب الظن – من قبل الدعاية الكاذبة، التى روج لها المعز؛ ليبين استشراء الفساد فى مصر، فيُهَوِّن على جيشه وجنده أمر غزوها، والاستيلاء عليها.

(٧) يتصف شعب مصر – حتى الآن – بحب التطلع، والوقوف لمشاهدة ما يصادفه من أشياء، والتكالب والتزاحم عليها فى الشوارع والطرقات، ولو عرّضه ذلك للأخطار. (راجع ذيل تاريخ ابن البطريق – أحداث ٣٤٩هــ، صــ٩٣، بخصوص تجمع الناس زمن كافور عند إنزال مركب جديد فى الأسطول إلى البحر، وتزاحمهم، حتى قتل منهم غرقاً زهاء ٥٠٠ رجل).

(٨) تابع الناس أخبار حرب الإخشيد وابن رائق بالشام (شعبان ٣٢٨هــ)، وكان لهم رد فعل عنيف لما سمعوا بالهزيمة أولاً، ووقعت اضطرابات واحتجاجات حتى ركب أبو المظفر ابن طغج، ومحمد بن على المادَرائى؛ لتسكين غضب الناس. ثم وردت الأخبار بتحول الهزيمة إلى نصر، ودخول الأسرى، ورءوس القتلى، فزُيِّنت الأسواق. (المغرب – قسم مصر – صــ١٧٨).

(٩) راجع تفاصيل موقف الرعية الثائر الغاضب، مما بلغهم عن أحد الفقهاء بشأن السماح بترميم ما تهدم من كنيسة أبى شنودة سنة ٣٢٦هــ، وما قاموا به من محاولـــــة الفتك بهذا الفقيه، ومحاصرتهم الطـــرق، وإغلاقهم –

فى عصر بنى عبيد فى مصر لم يطرأ كبير تغيير على تركيبة الشعب المصرى[١]، اللهم إلا ما استجد من عنصر المغاربة (من قبيلة كتامة)، الذين كانوا يمثلون العنصر الأساسى فى جيوش العبيديين، وساعدوهم على إقامة دولتهم بالمغرب أولاً، وكانوا يتمتعون هم وكبراؤهم (كالحسن بن عَمَّار أمين الدولة مثلاً) بمكانة ممتازة[٢]، أُهدرت بعد ذلك على يد الحاكم، الذى أراق دماء سائر الناس على مختلف طبقاتهم حتى شيوخ كتامة وأصاغرهم[٣].

وبالنسبة لعامة أهل مصر، فقد تعددت صداماتهم مع الحكام الجدد[٤]، ومع الجند المغاربة[٥]. ورغم ما قيل عن كثرة الأعياد والمواسم[٦]، التى يُتاح فيها الأكل والشرب ببذخ شديد، إلا أن هناك من لا يجد ما يسد رمقه، ومن لا يتوفر له القوت الضرورى للحياة[٧].

- الدروب، وقذفهم الجند الإخشيدى بالحجارة. ولم تهدأ ثائرتهم حتى علموا بإبقاء الكنيسة على ما هى عليه (المصدر السابق صـ١٨٣-١٨٤). وهذا الموقف وغيره مما كان الإخشيد يعمل له ألف حساب، ينفى صحة ما تذكره د. سيدة كاشف فى (مصر فى عصر الإخشيديين) صـ٣٧٦-٣٧٧، من أن الشعب المصرى فى العصر الإخشيدى كان هادئاً خاضعاً، يغلب على أفراده طابع الانصراف إلى شئونهم الخاصة، والعيش على هامش الحياة السياسية، وأنه لم يكن هناك رأى عام، تحسب الحكومة حسابه.

(١) تفاصيل طبقات المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى تراجع فى: (تاريخ الدولة الفاطمية) د.حسن إبراهيم حسن صـ٦٢١-٦٢٤.

(٢) المجالس والمسايرات صـ٢١٩-٢٢٠، ٢٢٢ وما بعدها، والخطط ٢/١١-١٢.

(٣) ذيل تاريخ ابن البطريق: صـ ٢٥٧.

(٤) راجع نماذج ذلك فى: (اتعاظ الحنفا، ط.دار الفكر) صـ١٨٠-١٨١.

(٥) المصدر السابق: صـ١٨٣، وط.المجلس الأعلى ١/٢٢٣).

(٦) هناك أعياد إسلامية معروفة، عملوا لها طقوساً جديدة مرتبطة بالطعام والشراب (فى عيدى: الفطر، والنحر). (السابق، ط.المجلس) ١/٢٢٣، ٢٦٧، والخطط ١/٣٨٧، ٤٣٦، والنجوم ٤/٩٨-١٠٢). واحتفلوا بشهور عربية لم يحتفل بها السلف، مثل: غرة رمضان (الخطط ١/٤٩١)، وليالى الجُمَع فى رجب (اتعاظ الحنفا- ط.المجلس - ١/٢٦٧). وهناك أعياد اخترعها العبيديون فى مصر: مثل، عيد الغَدير (الكامل ٧/٢٨٠، والخطط ١/٣٨٩)، وليالى الوقود (المصدر السابق ١/٤٦٥-٤٦٦، ٤٩١) والتعريف بمصطلحات صبح الأعشى ٢٩٣)، ويوم عاشوراء (اتعاظ الحنفا ٢/٦٧، والنجوم ٤/٢١٩)، ويوم ميلاد وَلَدَى الحاكم (اتعاظ الحنفا ٢/٥٥، ٥٨). وتوجد أعياد فارسية الأصل، انتقلت إلى النصارى، مثل: عيد النوروز (تاريخ اليعقوبى ١/٢٣٤، و (صبح الأعشى): ٢/٤١٨-٤٢٠، واتعاظ الحنفا ٢/١٨، ٥٩، وتاريخ الدولة الفاطمية صـ٦٥٩-٦٦١). وعيد المهرجان (المروج: مجلد١ صـ٤٩٩-٥٠٠، وصبح الأعشى ٢/٤٢٠-٤٢٢، واتعاظ الحنفا ١/٢٧٢). كما شارك العبيديون النصارى فى أعيادهم الدينية الخاصة بهم، مثل: (ميلاد المسيح: الخطط ١/٤٩٤)، وخميس العهد (السابق ١/٢٦٦)، وعيد الصليب (صبح الأعشى ٢/٤٢٨، والخطط ١/٢٦٦-٢٦٧، واتعاظ الحنفا، ط.المجلس ١/٢٧٦)، وعيد الشهيد (الخطط ١/٦٨-٦٩). راجع دراسة الأعياد فى العصر العبيدى تفصيلاً للدكتور عبد المنعم سلطان فى: (المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى) صـ١٢٩ وبعدها.

(٧) راجع نماذج الفقر المدقع فى طبقة العامة من الناس فى الذيل على كتاب الكندى ص ٦٠٧، والمغرب (قسم الأندلس) ١/١٦٦-١٦٧.

وبخصوص العلويين فى ظل الحكم العبيدى، فقد ارتقت مترلتهم، وحَظُوا بالاحترام والتقدير، بل قُدِّموا فى المترلة خلال المواكب والمجالس التى يحضرها عظماء رجال الدولة، على مكانة الأمراء(١). وخُصِّصَتْ لهم نقابتان: (الأشراف، والطالبيون)(٢)؛ لرعاية مصالحهم.

أما المرأة فى العصر العبيدى، فكانت حرة طليقة دون قيود تَحُدّ من حركتها ونشاطها الطبيعى فى المجتمع المصرى، إلا أن إساءة استخدام هذه الحرية خاصة عهد الحاكم، وشيوع الفجور والاختلاط بالرجال، بعد أن حوَّل الحاكم الليل إلى نهار مضئ، دفع الحاكم إلى اتخاذ إجراءات عنيفة ضد المرأة(٣)، قيَّدت حركتها إلى حد بعيد. أما نساء القصور(٤)، فقد احتفظ لنا التاريخ ببعض أخبارهن، فهناك تغريد زوج المعز(٥)، التى كانت تهتم بأعمال الخير والبر، ومن بعدها ست الملك التى كان لها دور فى إدارة البلاد عند الوصاية على أخيها الحاكم، بالإضافة إلى ما قامت به عمة الحاكم من أعمال نافعة للناس آنذاك(٦).

وإذا أردنا رصد السمات العامة لمجتمع مصر فى ظل حكم العبيديين، خرجنا بما يلى:

١- لم تكن عناصر المجتمع متناسقة فى ذلك العصر، فهناك أغلبية الشعب (سنية المذهب)، تنظر بعين الترقب والتوجس إلى الحكام الجدد. وهناك أقلية شيعية حاكمة، لها أهداف تريد تحقيقها، ولو على حساب هذه الأغلبية، وتساندها أقلية من أهل الذمة، تولت مناصب إدارية ومالية مهمة، ألحقت بالأهالى ظلماً اجتماعياً فادحاً. وقد اضطر الحكام العبيديون إلى عزلهم إلى حين هدوء ثائرة جموع الشعب، وامتصاص غضبهم. وفى عهد الحاكم اضطهد أهل الذمة، وهدم كنائسهم، ضمن ما اتخذ من إجراءات قاسية عَمَّت المجتمع كله مسلمين ونصارى.

٢- عرف العبيديون طبيعة المصريين الهادئة الطيبة، التى لا تثور إلا إذا استثيرت. ومن هنا

---

(١) اتعاظ الحنفا (ط.الفكر)صـ٢٠٠، والخطط١/٣٥٨، والمجتمع فى العصر الفاطمى صـ٣٦.

(٢) راجع فى التعريف بهما: (صبح الأعشى ٣/٤٨١، ٤٩٦، والخطط ١/٣٨٦)، وفى التعريف ببعض من ولى نقابة الأشراف (المقفى ١/٣٧-٣٨، ٣/٤٦٥-٤٦٦). وقد فرق بينهما د.عبد المنعم سلطان، فجعل الأشراف أقارب العبيديين، والطالبيين نسبة إلى أبى طالب (المجتمع المصرى فى العصر الفاطمى) صـ ٣٦-٣٧.

(٣) راجع (اتعاظ الحنفا ٢/٣٨، ٥٣، ٧٦، والخطط ٢/١٠٨)، والمرأة فى مصر فى العصر الفاطمى ٨٤-٩١، والحاكم بأمر الله، لعنان ١٧٢).

(٤) نقصد الحرائر منهن. أما الجوارى، فلا يتضح لهن تأثير فى المجتمع، وإن كان لبعضهن سيطرة على قلوب حكام بنى عبيد (مخطوط مسالك الأبصار، عن مصورة أحمد الثالث – ٢٦ معارف عامة) صـ١٣٨-١٣٩.

(٥) هى أم العزيز التى بنت جامع القرافة ٣٦٦هـ (الخطط ١/٤٨٦، ٢/٣١٨، والمرأة فى مصر فى العصر الفاطمى صـ ٦٠-٦١). وأقامت مدرسة منازل العز التى صارت متنزهاً (الخطط ٢/٣٦٤).

(٦) هى ست الملك بنت المعز (وهى غير أخت الحاكم)، التى بنت أحواضاً وآباراً للسقيا بالقرافة (الخطط ٢/٤٦٠).

كـــان حرص بنى عبيد على نشر مبادئهم بهدوء وبالتدريج. فأدرك هؤلاء حب المصريين للجديد، وتطلعهم إليه بشغف، وميل عامتهم إلى الاحتفالات والموالد، فأكثروا من الاحتفالات، وحافظوا على القديم منها، وابتدعوا لهم الجديد، وزينوا لهم الإغراق فى ذلك حتى آذاهم، رابطين ذلك كله بالبذخ فى تقديم الأطعمة والأشربة ومظاهر اللهو المختلفة، مستغلين حالة البؤس والفقر التى يعانيها الناس، لعلهم بذلك يتقربون إلى قلوبهم، ويحظون بتأييدهم(١).

٣- نتـــيجة مـــا يحدث فى الأعياد والاحتفالات من انحرافات أخلاقية، وأعمال فاحشة، تخالـــف تعالـــيم الإسلام وتوجيهاته، ضعف الوازع الدينى فى نفوس الناس، وتضعضع السياج الأخلاقـــى الحامـــى لهم والضابط لسلوكهم. ولذلك شاع شرب الخمور، وارتكاب الفواحش والمنكـــرات، وانتشرت السرقات، وعاث المفسدون فى الأرض(٢) ففقد المجتمع فى أحيان كثيرة أمنه واستقراره، رغم محاولات بعض العبيديين درء المفاسد، والضرب بقوة على أيدى المفسدين، ومنع ما يحدث من تجاوزات فى الأعياد والاحتفالات(٣).

٤- ضـــعفت حاســـة الإيجابية عند الشعب المصرى،والتى رأينا بعض مظاهرها فى العصر الإخشـــيدى، وحلـــت محلها مشاعر عاطفية مخدوعة(٤)، وتصرفات مندفعة(٥)، وخوف وفزع ملأ القلوب(٦)؛ نتيجة الحكم الجائر الباطش الداعى إلى السلبية والانكفاء على الذات(٧)، الذى قاسى منه

(١) المعز لدين الله، د.حسن إبراهيم،وغيره صـــ٢٨٧،وماجستير أحمد كامل صـــ٢٧-٢٨، ودكتوراه زغروت صـــ ٢٧-٢٨،وماجستير (التخطيط الإعلامى)١٢٧. ولا يصح قول من عَدّتْ الاحتفالات والأعياد اهتماماً من بنى عبيد برفاهية الشعب المصرى (المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى صـــ ٣٣).

(٢) أجمل المقريزى ما شاع فى هذه الاحتفالات من منكرات وفواحش وانحرافات فى عبارات بليغة حامعة فى: (الخطط) ٤٩٣/١-٤٩٤.

(٣) بذلت فى ذلك محاولات أيام المعز والعزيز، والحاكم فى أعياد الصليب، والنيروز، والنحر، سنوات: ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٨١، ٣٩٩هـــ. (اتعاظ الحنفا – ط. المجلس – ٢١٤/١، ٢٧١-٢٧٢، ٧٩/٢، والخطط ٢٦٧/١-٢٦٨).

(٤) من مظاهر ذلك: توسلات العامة، ووجوه الرعية، والتجار إلى العزيز، وحمل الناس السلاح، وطلبهم إليه ألا يخرج بنفسه لغزو الروم بالشام، وأرادوا الخروج هم للقتال، وهو يشكرهم، ويتظاهر بالجهاد قائلاً: " إنما أسير لنصرة الإسلام، والذب عن بلدانه، وصيانة أهله ". وما إن قدم رسول ملك الروم يخبره بالهدنة، حتى أُجيب إلى الصلح. (اتعاظ الحنفا – ط. المجلس جـــ١ صـــ٢٨٧-٢٨٨). وكذلك موقف الناس وابتهالهم فى الشوارع، وعلى أبواب الدُّور ليلاً بالنصر على أبى رَكْوَة (السابق ٦٣/٢).

(٥) مثل: هجوم الرعية على الروم المتهمين بإحراق أسطول العزيز ٣٨٦هـــ، إذ قتلوا منهم مائة وسبعة أشخاص، وألقوا جثثهم فى الطرقات،قبل أن تثبت التهمة ويعترفوا، (الخطط ١٩٥/٢-١٩٦).

(٦) راجع تضرع العامة والخاصة إلى الحاكم، لما علموا نيته فى البطش بالناس، يسألونه الشفاعة والعفو سنة ٣٩٥هـــ (اتعاظ الحنفا ٥٤/٢-٥٥).

(٧) كالسجل الذى أصدره الحاكم بترك الناس الخوض فيما لا يعنى، وأن يشتغل كل بمعيشته عن الخوض فى أعمال الحاكم وأوامره. ومرسوم آخر بعدم الخوض فى أحوال السلطان، وأوامره، وأسرار الملك (السابق ٦٩/٢، ٧٧، سنة ٣٩٩ هـــ). ففزع الناس، فصدر سجل بطمأنتهم؛ لخوفهم من أوامر الحضرة (السابق ٧٧/٢).

الأهلون الويلات، فاستبدلوا بالقوة والعزة ضعفاً وخضوعاً وذلة. وبعد أن حنى هذا العصر على النفوس، أضعف العقول، وملأ بالخُزَعْبِلات والأباطيل والعقائد الفاسدة[١].

٢- مجمل أوضاع الأندلس الاجتماعية:

استطاع الخليفة الأموى الناصر توحيد الجبهة الداخلية بالأندلس على تعدد، وتنوع عناصرها[٢] بحيث استفاد من الروابط التى تشد طبقات هذا المجتمع بعضها إلى بعض فى أغلب الأحيان، وتطبعهم بالطابع الأندلسى المميز كالبيئة المشتركة، والثقافة المشتركة، والخلافة الواحدة، والسياسة الموحدة، والهدف الواحد الذى يجتمع عليه الكل، وهو بناء حضارة أندلسية رائعة، يسهم الجميع فى إقامة صروحها، بغَضّ النظر عن أصله وجنسه[٣].

يأتى على رأس عناصر المجتمع الأندلسى فى عصر الخلافة العنصر العربى، الذى ينتسب إليه الفاتحون، ودخل أفراده الأندلس ضمن الجيوش الإسلامية الفاتحة، واضطروا إلى التزاوج من الإسبانيات، فتكونت من هؤلاء وأولئك - عن طريق المصاهرة - سلالات جديدة، صارت أبرز عناصر المجتمع الأندلسى، وأهم مكوناته البشرية[٤]. وكانت للعرب مكانتهم فى دولة بنى أمية بالأندلس، وعانت شبه الجزيرة من صراعات القيسية واليمنية. ولما ولى الناصر استبدل بالعنصر العربى عنصراً جديداً هو (الصقالبة)[٥] ، الذى استكثر منه، فكان منهم الغلمان والخدم وفتيان القصور، بل اعتمد عليهم فى بناء جيشه، فغدوا أهم عناصر الجيش. وبلغ إهمال العنصر العربى؛ نظراً لاستحكام العصبية القبلية فى أفراده، بلغ أَوْجَه فى غزوة الخندق (٣٢٧هـ)، التى

---

(١) وهى المتصلة بتقديس الأئمة، وقبور الأولياء الصالحين، والقيام بالسجود لها، مع ما فيه من شرك، يعود إلى مبادئهم الفاسدة، ودعاتهم المبطلين (سير أعلام النبلاء ١٠٦/١٠، والبداية والنهاية ٢٧٢/١٠-٢٧٣). وكذلك أسطورة اختفاء المعز، والزعم بأن الله رفعه إليه (سنة ٣٦٢هـ)، وأنه غاب فى السماء. وأدى ذلك إلى امتلاء قلوب الرعية منه رعباً. (تاريخ ابن أبى الهيجاء صـ٥٢).

(٢) تراجع: العناصر البشرية فى المجتمع الأندلسى فى: (الأدب الأندلسى، د.هيكل ٣٠-٣٢، ودولة الإسلام فى الأندلس، لعنان (ع١ ق٢ صـ٥١٤-٥١٦)، وظهر الإسلام، لأحمد أمين جـ٣ صـ٢.

(٣) الأدب الأندلسى، د.هيكل ٣١.

(٤) المرجع السابق: صـ٣١-٣٢.

(٥) جمع صقلبى، وهم الروس غالباً، وكانت بعض الشعوب الأوربية تبيعهم عبيداً للأندلسيين، وكانوا يُخصَوْن، ويعملون فى خدمة القصور، حيث بلغ عددهم فى مدينة الزهراء لحين وفاة الناصر (٣٧٥٠ شخصاً). (راجع: صورة الأرض ١٠٦، وأعمال الأعلام ٤٠، والنفح ٥٦٧/١، وفى تاريخ المغرب والأندلس د.العبادى صـ٢١١-٢١٣، والعلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى، الدوميللى (مترجم) صـ٣٤١، ٣٤٤، و (الحضارة) للدكتور مؤنس صـ٣٢ (هامش١)، وبحث (اللغة العربية وسكان الأندلس فى القرون الوسطى)، بريس الفرنسى، المنشور فى: مجلة المجتمع العلمى العربى بدمشق، مجلد ١٩ (١٩٤٤م) صـ٣٩٩-٤٠٠، وتاريخ النصارى فى الأندلس، د.عبادة كحيلة ٣٥-٣٧.

أسند الناصر قيادة الجيش فيها إلى الصقالبة؛ مما أثار الجند العربي المشارك فيها، وتآمروا ضد الناصر، فكانت الهزيمة التي كاد الناصر يفقد حياته من جرَّائها. وقد نجح المنصور في القضاء على نفوذ الصقالبة، الذي كان قد تنامى وتزايد في عهد الحكم المستنصر، واستحدث عنصراً جديداً، اعتمد عليه بدرجة كبيرة في تكوين جيوشه، هو عنصر (البربر)، الذي بدأ الاهتمام به في عهد المستنصر. وقد ترتب على الاستكثار من هذا العنصر تراجع مكانة العرب والصقالبة، وافتقاد الأندلسيين حاسة الجندية، فتضاءلت الروح الجهادية عندهم، وخمدت جذوة الحماس للغزو، فاستكانوا واستناموا إلى ذلك العنصر الحربي المحترف، الذي حقق به المنصور انتصاراته المدوية على نصارى الشمال، ثم انقلب إلى خطر ماحق، وشر مستطير في الفتنة، واصطدم مع أهل قرطبة الكارهين له، فكانت الكارثة[1].

ومن عناصر المجتمع الأندلسي أهل الذمة من اليهود والنصارى، وقد لقوا من المسلمين كل عدل وإنصاف، وترك لهم الأمويون حرية إدارة شئونهم الدينية والإدارية[2]، بل استعان الناصر بالنابهين من اليهود في بعض المهام الدبلوماسية[3]. وهناك (المولَّدون)[4]، وهم المسلمون من أصل إسباني، وبعبارة أخرى: هم (مسلمو الإسبان). وكانوا يحتلون مكانة بين الطبقات المتوسطة والميسورة، وبينهم الكثيرون ممن أحرزوا الجاه والنفوذ والثروة. وعلى كل، فقد كان هؤلاء يعدون أقل مكانة من المسلمين الأصليين[5].

وأخيراً، فإن للمرأة في المجتمع الأندلسي تأثيراً لا يستهان به، بعد أن أكثر المسلمون من الاقتران بالإسبانيات؛ مما أدى إلى تحول المجتمع – بعد عدة أجيال – إلى عناصر لاتينية، وبالتحديد إسبانية من جهة الأم[6]. ولا شك أن كثيرات منهن لم يكُنَّ مخلصات لأزواجهن، وربما عملتْ بعضهن جاسوسات لصالح نصارى الشمال. وقد وصل الأمر أن بلغ بعضهن

(١) بحث (المنصور بن أبي عامر: المستبد المتنصر) د.محمود مكي، مجلة العربي بالكويت، ع٢٢٤ (يوليه ١٩٧٧م) صـ١٣٩.

(٢) تاريخ النصارى في الأندلس، د.كحيلة صـ٨٤، وبعدها.

(٣) هو حسداي بن إسحاق الإسرائيلي الكاتب (راجع مهامه في المقتبس ٥/٤٥٤، ٤٦٦-٤٦٧، ٤٧٣، سنوات ٣٢٨-٣٣٠هـ).

(٤) وهؤلاء يختلفون عن (المستعربين)، أي: الإسبان الذين عايشوا المسلمين في المجتمع الأندلسي مع بقائهم على دينهم، واتخذوا العربية لغة، واتبعوا بعض تقاليد الإسلام، كالختان، عادة وأسلوباً (كتاب المقتبس، ط.الحجي صـ ٢٠ هامش ١).

(٥) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ع١ ق٢ صـ٥١٤-٥١٥، ود.كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس ٤٣-٤٤، وبحث (جوانب من تاريخ أهل الذمة في الأندلس) د.عمر بنميرة صـ٨-٩ (ندوة السعودية ١٩٩٣م).

(٦) العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي، الدوميللي (مترجم) ٣٣٨-٣٣٩، ٣٤١.

مراكــز حساســة فى قصور الخلفاء، مثل: مرجان زوج الخليفة الناصر[١]، ذات الدلال والتأثير الكــبير فى هذا الخليفة العظيم، وكان ابنها الحكم أثيراً لديه دون سائر إخوته، وصار ولى العهد وخليفة من بعده. ونذكر من هؤلاء النساء (صُبْح) زوج الخليفة المستنصر، والدور الذى لعبته فى حياة زوجها وبعد وفاته، وصلتها الوثيقة بابن أبى عامر حتى وصل إلى قمة السلطة فى الأندلس، وصــار حاجباً لابنها الخليفة الصغير هشام المؤيد[٢]، ثم تدهورت العلاقات بينهما بعد افتضاح نــوايا المنصور فى الاستبداد بالسلطة والحَجْر على الخليفة[٣]. وكان من أسباب قتــل المظفر بن المنصــــور وزيــرَه عيسى بن سعيد عــداوته للحُرَم (نساء القصر)[٤]. وأخيراً، فقد لعبت أم المظفــر دوراً ملموساً فى الثورة على عبد الرحمن بن المنصور؛ لاتهامها إياه بدس السم لابنها[٥]، تلك الثورة التى انتهت بمقتل عبد الرحمن، وضياع الخلافة الأموية بالأندلس.

والآن، نركز – فى اختصار شديد – أهم مظاهر الحياة الاجتماعية فى الأندلس فى القرن الرابع الهجرى:

١- اعتــزاز الأندلسيين بأنفسهم وببلادهم وبأزيائهم وعاداتهم: فالجارى على ألسنة الناس دومــاً هــو أن يُسَــمُّوا كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى إقليماً، مثل: إقليم(مصر)، وإقلــيم(إفريقية)، وهكذا. أما أهل الأندلس خاصة، فمن شدة اعتدادهم بأنفسهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة فى بلادهم إقليماً، فيقول الأندلسى: أنا من إقليم كذا، أى: من بلدة كذا[٦]. والفقراء منهم لا يعرفون السؤال، فهو أمر مستقبح عندهم إلى نهاية، فهم لا يعرفون ذلك الذُّلّ، ولا الكســل الــذى يقعــدهم عن الكَدّ. وإذا رأوا شخصاً صحيحاً مُعافًى يسأل الناس سبُّوه وأهانوه، فلا يوجد بالأندلس سائل إلا أن يــكون صاحب عذر حقيقى[٧]. وهم – فى الغالب –

---

(١) يمكن معرفة مكانتها عند الناصر، ودلالها عليه، وكيف توصلت بأساليبها الناعمة المؤثرة إلى ذلك بمطالعة (المقتبس ٥/٧ وما بعدها، والنفح ١/٣٦٠-٣٦١).

(٢) حول صبح (الجارية النافارية الأصل)، وشغلها بابن أبى عامر، ومساعدتها منذ عهد المستنصر له، حتى وصل إلى ما وصل إليه، راجع: (البيان ٢/٢٣٩، ٢٨٠، وعنان: دولة الإسلام فى الأندلس ع١ ق٢ صــ٥٢٤-٥٢٥، ٥٣٦-٥٣٧، وظهر الإسلام ٣/١٢٦).

(٣) المغرب (قسم الأندلس ١/١٩٥، ودولة الإسلام فى الأندلس ع١ ق٢ صــ٥٣٧). والظاهر أنها لم تستطع الوقوف أمام المنصور بعد أن سيطر الأخير على الأمور كلها، وسلب السلطة منها ومن ابنها، فاختفت أخبارها حتى سنة ٣٨٩هــ، فيذكر لنا ابن الفرضى فى (تاريخ العلماء والرواة) ١/٢١٠: أنها توفيت فى هذه السنة.

(٤) البيان ٣/٢٩.

(٥) المصدر السابق ٣/٥٢، ومعالم تاريخ المغرب والأندلس ٢٥٣ وبعدها (تآمرت الذُّلْفاء أم المظفر مع محمد بن هشام بن عبد الجبار؛ للظَّفَر بعبد الرحمن بن المنصور، وانتزاع الخلافة من هشام المؤيد).

(٦) معجم البلدان ١/٤٢.

(٧) النفح ١/٢٢٠، ٢٢٣.

لا يلبسون العمائم، وإذا رأوا أحداً من المشرق يلبسها، يظهرون التعجب والاستظراف، ولا يقلدونه؛ لأنهم لم يستحسنوا غير أوضاعهم[١]. وقد اعتادوا النظافة الشديدة فيما يلبسون ويفرشون، وغير ذلك مما يتعلق بهم، ويُقَدِّمونه على طعامهم[٢].

٢- الترف والنعيم المفضى إلى الترهل: وقد شجعهم على ذلك كثرة خيرات بلادهم، وتوفر طعامهم وغذائهم وفاكهتهم فى كافة الأقاليم مع تنوع فى ذلك[٣]، فاندفعوا يسرفون على أنفسهم فى الطعام والشراب؛ مما أضعف عزائمهم، وقَوَّض بنيان دولتهم[٤].

٣- تعدد مظاهر الاحتفالات[٥]، والمواكب[٦]، ومناسبات الجلوس والتهانى[٧]، ومجالس السمر والشراب، وما يترتب على ذلك من فساد ومجون[٨]، وذلك على مستوى الحكام وعلية القوم.

٤- على الرغم مما يشيع فى المجتمع الأندلسى من مظاهر التراحم[٩]، والتمسك بأداء الشعائر[١٠]، إلا أن هذه المعانى السامية لم تتغلغل فى نفوس وقلوب عَوَامِّ الناس (خاصة أهل قرطبة)[١١]، فاستجابوا لأول ناعق، وخربوا بأيديهم حضارة بلادهم، ومظاهر رقى مجتمعهم، الذى كان يبدو بَرَّاقاً من الخارج، لكنه خُوَاءٌ من الداخل.

---

(١) السابق: ٢٢٣. ولذا كان تعديل عبد الرحمن بن المنصور أزياء رجال الدولة ذا أثر كبير فى انحطاط مكانتهم لدى العامة، فانهالوا عليهم سخرية واستهزاء، وهَوَّن ذلك عليهم الثورة بعد ذلك. (البيان ٣/٤٨).

(٢) النفح ١/٢٢٣.

(٣) صورة الأرض ١٠٩، ووصف الأندلس لابن الشباط ١٢٩-١٣٠.

(٤) يراجع بحث: (تهذيب المائدة فى الأندلس)، لسهام الدباغ، المجلة العربية للثقافة، ع٢٧، السنة ١٤ (سبتمبر ١٩٩٤م) صـ١٦٥-١٨٠.

(٥) راجع: المقتبس ٥/٣٢٠-٣٢١ (٣٢٠هـ)، وترتيب المدارك ٢/٤/٤٢٩، ووفيات الأعيان ٧/٢٢٧-٢٢٨، وأزهار الرياض ٢/٢٨٢ وبعدها.

(٦) راجع: المقتبس (ط.الحجى) صـ٢٠٨، ٢١٢-٢١٣، ٢٢٣، والنفح ١/٤١٩.

(٧) المقتبس (ط.الحجى) صـ٢٩-٣٠، ٥٩-٦٢، ٩٣-٩٥، ١٥٢-١٥٣، ١٨٤-١٨٦، ٢٢٩-٢٣٣.

(٨) (المغرب – قسم الأندلس) ١/١٨٤، ١٨٩، والبيان ٢/٢٨٩، ٣/٣٨ وبعدها، والنفح ٣/٢٤٤.

(٩) كما فى صدقات الناصر فى قحط سنة ٣٠٣هـ (البيان ٢/١٦٨) وصدقات المستنصر الكثيرة فى رمضان (المقتبس، ط.الحجى صـ٢٢٦، ٢٣٣-٢٣٤)، وإعتاق الرقاب بعد شفاء الحكم (السابق ٢٠٦، والبيان ٢/ ٢٤٨-٢٤٩)، ورعايته أولاد إخوته المتوفَّيْن (المقتبس، ط.الحجى صـ٩٢)، واستجابة الناس لنداء خطيب الجمعة (القاضى محمد ابن إسحاق بن السليم بالتصدق على الفقراء سنة ٣٦٣هـ (السابق ١٤٩-١٥٠).

(١٠) صورة الأرض ١١١، وأزهار الرياض ٢/٢٧٢.

(١١) راجع مخازيهم ومعايبهم فى: البيان ٣/٩٠، ومقدمة د.محمود مكى للمقتبس صـ١١٣-١١٧.

خلاصة مقارنة:

١- عانى المجتمع المصرى فى القرن الرابع الهجرى من تميز طائفة الجند على عامة الشعب فى فتراته المختلفة، ومن احتكار المغاربة الحكم فى العصر العبيدى، بعد أن نَحَّى العبيديون المصريين من إدارة شئون الحكم فى بلادهم شيئاً فشيئاً، ثم اعتمدوا على الصقالبة(١)، فظهر منهم: برجوان وَصِيّ الحاكم، ورَيْدان حامل المِظَلَّة.

أما الأندلس، فقد اعتنى الناصر بجلب الصقالبة إلى الأندلس، وتسنَّموا ذروة السلطة بها إلى جانب الأسر الأندلسية العريقة، وجلب المستنصر من بعده البربر، وجعلهم المنصور مُعْتَمَدَه الرئيسى فى الجيش. وبذلك نرى تنوع أهم العناصر فى كلا الإقليمين، لكن حكام الأندلس نجحوا فى المحافظة على وحدة البلاد، وتكامل عناصرها حتى وفاة المظفر. أما مصر، فالعبيديون الحكام لم يستطيعوا المزج بين طبقات المجتمع، فكان عدم التناسق بينها قائماً.

٢- اعتمد العبيديون فى مصر على أهل الذمة (يهود، ونصارى) اعتماداً كبيراً فى الشئون الإدارية والمالية، حتى ضَجَّ الشعب من ذلك، وحاول حكامه استرضاءه. أما فى الأندلس، فلا توجد هذه الظاهرة، وإن استعين ببعض الناهين منهم فى بعض المهام المحددة(٢).

٣- كثرت الاحتفالات والأعياد والمواكب والمراسم فى مصر فى عصر العبيديين بالذات، وكانت مرتبطة بالطعام والشراب، ويشترك فيها الخواص والعوام، وتقام وتبتدع لأهداف سياسية، ونتج عنها فواحش ومنكرات، واختلاط سيئ بين المسلمين والنصارى، ومجاراة ومشاركة لهم فى أباطيلهم(٣)؛ مما أضعف الوازع الدينى، وأوهى العقائد الدينية لدى المصريين. أما الأندلس، فالاحتفالات فيها

(١) اعتمد المعز على عنصر (الصقالبة)، وطُلبوا من جميع الناس، وأُخذوا بالثمن سنة ٣٦٤هـ (اتعاظ الحنفا، ط.المجلس ١/٢٢٣). وبرجوان كان خَصِياً صقلبياً (المقفى ٢/٥٧٢). وقد كان المعز يقدم كُتامة على الصقالبة؛ لأن الأولى ساندته طائعة. أما الأخيرون، فاستُقوا بحد السيوف (المجالس والمسايرات ٢٤٦).

(٢) وقد حذرت بعض المصادر من استكتابهم،وتقريبهم،وحذرت من شرهم (مخطوط منهج الصواب فى قبح استكتاب أهل الكتاب (نسخة أحمد الثالث) ورقة ١١-٣٣،ومخطوط (للمَذَمَّة فى استعمال أهل الذمَّة) – مصورة دار الكتب صـ٨١ وبعدها.

(٣) ولا أوافق د.الخربوطلى فى كتابه: (المسعودى صـ١٥)، لما اعتبر مشاركة المسلمين النصارى فى عيد الغطاس وغيره دليلاً على تماسك عناصر المجتمع مسلمين وأقباطاً آنذاك. فالأمر ينبغى أن يُنظر إليه من زاويته الشرعية، التى توجب تميز المسلمين عمن سواهم، وعدم الذوبان فى غيرهم. وقد أُثر عن عليّ قوله: " لا تدخلوا عليهم كنائسهم فى أيام أعيادهم، فإن السخطة تنزل عليهم، فتصيبكم معهم ". (تاريخ بغداد ٨/٢٦). وفى تفسير ابن كثير (ط.دار إحياء الكتب العربية) جـ٣ صـ٣٢٨-٣٢٩ فى تفسير قوله (تعالى): " وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً ". (الفرقان: ٧٢)، قال أبو العالية وطاوس، وابن سيرين، والضحَّاك، والربيع بن أنس، وغيرهم: هو أعياد المشركين.

قليلة ومناسباتها محدودة[1] بالنسبة لمصر العبيدية. والنصوص تشير إلى مجالس السمر والشراب لدى الخواص. وإن وجدت لدى العوام، فهي تختلف عن احتفالات مصر الصاخبة، التي تُرتكب فيها المنكرات جهاراً نهاراً على رؤوس الأشهاد. وبالنسبة لأعياد أهل الكتاب فهي محدودة، ولا نرى تهافت المسلمين عليها كما كان الحال فى مصر.

٤- يشترك عوام أهل مصر والأندلس فى صفات الغوغاء، الذين يُسَوِّدون غير السيِّد، ويفضلون غير الفاضل، ويتشوَّقون إلى اللهو واللعب، ويحبون الاجتماع حول مضروب، أو يقفون عند مصلوب. يُصاح بهم فلا يرتدعون، لا ينكرون منكراً، ولا يعرفون معروفاً. إذا اجتمعوا غلبوا، هَمَج رَعاع يتبعون كل ناعق[2]. وينفرد عامة أهل مصر بغلبة الفرح عليهم، والغفلة عن العواقب، فلا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم، وعامة مآكلهم من أسواقهم، وتراهم فارغى البال، كأنما فرغوا من الحساب[3]. وهذا على عكس أهل الأندلس، الذين يتصفون بالحرص والحذر، وما يترتب على ذلك من قلق، يخفّف منه ميلهم إلى الفكاهة[4]، وطردهم للأحزان والآلام[5]. وأخيراً، فإن أهل الأندلس قوم ذوو خُيَلاَء وغرور واعتداد بالنفس، وثورة لأتفه الأسباب. وكان عامة أهل قرطبة قوماً لا دين لهم، ولا شجاعة فيهم، و لا عقول معهم[6]، فخرّبوا ديارهم بأيديهم. أما أهل مصر، فأهدأ طبعاً، وأطول صبراً على ظلم حكامهم، ويتريثون ولا يسارعون فى الثورة عليهم، فحفظوا ديارهم وأوطانهم، وإن أورثهم ذلك جبناً شديداً، وهلعاً عظيماً، وسلبية مقيتة.

---

(١) تاريخ النصارى فى الأندلس، د. كحيلة صـ١٠٧، وبعدها.

(٢) مروج الذهب مجلد ٢ صـ٣١-٣٢.

(٣) مقدمة ابن خلدون ٢/٣٩٢، والخطط ١/٥٠، وحسن المحاضرة ٢/٣٣٦-٣٣٩. وراجع تعليق د.هيكل فى (الأدب الأندلسى) صـ٤٩-٥٠، ود.مؤنس فى (الحضارة) صـ٣٢-٣٣، ورفض الأخير ما يقال عن البيئة وتأثيرها فى سلوك الإنسان وطبائعه.

(٤) النفح ٣/٣٨١.

(٥) المصدر السابق: ٣/٤٤٠-٤٤١ (يلبسون البياض فى الحزن، لا السواد كما يفعل المشارقة).

(٦) تفاصيل ذلك فى فتنة البربر نهاية ق٤هـ (البيان ٣/٩٠).

رابعاً وأخيراً:(الأوضاع الثقافية العامة فى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى)

١- الخطوط العامة للثقافة فى مصر:

أولاً - القراءات: وقد شهدت مصر عدداً من علماء القراءات فى هذا القرن، منهم: أحمد بن أسامة بن أحمد التجيبى المصرى، الذى كان من أئمة القراءات، وعُمِّر طويلاً فجاوز المائة، وتوفى فى رجب ٣٥٦هـ[١] وهناك المقرئ المصرى محمد بن على(أبو بكر الأُدْفُوِىّ)، الذى لازم أبا جعفر النحاس، وبرع فى علوم القرآن[٢]، وهو آخر أساتذة مدرسة وَرْش العظام فى القرن الرابع الهجرى (ت ٣٨٨هـ)[٣]. وأخيراً، فهناك آل غَلْبون: الوالد عبد المنعم بن عُبيد الله بن غلبون المقرئ، أبو الطيب الحلبى الأصل، الذى ولد بحلب سنة ٣٠٩ هـ[٤]، ثم قدم مصر واستوطنها حتى وفاته بها فى السابع من جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ[٥]. وكان حافظاً للقراءة، ضابطاً، ألَّف كتاب (الإرشاد فى القراءات)[٦]. وكان ابنه أبو الحسن طاهر أحد المهرة المحققين فى مجال القراءات فى مصر. وله مؤلف:(التذكرة فى القراءات). وقد توفى فى مصر - أيضاً - فى سن الكهولة، ودُفن بها مع والده[٧] فى ٢٠ من شوال سنة ٣٩٩هـ[٨].

ثانياً - التفسير: من علماء التفسير فى مصر: أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادى النحّاس، الذى تفوق فى عدة علوم، يأتى التفسير على رأسها. واشتغل بالتأليف فى علوم القرآن. من

---

(١) تاريخ الإسلام ١٣٥/٢٦. ورجح تاريخ الوفاة المذكور ابن الجَزَرِىّ على تاريخ ٣٤٢هـ فى (طبقات القراء) ١/ ٣٨، وحسن المحاضرة ٤٨٨/١.

(٢) معرفة القراء الكبار، للذهبى ٢٨٤/١، وحسن المحاضرة ٤٩٠/١.

(٣) القرآن وعلومه فى مصر صـ٢٢٥.

(٤) وقد أخطأ السيوطى لما جعل تاريخ مولده سنة ٣٥٩هـ (حسن المحاضرة) ٤٩١/١.

(٥) ولم يكن ابن خلكان على صواب، لما جعل تاريخ الوفاة ٣٠٩هـ (وفيات الأعيان ٢٧٧/٥). وأعتقد أنه سهو من الناسخ، لم ينتبه إليه المحقق.

(٦) وفيات الأعيان ٢٧٧/٥، ومعرفة القراء الكبار ٢٨٥/١-٢٨٦، وطبقات السبكى ٣٣٨/٣، وطبقات الإسنوى ٤٠٠/٢-٤٠١، وطبقات ابن الجزرى ٤٧٠/١-٤٧١، وحسن المحاضرة ٤٩٠/١-٤٩١، وتاريخ التراث العربى (ط.الهيئة العامة) ٣٣/١ (وسمّاه ابن عبد الله تحريفاً).

(٧) الكواكب السيارة ١٤١-١٤٣.

(٨) معرفة القراء الكبار ٢٩٧/١، وتاريخ الإسلام ٣٧٢/٢٧، والوافى بالوفيات ٤٠٤/١٦-٤٠٥، وطبقات الإسنوى ٢/ ٤٠١، وحسن المحاضرة ٤٩١/١، وتاريخ التراث العربى (ط.الهيئة): ٣٢/١ (أورد اسم جده عبيد الله صحيحاً).

مصنفاته: (تفسير القرآن)، (والناسخ والمنسوخ)، وغيرها. توفى فى مصر سنة ٣٣٨هـ[١]. ويأتى – بعد ذلك – المفسر أبو بكر محمد بن الحسن بن زياد النقّاش، وهو عراقى الأصل، ورحل إلى بلاد كثيرة (منها: مصر)؛ طلباً للعلم. وقد ألمّ بمصر فترة من الزمن، وخلّف كتاباً فى التفسير، سمّاه (شفاء الصدور)[٢] ، وتوفى ٣٥١هـ[٣]. وأخيراً، المفسر المصرى أبو بكر الأدفوى، الذى ترك مصنفاً كبيراً فى التفسير، سَمَّاه (الاستغناء فى التفسير)،ويقع فى مائة وعشرين مجلداً، استغرق تأليفه اثنتى عشرة سنة[٤] وتوفى بمصر سنة ٣٨٨هـ[٥].

ثالثاً – الحديث: عُنِى علماء مصر بحديث رسول الله ﷺ: رواية، وتأليفاً، ورجالاً. من أبرز هؤلاء المحدِّثين وأشهرهم فى ذلك القرن: الإمام الحافظ القدوة، محدث الديار المصرية (أبو القاسم حمزة بن محمد الكنانى)[٦]، الذى ولد سنة ٢٧٥هـ، وسمع الحديث سنة ٢٩٥هـ، ورحل إلى العراق فى طلبه سنة ٣٠٥هـ. وخلّف فى مصر حديثاً وتلاميذ كثيرين، وتمنى على الله أن يقبضه قبل دخول العبيديين مصر،فتوفى فى ذى الحجة سنة ٣٥٧هـ[٧].

ومن محدثى مصر أيضاً:(أبو محمد الحسن بن رشيق العسكرى)، وهو إمام صادق معدَّل، له فهم ومعرفة وإسناد عال. ولد سنة ٢٨٣هـ، وتوفى سنة ٣٧٠هـ[٨]. ويأتى – بعد ذلك – إمام الحديث فى مصر الحافظ (أبو محمد عبد الغنى بن سعيد الأزدى[٩]، الذى أثنى على علمه المحدث الشهير الدَّارَقُطْنِيّ (ت ٣٨٥هـ). له تآليف نافعة فى رجال الحديث، مثل: (مُشْتَبَه

(١) طبقات النحويين للزبيدى ٢٢٠-٢٢١ (وجعل وفاته ٣٠٧هـ خطأ)، ومعجم الأدباء ٢٢٤/٤-٢٣٠، ووفيات الأعيان ٩٩/١-١٠٠، وتاريخ الإسلام ١٥٥/٢٥، والبداية والنهاية ٢٣٦/١١، والمقفى ٧١٣/١-٧١٥، ومخطوط (طبقات النحاة واللغويين) لابن قاضى شهبة (الظاهرية) صـ١٩٤-١٩٦.

(٢) طعن أكثر من محدِّث فيه، وضعّف ما ورد به من أحاديث (المقفى ٥٦٢/٥).

(٣) تاريخ بغداد ٢٠١/٢-٢٠٥، واللباب لابن الأثير ٣٢١/٣-٣٢٢، ووفيات الأعيان ٢٩٨/٤-٢٩٩، والعبر للذهبى ٩٨/٢، وتاريخ الإسلام ٩/٢٦، والوافى بالوفيات ٣٦٢/٧-٣٦٤، والمقفى ٥٦٠/٥-٥٦٢.

(٤) تاريخ الإسلام ١٧٧/٢٧، ومخطوط (مسالك الأبصار) للعمرى (مصورة أحمد الثالث) صـ٢٣٦، والمقفى ٦/ ٢٥٠-٢٥١.

(٥) مخطوط (مسالك الأبصار، مصورة أحمد الثالث) صـ٢٣٦، والمقفى ٢٤٩/٦-٢٥١، وطبقات المفسرين للداودى ١٩٤/٢-١٩٦.

(٦) بغية الطلب ٢٩٥٧/٦-٢٩٦٠، وسير أعلام النبلاء ١٧٩/١٦-١٨١، وتاريخ الإسلام ٤٣٧/٢٦-٤٣٨، والمقفى ٦٦٦/٣-٦٧١.

(٧) ورد فى سير أعلام النبلاء ١٨١/١٦: أنه بلغه أن عسكر المعز المغاربة وصلوا إلى الإسكندرية، فدعا الله أن يميته قبل دخولهم مصر، فدخلوا بعد موته بثلاث. وفى (المقفى) ٦٧٠/٣: بثلاثة أيام. وأشك فى صحة هذا الكلام؛ لأن جوهراً دخل مصر فى شعبان ٣٥٨هـ، (اتعاظ، ط.دار الفكر صـ١٥٧)، وهذا المحدث مات فى ذى الحجة ٣٥٧هـ، أى: قبل دخولهم بحوالى ٧ شهور.

(٨) سير أعلام النبلاء ٢٨٠/١٦-٢٨٢، والوافى بالوفيات ١٦/١٢-١٧.

(٩) مخطوط تاريخ دمشق ٤١٢/١٤، والمنتظم لابن الجوزى (ط.الهند) ٢٩١/٧-٢٩٢، ووفيات الأعيان ٢٢٣/٣-٢٢٤، ومختصر تاريخ دمشق، لابن منظور ١٦٥/١٥-١٦٦، ومخطوط (مسالك الأبصار)، نسخة أحمد الثالث صـ٣٣٨-٣٣٩.

النسبة)، و(المؤتلف والمختلف)[١]. ولد سنة ٣٣٢هـ وتوفى سنة ٤٠٩هـ، وكانت جنازته حاشدة، وتألم لفقده الخاص والعام، وكان يُنادَى فيها: هذه جنازة الحافظ لكتاب الله، ونافى الكذب عن رسول الله[٢].

وفى النهاية، فقد انتشر المحدِّثون فى أقاليم مصر الأخرى، فهناك المحدث خالد بن محمد الدِّمياطى (المتوفى سنة ٣٣٠هـ)[٣]، ومحمد بن إبراهيم الأُسْوَانىّ (ت ٣١٥هـ)[٤].

رابعاً – الفقه: عرفت مصر فى القرن الرابع الهجرى عدداً من المذاهب الفقهية المشهورة، وقام علماء هذه المذاهب بتدريسها فى المساجد، وتعليم الناس أحكام دينهم. ومن فقهاء مصر المالكية: محمد بن أحمد بن أبي يوسف (أبو بكر بن الخَلاَّل)، وكان يدرس بجامع مصر، وأخذ عنه الناس. ألَّف أربعين جزءاً من منتقى قول الإمام مالك. توفى سنة ٣٢٢هـ[٥]. والفقيه محمد بن أحمد بن أبي الأصبغ الحَرَّانى، الذى سكن مصر، وأمَّ بالجامع العتيق، وكان فقيهاً مشهوراً، فصيح اللسان. توفى فى شوال سنة ٣٣٩هـ[٦]. وأخيراً، نذكر شيخ المالكية محمد بن القاسم بن شعبان المصرى، وكان ذا باع طويل بالفقه والسنة. وترك عدة مؤلفات بديعة، مثل: (الزاهر فى الفقه)، و(أحكام القرآن)[٧]. توفى فى شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٥هـ[٨].

ومن أشهر فقهاء المذهب الحنفى فى مصر: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى الشهير بـ (الطَّحَاوىّ)[٩]، وكان رأس المذهب الحنفى فى مصر، بعد أن تحول عن المذهب الشافعى لما انتهره خاله المُزَنِى الشافعى فى بداية عهده بالطلب[١٠]. ولد سنة ٢٣٩هـ[١١]، ونبغ

(١) وفيات الأعيان ٢٢٣/٣.
(٢) مخطوط تاريخ دمشق ٤١٢/١٤.
(٣) المقفى ٧٣٩/٣-٧٤٠.
(٤) السابق ٨٥/٥.
(٥) الديباج ١٨٨/٢.
(٦) تاريخ الإسلام ١٧٦/٢٥-١٧٧، والديباج ٣٠٧/٢، وطبقات ابن الجزرى ٦٨/٢.
(٧) سير أعلام النبلاء ٧٨/١٦.
(٨) تاريخ الإسلام ١٣١/٢٦-١٣٢، والسير ٧٨/١٦-٧٩، والديباج ١٩٤/٢-١٩٥. وغير صحيح ما ذكره الأخير ١٩٥/٢: أن موته وافق دخول بنى عبيد الروافض مصر، وأنه شديد الذم لهم؛ لأن بنى عبيد دخلوا سنة ٣٥٨هـ.
(٩) طبقات الفقهاء للشيرازى (ط.إحسان) صـ١٤٢، ووفيات الأعيان ٧١/١-٧٢، وسير أعلام النبلاء ٢٧/١٥-٣١، والوافى ٩/٨-١٠؛ ومرآة الجنان ٢٨١/٢، وطبقات المفسرين للداودى ٧٣/١-٧٥، والطبقات السنية فى تراجم الحنفية ٤٩/٢-٥٢.
(١٠)طبقات الشيرازى صـ١٤٢، والسير ٢٩/١٥.
(١١)سير أعلام النبلاء ٢٨/١٥. وفى (وفيات الأعيان) لابن خلكان ٧٢/١: ذكر أنه ولد ٢٣٨هـ، وقال: لكن السمعانى جعل ولادته سنة ٢٢٩هـ، وهو الصحيح. هذا كلام ابن خلكان. وبالرجوع إلى (الأنساب ٥٣/٤)، تبين لى أن السمعانى جعل ولادته سنة ٢٣٩هـ لا ٢٢٩هـ، كما نقل ابن خلكان خطأ فيما مضى.

فى فقه الحنفية[١]، وترك مؤلفات فقهية غاية فى الأهمية، مثل: (أحكام القرآن)، و(اختلاف العلماء)، و(مُشْكِل الآثار)، و (شرح معانى الآثار)[٢]. وكانت وفاته سنة ٣٢١هـ.

وأخيراً، نشير إلى عالم عصره، وإمام الشافعية فى مصر: الفقيه أبى بكر محمد بن أحمد الكنانى، المعروف بـ (ابن الحَدَّاد)[٣]. ولد سنة ٢٦٤هـ، ونبغ فى المذهب الشافعى، وألَّف مجموعة من الكتب، منها: (الفروع) فى المذهب الشافعى، و(أدب القاضى) فى أربعين جزءاً، و(الفرائض) فى حوالى مائة جزء[٤]. وتوفى سنة ٣٤٤هـ.

خامساً – اللغة: ازدهرت اللغة العربية فى مصر فى القرن الرابع الهجرى، واكتمل انتصارها على اللغة القبطية، التى أخذت طريقها نحو الاندثار[٥]. ورأينا فى هذا القرن لغويين ونحويين على درجة كبيرة من القدرة على هضم واستيعاب نتاج علماء البصرة والكوفة، ثم التجديد والإبداع. ومن هؤلاء: (على بن الحسن الهُنَائِىّ الأزدى اللغوى)[٦]، الذى يعرف بـ (كُراع النمل)[٧]؛ لأنه كان دميم الخِلْقَة. ومن مصنفاته اللغوية الجيدة: كتاب (المنضَّد) فى اللغة على الحروف، واختصره مستبعداً الاستشهادات فى كتابه (المجرد). وجعل كتابه (المنجد) فيما اتفق لفظه واختلف معناه[٨]. وقد توفى حوالى سنة ٣١٠هـ.

ومن علماء اللغة والنحو فى مصر – أيضاً – شيخ العربية، ووريث علمها عن أبيه وجَدّه، وقسيم الشيخ أبى جعفر النحاس، ومنافسه فى إبداع مؤلفاتها: (أبو العباس أحمد بن محمد بن الوليد التميمى)[٩]، صاحب كتاب (الانتصار لسِيبَوَيْه على المُبَرِّد)، و(المقصور والممدود). توفى

---

(١) بعض مسائله الفقهية فى (الاستذكار) ٤١٩/١، ٣٦٨/٢. وجعله د.غنايم – فى رسالته للدكتوراه صـ٣٨٠ – مجتهداً فى المذهب الحنفى. وذكر صاحب ماجستير: (الربيع المرادى) صـ١١١-١١٢: أن الطحاوى كان تلميذ الربيع تلميذ الشافعى.

(٢) وفيات الأعيان ٧١/١،والسير ٢٩/١٥،ومعجم المطبوعات العربية، لسركيس ١٢٣٢/٢-١٢٣٣،وتاريخ الأدب العربى، لبروكلمان (ط.دار المعارف) ٢٦١/٣-٢٦٥.

(٣) الأنساب ١٨١/٢، والسير ٤٤٥/١-٤٥١، والوافى بالوفيات ٦٩/٢، وطبقات السبكى ٧٩/٣-٨٣، والمقفى ٢٥٣/٥ وبعدها.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤٤٧/١٥.

(٥) تاريخ اللغة العربية فى مصر، د.أحمد مختار صـ٤٥.

(٦) إنباه الرواه ٢٤٠/٢،ومخطوط (الوافى بالوفيات،نسخة أحمد الثالث)جـ٢٠ورقة ١٧٩.

(٧) الكُراع من الإنسان: مادون الركبة إلى الكعب، وهو يذكر ويؤنث. وفى البقر والغنم: مُستَدَقّ الساق العارى من اللحم. الجمع: أكْرُع، وأكارع. وفى المثل: (لا تطعم العبد الكراع، فيطمع فى الذراع) والمعنى: أنه شديد النحافة (اللسان مادة ك.ر.ع، جـ٥/٣٨٥٨، والمعجم الوسيط ٨١٤/٢).

(٨) تاريخ اللغة العربية فى مصر ١٣٦-١٣٧، وماجستير (الحياة العلمية فى مصر من قيام الطولونيين إلى سقوط الإخشيديين) صـ٢٥٧، وبعدها.

(٩) تاريخ الإسلام ٧٢/٢٥، ومرآة الجنان ٣١١/٢-٣١٢.

سنة ٣٣٢هـ. وهناك النحوى المصرى (على بن الحسن) المعروف بـ (عَلاّن)، وكان من ذوى النظر والتدقيق فى المعان[١]. توفى فى مصر سنة ٣٣٧هـ.

وأخيراً، يأتى (أحمد بن إسماعيل النحاس، أبو جعفر النحوى)، الذى تلقى كتاب سيبويه على الزَّجَّاج ببغداد، ثم عاد إلى مصر، فأبدع أكثر من خمسين مصنفاً، من أشهرها فى مجال النحو: (إعراب القرآن)، وفيه حشد وجوه الإعراب دون اختيار، أو تعليل[٢]. وكذلك أَلَّف (الكافى فى علم العربية)[٣]. توفى سنة ٣٣٨هـ.

سادساً – الأدب: من شعراء مصر فى العصر الإخشيدى: سعيد المعروف بـ (قاضى البقر)[٤] ، وأبو الفتح بن البيى[٥]، وكلاهما يشترك فى غلبة أشعار المجون، ووصف مجالس الشراب عليه.

ويعد الشاعر المتنبى أشهر شعراء العربية دخولاً إلى مصر، ومكثاً بها[٦]. وتعد مدائحه فى كافور من أشهر ما قيل فى هذا المجال. ولما أيس من بلوغ مراده عنده[٧]، عدا عليه فهجاه، وَفَرَّ من مصر ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠هـ[٨]. وتوجه إلى عضد الدولة، ثم قُتل بعد انصرافه نحو البادية سنة ٣٥٤هـ.

ويأتى على رأس شعراء العصر العبيدى الشاعر تميم بن المعز[٩]، الذى أراد تعويض ما لحقه من ظلم بعزله عن ولاية العهد[١٠]، عن طريق الاتجاه للتلذذ والتنعم فى بساتين مصر، ومتنزهاها[١١]، والانخراط فى احتفالاتها وأعيادها، يدبج الأشعار، ويسمع الغناء، ويشرب كئوس

---

(١) طبقات النحويين للزبيدى صـ٢٢٢.

(٢) المصدر السابق: ٢٢٠.

(٣) السابق: صـ٢٢ والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد لابن الدمياطى صـ٧٢-٧٣.

(٤) المغرب (قسم مصر) صـ٢٧٢، وفى الأدب المصرى الإسلامى حتى الفاطميين، د.محمد كامل حسين ٢٣١.

(٥) المغرب (قسم مصر): صـ ٢٧٢-٢٧٣.

(٦) يبدو أنه دخل مصر بعد وفاة الإخشيد ورثاه، وعَزّى ابنه أونوجور بمصر سنة ٣٣٥هـ (بغية الطلب ٦٧٥/٢). ثم دخلها المرة المشهورة سنة ٣٤٦هـ، ومدح كافوراً، وأونوجور (وفيات الأعيان ١٢٢/١).

(٧) كان كافور وعده بأشياء (مناصب)، فلما رأى تَعَالِيَ المتنبى عليه منعه، فلما سئل فى ذلك، قال: (من ادَّعَى النبوة، يَدَّعِى أنه يحكم معى). (المصدر السابق ١٢٢/١).

(٨) الوافى بالوفيات ٣٣٦/٦-٣٤٦، ومرآة الجنان ٣٥١/٢-٣٥٧، والبداية والنهاية ٢٧٣/١١-٢٧٦، وفى الأدب المصرى د.محمد كامل حسين ٢٤٢ وبعدها. وله أشعار فى الأهرام (الخطط ١١٨/١).

(٩) أخبار الدول المنقطعة ٢٨، والحلة السيراء ٢٩١/١ وبعدها، ووفيات الأعيان ٣٠١/١-٣٠٣، ومرآة الجنان ٢/ ٤٠٤-٤٠٥، والبداية والنهاية ٣١٣/١١ (ت ٣٦٨هـ خطأ)، وتاريخ التراث العربى (ط.السعودية) مج٢ جـ٥ صـ١٠-١١.

(١٠)الحلة السيراء٢٩١/١.وذكر أنه شاعر بنى عبيد،وكان ولى عهد أبيه وبه يُكَنّى،ثم خُلِع بإشارة جوهر؛لأنه عقيم لا يولد له.ولى العهدَ أخوه عبد الله،فلما مات وَلِيه نزار (العزيز).

(١١)الديارات، للشابشتى صـ٢٨٩.

الـــراح، مشاركاً أهل مصر هزلهم ولهوهم[١]، مطمئناً أخاه العزيز من جهته، ومؤكداً بعده عن شئون السياسة والحكم. وظل هكذا حتى وفاته بمصر فى ذى القعدة سنة ٣٧٤هـــ.

وأخـــيراً، فـــإن من أشهر كتَّاب النثر فى العصر الإخشيدى: إبراهيم بن عبد الله النَّجيرَمىّ الكاتـــب (توفى حوالى ٣٥٥هـــ)[٢]. حظى بمكانة طيبة فى بلاط الإخشيد، وغدا زعيم الكتّاب فى عهده بعد أن هيأته مؤهلاته فى النحو واللغة والعربية لتسنُّم هذه المكانة، التى تأكدت بكتابه الذى أنشأه على لسان الإخشيد ردًّا على رسالة الإمبراطور رومانوس الرومى إليه[٣]. وفى عهد كافـــور ظلت مكانته محفوظة لديه، وكان من البارزين فى بلاطه، الذى ضم العلماء والشعراء والكتّاب[٤].

سابعاً وأخيراً – علم التاريخ: اهتم مؤرخو مصر فى هذا القرن بالتأريخ لبلدهم. فأول ما اســـترعى انتباههم كتابة سير حكامهم، ممن استقلوا بمصر، وحققوا لها من النمو والازدهار ما حاز إعجابهم، ودفعهم إلى تسجيل حياتهم، وتخليد مآثرهم. ولذلك نرى اثنين من مؤرخى هذا القـــرن يـــدونان سيرة (أحمد بن طولون)، ولكل منهجه، وهما: (أحمد بن يوسف بن إبراهيم) المشـــهور بـــ (ابن الداية) المتوفى حوالى سنة ٣٤٠هـــ. والآخر (البلوىّ) الذى طوَّر كتابة هذه الســـيرة، وفصّـــلها تفصيلاً. واهتمّ المؤرخ (ابن زولاق ت ٣٨٧هـــ)-كذلك- بتدوين سيرة (الإخشـــيد)، وسيرة النحوى المصرى المعروف بـــ (سيبويه المصرى). وسجل – أيضاً – سيرة أسرة (المادَرائيين)، وكتب سيرة (جوهر)، و(المعز).

أمـــا الاتجاه الثانى من اتجاهات التأليف التاريخى المحلى فى مصر فى ذلك القرن، فهو كتب (التـــراجم)، وقـــد واكبت هذه المؤلفات حركة الازدهار العلمى فى ذلك القرن، وكثرة العلوم والعلمـــاء، وكثرة الرحلات؛ طلباً للعلم، فأراد بعض المؤرخين أن يؤرخ لتلك الحركة العلمية المهمة، فأرخ بعضهم للعلماء الأوائل فى مصر (الصحابة)، مثل: محمـــد بن الربيع الجيزى (ت ٣٢٤هـــــ)، وتـــلاه (ابن يونس الصَّدَفى) المتوفى سنة ٣٤٧هـــ، فألف عن (تاريخ المصريين)، و(تـــاريخ الغرباء)، أى: العلماء الوافدين على مصر من الخارج. واهتم الكندى (ت ٣٥٠هـــ) بنوعية معينة من العلماء هم (العلماء الموالى).

---

(١) الخطط ٢/١٥٤-١٥٥.

(٢) إنباه الرواه ١/١٧٠-١٧١، والوافى ٦/٣٤، والأعلام للزركلى ١/٤٢، وفى الأدب المصرى الإسلامى د.محمد كامل حسين ١١٣ وبعدها، والأدب العربى فى مصر، د.عبد الرزاق حميدة صـــ١٢٤ وبعدها. وهو ينسب إلى (نَجيرَم)، وهى محلة بالبصرة. (الأنساب ٥/٤٦٣). وذكر القفطى فى (إنباه الرواه) ١/١٧٠: أنها قرية على ساحل البحر الهندى فى طريق فارس من البصرة.

(٣) نصه فى المغرب (قسم مصر) صـــ١٦٧-١٧٢.

(٤) إنباه الرواه ١/١٧١.

وبالنسبة للاتجاه الثالث فى كتابة (التاريخ المحلى) فى مصر، فقد اهتم أصحابه بالتأريخ للنظم والحضـــارة، فكتب المؤرخ الكندى عن (الولاة)، و(القضاة) فى مصر،وكذلك اهتم ابن زولاق بتكملة ما بدأه الكندى عن القضاة.

وأخيراً، فقد عُنى فريق من المؤرخين بتدوين (الحوادث التاريخية) عن طريق السرد التاريخى لهـــا. وأهـــم من يمثل هذا الاتجاه ما دوَّنه المؤرخ ابن زولاق بإيجاز من تاريخ مصر فى مخطوطة (مختصر تاريخ مصر).

٢- الخطوط العامة للثقافة فى الأندلس:

أولاً — القراءات: شهدت بلاد الأندلس اهتماماً متزايداً بالقرآن الكريم وإقرائه، وتلقين ذلك لطـــلاب العلـــم. ومن هؤلاء: أحمد بن عمر بن أبى الشعرى المقـــرئ القرطبى[١]. كان أهل قرطبة يتلقون عليه الكتاب العزيز، وكان يكتب المصاحف، والناس يقبلون ويتنافسون على شرائها؛ لجودة خطـــه وجماله. توفى سنة ٣٥٠هـــ. وهناك (أحمد بن حكم بن محمد العاملى القرطبى)[٢]. كان من أهـــل العـــناية الـــتامة بالقرآن، وتجويد تلاوته على أئمة المقرئين. ذكره القاضى (أحمد بن ذكوان) للمنصـــور بـــن أبى عامر، فرقّاه فى المناصب، حتى تقلد قضاء طليطلة، إلى أن توفى سنة ٣٩٠هـــ. وكـــان الأندلسيون يرحلون إلى المشرق؛ لاستكمال معارفهم بالقراءات، فمثلاً رحل المقرئ (خلف ابـــن قاســـم بن سهل الأندلسى)[٣] إلى الرملة ومصر؛ لتلقى القراءات هناك، ثم رجع إلى الأندلس، وأقرأ بها وألّف. ولد ٣٢٥هـــ، وتوفى سنة ٣٩٣هـــ.

ثانـــياً — التفسير: ممن اهتم بالتفسير إلى جانب القراءات بالأندلس المفسر (يحيى بن مجاهد الإلـــبيرى)، وكانـــت له رحلة إلى مصر؛لتلقى العلم.وكان لا نظير له زهداً وعبادة. توفى شهر جمادى الأولى ٣٦٦هـــ[٤].وهناك (عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فُطَيْس)، وكان مشاركاً فى ســـائر العلوم، وخلّف بعده مكتبة ضخمة، وعدة مؤلفات، منها: أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، وهما على قدر كبير من الأهمية لطالب التفسير. توفى سنة ٤٠٢هـــ[٥].

ثالـــثاً — الحديث: كان للأندلسيين ولع بحديث رسول الله ﷺ، حفظاً، ورواية، ودرساً. وعلى رأسى محدثى الأندلس يأتى الإمام المحـــدث (أبو محمد قاسم بن أصْبَغ البيَّانىّ القرطبى)[٦]،

---

(١) الصلة لابن بشكوال (نشر الحسينى) ١١/١.

(٢) الذيل والصلة للمراكشى، السفر الأول، القسم الأول صـــ٩٩-١٠٠.

(٣) طبقات القراء لابن الجزرى ٢٧٢/١.

(٤) طبقات المفسرين، للداودى ٣٧٥/٢.

(٥) السابق ٢٨٥/١-٢٨٧.

(٦) ترجم له: ابن الفَرَضىّ فى (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس) ٤٠٦/١-٤٠٨، والجذوة ٥٢٦/٢-٥٢٨، و(مخطوط عيون التواريخ، نسخة الظاهرية) ورقة ٨٥، ومخطوط الوافى بالوفيات (مصورة دار الكتب) ٢١٢/٧.

الـــذى كان مُسْنِد عصره، وحافظ بلده (الأندلس). ورحل إلى المشرق، وسمع على أعلامه، ثم أتـــى إلى بلده، وطال عمره (٢٤٤-٣٤٠هـــ)، حتى سمعت منه أجيال أندلسية متعاقبة. وكان مكثـــراً مصنفاً. من أهم مصنفاته: كتاب فى السُّنَّة حسن، و(غرائب حديث مالك مما ليس فى الموطأ)، و(المجتَبَى على أبواب المنتقَى) لابن الجارود. والمحدث الحافظ (خالد بن سعد القرطبى)[١]: كـــان بصيراً بعلل الحديث، عالماً بطرقـــه، مقدَّماً على أهل زمانه فى ذلك. وضع كتاباً للخليفة الحكـــم المستنصـــر فى (رجال الأندلس). وكان المستنصر يقول: " إذا فاخَرَنا أهلُ المشرق بـــ (يحيى بن مَعين)، فاخَرْناهم بـــ (خالد بن سعد ")[٢]. توفى سنة ٣٥٢هـــ.

وأخيراً، نأتى إلى دُرَّة المحدِّثين بالأندلس الإمام الحافظ (أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابـــن يحـــيى بـــن مُفَرِّج، مولاهم الأموى القرطبى)[٣]. هذا المحدث تلقى على الإمام (قاسم بن أصـــبغ)، ورحل إلى المشرق سنة ٣٣٧هـــ، فسمع الحديث فى مكة والمدينة، واليمن، والشام، ومصر، ثم عاد إلى وطنه سنة ٣٤٥هـــ[٤]، فكان من أكثر الناس عناية بالحديث حفظاً، وبصراً بـــرجاله، وتصحيحاً وتجويداً وضبطاً لكتبه[٥]. كانت له صلة طيبة بالمستنصر، وجمع له مسند حـــديث(قاسم بن أصبغ)، وكان له فقه وفهم للحديث، فترك كتباً فى فقه التابعين مبنية على الحديث، مثل: (فقه الحسن البصرى) فى سبع مجلدات، و(فقه الزهرى) فى أجزاء كثيرة[٦]. ولاه المستنصـــر القضاء حتى وفاته (أى: المستنصر) سنة ٣٦٦هـــ، وامتدت له الحياة بعد المستنصر، حتى لقى ربه سنة ٣٨٠هـــ.

رابعـــاً – الفقه: كان للفقهاء الأندلسيين دور متميز فَعَّال، وتأثير كبير فى حيـــاة المجتمع (العـــوام والخـــواص) فى تلـــك الفترة التى ندرسها (خاصة قبل سيطرة المنصور على مقاليد الأمـــور). وكان المذهب المالكى الأوسع انتشاراً هناك؛ نظراً لتبنى الحكام له، ورضا الناس عـــنه. ومن فقهاء المالكية آنذاك: (أبو عبد الله، محمد بن عمر بن لُبَابة القرطبى)[٧]، الذى كان إماماً فى الفقه، بصيراً بالفُتْيا، حافظاً لآراء الفقهاء. توفى سنة ٣١٤هـــ. وهناك الفقيه (محمـــد بن يحيى بن عمر لبابة القرطبى)[٨]: كان يحفظ الفقه على مذهب مالك وأصحابه،

---

(١) راجع تاريخ العلماء لابن الفرضى ١/١٥٤-١٥٦، وتاريخ الإسلام ٢٦/٧٢-٧٣.

(٢) تاريخ العلماء لابن الفرضى ١/١٥٥.

(٣) تُرجم له فى: (تاريخ العلماء) ٢/٩٣-٩٥، والجذوة ١/٧٦-٧٧، ومخطوط تاريخ دمشق ١٤/٧١٩، والعبر للذهبى ٢/ ١٥٦، والديباج ٢/٣١٤.

(٤) تاريخ العلماء لابن الفرضى ٢/٩٣-٩٥.

(٥) مخطوط تاريخ دمشق ١٤/٧١٩.

(٦) الجذوة ١/٧٦.

(٧) البيان المغرب ٢/١٩٢،ومخطوط (عيون التواريخ)١٢/١٤-١٥،والديباج ٢/١٨٩-١٩١.

(٨) تاريخ العلماء لابن الفرضى ٢/٥٣ – ٥٤، والجذوة ١/١٥٩، وتاريخ الإسلام٢٥/١٤٢- ١٤٣.

وبيـــنه وبين أصحاب الحديث عداء متبادل. ترك بعض المؤلفات الفقهية، مثل: (المنتخب)، و(الوثائق). توفى سنة ٣٣٠هـــ[١]. ومن علماء المالكية وفقهائها أيضاً: (عبد الله بن محمد ابن أبي دُلَيْم القرطبي، المتوفى سنة ٣٥١هـــ)[٢]؛ وأخـــوه (محمد)، المتوفى سنة ٣٧٢هـــ[٣]، و(أحمد بن مُطَرِّف بن عبد الرحمن، المشهور بابن المشّاط)، المتوفى سنة ٣٥٢هـــ[٤].

ومن أشهر فقهاء الشافعية فى الأندلس فى ذلك القرن:

أ- عبد الله بن عبد الرحمن الناصر (ت ٣٣٨، أو ٣٣٩هـــ)[٥].

ب- حسن بن سعد بن إدريس القرطبي (ت ٣٣١هـــ)[٦].

خامســـاً – اللغـــة: فى هذا القرن حدثت نهضة لغوية فى بلاد الأندلس، وظهر عدد من اللغـــويين والنحاة، أثروا الدراسات اللغوية والنحوية العربية، بعد انتشار اللغة العربية، وتفوقها على ما عداها من اللغات.

ومن أبرز اللغويين والنحاة إبَّانَ هذه الفترة:

١- محمد بن يحيى بن عبد السلام الأزدى الرَّباحي (ت ٣٥٨هـــ)[٧].

٢- محمد بن عمر بن عبد العزيز، المعروف بـــ (ابن القُوطيَّة)، والمتوفى سنة ٣٦٧هـــ[٨].

---

(١) ذكر الذهبي فى (تاريخ الإسلام) ١٤٣/٢٥: أنه توفى فى ذى الحجة ٣٣٦هـــ، وهو غير صحيح.

(٢) فقيه مُشاوَر له تآليف (ت ٣٥١هـــ). (ترتيب المدارك ٤٤٠/٤/٢-٤٤١، والديباج ٤٤١/١).

(٣) عالم فقيه، زاهد ثقة، جلس يُسمع الناس العلم قبل وفاته بثلاث سنوات، فأخذوا عنه علماً كثيراً. له أقوال صائبة فى شروط الفقيه، وضوابط الوصول إلى تلك المكانة، والتلقب بهذا اللقب (من حيث السن، والعلوم اللازمة)، وإلاسُمِّيَ طالباً (الديباج ٢٠٢/٢-٢٠٣).

(٤) كان من أعيان فقهاء المالكية بالأندلس، وولى الصلاة بقرطبة، (تاريخ الإسلام ٦٩/٢٦).

(٥) كان الحكم المستنصر مالكياً، وأخوه عبد العزيز حنفياً، وكان عبد الله هذا شافعياً، (المغرب – قسم الأندلس – ١/ ١٨٨). وقال صاحب (البغية) صـــ٣٥٠: كان عبد الله فاضلاً، قتله أبوه؛ بسبب متابعة أكثر الناس له، لأدبه وفضله (ت ٣٣٨هـــ). أما ابن خلدون فى (تاريخه) ١٨٤/٤، فذكر أن الناصر رشح الحكم لولاية العهد دون إخوته، وكان عبد الله يُساميه فى الرتبة، فحسده، ونكث بالعهد، واتفق مع بعض رجال الدولة الخونة ضد الناصر. ونمى الخبر إلى الناصر، فاستكشف الأمر، حتى وقف على الجَلِيَّة منه، وقبض عليهم جميعاً، وقتلهم سنة ٣٣٩هـــ (ذكرها سنة ثلاث وتسعين تحريفاً). وفى النجوم ٣٤٦/٣ (أحداث ٣٣٩هـــ): خاف الناصر خروجه عليه، فقتله.

(٦) كان يكره التقليد الفقهى، ويميل لآراء الشافعى واجتهاداته، وعُيِّن فى الشورى. فلما رأى الشورى دائرة على فقه المالكية، ترك مكانه فيها (تاريخ الإسلام ٥٤/٢٥).

(٧) سمع بقرطبة من قاسم بن أصبغ وغيره، ورحل إلى المشرق، فسمع بمكة ومصر على أبى جعفر النحاس، وحمل عنه رواية كتاب سيبويه. كان جيد النظر، دقيق الاستنباط، حاذقاً بالقياس. أدَّب المغيرة بن الناصر، وخدم المستنصر فى مقابلة الدواوين والنظر فيها. (طبقات النحويين واللغويين، للزبيدى صـــ٣١٠-٣١٤، وتاريخ العلماء لابن الفرضى ٧١/٢-٧٢.

(٨) إشبيلى الأصل، قرطبى المولد والدار. عالم بالنحو واللغة، له مؤلفات حسان، منها: (تصاريف الأفعال)، و(المقصور والممدود). كان عظيم القدر لدى أبى على القالى، الذى استوطن الأندلس. (تاريخ العلماء ٧٨/٢-٧٩، والبغية ١١٢، ووفيات الأعيان ٣٦٨/٤-٣٧١).

٣-أبو بكر محمد بن الحسن الزُّبَيْدى الأندلسى (ت ٣٧٩هـ)[١].

٤-أحمد بن أبان بن سيّد اللغوى (ت ٣٨٢هـ)[٢].

٥- حسين بن وليد بن نصر القرطبى، المعروف بـ (ابن العَريف)، المتوفى سنة ٣٩٠هـ[٣].

سادساً – الأدب: فى ظل الرقى السياسى الذى تمثل فى تحول الأندلس إلى خلافة، وفى ظل الحياة الاجتماعية العامرة بالخصب والرخاء، والنهضة الثقافية المزدهرة، واكب الأدب نموه وارتقاءه، فظهر عدد من الشعراء والكتّاب، الذين أثروا الحياة الأدبية بالأندلس، وصوروا جوانب الحياة، ومدحوا الحكام، ووصفوا معاركهم وغزواتهم. **ومن أبرز هؤلاء:**

١- الشاعر أحمد بن محمد بن عبد ربه (٢٤٦-٣٢٨هـ)[٤].

٢- الشاعر أبو عمر يوسف بن هارون الكندى ، المعروف بـ (الرَّمادى)[٥].

٣- الكاتب البليغ (عبد الملك بن إدريس الجَزيرىّ)[٦] .

٤- الشاعر أحمد بن محمد بن دَرَّاج القَسْطَلِّى (ت ٤٢٠هـ)[٧].

٥- الكاتب أبو حفص أحمد بن بُرْد[٨].

---

(١) إشبيلى، نـزيل قرطبة، واحد عصره فى النحو واللغة. من مؤلفاته: (مختصر كتاب العين)، و (طبقات النحويين واللغويين)، ولحن العامة، والواضح فى العربية. أدّبَ هشام بن الحكم، وتولى قضاء إشبيلية. (تاريخ العلماء لابن الفرضى ٩٢/٢، ووفيات الأعيان ٣٧٢/٤-٣٧٤).

(٢) كان يلى منصب صاحب الشرطة بقرطبة أيام المستنصر، وفى الوقت نفسه كان عالماً لغوياً، حدث بالكامل للمبرد، وبالنوادر لأبى على القالى، ألّفَ فى اللغة كتاب (العالم) فى مائة مجلد، وله (العالم والمتعلم) فى النحو، وشرح كتاب الكسائى. (الجذوة ٦٤١/٢، والصلة ١٤/١، والبغية ٥٣٨، وإنباه الرواه ٣٠/١-٣١).

(٣) نحوى عالم بالعربية. أخذ عنه ابن القوطية بقرطبة. رحل إلى المشرق، وأقام أعواماً فى مصر. عاد إلى الأندلس، فاستأدبه المنصور لبنيه، وقربه من صحبته. (تاريخ ابن الفرضى ١٣٤/١-١٣٥).

(٤) أحد شعراء الأندلس الكبار، وصحب الناصر، ومدحه بأشعار كثيرة، وتَغَنَّى بصفاته، وأرّخ بالشعر غزواته من سنة ٣٠٠ إلى ٣٢٢هـ، (العقد الفريد ٣/٥/٢٦٠-٢٨٨، والمقتبس ٤١/٥-٤٢، والبداية والنهاية ٢٠٦/١١، والنجوم ٣٠٦/٣-٣٠٧، والأدب الأندلسى د.هيكل ١٩٩ وما بعدها).

(٥) يُظن أنه ينسب إلى رَمَادة (موضع بالمغرب)،ينتسب إليه أحد آبائه.وهو شاعر قرطبى سريع القول،مشهور لدى العامة والخاصة.نُسب إليه شعر فى ذم المستنصر فحبسه. عمل بالسجن كتاب (الطير) فى أجزاء،كله من الشعر (فى وصف كل طائر معروف، وذكر خواصه)،وذَيَّل كل قطعة شعر فيه بمدح ولى العهد هشام؛ليشفع له.ويبدو أنه أطلقه. وكان بعد ذلك من مُدّاح المنصور.توفى ٤٠٣هـ (الجذوة) ٥٨٩/٢-٥٩٣، ووفيات الأعيان ٢٢٥/٧-٢٢٩، والمغرب (قسم الأندلس) ٣٩٢/١، والأدب الأندلسى ٢٨٣-٢٨٨.

(٦) كان أحد بلغاء الأندلس، وكان كاتب المنصور، ثم سجنه وعفا عنه بعد ذلك. كتب لابنه المظفر بعده، لكنه اتهم بالتآمر مع طرفة الفتى، وقتل فى السجن ٣٩٨هـ. (المغرب – قسم الأندلس – ٣٢١/١-٣٢٢، والبيان ٢٦/٣).

(٧) شاعر موهوب، له أشعار كثيرة، لازم المنصور فى خرجاته وغزواته، ومدحه وتَملَّقه؛ ليسلم من الأذى. ومدح وهنّأ المظفر بعده. توفى ٤٢٠هـ (راجع أخباره وأشعاره فى: ديوانه صـ٨-٩، ١٢-١٥، ٣٧٣-٣٧٧، ٣٨٠-٣٨١، والجذوة ١٧٧/١-١٨١، والبغية ١٥٨-١٦١، والصلة ٤٤/١).

(٨) كاتب مقدم فى الدولة العامرية وبعدها. ولاه المظفر ديوان الإنشاء بعد مقتل أبى مروان عبد الملك بن إدريس –

سابعاً وأخيراً – التاريخ: شهد القرن الرابع الهجرى طفرة فى حركة التأريخ فى الأندلس، واستقلّتْ تلك البلاد فى ذلك العلم عن مدرسة مصر، وبدت شخصية المؤرخين الأندلسيين واضحة فيما تركوه لنا من مؤلفات.

ومن هؤلاء المؤرخين: ابن جُلْجُل فى (طبقات الأطباء)، وتوفى حوالى سنة ٣٧٧هـ والزبيدى فى كتابه: (طبقات النحويين واللغويين)، وأبدع ابن الفرضى (ت ٤٠٣هـ) فى كتابه الموسوم بـ (تاريخ علماء الأندلس). وفى مجال الحضارة والنظم ترجم الخُشَنىُّ (ت ٣٦١هـ) لبعض كبار قضاة قرطبة فى كتابه: (قضاة قرطبة)، وأورد فيه معلومات قَيِّمة عن نظم القضاء، وملامح الحياة الاجتماعية آنذاك. وسرد لنا اللغوى والمؤرخ المشهور أبو بكر بن القوطية (ت ٣٦٧هـ) ما تيسر له من تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى نهاية إمارة الأمير عبد الله فى كتابه: (تاريخ افتتاح الأندلس).

ملاحظات عامة على الأوضاع الثقافية فى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى:

أولاً – من حيث الظروف والعوامل المؤثرة فى تلك الأوضاع:

أما عن مصر، ففى ظل الاستقرار السياسى والرواج الاقتصادى، والهدوء الاجتماعى فى العصر الإخشيدى، نمت الثقافة وازدهرت فى ظل حكم الإخشيد وكافور من بعده، بفضل رعايتهما للعلم والعلماء، وتشجيعهما لهم، فظهرت ثمار ذلك على هيئة كتب ومؤلفات فى أكثر من فرع من فروع المعرفة[1]. ويكفى أن نشير إلى أن أعظم مؤرخى مصر فى القرن الرابع الهجرى، تُنسب أعمالهم ومؤلفاتهم إلى ذلك العصر[2]. ويجئ العبيديون إلى مصر، وتستجد ظروف لا عهد للناس بها. فالعبيديون أتوا ينشرون فكرهم الشيعى، وحاولوا بدهاء وتدرج نشر مذهبهم الإسماعيلى فى ربوع مصر، وبين مختلف طبقات شعبها[3]، وتصاعدت طريقتهم فى

= الجزيرى، وهو كاتب رسالة المظفر حين قتل صهره الوزير (عيسى بن سعيد القطاع)، وكاتب ولاية عهد عبد الرحمن بن المنصور. توفى ٤١٨هـ (الجذوة ١/١٨٨، والذخيرة ق١ جـ١ صـ١٠٣-١٠٨، والصلة ١/٤٢، والمغرب (قسم الأندلس) ١/٢٠٤-٢٠٦).

(١) منها: الطب. ففى عهد الإخشيد كان للطبيب النصرانى (نسطاس بن جريج) كتب فى الطب، منها: (رسالة إلى يزيد بن رومان النصرانى الأندلسى فى البول). (طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ٥٤٤). وفى عهد كافور وضع الطبيب (البالسى) كتاباً سمّاه (التكميل فى الأدوية المفردة) ألّفه لكافور الإخشيدى (السابق ٥٤٥).

(٢) وهم: ابن يونس الصدفى (ت ٣٤٧هـ)، والكندى، وابنه عمر، الذى كتب (فضائل مصر) بناء على أمر كافور له بجمعه (كتاب فضائل مصر صـ١٩)، وابن زولاق (ت ٣٨٧هـ) فى (سيرة الإخشيد)، التى كتبها بناء على طلب أبى الحسن على بن الإخشيد سنة ٣٥٠هـ (وكان كافور وصياً عليه). (المغرب – قسم مصر – ١٤٩).

(٣) تراجع توجيهات المعز لدعاته ولأوليائه فى: (المجالس والمسايرات) صـ١٣٧، ٣٠٣-٣٠٦، ٣١٢-٣١٣، ٤٢٠). وتراجع الخطوات العملية لجذب الأنصار فى: (الخطط ١/٣٩١-٣٩٨، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم حسن صـ٣٣٨، وبعدها).

فـرض مـبادئهم وآرائهم على الناس فى بعض الفترات، فاتخذوا من القسوة واستخدام الشدة وسـيلة لـذلك[١]. وقد ساعدهم على بعض النجاح الظاهرى حكامهم، الذين كانوا يتصفون بالذكاء والعلم والثقافة[٢]، وإذعانُ شعب مصر لهم؛ خوفاً من بطشهم وجبروهم[٣]. وعلى كل، فإنـنا لا ننكر – رغم الاختلاف العقدى – وجود نهضة ثقافية فى عصر العبيديين، شجع على إحـداثها سعة أفق بعض حكامهم، ورعايتهم للعلم وللعلماء[٤]، ووجود وزراء على درجة من الوعى والعلم والثقافة[٥]، إلى جانب الانفراجة فى حرية الفكر والبحث، التى أحدثها قرار إنشاء الحاكم دار الحكمة، ومكتبتها الملحقة بها المسماة بـ (دار العلم) سنة ٣٩٥هـ[٦].

وقد انعكست تلك الأوضاع على علماء أهل السنة، فداراهم البعض واستغل هامش الحرية الـذى أتاحه الحاكم، إلا أن انقلابه السريع سنة ٣٩٩هـ أوْدَى بحياة بعض علماء أهل السنّة، وأدى إلى اسـتتار الـبعض الآخـر[٧]. وبالنسبة للمؤرخين فقد جاراهم ابن زولاق؛ إيماناً منه بمعتقداهم، وسَطَّر بقلمه سِيَرَ بعض حكامهم وقادهم البارزين[٨].

أمـا الأندلس، فقد شهدت نهضة علمية مزدهرة فى ذلك القرن الذهبى. لقد حرص الخليفة الناصر – رغم انشغاله فى غزواته بالداخل والخارج – على استقدام العلماء النابهين من المشرق،

(١) من نماذج ذلك: منع العزيز صلاة التراويح من مصر كلها سنة ٣٧٢هـ (الخطط ٢/٣٤١)، وضُرب رجل، وطيف به المدينة؛ لوجود موطأ مالك عنده سنة ٣٨١هـ (اتعاظ الحنفا–ط.المجلس–١/٢٧٣،والخطط ٢/٣٤١). ومزيد من الأمثلة فى: (المصدر السابق ٢/٤٩، ٥٤، ٨٠).

(٢) راجع دلائل ذلك فى: (المجالس والمسايرات ٥٣٣، ومعجم الأدباء ١٨/١٦-١٧، ووفيات الأعيان ٣/٣١٩، والوافى ٢/١٩٤، واتعاظ الحنفا ١/٢٧٨، والخطط ١/٤٠٢، ٤٠٨).

(٣) وهذا يفسر تزاحم الناس للدخول فى الدعوة،وحضور مجالسها فى القصر،حتى مات بعضهم من الزحام،مع حضور النساء والغرباء كذلك. (الخطط١/٣٩٠،واتعاظ الحنفا ٢/٥٤).

(٤) مثل: مؤلفات الطب التى وضعها بعض الأطباء للمعز، وما أُلِّف فى عهد العزيز (طبقات الأطباء صـ٥٤٥-٥٤٦).

(٥) مثل: ابن كلس (ت ٣٨٠هـ)، وأبى الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن حِنْزَابَة (ت ٣٩١هـ). راجع جهودهما لخدمة العلم ورعاية العلماء فى: (طبقات ابن أبى أصيبعة ٣٣٢-٣٣٣، ووفيات الأعيان ١/٣٤٧، والسير ١٦/٤٨٥).

(٦) راجع مهمتها المنشأة لأجلها فى: (النجوم الزاهرة فى حُلَى حضرة القاهرة) لابن سعيد ٦٠، وصبح الأعشى ٣/٣٦٢، واتعاظ الحنفا ٢/٥٦، والخطط ٢/٣٤٢، وتاريخ الدولة الفاطمية، للدكتور حسن إبراهيم ٤٣٥، والتربية الإسلامية، ريبيرا (مترجم) صـ٢٦٢-٢٦٣، وموسوعة التاريخ الإسلامى، د.شلبى ٥/١٣٦-١٣٧، وماجستير (الحياة العلمية بمصر فى عهد العبيديين الأول) صـ١١٣.

(٧) أمر الحاكم بقتل (جُنادَة بن محمد الهَرَوىّ اللغوى النحوى)، ومعه المقرئ (الحسن بن سليمان الأنطاكى النحوى)، بينما استتر المحدث عبد الغنى بن سعيد. وكان سبب القتل اجتماعهم فى دار العلم، وجلوسهم فيها. (وفيات الأعيان ٣/٢٢٣-٢٢٤، واتعاظ الحنفا ٢/٨٠). بينما ذكر ياقوت أن الحاكم قتل الهروى؛ لاتهامه بأنه شؤم على النيل، ذلك أنه كان يجرى دروسه النحوية فى جامع المقياس، فظن أنه سبب انخفاض النيل (معجم الأدباء ٧/٢٠٩-٢١٠).

(٨) مثل:سيرة المعز، وجوهر. وسوف ندرس مؤلفاته تلك فيما بعد، إن شاء الله.

وحسن الاستفادة منهم(١). وقد أنعم الله على بلاد الأندلس بالحكم المستنصر العالم المثقف، سواء فى فترة ولايته للعهد، أم فى فترة توليه الخلافة(٢)، فأولى العلم والعلماء كل عنايته، وسلك فى سبيل النهوض بالثقافة فى الأندلس طرقاً عديدة، منها: استقدام العلماء المتفوقين من أقاليم الأندلس الأخرى إلى العاصمة قرطبة؛ للاستزادة من علومهم(٣)، وتوجيهه الدعوة وبذل كل المغريات لاستجلاب العلماء من المشرق(٤)، وتوجيه علماء الأندلس للتأليف فى موضوعات معينة، يثرى بها المكتبة الأندلسية(٥)، بل عرفت الأندلس - بحسن توجيهه - التأليف العلمى المشترك فى مجال الفقه المالكى(٦). وكذلك حرص المستنصر على إقامة علاقات وطيدة بالورّاقين، يجلبون له من المشرق كل كتاب قيم جديد، ويبذل فى سبيل ذلك الأموال(٧)، فتكونت له مكتبة ضخمة من جرّاء ذلك كله(٨).

وفى عهد المنصور بن أبى عامر كان له اهتمامه بالعلم والعلماء، وكان له مجلس أسبوعى، يستقدم فيه العلماء من كل فن وعلم، يتناظرون ويتناقشون فى حضوره، إبان وجوده فى قرطبة(٩). وكان للمنصور موقف عدائى من كتب الفلسفة، أمر فيه بجمع كتبها من مكتبة المستنصر بعد وفاته، وأمر بإحراقها فى محضر الفقهاء؛ تحبباً للعوامّ، وتقبيحاً لرأى المستنصر عندهم(١٠). وقد اهتم المنصور بالعالم

---

(١) مثل: أبى على القالى البغدادى الأصل، الذى دخل الأندلس سنة ٣٣٠هـ، وظل بها، وعاصر المستنصر بعد وفاة أبيه الناصر. توفى القالى سنة ٣٥٦هـ (أخباره فى: البغية صـ٢٣١-٢٣٤، والنفح ٣/٧٠-٧٥).

(٢) حول ثقافة المستنصر، وسعة اطلاعه، ومؤلفاته (يراجع: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس، لابن الفرضى ١/ ١٢٠، ١٥١، ١٤٠، ٢/٣٨، ١٣٣، ١٤٧، ١٩٥، وطبقات الأمم ٥٩، والنفح ٣/٦٠).

(٣) تاريخ العلماء والرواة لابن الفرضى ١/١٧٧.

(٤) أحسن المستنصر من قبل إلى أبى على القالى. ويذكر الذهبى أنه أحسن استقبال الفقيه أبى الطيب محمد بن أحمد ابن إبراهيم البغدادى الشافعى، وإن كان المنصور أخرجه بعد ذلك سنة ٣٧٣هـ؛ لاتهامه بالاعتزال (تاريخ الإسلام ٢٦/٥٤٦-٥٤٧).

(٥) تاريخ العلماء والرواة، لابن الفرضى ١/٨٩، ١٥٦، والجذوة ١/١٦٩، والبغية ١٥٩، والمغرب (قسم الأندلس) ١/ ١٦، والنفح ٣/١٧٣.

(٦) ترتيب المدارك ٢/٤/٦٣٤-٦٣٥، والصلة ١/٢٨. وذكرت روايات أخرى أن هذا المؤلف كان بأمر المنصور (ترتيب المدارك ٢/٦٣٥-٦٣٦، والبغية ٥٢٩). والأول - عندى - أرجح؛ لاهتمام المستنصر بالعلم جدًّا، بينما كان الغزو شغل المنصور الشاغل.

(٧) ترتيب المدارك ٢/٤/٥٧٣، ومعجم الأدباء ١٣/١٠٠، والحلة السيراء ١/٢٠١-٢٠٢. وتكملة الصلة (ط.الحسينى) ١/٣٤٧، ووفيات الأعيان ٣/٣٠٨.

(٨) خاصة بعد أن ضم إليها مكتبة أخيه عبد الله بعد قتله. (ترتيب المدارك ٢/٤/٦٣٨، والحلة السيراء ١/٢٠١، ٢٠٣، وتكملة الصلة (ط.الحسينى) ١/٣٤٧).

(٩) جذوة المقتبس ١/١٣١، والمعجب ٣٨.

(١٠) طبقات الأمم ٦٦-٦٧، والبيان ٢/٢٩٢-٢٩٣، وتاريخ الإسلام ٢٧/٢٩١، والنفح ١/٢٢١.

السبغدادى (صاعد بن الحسن)، وأكرم نزله، وأحسن استقباله، وأحدث بالأندلس رواجاً علمياً كبيراً، ومناقشات حامية مع علمائها[١].

علـى الـرغم من العداء السياسى بين العبيديين فى مصر والأمويين بالأندلس إلا أن الصلات الثقافية بين البلدين لم تنقطع لا قبل العبيديين ولا فى عصرهم؛ مما يدل على عمق الصلات بين شعوب المشرق والمغرب[٢]. وتفيد النصوص الموجودة فى كتب التراجم وغيرها وجود رحلات لمحدِّثين[٣]، ومؤرخين[٤]، ولغويين[٥]، وفقهاء[٦] أندلسيين إلى مصر. ولم أعثر علـى ما يفيد وجود علماء مصريين بالأندلس؛ مما يدل على أن مصر كانت لا تزال كعبة القُصَّاد،وموئل طلاب العلم، بينما كانت تستكمل الأندلس أدوات الاستقلال العلمى، الذى تحقق – بالفعل – فى مجال التاريخ، كما سنرى بعد ذلك.

ثانياً – من حيث الظواهر الثقافية فى ذلك العصر:

فى الوقت الذى كانت مصر فيه قبلة طلاب العلم الأندلسيين فى رحلاتهم إلى المشرق، وعند أداء فريضة الحج، استمرت بلاد الأندلس تنظر إلى المشرق على أنه المثل الأعلى الذى يُحْـتَذَى فى مخـتلف العلـوم. وفى الوقت الذى لم تُقْبَل فيه العلوم العقلية والفلسفية فى الأندلس، كانت مصر تفتح ذراعيها لمختلف التيارات الفكرية[٧].

وفى الـوقت الـذى كانـت الثقافة الدينية الفقهية المالكية بالذات هى محور اهتمام الأندلسـيين، وكان أتباع المذهبيْن الشافعى، والظاهرى محدودين، ولم يجد المذهب الحنفى رواجـاً هـناك[٨]، كانت مصر أرحب أفقاً، فاحتضنت كافة المذاهب الفقهية، بل واجه علماؤها المذهب الشيعى الإسماعيلى؛ بدليل عدم اندثار السنَّة.

(١) أخباره فى:الجذوة ١/٣٧٣-٣٧٩، والصلة ١/٢٣٢-٢٣٣، والبغية ٣١٩-٣٢٣، وتكملة الصلة (ط.مدريد) صـ٢٨٤،ووفيات الأعيان ٢/٤٨٨-٤٨٩،والنفح ٣/٧٥-٩٨.

(٢) العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى، الدوميللى (مترجم) صـ٣٣٧-٣٣٨.

(٣) راجع أخبار رحلة (خلف بن قاسم بن سهل – ويقال: سهلون – بن محمد الدبَّاغ القرطبى (ت ٣٩٣هـ) إلى مصر فى: الجذوة ١/٣٢٦-٣٢٩، وبغية الطلب ٧/٣٣٤٦-٣٣٤٧، وتاريخ الإسلام ٢٨/٢٨٥، والديباج ١/٣٥٥. وذكرها د.محمد عيسى الحريرى فى بحث: (دراسة عن بعض علماء الأندلس فى مصر) فى مجلة (ندوة التاريخ) مجلد ٢/ ١٩٨٢م صـ٢١٢-٢١٣، لكنه ذكر أن اسمه (سهلون بن محمد)،وهو غير صحيح.

(٤) راجع نماذج ذلك فى: تكملة الصلة: (ط.الحسينى): ١/١٣-١٤، ٢٠٦.

(٥) تاريخ الإسلام ٢٧/١٩٧-١٩٨، وتذكرة الحفاظ جـ٣ من مج٢ صـ٨٦٩-٨٧٠.

(٦) ترتيب المدارك مج٢ جـ٣ صـ٣٠٠، والنفح ٢/٦٣٣.

(٧) ومنها: المعتزلة؛ بدليل وجود (سيبويه المصرى المعتزلى) ت ٣٥٨هـ، الذى سندرس سيرته، إن شاء الله.

(٨) تاريخ الفكر الأندلسى، بالنثيا (مترجم) صـ٤٣٩-٤٤١، و (فى تاريخ المغرب والأندلس) صـ١٢١-١٢٤، والتربية الإسلامية فى المغرب د.محمد عادل عبد العزيز صـ٩١-٩٢، وظهر الإسلام ٣/٢٩-٣٠، و (ابن حزم وجهوده فى البحث التاريخى والحضارى) صـ٨٥-٨٧، ٨٩.

ثالثاً، وأخيراً – دور المجتمع ونصيبه من الحركة الثقافية:

من المعلوم أن المجتمع يتأثر بالوضع الثقافى بعد أن يسهم فى تشكيله وتكوينه والتأثير فيه[١]. فالثقافة تأخــذ مــن المجــتمع وتعطيه. فعناصر المجتمع وأفراده يشتركون فى صياغة ثقافته ونهضته الفكرية، ثم تنعكس هذه النهضة ثانية على أفراد هذا المجتمع وعقول أبنائه وسلوكياتهم.

والحق أن الحكام الواعين المثقفين والعلماء النابهين، هم الذين حملوا لواء النهضة العلمية فى مصـــر والأنـــدلس فى تلك الفترة، لكن حكام الأندلس كانوا أعظم دوراً وأكبر أثراً، والتفاف العلمـــاء والشعب حولهم كان عظيماً؛ نتيجة الالتحام والاتفاق الفكرى والمذهبى بينهم، بينما كانت الفجوة واقعة فى مصر، ولم يكن الالتفاف والتوحد قائماً.

ولولا جهود علماء أهل السنة والتفاف بعض الناس حولهم، لانهارت تلك العلوم تحت تأثير ضـــغوط العبـــيديين، وما وجدنا المساجد عامرة بالمصلين، والمتلقين للعلوم[٢]. وحَظِيَ الفقهاء والمؤرخـــون وغيرهم من أهل العلم بمكانة أسمى فى الأندلس لدى الخلفاء وعَوامِّ الناس[٣] بدرجة لم تَرْقَ إليها مكانة الفقهاء وعلماء السنة فى مصر، خاصة العصر العبيدى.

كان انعكاس النهضة الثقافية على الشعب الأندلسى الطموح الجاد العامل ذى العقل المتفتح الواعـــى[٤] أكثر وضوحاً وبروزاً عنه فى مصر. لقد اهتم خلفاء بني أمية بنشر الفقه المالكى بين الـــناس حـــتى فى أســـواقهم[٥]، وأدى الفقهـــاء دورهـــم كاملاً، حتى إنهم كانوا يقرئونه فى حوانيـــتهم[٦]، ناهيك عن مجالس العلم فى المساجد العامرة هنا وهناك. وتلك ظاهرة لم نلمسها بهـــذه الدرجـــة فى مصر، وانعكست الثقافة وحب العلم على عوام الناس فى الأندلس، فألفينا ظاهـــرة (المـــؤدِّبين) شائعة فى الأندلس فى كافة طبقات المجتمع على مستوى الأمراء والعوام فى

(١) فمثلاً: أثَّر حب المصريين للتنزه، والخروج إلى الرياض، وحب الطبيعة والنيل، أثَّر فى موضوعات (الأدب)، وهو مُكَوِّن من مكونات الثقافة،فكثر شعر وصف الطبيعة فى مصر. (شعر الطبيعة فى الأدب المصرى)، لعوض الغبارى صـــ١١، ٣٢.

(٢) أحسن التقاسيم، للمقدسى صـــ١٦٨-١٦٩، ١٧٤.

(٣) ترتيب المدارك ٢/٤/٤٢٤-٤٢٩، والنفح ١/٣٧٧-٣٧٩.

(٤) حول صفات الأندلسيين وعقليتهم وحبهم العلم،والرد على ابن حوقل وما أثاره عن ضعف عقولهم فى (صورة الأرض صـــ١٠٤-١٠٥)،راجع: إنباه الرواه ٣/٣٦٢-٣٦٣،والنفح ١/٢١٢، ٢٢٠-٢٢١، ٣/١٥٠-١٥٢، ١٥٤-١٥٥، و (شيوخ العصر)، د.مؤنس صـــ٦١، وبحث عنان: (جغرافية الأندلس)صـــ٤٧ (مجلة الأبحاث المغربية) ١٩٥٩م.

(٥) راجع دور مفتى السوق وأهميته، ونماذج ذلك فى: تاريخ العلماء لابن الفرضى ١/٣٥٦، ٢/٤٩، والقضاء والقضاة بالأندلس د.السيد محمد داود صـــ١٧٠.

(٦) كان الفقيه (إسحاق بن إبراهيم الطُّلَيْطِلِيّ) يقرئ الفقه فى حانوت أحد الفقهاء بسوق الكتاب بقرطبة (تاريخ الإسلام) ٢٦/٦٩ (وفيات ٣٥٢هـــ).

آن[١]. وانتقل حرص اقتناء الكتب، والشغف بتكوين المكتبات من الحكام إلى العلماء وطـلاب العلـم، وطبقات الشعب: أغنيائهم ومتواضعيهم، فشـاع العلم فى المجتمع ككل[٢]، وهو ما لم نلمسـه فى مصـر، بل لمسنا ضده من الجهل والغباء، راح ضحيتهما العلماء[٣]. ولم يكن العلم حكـراً علـى الرجال، بل شاركت فيه فُضْلَيات النساء فى الأندلس[٤]، بينما لمسنا مثالاً نادراً لإسـهام المرأة العلمى فى العصر الإخشيدى[٥]، وافتقدناه تماماً في العصر العبيدي، بعدما فرض علـى المـرأة من قيود وأغلال[٦]. وبعدُ، فها نحن قد عرضنا للنواحى السياسية، والاقتصادية، والاجتماعـية، والثقافـية فى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى، وتبين لنا: أن الاستقرار السياسى يُفضى إلى نمو اقتصادى، وأن رخاء الشعوب أساس لاستقرار الحكم[٧]، وأن الاستبداد السياسـى يـؤدى إلى الـتحلل الاجتماعى والمفاسد والنفاق فى المجتمع[٨]، وأن اللهو والترف والسَّـرَف يـؤدى إلى مفاسـد خلقية واجتماعية خطيرة، وأن عناية الحكام بالعلم، ونشاط وإخـلاص العلمـاء فى توصيله إلى الناس يُحبِّب العلم إلى الشعب، وأن الثقافة تتأثر بالأوضاع القائمة، وتؤثر فى جموع الناس.

ونتسـاءل أيـن يقف مؤرخو البلديْن من هذه الظروف التى عرضناها، وما مدى تأثيرها فـيهم، وفى مؤلفاتهم ؟ وما مدى اضطلاعهم بمسئولياتهم تجاه مجتمعهم والأجيال من بعدهم ؟ ذلك ما نجيب عنه – تفصيلاً – فى أبواب الكتاب التالية، والتى تبدأ بـ (كتب السِّيَر التاريخية)، أقدم اتجاهات التأليف التاريخى فى ذلك القرن، وأقربها تعبيراً عن علاقة الشعب بحكامه، وقادته، وعلمائه.

(١) المقتبس (ط.الحجى) صـ٢١٦، وتكملة الصلة (ط.الحسينى) ٢٠٥/١، وشمس العرب تسطع على الغرب، سيجريد هونكه (مترجم) صـ٣٩٣-٣٩٤.

(٢) التربية الإسلامية، ريبيرا (ترجمة: د.الطاهر مكى) صـ٢١٠-٢١٢، وبحث (مكتبة الأمويين الإسلامية فى قرطبة) د.زغروت صـ٣٣٥ وبعدها (مجلة البحوث الإسلامية بالرياض) ١٤٠٦هـ/١٤٠٧هـ.

(٣) تسبب جهل بعض عوام مصر فى غرق أبى جعفر النَّحّاس اللغوى المشهور،إذ رآه أحد العوام يُقطِّع أبياتاً من الشعر عروضياً عند شاطئ النيل،فظنه يسحره؛ لتخفيض مياهه، فقذفه فى النيل. (وفيات الأعيان ١٠٠/١، والبداية والنهاية ٢٣٦/١١، والمقفى ٧١٥/١).

(٤) تراجم هؤلاء النسوة الكاتبات النحويات الشواعر فى: البغية ٥٤٦-٥٤٧،وتكملة الصلة (ط.مدريد) صـ٤٠٢-٤٠٤، والتربية الإسلامية، ريبيرا (مترجم) صـ٢٠٣-٢٠٥.

(٥) وهي فاطمة بنت الربان المستملي، التي كانت تروى في دارها حديثاً للرسول روته عن الربيع المرادى صاحب الشافعي في مصر، شهر شوال ٣٤٢هـ. (الاستذكار ٢٣٤/١).

(٦) وذلك بمنعها من الخروج فى عهد الحاكم .

(٧) معالم تاريخ المغرب والأندلس : صـ ٢٨٤ .

(٨) راجع مظاهر التحلل الاجتماعى ، وفساد الناس ، وشيوع الحقد والحسد والنفاق فى عهد العامريين ، فى: (المعجب صـ ٣٨-٣٩ ، والأدب الأندلسى د.هيكل صـ٢٦٨ ، وبعدها) .

القسم الثانى

الدراسة المنهجية للمصادر التاريخية

الباب الأول

مؤرخو السِّيَر التاريخية

يشمل هذا الباب الفصول الآتية:

الفصل الأول - المؤرخان المصريان: ابن الداية، والبلوى.

الفصل الثانى - سيرة أحمد بن طولون: نقد، وتحليل.

الفصل الثالث - ابن زولاق مؤرخ سيرة الإخشيد، وصاحب (أخبار سيبويه المصرى).

الفصل الرابع والأخير- من السير التاريخية المفقودة.

ملاحظات عامة (خاتمة): بين مؤرخى السير المصريين، والأندلسيين.

مدخل

إذا كان هذا الكتاب يتناول الكتابات التاريخية المحلية[1] فى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى؛ فإن هذه الكتابات اتخذت عدة ألوان، وارتضى أصحابها من المؤرخين مناهج شتى فى التأليف التاريخى.

وقد اختص هذا الباب بدراسة الاتجاه الأول من اتجاهات التأريخ فى هذا القرن، ألا وهو (كتابة السِّيَر التاريخية). وهذا الاتجاه - فى نظرى - يعد أقدم ألوان التأليف التاريخى فى هذا القرن[2]، وهو مرتبط بدافع الإعجاب، الذى يتملك بعض المؤرخين بسير ومناقب بعض الحكام، فيسطرون بأقلامهم مراحل حياتهم، وأهم منجزاتهم. ولا شك أن فى ذكر السير والتواريخ فوائد كثيرة، أهمها: أنه إذا ذُكرتْ سيرة حازم، ووُصفت عاقبة أمره، علمنا بما فيها، وتعلمنا حسن التدبير، واستعمال الحزم فى الأمور. وإن ذُكرت سيرة مفرّط، ورأينا سوء منقلبه، اعتبرنا بحاله، فتأدب المتسلطون، واعتبر المتذكرون. وكذلك تطالعنا كتب السير والتواريخ بعجائب الأمور، وتقلبات الزمن، وتصاريف القدر، فيحتاط الإنسان لنفسه ويكون على حذر[3].

هذا، وقد رأيت بعد البحث والتحرى - أن مؤرخى مصر قد بهرتهم شخصية (أحمد بن طولون)، فدَوَّنوا سيرته، وذلك فيما كتبه كل من: ابن الداية، والبَلَوىّ، على اختلاف بينهما إيجازاً وتفصيلاً. وقد انتقيت لدراستهما منهجاً غير تقليدى يتوافق مع توحد الموضوع، الذى

(١) يرجع ظهور هذه النوعية من الكتابات التاريخية إلى ظهور الروح الاستقلالية وتناميها، ومحاولة جعل الصلة بالخلافة مقصورة على الناحية الشكلية والسلطة الروحية فحسب. ومن هنا ظهرت فى مصر (الدولة الطولونية)، و(الدولة الإخشيدية)؛ استغلالاً لضعف الخلافة، ورغبة فى تحقيق أقصى درجات الاستفادة من خيرات مصر وثرواتها، ومن هنا ظهر مؤرخون مصريون اهتموا ببلدهم، وسجلوا تاريخه من مختلف نواحيه: (سير حكامه، وتراجم علمائه، ونظمه وحضارته، وأبرز أحداثه). والشئ نفسه - وأكثر منه - وقع فى بلاد الأندلس، التى قامت فيها إمارة تحولت إلى خلافة أموية مستقلة كل الاستقلال عن العباسيين فى المشرق. (راجع عوامل ظهور التواريخ المحلية فى: علم التاريخ عند المسلمين، لروزنتال (مترجم، ط.مؤسسة الرسالة) صـ٢٠٦ وبعدها، والتاريخ العربى والمؤرخين جـ١ صـ٣٤٨ - ٣٤٩، ٣٥٥ - ٣٥٦، ٣٥٩ - ٣٦٠).

(٢) حول تطور هذا اللون منذ كتابة سيرة الرسول ﷺ، وتنوع موضوعاته، راجع: كتابى(التاريخ العربى والمؤرخين ٣٦٥/١، ٣٦٧، وبحوث فى الأدب العباسى، د.شعبان مرسى صـ٨).

(٣) المنتظم، لابن الجوزى (ط.دار الكتب العلمية)، مقدمة المؤلف ١١٧/١، والإعلان بالتوبيخ للسخاوى (ط.مؤسسة الرسالة، نفس مجلد كتاب روزنتال) صـ٤١٢، والمؤنس صـ٤.

كتب فيه كلاهما. فبدأت بالترجمة لهما، وقمت بدراسة منهجهما معاً فى إطار مقارن، مبيناً قبل ذلـــك محتوى سيرتهما، ناقداً إياهما نقداً خارجياً (بذكر مواردهما)، وآخر داخلياً (بوضع بعض الأحداث فى ميزان النقد التاريخى).

و لم تكن سيرة (ابن طولون) هى الوحيدة، التى لفتت أنظار مؤرخى مصر فى تلك الحقبة، وإنما شـــغلت المؤرخَ ابنَ زُولاق - ضمن ما شغله من سير تاريخية - سيرةُ (الإخشيد)، فكان لزاماً علينا أن نتصدى بالدرس والفحص لهذه السيرة على النحو، الذى اختططناه لأنفسنا وأشرنا إليه قبلاً.

وقد واصل المؤرخ اللامع ابن زولاق اهتمامه بكتابة السير التاريخية، فسجّل لنا سيرة إحدى الأسر عراقية الأصل، ذات المكانة البارزة فى عالم المال والاقتصاد، وإدارة شئون البلاد فى مصر عبر فترات طويلة من تاريخها. وقد فُقدت - للأسف - هذه السيرة (سيرة المادَرائيين)، ونحاول - فى ضوء ما بقى منها فى ثنايا المصادر - إعطاء ملاحظات منهجية عامة عليها.

لم يقـــف اهتمام المؤرخ البارع ابن زولاق المصرى عند حد كتابة (سير الحكام)[(١)]، بل كـــتب - أيضاً - سيرة أحد العلماء المبرِّزين فى عصره فى مجال النحو والكلام، فخلّف لنا عنه كـــتاب: (أخـــبار سيبويه المصرى)، الذى حَظِىَ منا بدراسة، تتناسب مع حجمه، وموضوعه، وطبيعة شخصية صاحبه، وما تثيره تصرفاته من مدلولات عميقة، تفيد فى تعرف حقيقة بعض ما يدور فى ذلك العصر.

وأخيراً، فقد ألقينا بعض الضوء على ما ذكرته بعض المصادر عن أسماء بعض كتب (السير التاريخـــية) بالأندلس، وحاولنا الكشف عن بعض الأسباب، التى أودتْ بهذه الكتب، سواء من حـــيث ظـــروف الفتنة، التى تعرضت لها بلاد الأندلس آخر القرن الرابع الهجرى، أم من حيث طبيعة الشعب الأندلسى المغايرة لطبيعة الشعب المصرى.

* * * *

(١) أكتفى فى هذا المدخل بإشارات سريعة إلى بعض ما يحويه هذا الفصل، وإلا فابن زولاق له فى مجال السير كتب أخرى عديدة مفقودة، توجد بعض بقاياها فى المصادر المتأخرة، مثل: (سيرة المعز لدين الله)، و(سيرة جوهر).

الفصل الأول

المؤرخان المصريان: ابن الداية، والبلوى

أولاً - كتب السير التاريخية فى مصر

تقديم:

قبل الدراسة التحليلية لكتب السير التاريخية، نحاول أن نترجم ترجمة وافية لأول مؤلفى هذا الاتجاه التأريخى: (**أحمد بن يوسف بن الداية**)، بحيث تعيننا هذه الترجمة على تفهم شخصيته، ومعالم حياته، وثقافاته، وأهم المؤثرات التى جعلت منه مؤرخاً مصرياً قديراً، ندين له بمعرفة سيرة مؤسس الدولة الطولونية.

ولما كان أحمد بن يوسف قد نشأ فى ظلال أسرة عربية مثقفة، وجب أن نترجم لهذه الأسرة (خاصة والده يوسف) بالقدر الوافى[1]، الذى يسلط الأضواء على البيئة الثقافية، التى رضع لبانها الكاتب والمؤرخ ابن الداية.

تعريف عام بأسرته:

أولاً - جدته:

كانت أم (يوسف بن إبراهيم) تعمل داية[2] فى قصور خلفاء العباسيين. ويبدو أن طبيعة ذلك العمل لم تكن مقصورة على ما يُفهم منها اليوم (قابلة تقوم بتوليد الحوامل)، بل كان يتعدى ذلك إلى القيام بإرضاع هذا النبت الجديد، كنوع من الترف الذى تعيشه نساء القصور فى ذلك الزمان. وينضاف إلى ذلك القيام على شأن الصغير ورعايته بدنياً ونفسياً وتربوياً، حتى مرحلة سنّية معينة، بعدها يُحضر له الخليفة المؤدبين، الذين يعدونه فكراً وثقافة وخلقاً لمهام الخلافة من بعدُ، خاصة إذا ظهرت عليه مخايل النجابة، وسمات القيادة التى تؤهله لولاية العهد.

---

(١) ولست مبتدعاً فى ذلك،فقد سبقنى الدكتور محمود مكى إلى الإطالة فى الترجمة لـ (حلف بن حسين) والد المؤرخ الأندلسى ابن حيّان عند الترجمة للمؤرخ نفسه؛نظراً لتأثيره الكبير فيه،وكونه من أهم مصادره التاريخية.(مقدمة المحقق لكتاب المقتبس صـ٨- ١٩).

(٢) وفى معاجم اللغة يدور معنى الداية، والظِّئْر حول المرأة التى ترضع ولد غيرها. ويضاف إلى الداية معنى القابلة، والحاضنة. (لسان العرب مادة: (ظ.أ.ر) جـ٤ صـ٢٧٤١- ٢٧٤٢، والقاموس المحيط، باب الراء فصل الظاء ٢ /٧٩، والمعجم الوسيط مادة: (د.و.ى) جـ١ صـ٣١٦، ومادة: (ظ.أ.ر) جـ٢/٥٩٦).

ونحـــن لا ندرى شيئاً عن اسم هذه الجدة، فقد اكتفت المصادر بذكر وظيفتها، ولعلها من الجـــوارى اللائى برعن فى ذلك المجال، وحققن نجاحاً ملحوظاً فيه، حاز إعجاب أهل القصر، فعُهد إليها برعاية الأمير العباسى (إبراهيم بن المهدى)[١].

والظاهر أنها نجحت فى تلك المهمة، فكلّفتها ماردَة[٢] أم محمد بن الرشيد (الخليفة المعتصم بعـــد ذلك) بإرضاع ابنها هذا. وكانت هذه الداية قد رُزقت - غالباً - قبيل مولد الأمير محمد ابـــن الرشيد بابنها يوسف، فأرضعتهما معاً، فلُقّب ابن الداية بـــ (رضيع المعتصم)[٣]. ويترجح لدىّ ولادتها سنة ١٤٧هـــ، ووفاتها ٢٢٤ هـــ[٤].

ثانياً - جده:

ليست لدينا معلومات كافية عن جَدّ (أحمد بن يوسف)، حتى إننا لا نعرف نسبه كاملاً، وكـــل ما نعرفه أن اسمه (إبراهيم). ويبدو أنه كان من موالى بنى العباس؛ فقد ظل ابنه يوسف (والـــد أحمد) يقال له: يوسف مولى إبراهيم بن المهدى[٥]. وقد وردت نصوص تفيد تمتع هذا الجـــد بمكانة طيبة فى ظل رجال الحكم بالخلافة العباسية، فقد حظى بثقة رجال ونساء القصر، فزوَّجوه دايتهم الكفء[٦]. وكان يقيم فى سامرا بالعراق[٧]، وهى مدينة أقامها المعتصم لقواده، وكبار رجال جيشه الأتراك، وجنده. فإقامته فى عاصمة المعتصم دليل على مكانته وعظيم صلته هـــؤلاء القـــادة والأمراء. ويضاف إلى ذلك ما كان يتمتع به من ثراء، حتى إنه كان له طبيب خاص يخدمه، ويقـــوم على علاجه[٨]. هذا، وقد خلت المصادر من ذكر طبيعة عمله، وثقافته، وتاريخ مولده، ووفاته.

---

(١) ولد غرة ذى القعدة سنة ١٦٢هـــ، وتوفى - على الأرجح - ٩ من رمضان ٢٢٤هـــ. (تاريخ بغداد ١٤٣/٦، ووفيات الأعيان ٤١/١).

(٢) هى إحدى جوارى الرشيد، وكان يهواها هوى شديداً؛ إذ كانت أحظى الناس عنده. وتعد من مُوَلّدات الكوفة، وكانت أم ولد الرشيد، وأنجبت له أولاداً عديدين، منهم: المعتصم. (تاريخ الطبرى ١٢٣/٩، والكامل ٧١/٦).

(٣) المكافأة (ط.أحمد أمين) لابن الداية صـــ٢٠٤، ومعجم الأدباء ١٥٩/٥، والوافى ٢٨٢/٨، وكنوز الأجداد صـــ١٢٥، ومقال كرد على فى مجلة الرسالة، العدد ٢١٨ صـــ١٤٥١.

(٤) وهو يتوافق مع تاريخ ميلاد ابن المهدى (١٦٢هـــ) الذى أرضعته، ومع رحيل ابنها يوسف من العراق إلى الشام بعد وفاة ابن المهدى، إذ انقطعت أخبارها تماماً.

(٥) تاريخ الحكماء، للقفطى صـــ١٣٥.

(٦) رسالة ماجستير سيد محمد قطب: (أحمد بن يوسف المصرى، وكتابه: المكافأة) صـــ٣.

(٧) كان أبو مزاحم بن خاقان يسكن فى الحارة التى بها دار إبراهيم، ثم ابنه يوسف من بعده بـــ (سُرّ مَنْ رأى). (المكافأة، ط.أحمد أمين) صـــ١٩٢، و(مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور) ٦٨/٢٨.

(٨) هو الطبيب (سعيد بن توفيل) الذى كان يخدم إبراهيم، وأخاه قبله، وذلك قبل أن ينتقل لخدمة الأمير أحمد بن طولون. (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى صـــ٣١٩.

ثالثاً - والده(*):

هـــو أبو الحسن يوسف بن إبراهيم البغدادى[١] الدمشقى[٢] المصرى[٣]، المعـــروف بـــ (ابن الدايـــة)[٤].

(١) مولده:

سكتت المصادر عن ذكر تاريخ ميلاد يوسف. وقد حاولت استنتاج ذلك التاريخ بالتقريب من خلال ما قيل عن أخوة يوسف للمعتصم من الرضاع. ولما كان المعتصم ولد - على الراجح - آخـــر سنة ١٧٩هـــ[٥]، واجتمع مع يوسف على ثدى واحد، فالطبيعى أن يكون يوسف أســـبق مولداً من المعتصم بقليل. وأعتقد أنه أكبر منه بحوالى شهرين، وهما كافيان لاسترداد أم يوســـف عافيـــتها وصحتها؛ كى تنهض بالعبء الجديد المتمثل فى رعاية شئون الأمير الصغير (محمد بن الرشيد). وعلى هذا، فإنى أرجح ميلاد يوسف آخر شوال سنة ١٧٩هـــ.

(٢) نشأة يوسف وتكوينه:

عـــرفنا - فـــيما مضى - أن أمه كانت من دايات القصور، وكان لها دور بارز خاصة عصر الرشـــيد، وقامت بإرضاع (إبراهيم بن المهدى)، و(محمد بن الرشيد). ولا شك أن يوسف نشأ مع أمـــه فى أجـــواء القصـــور، فكان لذلك أثره فى تنشئته وفكره وعلمه وخلقه، فهو ربيب القصور،

(*) ترجم له: معجم الأدباء ١٥٤/٥، ومختصر تاريخ دمشق، لابن منظور ٦٨/٢٨، والوافى بالوفيات ٢٨٢/٨، وكشف الظنون ٢٥/١، ٣٠، وهدية العارفين، لإسماعيل البغدادى ٥٤٩/٢، ومعجم المؤلفين لكحالة (ط.مؤسسة الرسالة) جـــ٤ صـــ١٣٩- ١٤٠، وريحانة الأدب، لمحمد على مدرس ٥١٤/٧، والأعلام للزركلى ٢١٢/٨، وتاريخ التراث العربى لسزكين ٦٠٣/١، وكنوز الأجداد، لمحمد كرد على صـــ١٢٥.

(١) نسبة إلى بغداد التى يترجح مولده بها، ونشأته فى قصور خلفائها. (معجم الأدباء ١٥٥/٥، ومقدمة محقق (المكافأة) - ط.١٩١٤م - لأمين عبد العزيز، صفحة يد).

(٢) نسبة إلى دمشق، باعتبارها البلد الذى هاجر إليه بعد وفاة مولاه (إبراهيم بن المهدى)، ومولاه (أبى دُلَف العِجْلىّ)، فقدمها سنة ٢٢٥هـــ، كما سنرى بعد ذلك.

(٣) غلبتْ نسبته إلى مصر عليه، وبها عُرِف؛ لأنه لم يطل مقامه بدمشق، إذ سرعان ما رحل إلى مصر، حيث استقر بها فترة طويلة، حتى وفاته، كما سنذكر فيما بعد.

(٤) قال ياقوت: كان يوسف وَلَدَ داية ابن المهدى، وأظن أن المعروف بـــ (ابن الداية) هو يوسف. (معجم الأدباء ٥/ ١٥٤). والحق أن هذا كلام صحيح، لكن لا بأس أن يطلق على ابنه (أحمد) على سبيل التجوز، مع وضع قرينة فى السياق، تبين المقصود منه (الأب، أو الابن).

(٥) اخترت هذا التاريخ من بين عدة تواريخ محتملة ما بين ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠هـــ ذكرتها بعض المصادر (تاريخ الطبرى ١١٩/٩، والكامل ٧٠/٦،وتـــاريـــخ الخلفـــاء ٣٧٧). وساعد على هذا الاختيار عدة أمور: عبارة مشهورة صحيحة تلقب المعتصم بـــ (المثمَّن)، ومبلغ عمره لما حضرته الوفاة بما يتوافق مع هذه العبارة، ومدة خلافته أيضاً. (راجع: الأخبار الطوال صـــ٤٠٦، وتاريخ الطبرى ٦٦٧/٨، ١١٨/٩- ١١٩، والتنبيه والإشراف صـــ٣٠٧،والبداية والنهاية ٣٠٨/١٠، وتاريخ الخلفاء ٣٧٧- ٣٧٨).

ورضيع الأمراء، وقرين أولاد الخليفة الرشيد، فلم يكن يعيش عيشة العوام من الناس، ولا الخاملين الهابطين من الخدم، وإنما رُبى تربية كريمة، ونُشّئ تنشئة عالية من خلال أمه مربية الأمراء، ومُعدّة الخلفاء. أضف إلى ذلك مجالسة الأدباء والشعراء، والخدم، والأطباء، والمنجّمين، والمترجمين، والأخباريين، الذين كانت تعمر بهم قصور الخلفاء، مما سنذكر طرفاً منه عند تناول ثقافته.

(٣) زوجه، وأولاده:

تزوج يوسف بن إبراهيم بامرأة تنتمى أمها إلى نفس مهنة أمه؛ دلالة اعتزازه بعملها. ولا ريب، أن تلك الوظيفة كانت تمثل مستوى اجتماعياً محترماً، ويتعامل أصحابها مع علية القوم فى القصور. لقد اقترن بابنة المرأة التى ربّت مزاحم بن خاقان، وذلك ببغداد[١] فى تاريخ لا نعلمه تحديداً، وإن كنا نرى عدم تأخره عن أواخر القرن الثانى الهجرى، بما يتمشى مع سن الزواج المبكر آنذاك. وقد كان هذا الزواج الذى أدى إلى الارتباط بمزاحم بن خاقان سبباً فى إنقاذ حياة يوسف ابن إبراهيم فى مصر بعد ذلك، كما سنرى فيما بعد.

هذا، وقد أثمر هذا الزواج - فيما يبدو - ثلاثة أبناء: الحسن، ويعقوب، وأحمد[٢] (مؤرخنا). والراجح أن يوسف اصطحب أسرته معه للإقامة الدائمة فى مصر، وكانت بصحبتهم حماته (والدة زوجته، وجدة أولاده)[٣].

(٤) مصادر ثقافته، ومكانته:

أ- صلاته بعلماء عصره (أساتيذه):

ساعدت حياة (يوسف بن إبراهيم) مع أمه فى قصور الخلفاء على الاندماج مع العلماء، والانخراط فى مجالسهم. فعن طريق شِكْلَة أم (إبراهيم بن المهدى)[٤] عرف كثيراً من أخبار الخلفاء

---

(١) لا نعرف اسم زوجة (يوسف بن إبراهيم)، فقد ستر ابنه أحمد اسم أمه، واكتفى - فيما ينقله عن أبيه - بذكر اسم أمها (جدته لأمه)، فهى (ميمونة مولاة أم محمد بنت الرشيد). (المكافأة، ط.أحمد أمين) صـ١٩٢- ١٩٣. وقد حاولت تعرف اسم هذه الزوجة من خلال البحث فى أسماء بنات هارون الرشيد، فعرفت أن أم محمد هذه تسمى (حمدونة)، وأن أمها كانت من أمهات الأولاد، لكن لم يذكر شئ عن مولاتها ميمونة (داية مزاحم بن خاقان، وحماة يوسف بن إبراهيم)، ولا ابنتها (زوج يوسف). (تاريخ الطبرى ٣٦٠/٨، والكامل ٣٥٦/٥، والبداية والنهاية ٢٣٢/١٠). وجدير بالذكر أن الرشيد لما أفضت إليه الخلافة (١٧٠هـ)، زوّج حمدونة من (جعفر بن موسى الهادى)، كما وعد قبلاً. (تاريخ الطبرى ٢١٢/٨).

(٢) وردت ليوسف كنيتان: أبو يعقوب (معجم الأدباء ١٥٤/٥، ١٥٩)، وأبو الحسن (المصدر السابق ١٥٥/٥، ومختصر تاريخ دمشق ٦٨/٢٨، وطبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة صـ٤٧٥، وغيرها). ولا ندرى عنهما شيئاً، بينما عُرِف واشتهر ابنه أحمد بن يوسف المؤرخ المصرى، الذى يبدو أنه أصغر أولاده.

(٣) المكافأة (ط.أحمد أمين) صـ١٩٣.

(٤) تراجع ترجمته، وترجمة والدته فى: الأغانى ٩٥/١٠- ٩٦، ١٨٤ وما بعدها، وتاريخ بغداد ١٤٣/٦- ١٤٨، ووفيات الأعيان ٣٩/١- ٤٢، وإسحاق الموصلى الموسيقار النديم، للدكتور الحفنى صـ٩٦.

وأحـــداث التاريخ. وكانت ملازمته (إبراهيم بن المهدى) قد جعلته فى خِضَمِّ الأحداث، ونقل عنه كـــثيراً مـــن الـــروايات[١]. وعرف يوسف حاشية الخلفاء واتصل بهم، وروى عنهم، وكان يحضر مجالســـهم. ومـــن هـــؤلاء: فَرْخ الخادم (أبو خراسان مولى صالح بن الرشيد)[٢]، وسليمان الخادم الخراســـانى مولى الرشيد[٣]، أحمد بن رشيد الكاتب مولى سَلاّم الأبرش خادم المهدى[٤] العباس بن على بن المهدى الأمير[٥]. وله صلات بالأطباء والمتكلمين والفلاسفة فى مجلس (يوحنا بن ماسَوَيْه)[٦] وبالمنجمين، مثل: (إسماعيل بن أبى سهل بن نُوبَخْت)[٧] وبالمترجمين، مثل: (حُنين بن إسحاق)[٨].

وهكذا، عاصر يوسف بن إبراهيم عهود الرشيد، والمأمون، والمعتصم الزاهرة، وتلقى على أعلام المفكرين؛ مما كان له أثره الكبير فى ثقافته، ومؤلفاته.

ب- علاقاته الوطيدة برجالات عصره:

١- علاقته بالأمير العباسى (إبرهيم بن المهدى):

كـــان يوســـف بن إبراهيم لصيقاً بهذا الأمير، ملازماً له، منذ حداثة سنه، حتى لُقِّب بـــ (مولى إبراهيم بن المهدى)[٩]، و(خادمه)[١٠]، و(كاتبه)[١١]. وهذا يعنى عظيم تأثره به، ومعرفته أخباره وأحواله وعلومه، عبر مراحل حياته حتى وفاته. وبذا تكون أم يوسف خدمت الأمير ابن المهدى صغيراً، وخدمه ابنها يوسف كبيراً.

هذا، وقد مر إبراهيم بن المهدى فى حياته بأربع مراحل:

أ- المرحلة الأولى (مرحلة ما قبل توليه الخلافة ١٦٢- ٢٠٢هـــ):

وقد اتسمت هذه المرحلة بظهور مواهب ابن المهدى فى عالم الفصاحة والبيان والشعر، إلى جانـــب موهـــبة الغناء وحب الموسيقى، فبرع فى ذلك كله، وعاش حياة الترف واللهو. ومجالس غـــنائه وتلحيـــنه تشهد بذلك[١٢]. وولى ابن المهدى بعض المناصب فى هذه المرحلة[١٣]، وشهد

---

(١) طبقات الأطباء، لابن أبى أصيبعة صـــ١٩٤، ٢١٨- ٢١٩، وغيرها.
(٢) السابق: ١٩٥. (٣) السابق: ١٩١. (٤) معجم الأدباء ١٥٧/٥.
(٥) طبقات ابن أبى أصيبعة: ٢١٦. (٦) السابق: ٢٤٧. (٧) السابق: ٢١٩.
(٨) السابق: ٢٥٧- ٢٥٩.
(٩) تاريخ الحكماء للقفطى: ٢٩١.
(١٠) معجم الأدباء ١٥٥/٥.
(١١) الواقى بالوفيات ٢٨٢/٨.
(١٢) حول كل هذه المواهب راجع: تاريخ بغداد ١٤٧/٦، والأغانى ١٠١/٤- ١٠٢، ١٧٢/٥، ٢٩٦، ٢٧٧- ٢٩٨،٦/١٢- ١٠، ٩٨/١٧- ١٠١، ١٠٤- ١٠٧، وغيرها، ومعجم الأدباء ١٢/٦- ١٧، ١٣٧، وإسحاق الموصلى للدكتور الحفنى صـــ١٠٤- ١٠٧، ١١٣.
(١٣) ولى دمشق من ١٨٠- ١٨٢هـــ، وعزل قليلاً، ثم أعيد فى العام نفسه حتى ١٨٦هـــ، وتخلل ذلك إمارته للحج سنة ١٨٤هـــ. (تاريخ خليفة بن خياط صـــ٤٥٧، والبداية والنهاية ٣٠٣/١٠).

نكبـــة البرامكة[١]، وكذلك فتنة الأمين والمأمون[٢]. وأعتقد أن يوسف اتصل به فى حوالى العَقْد الأخـــير من هذه المرحلة؛ مما ساعده على تسجيل حياة سيده، التى كانت مزيجاً من الفن والأدب والفكر، مع مشاركة واضحة فى أحداث عصره.

ب- المرحلة الثانية (مرحلة توليه الخلافة ٢٠٢ - ٢٠٣هـــ):

هـــذه مرحلة مهمة - على قصرها[٣] فى حياة (إبراهيم بن المهدى)؛ نظراً للتجربة الجديدة التى خاضها خلالها، ولما نتج عنها من نتائج، طبعت حياته بطابع معين حتى وفاته. لقد حفلت هذه الفترة بالصراع والحروب، والثورات والفتن[٤]، ولم يهنأ فيها ابن المهدى بيوم واحد، فقد تكالب عليه الأعراب الطامعون، والجند الثائرون لقلة المال، بينما عاث المفسدون واللصوص فى الأرض فسادا[٥]، فأفلت الزمام من بين يديه، وتفرق الناس عنه، وتركه مؤيدوه من بنى هاشم واحـــداً بعـــد الآخـــر[٦]. أيقن ابن المهدى بزوال أمره، فأخذ يتحين الفرصة للنجاة بنفسه من الوقوع فى أيدى رجال المأمون، وأفلح فى الهرب والاختفاء عن العيون. وأعتقد أن (يوسف بن إبراهيم) عانى مثلما عانى سيده فى هذه الفترة الكريهة إلى نفس كليهما؛ نظراً لخلوها من مجالس الأدب والعلـــم والغـــناء، وأرجح مصاحبته إياه فى الهرب من ساحة الحكم، والفرار من ميدان الصراع.

جـــ- المرحلة الثالثة (مرحلة الاختفاء ٢٠٣- ٢١٠هـــ)[٧]:

فيها اختفى ابن المهدى تماماً عن عيون المأمون،الذين كانوا ينقبون عنه فى كل مكان. وقد أقلق ذلك المأمون[٨]؛ إذ يجد عمه وغريمه المنتزى على خلافته بعيداً عن متناول يده، بمنأى عن أن تناله يد العقـــوبة. وذلك يعنى عدم بسط هيبة الخلافة، ووجود من يؤيد ابن المهدى، ويؤويه بعيداً عن قبضة

(١) كانت سنة ١٨٧هـــ، وكان متعاطفاً معهم، راصداً تَغَيُّر الرشيد نحوهم (تاريخ الطبرى ٨/٢٩١- ٢٩٢).

(٢) سنة ١٩٣- ١٩٨هـــ، وكان مع الأمين، ثم انصرف عنه فى النهاية، ورثاه بعد قتله. (السابق ٨/٤٨٩، ٤٩٥، ٤٩٨، ٥٢٠- ٥٢١، ٥٢٤، والأغانى ١٠/١٢٠- ١٢٢).

(٣) تبدأ هذه المرحلة بعد أن بايعه العباسيون بيعة خاصة يوم الثلاثاء ٢٥ من ذى الحجة ٢٠١هـــ، ثم بايعه أهل بغداد بيعة عامة أول المحرم سنة ٢٠٢هـــ (الكامل ٥/٤٤١، ووفيات الأعيان ١/٣٩). ثم بدأت خلافته الفعلية يوم الجمعة ٥ من محرم ٢٠٢هـــ إلى ليلة الأربعاء ١٧ من ذى الحجة سنة ٢٠٣هـــ، فيكون قضى فى منصبه سنة، وأحد عشر شهراً، واثنى عشر يوماً. (تاريخ الطبرى ٨/٥٧٢- ٥٧٣، وتاريخ بغداد ٦/١٤٣، ووفيات الأعيان ١/٤٠).

(٤) تاريخ الطبرى ٨/٥٦٢، ٥٦٤، والكامل ٥/٤٤٣- ٤٤٤.

(٥) تاريخ الطبرى ٨/٥٥٧، وتاريخ بغداد ٦/١٤٤.

(٦) تاريخ الطبرى ٨/٥٧٢.

(٧) ظفر به المأمون لثلاث عشرة ليلة بقين من ربيع الآخر سنة ٢١٠هـــ، بعد فترة اختفاء، استمرت ست سنين وأربعة أشهر. (تاريخ بغداد ٦/١٤٣، وزاد عشرة أيام خطأ). وراجع خبر اختفائه فى (تاريخ الطبرى ٨/٥٧١- ٥٧٢ والكامل ٥/٤٥٠).

(٨) كتاب بغداد، لطيفور صـــ١١- ١٢.

الشُّرَط وأنظار السلطة، متعاطفاً معه، غير هيّاب ولا وَجِل. والحق أن ابن المهدى ومؤيديه - ومنهم: يوسف بن إبراهيم - نجحوا فى القيام بعمليات التمويه، والتنقل من مكان إلى آخر طوال مدة الاستتار الطويلة[١]. وكان يوسف - كما يحكى ابنه أحمد عنه - فيمن استتر - مع ابن المهدى- من المأمون[٢]، وشهد إحدى حيل المنجمين؛ لتضليل المأمون ورجاله، وإيهامهم أن ابن المهدى غادر بغداد، وركب بحر الهند، حتى أشيع ذلك بين الناس[٣] وأخيراً، تم الإيقاع بابن المهدى أثناء تنقله فى إحدى المرات ليلاً، متنكراً فى زى امرأة منتقبة تسير وسط امرأتين منتقبتين أخريين[٤].

د - المرحلة الرابعة والأخيرة:

(مرحلة ما بعد عفو المأمون عن ابن المهدى ٢١٠- ٢٢٤):

تعد هذه الفترة من أخصب فترات حياة ابن المهدى. فبعد أن سامحه المأمون وعفا عنه[٥]، بعد ما تقدم إليه بأرق عبارات ومعانى الاعتذار والاستعطاف[٦]، أقبل ابن المهدى على مجالس الأدب، والغناء والتلحين، ومختلف نواحى العلوم والثقافات والمعارف. لقد أراد ابن المهدى أن يطمئن المأمون من جهته، وأن يقنعه بابتعاده التام عن السياسة[٧]، فبالغ فى حضور مجالس الشراب والغناء، واكتفى بإشباع رغباته الفنية[٨]. وأعتقد أن هذه الفترة الأخيرة من حياة ابن المهدى هي التى توطدت فيها صلاته بيوسف بن إبراهيم، واستفاد منه فيها يوسف أيما استفادة، فأرخ لحياته، وروى جُلّ مروياته، وعرف أدق خصوصياته، لاسيما بعد أن أضحى الكاتب الخاص لضِياعه، والمشرف على شئونها[٩] بعد أن ردها المأمون عليه، وكانت قد صودرت فترة

---

(١) السابق: ١٠٧.

(٢) وهذا ينقض استنتاج سيد محمد قطب فى ماجستيره صـ٧، عندما ذكر أن يوسف لم يصحب ابن المهدى فى اختفائه؛ بدليل مشاركته فى مجالس الأدب والعلم سنة ٢٠٩هـ (طبقات ابن أبى أصيبعة صـ٢٢٩). والرد على ذلك أن يوسف لم يذكر أنه شهد ذلك المجلس بنفسه، فهو مما نقله عن بعض الرواة - وإن لم يحددهم - ويحكى فيه بعض دُعابات الطبيب (سهل الكَوْسَج)، التى وقعت فى السنة المذكورة.

(٣) مخطوط (تفسير كتاب الثمرة لبطلميوس) لأحمد بن يوسف بن إبراهيم صـ٥٩.

(٤) حول الإيقاع به راجع: (كتاب بغداد لطيفور صـ ١٠١، وتاريخ الطبري ٦٠٣/٨، والكامل ٤٧٥/٥- ٤٧٦، والبداية والنهاية ٢٧٥/١٠- ٢٧٦)

(٥) اختص المأمون عمه بالعفو رغم أنه " لا أرحام بين الملوك وبين أحد " (الوزراء والكتّاب، للجَهْشَيارىّ صـ١٨٧).

(٦) لعل هذه الكلمات الرقيقة المقرة بالذنب هى التى أثّرتْ فى قلب المأمون (راجع: بغداد، لطيفور صـ١٠١- ١٠٤، ١٠٨، ١١٣، وتاريخ الطبرى ٦٠٤/٨، والأغانى ١١٨/١٠، والكامل ٤٧٦/٥- ٤٧٨، والبداية والنهاية ٢٧٦/١٠).

(٧) وكان هذا - فى الحقيقة - انسجاماً مع طبيعة ابن المهدى، الذى قال عن نفسه: إنه ذو رأى لغيره، ضعيف الرأى فى أمر نفسه. وعلل ذلك بأنه ينظر فى أمر غيره بطباع سليمة مستقيمة، وينظر فى أمر نفسه بطباع مائلة إلى الهوى (بغداد، لطَيْفُور صـ١١٠). ومن هنا فشل فى فترة خلافته، فهو رجل أدب وفن وغناء، لا رجل إدارة وسياسة.

(٨) راجع مجالس لهوه فى طعامه وشرابه، وغنائه فى عهد المأمون (كتاب بغداد صـ١١١- ١١٢، والأغانى ٦٩/١٠)، وفى عهد المعتصم (المصدر السابق) جـ١٠ صـ١١١- ١١٢.

(٩) الوافى بالوفيات ٢٨٢/٨، وكنوز الأحداد صـ١٢٥.

اختفائه[١] وقد تعرض ابن المهدى فى عهد المأمون لامتحان خلق القرآن فأجاب[٢]، وعاصر فترة من حكم المعتصم (٢١٨- ٢٢٧هـ)، حتى أَلَمَّ به مرض شديد، روى لنا تفاصيله (يوسف ابن إبراهيم)، الذى ظل على مصاحبة سيده حتى لحظاته الأخيرة[٣]، التى ودَّع فيها الدنيا فى شهر رمضان من سنة ٢٢٤ هـ[٤]، بعد حياة حافلة بالأحداث الجسام.

٢- علاقة يوسف بن إبراهيم بـ (أبى دُلَف القاسم بن عيسى العجْلى):

ما إن توفى (إبراهيم بن المهدى)، وكفكف يوسف دموعه، وهدهد أحزانه، حتى انطلق يسعى نحو سيد جديد، يعوض به ما فقده بوفاة ابن المهدى. اتجهت أنظار يوسف إلى (أبى دلف)، الذى كان لا يقل فى سماته عن ابن المهدى، إن لم يَفُقْه فى بعضها. كان الرجل جوادا[٥]، شجاعاً، قائداً مِغْوارا[٦]، محباً للسمر والغناء[٧]، على قدر كبير من الثقافة الأدبية الراقية[٨]. ولا شك أن مُكْث يوسف فى رحابه - قرابة العام - أفادته عزة ومنعة وجاهاً، وخبرة وعلماً وثقافة[٩]. وسرعان ما ساءت حال أبى دلف، وتدهورت صحته، وتوفى كما توقع طبيبه[١٠]. وبذلك فقد يوسف نصيراً آخر، ومكانة ووجاهة حظى بها، ومنصباً إدارياً ومالياً كاد أن يليه[١١]، لكن القدر كان أسرع إلى حرمانه منه.

(٥) يوسف بن إبراهيم فى الشام:

لم تعد ظروف العراق مناسبة للإقامة هناك، فالظاهر أن قواد الأتراك فى عهد المعتصم كانوا يضيقون الخناق على العرب ومواليهم، فلم يستطع يوسف البقاء فى (سر من رأى)، فرحل عن العراق كلية إلى دمشق سنة ٢٢٥هـ[١٢]، حيث نزل ضيفاً على الطبيب

---

(١) بغداد، لطيفور ١٠٤، ١٠٥؛ والبداية والنهاية ٢٧٦/١٠.
(٢) تاريخ الطبرى ٦٤١/٨، ٦٤٤، والكامل ٥/٦.
(٣) طبقات الأطباء، لابن أبى أصيبعة صـ٢١٦- ٢١٧.
(٤) تاريخ الطبرى ١٠٢/٩.
(٥) كتاب بغداد، لطيفور صـ١٣٢، ووفيات الأعيان ٧٤/٤- ٧٦.
(٦) تاريخ بغداد ٤١٦/١٢. (٧) الأغانى ١١١/١٠- ١١٢، ١٢٠.
(٨) كتاب بغداد، لطيفور ١٣٥- ١٣٦.
(٩) حدد يوسف مدة إقامته عند أبى دلف بـ(عشرة شهور).(طبقات ابن أبى أصيبعة ٢٣٨).
(١٠) السابق: ٢٣٩.
(١١) عندما ولاه أبو دلف الخراج والضياع فى بعض أقاليم فارس، لكنه مات قبل توجهه إلى هناك (السابق: ٢٣٩).
(١٢) نص على رحلته إلى دمشق ياقوت فى (معجم الأدباء ١٥٥/٥)، وابن أبى أصيبعة فى (طبقات الأطباء) صـ١٧٨، والزركلى فى (الأعلام) ٢١٢/٨، وكحالة فى (معجم المؤلفين) ١٣٩/٤. وذكر علة التوجه إلى دمشق محمد كامل حسين فى (الأدب المصرى الإسلامى ٧٨)، وسيد محمد السيد فى (ماجستير) صـ١٢- ١٣. وأغفل ياقوت رحلته إلى دمشق فى (معجم الأدباء) فى موضع آخر حـ٥ صـ١٥٤، ونقل ذلك عنه كرد على فى (كنوز الأجداد) صـ١٢٥، وإن كان قد أضاف أنه ورد مجيئه إلى دمشق ٢٢٥هـ، فلعله تاريخ رحيله من بغداد إلى هناك. وواضح هذا الخلط الذى وقع فيه الباحث، رغم أن رحلته إلى دمشق ثابتة، وتاريخها محدد، ومعروف.

الدمشقي (عيسى بن حَكَم)(١).

لقي يوسف كل رعاية وعناية وكرم ضيافة فى مترل صديقه الطبيب (عيسى بن حكم)، أثرت فيما كان يجب أن يتناوله على يديه(٢)، خاصة أن يوسف كان يشكو علة شديدة (فى معدته على ما يبدو).

وعند وداعه نصحه نصائح تخالف مقتضى ما كان يقدمه له عند مقامه فى بيته(٣). ويبدو أن يوسف التزم بتلك النصائح، فعُمِّر طويلاً كما سنرى.

وقد يكون أفاد من إقامته القصيرة - فيما يبدو - إفادة علمية طبية مهمة، ربما ساعدته على تأليفه: (أخبار الأطباء) فيما بعد.

(٦) هجرة (يوسف بن إبراهيم) إلى مصر، واستقراره بها:

توجه يوسف إلى مصر بعد منصرفه من دمشق(٤)، ولعله علم أنها بلد زراعى، للأمراء فيه إقطاعات واسعة، وهو ذو تجربة طويلة فى الإشراف على المزارع والضياع وإدارتها. ومن هنا قام يوسف بالعمل نفسه فى مصر مقابل مبلغ معين يؤديه للخلافة فى وقته. وقد حقق ثراء عريضاً، انعكس على حياته زياً وملبساً ومظهراً، ومطعماً ومسكناً. وقد أدى ذلك إلى طمع (أحمد بن محمد بن المدبِّر) صاحب خراج مصر فى أموال يوسف، رغم أن ليوسف عنده أيادى سابقة، وسوالف تُرعى ويحافظ عليها. لكن ابن المدبِّر استغل خسائر حاقت بيوسف، وديوناً لحقته؛

---

(١) له ترجمة فى: تاريخ الحكماء لنقفطى ١٧٩- ١٨٠، ٢٤٩- ٢٥٠، وطبقات ابن أبى أصيبعة ١٧٧- ١٧٨. وترجمة أبيه الطبيب الحكم الدمشقى فى (المصدرين السابقين: تاريخ الحكماء ١٧٨- ١٨٠، وطبقات الأطباء ١٧٦- ١٧٧). وترجمة جده (أبى الحكم) فى المصدرين نفسهما: (تاريخ الحكماء صـ٤٠٤، وطبقات الأطباء ١٧٥- ١٧٦).

(٢) كان عيسى خبيراً بالطب، حسن المباشرة (ظهر زمن الرشيد). ومع ذلك كان يتعهد يوسف بأغذية، تبدو غير متناسبة مع علته الشديدة، وكان يسقيه الماء المثلج. ولما أنكر يوسف ذلك عليه، تعلل بأنه أدرى بما يفعل، فهو غذاء يناسب هواء وجو دمشق بما يخالف جو العراق. (المصدر السابق صـ١٧٨). والعجيب أن الرواية لم تذكر أن يوسف اشتكى علة؛ لمخالفة قواعد الغذاء، حتى ظن الباحث سيد محمد قطب أن عيسى عالجه فشفى (ماجستيره ١٣). وربما كانت حالة يوسف النفسية الطيبة فى ظل صحبة ومعية صديقه، ولعل مقادير الغذاء المقدمة إلى يوسف لم تكن بالكم الذى يؤذيه، فأدى ذلك كله إلى راحته البدنية. وعلى كل، فنحن لا نوافق على مقالة عيسى: " إنه لا يحسن بالعاقل أن يلزم قوانين الطب مع ضيفه فى مترله ". (طبقات ابن أبى أصيبعة صـ١٧٨)؛ إذ لا يجوز أن نضر بصحة الضيوف بحجة إكرامهم.

(٣) نصحه أن يلتزم بما التزم به والده الحكم (فعاش مائة وخمس سنين، لم يتجعد فيها وجهه): ألا يذوق القديد، ولا يغسل يديه ورجليه عند الخروج من الحمّام إلا بماء بارد ما أمكن (المصدر السابق صـ١٧٨).

(٤) فلا يصح ما ذكره د.شعبان مرسى فى: (بحوث فى الأدب العباسى) صـ٣٥، عندما قال: يبدو أن يوسف بن إبراهيم قد هرب إلى مصر بعد انتصار المأمون على إبراهيم بن المهدى.

لآفات تعرضت لها مزارعه، فأهلكت محاصيله، و لم يوف خراجها. هنا طالبه ابن المدبِّر بما عليه من أموال، وتعرض للحبس، وكاد يُقتل لولا أن مَنّ الله عليه بوالى مصر أيامها (مُزاحم بن خاقان)[١]، الذى أسقط ما عليه من أموال؛ لصلات قديمة بينهما، و لم يكتف بذلك بل جعله كاتباً ومشرفاً على ضياعه ومزارعه فى مصر[٢]. ورجعت إلى يوسف نعمته فى مدة يسيرة، بعد أن عَضَّه الفقر المُدْقِع، حتى باع فراش بيته، وأوشك على الهلاك على يد ابن المدبِّر.

علاقته بالأمير (أحمد بن طولون):

لا بد أن نتوقع وجود صلات بين رجل كيوسف بن إبراهيم فى شهرته، ومكانته الاقتصادية والأدبية والعلمية، وبين أمير كأحمد بن طولون، يتطلع إلى الاستقلال بإمارته والنهوض بها. وتشير النصوص إلى مجالسة ابن طولون يوسفَ بن إبراهيم، وسماعه منه جانباً من الحِكَم الفارسية[٣]، التى تدخل فى نطاق ثقافة يوسف الحِكْمية الفلسفية لكن حتى تكتمل الصورة لا بد أن نضع فى الحسبان أن يوسف من موالى العباسيين، وأن ابن طولون كان يحذر أولئك العراقيين، ويضع عيونه عليهم دوماً؛ خشية اتصالهم بعدوه الألَدّ (المُوَفَّق)، وحرصاً على إفشال المؤامرات، التى تُحاك ضده؛ لإقصائه عن حكم مصر. ومن هنا، فقد وردت ثلاث وقائع[٤] تفيد شك ابن طولون فى إخلاص يوسف له؛ مما يدفعه إلى حبسه فترات، تتراوح بين الطول والقصر، بتهمة تلقى كتب من الموفق، أو إرسال كتب إليه، تكون بمنزلة التجسس على ابن طولون ودولته لصالح العباسيين. ولولا شفاعة الشافعين، ما أفرج ابن طولون عنه من محبسه، وما استنشق يوسف نسمات الحرية من جديد، خاصة عندما بلغت ابنَ طولون – فى الحادثة الثالثة – كلماتٌ ينتقده فيها يوسف على ما يبدو. والشئ العجيب الغريب أن ابن طولون أرسل جنده؛ للهجوم على دار يوسف بن إبراهيم فى الساعة التى توفى فيها (آخر سنة ٢٦٥هـ)[٥]،

---

(١) ولى (مزاحم بن خاقان) صلاة مصر من قبل الخليفة العباسى (المعتز بالله) فى الثالث من ربيع الأول سنة ٢٥٣هـ، ثم مرض واستخلف ابنه (أحمد)، حتى وافته المنية ليلة الاثنين فى الخامس من المحرم سنة ٢٥٤هـ. (كتاب الولاة للكندى، ط.جست) صـ٢٠٨- ٢١١.

(٢) المكافأة (ط.أحمد أمين) صـ١٩٣.

(٣) من ذلك ما حدَّث به يوسف بن إبراهيم أحمدَ بن طولون عن أنوشِرْوان كسرى فارس بقوله: " الملك المتمكن من نفسه لا يغضب سريعاً، ولا يرضى سريعاً؛ لأن ذلك من أخلاق النساء، ومن قاربهن ". وقد جرّ هذا القول على يوسف شراً؛ إذ أطال ابن طولون حبسه، وأخَّر رضاه وصفحه عنه؛ تحقيقاً لهذه الحكمة. (سيرة أحمد بن طولون، للبلوى) صـ١٦٧.

(٤) راجع تفاصيل هذه الوقائع – على الترتيب – فى: (المصدر السابق صـ٢٢١- ٢٢٢). و(المكافأة لابن الداية – ط.أحمد أمين –صـ ٤٨- ٥٠، وسيرة أحمد بن طولون لبلوى صـ٢٣٧- ٢٣٩، ومعجم الأدباء ٥/١٥٥- ١٥٧). و(سيرة أحمد بن طولون فى كتاب المغرب لابن سعيد، لابن الداية صـ١١٥، وسيرة أحمد بن طولون للبلوى ١٦٥- ١٦٨).

(٥) هذا هو التاريخ الذى نرجحه لوفاته، فيكون عمره قد تجاوز الثمانين. وقد تخبط الباحثون فى تحديد تاريخ وفاته ما بين سنة ٢٦٠هـ (تعليق روزنثال فى: علم التاريخ عند المسلمين هامش صـ٥٤٨، ومقال كتاب (المكافأة)، =

وأخذوا ما فى الدار من كتب؛ ظانِّين أن من بينها كتاباً من بغداد يُدين يوسف (حتى بعد موته)، وحملوا صندوقين كبيرين من الكتب، وقبضوا على أحمد بن يوسف، وأخيه (لعله الحسن)، وقدموا على ابن طولون. وثبتت براءة يوسف بعد موته، بل ظهرت أمارات إحسانه إلى العلويين فى مصر، فتم الإفراج عن ولديه، ولحقا بجنازة والدهما[١].

(٧) تراثه الفكرى والعلمى (مؤلفاته، وتلاميذه):

استطاع يوسف بن إبراهيم أن يكوّن حصيلة علمية كبيرة من خلال مجالسته العلماء ومناقشتهم، وروايته عنهم، وتعدد نواحي اهتمامه، وتشعب جوانب ثقافته. ومن الطبيعى أن يسفر ذلك الجمع الهائل من الروايات عن مؤلفات كثيرة، أبدعتها قريحته، خاصة بعد أن استقرت أموره فى مصر، وتيسرت أحواله، فقام بالنظر فى مُسَوَّداته والإضافة إليها، وتهذيبها وتنقيحها، حتى خرجت فى صورة مؤلفات قيمة فى موضوعات شتى، يغلب عليها الطابع التاريخى[٢]. وإذا كانت الأيام لم تحفظ لنا شيئاً من مؤلفاته،فإنها ضَنَّتْ علينا - كذلك - بذكر أكثر تلاميذه[٣]، لكن الشئ اليقينى هو أن كتبه استفادت منها الأجيال،وتلقت عليها مئات التلاميذ،ولازلنا ننظر بإعجاب إلى بقاياها حتى اليوم.

من مؤلفات (يوسف بن إبراهيم):

١- كتاب (أخبار أبى نُوَاس، والمختار من شعره)[٤].

- للدكتور سليمان العطار، المجلد الخامس عشر، العدد الثالث - مجلة عالم الفكر ١٩٨٤م، صـ١٨٤، وبحوث فى الأدب العباسى للدكتور شعبان مرسى صـ٢٣٥). ورأى البعض أنه توفى فى عهد ابن طولون دون تحديد (٢٥٤- ٢٧٠ هـ). (دراسة المحقق الدكتور عمر المالكى لكتاب (الفلسفة السياسية عند العرب، لابن الداية) صـ٢٦. وحدد الباحث سيد محمد قطب وفاة يوسف فى سنة ٢٦٣هـ تقريباً (ماجستيره صـ٢١). والحق أن هؤلاء جانبهم الصواب، وأقربهم إليه الباحث سيد محمد قطب، لكنه ظن أن صدام ابن طولون مع يوسف بخصوص واقعة كتاب (موسى بن بُغا)، وهى الواقعة الأولى، ظنها آخر العهد به قبل وفاته. والصحيح أن واقعة الصدام الثالثة حدثت بعد ذلك، وطال حبس ابن طولون له بسببها، وامتد حتى قرب نهاية سنة ٢٦٤هـ، ثم توجه إلى الحج، وبعده إلى بغداد، ولقى الموفق، وتوجه إلى سامرا، حيث أحضر أهله، الذين كانوا يزورون بلدهم. ثم عاد إلى مصر، فأقام بها، حتى أدركته الوفاة فى العام الذى أرجحه (٢٦٥هـ). وأصاب كحالة لما حدده كذلك (معجم المؤلفين ١٣٩/٤).

(١) المكافأة لابن الداية (ط.أحمد أمين) صـ٨٨- ٨٩، ومعجم الأدباء ١٥٨/٥- ١٥٩.

(٢) يرى سيد محمد السيد قطب فى ماجستيره صـ٢٣- ٢٤: أن مؤلفات يوسف ليست تأريخاً بالمعنى الدقيق، بل هى مرحلة أولى لكتابة التاريخ؛ لجمعه فيها بين التاريخ والقصص، فهو - إذن - أديب أكثر منه مؤرخاً. وأعتقد أن هذا الكلام لا يصدق على يوسف بن إبراهيم، على الأقل فى بقايا كتابه: (أخبار الأطباء)، الذى سوف نرى من خلال عناصر منهجه فيه أنه مؤرخ حقاً، لا مجرد قصاص أو أديب، وإن كان يمتلك لغة أدبية راقية.

(٣) من البدهى ألا نجد تلاميذ كثيرين ليوسف وهو فى مرحلة الطلب، بل نجد أساتيذ كثيرين له، يروى عنهم مروياته. وعلى كل، فنتيجة طول ملازمته مجالس العلم كان يحصل على معلومات تفوت بعض أساتيذه، فيسألونه عنها، فيرويها لهم، كما هو الحال مع الطبيب بَخْتَيْشُوع بن جبْرائيل (طبقات ابن أبى أصيبعة ١٩١)، وابن المهدى (السابق ٢١٩).

(٤) ورد ذكره فى (الفهرست، ط.طهران) لابن النديم صـ١٨٢، والوافى بالوفيات ٢٨٢/٨، وماجستير سيد محمد قطب صـ٢٢. وورد اسمه محرَّفاً فى (معجم الأدباء)، فسمى يوسف (الراوى أخبار أبى يونس) ١٥٤/٥.

٢- كتاب (أخبار إبراهيم بن المهدى)[1].

٣- كتاب (أخبار الأطباء)[2].

٤- كتاب (أخبار المنجمين)[3].

٥- كتاب (الطبيخ)[4].

(٨) عناصر منهج (يوسف بن إبراهيم) التاريخى من خـــلال أكبر بقايا كتبه (أخبار الأطباء):

١- القدرة على العرض الشامل للموضوعات التى يتناولها[5].

٢- دقته فى اختيار موارده[6].

٣- العرض التاريخى الواضح المتميز مع تعريفه بموارده[7].

٤- الدقة والتمحيص فى انتقاء الروايات التاريخية[8].

٥- البراعة فى تصوير الأحداث التاريخية المصاحبة لتراجم أطباء عصره[9].

---

(١) ورد ذكره فى: المكافأة لابن الداية (ط.أحمد أمين) صـــ٢٠٤- ٢٠٥، وكشف الظنون ١/٢٥، وهدية العارفين ٢/٥٤٩، ومعجم المؤلفين ٤/١٣٩، والأعلام ٨/٢١٢، وكنوز الأجداد ١٢٥. ونسبه ياقوت إلى (أحمد بن يوسف) خطأً فى(معجم الأدباء) ٥/١٦٠، وشاكر مصطفى فى (التاريخ العربى والمؤرخين ٢/١٨٥). وكثير من مادته عن (المغنين) فى (الأغانى) ٢/٣٥٣، ٤/٣٦٠- ٣٦٢، ١٠/١٧٣.

(٢) ورد ذكره بعناوين مقاربة فى: مروج الذهب مجلد ٢ صـــ٤٢٠، وكشف الظنون ١/٢٥، وهدية العارفين ٢/٥٤٩، والأعلام ٨/٢١٢، ومعجم المؤلفين ٤/١٣٩. نسبه د. شاكر مصطفى إلى ابنه أحمد خطأً. (التاريخ العربى والمؤرخون ٢/١٨٥). وتوجد روايات كثيرة من بقاياه فى: (تاريخ الحكماء) للقفطى ١٣٥- ١٤٠، وطبقات ابن أبى أصيبعة صـــ١١٧- ١٢١، ١٩٠- ١٩١، ١٩٥- ١٩٨، ٢١٦- ٢١٨، وغيرها كثير.

(٣) كان ليوسف بن إبراهيم اهتمام كبير بالتنجيم، وكان له مرصد بمصر، أمر غلامه أن يرصد بالإسطرلاب دخول ابن طولون مساكن فسطاط مصر، وتنبأ من معرفة طالعه بأنه سيملك مصر هو وولده. (سيرة ابن طولون لابن الداية فى كتاب المغرب لابن سعيد) صـــ٧٧. وورد أنه كان يدرس التنجيم وهو فى سجن ابن طولون (سيرة ابن طولون للبلوى ١٦). ونسب له حاجّ خليفة كتاباً فيه (كشف الظنون) ١/٣٠. وكالعادة أخطأ البعض، فنسبه إلى ابنه أحمد (معجم الأدباء ٥/١٦٠، والوافى بالوفيات ٨/٢٨٣، وهدية العارفين ٢/٢٠٧، والأعلام ١/٢٧٢، وريحانة الأدب ٧/٥١٤). والكتاب لم نجد شيئاً من بقاياه.

(٤) نسبه أحمد إلى والده صراحة فى (المكافأة، ط.أحمد أمين) صـــ٢٠٤. ونسبه الصفدى إلى أحمد فى (الوافى بالوفيات) ٨/٢٨٣، ومن قبله وقع فى الخطأ نفسه ياقوت فى (معجم الأدباء) ٥/١٦٠. ولا نعرف شيئاً عن هذا الكتاب المفقود، وأرجح أنه مكمل لكتابه عن الأطباء، وأنه يهتم بموضوعات الأطعمة الصحيحة، وطرق الطهى الخاصة بها؛ نتيجة خبرته الكبيرة، ومجالسته الطويلة للأطباء، وتجربته من قبل فى متابعة طعام أبى دلف العجلى.

(٥) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة صـــ٢٣٣- ٢٤٢، ٢٤٩- ٢٥٢، وغيرها.

(٦) السابق: ١٩٥، ٢١٦-٢١٨

(٧) السابق: ١٩٥، ٢٢٢- ٢٢٣، ٢٣٣.

(٨) السابق: ٢١٩- ٢٢٠، ٢٤٧- ٢٤٨.

(٩) السابق: صـــ١٩٤- ١٩٦، ٢١٦- ٢١٧، ٢٢٤- ٢٢٥، ٢٣٦- ٢٣٧.

٦- طريقته في ترتيب عناصر تراجمه للأطباء[١].

٧- قدرته الفائقة - النابعة من ثقافته التاريخية العريضة - على الربط بين الأحداث التاريخية، وقياس بعضها على بعض[٢].

٨- استعراضه ثقافته الجغرافية بذكر متغيرات أسماء الأماكن الواردة في الحدث التاريخي[٣].

٩- حضور شخصيته، وتفاعله مع الحدث (تعليلاً، وتعليقاً)[٤].

١٠- حرصه على رصد الظواهر الحضارية لعصره[٥].

(٩) وأخيراً - سمات يوسف بن إبراهيم الشخصية (من واقع حياته، وبقايا مؤلفاته):

١- جوده وإحسانه، ومروءته[٦].

٢- طبيعته الهادئة المؤمنة[٧].

٣- حبه الشديد للعلم (تمثل في ثقافته الموسوعية: أدب، وطب، وحساب، وتنجيم، وفلسفة، وتاريخ)[٨].

٤- عقليته المستنيرة المتفتحة (تساؤلاته، ومناقشاته، وحواره العلمي الجاد)[٩].

٥- إخلاصه، وفطنته، وحكمته[١٠].

٦- صدقه، وأمانته العلمية[١١].

٧- تصرفاته الحازمة، ودقته البالغة[١٢].

٨- قبوله النصيحة الخالصة الواعية[١٣].

٩- حبه للحق والصدق،ودفاعه عن المغمورين من ذوي الحرف والصناعات[١٤].

---

(١) السابق: صـ١٩٠، ٢١٦، ٢٩٩- ٣٣٠ وما بعدها.

(٢) السابق: ٢٣٠- ٢٣٢، ٢٤٧ وما بعدها.

(٣) طبقات الأطباء لابن أصيبعة: ٢٣٥.

(٤) السابق: ٢٣٧- ٢٣٨، ٢٤٥- ٢٤٦.

(٥) السابق: ٢٢٠، ٢٤٧، وما بعدها.

(٦) معجم الأدباء ٥/١٥٥، ومختصر تاريخ دمشق ٢٨/٦٨، والوافي بالوفيات ٨/٢٨٢.

(٧) المكافأة لابن الداية (ط.أحمد أمين) صـ١٩٣، ومختصر تاريخ دمشق ٢٨/٦٨.

(٨) تاريخ الحكماء للقفطي صـ٢١٩، وطبقات ابن أبي أصيبعة صـ١٩٢- ١٩٣، ١٩٥- ١٩٦، ١٩٩- ٢٠٠، ٢٢٢، ٢٤٠- ٢٤١.

(٩) تاريخ الحكماء للقفطي ١٣٥- ١٤٠، ١٤٥- ١٤٦، وطبقات الأطباء صـ١١٧، ١٩٠- ١٩١، ١٩٣- ١٩٤، ٢٤٠- ٢٤٢.

(١٠) المصدر السابق: ٢١٦، ٢٥٦.

(١١) السابق: ٢١٩.

(١٢) طبقات الأطباء: ٢٣٩.

(١٣) السابق: ٢٣٩.

(١٤) السابق: ٢٤٥- ٢٤٦، ٢٥٧ ٢٥٩.

(المؤرخ المصرى أحمد بن يوسف بن إبراهيم المعروف بابن الداية)
(٢٤٥ — ٣٤٠هـ)

أما قبل:

فإننا قبل أن نتعرض لترجمة هذا المؤرخ المثقف الواعى، نشير إلى ندرة المعلومات الواردة عنه فى كتب التراجم، وتكرارها عن طريق نقل المصادر بعضها عن بعض، واجترار المراجع هذه الترجمة، مكتفياً أصحابها بترديد ما تقدم من معلومات.

تعليل ندرة تراجم (أحمد بن يوسف):

١- على الرغم مما يتمتع به (أحمد بن يوسف) من ثقافات ومعارف متنوعة، كما سنرى فيما بعدُ، إلا أنه لم يحظ - مثلاً - بالمكانة السامية، والاهتمام الكبير، و لم تُسَلَّط عليه أضواء المترجمين، كما سُلِّطت على سَمِيِّه (أحمد بن يوسف كاتب المأمون)(١)، رغم أن الثروة العلمية لمؤرخنا المصرى تفوق بكثير جداً تلك التوقيعات والعبارات الجميلة المتناثرة هنا وهناك، منسوبة إلى كاتب المأمون. ولعل مرد ذلك أن الأضواء تسلط - عادة - على كُتَّاب العاصمة (بغداد)، حيث الشهرة العارمة، والقرب من بلاط الخلافة. أما مصر التى ينتمى إليها أحمد بن يوسف مؤرخنا، فهى بمجرد ولاية تابعة لولايات الخلافة العباسية، فلا يهتم بها كثيراً مؤلفو الطبقات والتراجم.

٢- أن (أحمد بن يوسف المصرى) عاصر الدولة الطولونية، وعمل كاتباً بدواوينها بعد أن أوشك نجمها على الأفول، فهو يعد من رجالها. ومعلوم أن صراعاً مريراً استمر طوال حكم (أحمد بن طولون)، ثم فترة من عهد ابنه (خُمَارَوَيْه) مع الموفق (أخى الخليفة المعتمد)، ثم مع ابنه (المعتضد). فالطولونيون يُنظر إليهم على أنهم خارجون على الخلافة، معادون لها؛ ومن ثم يتم تجاهل مؤرخيهم، وعلمائهم، وكتّابهم(٢).

٣- لم يكن أحمد بن يوسف المصرى من حيث السن أو الخبرة على درجة تمكنه من الاتصال بابن طولون، ولا ابنه خمارويه، أو على الأقل لم نظفر بما يفيد مشاركته فى أحداث دولة بنى

---

(١) هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صُبَيْح الكاتب الكوفى. كان والده كاتباً لبنى أمية فى ديوان الكوفة، ثم كتب لعبد الله بن على عم المنصور. قدمه طاهر بن الحسين إلى المأمون؛ لفصاحته وبلاغته (كاتب شاعر). ولى ديوان الرسائل للمأمون، وصار وزيراً له بعد (أحمد بن أبى خالد). أخوه القاسم شاعر أيضاً، وأولادهما جميعاً أهل أدب وبلاغة. توفى أحمد سنة ٢١٣هـ. (كتاب بغداد لطيفور ١٢٨- ١٣٢، والفهرست (ط.طهران) لابن النديم صـ١٣٥- ١٣٦، ١٤٠، ١٨٨، وتاريخ بغداد ٢١٦/٥- ٢١٨، ومعجم الأدباء ١٦١/٥- ١٨٣، والوافى بالوفيات ٢٧٩/٨- ٢٨٢، وتهذيب تاريخ دمشق ١٢٤/٢- ١٢٧). ويلاحظ أن العاملى فرّق بين ثلاثة علماء، يُسمَّوْن (أحمد بن يوسف)، منهم مؤرخنا (أعيان الشيعة ٢٠٦/٣- ٢١٥).

(٢) كنوز الأجداد صـ١٢٨.

طولون (ولو على عهد خمارويه). ومن هنا ضاعت عليه فرصة ذهبية للذيوع والاشتهار فى العهد الذهبى لتلك الدولة (عهد ابن طولون). وأعتقد أن مؤلفاته (التاريخية) ظهرت بعد نكبة الطولونيين، وتعفية آثارهم؛ مما جعلها فى منطقة الظل، وطمس كثيراً من شهرته.

٤- لم يبق من كتب ابن الداية وأشعاره إلا أقل القليل. فبخصوص شعره لم تحتفظ لنا المصادر إلا بأبيات قليلة متناثرة، ترتبط بمناسبات معينة[١]، فلو كان من الشعراء المادحين الكبار، لطبقت شهرته الآفاق.

٥- وأما مؤلفاته فى المنطق والفلسفة، والفلك، والرياضيات، فهى مفقودة فى معظمها، ولم يظهر الاهتمام بتراجم هؤلاء إلا متأخراً[٢]. وفى مجال (القصص) بقى كتابه (المكافأة)، وهو يغلب عليه الطابع الأدبى، وله طابع أخلاقى تربوى، واتخذ من التواريخ مادة له. وجانب مما به من أحداث التاريخ، إلى جانب ما كتبه عن (سيرة ابن طولون) يدخل فى إطار (التاريخ المحلى)، وهو دون كتب التاريخ العام فى الاهتمام بمؤلفيه.

٦- وينضاف إلى ما تقدم عدم اشتهار (أحمد بن يوسف) محدّثاً، ولا مفسراً، ولا فقيهاً، ولا قارئاً، كما هو معتاد فى ثقافات وعلوم المؤرخين الآخرين فى تلك الفترة، حتى تهتم به كتب تراجم هؤلاء المهتمّين بتلك العلوم. فمؤرخنا ابن الداية له ثقافة متميزة، فهو فيلسوف ومنطقى، ورجل علم طبيعى رياضى، يغذى بتلك العلوم موهبته التاريخية وحاسّته الأدبية، ويستمد - إلى جانب ذلك كله - روافده التاريخية من مخالطته رجل الشارع العادى، وتعامله مع طبقات المجتمع على اختلاف درجاتها ونوعياتها بحكم عمله فى إدارة المزارع، والإشراف على الضياع، كما سنرى بعدُ، وهو ما لم يفطن إليه مؤلفو التراجم فى مؤلفاتهم[٣].

٧- وأخيراً، فلعل مؤرخنا (ابن الداية) حَظِىَ من مؤلفى التواريخ والتراجم المصريين بالاهتمام الذى يستحقه، لكن نظراً لفقد هذه الكتب - كتب ابن يونس[٤]، والكندى[٥]،

---

(١) المكافأة (ط.أحمد أمين) صـ٣٩ (أورد أربعة أبيات من الشعر، قالها مدحاً لمجموعة من الحراس، الذين حَمَوْه من قطاع الطرق).

(٢) كما ورد فى الفهرست - ط.طهران) لابن النديم صـ٣٢٨، قال: (أحمد بن يوسف المصرى مفسر كتاب الثمرة لبطلميوس). وكذا فى (طبقات الأمم) لصاعد الأندلسى صـ٥٧، واكتفى بقوله: (صاحب شرح الثمرة لبطلميوس).

(٣) فعلهم نظروا إليه كرجل أعمال، يتابع الأرض، ويستغل محصولاتها، وينشغل بتثميرها؛ للوفاء بخراجها، وعدم التعرض للمصادرة والحبس والهلاك، فلعله غلبت عليه صفة (رجل الأعمال)، لا (العالم المؤلف المؤرخ). ونظراً لعدم اهتمام رجال التراجم بطبقات التجار والمزارعين والمُتَقَبِّلين، ممن نُسب إليهم (أحمد بن يوسف بن الداية)، فقد تعرضت ترجمته للإهمال أيضاً.

(٤) هو صاحب (تاريخ المصريين)، ويتناول أعلام مصر، وعلماءها.

(٥) وله كتاب (أعيان الموالى فى مصر)، وهو مفقود.

وابن زولاق[(١)] - حُرِمْنا المعلومات الكافية الوافية، التي تعطينا ترجمة مفصلة واضحة لهذا المؤرخ الكفء المبدع في مجال التأليف التاريخي.

الملامح العامة لحياة (أحمد بن يوسف المؤرخ)*:

يمكن تلخيص حياة ابن الداية في المعادلة المركبة الآتية:

نشأته وتكوينه متأثراً بوالده يوسف + حصيلة علمية موسوعية اكتسبها من مصادر متنوعة + شبكة علاقاته السياسية + شبكة علاقاته الاقتصادية + علاقاته وخبراته الاجتماعية = إنجازه العلمي والفكري الذي أبدعه على مَرّ سِنِي عمره الطويلة المباركة، التي انتهت سنة ٣٤٠ هـ[(٢)].

والآن، مع تفاصيل المعادلة الحياتية السابقة:

أولاً - نشأته وتكوينه:

١- هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب والمؤرخ المصري المعروف بـ (ابن

---

(١) احتفظ لنا ياقوت في (معجم الأدباء) جـ٥ صـ١٦٠ بمادة طيبة في ترجمة (أحمد بن يوسف)، نقلاً عن (ابن زولاق)، فلعله من كتابه المفقود عن (تاريخ مصر).

(*) تُرجم له في: الفهرست (ط.طهران) لابن النديم صـ٣٢٨، ومعجم الأدباء ٥/١٥٤- ١٦٠ (رقم ٣٥)، وتاريخ الحكماء للقفطي صـ٧٨، والوافي بالوفيات ٨/٢٨٢- ٢٨٣ (رقم ٣٧٠٤)، ومخطوط (عيون التواريخ) للكتبي (مصور عن الظاهرية، وفيات ٣٣٠هـ) ورقة ٦٧، وكشف الظنون ١/٦٦٧، ٢/١٠١٥، ومعجم المطبوعات العربية والمعربة، ليوسف سركيس ١/٢٨٨- ٢٨٩، وريحانة الأدب لميرزا محمد علي مدرس ٧/٥١٤- ٥١٥، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (ط.دار المعارف) ٣/٧٩- ٨١ (رقم ٣)، ومعجم المؤلفين (ط.مؤسسة الرسالة) ١/٣٢٦، والأعلام للزركلي ١/٢٧٢، وأعيان الشيعة للعاملي ٢/٢٦٤، ٣/٢٠٦- ٢٠٧.

(٢) بالنسبة لتاريخ وفاته، فهو يتراوح بين ٣٣٠- ٣٤٠هـ. وأعتقد أن أساس ما ورد من آراء الباحثين بهذا الصدد، يرجع إلى نص ياقوت في (معجم الأدباء) ٥/١٥٩، فيما ينقله عن أبي جعفر(لعله الطبري في كتاب تراجمه المفقود المسمى:ذيل المذيَّل):" توفي سنة نيّف وثلاثين وثلاثمائة، وأظنها سنة ٣٤٠ ". فالبعض أخذ العبارة من طرفيها، وجعل تاريخ وفاة أحمد بين ٣٣٠- ٣٤٠ (د.عمر المالكي محقق الفلسفة السياسية عند العرب لابن الداية في مقدمته صـ٢٦). والبعض حدد الوفاة بسنة ٣٣٠هـ، ولم يلحظ مدلول كلمة (نيف في النص). (معجم المطبوعات العربية ١/٢٨٨ كأحد احتمالين، وكنوز الأجداد ١٢٥، وهامش صـ٥٤٨ بكتاب الإعلان) للسخاوي تحقيق: روزنتال). واكتفى البعض بعبارة ياقوت: (نيف وثلاثين وثلاثمائة) دون تحديد: (الوافي بالوفيات ٨/٢٨٢، وكرد علي في مقاله بمجلة الرسالة ع ٢١٨ صـ١٤٥٢، والعاملي في (أعيان الشيعة ٣/٢٠٦). وجعلها البعض سنة ٣٣٤هـ (فربما لم ينظروا إلى معنى النيف أنه بين العقدين من واحد إلى ثلاثة، فجعلوه إلى أربعة). (كشف الظنون ١/٦٦٧، ٢/١٠١٥، ومعجم المؤلفين ١/٣٢٦، وريحانة الأدب ٧/٥١٤). وحدد آخرون تاريخ الوفاة بسنة ٣٣٩هـ (ربما لم ينظروا إلى المعنى الآخر للنيف، وأنه بين العقدين، حتى تصل إلى العقد الآخر، فوقفوا عند ٣٣٩هـ). وانفرد بذلك (محققو المُغْرِب – قسم مصر)، صفحة م ٣٧، ورجحتُ تاريخ ٣٤٠هـ؛ لاتفاقه مع معنى من معاني النيف اللغوية، ولترجيح ياقوت له، وإن عبّر عنه بالظن الذي يفيد اليقين. (راجع مادة ن.و.ف في (اللسان) ٦/٤٥٧٩- ٤٥٨٠، ومادة ظ.ن.ن ٤/٢٧٦٢- ٢٧٦٣). وهو يقين تدبُّر لا يقين عِيان، الذي يقال فيه: علم. ويمكن مراجعة مادة الظن بمعنى: اليقين في القرآن الكريم (آية ٢٢ بسورة يونس)، وتفسير ابن كثير لها (٢/٤١٢)، وكذلك الآية ٥٣ بسورة الكهف، وتفسير ابن كثير لها (٣/٩٠)، وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان (ط.دار المعارف) ٣/٧٩، والأعلام للزركلي ١/٢٧٢).

الداية). قدم أبوه يوسف إلى مصر حوالى ٢٢٦هـ، وظل مقيماً بها، مستوطناً إياها حتى وفاته أواخر سنة ٢٦٥هـ. ورزق يوسف بابنه (أحمد) حوالى سنة ٢٤٥ هـ[١]. وبناء عليه، فالمؤرخ (أحمد بن يوسف) مصرى المولد والمَرْبىَ والنشأة. ومن البدهى أن يعايش أحمد الجو العلمى الذى عايشه أبوه، فتشرئب نفسه إلى حب العلم والثقافة (وعلى الأخص التاريخ)، وأن يتأثر بوالده تأثراً كبيراً فى حضور مجالس العلماء، وتحصيل العلوم المختلفة، والاتصاف بالثقافة الموسوعية العريضة.

٢- تأثر أحمد بمهنة والده فى تنمية الأموال وتثميرها، واستغلال المزارع وإدارة الضياع والإشراف عليها، فواصل العمل فى المجال نفسه بعد وفاة والده. وقد علمنا أن والده كان حذراً بعيداً عن لعبة السياسة، ومؤامراتها ودسائسها ومخاطرها، ومع ذلك لم يسلم من اضطهادات ابن طولون وشكوكه وحبسه. وكان يوسف غير متطلع إلى نفوذ، ولا طامح إلى منصب، بل كان على حد تعبير أحد الباحثين: يعيش على حرف، يحاول أن ينجو بسفينة حياته من الغرق فى بحر الفوضى فى العصر العباسى الثانى، الذى كثر فيه تغيير الولاة، وتبديل الجباة، وشاع فيه التمرد، كما شاع فيه قطع الطرق[٢]. لقد سار أحمد على النهج نفسه، ونجح فى النأى بنفسه عن المخاطر ما أمكن، وإن كان ذلك لم يمنعه من اكتساب منزلة اجتماعية وعلمية طيبة من خلال علاقاته برجالات عصره.

ثانياً - مصادر ثقافته:

تعددت مصادر المعرفة التى نقل عنها (أحمد بن يوسف) ثقافاته، وتنوعت بتنوع صلاته. وسوف أكتفى بالإشارة إلى عدد من أساتيذه، الذين نقل عنهم علمه بـ (الفلسفة، والتنجيم،

---

(١) بالنسبة لتاريخ ميلاد (أحمد بن يوسف) لم تشر إليه المصادر، ولم نجد سوى استنتاجات بعض المحدثين، فمثلاً: ذكر روزنتال أن أحمد بن يوسف ولد قبل سنة ٢٦٠هـ (وهى السنة التى حددها لوفاة والده يوسف). (هامش صـ٥٤٨ من كتاب (الإعلان) للسخاوى، والمطبوع مع مجلد (علم التاريخ عند المسلمين). ولا شك أن هذا كلام غير محدد، ويصدق على أية سنة قبل ٢٦٠هـ. ونحن نعذر روزنتال فى عدم بحثه الأمر بدقة، فقد ذكر تلك المعلومة وهو فى معرض التعليق على اسم اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) وفى محاولة لفض الاشتباك (التداخل) بين اسمه واسم (أحمد بن يوسف)، الذى يكنى والده بأبى يعقوب أيضاً. وهو تعليق، على كل حال، ألقى الضوء على وجود علاقة بين اليعقوبى، وأحمد بن يوسف المؤرخ. أما الدكتور سليمان العطار، فذكر فى بحثه بمجلة (عالم الفكر) مجلد ١٥، ع٣، ١٩٨٤م (صـ١٨٤): أن ميلاد أحمد بن يوسف سنة ٢٤٠هـ، ووفاته ٣٤٠هـ. وأعتقد أن تاريخ ميلاده غير دقيق، وإلا اشتهرت ترجمته ضمن المعمَّرين قرناً كاملاً من الزمان. ويرى سيد محمد قطب فى (ماجستيره صـ٢٦): أنه ولد بين سنتى: ٢٤٠- ٢٤٥هـ، ثم رجح الأخيرة. وقد اخترتها أنا كذلك، فعمره عند وفاة والده يكون عشرين عاماً، وهى كافية لاستدعائه، والتحقيق معه أمام ابن طولون لحظة وفاة والده، وكافية - كذلك - للاعتماد على نفسه؛ لمواصلة رسالة والده.

(٢) مقال د.العطار فى (مجلة عالم الفكر) صـ١٨٥.

والحساب)، وغير ذلك من العلوم، التى يأتى على رأسها علم التاريخ، على اعتبار أنه أبرز مظاهر ثقافته، وعلى أساس أن التاريخ جزء مهم وجوهرى فى ثقافة رجل، كان يعمل كاتباً فى دواوين الطولونيين(١)، وما بقى من آثاره التاريخية يمثل خلاصة وعصارة فكره، الذى امتزجت فيه كل هذه العلوم.

يمكن تحديد عدد من أساتيذه، الذين كانوا مصادر معرفته فى مختلف العلوم على النحو الآتى:

أ- من أفراد أسرته، وأقاربه: والده (يوسف بن إبراهيم)(٢)، وعمه (إسحاق بن إبراهيم)(٣).

ب- مؤرخــــون: نقــل (أحمد بن يوسف) صراحة عن المؤرخ اليعقوبى(٤) (أحمد بن أبى

---

(١) حول أهمية التاريخ فى ثقافة الكاتب راجع: (صبح الأعشى ٤١١/١- ٤١٢).

(٢) المكافأة صـــ٢٥- ٢٨، ٩٨، ١٤٥، ١٤٧، ١٩٠.

(٣) المكافأة صـــ٢٠ (له صلة بالوزير الواسطى)، وسيرة ابن الداية فى (المغرب – قسم مصر) صـــ١٠٥- ١٠٦، ١١٩- ١٢٠، ١٢٧- ١٢٩ (وفيها نتبين امتداد عمره، إلى ما بعد وفاة ابن طولون ٢٧٠هـــ)، وسيرة ابن طولون للبلوى صـــ٣١٩- ٣٢٠.

(٤) هو أحمد بن أبى يعقوب، إسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح الأخبارى العباسى. توفى سنة ٢٨٤هـــ، وترك لنا عدة مؤلفات، منها: التاريخ، والبلدان، ومشاكلة الناس لزمانهم. (معجم الأدباء ١٥٣/٥- ١٥٤). وحول مقامه فى مصر، وتاريخ وفاته؛ من أجل التحقق من صلته بابن الداية المؤرخ المصرى نذكر ما يلى:

أ- ذكر المسعودى فى مقدمة كتابه: (مروج الذهب حـــ١ صـــ١٤) ضمن مصادره التى رجع إليها (كتاب التاريخ)، تأليف: أحمد بن يعقوب المصرى، وجعله فى أخبار العباسيين وغيرهم. وهنا نلحظ تلقيبه اليعقوبى بلقب (المصرى)؛ مما يفيد إقامته فى مصر فترة كافية، جعلته أهلاً للنسبة إليها. ويلاحظ أن السخاوى نقل عن المسعودى هذا النص فى كتابه: (الإعلان)، نشر روزنثال صـــ٥٤٧- ٥٤٨، وضم إلى اليعقوبى – نقلاً عن المسعودى أيضاً – مؤرخاً آخر كتب فى الموضوع نفسه. لكن المحقق عرض النص على فقرتين، فجعل العبارة كأنها عبارتان، والمؤرخين كأنهما ثلاثة، فبدا النص غامضاً. ولم يعلق على ذلك، أو يصوبه المترجم.

ب- فى آخر كتاب (البلدان) لليعقوبى، وردت له أبيات شعر فى رثاء الطولونيين، بعدما تذكّر ما كانوا عليه من أمجاد، ومظاهر احتفال من ملابس وأزياء وأعلام وطبول ليلة عيد الفطر، تذكر ذلك كله سنة ٢٩٢هـــ (ذكرت محرفة ٣٩٣هـــ). وهذا يعنى أنه كان فى مصر تلك الفترة، ولعله مات بعد سنة ٢٩٢هـــ بقليل، وأقام فى مصر أواخر سنى حياته. ويدعم هذا ما ورد فى آخر كتابه: (مشاكلة الناس لزمانهم – تحقيق: د.محمد كمال عز الدين) صـــ٤٦، من أحداث تتصل بعهد المعتضد (٢٧٩- ٢٨٩هـــ)؛ مما يشير إلى رحيله بعد ذلك إلى مصر، وإقامته بها ولقائه بابن الداية، وينتهى خالص الأشعب فى كتابه: (اليعقوبى) صـــ١٠- ١١، إلى خطأ القول بوفاته سنة ٢٨٤هـــ، ورجح وفاته بعد سنة ٢٩٢هـــ. ويؤكـــد صحـــة ذلك القول وصدق نسبة نص كتاب (البلدان) إلى اليعقوبى، أن ألفيت المقريزى – وهو الثبت المدقق – ينقل هذا النص فى كتابه: (الخطط) ٣٢٦/١ بتاريخ ٢٩٢ هـــ، وإن حرّف الناسخ اسم اليعقوبى من (أحمد) إلى (محمد).

ج- لازلنا فى حاجة لمعرفة تاريخ حياة اليعقوبى، وملابسات قدومه إلى مصر، وتاريخ ذلك من خلال مادة جديدة فى المصادر؛ لأن المراجع تتناقل عن بعضها أحداثاً بتواريخ ليست صحيحة، أو بمعلومات لا ندرى مصدرها (راجـــع: =

يعقوب، عن أبيه) بعض الروايات، وأحياناً كان ينقل عنه، عن أبيه، عن جده واضح. ويبدو أن اليعقوبي نزل مصر، وأقام بها فترة؛ جالسه خلالها مؤرخنا، ونقل عنه بعض المعلومات التاريخية، أورد منها ما يتناسب مع موضوع كتابه[١]، والظاهر أن مؤرخنا (ابن الداية) طالع بعض مؤلفات تاريخية لغير المصريين، مثل: الهيثم بن عدى[٢] (ت ٢٠٧هـ)، والزبير بن بكار[٣] (ت ٢٥٦هـ)، فنقل عنها؛ إذ إنه لم يعاصر أولهما، ويُستبعد لقاؤه بثانيهما.

ج- **كبار رجال دولة بنى طولون**:وهؤلاء منهم: الكتَّاب، والقواد، وصاحب الشرطة، ومستولى شئون السجن، وغيرهم. ولا شك أن اتصالاته بهؤلاء الرجال كانت بعد وفاة والده، ونضج خبراته وشخصيته، وبروز مكانته. ومن أمثلة أولئك: ربيعة بن أحمد بن طولون[٤]، والكاتب والوزير أحمد بن محمد الواسطى[٥]، والكاتب هارون بن مُلُول[٦]، وأحمد بن أيمن[٧]، والحسن بن رافع[٨]، والحسن بن مهاجر[٩]، وأبو جعفر بن عبد كان[١٠]، ونسيم الخادم (أقرب الخدم لابن طولون)[١١]، وأحمد بن دُعَيْم أحد قواد ابن طولون[١٢]، ويعقوب بن صالح صاحب شرطة أسفل الأرض فى مصر[١٣]، وموسى بن مصلح صاحب السجن[١٤].

د- **علماء وفقهاء**: وممن نقل عنهم أحمد بن يوسف: الفقيه الحنفى أحمد بن أبى عمران[١٥]، والفقيه المحدِّث والمفسِّر المصرى سعد بن عبد الله بن عبد الحكم[١٦]، والفقيه الشافعى منصور بن إسماعيل[١٧].

هـ- **أطباء وفلاسفة**: لعله نقل عن الفيلسوف المشهور الفارابى لدى دخوله مصر[١٨].

= تاريخ الأدب العربى لبروكلمان – ط.الهيئة العامة ق٢ صـ٦٤٣: جعله فى مصر سنة ٢٧٨هـ، و(أحمد بن طولون)، للدكتورة سيدة كاشف صـ١٠ (ذكرت وفاته فى مصر ٢٧٨هـ)، ودكتوراه حجازى طراوة (حضارة مصر فى العهد الطولونى) صـ٣١١- ٣١٢: وذكر أن اليعقوبى ولد فى مصر، وعاصر الحكم الطولونى، ومات بها).

(١) المكافأة (ط.أحمد أمين) صـ٧٤، ٩٦، ١٠٣، ١٢٨، ١٨٠، ٢١٥. وسيرة ابن الداية ١٢٢.

(٢) المكافأة ١٢٢. (٣) السابق ١٢٤.

(٤) المكافأة ١٨٢. (٥) السابق، وسيرة ابن الدية ٧٥، ١٢٧.

(٦) المكافأة ٨- ١١، ٣٤، ١٥٥. (٧) السابق ٩١، ١٦٧، وسيرة ابن الداية ١١١.

(٨) المصدر السابق: ٧٦. (٩) السابق: ١٠٣.

(١٠) السابق: ٩٨، ١٠٥. (١١) المكافأة ١١٤، ١١٧، وسيرة ابن الداية ٧٦، ٩٤، ٩٨- ٩٩، ١٢٦.

(١٢) المكافأة ١١ – ١٥ . (١٣) سيرة ابن الداية ١١٤.

(١٤) المكافأة ١٥- ١٩، ٨٩. (١٥) المصدر السابق: ١٠٠، ١٧٣.

(١٦) السابق: ١٥٧. (١٧) السابق: ١٨٤.

(١٨) من خلال وفيات الأعيان ٥/١٥٣ ١٥٧، والوافى ١/١٠٦- ١١٣، وطبقات ابن أبى أصيبعة ٦٠٣، ٦٠٨- ٦٠٩: اتضح أنه ولد حوالى ٢٥٩هـ، وأنه تركى الأصل، وعلى علم بالموسيقى والفلسفة. من مؤلفاته العديدة فى الفلسفة: " المدينة الفاضلة "، التى بدأ تأليفها ببغداد، وحملها إلى الشام آخر ٣٣٠هـ، وأتمها بدمشق ٣٣١هـ. ثم حررها ونظر فى النسخ المحررة. وقدم إلى مصر سنة ٣٣٧هـ، فأشار عليه علماؤها – ومنهم ابن =

وكان على صلة بـ (علىّ المتطبب) المعروف بـ (الديدان)، الذى ذكر أحمد بن يوسف أنه حسن المعرفة بالطب، وبكتب الفيلسوف اليونانى أفلاطون[١]. هذا إلى جانب قراءاته فى كتب العجم كابن المقفع، وغيره[٢].

و- **فَلَكيُّون، وحُسّاب، ومنجمون**: نقل أحمد بن يوسف المؤرخ عن علىّ بن سند[٣]، وبراقة الحاسب[٤] وأبى كامل شجاع بن أسلم الحاسب[٥].

ز- وأخيراً، فقد كانت للمؤرخ أحمد بن يوسف صلات ببعض نساء القصر القريبات من الأحداث، فنقل عن بعضهن ما احتاج من معلومات فى مؤلفاته. ومن هؤلاء: نعت مولاة أحمد ابن طولون، التى كانت أماً لثلاث بنات كُنَّ لابن طولون[٦]. وكذلك نقل عن امرأة كانت تعمل قابلة فى قصر خمارويه، وتعرف بـ (أم آسية)[٧].

وهكذا، عرضنا لأسماء عدد من أساتيذ المؤرخ المصرى (أحمد بن يوسف)، الذين نقل عنهم العلم، وكوّن على أيديهم ثقافته الموسوعية، التى ظهرت فى مؤلفاته التاريخية بعد ذلك، فحُقَّ للصفدى أن يجعله من فضلاء مصر ومؤرخيها، الذين جمعوا علوماً كثيرة أخرى فى: الأدب، والطب، والنِّجامة، والحساب، وغيرها[٨].

ثالثاً - شبكة علاقاته السياسية:

وأقصد بذلك مدى إيجابيته ومشاركته وتأثره بالأحداث السياسية التى عاصرها، ومدى تعاونه مع القوى الحاكمة والمسيطرة أيامه، من خلال مشاركته فى إدارة شئون البلاد فى منصب ما من المناصب وَلِيَه، ودرجة صلاته بكبار الساسة والقادة فى مجتمعه، ومقدار استفادته من تلك الصلات.

أحمد بن يوسف كاتب فى ديوان الطولونيين:

ليس بين أيدينا من النصوص ما يفيد وجود صلة سياسية لأحمد بن يوسف مع الأمير

= الدابة فيما يبدو – أن يُقَسّمها إلى فصول تدل على معانيها، ففعل ذلك بمصر. والغالب أنه جالس ابن الداية، فكان لقاء التجارب والحكم والثقافات (هو قارب الثمانين، وابن الداية جاوز التسعين). ولعله ظل فى مصر حتى ٣٣٨هـ، ثم عاد إلى دمشق، حيث توفى ٣٣٩هـ. السابق: ١٧٦.

(١) المكافأة ٧٨.

(٢) السابق: ١٧٦.

(٣) السابق: ١٧٦.

(٤) سيرة ابن الداية ٨٢.

(٥) المكافأة ١٩٣، ١٩٥، ٢١١، وسيرة ابن الداية ٩٤.

(٦) المكافأة ١٣٥، وسيرة ابن الداية ١٠٣، ١٠٥.

(٧) المكافأة ٢٠٥.

(٨) الوافى بالوفيات ٢٨٢/٨.

(أحمد بن طولون)، اللهم إلا القبض عليه لحظة وفاة والده مع أخ له آخر، والتحقيق معهما، ثم إطلاقهما بعد التأكد من براءة والدهما، وخلو ساحتهما مما يُدين. وأعتقد أن لقب (الكاتب)[١]، الـــذى اشتهر به أحمد بن يوسف له أصل ودلائل تشير إليه، فتلميذه الفَرْغانىّ ألصق وأعرف به مـــن غـــيره، وهو أثبت له ذلك الوصف. وفصاحة أحمد وأسلوبه الراقى فى كتابيه: (المكافأة)، و(ســيرة ابن طولون) يفيد أنه كاتب من طراز ممتاز، وذلك فى زمن كان الكُتَّاب يُختارون فيه ويُنــتقون مـــن ذوى الفصـــاحة والدقـــة والبلاغة والثقافة العريضة، وقد كان أحمد كذلك. والمعلـــومات الـــذى يذكرها أحمد فى مؤلفاته الباقية، واهتماماته بالمادة الحضارية فى (المكافأة)، و(ســيرة ابن طولون) لا يكفى الحصولَ عليها صِلاتُه برجالات دولة بنى طولون، بل لا بد أن يكـــون صـــاحبها طالعها فى الدواوين الرسمية، وسجلات الدولة، وهو مالا يتيسر إلا لمن ولى منصب كاتب الإنشاء فى الديوان[٢].

توقيت عمله فى الديوان الطولونى:

لا نستطيع القطع فى هذه المسألة، لكننا يمكن أن نستنبط توقيتاً تقريبياً. فمن المقطوع به أن أحمـــد بن يوسف لم تكن له صلة بالديوان فى عهد ابن طولون؛ نظراً للوساوس والشكوك التى كانـــت تســـاور ابن طولون تجاه يوسف والده. ويغلب على ظنى أنه لم يعمل - كذلك - فى الديوان زمن خمارويه، وإلا لبلغنا عنـــه بعض المعلومات، فخمارويه ولى فترة معقولة من الزمان (٢٧٠- ٢٨٢هـــ). ويترجح لدىَّ أنه عمل فى فترة (هارون بن خمارويه ٢٨٣- ٢٩٢هـــ)[٣]، فهـــى الفترة الباقية المتأخرة من حياة الدولة الطولونية، والظروف فيها مهيأة أمام مؤرخنا لتولى هـــذا المنصب، فقد خفَّت قبضة الدولة، و لم تعد هناك حساسية تجاه موالى العباسيين، بعد أن تحسنت العلاقات معهم، بل صاهر خمارويه الخلافة مصاهرة سياسية. ثم إن أحمد بن يوسف لا

---

(١) ورد فى (مقدمة المكافأة) لابن الداية صـــ١: " وأخبرنا أبو محمد عبد الله الفرغانى، قراءة منى عليه، قال: أخبرنا أبو جعفر أحمد بن يوسف الكاتب قراءة منى عليه ". فناسخ المخطوطة ينقل عن الفرغانى (أحد تلاميذ ابن الداية) هذا الكتاب بعد أن راجعه عليه قراءة، فأجاز له نسخه وروايته عنه. والفرغانى نفسه نقل الكتاب عن أستاذه بالطريقة نفسها، ولقبه باللقب المذكور. وفى عنوان مخطوط (تفسير كتاب الثمرة لبطلميوس)، الذى وضعه ابن الداية ذُكر أنه (كاتب آل طولون). وأخيراً، فقد وصفه ابن زولاق – فيما ينقله عنه ياقوت – أنه أحد وجوه الكتاب ". (معجم الأدباء ١٦٠/٥).

(٢) ماجستير سيد محمد قطب صـــ٥٤. ويضيف قائلاً: إنه يعمل لدى أمراء بعض بنى طولون، أو من تلاهم من حكام. وأتساءل: ماذا يُقصد بالعبارة الأخيرة ؟ هل المقصود أنه اتصل بحكام فترة ما بين العصرين، أو العصر الإخشيدى ؟ إننا لا نجد ما يدل على ذلك، أو يشير إليه. ثم إن كتبه وعمله ارتبط بديوان الطولونيين، حتى عُدَّ المؤرخ الرسمى للأسرة الطولونية على نحو ما يعبِّر د.الشيال فى (تاريخ مصر الإسلامية ١٢٨/١)، وذلك على اعتبار أنه أول من أرخ لهذه الدولة، وعنه نقل المؤرخون. وارتبطت عاطفته بهم، وأكثر من ذكر محاسن عميدهم فى سيرته.

(٣) الولاة (ط.حسنت) صـــ٢٤٢- ٢٤٦.

صلة له بالعراق كأبيه، فهو مصرى المولد والمنشأ، والمربى.

فإن قيل: ألا تعد كتابته (سيرة خمارويه)، و(سيرة هارون بن خمارويه) دليلاً على اتصاله بديوان (خمارويه) ؟ أقول: ليس هذا شرطاً، وقد سبق أن قطعنا بعدم وجود صلة له بابن طولون، رغم أنه كتب سيرته أيضاً(١).

وأعتقد أن هنا فارقاً مهماً بين (سيرتى: ابن طولون، وخمارويه) من جهة، و(سيرة هارون بن خمارويه) من جهة أخرى. فالأولَيان كتبهما - فى الغالب - من واقع مرويات غلمان الأميرين، وقادهما، ورجال الدولة، والمقربين من القصر (رجالاً، ونساء). ولا بأس أن يدعمهما - بعد عمله بالديوان - بمزيد من التنقيح والتهذيب، وذكر الوثائق. أما (سيرة هارون بن خمارويه)، فكان أقرب إلى الأحداث وصاحبها، فكتب من واقع تجربة عملية عايشها فى الديوان.

وعلى كل، فقد حَرَمنا فقد السيرتين الأخيرتين فرصة معرفة توقيت اتصاله بديوان الطولونيين على نحو قاطع، وإن كان مجرد إقدامه على كتابة (سيرة هارون بن خمارويه)، وعهده عهد ضعف واضطراب، وشخصيته ليست من الأهمية والتأثير، بحيث تستأهل أن تُفرد لها ترجمة مفردة، كل ذلك يجعلنا نرجح أنه كتبها؛ مجاملة للرجل، الذى عيّنه فى الديوان.

حدود صلته بالبيت الطولونى:

(١) أعتقد أنها صلة لا تتعدى كونه كاتباً، يقوم بعمل إدارى فى الديوان. ولست أتفق مع من يخرج هذه العلاقة، عن حدودها المعقولة؛ فيجعله أحد الباحثين مقرباً إليهم(٢)، ويجعله آخر أحد خواص دولتهم(٣)، ويبالغ ثالث مبالغة مخالفة للواقع، فيقول: كانت له بهم خُلْطَة وأُنسَة، وأنه لأصالة بيته(٤)، ونُبْل مَحْتِده تُفتَّح له أبواب القصور، فيَطَّلع على سر القوم وجهرهم،

---

(١) أما فترة حكم خمارويه، فلا يوجد نص، يدل على صلة أحمد بن يوسف بخمارويه. وكل ما وجدته نص فريد فى مخطوط (شرح كتاب الثمرة لبطلميوس)، لأحمد بن يوسف صـ٣٢، يذكر فيه أن خادم خمارويه قدم إلى أحمد، وأعلمه أن مولاه خمارويه رُزق هارون، وسأله الخادم (بصفة شخصية) أن ينظر فى النجوم، ويخبره ما إذا كان هارون سيتقلد أعمال مصر. ولما كان ابن الداية مؤرخنا فى زمن الحداثة (فترة الطلب لعلم التنجيم)، لم يستطع معرفة الجواب الصحيح، فسأل أحد المخضرمين فى حساب النجوم (صالح بن الوليد التميمى)، فأجابه بعد أن أعطاه مالاً بأنه سيلى الأمور، وحدد مدة توليه بالتقريب. من الواضح أن الصلة كانت بخادم خمارويه لا خمارويه نفسه، وأن ذلك كان بعد وفاة ابن طولون بقليل، وفى بداية عهد خمارويه (سنة ٢٧٠هـ)، إذ كان مؤرخنا ابن ٢٥ سنة. ومعلوم أن هارون (ولى ٢٨٣هـ، وقتل فى صفر ٢٩٢هـ)، فيكون توفى عن ٢٢ عاماً، وولى وهو صغير السن (النجوم ١٤٢/٣)، وهذا أرجح عندى مما ورد فى (الولاة صـ٢٤٦)، إذ جعل عمره ٢٨ سنة، فيكون ميلاده سنة ٢٦٤هـ (فى عهد جده ابن طولون)، وهذا غير صحيح، فالرواية تذكر أن ميلاد هارون كان فى عهد أبيه خمارويه.

(٢) تاريخ مصر الإسلامية، للدكتور الشيال ١٢٨/١.

(٣) هو ابن سعيد فى (المغرب - قسم مصر) صـ٧٣.

(٤) وهذا غير صحيح، فالمعروف أن أباه من موالى العباسيين، لكن ذلك لا يجعلنا نغمط من قدره، بل نعجب بعلمه وثقافته.

وعلى عُجَرهم وبُجَرهم[١]. إنه حقاً كلام إنشائي جميل، لكنه لا نصيب له من الحقيقة، فلا هو من أصل عظيم، ولا القصور مفتحة أمامه. هو - في كلمة موجزة - مثقف على درجة عالية من الذكاء، وثرى من الأثرياء، خدمته الظروف بعد موت أبيه، ثم موت ابن طولون، ثم تَحَسُّن الصلة بالخلافة، فعمل بالديوان؛ ليفيدوا من خبرته ومواهبه في وقت عمّت فيه الاضطرابات، فوظّف عمله الجديد في خدمة مؤلفاته التاريخية، فوضع يده على كثير من البيانات في الدفاتر والسجلات والوثائق. وتابع الأحداث عن كثب، واستثمر صلاته السياسية والاجتماعية، فكتب تاريخ تلك الفترة على نحو رائد متطور جدير بالإعجاب، كما سنرى.

أبرز الأحداث السياسية، وموقفه منها:

نحاول من خلال هذه الفكرة - وفي ضوء المادة العلمية الموجودة - أن نبرز الدور الذى لعبه مؤرخنا خلال الأحداث الجسام، وهل كانت له هموم عامة، أو كان اهتمامه منصباً على رعاية مصالحه، وحماية أمواله الخاصة.

أ- **موقفه خلال حملة** محمد بن سليمان ودمْيانَة القائد البحرى؛ للقضاء على الدولة الطولونية، وإعادة مصر إلى تبعيتها للخلافة العباسية: لقد تعرضت مزارعه - في البداية - لنهب وسلب جند دميانة، إلا أن القدر أنقذه من أضرار فادحة، كادت تلحق ضياعه، عندما سانده وعَضَّده أحد أصحاب القائد دميانة، وقد تعرف إلى أحمد، الذى كان قد أحسن إليه فيما مضى. وبذلك ظلت مزارعه في حماية الجند حتى غادر الجيش تلك الناحية[٢].

وثمة موقف آخر نجا فيه (أحمد بن يوسف) من التعرض للإهانة والتعذيب، واستصفاء أمواله على يد القائد (محمد بن سليمان)؛ نتيجة معروف صنعه بابنة عم هذا القائد[٣]، واشتياق ابن سليمان لرؤيته بعد ما سمع من أشعاره بالعراق، تلك التى يرويها عنه الشاعر العراقى سَوَّار بن أبى شُراعة[٤].

ب- موقفه أثناء حركة ابن الخليج وبعدها:

يبدو أن مؤرخنا كان متحمساً لحركة هذا الرجل، باعتبارها محاولة لإعادة نفوذ وحكم الطولونيين من جديد، فقام بالتعاون مع هذا القائد، وظل على إشرافه على الضياع والمزارع مقابل انتفاع السيد الجديد بنصيب من غَلاَّتها. وقد عانى مؤرخنا من الفوضى والاضطراب الذى أصاب البلاد لما أفلت الزمام من يدى ابن الخليج، حتى اضطر إلى الاستعانة بمن يحميه

---

(١) مدخل كرد على لسيرة البلوى صـ٨. وفي (المعجم الوسيط) جـ١ صـ٤٠ مادة (ب.ج.ر): أفضيتُ إليه بـ (عُجَرى، وبُجَرى)، أى: أطلعته على معايبى، وأمرى كله؛ لثقتى به.

(٢) المكافأة صـ٤١- ٤٣.   (٣) السابق ٨٠- ٨٢.   (٤) السابق ٨٢- ٨٤.

ويحرسه من اللصوص وقطاع الطريق، وهو فى طريقه إلى الفسطاط بعد خلوها من الجند. فلما قُبض على ابن الخليج وانتهى أمره، اختفى أحمد؛ مخافة الإيقاع به، ونُهبت ضياعه، وذهبت أمواله وأملاكه، فقاسى شديد الخوف والفقر، حتى أنقذه الوزير أبو العباس أحمد بن محمد بن بسْطام[١]، الذى دخل مصر للإشراف على شئونها[٢].

رابعاً - الملامح العامة لظروف (أحمد بن يوسف) الاقتصادية، وصلاته الاجتماعية:

١- شارك أحمد بن يوسف أباه فى عمله، وكوَّن خبرة اقتصادية ومالية وإدارية لا بأس بها. وبعد وفاة والده تحمل تبعات هذا العمل، وأثرى فيه ثراء كبيراً، وكانت له أراض عديدة فى أنحاء مصر، يشرف على زراعتها. ولا شك أنه تعرض لهزات عنيفة، أضرت به أبلغ الضرر وأفدحه خلال الاضطرابات السياسية.

٢- لا شك أن اتساع مجالات نشاطه الاقتصادى جعله على صلات اجتماعية وثيقة بالعاملين بالأسواق، والمزارعين من فلاحين بسطاء. ويعتقد أنه كان له خدم، وأجراء، ووكلاء وكُتَّاب، يساعدونه فى إنجاح مهامه التى يقوم بها. وذلك الاختلاط والاندماج عرَّفه طبقات الناس فى مجتمعه بكل ما انطووا عليه من خير ومن شر[٣]، وكان له انعكاساته فى مؤلفاته.

٣- بخلاف الأزمات الاقتصادية التى أضَرَّتْ بمؤرخنا؛ نتيجة انعدام الأمن، واضطراب الأحوال، فقد كان يُطالَب - أحياناً - من مسئولى الخراج بأموال تفوق طاقته (ربما لتقديرات جزافية، أو لعدم مراعاة ما قد تتعرض له المحاصيل من آفات). وقد كان أحمد يحاول إظهار حاجته، وسوء ظروفه المالية لمسئولى الخراج؛ حتى يوضع ذلك فى الاعتبار[٤].

الخلاصة:

كان مؤرخنا يلى منصباً فى ديوان الطولونيين أواخر دولتهم، ولكن مشاركته فى التطورات

---

(١) راجع أخباره فى (الوزراء) للصابئ صـ٤٩- ٥٠، ٩٥- ٩٦، ٢٧٥.

(٢) تم ذلك خلال فحص أبى العباس حال الضِّياع فى مصر بعد ابن الخليج، وحدودها، وأسماء المشرفين عليها حتى سنة ٢٥٠هـ، فوجد اسم يوسف بن إبراهيم فى ضياع كثيرة. فلما علم أنه صاحب ابن المهدى، سأل عن ولده، وعلم أن أحمد مقيم فى مصر، فاستأمن له إسحاقُ بن نُصير الكاتب، الذى كان يؤويه فى داره، فأمَّنه أبو العباس، وحصل منه على نسختين من كتابَىْ والده: (الطبيخ، وأخبار إبراهيم بن المهدى). (المكافأة ٢٠٢- ٢٠٥).

(٣) كنوز الأجداد ١٢٧.

(٤) دخل يوماً على صاحب الخراج (أبى الحسن على بن المظفَّر الكَرْخىّ) مُسلِّماً عليه، فسأله عن حاله: كيف حالك يا أبا جعفر ؟ فقال أحمد على البديهة مستدراً عطفه:

يكفيك من سوء حالى إنْ سألتَ به   أنّى عـلى طَبَرىٌّ فى الكـوَانين

(معجم الأدباء ١٦٠/٥، والوافى ٢٨٢/٨، وماجستير سيد محمد قطب ٣٩). أى: فى هيئة رثّة، وحال رقيقة كمن يلبس ملابس خفيفة فى برد الشتاء القارس فى (كانون الأول، والثانى: ديسمبر، ويناير)؛ لعَوَزه الشديد.

السياسية فى عصره لم تكن كافية. وكان هَمُّ أحمد بن يوسف وسط الخطوب المدلهمة أن ينجو بأمـــواله وضـــياعه. ولم نر له قدرة على الوقوف أمام اعتداءات الجند وسلبهم ونهبهم مزارعه، وكـــان أعجـــز من الوقوف أمام طغيان أصحاب الخراج وظلم الدولة زملاءه فى المهنة، بل هو يختبئ ويترك ضياعه؛ لينجو بخاصة نفسه، فينقذه القدر وإحسانه السابق من الهلاك.

الإنجاز العلمى لأحمد بن يوسف المؤرخ المصرى:

تلقى مؤرخنا معارفه وعلومه على أيدى الأساتيذ والكتب[١]. وأعتقد أن طلبه العلم كان ميلاً وفطرة وطبيعة، ثم اكتساباً من بيئة والده العلمية. وأعتقد - أيضاً - أنه كان بإقباله على العلم يخفف عن نفسه ويلات القلق، وهموم التجارة، والانخراط فى الحياة المادية بكل مخاطرها ومحاذيرها، فكان ينتشل نفسه بين الحين والحين، يقرأ ويحاور ويناقش، فيجد فى مجالس العلماء لذة وسروراً وسعادة، كلما فهم جديداً، وأتقن علماً جديرا[٢]. ومن المنطقى - بعد ذلك - أن يشـــتغل بالتصنيف، فيُخَلِّف لنـــا كتباً وتلاميذ، ينقلون عنه علمه، الـــذى تستفيد منه الأجيال التالية.

مؤلفاته:

١- **فى مجـــال الـــتاريخ**: سيرة أحمد بن طولون، وسيرة أبى الجيش (خُمارويه)، وسيرة هارون بن خمارويه، وأخبار غلمان بنى طولون[٣].

٢- **فى الأدب، والقصص**: مجموعة من الأشعار ليست بالقليلة[٤]، وكتاب (المكافأة)،

---

(١) فلا غنَى عنهما معاً: يؤخذ العلم من الكتب لقوىّ الفهم، والأساتيذ مطلوبون فى كل علم يُطلب اكتسابه (طبقات ابن أبى أصيبعة صــ٦٩١).

(٢) ورد أن أرسطو الفيلسوف اليونانى أعاد على تلميذ له مسألة، فقال له: أفهمتَ ؟ قال التلميذ: نعم. قال: لا أرى آثار الفهم عليك. قال: وكيف ذلك ؟ قال: لا أراك مسروراً، والدليل على الفهم السرور. (طبقات ابن أبى أصيبعة: صــ ١٠٢).

(٣) معجم الأدباء ٥/١٥٩- ١٦٠ (وعبَّر عن سيرة خمارويه بلفظ فيه تحريف: كتاب سِيَراته إلى أبى الجيش خمارويه)، والوافى بالوفيات ٨/٢٨٢- ٢٨٣، ومخطوط عيون التواريخ (ورقة ٦٧). وفسَّر كرد على فى (كنوز الأجداد) صــ١٢٦، غلمان بنى طولون بقوله: رجالهم والقائمون بأمرهم. ويلاحظ أن كل هذه الكتب تتصل بالطولونيين، وكلها مفقودة، إلا أن ابن سعيد نقل لنا الكتاب الأول منها فى كتابه: (المغرب – قسم مصر) صــ٧٣- ١٣٣. وفى (بغية الطلب) لابن العديم جــ٣ صــ١١١٤- ١١١٥ يقول المؤلف: قرأت فى سيرة خمارويه فى نسخة عتيقة. ولم يُسَمِّ مؤلفها. ونقل لنا اضطراب جيش خمارويه الخارج إلى الشام، وخروج الواسطى عليه، وتحريضه الموفق ضده. وأعتقد أن هذا النص الوحيد الفريد من (سيرة خمارويه) لابن الداية.

(٤) فقد سأله صديقه الشاعر العراقى (نزيل مصر) قبل رجوعه إلى بلده أن يكتب أحمد له بعضاً من شعره، فكتب له أحمد مقدار خمسين ورقة منه، فكان يستحسنه ويعجب به، ويعرضه على الأشراف والسادة فى بلده، فيُثنون عليه (المكافأة ٨٢).

وكتاب (حُسْن العُقْبَى)[١].

٣- في السياسة، والأخلاق، والفلسفة: كتاب (السياسة)[٢]، أو (العهود اليونانية)[٣].

٤- **في المنطق**: كتاب(مختصر المنطق)الذى ألفه للوزير(عليّ بن عيسى)[٤].

٥- **في الفلك، والرياضيات**: فسّر أحمد بن يوسف المصرى المهندس كتاب (الثمرة) لبطلميوس[٥].

---

(١) معجم الأدباء٥/١٦٠. واعتبرهما الصفدى كتاباً واحداً باسم (المكافأة،وحسن العقبى). (الوافى بالوفيات٨/٢٨٣). وهو الصحيح المشهور الموجود مطبوعاً بين أيدينا.بينما اكتفى ابن أبى أصيبعة بتسميته(حسن العقبى)، ونقل عنه (الطبقات صـــ٢٨٧). وكذا سمّاه حاجّ خليفة فى (كشف الظنون) ١/٦٦٧. والحق أن كتاب (المكافأة) عبارة عن ثلاثة أقسام:
١- المكافأة على الحسن: وفيه يعرض أحداثاً مرت، أو نماذج من التاريخ لأناس أحسنوا، فلقوا جزاءهم خيراً.
٢- المكافأة على القبيح: وهى عكس النماذج السابقة.
٣- حسن العقبى: حكايات تفيد أن الصبر والجهد جزاؤه حسن العاقبة. وهو كتاب أدبى فى المقام الأول، وإن وردت به بعض أحداث تاريخية ومظاهر حضارية من عصور مختلفة، استخدمت للتدليل على هدفه من الكتاب. (راجع: النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى، للدكتور زكى مبارك صـــ٣٧٣- ٣٧٧، وتصويب بعض الأخطاء اللغوية الواردة فيه من خلال مقال عبد القادر المغربى فى (مجلة المجمع العلمى بدمشق) مجلد ١٩، ١٩٤٤م، صـــ٣٢- ٤٠ ، ودراسة الكتاب دراسة أدبية تحليلية فى مقال د.العطار فى عالم الفكر، وماجستير سيد محمد قطب.

(٢) تلك تسمية بروكلمان فى (تاريخ الأدب العربى) – ط.دار المعارف – جـــ٣/٨٠، والزركلى فى الأعلام ١/٢٧٢.

(٣) ذكر هذا العنوان سيد محمد قطب فى ماجستيره صـــ٧٦.وحُقّق الكتاب حديثاً بالجزائر على يد د.عمر المالكى بعنوان:(الفلسفة السياسية عند العرب).ولا صحة لما ذكره هذا المحقق فى مقدمته صـــ٢٨:أن المؤلف ابن الداية غادر مصر بعد سقوط الطولونيين إلى بغداد،وأهدى هذا الكتاب إلى الوزير على بن عيسى بن داود وزير المقتدر العباسى. وهذا الكتاب مهم،ويعبر عن عمق ثقافة ابن الداية الفلسفية،وحسن نقله آراء فلاسفة اليونان،وحسن تطويعها لمبادئنا،والتعبير عنها بلغة راقية عميقة.وهو على هيئة وصية ملك لابنه، ووزير لابنه، ورجل عامّى لولده، وهو نظريات سياسية للإصلاح الشامل.

(٤) معجم الأدباء ٥/١٦٠، والوافى ٨/٢٨٣، وهو كتاب مفقود، لعله جمع فيه مطالعاته فى كتب أرسطو المنطقية، التى عرفها العرب، وترجموها منذ ابن المقفع الذى ترجمها للمنصور (تاريخ الحكماء للقفطى صـــ٢٢٠). وهو يعبر عن حب ابن الداية للقياس واحترامه للعقل، كما هو واضح من إيراده أخبار ذكاء وفراسة ابن طولون (سيرة ابن الداية ١٠٠- ١٠١). ولعله أهداه إلى ذلك الوزير سنة ٣١٢هـــ لما قُلّد أعمال مصر والشام، وجُعل أمر المغرب كله إليه (صلة تاريخ الطبرى ١٠٧). وربما أهداه إليه سنة ٣١٨هـــ، لما قدم يُعضّد أبا بكر الماذَرائى برأيه، لما ولى أعمال مصر (السابق ١٣٠).

(٥) الفهرست لابن النديم (ط.طهران) صـــ٣٢٨، ومعجم الأدباء ٥/١٦٠، وتاريخ الحكماء ٧٨ (جعله فى أحكام النجوم)، والوافى ٨/٢٨٣ (سماه ترجمة كتاب الثمرة). وظن د.شاكر مصطفى أن كتاب الثمرة لبطلميوس فى الفلسفة (التاريخ العربى والمؤرخون ٢/١٨٦). والصواب: أنه فى (الفلك وأحكام النجوم). وذكر بروكلمان فى (تاريخ الأدب العربى) – ط.دار المعارف – جـــ٣/٨١: أن نصير الدين الطوسى شرح كتاب (الثمرة). وأعتقد أن لأحمد بن يوسف رسالة أخرى فى (الفلك والنجوم) مفقودة، لكنه أشار إليها فى مخطوطته (شرح كتاب الثمرة) صـــ٣٢. ومن مطالعتى للمخطوط المذكور، تبين أنه يذكر عبارة بطلميوس فى هذا الكتاب تحت عنوان: (كلمة). وتحتها فى وسط السطر تُكتب كلمة (التفسير)، وأسفلها شرح المؤلف (ابن الداية). والكتاب خليط من الفلك والتنجيم، وأحداث التاريخ، التى يدلل بوقوعها على صدق حسابات الفلكيين وتنبؤاتهم. ومن الأحداث المعروضة فيه: أخبار الطولونيين، ومجئ الحملات العبيدية على مصر (حملة حباسة، وحملة القائم). وقد عَلّم البحث فى النجوم ابنَ الداية الدقة والتثبت قبل إصدار الأحكام، والفصل بين المتشابهات والمتداخلات. ولا شك أن لذلك أثره فى دقته التاريخية، واختيار موارده (راجع المخطوطة صـــ٥٨- ٥٩، ٦٦- ٦٧، ١٠٠- ١٠١).

وأمـــدنا القفطـــي[١]، وبـــروكلمان[٢] بمجموعة كتب، نسباها إلى أحمد بن يوسف في مجال الرياضيات.

تلاميذه:

١- **أبـــو محمد عبد الله بن أحمد الفَرْغاني[٣] (ت ٣٦٢هـــ)**:وهـــو راوى وناقل كتاب (المكافأة) عن مؤلفه (أحمد بن يوسف بن إبراهيم) قراءة عليه[٤].

٢- **الحسن بن إبراهيم بن زولاق الليثي المصرى (ت ٣٨٧هـــ)**: وهو تلميذ مؤرخنا ابن الدايـــة، وتـــرجم له على نحو متكامل[٥]. وذكر ابن زولاق فى مقدمة (سيرة الإخشيد): أن أبا جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر، وسيرة ابنه خمارويـــه، وأُنشدا فى الناس، وأنه قرأهما عليه، وحَدَّث بهما عنه مع غيرهما من مصنفاته، وأنه عمل ما فاته من سيرتهما[٦]. وهذا يعني: أن ابن زولاق تلميذ أثير لدى أستاذه أحمد بن يوسف، يقرأ عليه مؤلفاته، ويذيّل عليها بعد ذلك؛ حتى تكتمل كتب أستاذه التاريخية.

قضية تشيعه:

ســـلّم أحد الباحثين[٧] بتشيع (أحمد بن يوسف المصرى)، وإن جعله تَشَيُّعاً معتدلاً غير متعصب، واســـتدل على ذلك بأدلة، منها: صلته باليعقوبي المؤرخ الشيعي[٨]، وكأنه يرى أن تلك الصلة جعلت التشيع ينتقل إليه. ويرى - كذلك - أن ميول أبيه (يوسف) العلوية[٩] دليل على تشيع ابنه، كأنما انتقل إليه التشيع وراثة. بالإضافة إلى أنه رسم للعلوى فى كتابه (المكافأة) صورة طيبة فى الإحسان[١٠].

---

(١) تاريخ الحكماء ٧٨.
(٢) تاريخ الأدب العربي (ط.دار المعارف) ٨١/٣.
(٣) راجع ترجمته فى: سير أعلام النبلاء ١٣٢/١٦- ١٣٣، ومعجم المؤلفين ٢٢٣/٢، ومقدمة جست لكتاب (الولاة) فى ترجمة المصنّف صـــ٤- ٥.
(٤) المكافأة صـــ١.
(٥) معجم الأدباء ١٦٠/٥.
(٦) المغرب (قسم مصر) صـــ١٤٨.
(٧) ماجستير سيد محمد قطب صـــ٣٥، ٦٩- ٧٠.
(٨) ينسب إلى جده الأعلى (واضح) تشيع مستتر، ظهر فى تآمره حتى أفلت إدريس بن عبد الله إلى المغرب، وقد كان واضح على بريد مصر؛ مما عَرّضه لقتل المهدى له وصلبه سنة ١٦٩هـــ. وجدير بالذكر أن واضحاً كان والياً على صلاة مصر وخراجها من ٢٣ من جمادى الأولى سنة ١٦٢هـــ، وعُزل بعد حوالى ٤ شهور؛ لشدته على الناس. (حول تشيعه ومناصبه فى مصر: راجع النجوم ٥١/٢- ٥٢، ومقدمة محقق تاريخ اليعقوبى ٦/١- ٧، وتاريخ الأدب العربى (ط.الهيئة العامة) ق٢ صـــ٦٤٢- ٦٤٣.
(٩) لعله يقصد إحسانه إلى العلويين، الذى أدركه ابن طولون لما هاجم جنده دار يوسف بن إبراهيم لحظة وفاته. (المكافأة ٨٨- ٨٩).
(١٠) السابق: ١٢٤- ١٢٦.

والحق أنه استدل بأدلة يسهل الرد عليها، كما يلى:

١- لا يــوجد فى صــلة ابن الداية باليعقوبى ما يؤكد تأثير الأخير فى مؤرخنا، حتى يتبع مذهبه فى التشيع.

٢- إحسان يوسف وكرمه عام مع العلويين وغيرهم، فهو رجل محب للإحسان، متصف بالمــروءة مــع كل المحتاجين، ولا يعد إحسانه إلى العلويين تشيعاً. وبالنسبة لصورة العلوى التى رسمهــا فى إحــدى روايات كتاب (المكافأة)، فهى منقولة من مصدر موثوق به، وتتفق مع ما عُرف عن العلويين من كريم الأخلاق والصفات.

ونخلص من ذلك - رغم ما تذكره بعض كتب الشيعة[1] - إلى أن الرجل محب لآل البيت حباً مشروعاً لا إفراط فيه ولا تفريط، وهو بعيد كل البعد فى أفكاره ومؤلفاته عن أفكار الشيعة الضالة، وعقائدهم الباطلة.

سمات شخصيته:

تتشكل شخصية الإنسان من واقع نشأته وتربيته، ثم من خلال تراكم خبراته وتجاربه فى الحياة، وما اكتسبه من قيم وأخلاقيات. ويمكن تتبع هذه الملامح والسمات على النحو الآتى:

١ - أمانته:

وذلــك نلمسه من دقته المتناهية فى رواياته التاريخية، وحرصه على ذكر مصادر معلوماته، وأداء الــرواية كما سمعها وتلقاها. ومثال ذلك: ما رواه عن موسى بن طولون (أخى أحمد بن طولــون)، بخصــوص رجل، كتب عنه (طيفور) - عين ابن طولون فى الحضرة - أنه لا ينعقد مجلــس للكبراء إلا ويقوم رجل من الموالى الحاضرين - ذهب عنه اسمه - بالوقوع فى أحمد بن طولــون[2]. فهــنا لا نشك فى معرفة (طيفور) بهذا الشخص، لكن نسيان اسمه كان من ناقل الرواية (موسى بن طولون)، الذى أدى مؤرخنا عنه روايته كما سمعها.

٢- عقليته المنظمة، وعقلانيته وموضوعيته:

وذلك نلحظه من خلال المظاهر الآتية:

أ- نظرته الشاملة للأمور، وحسن تقسيمه وتنظيمه:

وقــد ظهــر ذلك فى كتاب (المكافأة)، إذ جعل له مقدمة، أوضح فيها هدفه الأصيل من

---

(١) أعيان الشيعة للعاملى ٢٠٧/٣.

(٢) المغرب (قسم مصر) صــ٩٥.

الكتاب[١]، ثم عرض القسم الأول منه (المكافأة على الحسن)[٢]، وجعل فى نهايته خاتمة ملائمة، هى - فى الوقت نفسه - مدخل مُمَهِّد للقسم الثانى من الكتاب (المكافأة على القبيح)[٣]. وفى نهايته وضع لهذا القسم خاتمة ملائمة لموضوعه، وممهدة للقسم الثالث والأخير من الكتاب (حسن العُقْبَى)[٤]. وبعد انتهاء القسم الثالث كتب تحت عنوان: (خاتمة)[٥] ما يعد ختاماً للكتاب ككل. فهذا التخطيط وذاك الترابط الموضوعى بين أقسام الكتاب يشير إلى عقلية منهجية منظمة[٦].

ب- حياده وعدم تعصبه:

فهو ينقل عن مختلف العلوم والثقافات (عربية، وفارسية، ويونانية). ويتتلمذ على مختلف الأساتيذ من فقهاء، ومؤرخين، ورياضيين، ورجال فلك وحساب، وعلماء طب، إلى آخر هذه النوعيات المتعددة من العلماء، الذين عرضنا لهم (فى مصادر ثقافته). ويعد كتابه الفلسفى (العهود اليونانية) نموذجاً لنقله عن ثقافات الأمم الأخرى ما يصلح لنا، وتطويعه ليلائم قيمنا وسلوكنا.

ج- قدرته على الاستدلال المنطقى:

فهو يعرض رأياً ما فى قضية من القضايا بهدوء، ويبين خطأ هذا الرأى، ثم يعرض فكرته هو، ويقدم دليل صدق رؤيته[٧]. وبذلك يقنع قارئه بهدوء وأمانة من خلال عرض وجهات النظر المختلفة، مقدراً كل جهد ورأى وفكر بُذل فيها[٨].

٢- حكمته وخبرته الكبيرة بالحياة:

فهو يعلم أن الدنيا ملْؤُها النَّصَب والتعب، فيجب الصبر على بلائها وشقاء الإنسان بها. والدنيا تتطلب العمل الدائب، الذى لا يعرف الكلال ولا الملال، مع احتفاظ المرء بأسراره. " واعلم أن الميل إلى الراحة غفلة عن عدو لا يغفل، وأن مَنْ ضعف عن سره لم يقو بشئ من أمره "[٩].

ومن منطلق فهمه السابق كان أحرص ما يكون على استغلال وقته، وعدم التفريط فى شئ

---

(١) المغرب (قسم مصر) صـ١- ٣.
(٢) يمتد من صـ٥- ١٠٤، وخاتمته ١٠٤- ١٠٥.
(٣) يمتد من صـ١٠٦- ١٦٠، وخاتمته ١٦٠- ١٦١.
(٤) يمتد هذا القسم من صـ١٦٢- ٢١٨.
(٥) صـ٢١٩- ٢٢٠.
(٦) لمزيد من النماذج راجع: الفلسفة السياسية عند العرب لابن الداية صـ٦٢، ٩٩- ١٠٠.
(٧) الفلسفة السياسية عند العرب لابن الداية (مقدمة المحقق ٤٥- ٤٦).
(٨) ماجستير سيد محمد قطب صـ٦٧.
(٩) الفلسفة السياسية عند العرب صـ١٢٣.

منه، فإذا أضفنا إلى ذلك عمره المديد، الذى قارب المائة، أدركنا سر تحصيله كل هاتيك العلوم والمعارف والثقافات، مع انشغاله بتثمير أمواله، والإشراف على مزارعه، وإدارة ضياعه. وهو يعبر عن إيمانه العميق بقيمة الوقت فى قوله: " ومِنْ أحمدِ الأمور بك أن تقدم الاحتياط فى إنفاق ساعات زمانك أكثر من تقديمك الاحتياط فى إنفاق مالك؛ لأن الذى يمضى من المال قد يُستخلف، وما يمضى من الزمان لا يرجع "[١].

وفى سبيل الحفاظ على الوقت وعدم تفلته، يرى ضرورة التحكم فى النفس وشهواتها، وحسن امتلاك زمامها؛ حتى تكون أقوى على إدارة شئون غيرها. " واعلم - يا بنى - أنه لا يضبط الكثير من الناس من لم يضبط نفسه الواحدة، فارفع نفسك عن كَلَب الحرص، وذل الشهوة "[٢].

ويعلم أحمد بن يوسف أن الأعمال والواجبات أكثر من الأوقات، فلا بـــد من حسن تنظيم الوقت لأدائها مهما كثرت دون تسويف ولا تأجيل، وبإقدام وجسارة متناهية. ويرى أن يحرص الإنسان على الجمع بين العلم والعمل، فهو يدرك صعوبة العمل وتنفيذ الخطط. وإن تطلب الأمر الاستعانة بمعاونين، فلا يستخدمَنَّ المرء إلا الأكْفاء الأمناء. يقول فى هذه المعانى كلها: " فلا يشغلنك تفصيله عن جملته، فيضيعَ منك بأسره. ولا تدفعنَّ عملاً عن وقته، فإن للوقت الذى تدفعه إليه عملاً آخر. وأقل ما يلحقك من ازدحام الأعمال دخول الخلل فيها. واعلم أن تَهَيُّب العمل يطيل زمانه "[٣]. ويقول أيضاً: " ولا تتوهم أن كل ما علمتَه تقدر على عمله، فإن رياضة العمل أصعب من رياضة العلم. ولا تركن فى الاستخدام إلا إلى شفاعة الكفاية والأمانة"[٤].

٣- طبيعته الحذرة القلقة، وأثرها فى علاقاته:

تعرض مؤرخنا فى حياته كبيراً، وفى حياة والده يوسف صغيراً، لبعض المحن. وعاش مؤرخنا حياة رجال الأعمال المملوءة بالاضطراب والقلق النفسى، والحذر الشديد فى زمن شاعت فيه مصادرات الأموال بالحق والباطل. وخالط أحمد بن يوسف - بحكم عمله - طبقات المجتمع على اختلافها، وأدرك طبائع النفوس البشرية، وكثرة ما يعتريها من حسد وطمع وبغض، فتغلغلت سمتا الحذر والقلق داخله[٥]، لكنه لا يوصف ببخل ولا شح، لأنه كان يعطى ويحسن

---

(١) الفلسفة السياسية عند العرب: صـــ٧٨.

(٢) و(٣) و(٤) السابق: صـــ١٠١.

(٥) تعرض أحمد بن يوسف لمواقف مفزعة كالموقف الذى تعرض له، وهو فى طريق عودته من العمل فى ضياعه إلى الفسطاط، فإذا بمجموعة من الأعراب تَهُمّ بسلبه ونهبه هو ومن معه، لكن حراسه تفاهموا معهم، وانقشع خطرهم وزال. ونزل أحمد حتىّ هؤلاء المحيرين له للراحة، لكنه - وكما يصف نفسه - ظل يلتقط أنفاسه، وتتسارع ضربات قلبه، وقد تحول الطعام فى فيه إلى مرارة العلقم، فلا يقبل عليه؛ لما لحقه من خوف رهيب. (المكافأة ٣٧- ٣٩).

إلى المحتاجين، لكنه كان يبسط يده بقدر[١]، وكان يرد الإحسان والمعروف بأحسن منه[٢]، كل ذلك وهو حذر متخوف من غدرات الزمان، وتقلبات الأيام. وقد أثرت هذه الطبيعة فى تصرفاته وعلاقاته وأفكاره على النحو الآتى:

أ- يُحَذِّر من إدخال المال الحرام إلى ما يملك الإنسان ولو كان الحرام قليلاً، فذلك يمحق بركة الكثير من المال[٣].

ب- أهمية المال بالنسبة لرجال الأعمال بالذات: فهو عصب حياقم. ومن هنا قال: "واعلم أن مالك أكبر ما أحرز لك المكانة فى أهل طبقتك، فأقِمْه مقام الشريك الذى تثق بسرعة إجابته، وتحمد حسن صحبته، وترى زيادة جاهك ونقصانه بزيادته ونقصانه "[٤].

ج- وهو شديد الحرص على الستر، وعدم الصدام بالسلطان، فيرى أن اعتقاد المستغلات (امتلاك المحاصيل)، التى لا ضريبة فيها لسلطان، ولا شركة لإنسان من تمام مروءتك وسترك[٥].

د- ويرى عدم إظهار الجاه والثراء والغنى؛ كى لا يطمع طامع، أو يحسد حاسد، فيقول: "ولتكن هيئتك دون مترلتك فى الجَدَا ومن قلوب الناس، فإنك تبتاع بذلك حسن النيات، وتردع به حسد الحاسد، وطعن الطاعن"[٦].

هـ- ومن مظاهر حذره الشديد وآثاره أنه لا يخرج من ماله صدقات لكل من يصادفه، بل يخرج مما زاد على حاجته لمن كان مريضاً مرضاً مزمناً، أو كان شيخاً فانياً، أو من افتقر فقراً مُدْقِعاً.

وخلاف ذلك يُوجد له عملاً، ويوسع له فى الأجرة. " ولا تبذل العفو من مالك إلا لمن ضعف عن الاكتساب بزمانة لحقته، أو سن عَلَتْ به، أو عَيْلَة زاد ناهها على مقدار اكتسابه. وما تخطّى ذلك فحَرِّكْه إلى التشاغل، وأوسِعْ عليه فى الأجرة بمقدار ما تصله من الصلة"[٧].

٥- وأخيراً، قيم أخلاقية اكتسبها، وظهرت فى مؤلفاته القيمة:

عرضنا - من قبل - لمظاهر ثقافته المتنوعة، وقد انعكست هذه العلوم والمعارف الواسعة، التى ألَمّ بها، على سلوكه وأخلاقه، فكان مثالاً طيباً للعالم المسلم، والمؤرخ الملتزم. **ومن مظاهر أخلاقياته:**

أ- **قناعته:** رغم غنى مؤرخنا وثرائه، فإنه لم يزدد إلا رضاً وقناعة، عكس كثير من ذوى الجاه والأموال ممن تزيدهم الثروات شرهاً وطمعاً وتطلعاً إلى المزيد. أما مؤرخنا، فلم يغرق فى

---

(١) المكافأة ٤١. (٢) السابق: ٥٠- ٥٢.
(٣) الفلسفة السياسية عند العرب ١١٧. (٤) السابق: ١١٦- ١١٧. (٥) السابق: ١٢٥.
(٦) السابق: وورد فى الأصل: الجِدَه، وأعتقد أن الصواب ما أثبتُّه. الجَدَا: العطاء.
(٧) الفلسفة السياسية عند العرب: ١٢٥.

ماديات الحياة، بل واءم بينها وبين حياته الاجتماعية، وإشباع رغباته الثقافية. وقد أورد عبارة تلخص القناعة وتدعو إليها، وتحذر من مغبة الإعراض عنها، وتبين أن على الإنسان ألا يتطلع إلى ما فوقه فى المكانة المادية؛ لئلا يزدرى نعمة الله عليه، وألا يتناسى نعمه؛ حتى لا يكون ساخطاً على ربه ناقماً عليه(١).

ب- **حبه الرفق والعدل**: حاول مؤرخنا الدفاع بقلمه عن المظلومين، ودعا إلى الرفق فى استخراج الخراج، ومراعاة ظروف الناس، فلا يُكلّفون مالا يُطيقون؛ لأن ذلك يرهق الناس، ويأتى على العمران، ويعطل مصالح العباد(٢). وفى الوقت نفسه يقف موقفاً متوازناً، فهناك من المزارعين من يتهربون - وهم يملكون - من دفع الخراج، فيطالب ابن الداية مؤرخنا عدم إبلاغ صاحب الخراج حتى يفشل المطالبون فى استخراج الأموال بعد الاستعانة بأهل طبقتهم فى ذلك، فإذا فشلت تلك الجهود، اتخذت ضد هؤلاء المماطلين الإجراءات الكفيلة بدفع ما عليهم من حقوق(٣).

ج- صفاء قلبه، وسَعَة صدره:

فلكم قاسى أحمد بن يوسف فى طفولته مشاعر الخوف والهلع من جند ابن طولون فى المرات العديدة، التى افتقد فيها أباه، عندما غُيِّبَ فى سجون ابن طولون ظلماً وعدواناً، دونما جريمة اقترفتها يداه. وتَعَرَّض أحمد نفسه للقبض عليه لحظة وفاة والده، كما ذكرنا قبلاً. رغم كل ذلك إذا به يختار المستحسَن من أخبار ابن طولون هذا، فيكتبه ويخلده على صفحات التاريخ. إنها نفس صافية لا تعرف روح الحقد والتشفى والانتقام، وفى الوقت نفسه أشار بهذا العنوان إشارة أمينة لا تفوت المؤرخ إلى وجود ما يَشين من صفاته، فربما لطيب قلبه، ولخدمته هارون بن خمارويه فى الديوان من جهة أخرى، ولرغبته فى تقديم جانب مضئ للناس، يقتدون به فى ظلمات ما بين العصرين (وهو ما نرجح ظهور الكتاب خلاله)، لم يذكر شيئاً من ذلك. وعلى كل، فقد عرض عصر ابن طولون بما فيه من ازدهار، وأورد بعض روايات، يفهم منها اللبيب أن المصريين دفعوا الثمن خوفاً قاتلاً، وقضاء ليالٍ طويلات باردات فى محابس منسية مظلمة تحت الأرض(٤).

د- تواضعه، وحسن معاملته الناس، وحرصه على مودهم واسترضائهم:

رغم منزلته الرفيعة مادياً واجتماعياً كان لا يستنكف أن يخالط البسطاء، ويساكن العوام، ويحسن إلى فقرائهم ومعوزيهم(٥). وكان يدعو إلى تسجيل المرء مكارم وإحسان إخوانه إليه،

---

(١) الفلسفة السياسية عند العرب: صـ١٢٦. (٢) السابق: صـ٩٠- ٩١. (٣) السابق: صـ١١٨- ١١٩.
(٤) ماجستير سيد محمد قطب صـ٣١. (٥) المكافأة صـ٤١.

كما يثبت ديون معامليه؛ كى يكافئهم عليها، ويهب للفقير منهم ما يُقرضه إياه[١]. وكان يدعو إلى الصبر الشديد على إصلاح مَنْ هو دونه أكثر من الحرص على استرضاء من هو فوقه[٢]. وكان يدعو إلى عدم المعاملة مع الصديق، فالصداقة لا تسلم عندئذ؛ لأنك لو بعتَ له شيئاً تطلعتَ إلى الربح، وتطلع هو إلى مزيد من الجودة فى السلعة، والصداقة لا تتحمل هذين[٣].

وهكذا، عرضنا ترجمة وافية للمؤرخ المصرى (أحمد بن يوسف بن الداية)، لعلها تعيننا على تحليل مؤلَّفه عن (سيرة ابن طولون).

* * *

(البَلَوى المؤرخ المصرى)

تقديم:

بعد أن تناولنا - بالتفصيل - التعريف بالمؤرخ المصرى (أحمد بن يوسف بن الداية)، وبأسرته (خاصة والده ذا التأثير الكبير فيه)، وألقينا الأضواء على ما عُرف من مؤلفاته، عاقدين الصلات بين هذه المؤلفات ومؤلَّفه التاريخى عن (سيرة أحمد بن طولون)، آن لنا أن نتوجه إلى صِنْوه وقِرْنه، الذى لا يُذكر إلا ويُقرن به، ألا وهو مؤرخ العصر الطولونى (البلوى).

ما قبل الترجمة:

يَلُفّ المؤرخَ المصرى البلوى غموضٌ كبير، وتكتنف شخصيته علامات استفهام كثيرة. أقَرّ بذلك الباحثون، ولم ينجحوا فى إماطة اللثام عن تلك الشخصية البارزة بين مؤرخى مصر فى القرن الرابع الهجرى؛ إذ اكتفوا بتناقل النادر من المعلومات، مما أوردته بعض المصادر[٤]. هذه المعلومات لا تشفى غُلّة الباحث، خاصة أن الرجل له سِفْر جليل فى تاريخ مؤسس الدولة الطولونية، خطا به على طريق علم التاريخ خطوات عظيمة سواء فى المادة العلمية المعروضة، أم فى المنهج العلمى المعالجة به؛ مما كان يتطلب بذل مزيد من الجهد؛ لكشف معالم هذه الشخصية المهمة، التى تقف دون كشفها حجب كثيفة مظلمة. وهأنذا أحاول القيام بذلك.

(١) و(٢)، (٣) الفلسفة السياسية ١١٩.

(٤) راجع ترجمة البلوى لدى كل من: محمد كرد على فى (مدخله لسيرة البلوى) صـ٣، ود.الشيال فى (تاريخ مصر الإسلامية) ١٢٩/١، ود.فؤاد سزكين فى (تاريخ التراث العربى) - ط.الهيئة العامة - جـ١ صـ٥٧٨.

ترجمة البلوى: أولاً- نسبه:

هـــو أبو محمد، عبد الله بن محمد بن عُمير بن محفوظ المَدينيّ البَلَوىّ[١]. **ويلاحظ على هذا النسب ما يلى:**

أ- أنـــه يفيد أن لهذا المؤرخ ابناً، يدعى محمداً، وبه يكنى. و لم أعثر على أية معلومات تلقى بعض الضوء – ولو خافتاً – على شخصية هذا الابن. كما أننا لا ندرى شيئاً عن والد (البلوى): مهنته، وثقافته، ودوره فى تنشئة ابنه. وهذا يجعل مهمتنا فى التعريف بأسرة البلوى مستحيلاً.

ب- يفيد نسب المدينى أنه حجازى الأصل، ويفيد نسب (البلوى) أن أصله يرجع إلى قبيلة (بَلِـــيّ) الحجازيـــة، التى ينتهى نسبها إلى قَحْطان[٢]. وقد تفرقت (بلى) فى أرض مصر، واعتبر أهلها من أهل مصر[٣]. وقد جزم بذلك ابن النديم، فقال عنه: " من أهل مصر "[٤]. وقد رجح ذلك أحد الباحثين[٥]، كما أن موضوع كتابه – عن ابن طولون – يؤكد لنا مصريته، فيمكن أن نضيف له لقباً آخر (المصرى).

ثانياً – حول مولده، ووفاته:

لا نعرف شيئاً عن نشأة وتكوين المؤرخ المصرى البلوى، بل لا ندرى شيئاً عن مناصبه، أو دوره الـــذى لعـــبه فى المجتمع المصرى إن كان له دور. ووصل بنا الأمر إلى حد جهلنا بتاريخ ميلاده (ولو على سبيل التقريب)؛ لأن المصادر سكتت عن ذلك سكوتاً كاملاً، و لم تذكر مجرد إشـــارات، يمكن أن نستنتج منها شيئاً قريباً من الصواب. كل ما نعرفه أن البلوى من مؤرخى مصـــر، الـــذين عاشوا فى القرن الرابع الهجرى، ونُسبوا إليه[٦]، مع اعتقادنا أنه عاش فترة من حياته فى القرن الثالث الهجرى.

---

(١) ورد هذا النسب الكامل فى: مدخل سيرة البلوى، لكرد على صـــ٣، ومعجم المؤلفين ٢/٢٨٨، وتنقيح المقال للمامقانى ٢/٢٠٧. واكتفى ابن النديم فى (الفهرست ط.طهران) صـــ٢٤٣ باسم (عبد الله بن محمد البلوى).

(٢) يذكر أهل الأنساب أن قبيلة بلىّ فرع من قضاعة، ولها بطون كثيرة، وينتهى نسبها إلى قحطان. وكانت مساكنها على حدود الشام بين أراضى جُهَيْنة وجُذام، وقبل ذلك كانوا جنوبى جزيرة العرب، وانتشروا بعد الفتوح بالشام. ومنهم بلغاء، وفصحاء، وتابعون. وأحسوا بكثرتهم فى حلاف نشأ بالشام، فنادى أحدهم: يا آل قضاعة. وكادت تحدث فتنة. لذلك أمر عمر بن الخطاب عامله بالشام أن يسيّر ثلث قضاعة إلى مصر. وشهدوا فتح مصر، واختطوا وتفرقوا. فالبلوى مصرى الموطن والمستقر.(راجع: فتوح مصر، ط.تورى لابن عبد الحكم:صـــ١١٦، والأنساب جـــ١ صـــ٣٩٥-٣٩٦، والبيان والإعراب للمقريزى ٢٩-٣٠، والقبائل العربية فى مصر، للدكتور البرى صـــ٢٢٧، ٢٣٠).

(٣) الفهرست للطوسى ١٣٣، وتنقيح المقال ٢/٢٠٧.

(٤) الفهرست (ط.طهران) لابن النديم صـــ٢٤٣.

(٥) محمد كرد على: كنوز الأجداد ١٦٢، ومدخله إلى سيرة البلوى صـــ٤.

(٦) مقالة (سيرة أحمد بن طولون للبلوى)، لعبد الحميد العبادى (مجلة كلية الآداب -- جامعة فؤاد الأول) مجلد ١/١٩٤٣م، صـــ١.

لم يَرِد تاريخ وفاة البلوى على سبيل التحديد(١)، وإن ذكرت بعض المراجع أنه كان حياً فى الثلث الثانى من القرن الرابع الهجرى(٢). وهذا القول يفيد أنه لم يمت قبل حوالى سنة ٣٣٣ هـ، وإنما مات بعدها. وإذا كان البلوى معاصراً لابن الداية، ومتأخراً عنه فى تأليف كتابه عن (سيرة أحمد بن طولون)، وإذا كان ابن الداية توفى سنة ٣٤٠هـ؛ فإننا نرجح وفاة البلوى بعده (حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى).

ثالثاً – حول معارفه وثقافته:

لا أظن أن علوم البلوى ومعارفه خرجت عن المألوف المعتاد فى تلك القرون الإسلامية الأولى، التى كان يعنى فيها الآباء والأمهات بتنشئة أولادهم على تلاوة وحفظ القرآن الكريم، ودراسة حديث رسول الله ﷺ، وقراءة وحفظ ما تيسر من أبواب اللغة، ودواوين الأشعار(٣).

وكذلك دراسة ما يتهيأ من التفسير والفقه. هذه علوم أساسية أعتقد أن البلوى حَصَّلها وأجادها. وقد وصفه ابن النديم أوصافاً، تؤكد ذلك، فقال: إنه واعظ، وفقيه عالم(٤). ومعنى ذلك أن البلوى كان يعمل فى الوعظ والإرشاد، ولعل له حِكَماً ومواعظ فى خطب شفهية، أو فى رسائل مكتوبة، ضَمَّنها تجربته وخبرته بالحياة. وربما برع الرجل فى الفقه ودقائقه، فكان ممن يفتون الناس فى مصر، ويعلمونهم أمور دينهم ودنياهم.

رابعاً – مؤلفاته:

ذكر ابن النديم أن لعبد الله بن محمد البلوى من الكتب: (الأبواب، والمعرفة، والدين وفرائضه)(٥). ويغلب على ظنى – من عناوينها – أنها كتب فى الحديث والفقه. والمؤكد أن ابن النديم لم يذكر له إلا ما تيسر له رؤيته وطالعه بالفعل، وهو ما يعنى وجود مؤلفات أخرى له لم يحظ ابن النديم بالوصول إليها، ومنها: (سيرة أحمد بن طولون)(٦) المطبوعة المنشورة كأثر تاريخى فريد وحيد باق إلى اليوم من تراث الرجل، ومنجزاته العلمية.

---

(١) وبالتالى لم يبعد د. على إبراهيم حسن فى (استخدام المصادر وطرق البحث) صـ١٣٦ لما قال: لم تُعْرَف سنة وفاته (أى: بالتحديد).

(٢) كنوز الأجداد ١٦٢، ومعجم المؤلفين ٢٨٨/٢، وتاريخ التراث العربى (ط.الهيئة) ٥٧٨/١.

(٣) ولعل الناظر فى أسلوب البلوى وتعبيراته فى كتابه الأوحد المتبقى (سيرة أحمد بن طولون) يدرك تماماً أنه أخذ من العربية بحظ وافر، وله القِدْح المعلّى فى البلاغة، وصاحبه رُوِّى من مَعين الآداب، وتمثّلها تمثلاً ظاهراً. (كنوز الأجداد ١٦٤، ومدخل إلى سيرة البلوى صـ١٠).

(٤) الفهرست (ط.طهران) صـ٢٤٣.

(٥) الفهرست (ط.طهران) صـ٢٤٣.وعنه نقل الطوسى فى (الفهرست) ١٣٣، ونقل عن الأخير مؤلفات البلوى المَامَقانىُّ فى (تنقيح المقال) ٢٠٧/٢.أما د.الشيال، فنقل نص ابن النديم، وزاد من عنده:ألف كتباً كثيرة كلها مفقودة. (تاريخ مصر الإسلامية ١٢٩/١).

(٦) ذكره كحالة فى (معجم المؤلفين) ٢٨٨/٢، وسزكين فى (تاريخ التراث العربى) – ط.الهيئة العامة – ٥٧٨/١.

ومما يلفت النظر – حقاً – ألا يطالع ابن النديم (ت ٣٧٧هـ) – وهو معاصر للبلوى – سوى الكتب المذكورة السابقة وهى مفقودة كلها الآن، بينما يذكر المسعودى (ت ٣٤٦هـ) – فى مقدمة كتابه (مروج الذهب) – عبد الله بن محمد بن محفوظ البلوى الأنصارى، ويشير إلى أنه صاحب أبى زيد عمارة بن زيد المدينى، ويجعله من المؤلفين فى التاريخ قبله، وممن طالع كتبهم وأفاد منهم. وعَدّ المسعودى البلوى واحداً ممن اجتهد بغاية إمكانه، وأظهر مكنون فطنته[(١)]. وأحب أن أنبه إلى أن المسعودى لم يحدد – بالضبط – اسم المؤلَّف التاريخى الذى طالعه للمؤرخ البلوى، وهل هو مؤلَّف واحد أو أكثر من مؤلَّف، كما أنه لم يفرده بمدح ولا ذم[(٢)]، وإنما أصدر حكماً عاماً على مصادر كتابه بأن بعض مؤلِّفيها أصاب، والبعض الآخر قد أخطأ.

والحق أن عدم اشتهار مؤلَّف البلوى التاريخى، وعدم اشتهاره هو شخصياً – مما أدى إلى ندرة معلوماتنا عنه – ربما يرجع إلى ضعف اهتمام ابن النديم وغيره من مؤرخى العلوم بمصر، على اعتبار أنها مجرد ولاية تابعة للخلافة العباسية، سواء كانت تبعيتها حقيقية أم اسمية. ومن ثم، فالاهتمام بها لا يرقى – مثلاً – إلى الاهتمام ببغداد ورجالاتها ومؤلفاتهم. ولعل فترة ما بين العصرين الطولونى والإخشيدى، التى نرجح ظهور كتاب البلوى فيها، وما اتسمت به من صراعات ونزاعات وحروب، أثرت فى القدرة على الاحتفاظ بمؤلفات البلوى. وربما انتقلت نسخ (سيرة ابن طولون) للبلوى إلى الشام قديماً، حتى عثر على إحداها مع بداية هذا القرن على يد المحقق كرد على. وبالإضافة إلى ما تقدم، فإنه لم يكن لكتاب يُذيع وينشر محاسن ابن طولون لينتشر ويشتهر، ويعرف به المؤرخون وأصحاب كتب التراجم، بينما الخلافة كانت تعد دولة بنى طولون شوكة فى جنبها، وغُصَّة فى حلقها، استراحت باقتلاعها، وأجهزت على حُشاشاتها، فاستحالت أثراً بعد عين،وجسداً بلا روح.

ولا يعنى انتقال مخطوط (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى إلى الشام قديماً أنه غدا مؤرخاً دمشقياً بحال من الأحوال[(٣)]، فهو مؤرخ مصرى، تعرضت شخصيته للانطماس، وكتابه

---

(١) مروج الذهب ١/١١-١٢.

(٢) بخلاف بعض المؤرخين، الذين أثارت مؤلفاتهم إعجاب المسعودى فأثنى عليها؛ لإفادته الكبيرة منها فى كتابه، مثل: عُبيد الله بن خُرْدَاذَبَه، والبلاذُرىّ الذى قال عن كتابه فى الفتوح: ولا نعلم فى فتوح البلدان أحسن منه (السابق ١/١٢).

(٣) ذكر د.أحمد شلبى فى (موسوعة التاريخ الإسلامى) ٥/٥٦ فى بداية حديثه عن انتشار اللغة العربية فى سوريا (الشام) بعد الفتح الإسلامى، ووجود مؤلفات بها فى فترة مبكرة ما نصه: " وكتب عبد الله بن محمد البلوى – من مؤرخى دمشق – سيرة أحمد بن طولون فى الثلث الثانى من القرن الرابع ". ولى تعليق على هذا النص: ليس صحيحاً أن البلوى مؤرخ دمشقى، بل هو مصرى.التاريخ المذكور على أنه تاريخ ظهور مؤلف البلوى، إنما هو التاريخ الذى يدور حوله احتمال وفاة البلوى. نتيجة لما تقدم لم يعد كتاب هذا المؤرخ يصلح مثالاً للاستشهاد به على ظهور كتب بالعربية مبكراً بالشام، بعد أن ذكرنا أن البلوى مصرى.

للانـــزواء، ومكانـــته مؤرخاً للهضم الشديد، حتى شاء الله أن يظهر سفره الجليل على يد عالم شامي، رد الحق إلى نصابه، وأظهر ما للرجل من مكانة تاريخية تليق به. ثم قُدِّر لنا أن نكمل رد الجميل، فنحلل سفره، ونبرزه مؤرخاً من طراز فريد.

حول نسبة كتاب (رحلة الشافعي) إلى البلوى:

١- ذكر ابن كثير أن عبد الله بن محمد البلوى كذاب. هكذا اتهمه اتهاماً صريحاً مباشراً لا مرية فيه، وذلك في عبارة هذا نصها: " ومن زعم من الرواة أن الشافعي اجتمع بأبي يوسف – كمـــا يقـــوله عبد الله بن محمد البلوى الكذاب في الرحلة التي ساقها الشافعي – فقد أخطأ في ذلـــك، إنمـــا ورد الشافعي بغداد في أول قَدْمَة، قدمها إليها في سنة أربع وثمانين. وإنما اجتمع الشافعي بـــ (محمد ابن الحسن الشيباني)، فأحسن إليه، وأقبل عليه، و لم يكن بينهما شنآن، كما يذكره بعض مَنْ لا خبرة له في هذا الشأن "[1]. وهذا يعني أن هذا الملقب بالبلوى له مؤلف عن رحلـــة الشافعي إلى بغداد، والتقائه بكبار علمائها. وابن كثير يَصِمُه بالكذب عامة، وفي رحلة الشـــافعي خاصة. ويدلل على كذبه في هذا الكتاب بأنه زعم التقاء الشافعي بأبي يوسف، رغم أن الأخـــير تـــوفي سنة ١٨٢هـــ، وأول قدمة للشافعي إلى بغداد كانت بعد وفاة أبي يوسف بعامين. كما نفى ابن كثير ما يتردد من التحاسد والتباغض بين الشافعي ومحمد بن الحسن.

٢- نسب ابن حجر هذه الرحلة – أيضاً – إلى البلوى، وذكر أنه طوّلها ونَمَّقها، وذكر أن غالب ما أورده فيها مختلق[2]. والسؤال – الآن –هو: هل هذا الكتاب المشار إليه سلفاً، ومؤلفه المذكـــور آنفاً هو نفس مؤلف (سيرة أحمد بن طولون)؟ والجواب: لا؛ لأن هذا البلوى المذكور في رحلـــة الشافعي، وردت له روايات عديدة في كتاب (مناقب الشافعي)[3]، وثبت منها أنه كـــان ممن عاصر الشافعي وجالسه، وسواء صحت هذه المجالسة أم لم تصح، فمن الواضح أنه شخصـــية أخـــرى غـــير شخصية المؤرخ البلوى؛ لأنه لا يُعقل لرجل زعم أنه جالس الشافعي (ت ٢٠٤هـــ بمصر) أن يعيش حتى قرابة منتصف القرن الرابع الهجري !

خامساً – قضية تضعيف البلوى، واتهامه بالتشيع:

أ- نقـــل كـــل من: الذهبي[4]، وابن حجر[5] عن الدارقطني[6] قوله: كان البلوى يضع

---

(١) البداية والنهاية ١٠/١٨٨.
(٢) لسان الميزان لابن حجر ٣/٣٣٨.
(٣) البيهقي: جـ١ صـ١٣٠-١٣١، ١٣٦-١٣٧، ١٤١-١٤٢، ٢/١٧٦-١٧٧، ٢٠٢، ٣٣١.
(٤) ميزان الاعتدال، للذهبي ٢/٤٩١.
(٥) لسان الميزان ٣/٣٣٨.
(٦) لم أجد النص فيما طُبع من كتاب (العلل) للدارقُطْنيّ (٤ أجزاء)، فلعله في المفقود منه.

الحديث. وعضدّ هذا الرأى الذهبى وابن حجر فى المصدرين السابقين، فذكرا عبارة واحدة هى أن عبد الله بن محمد البلوى روى عنه أبو عَوانَة[1] فى (صحيحه) فى (الاستسقاء) خبراً موضوعاً[2].

ب- كان البلوى المذكور ملازماً خاله عمارة بن زيد[3]، راوياً عنه أحاديثه ورواياته، وهو متصف بالضعف فى الحديث[4].

ج- يرى كرد على أن البلوى المؤرخ كان شيعياً إسماعيلياً، وقد اتجه لكتابة سيرة أمير سُنّىّ (ابن طولون)؛ لأن الأخير كان يعطف على الشيعة الإسماعيلية، ويكتم عطفه عليهم تقية، ويحاول الاستفادة منهم والانتفاع بهم، وأنهم كانوا منتشرين سراً فى مصر؛ تمهيداً لإنشاء دولة العبيديين بها[5].

خلاصة الرأى عندى:

١- البلوى الذى ضعفته مصادر السُنّة والشيعة ليس هو البلوى المؤرخ المصرى.وقد حدث خلط بين (عبد الله بن محمد البلوى) الوضّاع الكذاب صاحب(عمارة بن زيد) فى رواية الحديث، وبين مؤرخنا البلوى المصرى، فما ذكره المسعودى عن مؤرخنا الذى اعتمد على مؤلّفه التاريخى صحيح، لكنه أخطأ لما ربط بينه وبين عمارة بن زيد، الذى كان أستاذاً لعبد الله بن محمد البلوى الكذاب.

٢- بناء على ما تقدم لم يعد هناك محل للقول بأن البلوى، الذى لم يتورع عن الكذب على رسول الله ﷺ، لا ننتظر منه أن يصدق فى التأريخ لابن طولون[6]؛ لأننا أثبتنا أن مؤرخنا ليس هو ذلك الكذاب.

---

(١) هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن يزيد النيسابورى الإسفَرايينى الحافظ، صاحب المسند الصحيح المخرَّج على كتاب الإمام مسلم بن الحجاج. وهو أحد الحُفّاظ الجوّالين، والمحدّثين المكثرين.طاف الشام ومصر، والبصرة والكوفة، والحجاز، وغيرها. توفى سنة ٣١٦هـ.(وفيات الأعيان ٦/٣٩٣-٣٩٤ (رقم ٨٢٦)، والكنى والألقاب للقُمّىّ ١/١٢٨).

(٢) لم أجد فى الجزأين المطبوعين من مستخرجه باب (الاستسقاء). وبالرجوع إلى جـ٢ من مخطوطة: (مختصر أبى عوانة الإسفراييني) فى كتاب (الاستسقاء) تحت عنوان: (زيادات الاستسقاء مما لم يُخرِّجه مسلم فى كتابه): ثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الله الأنصارى المدنى، بسنده إلى عائشة إلى رسول الله ﷺ أن القَطر مُنع من السماء، وموقف المنافقين المشكك فى صحة رسالة الرسول، ثم دعاء الرسول حتى انهمر المطر، وشرب الناس وارتووا. هذا الاسم المذكور فى السند هو أقرب الأسماء الموجودة إلى اسم مؤلفنا. و لم أجد اسماً يشبهه فى أى حديث آخر بهذا الباب. ومن ثم، لم أهتد إلى الحديث الذى اتهم بوضعه، ولعله ساقط من الناسخ.

(٣) مناقب الشافعى، للبيهقى ١/١٣٠، وميزان الاعتدال ٢/٤٩١ (وسمّاه عمارة بن يزيد)، ولسان الميزان ٣/٣٣٨ (سمّاه عمارة بن زيد). ولعل الأخير أرجح.

(٤) تنقيح المقال، للمامقانى جـ٢ صـ٢٠٧.

(٥) مدخل سيرة أحمد بن طولون للبلوى، لكرد على صـ٦.

(٦) مقال (سيرة أحمد بن طولون: عودة إليه، وتصحيح فيه)، لعبد القادر المغربى، مجلة المجمع العلمى بدمشق، مجلد ١٨ /١٩٤٣م، صـ٢٨.

٣- لا دليل يثبت تشيع البلوى المؤرخ، وما سبق من أقواله مرسلة؛ لتعليل تأريخ مؤرخ شيعى لأمير سنى غير صحيح ومخالف لوقائع التاريخ، فابن طولون لم يكن للشيعة أى نشاط دعوى فى عصره، ولم يكن لهم مجاملاً، بل واجه ثوراتهم بقوة وحسم[١].

٤- أن الملاحظات التى لاحظها كرد علىّ على (سيرة ابن طولون) للبلوى، وعَدَّها أدلة تشيعه[٢]، لا تعد – فى نظرنا – قدحاً فى سنيته. وفى النهاية، نحن أمام مؤرخ سنى يميل بعواطفه نحو آل البيت، ويأسى لما جرى لهم. ومعظم مؤرخينا الكبار طالبيون بهذا المعنى كالمقريزى وغيره[٣]. أما التشيع الذى يميل فيه المرء مع هواه، ويترك السُّنَّة لأجله، فلم يعرفه مؤرخنا، الذى أحب آل البيت كالمسلمين عامة، وأهل مصر خاصة[٤].

سادساً وأخيراً – سمات البلوى الشخصية:

١- السمات الخُلُقية:

أ- الصدق والأمانة:

نلحظ ذلك فى مقدمة كتابه[٥]، فلم ينسب معالم منهجه فى المعالجة إلى نفسه، رغم أن له فى ذلك نصيباً كبيراً، وهو المنفِّذ لما تم تخطيطه من أهداف، ومادة كتابه هى حصيلة اطلاع ممتاز على ما سبقه من مؤلفات فى موضوع كتابه. لقد نسب الفضل لذويه، فأشار إلى كتاب ابن الداية الذى له فضل السبق فى هذا المجال، وبيَّن أنه سيحقق فى كتابه ما لم يحققه سلفه، وفقاً لتعليمات وتوجيهات سيده – المجهول الذى لا نعرفه تحديداً – الذى أشار عليه بهذا الكتاب، وشرح له طريقته، وحَدّ له حدوده، ومعالمه الرئيسة.

ب- التواضع الجَمّ:

بعد أن ذكر منهجه، وحدد عناصره بدقة يُحسد عليها، اعترف البلوى فى تواضع شديد أن ابن آدم – ويصدق عليه ذلك ولا شك – لا يخلو من تقصير ونقص، وأنه لم يَسْلَمْ من ذلك الفقهاء، والأصوليون، والمحدِّثون، وهم الواضعون لشرائط الدين، والمبلِّغون سنن المرسلين[٦].

---

(١) سيرة ابن طولون، للبلوى صـ٦٢، وبعدها.

(٢) لاحظ مدخل سيرة ابن طولون للبلوى، لكرد على صـ٥، وسيرة ابن طولون صـ٦٢ (صلوات الله عليهم أجمعين، وترضّى عن آل البيت أجمعين)، واكتفى بالترحم على عمر (صـ١٤٦).

(٣) د.حسين مؤنس فى (مقدمة تحقيق الحُلَّة السِّيَراء ١/٤٨).

(٤) راجع حث القرآن على مودة آل البيت: ﴿ قُلْ: لاَ أسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أجْرٍ إلا الْمَوَدَّةَ فى الْقُرْبَى﴾. سورة الشورى المكية: من الآية ٢٣.

(٥) سيرة البلوى: ٣١-٣٢.

(٦) سيرة أحمد بن طولون، للبلوى ٣٢.

ويؤخذ على البلوى أنه بالغ فى التواضع حتى ذَلّ، وذلك لما قال عقب ذلك: " وكيف ما إنْ قصّر عنه مقصّرٌ لم يُوزَر، وإن بالغ فيه مجتهد لم يُؤْجَر"[١]. ومعنى ذلك أنه يرى التاريخ أقل شـأناً من الفقه، والعقيدة، والأصول، والحديث. ومن ثم، فالبلوى يعد نفسه أقل من رجالات هذه العلوم، فعلمه بالتاريخ إن قصَر المقصر فيه لا وزر عليه، وإن بالغ فى الاجتهاد فيه، فليس له أجر. **وأعتقد أن هذا مفهوم مرفوض تماماً لما يلى:**

أ- أن العلوم الإسلامية تتساوى فى الأهمية، وكلها يكمل الآخر، دون تفاضل بينها. والتاريخ بالذات له من الأهمية والحيوية ما يجعله متصلاً بكافة العلوم الإسلامية والعربية الأخرى[٢].

ب- أن التقصـير فى التاريخ يؤاخذ عليه المرء، وأن الاجتهاد مأجور عليه[٣]، شأنه شأن كافة سلوكيات الإنسان.

وأخيراً، فقد كان جديراً به أن يكتفى ببيان أن عمل الإنسان مهما كمل، فلابد أن يلحقه تقصير، فالنقص من سمات البشر، وحسبه أنه بذل كل ما يملك[٤].

ج- حسه الوطنى الصادق تجاه بلده مصر:

لقد حرص البلوى على بيان أهمية ولاية مصر بالنسبة للخلافة العباسية، وأوضح أن الخلافة تدقـق فى اختـيار من يلى مصر، فَيُحْبَى[٥] بها من صَحّت فيه الصفات، والكفاءات المطلوبة، والـثقة والمنزلة العظيمة لدى الخلافة، فيكون بجوار بلاط الخلافة، ويستخلف عليها ثقة يحكمها باسمه نيابة عنه، وإليه تُحمل أموالها، ويُدْعَى له على منابرها[٦]. فحبه لبلده مصر لم يخرجه عن الموضوعية، التى تتجلى فى أنها إحدى ولايات الخلافة، وإن كانت أهم تلك الولايات قاطبة.

د- إيمانه العميق بالقضاء والقدر:

كـان لروحه الإيمانى دور أساسى فى معالجة تطورات حياة (أحمد بن طولون) وكان يَنْفُذ

---

(١) المصدر السابق: ٣٢.

(٢) تراجع أهمية علم التاريخ من خلال عوامل تدوينه المذكورة فى كتابى: (الحياة الثقافية فى العالم العربى فى القرنين: الأول، والثانى الهجريين جـ١ صـ٣١٢-٣١٤).

(٣) قال الله (تعالى): ﴿**لَهَا ما كَسَبَتْ وعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ**﴾. (سورة البقرة: من الاية ٢٨٦). وقال أيضاً: ﴿**وَأَنْ لَيْسَ للإنسَانِ إلاَّ مَا سَعَى. وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى. ثُمَّ يُجْزاه الْجزاءَ الأوْفَى**﴾. (سورة النجم ٣٩-٤١). وقال أيضاً: ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مثقالَ ذَرَّة خَيْراً يَرَه. ومَنْ يعملْ مثْقالَ ذَرَّة شَراً يَرَه** ﴾. (سورة الزلزلة: الأيتان ٧-٨).

(٤) والبلوى نفسه يدرك أن الإنسان مهما أبدع وامتلك المواهب، فإنه يلحقه نقص فى مجال ما. وقد طبَّق ذلك عندما تناول العباس بن أحمد بن طولون، فبعد أن ذكر أدبه وشعره سرعان ما استدرك قائلاً: " إلا أن الكمال لله عز وجل " (سيرة البلوى ٢٤٦).

(٥) وهكذا، ينتقى البلوى اللفظة المعبرة، فكأن مصر هدية تُهديها الخلافة إلى من تكلفه بولايتها.

(٦) سيرة البلوى ٣٣.

من خلاله إلى عمق الأحداث والوقائع، يَسْبُر أغوارها، ويدرك بحكمة نافذة، وشفافية كبيرة ما وراء الأعماق. **ويمكن الاستشهاد بموقفين يعبران عن ذلك:**

الأول – يتعلق بموت أعداء أحمد بن طولون واحداً بعد الآخر[١]، حتى خلا له الجو، وأحكم سيطرته على مصر والشام. لكن سرعان ما أدارت الأيام له ظهرها، وإذا بالقدر يخبئ له ضربات قاصمة ظهره، محطمة آماله، محبطة خُطَطَه التي كان يتغيَّاها[٢]. يرى البلوى أن ذلك كله حدث؛ لتتم مشيئة الله ﷻ في ابن طولون بانقضاء عمره، وزوال ملكه. وهكذا، يجرى حكم الله على سائر خلقه عند انقضاء آجالهم، يكدرهم بالمحن، وينغص عليهم عيشهم، وإذا أراد الله أمراً أتى بعضه يتلو بعضاً؛ ليؤدب بذلك المؤمنين وينبّه به المعتبرين، ويخفف به عن قلوب المتقللين(المضيَّق عليهم)[٣].

الثاني – استخدم البلوى الروح الإيماني نفسه في تحليل سوء تصرفات ابن طولون، وتخبطه في نهاية حياته، وتناوله ما يضره في صحته؛ مما عجَّل بوفاته. فبعد أن كان في الماضي (لما كانت له بقية من عمر) مثالاً للحكمة والفراسة، والحَدْس الصادق، انقلب ذلك كله دفعة واحدة، فصار عدو نفسه، يطعمها سراً من طبيبه السمك الذى يؤذيها، والأطعمة المتخمة المؤذية في حال الصحة، فكيف مع العلة ؟!. ثم يخادع نفسه ويسخر منها، ويكتم طبيبه وغيره حاله، حتى كأن في معدته – بسوء فعله – عدواً قاتلاً. ثم إذا به يُفَضِّل المدعو هاشماً الجاهل على عباقرة أطبائه (مثل: سعيد بن توفيل، وغيره)، إلا أنه إذا أراد الله ﷻ أمراً، سلب كل ذى لُبٍّ لُبَّه؛حتى تتم مشيئته[٤].

هكذا، ببيان رائع، وحسن قراءة للأحداث، وإيمان عميق ينظر المؤرخ البلوى إلى حقائق الأمور ويفسرها.

٢- السمات العقلية:

أ- **ذكاؤه وفطنته**: من خلال القراءة المتأملة الواعية لأثره الوحيد الباقي: (سيرة أحمد بن طولون)، وهاكم مثالاً حياً على ذلك: سرد البلوى على مسامعنا، وسَطَّر بقلمه البليغ، وصوَّر أمام عيوننا مراحل مرض الأمير ابن طولون، وبيَّن أنه لما أسرف على نفسه في شرب لبن الجواميس بالشام، أصيب بإسهال وقَيْء شديدين، استدعى على أثرهما طبيبه الخاص (سعيد بن توفيل)، ففوجيء بعدم تواجده إلى قريب منه في هذه العلة الشديدة، وعلم أنه خرج إلى بعض الديارات

---

(١) لما عدا عليهم الموت، وهم الوزير عُبيد الله بن خاقان، وماجور التركى، وموسى بن بغا. (سيرة البلوى ٩١).

(٢) كان ابن طولون يهدف بعد توحيد مصر والشام تحت رايته، إلى جهاد الروم، لكنه فوجئ بخروج ابنه العباس عليه، فقام برواد كل من فكر وأَعَدَّ له. ثم تلقى صدمة أخرى بخروج غلامه لؤلؤ بالأموال والجيوش والسلاح عليه، وانضمامه إلى عدوه الألَدّ الخَصِم (الموفق)، وكان لؤلؤ عمدة ابن طولون، وعليه كان مُعَوَّله.

(٣) سيرة البلوى ٢٧٢. (٤) سيرة البلوى ٣٢٧.

هناك. فماذا كانت النتيجة ؟ إن البلوى يرصدها جزئية جزئية؛ لفهمه ووعيه بأثرها فى نهاية ابن طولون المحتومة، فذكر أن ألم الأمير من جهة، وطبعه التركى ومزاجه الحاد من جهة ثانية، وحرصه الشديد على استعادة صحته وعافيته ثالثاً، كل ذلك جعل الكمد والغيظ يملأ قلبه، فزاده الغيظ وضيق الصدر ألماً ومرضاً (إسهالاً، وقيئاً). ويضاف إلى ذلك أنه أغلظ القول لسعيد طبيبه لما عاد، ثم منعته عزة نفسه وكبرياؤه أن يشكو له ما حَلّ به، فازدادت العلة قليلاً قليلاً، واستحكمت منه[١].

وهكـذا، أدرك البلوى بذكائه النادر ما للحالة النفسية من أثر بالغ فى الحالة الجسدية للإنسان؛ مما أدى إلى تفاقم حال الأمير.

ب- ثقافته العربية الأصيلة، وإلمامه بمعارف العصر:

١- لغته، وتدفق معانيه وغزارتها:

الناظـر فى (سـيرة ابن طولون) للبلوى يلمس تأنّقه فى ألفاظه ومفرداته، وجمال تعبيراته، وتدفـق معانـيه فى عبارات مطوّلة أحياناً، يشحذها ذهنه، وتدفع بها قريحته، فتغمض على غير المتأمل المتأنى. وترى فى لغته جملاً مسجوعة لا تكلف فيها[٢]. **ومن الأمثلة على ذلك:**

قـوله عمـا أدخله ابن المدبِّر من ضرائب جديدة على أهل مصر، اتبعها أصحاب الخراج المتشـددون مـن بعده: "ابتدع بمصر بدعاً صارت سنناً إلى اليوم". وقوله فى تعبير دقيق بارع، يصور ما حلّ بابن شيخ من هزيمة نفسية بعد هزيمته الحربية أمام الخلافة العباسية، ومقتل ولده فى المعركة: " ودخل ماجور دمشق عزيزاً مظفراً. فلما اتصل الخبر بابن شيخ، وقُتل ولده وخليفته، وصـناديد عسـكره انخذل، وفَتّ ذلك فى عَضُده، وانكسرت نفسه، وضاقت به الشامات ". والنتيجة:" فرحل عنها على طريق الساحل، يريد أرمينية "[٣].

ويلاحـظ - أخيراً - أن القاموس اللغوى للبلوى مشترك مع ابن الداية فى بعض الألفاظ، والمصـطلحات[٤]، وقـد ينفـرد ببعض المفردات والتراكيب[٥]، مما يحتاج إلى دراسة اللغويين المختصين فى هذا المجال.

---

(١) مقدمة البلوى لسيرة ابن طولون صـ٣١. (٢) السابق: صـ٤٣. (٣) السابق: ٥٢.

(٤) استخدم البلوى بعض المصطلحات التى سبق إليها ابن الداية، مثل: الحضرة (للتعبير عن عاصمة الخلافة العباسية صـ٤٥، ٥٦)، والمُطبِق (سجن ابن طولون تحت الأرض صـ٥٠)، ومصطلح الجواز (للتعبير عن ترخيص الانتقال من مكان إلى آخر فى مصر، أو إلى خارجها أيام ابن طولون صـ٤٩)، والأولياء (كبار رجال البلاط العباسى) ص ٣٩-٤٠.

(٥) ومن مفردات البلوى الجديدة: (الأذيّة) تعبيراً عن الأذى (صـ٤٧) وشيّع بدل (أشاع)، ولفظة " الأحلاد " فى قوله: من شياطين الكتّاب والعمال (الأحلاد) أى: الأشداء. (صـ٤٣). وأزوجه بدل (زوّجه) صـ٤٥-٤٦. وله تركيب بدا ركيكاً، ربما أسقط الناسخ منه ما أدى إلى اتصافه بذلك، وذلك قوله: (وزاد جميعَ الأعمال الخارجة كانت عن مصر) صـ٤٦.

٢- ثقافته الدينية والأدبية:

مــن الواضـــح تأثر المؤرخ البلوى بأسلوب القرآن فى عرضه التاريخى فى (سيرة أحمد بن طولـــون)، فكان يضمّن بعض الآيات خلال بعض تعبيراته وأساليبه، مثل قوله عن موقف ابن طولون من وشاية ابن المدبِّر به لدى الخلافة: " ونمى الخبر إلى أحمد بن طولون، فأسَرَّه فى نفسه ولم يُـبْده "[١]. وكذلك قوله عن قرب نهاية ابن طولون: " حتى إذا بلغ الكتاب أجله، انقلبت العَيْن[٢]، وتتابعت المحَن[٣]. وبالإضافة إلى ما تقدم، فقد استشهد ببعض آية قرآنية فى مقدمة كـتابه، اســتدل بها على كمال صنع الله وخلقه ووحدانيته عن طريق انسجام سمواته مع أرضه، وعدم فسادهما، حيث قال: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[٤].

وبالنسبة لثقافته الأدبية، فهى شائعة فى أرجاء كتابه، من خلال الاستشهادات الشعرية المطولة، التى كان يحسن اختيارها، وإدراجها فى المكان المناسب لها، بما يزيد الحدث التاريخى وضوحاً وعمقاً. وهى تدل على كثرة محفوظاته من الشعر العربى، وحسن تفهمه معانيه ومدلولاته[٥].

٣- ثقافته التاريخية:

يتضح من خلال قراءة كتاب (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى أن الرجل لم يكن على علم بتاريخ مصر المحلى فى فترة العصر الطولونى فحسب، وإنما ظهر لنا جلياً أن الرجل كان على علم بالتاريخ وأحداثه فى فترات تاريخية متعددة خارج نطاق بلده مصر. وقد كان البلوى ينتهز الفرصة، ويستطرد لأدنى ملابسة، لإظهار هذه المعلومات التاريخية.

ومــن مظاهـــر ذلك: ما نقله عن عمر بن الخطاب وموقف عبد الله بن الزبير منه صغيراً، وشـــجاعته أمام أمير المؤمنين[٦]. وكذلك ما أورده عن ضعف سلطة الخليفة المستعين العباسى، وتحكم قادة الأتراك (وصيف، وبغا) فيه؛ لأنه كان يؤثرهما ويقدمهما، ويقول برأيهما، وما قيل من شعر؛ تعبيراً عن ذلك الموقف[٧].

---

(١) سيرة البلوى صـــ٤٥. وهو بذلك يشير إلى قوله (تعالى) حكاية عن يوسف، وقد استمع إلى اتهام إخوته له بالسرقة قبلاً؛ ظلماً وبهتاناً وهم لا يعرفونه، فكظم غيظه، ولم يَرْجع إليهم قولاً. يقول الله ﷻ: " قَالُوا: إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ: أَنْتُم شَرٌّ مَكَاناً وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ". (يوسف: ٧٧).

(٢) العَيْن: شاهد كل شئ وحاضره (اللسان: مادة: ع.ى.ن) جـــ٤ صـــ٣٢٠٠.

(٣) سيرة البلوى ٢٧٩. لعله من قوله (تعالى): " لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ". (آخر آية ٣٨ من سورة الرعد).

(٤) سيرة البلوى ٣١. وتمام الآية: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

(٥) راجع سيرة البلوى، وما ورد بها من شعر صـــ٤٠، ٩٤-٩٥.

(٦) المصدر السابق: ١٤٦-١٤٧.

(٧) سيرة البلوى: ٩٣.

٤- ثقافته الفلسفية:

لم تظهـــر هـــذه الثقافة بصورة كبيرة كتلك التى كان يتمتع بها المؤرخ المصرى (أحمد بن يوسف)، ربما لتعدد مؤلفات ابن الداية، التى بين أيدينا. أما البلوى، فليس له – فيما نعرف – إلا (سيرة أحمد بن طولون). وقد وردت إشارات يسيرة فى ثلاثة مواضع، تشير إلى اطلاعه على أقوال الحكماء:

أ- نقلـــه ما رواه يوسف بن إبراهيم عن أنوشروان من عدم إقدام الملك الواثق بنفسه على الرضا والغضب السريع، فذلك من أخلاق النساء[1].

ب- نقله قول الحكماء: "ترك العادات ذنب محسوب"[2].

ج- مـــا علّق به بعض العلماء حين سمع شدة تحذير ابن طولون طبيبه سعيد بن توفيل أن يفرط فى خدمته إياه، فقال: " ما سمعتُ حثاً لمتطبب على مبالغة فى نصح أشد من هذا "[3].

خلاصة مقارنة بين ترجمتى: (ابن الداية، والبلوى)

أ- **معـــرفتنا بأســـرة ابن الداية (خاصة والده)**، وتنوع وغزارة مصادر ثقافته وعلاقاته؛ مما انعكس فى تنوع وكثرة مؤلفاته. أما البلوى، فنجهل أسرته، ولا نعرف – بالتفصيل – ثقافته، ولم يبق من مؤلفاته إلا سيرة ابن طولون، عرضها مفصلة، فتفوق فيها على ابن الداية معاصره، وتمكن من إزالة جفاف المادة العلمية التاريخية عن طريق بلاغته الأسلوبية، وثقافته الشعرية والدينية.

ب- **تنوع وغزارة أساتيذ ابن الداية**، ووجود تلاميذ له، عرفنا منهم اثنين، لهما شأن كبير فى مجال التاريخ فى مصر الإسلامية بعد ذلك. أما البلوى، فسنعرف أساتيذه فى مجال التاريخ فقط عند تحليل موارد كتابه الأوحد الباقى. وفى ذات الوقت لا نعرف أحداً من تلاميذه.

ج- **تشابه سماتهما الشخصية**، وإن اتضحت أكثر على مستوى ابن الداية؛ لتنوع وغزارة مؤلفاته، فأمكن استنباط الكثير منها. وتعرُّض كليهما للاتهام بالتشيع، وإن طال اتهام البلوى به أكثـــر، إضـــافة إلى اتهامـــه بالكذب والوضع على رسول الله ﷺ، مما دَلّنا على عدم صحته، والتصاقه برجل آخر يشبهه اسماً.

---

(١) المصدر السابق: ١٦٧.

(٢) السابق ٢٧١. وذلك تعليقاً على علة (الحسن بن مهاجر الكاتب) على ابن طولون أواخر حياته، إذ حسّن له جمع الأموال، ومنعه عاداته الجميلة فى الإحسان إلى الناس، فتغيرت القلوب على ابن طولون، وانحرفت عنه النفوس.

(٣) السابق: ٣٢٩.

مدخل نحو (دراسة سيرة أحمد بن طولون)

منهج في الدراسة:

لما كان موضوع كتابي ابن الداية، والبلوى واحداً، ومواردهما تكاد تكون متطابقة، ومحتوياتهما متقاربة، اللهم إلا ما يتصل بإيجاز ابن الداية، وتفصيل البلوى في عدد من الروايات، ومنهجهما مشتركاً؛ رأيت أن دراسة كل كتاب على حدة نوع من التكرار غير المفيد، فاهتديت إلى دراستهما معاً تحت العناصر والأفكار التي تشملهما معاً، محدداً نماذج مختارة بعناية من كل، محيلاً على بقية النماذج في الحاشية، مبرزاً أوجه الالتقاء والافتراق بينهما – إن وجدت – في كل جزئية من جزئيات تلك الدراسة التحليلية المنهجية المقارنة.

قبل أن أدخل في خضم تلك الدراسة المنهجية، هناك مجموعة من القضايا، التي يجب أن تكون واضحة، فهي ذات صلة جد وثيقة بموضوع الدراسة، **وهي على النحو الآتي:**

١- توقيت تأليف الكتابيْن:

الحق أن هذه القضية لم يرد بخصوصها نص واحد صريح في أي من المصادر التي طالعتها. ومن هنا سوف نعتمد على الترجيح الغالب،والاستنتاج غير المباشر من بعض الأحداث الواردة.وقد سبقني لبحث هذا الموضوع بعض الباحثين، فمنهم من يرى أن ابن الداية وضع كتابه وابن طولون حي[(١)] (أي: في تاريخ أقصاه سنة ٢٧٠هـ). ومنهم من يرى أنه ألف سنة ٣٣٩ هـ[(٢)]. ويرى ثالث أن كتب ابن الداية في بني طولون كُتبت قبل انقراضهم دولتهم (٢٩٢هـ)؛ لأنه توفي بعد ذلك بما يزيد على أربعة عقود[(٣)].

ويمكن الرد على الرأي الأول بأنه لا دليل عليه، وبنظرة فاحصة لأحداث سيرة ابن الداية نجد فيها أخباراً، وقعت بعد وفاة ابن طولون[(٤)]؛ مما يدل على أنها كُتبت بعد وفاته.

أما الرأي الثاني، فقد اختلط على صاحبه الأمر ما بين تاريخ وفاة المؤلف من وجهة نظره –

---

(١) د.شعبان مرسي في (بحوث في الأدب العباسي) صـ١٠.

(٢) موسوعة التاريخ الإسلامي، للدكتور شلبي ٥/٥٥.

(٣) كنوز الأجداد ١٢٨-١٢٩.

(٤) مثل: خبر وفاة ابن طولون، وجنازته (سيرة ابن الداية ١٣١). وما حدَّث به ابن الداية عن تركة ابن طولون، وأولاده الذين تركهم بعد موته (السابق ١٣٢-١٣٣).وحدّثه بهذا (عليُّ بن مهاجر) أيام إمارة ابنه أبي الجيش خمارويه. وكذلك ورد بها خبر عن قتل الحسن بن مهاجر الكاتب في عهد خمارويه (السابق ١٠٧). وكذلك روايات عديدة ذكر ابن الداية في صدرها أن محدثه رواها له بعد وفاة ابن طولون. (السابق ١٢٦، ١٣٢). وأخيراً، أحداث رفض العباس مبايعة أخيه خمارويه بعد وفاة ابن طولون، والأمر بحبسه حتى الموت (سيرة ابن الداية ١٣١).

وهـــو المذكور فى عبارته — وبين تاريخ تأليف الكتاب وهو موضع البحث والدرس. وأما الرأى الثالث، فهو أقرب الآراء المذكورة إلى الصواب، وإن لم يحدد التوقيت الذى نراه صحيحاً.

والذى أعتقده أن ابن الداية — بحس المؤرخ الموهوب — كان يراقب الأحداث فى عهد ابن طولون، ولعله كان يسجل مسودات كتابه عنه. ولا أظن أن مادة كتابه اكتملت وثائقها إلا فى عهد (هارون بن خمارويه) لما التحق بالعمل فى الديوان. وأتوقع أن الاضطرابات الشائعة فى ذلك العصـــر لم تكن تسمح لابن الداية بإخراج الكتاب فى صورته النهائية. وأضيف إلى ما تقدم أن الفترة التى أعقبت سقوط الطولونيين — أيضاً — لم تكن مناسبة إطلاقاً لإصدار كتابه، وذلك فى ظـــل عداء العباسيين الوحشى، وتخريبهم وتدميرهم لكل ما يمت للطولونيين بصلة؛ حتى يمحوا كل أثر لهم من عقول وقلوب الناس. وأرجح — بناء على ما تقدم كله — أن يكون الكتاب قد خـــرج إلى النور بعد نظر وفحص وتدقيق، وبعد استقرار الأحوال فى عهد الوالى تكين (حوالى سنة ٣١١هـــ) فى ولايته الثالثة، التى استمرت حتى سنة ٣٢١هـــ. وأكاد أجزم بأن هذه الكتب عن ابن طولون وبنيه من بعده، والتى نحن وغيرها من كتب ابن الداية — مما لم يُعثَر عليه إلى الآن — لم تُؤلَّـــف قبل نكبة الطولونيين، و لم تظهر إلى الوجود، وإلا لدُمِّرَتْ تماماً، و لم نعثر لها على أثر بعـــد الخـــراب الشامل، الذى حَلَّ بمصر فى (القطائع)، ثم الفسطاط على يد (محمد بن سليمان). وبالـــتالى لا صـــحة لما يقوله كرد على[1] بأن ضياع كتب ابن الداية له صلة بسقوط دولة بنى طولون، وأنها وضعت قبل انقراض دولتهم. وأعتقد أن كتبه ظهرت وانتشرت بدءاً من التاريخ المذكور سلفاً، بعد أن لم يعد هناك خوف على العباسيين منها. وقد ظل كتاب سيرة ابن الداية موجوداً حتى طالعه ابن سعيد فى مصر فى القرن (السابع الهجرى)، ونقله لنا فى كتابه (المُغرِب) حـــتى ضـــاع الأصل، وبقى لنا فى كتاب ابن سعيد، الذى حفظه من العدم. وفى اعتقادى أن (سيرة خمارويه) لابن الداية بقيت، حتى ذيَّل عليها ابن زولاق. هذا وقد طالعها ابن العَديم (فى القـــرن السابع الهجرى) عندما نقل لنا عن نسخة عتيقة منها نصاً فى (بغية الطلب)، كما سيرد بعد ذلك عند تناولنا للسِيَر المفقودة.

أمـــا بخصوص مؤرخنا البلوى، فهو رغم تفوقه على ابن الداية فى منهجه، ورغم أن لكتابه مقدمة واضحة، بيَّن فيها ظروف تأليفه كتابه، إلا أنه لم يذكر فيها زمن وضع هذا الكتاب، و لم يحـــدد لنا الشخصية التى كَلّفتْه بتأليفه[2]. لكن الشئ المؤكد — رغم معاصرته ابن الداية — أنه

---

(١) كنوز الأجداد: صــ١٢٨-١٢٩.

(٢) ولو قُدّر توضيح هذه الشخصية — ولا بد أنها شخصية سياسية مهمة منقفة — لاقتربنا أكثر من توقيت تأليف الكتاب، أو بداية التكليف به على الأقل. وسوف أورد محاولة لتحديدها بعد قليل.

وضـــع مؤلّفه بعد صدور مؤلّف ابن الداية؛ بدليل أنه طالعه، وذكر وجوه التقصير والنقص فيه، وحـــاول تَجنُّبها فى كتابه الجديد.ويذكر كرد على[١] أنه لم تعرف – بالتحديد – سنة تأليف الـــبلوى كـــتابه،لكن هناك أحداثاً وردت فى سيرته، تعطى مؤشرات تقريبية عن توقيت تأليف الكـــتاب، ويـــرى أنه ألفه بعد سنة ٣١٢هـــ، التى وافى فيها مصر الوزيرُ على بن عيسى بن الجـــراح، وقـــد ذُكر فى كتاب البلوى. كما ورد ذكر الخليفة المقتدر (قُتل سنة ٣٢٠هـــ)[٢]. واســـتنتج الـــباحث من رواية البلوى عن أناس رووا عن ابن الداية[٣] أن البلوى ألّف كتابه فى الـــثلث من القرن الرابع الهجرى فى أرجح الظن بعد وفاة ابن الداية، وبعد أكثر من ستين سنة مضت على وفاة ابن طولون[٤].

خلاصة الرأى عندى:

١- أن الـــنص الذى ورد فيه ذكر الوزير على بن عيسى فى كتاب البلوى لم يحدد تاريخ تـــواجده فى مصر، لكنى سبق أن ذكرت أنه قدم إلى مصر مرتين (سنة ٣١٢هـــ، وسنة ٣١٨ هــــ)، وأرجح أن كتاب البلوى أُلف بعد سنة ٣١٨هـــ (أواخر العقد الثانى من القرن الرابع الهجرى)، ولعله أُهدى إلى ذلك الوزير، ولعل له فضل توجيه البلوى إلى تأليفه، فأهداه إليه بعد أن أهـــدى إلـــيه ابن الداية من قبل كتابه فى (المنطق) فى زيارته الأولى لمصر. ومن ثم، فالتاريخ الذى حدده كرد على متأخر عن التاريخ الذى حددتُه ورجحتُه، وتاريخه هذا أقرب إلى ميقات وفاة البلوى من أن يكون تاريخ تأليف كتابه.

٢- وبعد مناقشة تلك القضية أخلص إلى أن كلا الكتابين وُضعا فى القرن الرابع الهجرى، ولـــذا جاز أن يُدْرَسا ضمن الكتابات التاريخية فى هذا القرن. وما دام ابن الداية سبق البلوى فى التأليف، فلا بد أن يكون الأخير قد تأثر به، ونقل عنه، خاصة أنه طالع كتابه، وحاول إصلاح ما فيه من خلل وقصور. فما حقيقة العلاقة بين الكتابين ؟ ذلك موضوع النقطة التالية.

---

(١) مدخله لسيرة البلوى صـــ٧.

(٢) معلوم أن المقتدر قتل فى شوال ٣٢٠هـــ (ولاة مصر – ط.حسين نصار صـــ٢٩٨). لكن النص الذى ورد فيه ذكر المقتدر فى سيرة البلوى لا يستفاد منه ذلك؛ لأنه يعبر عن بدايات عهد المقتدر، فهو متصل بأحداث صدام تكين وجيشه مع القائم العُبيدى فى حملته الثانية على مصر (٣٠٧-٣٠٩هـــ). (راجع ما ذكره البلوى عنها فى سيرته صـــ١٠٢-١٠٣).

(٣) من دراستنا تلاميذ ابن الداية، وجدنا أهم اثنان: الفرغانى، وابن زولاق. ولم نجد ذكراً لأى منهما فى سيرة البلوى، ومن ثم لم ينقل البلوى عنهما شيئاً. ولعل تصحيح عبارة كرد على هو (عن أناس روى عنهم ابن الداية)، وهذا كثير متحقق، كما سنرى فى دراسة موارد الكتابين. وهذا جائز؛ لأن كليهما متعاصران.

(٤) من الغريب أن يهتم البلوى بسيرة ابن طولون بعد كل هذه الفترة من تاريخ وفاته (٢٧٠هـــ)، وبعد انهيار دولته (٢٩٢هـــ). فلعل ما كُلف به، ورغبته فى سد الخلل الحاصل؛ نتيجة اختصار ابن الداية سيرته، دفعه إلى إعادة كتابة سيرته. ويلاحظ أنه لم تعرف له كتب عن عصر الإخشيد – مثلاً – رغم أنه عاصره، فعلّها فُقدت.

٢- العلاقة بين سيرتي: (ابن الداية، والبلوى):

الرأى الأول:

أ- يــرى كرد على أن البلوى أورد فى كتابه تسعين رواية، منها: خمسون نقلها عن ابن الدايــة مــن كتابيه: (سيرة أحمد بن طولون)، و(المكافأة). أما الأربعون الأخرى، فجاء بها من عنده على ما يظهر[١]. ويقول فى موضع آخر: لكنا لا ندرى: هل هذه الروايات الأخيرة نُقلت – كــذلك – فى المطــوّل[٢] من كتاب ابن الداية، أو تلقطها من أماكن أخرى ؟ وإن كانت يترجح من نسقها، وعبارتها الطليّة، أنها من بضاعة ابن الداية[٣].

ب- يُعــذر البلوى على سلخه أخبار ابن الداية، بمعناه ومبناها (مع زيادات عليها جعلتها ممتعة فى القراءة؛ نتيجة مهارة البلوى فى تأليفها)[٤]. ولا يعذر البلوى فى نقله عن ابن الداية دون تصريح، وهو العالم الفقيه الواعظ. ولو نسب ما أخذ لابن الداية، لزاد كتابه توثيقاً، ولصار له وقــع فى نفــوس قارئيه، إذ ينسب الفضل لذويه، ويعزوه لقائليه. ويرى أن الطبيعة[٥] جازت البلوى، فسطا المقريزى على كتاب البلوى، وسلخ من كلامه صفحات طويلة فى (الخطط).

خلاصة رأى كرد على:

أن لابن الداية فضل السبق، وللبلوى الزيادة والإضافة. ويعتقد أن كتاب ابن الداية لو ظفر الباحــثون بالأصــل السليم[٦] منه، لكان أمتع؛ لأنه كتبه عن عيان ومشاهدة، ونقل عن ثقات وعارفين. أما البلوى، فيمتاز بخلوه من المؤثرات السياسية فى الجملة، فكتب وهو لا يُخشى عليه مصــانعة من يعاصرهم، كما أنه تاريخ مطول يجعلنا أدنى إلى الإحاطة بحال ابن طولون، ودولته فى عصره[٧].

---

(١) درس هذا الموضوع كرد على فى: كنوز الأجداد ١٦٣، ومدخله لسيرة البلوى صــ٨، ١٠-١٢.

(٢) وهذا مرتبط بفهمه أن ما بين أيدينا من سيرة ابن الداية إن هو إلا مختصرها، وسنناقش ذلك فيما بعد.

(٣) مدخل إلى سيرة البلوى ١٠-١١.

(٤) راجع – مثلاً – تفاصيل حيل وألاعيب (طيفور نائب ابن طولون بالحضرة)؛ لأجل منع القواد أن يستجيبوا للموفق فى القبول بولاية مصر بدل ابن طولون (سيرة البلوى ٦٠-٦٢)، وقارنها بابن الداية (صــ٩٥). وكذلك قارن تفاصيل قبض ابن طولون على شيخ يعمل جاسوساً للموفق، ثم إطلاقه (سيرة البلوى ١٢٢-١٢٤)، بما ورد فى (سيرة ابن الداية صــ١٠٠)، وغير ذلك كثير.

(٥) هذا تعبير لا يجوز عقدياً، فكأن الكاتب من الدهريين أو الطبيعيين، الذين ينسبون الأفعال إلى الطبيعة لا إلى خالق الطبيعة، وقد أورد تعبيره هذا مرتين، رغم أن الطبيعة لا تُجازِى، ولا تقتص.

(٦) وهو يتمشى – أيضاً – مع رأيه أن ما نُشر من سيرة ابن الداية مختصر عن الأصل.

(٧) مدخل إلى سيرة البلوى صــ٨.

الرأى الثانى:

يــرى العبادى(١) أن لا عجب كل العجب فى سطو المقريزى (فى القرن التاسع الهجرى) علــى مؤلِّف البلوى (فى القرن الرابع الهجرى)، إنما العجيب حقاً أن يسطو البلوى على مؤلف معاصر له (ابن الداية)، ولعلهما التقيا، وعرف كلاهما الآخر. وله رأى جديد فى تعليل التشابه بــين مــادة كتابهما، هو أن كليهما استمد من المصدر نفسه، الذى استمد منه الآخر (ديوان الإنشاء المصرى)، وله على ذلك عدة أدلة، يسوقها من كتاب البلوى نفسه(٢).

خلاصة الرأى عندى:

لا أقبل الاتهام الذى وُجِّهَ إلى البلوى بالسطو على كتاب ابن الداية المعاصر له، والنقل عنه دون أن ينسب النصوص والروايات له. فالبلوى يذكر موارد رواياته، وما كان يضره أن يشير إلى ابــن الدايــة لو أنه نقل عنه مباشرة، وما كان ذلك ليعيبه فى شئ. وأقول: لعله استفاد من تخطــيط ابن الداية كتابه وأفكاره، ولكنه عاد – فى الغالب – إلى المصادر الأصيلة، التى رجع إليها ابن الداية، واستعان بالديوان، فأخذ من وثائقه ما لم يأخذ ابن الداية. فأتى كتابه على نهج جديد، ومنوال بديع، وأورد به تفاصيل كثيرة(٣)، وعالجه بمنهج رائع، دلَّل على عظمة البلوى مؤرخاً بصورة لم تظهر فى سيرة ابن الداية، التى عمد صاحبها إلى عرضها مختصرة، مكتفياً بذكر ما يُستحسن من أخبار ابن طولون. وإذا كان الأسلوب متشابهاً فى عدد من الروايات، فلا يعنى ذلك أن البلوى يؤلف من كلام ابن الداية، ويصوغ بدقة ما يخدع به قارئه، ويوهمه أنه أسلوبه الخــاص به؛ لأن ثقافة العصر واحدة، وعبارة البلوى إذا قيست بابن الداية لا تقل عنها فصاحة وجــزالة(٤). وإذا كان البلوى نقل فى سيرته بعض روايات فى كتاب (المكافأة)؛ فلأنها روايات

---

(١) يراجع رأى عبد الحميد العبادى فى (مجلة كلية الآداب – جامعة القاهرة) مجلد ١٩٤٣/١م، صـــ٤-٦.

(٢) من ذلك: ما ورد فى (سيرة البلوى صـــ١١١-١١٢): أن ابن طولون جعل للرسائل ديواناً، تختم فيه الكتب بعد تحرير الكتّاب لها، وعرضها عليه. والغالب أن ديوان الإنشاء كانت تحفظ فيه – خلاف الرسائل الرسمية – محاضر مجالس ابن طولون بعد عرضها عليه، فكان له كتّاب يسجلون كل صغيرة وكبيرة فى مجالسه. وربما كانت تُحفظ فى (ديوان الإنشاء) رقاع التقارير، التى تُرفع للأمير من غلمانه وأصحاب أخباره (المصدر السابق ٢٢٤، ٢٢٨-٢٢٩). وأخيراً، هناك دليل عقلى: تشابه اللفظ والمعنى والأسلوب فى نصوص مراسلات رسمية بين ابن طولون والموفق، والعباس بن أحمد بن طولون فى كل من: (سيرة ابن الداية، والبلوى) معاً؛ مما يدل على وحدة مصدرها.

(٣) الحق أنه وردت فى (سيرة البلوى) روايات كثيرة لا وجود لها أصلاً فى (سيرة ابن الداية)؛ مما ينفى نقله وسطوه على كتاب ابن الداية ككل. (راجع هذه النماذج فى سيرة البلوى صـــ٦٢-٧٠، ١١٢-١١٧، ١٣٠-١٣٣، ١٤٧-١٤٨، ١٥٣-١٥٤، ١٥٦-١٥٩، وغيرها. وفى المقابل توجد بعض روايات قليلة فى (سيرة ابن الداية) لا وجود لها عند البلوى (راجع: صـــ١٠٣، ١٠٧، ١٢٥، ١٣٣).

(٤) كنوز الأجداد ١٦٣.

تاريخـــية، نقلها من موردها الأصلى[١]. وهكذا، لا نزعم لابن الداية ما ليس فيه، ولا نبالغ فى اتهام البلوى بما ليس فيه، وإنما نعطى كل ذى حق حقه بالدليل والبرهان.

٣- أصل الكتابين، وما يتعلق بطبعهما ونشرهما:

عـــند دراســـة (سيرة ابن الداية) يثور سؤال مفاده: هل هذه السيرة التى كتبها ابن الداية وصلت إلينا كاملة، أو أنها ملخصة عن الأصل المفقود ؟ والحق أن الرأى السائد بين الباحثين[٢] هـــو أن الأصـــل فُقد، وأن ابن سعيد المغربى عرض لها ملخصة ضمن كتابه: (المُغْرِب فى حُلَى المَغْرِب)؛ ومن هنا وردت موجزة بالقياس إلى (سيرة البلوى) المفصلة.

ولى رأى يـــناقض ذلك الرأى، مفاده أن (سيرة ابن الداية) المشار إليها سابقاً، عرضها ابن سعيد بكل دقة وأمانة، وعرضها كاملة كما وقعت له، ذاكراً أسانيد الروايات على النحو الذى وجدها عليه.

وأدلة ذلك ما يلى:

أ- ذكر ابن سعيد أنه يفرد لبنى طولون، الذين توارثوا سلطنة مصر كتاباً، كما أفرد لبنى عَبَّاد ملوك إشبيلية كتاباً، فهم ممن تَحَلَّى بهم زمانهم، ودَلَّ عليهم عنوانهم[٣]. فالرجل معجب بهم، فلا أقل من أن ينقل أول كتاب مُعَبِّر عن عصرهم الذهبى (ابن طولون) كاملاً، وقد سمَّاه (كـــتاب الدُّرّ المكنون فى حلى دولة بنى طولون)، وضمّنه سيرة ابن طولون، ثم من بعده حتى زوال أمرهم.

ب- أنه ذكر أن كتاب ابن الداية عن (ابن طولون) عنوانه: (المستحسَن من أخبار أحمد بن طولـــون)، وذكـــر نسب مؤلفه كاملاً، وأوضح أنه يقتصر على هذا الكتاب فى إيراد حياة ابن طولون، وأنه بعد الفراغ من ذلك الكتاب يأتى بما يقتطفه من غيره ما يتعلق بأخبار خلفاء أحمد ابـــن طولون من بعده[٤]. وهذا يعنى أن ابن سعيد أورد كتاب ابن الداية كاملاً، ويُرَدّ على من يـــزعم أن الكتاب ناقص؛ لأنه مختصر، بأن الاختصار والاقتصار على محاسن أخبار ابن طولون

---

(١) قارن ما ورد فى (المكافأة) لابن الداية صـــ١١-١٥، بما يقابله فى:سيرة البلوى (صـــ٢٣٠-٢٣٤).وكذلك ما ورد فى(المكافأة)صـــ١٥-١٩، بالبلوى صـــ٢٣٤-٢٣٧. وكذلك ما جاء فى(المكافأة)صـــ٤٨-٥٠، بما يقابله فى البلوىصـــ٢٣٧-٢٣٩، وغير ذلك.

(٢) كرد على: مدخل إلى سيرة البلوى صـــ٨، ١١، وعبد الحميد العبادى: مقاله فى (مجلة كلية الآداب) صـــ٢. ود.شعبان مرسى: بحوث فى الأدب العباسى صـــ٣٦، ومحققو كتاب (المغرب – قسم مصر) لابن سعيد (المقدمة م ٤٣)، ود.سيدة كاشف: أحمد بن طولون صـــ٩.

(٣) المغرب (قسم مصر) صـــ٧١.

(٤) المصدر السابق: (قسم مصر) ٧٣.

كـــان هدفاً لابن الداية فى حد ذاته، كما هو واضح من عنوان الكتاب، الذى تفرَّد بالإتيان به ابن سعيد، فأنار لنا هذا الدليل[١].

ج- أن ســـيرة ابن الداية تسير فى أحداثها بطريقة منطقية بدرجة لا بأس بها، مع تطورات حياة ابـــن طولـــون من النشأة حتى الوفاة، وإن احتل الترتيب واضطرب وغمض أحياناً؛ بدافع الاختصار الذى أدى إلى شئ من الاختلال، كما سنرى بعدُ، مما تجنبه البلوى فعليه يُشكر، ومن الله يُؤجَر.

د- بعد إيراد ابن سعيد سيرة ابن الداية – وهو الثقة الثبت الدقيق الأمين – قال: " كمل كـــتاب سيرة ابن الداية فى سيرة أحمد بن طولون "[٢]. وحسبك بهذا القول الفصل دليلاً على اكتمال سيرة ابن الداية.

وهذا، وقد نشر فولرز Vollers الألمانى كتاب ابن الداية مستقلاً سالخاً إياه من (المُغْرِب)، فى برلين سنة ١٨٩٤م[٣] فى (الجزء الأول من القسم الخاص بمصر) بتحقيق الدكتور زكى محمد حسن، وآخرين فى طبعة جديدة جيدة، نعتمد عليها فى دراستنا للكتاب.

أما البلوى، فيذكر محقق سيرته[٤] أنها وجدت مخطوطة فى (دار الكتب الظاهرية بدمشق)، وإن عـــنوانها فى أولى صفحاتها كان على النحو الآتى: (كتاب سيرة آل طولون)، لكن الكتاب جاء (سيرة أحمد بن طولون) فقط. وكُتب فى آخره خط يخالف خط ناسخه: (تمت سيرة أحمد ابـــن طولون). ويرى المحقق أن الغالب ضياع كراريس من آخره، أو أن المؤلف لم يَفِ بما وعد به فى مقدمته[٥]، ولم يذكر من أخبار أولاده إلا ما جاء عرضاً، ولأمور تتعلق بأبيهم لا بهم[٦]. هـــذا، وقد استفسر محققه عن مدى وجود نسخ أخرى مخطوطة تكمل النقص فى آخره، فأفاده صديقه كرنكو Krenkow بأنه لا تُعرف له نسخ خطية أخرى، ولا شئ من أخباره سوى ما فى الكتب المعروفة[٧].

---

(١) وهذا العنوان هو ما رجحه سيد محمد قطب فى ماجستيره صـــ٩٩؛ لاتفاقه مع طبيعة فكر ابن الداية، ورؤيته نشر فضائل الأعلام؛ للاقتداء بهم بعد ذلك.

(٢) سيرة ابن الداية (فى كتاب المغرب) صـــ١٣٣.

(٣) كان ناشرها مديراً لدار الكتب المصرية آنذاك. وفى نصوص السيرة التى نشرها تحريفات كثيرة، أشار إليها محققو (المغرب – قسم مصر): راجع – مثلاً – هامش ١ صـــ٧٤، وهامش ٢، ٦ صـــ٧٦، وهامش ٣ صـــ٧٩، وهامش ١٠ صـــ٨٠، وهامش ٤، ٧ صـــ٨٣.

(٤) مدخل كرد على لسيرة البلوى صـــ١٣.

(٥) راجع البلوى فى مقدمة (سيرة ابن طولون) صـــ٣٢.

(٦) مثل: ذكر العباس عند شرح خروجه على والده، وعصيانه إياه (سيرة البلوى صـــ٢٤٤، وما بعدها)، ووصية ابن طولون لابنه خمارويه قبيل وفاته (السابق صـــ٣٣٩).

(٧) مدخل إلى سيرة ابن طولون للبلوى: صـــ١٥-١٦.

الخلاصـــة

أن سيرة ابن الداية كاملة، وسيرة البلوى كاملة (فيما يخص ابن طولون)،وناقصة (فيما وراء ذلك)، وأن كلتيهما لقيتا عناية، فتم نشرهما بتحقيق علمي جيد، وإن وردت الأولى متضمَّنة فى كـــتاب آخر، بينما نُشرت الأخرى مفردة قائمة بذاتها. ومن هنا جازت دراسة منهجهما، مع المقارنة بينهما، وهو موضوع الصفحات القادمة.

الفصل الثاني
سيرة أحمد بن طولون: نقد، وتحليل
(دراسة سيرة أحمد بن طولون) لابن الداية، والبلوى:*

أولاً – المحتوى والمضمون:**

١- أصل والد أحمد بن طولون، ومولد أحمد سنة ٢٢٠هـ، ووفاة والده سنة ٢٤٠هـ، وعناية الصلحاء من رفقاء والده به.

٢- سأم أحمد أخلاق الأتراك المتردية، وتفضيله المرابطة بثغر طرسوس؛ للجهاد فى سبيل الله ضد الروم. ثم عوده إلى سامرا، وظروف ذلك، وأسبابه، وصلته بتوطيد أواصره بالخليفة المستعين.

٣- وكل الأتراك إلى أحمد أمر المستعين لَمَّا نَفَوْه إلى (واسط) بعد عزله وتولية المعتز. وقد عامله أحمد معاملة طيبة، ورفض أن يقتله رغم كل الإغراءات، فزادت مكانته فى القلوب؛ مما هيَّأ له الفرصة لحكم مصر نيابة عن باكباك التركى.

٤- دخول أحمد مصر سنة ٢٥٤هـ بصحبة الواسطى، ويعقوب بن إسحاق الكاتب، وصدامه مع صاحب الخراج (ابن المدبِّر)، وصاحب البريد (شُقَيْر الخادم). وقد نجح ابن طولون عن طريق عيونه بعاصمة الخلافة فى إحباط دسائس (ابن المدبر)، وشقير ضده، وتمكن من التخلص منهما. وبعدها بسط سلطانه على مصر كلها.

٥- أخبار عدد من الثائرين بمصر فى عهد ابن طولون، وتمكن جيوشه المتتابعة من القضاء على تلك الثورات.

٦- اصطدام ابن طولون بالموفق أخى الخليفة (المعتمد)؛ لمطالبة الأخير له بالأموال اللازمة لتمويل حربه أمام (الزنج)، وردّ ابن طولون الحاسم عليه. هنا تنبه الموفق لخطر وجود والٍ قوى

* اعتمدت فى دراسة (سيرة ابن الداية) على نشرها المتضمنة فى كتاب (المغرب –قسم مصر) لابن سعيد المغربى صـ ٧٣-١٣٣، واستخدمت فى دراسة (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى طبعة بتحقيق: محمد كرد على (نشر: مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة).

** أحرص على ذكر محتوى عامّ للسيرتين معاً من بداية حياة ابن طولون حتى نهايتها، مع تغليب محتوى سيرة البلوى؛ لأنها أشمل وأكمل، مع تجنب ذكر التفاصيل، أو الأفكار المفتقدة أصلاً فى سيرة ابن الداية. وعند وجود أحداث مذكورة بتواريخها، حاولت سردها وفق ترتيبها الصحيح بغضّ النظر عن اختلال ترتيبها فى أىّ من السيرتين.

كابن طولون فى مصر، فحاول عزله عنها، لكن القدر خدم ابن طولون بموت أشد منافسيه عداء له (موسى بن بغا، وعُبيد الله بن خاقان الوزير) سنة ٢٦٤هـ.

٧- أبعد الموفقُ أحمدَ بن طولون عن الثغور الشامية، لكن الخلافة اضطرت أمام اضطراب الأمور هناك، إلى الاستعانة بابن طولون؛ لتدبير أمور الثغور وضبط شئونها. وانتهز أحمد الفرصة فضم الثغور إلى مصر، ثم سيطر على الشام بعد موت ماجور التركى عامل الشام سنة ٢٦٤هـ، ومقتل سيما الطويل عامل أنطاكية فى حروبه أمام ابن طولون فى المحرم سنة ٢٦٥هـ.

٨- انتقل الحديث بعد ذلك إلى رصد صفات أحمد بن طولون مع ضرب الأمثلة والنماذج الكثيرة عليها الدالة على حزمه، ودهائه، وفطنته، وفراسته، وصحة قياسه وظنه، تلك السمات التى ساعدته كثيراً على اكتشاف جواسيس الموفق، والقبض عليهم وإحباط مؤامراته ضد ابن طولون فى مصر. وكذلك تُعُرِّض لإنصافه، وحسن تأتِّيه، وبطلان كثير مما يشنع به أعداؤه عليه، مع التماس العذر له فيما أوقع من عقوبات على بعض الناس، وضرب الأمثلة العديدة على تلك العقوبات.

٩- الاهتمام بإبراز حب ابن طولون للخير، وصدقاته الكثيرة، ومشروعاته الطيبة كبناء الجامع، وإنشاء البيمَارِسْتان، وإحسانه إلى أهل طَرَسوس المرابطين، وبناء حصن يافا، وصدقاته لأهل الحرمين، وأهل الستر والحاجة فى مصر، وأداء ما على المحبوسين من أموال حُبسوا لأجلها، واهتمامه بشئون حَفَظَة كتاب الله، واهتمامه الكبير بالعملة ونقائها (الدينار الأحمدى)، وإشرافه بنفسه على إطعام الفقراء والمساكين، واهتمامه بشئون الجيش والأسطول، وتوجيهاته إلى رجال الشرطة بمراعاة رعيته، والشدة على أهل الفسق، والفجور، والجرائم.

١٠- خروج العباس بن أحمد بن طولون على أبيه، ومعه بعض القواد الذين أغروه بذلك؛ منتهزين فرصة انشغال ابن طولون بالشام. وتصرفات العباس المتهورة، وتبديده الأموال والرجال، وفشل أحمد فى إعادته إلى الطاعة بهدوء، فأرسل إليه الجيوش لمجاهته، وأُعيد أسيراً إلى والده سنة ٢٦٧هـ، وقيام ابن طولون بمعاقبة الخونة بالقتل والحبس. أما العباس، فعاقبه والده بالضرب والحبس؛ جزاء فعلته النكراء.

١١- خروج لؤلؤ غلام ابن طولون بالأموال والعتاد إلى الشام، وانضمامه بعد ذلك إلى الموفق، وفشل ابن طولون فى إعادة غلامه، فخرج متظاهراً بمساندة المعتمد ضد أخيه الموفق، وهو - فى الحقيقة - يريد الإيقاع بغلامه، الذى تنكر لجميل سيده عليه.

١٢- لما فشل ابن طولون فى استقدام المعتمد إلى مصر، وفشل فى تحقيق أهدافه، اصطدم بالموفق مباشرة، وأعلن خلعه من ولاية العهد، ولعنه على المنابر بالشام ومصر. وفى المقابل رد عليه الموفق بلعنه، وخلعه من ولايتى: (مصر، والشام).

١٣- وأخيراً، واجه ابن طولون - أواخر أيامه - سلسلة من الفشل والإخفاق المتوالى فى فتح الشام، وعجز عن دخول طرسوس أمام القائد يا زمان الخادم، ثم أصيب بعلته الشديدة، التى أتـــت عليه بعد أن تقدم بوصاياه إلى ابنيه: العباس، وخمارويه، وقواده، وغلمانه. وبذلك انتهت فتـــرة حكمه لبلاد مصر، والشام بعد ستة عشر عاماً (توفى ٢٧٠هـــ)، قضاها فى مصر، مخلفاً وراءه مظاهر عظيمة من الثراء والرخاء.

ثانياً - وضع محتوى السيرتين فى ميزان النقد التاريخى:

بعـــد عرض الخطوط العريضة لسيرة ابن طولون، التى كتبها كل من: ابن الداية، والبلوى، ننـــتقل إلى دراســـتهما دراسة نقدية تاريخية. والنقد - فى نظرى - نوعان: خارجى (له علاقة بالموارد التى نقل عنها المؤرخان مادهما). وداخلى (يتمثل فى وضع بعض الأحداث التاريخية فى ميزان الصواب والخطأ التاريخى).

١- النقد الخارجى:

تنوعت موارد ابن الداية فى (سيرة ابن طولون) **على النحو الآتى:**

أ- موارد صريحة محددة:

يذكر فيها ابن الداية اسم مورده، الذى نقل عنه الرواية بطريقة محددة واضحة. وقد بلغت اثـــنين وثلاثين (٣٢) مورداً، نقل عنها ابن الداية - فى مجموعها - سبعاً وستين (٦٧) رواية، **موزعة كما يلى:**

١- **نسيم الخادم**[١]: (١٣ رواية).

٢- **شعيب بن صالح**[٢]: (٧ روايات).

٣- **إسحاق بن إبراهيم** (عم المؤلف)[٣]: أربع روايات.

٤- **أبـــو العباس الطرسوسى**[٤]، **وأبو جعفر بن عبد كان الكاتب**[٥]، **وأحمد بن خاقان**[٦]،

(١) مروياته فى سيرة ابن الداية داخل كتاب (المغرب - قسم مصر) لابن سعيد صـــ٧٦، ٩٤، ٩٨-٩٩، ١٠٣-١٠٤، ١٢٣، ١٢٦-١٢٧، ١٢٩-١٣١.

(٢) مروياته فى سيرة ابن الداية داخل كتاب (المغرب - قسم مصر) لابن سعيد صـــ٨٥، ٩٢-٩٣، ٩٥، ١٠١-١٠٣، ١٠٦-١٠٧.

(٣) السابق: ١٠٥-١٠٦، ١٢٠، ١٢٧، ١٢٩ (وسوف أوضح الرأى فى تلك الرواية الأخيرة فيما بعد).

(٤) السابق: ٩٩-١٠٠، ١١٧-١١٨.

(٥) السابق: ٩٨، ١٠٠-١٠١، ١٠٥.

(٦) السابق: ٧٥، ٨٣، ١٠٧-١٠٨.

وأحمد بن محمد الواسطى الكاتب[١]، ونعت أم ولد أحمد بن طولون[٢]. (لكل ثلاث روايات).

٥- أبـو جعفر المروزى[٣]، وسعد الفرغانى[٤]، وعلى بن مهاجر[٥]، وأحمد بن عبد العزيز الحريزى[٦]: (ولكل روايتان).

٦- إبـراهيم بـن كامـل المصرى[٧]، والحسن بن مهاجر[٨] وطاهر الكبير الخادم[٩]، وإبـراهيم بن قراطغان[١٠]، وأبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب[١١]، وموسى بن طولون[١٢]، وتركان[١٣]، وأحمد بن القاسم[١٤]، وهارون بن مَلُول[١٥]، والحسن بن رافع الكاتب[١٦]، ومحمد ابن موسى[١٧]، ومحمد بن عبيد الله الخراسانى الدهان[١٨] وأبو جعفر محمد بن موسى بن طولون[١٩] وأحمـد بن أيمن[٢٠] الفارسى[٢١] وبراقة الحاسب[٢٢] يعقوب بن صالح صاحب العُجَيْفى[٢٣] وأحمد ابن أبي يعقوب[٢٤] وأحمد بن دُعيم[٢٥] وأحمد بن أبي أَوْفَى[٢٦] (لكل رواية واحدة).

ب- موارد غير صريحة (غير محددة بوضوح):

وهذه بلغ عددها ثلاثة موارد[٢٧]، بالإضافة إلى مورد رابع، ورد فى رواية جمعت بين مورد صريح وآخر غير صريح[٢٨].

---

(١) السابق: صـ٧٥-٧٦، ١٢٥-١٢٨.
(٢) السابق: ٩٣-٩٤، ١٠٣ (كتبت بها محرفة هكذا: نعمت بدلاً من: نعت)، ١٠٥.
(٣) مروياته فى (المصدر السابق) صـ٩٦-٩٧، ٩٨-٩٩.
(٤) السابق ٩٧، ١٠٧ (وورد باسم سعيد تحريفاً).
(٥) السابق ١٣٢-١٣٣.
(٦) السابق صـ١٣٣ (وبها روايتان عنه).
(٧) السابق ١٠٢-١٠٣.
(٨) السابق ١٠٣-١٠٤.
(٩) السابق ٩٧-٩٨.
(١٠) مروياته فى سيرة ابن الداية داخل كتاب (المغرب – قسم مصر) صـ١٠٥.
(١١) السابق: ٩٤-٩٥ (ورد اسم كامل محرفاً إلى: كامن).
(١٢) السابق: ٩٥-٩٦.
(١٣) السابق: ١٠١.
(١٤) السابق: ١٠٨-١٠٩.
(١٥) السابق: ١٠٩-١١٠.
(١٦) السابق: ٧٦-٧٧.
(١٧) السابق: ١١٠-١١١.
(١٨) السابق: ١١١.
(١٩) السابق: ٨١-٨٢.
(٢٠) السابق: ١١١ ١١٢.
(٢١) السابق: ١١٢ ١١٣.
(٢٢) السابق: ٨٢.
(٢٣) السابق: ١١٤-١١٥.
(٢٤) السابق: صـ١٢٢.
(٢٥) السابق: صـ١٣٢.
(٢٦) السابق.
(٢٧) هى: خادم برجوارى خليفة ابن طولون (سيرة ابن الداية صـ٩٥)، وقيل لى (السابق صـ١٠٧)، وجماعة من رهبان دَيْر القُصَيْر (السابق ١٣٠-١٣١).
(٢٨) نص إسنادها يقول: " وحدثنى إبراهيم بن كامل المصرى، وجماعة من المصريين " السابق صـ١٠٢-١٠٣.

ج- **وثائـــق رسمية مستقاة من الديوان (حيث السجلات الرسمية للدولة)**: وهذه عددها تسع وثائق[(١)].

ملاحظـــة:

أورد ابـــن الدايـــة حوالى أربع وثلاثين رواية دون أن يذكر الموارد، التى استقى منها هذه الروايات[(٢)].

أما البلوى، فقد تنوعت موارده على النحو الآتى:

أ- موارد صريحة محددة:

وقد بلغ عددها فى كتاب البلوى تسعة وثلاثين (٣٩) مورداً، نقل عنها سبعاً وثمانين رواية **موزعة كما يلى:**

١- **نسيم الخادم**[(٣)]: نقل عنه إحدى وعشرين (٢١) رواية.

٢- **شعيب بن صالح**[(٤)]، **وأحمد بن محمد الواسطى الكاتب**[(٥)]: ونقل عن كل منهما ست (٦) روايات.

٣- **أبو جعفر بن عبد كان**[(٦)]: وروى عنه أربع (٤) روايات.

٤- **إبـــراهيم بـــن قراطغان**[(٧)]، **وعبد الله بن الفتح**[(٨)]، **ونعت أم ولد ابن طولون**[(٩)]: ونقل عن كل ثلاث (٣) روايات.

٥- **أحمـــد بن أيمن**[(١٠)]، **وتـــركان بن عبـــد الله بن الإمـــام**[(١١)]، **وسعد الفرغانى**[(١٢)]،

---

(١) السابق ٧٥، ٨٧، ٨٩-٩١، ٩٥، ٩٨، ١٢٦-١٢٧، ١٣١-١٣٣.

(٢) السابق ٧٣-٧٤، ٧٦-٨١، ٨٣-٨٤، ٨٦-٨٨، ٩١، ١٠٨، ١١٥-١٢٦، ١٢٨-١٣١. (وفى صـــ١٣٠: ثم قال أحمد بن طولون لسعيد بن نوفل. والصواب: ابن توفيل).

(٣) مروياته فى (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى صـــ١١١، ١٦٨-١٧٣، ١٩٣-١٩٦، ٢٠١-٢٠٦، ٢١٠-٢١١، ٢٢٢-٢٢٤، ٢٣٤-٢٣٩، ٢٤٢-٢٤٣، ٢٨٠-٢٨١، ٣١٤-٣١٩، ٣٢٩-٣٣٣، ٣٣٧-٣٣٨، ٣٤١-٣٤٢.

(٤) مروياته فى (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى صـــ١٢٩-١٣٠، ١٣٣-١٤٠، ١٤٢-١٤٥، ٣٣٣-٣٣٤.

(٥) السابق: ٤١-٤٢، ٤٨، ١١٤-١١٥، ٢٢٦-٢٣٠، ٢٧١-٢٧٢، ٢٨١-٢٨٦.

(٦) السابق: ١٠٩-١١٠، ١١٢، ١٤٨، ٣٣٨.

(٧) السابق: ١٨١-١٨٣، ١٩٨-١٩٩، ٢٠٦-٢٠٨.

(٨) السابق: ٣٠٢-٣٠٦، ٣٥٥-٣٥٨. (٩) السابق: ١١٠-١١١، ٢١٢، ٣٤٣.

(١٠) السابق: صـــ١١٥-١١٧، ٢١٧-٢١٨. (١١) السابق: ١٢٦-١٢٨.

(١٢) السابق: ١٨٩-١٩٢، ٢٢٤-٢٢٥.

وأبو كامل شجاع بن أسلم الحاسب[١]، وأبو جعفر المروزى[٢]، وأبو العباسى الطرسوسى[٣]، وموسى بن طونيق[٤] ويحيى بن براقة الحاسب[٥]، وأحمد بن دُعَيْم[٦]: (لكل روايتان).

٦- أبو العباس أحمد بن محمد الكوفى[٧]، وصالح بن على[٨]، والعجيفى[٩]، وأسامة بن حباب[١٠]، والفارسى[١١]، ومحمد بن عبد الله الخراسانى الدهان[١٢]، وطاهر الكبير الخادم[١٣]، وأحمدبن القاسم[١٤]، ويعقوب غلام العجيفى[١٥]، وحماد بن على الأزدى[١٦]، والحسن بن القاسم الأنبارى[١٧]، وسوار الخادم[١٨]، وهارون بن ملول[١٩]، وإسحاق بن إبراهيم[٢٠]، وجريج ابن الطباخ المتطبب[٢١]، ومحمد بن الحسن اليمانى[٢٢]، والحسن بن على العبّادانى[٢٣]، ومحبوب بن رجاء[٢٤]، وكامل بن سعيد متطبب سعيد الصغير[٢٥]، وأحمد بن عبد العزيز الحريرى[٢٦]، وعلى ابن يحيى بن أبى منصور[٢٧]، ومروان بن الحكم الأردنى[٢٨]: (ولكل رواية واحدة).

ملاحظة:

ويلحق بهذا النوع من الموارد - وإن لم يكن واحداً منها - مورد (المشاهدة)،

---

(١) السابق: ٢٠٨-٢١٠ (ورد بلقب الحاجب تحريفاً).

(٢) السابق: ١٨٤-١٨٩.

(٣) السابق ٩٨-١٠١، ١٢٢-١٢٤.

(٤) السابق ١٢٤-١٢٦ (وسوف نوضح ما فى صـ١٢٤ عند تناول شخصية البلوى فى كتابه).

(٥) السابق ١٦٤-١٦٨.

(٦) السابق ٢٣٠-٢٣٤، ٣٥٦.

(٧) سيرة أحمد بن طولون للبلوى صـ٣٣-٣٤.

(٨) السابق: صـ١٤٥-١٤٦.

(٩) السابق: ٢١٨-٢٢٠.

(١٠) السابق: صـ٢٧٣-٢٧٦.

(١١) السابق: ١١٨-١٢٢.

(١٢) السابق: ١٥٤-١٥٦.

(١٣) السابق: ١٩٤.

(١٤) السابق: ٢١٢-٢١٤.

(١٥) السابق: ٢٢٠-٢٢١.

(١٦) السابق: صـ١٣٠-١٣٣.

(١٧) السابق: ١٨٥-١٨٦.

(١٨) السابق: ١٩٩-٢٠٠.

(١٩) السابق: ٢١٤-٢١٦.

(٢٠) السابق: ٣١٩-٣٢٠.

(٢١) السابق: ٣٢٥-٣٢٧.

(٢٢) السابق: ٣٥٢-٣٥٣.

(٢٣) السابق: ٣٥٣.

(٢٤) السابق: ٣٥٣-٣٥٤.

(٢٥) سيرة أحمد بن طولون للبلوى ٣٥٤-٣٥٥.

(٢٦) السابق: ٣٥٦ (وقد ورد اللقب بالراى فى سيرة ابن الداية صـ١٣٣. ولا أدرى أيهما أصوب، وإن كنا قد اعتدنا على وجود أخطاء مطبعية فى (سيرة ابن الداية داخل كتاب المغرب)، فلعل الصواب ما أثبته البلوى (الحريرى)، خاصة أن هذا الرجل البغدادى كان على خزانة ابن طولون، ولعلها كانت خزانة ملابسه، كما يرجحه لقبه، ومضمون روايته).

(٢٧) البلوى فى سيرته صـ٣٥٨-٣٦٣.

(٢٨) السابق: ٣٠٦-٣٠٧.

أي: ما شاهده المؤلف بنفسه. وقد ورد ذلك فى موضع واحد صراحة[١].

ب- موارد غير صريحة (لم يذكرها البلوى محددة):

وعددها ثلاثة موارد[٢].

ج- وثائق رسمية مستقاة من دواوين الدولة، وسجلاتها الرسمية:

عددها سبع عشرة (١٧) وثيقة[٣].

ملاحظـــة:

ذكر البلوى حوالى ثلاث وسبعين (٧٣) رواية[٤]، دون أن يذكر الموارد، التى استقى منها هذه الروايات.

ملاحظات عامة على الإحصاءات العامة السابقة:

١- يتفق كل من: ابن الداية، والبلوى فى أنواع الموارد، التى استقيا منها مادتهما التاريخية (موارد صريحة، وغير صريحة، ووثائق). بل يشترك كلاهما فى إيراد قطاع عريض من الروايات مجهولة المورد.

٢- على الرغم من أن كتاب ابن الداية يمثل خمس حجم كتاب البلوى تقريباً، إلا أن عدد الموارد الصريحة فى كليهما متقارب. ولعل مرد ذلك يرجع إلى حرص ابن الداية الشديد على ذكر موارد رواياته المتتابعة القصيرة غالباً، إلى جانب التشابه العام بين موضوعات الكتابين، وإيراد البلوى كثيراً من التفاصيل، التى خلا منها كتاب ابن الداية، دون ذكر المورد.

٣- يأتى كل من: (نسيم الخادم)، و(شعيب بن صالح) على رأس قائمة الموارد الصريحة لدى كليهما. وتعد (نعت أم ولد ابن طولون) المرأة الوحيدة، التى نقل كلا المؤرخيْن عنها فى كتابهما، بل يتفقان فى عدد الروايات المنقولة عنها (ثلاث روايات).

---

(١) السابق: ٣٠٩ (وفيها شاهد المؤلف لؤلؤاً يدخل مصر فى حال وضيعة بعد طرد الموفق له بفترة، فقد دخلها آخر أيام هارون بن خمارويه).

(٢) هى: فحدثنى شيخ من شيوخنا (السابق ٤٢)، وجماعة من رهبان دير القصير (السابق ١١٨)، وحدثنا شيخ من صالحى أهل المعافر (السابق ٣٤٣).

(٣) السابق ٤٠، ٤٦، ٥٦-٥٧، ٦٠، ٨٢-٨٥، ٢٥٠-٢٥٣، ٢٥٦-٢٦٦، ٢٧٧-٢٧٩، ٢٨١، ٢٩٠ ٢٩٥، ٢٩٩، ٣١١-٣١٢.

(٤) سيرة أحمد بن طولون للبلوى صـــ٣٢-٤١، ٤٣-٤٧، ٤٨-٨٢، ٨٥-٩٨، ١٠١-١٠٦، ١١٢-١١٤، ١٢٤-١٢٥، ١٤٠-١٤٢، ١٤٦-١٥٤، ١٥٦-١٦٤، ١٧٣-١٨١، ١٨٣-١٨٤، ١٩٧-١٩٩، ٢٢١-٢٢٢، ٢٤٠-٢٤٢، ٢٤٤-٢٧٣، ٢٧٦-٢٧٩، ٢٨٦-٣٠٢، ٣٠٦-٣٠٨، ٣١٠-٣١٤، ٣١٧-٣١٩، ٣٢٨-٣٣١، ٣٣٤، ٣٣٦-٣٣٧، ٣٣٩-٣٥٢، ٣٥٧، ٣٦٣-٣٦٤.

٤- هناك موارد اتفق كل منهما على النقل عنها، وموارد انفرد ابن الداية بالنقل عنها، وموارد أخرى تفرد البلوى بالنقل عنها، كما انفرد البلوى فى رواية واحدة بالتصريح بأنه اعتمد على المشاهدة فى نقلها.

٥- الوثائق التى اعتمد عليها البلوى أكثر عدداً، وأغزر تفصيلاً من ابن الداية، الذى كان هدفه الإيجاز.

٦- تفرد ابن الداية بإيراد موردين من نوعين مختلفين لرواية واحدة مشتركة؛ أحدهما مورد صريح، والآخر مجهول (غير صريح)، وبه زاد عدد الموارد غير الصريحة لدى ابن الداية عنه عند البلوى.

منهج ابن الداية، والبلوى فى ذكر الموارد الصريحة:

أولاً - ابن الداية:

١- أول ما يلفت نظر الباحث أن موارد ابن الداية وثيقة الصلة بالحدث التاريخى الذى تنقله(١)، فهى إما أن تكون مشاركة فى الحدث المروى(٢)، أو تكون الرواية متحدثة عن هذا المورد مُعَرِّفة به، فهى بمنزلة ترجمة له(٣)، وإما أن تكون شاهدة الحدث حاضرة إياه(٤). وإذا لم يندرج المورد تحت أى من هذه الأقسام الثلاثة المذكورة آنفاً، فإنه تكون له علاقة غير مباشرة بالحدث، وذلك من خلال معرفتها بطبيعة عمله ومقامه من ابن طولون، بما يقوى ثقتنا بصحة

---

(١) يتحرى ابن الداية مصادر معلوماته، ويوائم بين المورد وموضوع الخبر المروى. فإذا نقل ما يتصل بأخبار ابن طولون الخاصة، اعتمد على نسيم الخادم مولاه، الذى يصاحبه فى حله وترحاله، ويستأمنه ابن طولون على خزائن جواهره (سيرة ابن الداية صـ٧٦). وإذا أراد التحدث عن جوارى ابن طولون، وعلاقته بنسائه، استقى ذلك من أم ولده (نعت)، فهى أقرب نسائه إليه، وأدرى بأحواله معهن. وإن أراد معرفة شئون السياسة العليا لابن طولون، روى عن صديق عمه ووالده من قبل (وهو الوزير أحمد بن محمد الواسطى). وإذا ابتغى الحديث عن أوضاع الأمن والشرطة فى عهد ابن طولون، حدثنا عن العُجيفى صاحب الشرطة مثلاً، وهكذا.

(٢) كما فى روايته عن الواسطى خبر المستعين عند نفيه إلى واسط، وقد كان الواسطى نفسه مصاحباً المستعين فى منفاه، وشهد لحظاته الأخيرة (المصدر السابق ٧٥). وكذلك روايته عن (نعت) عدم اكتراث ابن طولون بالجوارى، وانشغاله بشئون دولته من خلال موقف شهدته بنفسها (السابق ٩٣-٩٤).

(٣) كما هو الحال مع(أبى كامل شجاع بن أسلم)، الذى روى عنه ابن الداية رواية، يعد مضمونها ترجمة له، إذ يحدثنا عن استدعاء ابن طولون له، وإطلاقه من الحبس، وتوليته مسئولية منصب دار صناعة السفن، وتوجيهاته إليه بشأن العناية بالأسطول(سيرة ابن الداية ٩٤-٩٥).

(٤) بمعنى أن المورد لم يشارك بالحديث، لكنه حضر الموقف. ومثال ذلك: (الحسن بن رافع الكاتب)، الذى شهد دخول ابن طولون مصر، وسمع نبوءة مدة حكم دولته، وعاش حتى تحققت النبوءة، فصدقها. (السابق ٧٦-٧٧).

ما يروى من وقائع[١]. وأحياناً يسأل مؤرخنا ابن الداية مورده، ويستفسر منه؛ ليتأكد من صحة ما نقل إليه من أخبار ووقائع[٢].

٢- يلاحظ أن مؤرخنا ابن الداية نقل موارده مباشرة دون واسطة، واستخدم فى التعبير عن ذلك ألفاظاً دقيقة، هى: (حدثنى[٣]، فحدثنى[٤]، وحدثنى[٥]، وقال[٦]، وقال لى[٧]، وقال عمى[٨]، فسمعتُ... يُحدّث[٩]، وحدثنى[١٠]، و(قال)[١١]، وسمعنا[١٢]، وقلت[١٣]. ولكل لفظة منها معنى

---

(١) وينطبق ذلك على (نسيم الخادم)، وروايته أحداث ثورة العمرى. ورغم عدم مشاركته فى ذلك، إلا أننا ندرك معرفته بكل ما يجرى بحكم ملازمته ابن طولون. (السابق ٩٤). وكذلك ابن عبد كان الكاتب وروايته عن فراسة ابن طولون (السابق ١٠٠-١٠١).

(٢) مثل: سؤاله أبا العباس الطرسُوسى عن كيفية حفظه كلام الصوفى الذى نصح ابن طولون، فأخبره أنه تدبره عن طريق كاتب السر المصاحب لابن طولون، الذى كتب كل ما قيل. (السابق ١١٧-١١٨).

(٣) وردت هذه الصيغة فى (السابق صـ١١٧)، ولعلها خلت من (الواو)؛ لأنها أول رواية ذكرها ابن الداية عن أحداث طرسوس.

(٤) ذكرت هذه الصيغة حوالى ٤مرات (السابق صـ٧٦، ١٢٦، ١٢٩). وقد لحقتها الفاء؛ لورود المصطلح (الصيغة) فى صدر روايات يُعَقِّب فيها ابن الداية على حدث سابق، ويتم بها معنى مضى.

(٥) وهى صيغة شائعة الاستخدام فى العديد من روايات ابن الداية، وغالباً ما تستخدم عند إيراد الروايات المتتابعة (سيرة ابن الداية: صـ٩٨-٩٩، ١٠٣-١٠٤). وورود الواو فى غير موضعها (السابق صـ٩٥).

(٦) وردت هذه الصيغة فى (المصدر السابق ٩٥، ٩٨). ولعل المقصود بها أنه طالع هاتين الروايتين فى مصدر مكتوب فى ديوان الرسائل مثلاً. وأُلحقت بها الواو؛ لأنهما وردتا فى معرض تعداد صفات ابن طولون.

(٧) وهى تدل – فيما أرى – على أنها رواية مكتوبة مثبتة فى الديوان، وقد وردت فى سياق تتابع حكايات عن ابن طولون، خص الموردُ ابنَ الداية بها، فرواها له (السابق ١٠٢).

(٨) يقصد (إسحاق بن إبراهيم). وواضح اعتزازه به، وإشارته إلى قربه من الأحداث، وصلته بطبيب ابن طولون الخاص، ومعرفته بمزاج ابن طولون، وطبعه الحاد (السابق ١٢٥).

(٩) وردت فى المصدر نفسه صـ٧٥ (فسمعتُ أحمد بن محمد الواسطى يحدث ويقول: فى وصف مصاحبة المستعين بواسط). وهى عبارة تدل على سماع ابن الداية المباشر من الواسطى، وهو يحدث غيره. وفى صـ١٢٥-١٢٦: (فسمعت أحمد بن محمد الواسطى؛ يحدث أحمد بن إبراهيم الأطروش). وتفيد ما أفادته العبارة السابقة، مع زيادة هى حضور ابن الداية مجلساً، ضم الواسطى وابن الأطروش، كان الحديث موجهاً للأخير، وسمعه ابن الداية بحكم حضوره.

(١٠) وهى تفيد صلاته الوثيقة بـ (نعت أم ولد ابن طولون)، ونقله عنها أمور نساء ابن طولون وجواريه، وموقفه منهن (السابق صـ٩٣، ١٠٣، ١٠٥).

(١١) تفيد لفظة (قال) مطالعة ابن الداية تلك الأخبار فى الديوان. ولم يأت بالواو؛ لأنها لم تذكر فى معرض تعداد أمر، أو الإتيان بنماذج متتالية تدلل على صفات ابن طولون. (السابق ٧٥، ٩٤).

(١٢) وهى لفظة جديدة تفيد سماعه مع غيره هذه الرواية فى مجلس أحمد بن أيمن (السابق ١١١).

(١٣) وردت فى (سيرة ابن الداية) صـ١٣٣، وهى تفيد أن ابن الداية كان يبحث عن إجابة سؤال يهمه فى المقارنة بين طبيعة نفقات ابن طولون، وابنه خمارويه، فأجابه عنه (على بن مهاجر) العليم بنفقاتهما. وكذلك ما ورد صـ٨١ فى سؤاله محمد بن موسى ابن طولون عن سر خلاف والده مع عمه أحمد بن طولون.

يقصده ويستخدمه بدقة متناهية[١]، وذلك – ولا شك – نابع من ثقافته اللغوية والأدبية والمنطقية، التى تعرضنا لها من قبل؛ ليصل – فى النهاية – إلى توثيق مروياته، وإقناعنا بصحتها.

٣- يكتفى ابن الداية بذكر المورد، الذى نقل عنه مادته، ولا يأتى بسلسلة الإسناد المطولة الكاملة، التى كان يحرص على استكمالها مؤرخو القرون الأولى. وخرج على قاعدته تلك مرتين تقريبا[٢].

٤- وبالنسبة لمكان ذكر المورد، فهو يبدأ به الرواية التاريخية فى الغالب الأعم[٣]، ونادراً ما يخالف ذلك، فيصدِّر الرواية وموردها معاً بلفظة: (قال أحمد بن يوسف)[٤]، أو (قال)[٥].

٥- حرص مؤرخنا ابن الداية على مزيد من التوثيق لموارده بطريقة مبتدعة مبتكرة – لم يسبقه إليها سوى والده فيما نعرف – فكان يترجم أحياناً غير قليلة، ويعرِّف بمورده الذى نقل عنه؛ ليرينا مدى صلته بالحدث، وقربه منه، واشتراكه فيه وأهميته، فذلك أحرى بالقبول. وهذا التعريف – على وجازته غالباً – يمثل جملة اعتراضية قصيرة[٦]، وأحياناً طويلة طولاً، يستدعى النظر فيما قبلها وبعدها؛ للربط بين المورد ومادته المنقولة عنه[٧].

---

(١) ومن مظاهر دقته البالغة فى هذا الصدد أنه كان إذا طالت الرواية، استخدم لفظة (قال)، وبعدها اسم المورد المذكور فى بداية الرواية؛ليذكِّرنا أن رواية هذا المورد لا تزال منصلة لم تنته بعد(راجع المصدر السابق:صـ١٢٥-١٢٨فى رواية الواسطى، ورواية سعد الفرغانى صـ٩٦-٩٧، ورواية محمد بن موسى صـ١١٠-١١١). وكذلك يستخدم (قال لى)؛ للربط بين أجزاء الرواية المطوّلة (رواية أحمد بن أبى يعقوب صـ١٢٢).

(٢) أولاهما-حدثنى تركان عن أبيه (السابق ١٠١).وهذه دقة من ابن الداية وأمانة، فالذى روى له الرواية هو ابن من شهد الواقعة، لا من شهدها فعلا.ثانيتهما- قوله:وحدثنى إسحاق بن إبراهيم، وأحمد بن محمد الواسطى(فى رواية استشارة ابن طولون مَنْ حوله بخصوص إقدامه على إحضار الخليفة المعتمد إلى مصر).(السابق صـ١٢٧).وأعتقد أن هناك خطأ من الناسخ، لم يتنبه إليه المحقق فى هذه الرواية، وهو أن صواب الإسناد كالآتى:وحدثنى إسحاق بن إبراهيم، عن أحمد بن محمد الواسطى (فيصح بذلك الاستشهاد بهذا السند فى هذه الحالة).والدليل على صحة هذا التصويب ما ورد بعد ذلك فى الرواية من أن ابن طولون قال له (ولم يقل: قال لهما). ولما طالت الرواية واقتربت من آخرها صـ١٢٨، قال للربط بين أجزائها: فقال أحمد بن محمد الواسطى، دون أن يذكر (إسحاق بن إبراهيم). فهو هنا ذكر المورد الأساسى الذى نقل الرواية عن ابن طولون. ومعلوم وجود صلة بين عم ابن الداية، والوزير الواسطى، فلا يستغرب روايته عنه.

(٣) وهو ينطبق على معظم الأمثلة المذكورة سلفاً.

(٤) قال أحمد بن يوسف: حدثنى أبو العباس الطرسوسى (فيما يتصل بنصائح زاهد طرسوس لابن طولون). (سيرة ابن الداية صـ١١٧).

(٥) قال (يعنى: نفسه): وحدثنى أحمد بن خاقان. (السابق ٨٣). وكذلك قال (يعنى نفسه): وحدثنى برقة الحاسب. (السابق صـ٨٢).

(٦) كما فى قوله: وحدثتنى نعت أم ولد أحمد بن طولون (المصدر السابق صـ٩٣)، وحدثنى ابن قراطغان، وكان موثقاً عنده (السابق ١٠٥)، وحدثنى أحمد بن خاقان، وكان صديقاً لأحمد بن طولون (السابق ٨٣)، فحدثنى نسيم، وكان أخص الناس به (أى: بأحمد بن طولون). (السابق ٧٦).

(٧) مثل: وحدثنى أحمد بن أبى يعقوب، وكان يتولى خراج برقة من قبل أحمد بن طولون فى الوقت الذى خرج فيه العباس، فأقره عليه، قال: (السابق ١٢٢).

وحسناً فعل ابن الداية تأثراً بمنهج والده من قبل. والحق أن هذا الأسلوب الجديد مهم بالنسبة لنا؛ لأن الموارد التى نقلوا عنها - فى الغالب - لم تهتم كتب التراجم بالتعريف بها. ولو لم يقم هو ووالده من قبل بهذا الجهد، لعَمّ وطَمّ جهلنا بتلك الموارد. لكن ابن الداية مؤرخنا فاته التعريف ببعض موارده المهمة (مثل: شعيب بن صالح[١]، وابن عبد كان[٢]، وغيرهما)[٣]. ولعل السر فى ذلك يرجع إلى أن بعض الأحداث التى يرويها هؤلاء تشرح مناصبهم، وأهمية مواقعهم، وكذلك ألقابهم الملحقة بأسمائهم توضح مدى قربهم من الحدث المروىّ. لكن فى الوقت نفسه هناك بعض روايات لا تظهر صلة المورد بأحداثها؛ مما يجعلنا فى حيرة من مدى صدق هذه الروايات[٤]. وينضاف إلى ذلك وجود تداخل وتقارب فى بعض أسماء موارده، ولو عرّفنا بها، لفصل لنا بين ذلك كله[٥].

وأعتقد أن المنهج الصحيح يقتضى عند تكرار وتعدد مرويات المورد الواحد، أن يكتفى بالترجمة له والتعريف به أول مرة يُذكر فيها المورد وكفى، لكن مؤرخنا ابن الداية، وإن التزم ذلك النهج أحياناً[٦]، فإنه قد خالفه أحياناً أخرى[٧]. وأخيراً، فإن مؤرخنا كان يجمع - إلى جانب ذكر المورد الصريح، والتعريف به - ذكر التوقيت الذى رويت فيه الرواية؛ مما يعطى القارئ بعداً جديداً لها عند نقدها[٨].

---

(١) ويبدو أنه من كبار مساعدى ابن طولون، وقد نقل عنه ابن الداية عدة روايات، وكان أولى بالتعريف من غيره.

(٢) ولعله اعتمد على أنه كاتب مشهور، فلم يُعرّف به.

(٣) مثل: أبى جعفر المروزى، وسعد الفرغانى، وهارون بن ملول (ويلاحظ أن هارون نقل ابن الداية عنه رواية تعد ترجمة له، لكنها فى (المكافأة صـ٣٤-٣٦).

(٤) كما هو الحال فى مرويات عن شعيب بن صالح صـ١٠٣، ١٠٦، وسعد الفرغانى صـ١٠٧، وإبراهيم بن كامل المصرى صـ١٠٢.

(٥) مثل: التشابه القائم فى أسماء بعض الموارد (موسى بن طولون، وأبى جعفر محمد بن موسى بن طولون، ومحمد بن موسى). وهنا كان لابد من الاجتهاد للتفريق بينهم بعد أن افتقدنا الترجمة لأى منهم. ومن خلال قرائن أحداث الروايات التى رووها، تبين لنا أن الأول هو أخو الأمير أحمد بن طولون (بدليل روايته صـ٩٥، التى تبين صلته بأخيه وديوانه). والثانى هو ابن الأول، وهو الذى سأله ابن الداية عن خلاف والده مع ابن طولون عمه من قبل. أما الثالث، فيروى أحداثاً وقعت بعد احتدام الخلاف بين الموفق وابن طولون، ويقص علينا قصة صديق ابن طولون القديم، الذى أتى إلى مصر جاسوساً للموفق عليه. ولا نستطيع القول بأنه هو ابن أخى ابن طولون؛ لأنه كان فى تلك الأثناء منفياً مع والده موسى فى طرسوس بعيداً عن مصر والعراق. وعلى ذلك فهذا المورد المذكور شخص مجهول لا نعرف عنه شيئاً.

(٦) كما فى صـ٧٦ عندما ترجم لنسيم الخادم، ثم لم يعرّف به فى مرويات أخرى عنه صـ٩٤، ٩٨-٩٩، ١٠٣-١٠٤، وغيرها. وكذا عرَّف بـ (نعت) صـ٩٣، ثم لم يعرف بها صـ١٠٣، ١٠٥.

(٧) لم يترجم لأبى العباس الطرسوسى فى مرويات عنه صـ٩٩-١٠٠، ثم عاد وترجم له صـ١١٧.

(٨) مثل: فحدثنى نسيم بعد وفاة أحمد بن طولون (صـ٧٦)، وحدثنى على بن مهاجر فى أيام أبى الجيش (صـ١٣٢)، وقلت لأبى جعفر محمد بن موسى بن طولون، وقد رحل إلى مصر بعد مقتل أبى الجيش (صـ٨١).

ثانياً – البلوى:

سبق أن أوضحنا أن البلوى اشترك مع ابن الداية فى النقل عن بعض الموارد،ونفينا أن يكون قد نقـــل كـــتاب ابن الداية دون الإشارة إليه[١]. والأقرب إلى الصواب أن البلوى نقل عن مصادر ابن الداية نفسها التى عاصرها البلوى، وأكمل كتابه بالاطلاع على ما فى الديوان من وثائق وسجلات، خاصـــة أنـــنا علمنا أن ابن طولون كان يأمر كتَّابه بتسجيل كل صغيرة وكبيرة فى مجالسه، وتُحفظ هذه المحاضر بالديوان. ولعل فى التفاصيل الكثيرة التى تفرد بها كتاب البلوى ما يؤكد أمانته.

وهاك منهجه:

١ – دقة البلوى فى التعبير عن مصادر رواياته باستخدام ألفاظ معبرة دقيقة، تفرق بين ما نقله عن مورده بطريقة مباشرة، وما نقل عنه بطريقة غير مباشرة. ومن هذه الألفاظ: (حَدّث[٢]، وقال[٣]، وروى[٤]، وحدثت[٥]، وسألت[٦]، وتَحَدّث[٧]. و لم يقف البلوى عند

---

(١) هذا النفى منصبّ على اتهامه باستلال كتاب ابن الداية كله، ونسبته إلى نفسه، مع بعض تعديلات فى الألفاظ يجيلها البلوى، وبذلك تمكن من خداع القراء. لكن هذا لا يمنع أن تفلت منه رواية هنا أو هناك، يأخذها عن ابن الداية، ثم ينسبها لغيره على سبيل الخطأ. وخير مثال على ذلك ما ورد فى سيرة البلوى صـــ٩٩-١٠٠ (وهى تُروى عن أبى العباس الطرسوسى، وتتعلق بنصائح الزاهد الطرسوسى لابن طولون). لقد ثبت لى أن البلوى أخذها من كتاب ابن الداية، ثم لم يصرح بنسبتها إليه، لكنه حتى لا يتهم بالكذب نسبها إلى العباس الطرسوسى بلفظة (حَدّث) بدل (حدثنا). وهذا يدل على فرط ثقة البلوى بوثاقة موارد ابن الداية. وقد أبرز لنا اتهام البلوى فى هذه الرواية أنه أورد سؤالاً وجّهه ابن الداية إلى مورده بالمعلوم، فقام البلوى بتحويله إلى المجهول (فقيل لأبى العباس)، متجاهلاً بذلك موجّه السؤال، وصاحب الرواية الأصلى ابن الداية. ومما يؤكد ذلك أن ابن الداية عقب كلام الطرسوسىّ الذى أجاب به عن سؤال ابن الداية، ذكر ما يلى: وقال (وهو الطرسوسى فيما أرجح): إن ابن طولون إذا أراد إنفاذ أحد أصحابه فى رسالة، أمر كاتب السر بتحريرها وحفظها، فإذا حضر الرسول ليودعه، سأله ابن طولون: ماذا ستقول لمن وجهتُك إليه ؟ فإذا أداها، وإلا حبسه واستبدل به (سيرة ابن الداية ١١٨). فإذا قارنا ذلك بما فى البلوى صـــ١٠١، عقيب جواب أبى العباس الطرسوسى على سؤال السائل المجهول لدى البلوى، الذى هو فى الحقيقة ابن الداية، ألفينا البلوى يقول: قال مؤلف هذا الكتاب، ثم ينقل كلام الطرسوسى السابق بألفاظ مقاربة، ومضمون واحد. فهنا تظاهر البلوى بأن الكلام كلامه، لكنه – فى الحقيقة – كلام الطرسوسى نقلاً عن ابن الداية، وانتقل ابن الداية بعد هذه الرواية إلى موضوع آخر (ظروف خروج العباس على أبيه)، فإذا بالبلوى ينتقل إلى نفس المضمون والتعبيرات، مصدِّراً إياها بلفظة: قال (التى قد يشير بها إلى نفسه)، وإن كنت أعتقد أنه منقول – أيضاً– عن ابن الداية.

(٢) مثل: حدث إسحاق بن إبراهيم (سيرة البلوى ٣١٩)، وحدَّث أبو جعفر المروزى (السابق ١٨٤، ١٨٦). وعند ضرب الأمثلة على صفات ابن طولون يقول: ومن ذلك (أى: أبواب الخير لابن طولون) ما حدّث به سعد الفرغانى (السابق ١٨٩). ومن ذلك (أى: من دهائه وعقله وحزمه) ما حدّث به أحمد بن أيمن (السابق ١١٥).

(٣) قال نسيم الخادم(السابق صـــ٣١٤)، قال أبو جعفر محمد بن عبد كان(السابق صـــ٣٣٨).

(٤) وأما فراسته وصحة إزكانه (تخمينه) فما رواه أبو العباس المعروف بالطرسوسى صاحب خبره قال (السابق صـــ١٢٢).

(٥) ومن ذلك (دهائه وعقله) ما حدّثتْ به نعت أم ولده (السابق ١٠٠).

(٦) وسألتُ أبا العباس أحمد بن محمد الكوفى (عن أصل ابن طولون، وحقيقة والده). (السابق ٣٣).

(٧) قال: ومن الدليل على أنه خُفّف عنه كما ذُكر، ما تحدث به كامل بن سعيد (ورؤيا عن حسن مستقر ابن طولون بعد وفاته). (السابق ٣٥٤).

عند هذا الحد من الدقة والأمانة، بل كان فى روايات تَفَرَّد بذكرها، يستخدم - أحياناً - لفظة: (حدّث)[١] بدل (حدثنا)[٢]. وذلك يدل على أنه لم يسمع تلك الروايات، وإنما وصلت إليه عن طريق كتاب، أو ديوان.

٢- يتفق البلوى مع ابن الداية فى عدم الإتيان بسلسلة الإسناد كاملة، وكان يكتفى بذكر المورد الرئيسى فقط، اللهم إلا فى روايتين اثنتين، ذكر فيهما أستاذ راوى الرواية[٣].

٣- يترجم البلوى - أحياناً - لمورده كما يفعل ابن الداية؛ لبيان وثاقته، وصلته العميقة بموضوع الرواية.

٤- يتفق البلوى مع ابن الداية فى التعريف المختصر الوجيز ببعض موارده، ويتميز على سلفه بأمرين:

أ- زاد ترجمة بعض الموارد وضوحاً عما هو عليه عند ابن الداية[٤].

ب- نقل عن موارد جديدة، عرّف ببعضها تعريفاً طيباً[٥]، يدل على معرفته الجيدة بموارده التى نقل عنها مادته.

ويؤخذ على البلوى ما سبق أخذه على سلفه ابن الداية، من عدم العناية بترجمته بعض الموارد المهمة[٦]، بل ترك الترجمة لمورد مهم ترجم له ابن الداية[٧]. وإلى جانب ذلك لم ينتهج النهج السليم فى التعريف بالمورد، الذى تعددت مروياته، على نحو ما وقع فيه ابن الداية أيضاً[٨].

٥- يتشابه البلوى مع ابن الداية فى التعبير عن نفسه فى بداية بعض الروايات، وقبل أن يذكر مورد الرواية، وإن كان ذلك بصيغة خاصة بالبلوى هى: (قال مؤلف هذا الكتاب)[٩].

---

(١) مثل: وحدث عبد الله بن الفتح(السابق ٣٥٥)، وحدث يحيى بن براقة الحاسب(السابق١٦٤).

(٢) من الروايات التى قال فيها: حدثنا، روايتان قال فيهما: حدثنا عبد الله بن الفتح (السابق ٣٠٢، ٣٥٧).

(٣) مثل: وحدث تركان بن الإمام، عن أبيه (السابق ١٢٨)، وحدثنا عبد الله بن الفتح، عن ابن الداية (السابق صـ٣٠٢).

(٤) مثل: وحدث أحمد بن محمد الكاتب، وكان من عقلاء الناس وفهمائهم، وكان فيه دين وخير كثير (سيرة البلوى ٢٢٦)، وحدث أبو العباس الطرسوسى المتولى - كان - لغسل أحمد بن طولون عند موته، وكان رجلاً خيِّراً فاضلاً زاهداً، يتقوّت من المباح. (السابق ٩٨).

(٥) مثل: وسألتُ أبا العباس أحمد بن محمد الكوفى، وكان خبيراً بأمر الأتراك، عارفاً بأحوالهم (عن أصل ابن طولون). (السابق ٣٣-٣٤)

(٦) مثل: أحمد بن أيمن، وابن عبد كان، وشعيب بن صالح.

(٧) وهو نسيم الخادم رغم كثرة مروياته لدى البلوى.

(٨) مثل: الواسطى، الذى أورد له البلوى عدة روايات دون تعريف به (سيرة ابن طولون). (صـ٤٣، ٤٨، ١١٤)، ثم ترجم له فى رواية (السابق صـ٢٢٦).

(٩) سيرة أحمد بن طولون للبلوى صـ١٦٨، ٣٥٣.

٦- وأخيراً، فإن البلوى يستخدم بعض الألفاظ داخل الروايات المطوَّلة؛ للدلالة على اتصالها، وعدم انتهائها بعد(١).

منهج ابن الداية، والبلوى فى عرض الوثائق:

حرص ابن الداية على إيراد عدد من الوثائق (الكتب، والرسائل الرسمية)، التى طالعها بالديوان خلال عمله كاتباً لدى بنى طولون. ولا شك أن لهذه الوثائق دوراً مهماً فى دعم الحقائق والأحداث التاريخية.

ويمكن تحديد أهم معالم منهجه فى إيراد هذه الوثائق على النحو الآتى:

١- العرض الموجز البليغ:

وذلك يتناسب مع بلاغة ابن الداية من جهة، والاختصار الذى هو هدف أصيل لكتابه من جهة أخرى. فأحياناً كان يورد الوثيقة بنصها كما فى رَدّ ابن طولون على من طالبوه بقتل الخليفة المستعين: " والله، لا أُرى الله، وأنا قد قتلتُ خليفة بايعتُه أبداً "(٢). فهى توضح المبدأ الأخلاقى الذى يلتزم به ابن طولون فى نظرته إلى الخليفة.

وأحياناً كان يورد ما يتفق فى وجازته وسرِّيته، وغرضه العاجل مع طبيعة كتاب ابن الداية المختصرة، ومثال ذلك: الكتاب السرى الذى أرسله الخليفة المعتمد إلى أحمد بن طولون، يحذره فيه من نحرير مبعوث الموفق، فإن معه كتباً يُحَرِّض فيها قادته عليه. تقول الوثيقة المعبرة عن متانة صلة المعتمد بابن طولون: " إن الذى حَرّك إخراج نحْرير إليك أبو أحمد، وقد أنفذ نحْريراً عيناً عليك، ومعه كتب إلى سائر قوادك بالتضريب عليك(٣).

وقد يورد ابن الداية الوثيقة بمعناها صراحة دون نصها مع الحفاظ على مضمونها، وهى – أيضاً– وثيقة سرية خطيرة، يضرب فيها ابن طولون على الوتر العاطفى، وفيها يبين للمعتمد شديد قلقه عليه، ويدعوه للرحيل إليه فى مصر، ويعده بها تمام العز والتمكين(٤).

٢- العرض التفصيلى المطوّل:

على غير المعتاد أفرد ابن الداية مساحة كبيرة من كتابه المختصر؛ ليورد نصاً كاملاً بحذافيره

---

(١) مثل قوله: فحدث نسيم الخادم قال... ثم لما طالت الرواية، ربط أجزاء الرواية بقوله: قال نسيم. (السابق صـ ٣٣٧-٣٣٨). وكذلك راجع رواية أخرى للواسطى (صـ ٢٨١).

(٢) سيرة ابن الداية: ٧٥. (٣) السابق: ٨٧.

(٤) السابق ١٢٦-١٢٧. ووضع المحقق النص بين علامتى تنصيص، رغم أن ابن الداية صرح بأن الوثيقة يسوقها بمعناها لا بنصها وحروفها.

لكتاب ابن طولون، رداً على كتاب الموفق إليه، الذى عنّفه فيه وهدّده[١]؛ لقلة ما أرسل إليه من خراج مصر عما كان يتوقع وينتظر. والحق أن ابن الداية حرص على إيراد هذه الوثيقة كاملة – على طولها – لإعجابه بما أورد ابن طولون فيها من مقومات سياسته، وشجاعته فى مواجهة الحاكم الحقيقى للخلافة العباسية (الموفق)، وردوده القوية المنذرة[٢]. فالوثيقة كلها إبراز لمحاسن ابن طولون، وهو ما يتوافق مع عنوان كتاب ابن الداية، وغرضه الأصيل.

٣- حسن الانتقاء والتدقيق فى عرض عناصر الوثيقة:

وخير مثال على ذلك تلك الوثيقة الاقتصادية التى أوردها ابن الداية، وهاك نصها: " وأرانى قرهوية كاتب ابن مهاجر ثَبَتَ ما حمله إلى الحضرة للمعتمد، وفرق فى جماعة من حاشيته لأربع سنين: أولها سنة ٢٦٢هـ: ومما تقدمت به سَفَاتجُه و لم يظهر تفريقه، فكان مبلغه ألفى ألف دينار، ومائتى ألف دينار[٣]. وواضح هنا عناصر منهجه فى تلك الوثيقة الموجزة بالغة الأهمية: الدقة فى بيان كيفية اطلاعه عليها (الرواية والمشاهدة والمعاينة فى سجل من سجلات ديوان الخراج لدى ابن طولون) على يد مصدر مهم هو كاتب الحسن بن مهاجر. وهذه الوثيقة مؤرخة بسنوات محددة: ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥هـ. وموضوعها محدد: مقدار ما أرسله ابن طولون إلى سامرا للخليفة المعتمد، ومقدار ما وزعه كهدايا (رشاوى) فى عدد من أفراد حاشية الخليفة المهمين. ويلاحظ أن ابن الداية اكتفى بإيراد ما أُرسل – فقط – للمعتمد، وأخفى ما فُرق فى حاشيته (دفاعاً عنه وستراً عليه، وإخفاء لعمل لا يعد من محاسن ابن طولون، بل هو إنفاق لأموال الدولة؛ كى يظل على عرش مصر). وذكر لنا ابن الداية وسيلة إرسال هذا المال (وَضْعه فى سَفَاتج). وحدد السنوات التى أرسل فيها، وذكر مجموع الأموال التى أرسلت خلالها (بما يعادل ٥٥٠ ألف دينار سنوياً). وتبقى بعد ذلك تساؤلات عديدة كان الباحثون يتمنون أن لو أجابت عنها الوثيقة، وغيرها من الوثائق الأخرى[٤].

أما البلوى، فيكاد يتفق منهجه فى عرض الوثائق مع ابن الداية فى السمات العامة، إلا أنه

---

(١) لاحظ أن ابن الداية لم يورد كتاب الموفق؛ لأن فيه انتقاصاً من شأن ابن طولون – فيما أرجح – وهو ما لا يتمشى مع هدف ابن الداية من كتابه، وهو إظهار محاسن ابن طولون.

(٢) السابق: ٨٩-٩١.

(٣) سيرة ابن الداية ١٣٣.

(٤) من هذه التساؤلات: متى رأى ابن الداية – بالتحديد – هذه الوثيقة ؟ ومن هو قرهوية هذا؟ هل كان من الكتاب المساعدين للكاتب الكبير الحسن بن مهاجر؟ ومن هى الحاشية التى كان يفرق فيها ابن طولون أمواله؟ وما مجموع ما أرسله ابن طولون من أموال إلى دار الخلافة خلال سنى حكمه (٢٥٤-٢٧٠هـ) ؟ هذه أمور مهمة تمنينا أن لو أجابت عنها تلك الوثيقة. نرجح أن تلك المعلومات كانت متاحة لابن الداية، لكنه أخفى ما يسئ إلى ابن طولون، ويتناقض مع محاسنه.

تفوق عليه فى كثرة إيراد ما لم يورد ابن الداية من وثائق مطولة. فهناك الوثائق المختصرة، مثل: كتاب أماجور عامل الشام يحذر المعتمد من تنامى قوة ابن طولون، وخطورة ذلك عليه أكثر من خطورة ابن شيخ بفلسطين(١)، ثم أورد البلوى وثيقة موجزة أخرى، فيها كتب المعتمد إلى ابن طولون أن يتوجه إلى الحضرة؛ ليدبر دار الخلافة، ويستخلف على مصر(٢). (وهو يعنى عزله عن ولاية مصر بهدوء). ثم أورد وثيقة موجزة أخرى وردت على لسان الوزير الحسن بن مخلد لما أرسل ابن طولون بهداياه إليه وإلى رجال البلاط والحاشية، حيث وعد بأن ألا يُعزل ابن طولون عن مصر، ولا يُقبل فيه سَعْى ساع(٣).

ويمتاز البلوى بالتحديد والوضوح فيما أورد من وثائق، كما هو الحال فى كتاب (قبيحة أم المعتز) إلى ابن طولون: " إذا قرأتَ كتابي، فجئنى برأس المستعين، وقد قلدتك واسط ". فرد عليها قائلاً: " والله، لا يرانى الله ﷻ أقتل خليفة، له فى رقبتى بيعة، وأيمان مغلَّظة أبداً " (٤). وأعتقد أن هذه الرواية أوضح وأصح من رواية ابن الداية السابقة، فأم المعتز هى الشخصية الأولى المحركة للأحداث، ويهمها بالدرجة الأولى الاطمئنان على ولدها.

وينفرد البلوى بإيراد معظم كتاب ابن طولون المكتوب، الذى حمله زياد المعدنى فى وفد ابن طولون للعباس ابنه؛ لإقناعه بالعودة بالجيش فى هدوء(٥). أما ابن الداية، فلم يشر إلى شئ من محتوى كتاب ابن طولون هذا(٦).

واهتم البلوى بإيراد العديد من الوثائق المطولة، مما لم يحظ باهتمام ابن الداية، فأورد أجزاء مطولة من كتاب العباس إلى أبيه (أحمد بن طولون)(٧)، وكذلك رد الأب على ابنه(٨). وكذلك الكتاب المفصل الذى خلع فيه ابن طولون الموفق من ولاية العهد، وشهادات القضاة بخطوط أيديهم؛ تصديقاً على ذلك(٩)، ورد الموفق عليه(١٠).

وأخيراً، فهناك وثيقة أوردها البلوى متفرداً بها، تعد نموذجاً طيباً لعناصر منهجية جديدة فى

---

(١) سيرة أحمد بن طولون للبلوى صـ٥٦.
(٢) السابق: ٥٦-٥٧.
(٣) السابق: ٥٧.
(٤) السابق: ٤٠.
(٥) سيرة أحمد بن طولون للبلوى صـ٢٥١.
(٦) سيرة ابن الداية صـ١٢٠.
(٧) سيرة البلوى ٢٥٦-٢٦٠.
(٨) السابق: ٢٦٠ ٢٦٤.
(٩) السابق: صـ٢٩٥-٢٩٨.
(١٠) السابق: ٢٩٩.

عرض الوثائق التاريخية. يتمثل ذلك فى كتاب (طبارجى) أحد قادة ابن طولون، الذين أرسلهم لمحاربة ابنه العباس. فلما تحقق النصر، كتب هذا القائد إلى ابن طولون كتاب الفتح على حد تعبير البلوى. وقد أورد البسملة(١) فى بدايتها؛ تبركاً بها إزاء إعلان النصر المنشود، وزوال الغُمَّة والكَرْب الذى نشأ عن خروج العباس على أبيه. ثم حرص البلوى على ذكر تاريخ كتابة هذا الكتاب،بل تحديد الساعة التى يُكتب فيها بالضبط، بما يتناسب مع دقة المعارك، وضرورة إحاطة القائد (ابن طولون) بكل التفاصيل، أولاً بأول، مبيناً نتائج المعركة " قائلاً: كتابى هذا وقت غروب الشمس من يوم الاثنين لسبع بقين من جمادى الآخرة، وقد وضعت الحروب أوزارها، وأظفر الله – جَلَّ اسمه – عبَد الأمير "(٢). ثم هو فى نهاية الكتاب يَعدُ بكتاب آخر، يصف فيه تفاصيل نتائج المعركة، فيقول: " وفى غد، نكتب إلى الأمير – أيده الله – بشرح القصة. وبادرتُ بكتابى بهذه الجملة؛ ليتعجل الله ﷻ إليه السرور بما مَنَّ الله (جَلَّ اسمه)، ويحمده على ما أوْلَى من إنعامه"(٣).

خلاصة:

نجح المؤرخ ابن الداية – وهو شاهد عِيان على أحداث عصره، وكذلك البلوى – فى اختيار موارد معلوماتهما، ووظَّف كل منهما ذلك لتحقيق أغراض كتابه، الذى وُضِعَ – فى الأساس – لتحقيقها (ابن الداية فى الاختصار، والبلوى فى استكمال المعلومات، وحسن تنظيمها)(٤). وتنوعت مناهجهما وتشابهت فى استخدام الموارد الصريحة، وغير الصريحة(٥)، والوثائق.

---

(١) بخلاف الكتابيْن المُغيظيْن الحانقيْن بين العباس وأبيه، فقد خَلَوَا من البسملة فى البداية، بما يتناسب مع ما فيهما من قسوة وشدة، وتهديد ووعيد.

(٢) سيرة البلوى ٢٦٥. (٣) السابق: ٢٦٦.

(٤) وهذه من مواصفات المؤلف المؤرخ الجيد كما يراها د.فيديريكو، ود.مانويل فى: (التعليق على النصوص التاريخية: المنهج، وجمع النصوص – منهج فى البحث التاريخى). ترجمه عن الإسبانية: د.عبد الله جمال الدين، ونُشر فى مجلة (حوليات دار العلوم)، العدد ١٤/١٩٩٠-١٩٩١م، صـ٢٧٢، ٢٨٠-٢٨١.

(٥) يدرك ابن الداية والبلوى أن الرواية التاريخية غير المشهورة إذا لم تُصَدَّر بموردها الذى نُقلت عنه، فذلك يضعف الثقة بها، خاصة إذا كان موضوعها لا يُقْبَل عقلاً ومنطقاً. ومن هنا ندرت جداً هذه الروايات لديهما. فابن الداية لديه رواية واحدة (صـ١٠٧)، وفيها سأل ابن الداية عن مصدر المائة ألف دينار، التى أوصى بها ابن طولون للحسن ابن مهاجر الكاتب، فقيل له: هى التى صُودرت من ابن مفضَّل الكاتب. وهذا معقول جداً؛ لأن حرص ابن طولون على الأموال، وضبطه إيّاها لا يُنكر. وبخصوص البلوى، فقد أورد روايتين من هذه النوعية: الأولى (صـ٤٢)، وهى عن التنبؤ بمدة حكم الطولونيين. (وهى تبدو أسطورية). والثانية (صـ٣٤٣-٣٤٤): وتصور – فى مبالغة – شدة الحزن على ابن طولون عند تشييع جنازته.

وتشـــابه كلاهمـــا فى إيراد أحداث مُعَرَّاة من ذكر مواردها تماما[1]. وعلى كل، فقد وثّق كلاهما أحداث كتابه، عن طريق حسن التدقيق، والانتقاء لمصادر معلوماته من رجال دولة أحمد ابن طولون، ومن لهم معرفة بخبايا الأمور.

٢- النقد الداخلى:

وهـــذا هو النوع الثانى والأخير من النقد، الذى نتناول به كتابَى: ابن الداية، والبلوى عن (ســيرة أحمـــد بـــن طولون). ونركز - هنا - على نقد المادة التاريخية، بمعنى أننا نضع بعض الأحداث التاريخية الواردة فى ميزان الصواب والخطأ التاريخى بمقارنتها بالمنطق العقلى، والتاريخى (من خلال النظر فيما أوردته المصادر والمراجع الأخرى). وهاك بعض هذه القضايا:

١- روايات تدخل فى باب (الأساطير والخرافات)*:

من حسن الطالع أن هذه الروايات قليلة سواء فى كتاب (ابن الداية)، أم فى كتاب (البلوى)؛ مما يدل على اتباعهما المنطق العقلى التاريخى فى اختيار ما يكتبان. إلا أنه - وربما من باب غلبة الفكر السائد فى ذلك العصر - أورد كلاهما بعض الأحداث، التى ينظر إليها الفكر التاريخى المعاصر نظرة الشك والريبة. من ذلك[2]: الرواية التى يرويها مجهول[3] - وهذا أحد وجوه رفضها - أنه كان جالساً مع الجالسين فى انتظار دخول ابن طولون مصر أميراً، وكان معه رجل مكفوف يُعرف بـــ (أبى قَبيل صاحب الملاحم)[4]. فلما سأل أحد الحاضرين أبا قبيل عما يجده فى كتبهم بخصوص أحمد بن طولون الأمير الجديد، رَدّ عليه واصفاً إياه، ذاكراً أنه سيتقلد مصر وبنوه من بعده قريباً من أربعين سنة. فما إن أتم حديثه، حتى دخل ابن طولون وقد انطبقت عليه الصفات التى تنبأ بها أبو قبيل تماماً. وبالفعل ظلت دولة الطولونيين ثمانية وثلاثين عاما[5].

---

(١) وهى تتصل بالأحداث المشهورة المعروفة، التى لا تحتاج إلى ذكر مصادرها (مثل: تاريخ دخول ابن طولون مصر، وصدام ابن شيخ مع الخلافة، وتقسيم دولة الخلافة بين المفوّض والموفق). وهى فى كلا الكتابين، وإن كثرت فى كتاب البلوى؛ لتتابع تفصيلاته وطولها.

(*) وهى من الأمور البعيدة عن الصحة، وتستهجنها العقول، ولا معنى لها، ولا فائدة فيها. (المنتظم لابن الجوزى - ط.دار الكتب العلمية) جــ١ صــ١١٦.

(٢) سيرة ابن الداية صــ٧٦-٧٧، وسيرة البلوى صــ٤٢.

(٣) هذا بالنسبة لرواية البلوى. أما ابن الداية، فحدَّد مصدرها بقوله: " فحدثنى الحسن بن رافع الكاتب " صــ٧٦.

(٤) هكذا فى سيرة البلوى صــ٤٢. وهى بعيدة عن الصواب؛ لأن أبا قبيل هذا المعروف بالملاحم (ت ١٢٨هـــ). أما ابن الداية، فكان أدق لَمّا نسبها إلى شابٍّ يُنسَب إلى أبى قبيل، فلعله من أحفاده.

(٥) رواية ابن الداية هنا أكثر تفصيلاً وأدق من رواية البلوى، ففيها أن هذا الشاب أجاب بأن دولتهم تستمر أربعين سنة (صــ٧٦). ثم ذكر أن والده (يوسف بن إبراهيم) أمر غلاماً له فى الإسطرلاب أن يرصد طالع أحمد بن طولون عند دخوله مساكن فسطاط مصر، وكان تأويل يزيد بن عبد الله الموجود آنذاك لطالع ابن طولون - لَمّا =

ولى على هذه الرواية تعليق:

أ- مـــا كـــان ينبغى لكلا المؤرخيْن، وقد استوى علم التاريخ على سُوقه فى القرن الرابع الهجرى، أن يأتيا بهذه الرواية، خاصة أن ابن الداية لم يُعَرِّفْنا بترجمة مورده فيها، والبلوى استبعد ذكره كأنه مجهول له.

ب- أن جَوَّ الهالة والأسطورة يخيِّم على أحداث الرواية من بدايتها إلى نهايتها، وهى تنحو مَنْحَـــى التنـــبؤ بالغيب[١]، وهو مظهر من مظاهر انحراف المنجِّمين والمشتغلين بالفلك فى ذلك العصر؛ إذ يتجهون إلى إخبار الناس بما سيقع فى المستقبل،فإذا صادف تدبير القدر صَدَّقهم الناس فـــيما خَمَّنوا.وكذب المنجمون ولو صدقوا.وعلى كل، فتبدو هذه الرواية متنافرة غير منسجمة مع عقلية ومنهج هذين المؤرخيْن، وإن عَبَّرتْ عن تأثر التأريخ بحكايات المنجمين وأساطيرهم.

٢- روايات تدخل فى إطار المبالغة:

وأعتقد أن مَرَدَّ هذه الروايات[٢] يرجع إلى نَغْمَة الإعجاب والانبهار، التى تصاحب العديد من أخبار أحمد بن طولون فى كلا الكتابيْن (خاصة كتاب ابن الداية). ومن نماذج ذلك: ما ذكره كل من: ابن الداية[٣]، والبلوى[٤] عن شجاعة أحمد بن طولون وبطولته النادرة، بحيث استطاع أن يتقدم صفوف خمسمائة من الرجال، الذين يحرسون قافلة للخليفة المستعين عائدة من بلاد الروم، وبها تحف وهدايا ثمينة مشتراة للخليفة. وتقدم أحمد يقاتل جماعة كبيرة من البدو قطاع الطريق، بعد أن خاف جميع من معه على أنفسهم، وعزموا على دخول الحصن؛ نجاة بأنفسهم، لكن أحمد رفض ذلك، فكان أول من لحق بالأعراب، ووضع فيهم السيف، ورمى بنفسه عليهم، وكان لا يخطئ من الرمى شيئاً، حتى اطمأن الآخرون فشاركوه القتال، وترك

- علم به – مقارباً لقول الشاب المكفوف. هذا، وقد نقل رواية ابن الداية تلك، دون أن يُصرح بذلك القِفْطىُّ فى (تاريخ الحكماء صـــ٣٣٣-٣٣٤).

(١) والله – تعالى – يختص بعلم الغيب إذ يقول: ﴿قُل: لاَ أَملِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً ولاَ ضَراً إلاَّ مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إنْ أَنَا إلاَّ نَذيرٌ وَبَشيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. (الأعراف: ١٨٨).

(٢) لم أشأ الإتيان بأكثر من نموذج دال على المبالغة؛ خشية الإطالة. ومن أراد المزيد من التفاصيل، فليراجع: المبالغة فى بيان صدق حَدْس ابن طولون، وذكاء عقله، وإطلاع الله له فى منامه على رجل جاسوس، يَنْفُذ إلى مجلسه للسلام عليه اليوم السابق؛ فلما أصبح، وجده أمامه بعينه كما رآه فى منامه، فأمر بالقبض عليه. (سيرة ابن الداية صـــ١٠٠، وسيرة البلوى صـــ١٢٥-١٢٦). وثمة نموذج آخر عبارة عن روايات عديدة متتابعة لمجموعة من الرؤى والمنامات، رآها أكثر من شخص، كلها دفاع عما ارتكبه من قتل فى حق بعض الناس، وبيان أن صدقاته ومظاهر إحسانه أنقذته من النار، إلى آخر هذه الأمور التى لا يُعوَّل عليها مطلقاً فى إدراك خاتمة ابن طولون، ومُستَقَرِّه فى عالم الآخرة. (راجع التفاصيل فى المصدر السابق صـــ٣٥٢-٣٥٦، وسيرة ابن الداية صـــ١٣٢).

(٣) فى سيرته صـــ٧٤-٧٥.

(٤) سيرة أحمد بن طولون صـــ٣٧-٣٩.

الأعراب كل ما نهبوه، ولاذوا بالفرار على خيولهم. ولم تكتف الرواية بكل هذه المبالغات[(١)]، بل بالغت – كذلك – في بيان أثر تلك المعركة في علاقة ابن طولون بالخليفة المستعين، حتى قالت رواية البلوى: " وعَظُم أحمد بن طولون في عينه وقلبه، وصار له كالعبد "[(٢)].

٣- قضايا للمناقشة:

هناك بعض جزئيات وردت في سيرتي: (ابن الداية)، و(البلوى)، أو في إحداهما، نقف أمامها بشيء من التأمل، مثل:

أ- موضوع نسب (أحمد بن طولون):

لم يتعرض ابن الداية[(٣)] لهذا الموضوع، ولم يُثِرْ قضية الطعن في نسب ابن طولون، واكتفى ببيان أصل والده (طولون) التركي، وكيفية اتصاله بالخليفة المأمون، وبيّن أن أحمد وُلِدَ سنة ٢٢٠هـ من جارية، كانت لأبيه طولون، اسمها (قاسم)، وأنه بعد وفاة الوالد سنة ٢٤٠هـ، عاش في كَنَف ورعاية رُفَقَاء أبيه، فأحسنوا تنشئته وتربيته[(٤)]. ولعل ابن الداية لم يتعرض لهذا الموضوع؛ لعدم صحته من جهة، وتوخياً لمنهج الاختصار، الذى حَرَصَ على اتباعه في مؤلَّفه.

أما البلوى – وفقاً لعرضه المفصَّل – فقد تَوَجَّه بالسؤال – عن الأمر– إلى أحد الخبراء العالمين بشئون الأتراك، العارفين بأحوالهم قائلاً له: " إن الناس في أمره (أى: أمر نسب ابن طولون) فريقان: أحدهما يقول: إنه أحمد بن طولون، وإن يَلْبَخ[(٥)] كان زوج أمه قاسم، والآخر يقول: إنه أحمد بن طولون، وإن يلبخ بن قاسم جارية طولون "[(٦)]. والعبارة السابقة غامضة

---

(١) سبقنا إلى التشكيك في صحة هذه المبالغات الدكتورة سيدة كاشف في كتاب: (أحمد بن طولون) صـ٢٢.

(٢) سيرة البلوى: صـ٣٨.

(٣) وذلك في سيرته التي احتفظ لنا بها ابن سعيد في (المغرب – قسم مصر) صـ٧٣-١٣٣. لكن ابن تغرى بردى في (النجوم الزاهرة) جـ٣ صـ٤-٥ أورد نصاً ذكر أن قائله (أحمد بن يوسف) فيه يقول: قلت لأبي العباس بن خاقان، ثم أورد الرأيين المتصلين بحقيقة والد أحمد بن طولون. وذكر كرد علي محقق (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى في (هامش٢) صـ٣٣: أن لابن الداية رواية، تشبهها رواية البلوى، وسؤال البلوى لمكوف نفس سؤال ابن الداية لابن خاقان، والجواب مثله، والعبارة تكاد تكون واحدة. وهذا يعني أن ابن الداية تعرض للموضوع نفسه قبل البلوى. والحق أنى لا أطمئن إلى نقل ابن تغرى بردى؛ لأن سيرة ابن الداية كاملة – فيما أعتقد – بين أيدينا، ولا يوجد بها هذا النص، كما أن الجواب الوارد في (النجوم، ويشير إليه كرد علي – فيما أظن وإن لم يذكر مصدر كلامه – مبتور، وليس في اكتمال ولا وضوح رواية البلوى. ولذلك أعتقد اختلاط الأمر على ابن تغرى بردى في نسبة النص إلى قائله.

(٤) سيرة ابن الداية صـ٧٣-٧٤.

(٥) وردت في النص مصروفة، وأعتقد عدم صرفها؛ لأنها لفظة أعجمية مزيدة على ثلاثة أحرف.

(٦) سيرة البلوى صـ٣٣-٣٤.

وغـــير مفهومة، وأعتقد أن فيها خلطاً بين بعض الكلمات فى السطور المتعاقبة؛ نتيجة خطأ فى النظـــر وقع فيه ناسخ المخطوطة، ولم يتبينه محقق الكتاب وناشره. وقد استعنت على فك هذا الغمـــوض بمـــا سيرد فى رواية البلوى السابقة نفسها من حوار مكمل لها، وبما ورد فى كتاب (الـــنجوم الزاهرة) لابن تغرى بردى[١]. ولعل تصحيح العبارة يتركز على شقها الأخير، فيكون كما يلى: (والآخر يقول: إنه أحمد بن يلبخ، وليس ابن قاسم جارية طولون).

ويمكن توضيح القضية، والرأى فيها فيما يلى:

أولاً – يذهب فريق من الناس إلى أن طولون التركى هو والد أحمد، وإليه يُنسب، وأن أم أحمـــد هـــى (قاسم) جارية طولون. ويرى فريق آخر: أن أحمد هو ابن (يلبخ) التركى صديق طولون، وأنه لما مات والده (يلبخ) تَبَنّاه (طولون)، فإليه يُنسب، وبه يُعرف على سبيل التجوز.

ثانياً – يذكر الصفدى[٢] رأى المشككين فى نسب أحمد بن طولون مصدّراً إياه بلفظة دالّة على التشكيك فى صحة ما يذهبون إليه، فيقول: يُقال: طولون تبنَّاه، ولم يكن ابنه. ويقال: اسم أم أحمد هاشم[٣].

ثالثاً – يذكر المقريزى[٤]، وابن تغرى بردى[٥] (فيما ينقله عن الحميدى): أن طولون تَبَنَّى أحمد؛ لِمَا رأى فيه من مخايل النجابة. ويدللان على هذا الرأى برواية ينفردان بإيرادها، مفادها أن أحمـــد كان يدخل على سيده الأمير (طولون) وهو صغير، ويسأله أن يكتب بعطاء للفقراء المُعْوزين. وفى إحدى المرات أمره بإحضار الدواة. فلما توجه لإحضارها، فوجئ بوجود إحدى حظايا طولون وقد خلا بها خادم، فخرج أحمد ولم يتكلم. لكن الجارية خشيت إبلاغ سيدها، فســـبقت إلى اتهام أحمد عنده بأنه راودها عن نفسها، فصدَّقها طولون، وأرسل بأحمد إلى أحد خدمه بكتاب يأمره فيه بقتل حامله فى الحال. ولما هَمَّ أحمد بالتوجه لتنفيذ المهمة، قابلته الجارية، وأخذت منه الكتاب، ودفعت به إلى الخادم الذى كان معها، وكانت تريد بذلك أن يزداد حنق طولـــون على أحمد. وبعد قليل وصلت رأس الخادم، الذى أوصل الكتاب؛ مما أدهش طولون، وحيَّـــر الجاريـــة. وبسؤال طولون أحمد، وتهديده بقتله، شرح ما رأى من أمر الخادم والجارية،

(١) حـــ٣ صـــ٤-٥.
(٢) الواق بالوفيات حـــ٦ صـــ٤٣١.
(٣) النجوم الزاهرة ٣/٣، وبدائع الزهور ١٦١/١.
(٤) المقفى ٤١٧/١-٤١٨.
(٥) النجوم الزاهرة ٤/٣.

وأُحضــرت الجاريــة فأقرّتْ بذنبها، فقتلها طولون، وحَظِيَ أحمد بمكانة طيبة عنده. ويضيف المقريزى[1] بأنه ولاّه الأمر من بعده.

رابعــاً – عرض البلوى فى سيرته تفنيد محدثه (أحمد بن محمد الكوفى) ذلك الاتهام بأدلة دامغة[2] هى:

أ- أن يلــبخ هــذا تركى أُسِرَ مع طولون، وكان مغنياً يغنى بالتركية، خفيف الروح. ولما مــات طولــون، رأى يلبخ أن من الوفاء أن يرعى ابنه أحمد من بعده، فقام على شئونه أحسن قــيام، ولعله تزوج أمه، فصار زوجاً لأمه، وأوصله – لحداثة سنه – إلى الأماكن، التى كان لا يستطيع الوصول إليها، فإذا رأى الناس أحمد معه، سألوه: هل هذا ابنك ؟ فيقول: نعم هو ابنى، وابن سيدى (رحمه الله).

ب- أنــه لا يجوز أن يكون ابناً لــ (يلبخ)؛ لأن طولون أسبق وفاة من يلبخ؛ إذ مات قبله بعشــر ســنين[3]. ولم يثبت أن لــ (يلبخ) أولاداً ذكوراً، وإنما ترك طفلة وحيدة صغيرة، كان أحمد يرعاها هى وأمها حتى وفاتهما.

ج- لــو كان أحمد ابناً لــ (يلبخ) ما زَوَّجه (يارجوخُ) ابنتَه[4]؛ لأن يلبخ كان مغنياً، وهو دون المنزلة، بينما كان طولون معروفاً بالستر والصيانة.

د- وممــا يــدل على أنه ابن طولون فعلاً، أن الموفق لما اشتد خلافه مع أحمد وقام بلعنه، أسنده إلى (طولون)، ولم يسنده إلى (يلبخ).

خامســاً وأخيراً – من خلال استعراض ما مضى من روايات يترجح لدىَّ – كما

---

(١) المقفى ٤١٨/١.

(٢) سيرة أحمد بن طولون، للبلوى صـــ٣٤. وعلى هذا فالمؤرخ البلوى ليس هو الذى نَصَّب من نفسه مدافعاً عن أحمد بن طولون، داحضاً كل ما افتُرِى به عليه، مفسراً ما ذاع من شك فى نسبه تفسيراً مقبولاً، خلص منه إلى إثبات انتسابه إلى طولون، كما يرى د.حسن أحمد محمود فى كتابه: (حضارة مصر الإسلامية فى العصر الطولونى) صـــ٢٣. إنما الصحيح الدقيق أن مورده (أحمد بن محمد الكوفى) هو الذى قام بذلك كله، والبلوى مجرد ناقل لهذا التفسير والتعليل. وكم كنا نتمنى أن يكون هو صاحب هذه التعليلات الطيبة، إذاً لذكرناها فى منهجه، ولاعتبرناها دليلاً على حضور شخصيته.

(٣) من المعلوم أن طولون حُلب من بلاد الترك عنى يد نوح بن أسد عامل بُخَارَى إلى المأمون، فيما كان عليه من مال ورفيق، وغير ذلك من أشياء تُؤدَّى كل عام. وتم إحضار طولون سنة ٢٠٠هـــ، ووُلِدَ ابنُه أحمد سنة ٢٢٠هـــ، وتوفى سنة ٢٤٠هـــ (سيرة ابن الداية صـــ٧٣-٧٤). وعلى هذا، فيكون (يلبخ)، توفى سنة ٢٥٠هـــ.

(٤) لما عظم قدر أحمد بين الأتراك؛ لدينه وورعه، خطب إلى يارجوخ ابنتَه فزوَّجه، وكانت أم ابنه العباس، وابنته فاطمة. (سيرة البلوى ٣٥).

تَـرَجَّح لدى بعض الباحثين من قبل[١] – صحة ما ورد فى سيرة البلوى؛ لأنه أقدم مصدر تاريخى – من وجهة نظرى – تعرض لهذا الأمر، فهو أقرب إلى الصواب من غيره، ولأنه اعتمد فى عرض القضية على مصدر موثوق به، عليم بخبايا الأتراك وأحوالهم، كما أنه دعم رأيه بأدلة صحيحة واقعية من الوجهة التاريخية والمنطقية، خاصة إذا صح ما ورد عن زواج (قاسم) من (يلبخ) بعد وفاة زوجها (طولون)، فلعله – بعد هذا الارتباط – غدا أشد ملازمة له ورعاية لشأنه، وعامَله كأنه ابنه بعد أن أضحى زوج أمه. وقد رَدّ أحمد له الجميل بالإحسان إلى زوجته الأخرى وابنتها حتى وفاتهما، كما ذكرتُ من قبل. وأخيراً، فإن أحمد بن طولون لو كان مدخول النسب، لاهتبل هذه الفرصة شانئوه فى الداخل والخارج (الشاعر محمد بن داود، والموفَّق)، ولأوسعوه تشنيعاً وتجريحاً، ولأضعف ذلك من مركزه، ومقامه بين الناس فى زمن، كان الناس يهتمون فيه بالأحساب والأنساب اهتماماً بالغاً.

أما القائلان بالرأى الآخر المرجوح، فهما متأخران (يرجعان إلى القرن التاسع الهجرى)، ولم يذكر أحدهما مصدره (المقريزى)، واعتمد الآخر على (الحُمَيْدىّ)[٢]، وهو – وإن كان من رجال القرن الخامس الهجرى – إلا أنه لا يعد مصدراً معتبراً من مصادر التاريخ المصرى؛ لأنه مؤرخ أندلسى بالدرجة الأولى، ومصدره الذى نقل عنه الرواية مجهول (قال بعض المصريين)[٣]. ثم إن الرواية التى سيقت عنه غير مقبولة، فهى – وإن كانت لا تدل على أن أحمد ابنه الصُّلبىّ – إلا أنها – أيضاً – لا تدل على أنه مُتَبَنًّى له، بل هو أقرب إلى خادم يعمل عند أمير، لا يشعر تجاهه بأدنى مشاعر الغَيْرة، عندما يجد حَظيّته مع غير سيدها فلا يُبْلغ عنهما. وأحداث الرواية مفتعلة وغير منطقية، فلو أراد الأمير قتل أحمد، لقتله فى الحال دون حاجة إلى إرساله بكتاب إلى خادم يأمره بقتل حامله. وأخيراً، فإنى أتساءل: أىُّ أمر كان يتولاه (طولون)، وأية إمارة كان يتأمَّرها حتى يليها (أحمد) من بعده ؟! إن أقصى ما يمكن أن يصل إليه (طولون) أن يصير من

---

(١) حضارة مصر الإسلامية د.حسن أحمد محمود صـ٢٢-٢٣، ودكتوراه (حضارة مصر فى العهد الطولونى): لطراوة صـ٨-٩.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أبى نصر فتوح بن عبد الله الأزدى الحميدى الحافظ المشهور، قرطبى الأصل. روى عن ابن حزم الظاهرى، واختص به، وعن ابن عبد البر صاحب كتاب (الاستيعاب). رحل إلى المشرق سنة ٤٤٨هـ، وهو ابن ٢٨ سنة، فحج. سمع بإفريقية، ومكة، والأندلس، ومصر، والشام، والعراق، واستوطن بغداد. كان موصوفاً بالنباهة والمعرفة، والدين والورع. له كتاب (الجمع بين صحيحى البخارى، ومسلم)، و(جذوة المقتبس)، وهو عن تاريخ علماء الأندلس. توفى ببغداد سنة ٤٨٨هـ. (وفيات الأعيان ٤/٢٨٢-٢٨٣).

(٣) النجوم الزاهرة ٣/٤.

كبار الجند[١]، وإن حياة ابنه بعده لا تدل على أنه ورث عن أبيه منصباً ذا شأن، اللهم إلا أن يكـون أخـذ عنه النشأة المتدينة الطيبة، التى واصل غرسها داخله أصدقاء أبيه المقربون(لا يلبخ وحـده)، ثم تـوجه إلى الغزو والجهاد، فشاع ذكره، واشتهرت شجاعته وأخلاقه، فعُرف فى أوساط الكبراء، حتى هيّأ له القدر أن يلى ما تولاه.

ب-عيسى بن شيخ وعلاقته بالخلافة، وبابن طولون:

١-ورد فى (**سـيرة ابن الداية**): أن (عيسى بن شيخ) كان متقلداً لفلسطين والأردن، ومتغلباً على دمشق (أى: دون تقليد الخلافة له)، وأنه انتهز فرصة اضطراب الأتراك فى العاصمة، فـأراد التغلب على مصر. وأرسل ابنُ المدبِّر صاحب خراج مصر مبلغ (٧٥٠ ألف دينار) إلى الخلافة، فاستولى عليها عيسى[٢].

أما **البلوى**، فذكر أن (أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانى) كان يتقلد (فلسطين، والأردن). فلمـا مات، توثب ابن شيخ عليهما، فقال: هى من عملى. وذكر استيلاء ابن شيخ على أموال مصـر المرسلة من ابن المدبر إلى الخلافة، وتفَرقها فى جنده. وبلغه اضطراب الأمور فى عاصمة الخلافة، فجمع الجموع وطمع فى السيطرة على بلاد الشام كلها، وخرجت شائعات – روّج لها الناس – بعزمه على الاستيلاء على مصر أيضاً[٣].

وواضح أن البلوى لم يكن موفقاً فى ذكر اسم الشخصية موضع النزاع، وروايته يَكتنفها فى بدايتها الغموض، وإن كانت بها تفصيلات غير واردة فى رواية ابن الداية.

٢-**قال ابن الداية فى (سيرته)**: كـتب السلطان (لعله الخليفة المهتدى) إلى ابن طولون أن يـتأهب لملاقاة عيسى بن شيخ، وذلك بتجهيز جيش من أكفاء الجند، وأمر صاحب الخراج أن يمـده بما يحتاج إليه من نفقات. وانتهز ابن طولون الفرصة، وكوّن جيشاً كثيفاً به كثير من السودان وغيرهم. هذا، وقد أنفذ الخليفة إلى(عيسى بن شيخ) بوفد يتفاوض معه، فيه واحد من

---

(١) يذكر ابن تغرى بردى عن طولون: أنه رقّاه المأمون حتى صار من جملة الأمراء (السابق ٣/٣). وأعتقد أن لقب الإمارة هذا لقب شرفى، منحه إياه؛ لنباهته فى عالم الجندية. ويعود ابن تغرى بردى صـ٦ إلى القول بأن طولون لما مات، فوّض الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ) إلى أحمد ما كان لأبيه. ونحن لا ندرى ماذا كان لأبيه، حتى يتولاه أحمد. ثم إننا لم نجد ذكراً لطولون، ولا لابنه أحمد فى عهد المتوكل على كثرة أخباره؛ مما يجعلنا نشك فى صحة هذا الكلام، خاصة أن قائله أردف قائلاً: ثم تنقلت الأحوال بابن طولون حتى ولى إمرة الثغور ودمشق، ثم ديار مصر. والصواب: ولى مصر، ثم الثغور الشامية، ثم سيطر على الشام.

(٢) السابق: صـ٨٠.

(٣) سيرة أحمد بن طولون صـ٥٠.

كبار خدمه وفقيهان، يطالبونه بأموال مصر، وبما عليه من أموال عما يتقلده من أعمال. وأرسل معهم عهده بتوليته أرْمِينِيَة(١).

فماذا كان رد فعل عيسى ؟ أما عن الأموال المصرية، فزعم أن نفقات الرجال استهلكتها. وأما عن الأموال المتأخرة عليه، فلا شك أنه ماطل ولم يؤد درهماً مما عليه. ولما بويع المعتمد، لم يَدْعُ له عيسى على المنابر، ولم يأخذ له بيعة من أصحابه، ولم يَرْتَد السواد شعار العباسيين. ومع ذلك دفع إليه الحسين الخادم بولاية أرمينية. ثم أرسل المعتمد (أماجور التركى) إلى دمشق والياً عليها على رأس جيش، فأرسـل عيسى ابنه منصوراً، وخليفتـه (أبا الصهباء)؛ لمنع (أماجور) من دخول دمشق. هُزم جيش عيسى، وقتل ابنه وخليفته وكبار جنده، فاضطر عيسى للخروج إلى نواحى أرمينية على طريق الساحل، وتسلم أماجور أعمال الشام سنة ٢٥٧ هـ(٢).

أما البلوى، فروايته فى هذا الشأن – كالمعتاد – أكثر تفصيلاً ووضوحاً. والمهم أنها أكثر بياناً لهدف ابن طولون من الإسراع بالاستجابة لمطلب الخلافة، ونجح فى الإفصاح عن سياسة ابن طولون فى صراع الخلافة مع (ابن شيخ). ذكر البلوى أن المهتدى بالله أرسل إلى ابن شيخ وفداً، اشترط عليه أن يُسلّم له عهد الخليفة إليه بولاية إرمينية بشرط أن يرد الأموال التى فى رقبته كلها، وأن ينصرف عن الشام، فإن لم يفعل كتبوا إلى الخليفة بذلك؛ ليتدبر الأمر.

لم يستجب ابن شيخ لمطالب الخلافة، فاستخدم معه حسين الخادم الحيلة بأن دفع إليه عهد توليـته إرمينـية، حـتى أقام الدعوة للمعتمد، وأخذ له البيعة. وانصرف الوفد مخبراً المعتمد بما حـدث، فأمـر المعتمدُ ابنَ طولون بالتأهب للقاء ابن شيخ، فانتهز أحمد الفرصة، واستكثر من الجـند، وجـدَّد آلات الحرب، ثم تلكأ عن الخروج؛ لأنه لا يريد الصدام مباشرة، فأرسل إليه وفداً، يدعوه إلى طاعة الخليفة ورد الأموال، لكنه رد رداً قبيحاً. ثم رأت الخلافة الاستعاضة عن ابـن طولون بـ (ماجور) التركى، الذى هزم جيش ابن شيخ، على النحو الذى ورد فى رواية ابن الداية السابقة(٣).

بعـد أن عرضنا تصور كل من ابن الداية، والبلوى لطبيعة العلاقة بين (عيسى بن شيخ)، والخلافـة العباسية فى (عهدى: المهتدى، والمعتمد)، وموقف ابن طولون من الصراع الدائر، نلم

(١) بكَسْر أوله ويُفتَح، وهو اسم لصُقْع عظيم واسع فى جهة الشمال، والنسبة إليه أرْمَنِىّ على غير قياس. وكذلك (أرمينى). وهى من بلاد الروم، ويُضرب بحسنها، وطيب هوائها، وكثرة مائها وشجرها المثل. (الأنساب ١/١١٧، ومعجم البلدان ١/١٩١ وما بعدها).

(٢) السابق: صـ٨٠- ٨١.

(٣) سيرة أحمد بن طولون ٥٠- ٥٢.

إلمامة سريعة بصورة الموقف كما عرضته المصادر الأخرى؛ كي نتبين القضية بوضوح أكثر، ونقف على وجوه الاتفاق، والاختلاف، والإضافات.

١- الشخصية المحورية التى تدور حولها الأحداث هى شخصية (عيسى ابن الشيخ[١] بن السَّليل ابن ضَبيس):من بنى جَسَّاس بن مُرَّة بن ذُهْل بن شَيْبان بن ثعلبة، أبو موسى الشيبانى الذُهْلى[٢].

٢- تختلف المصادر حول تاريخ وظروف تولية عيسى (فلسطين، والأردن): فيذكر ابن منظور أن بغا الكبير ولّى عيسى بن شيخ فلسطين والأردن سنة ٢٥٢ هـ[٣]، بينما يذكر المسعودى أن المعتز وَلّاه فلسطين سنة ٢٥٣ هـ[٤]. ويرى الطبرى أن عيسى بن الشيخ عُقد له على الرملة أول ذى الحجة سنة ٢٥٢هـ، فأنفذ عيسى خليفته (أبا المغراء) إليها، فقيل: إنه أعطى (بُغا) أربعين ألف دينار على ذلك، أو ضَمِنَها له[٥].

وأتصور أن التوفيق بين هذه التواريخ سهل ميسور، فمكانة (بغا) من الخليفة العباسى تسمح له بتولية عيسى (فلسطين، والأردن)، ثم إن إقدام عيسى على ترسيخ علاقته مع (بغا) هيَّأ له ولاية (الرملة) مقابل تعهده بمبلغ كبير من المال سنوياً. ويبدو أن زيارة عيسى لسامرا قادماً من مصر بصحبة بعض ولد أبى طالب، الذين أقاموا بمصر مدة؛ هرباً من قحط حَلّ بالحجاز، ولقاءه بالمعتز، جَدَّد له عقده على (فلسطين)، وذلك سنة ٢٥٣ هـ[٦].

ويبدو أن (عيسى بن الشيخ) أظهر الخلاف مع الخلافة العباسية فى عهد المهتدى (٢٥٥هـ)،

---

(١) ومن هنا، فقد أخطأ المؤرخ البلوى لما سمّاه (أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانى). (سيرة أحمد بن طولون صـ٥٠)؛ إذ إن (أحمد) هذا لا علاقة له بهذه الأحداث، فهو الابن الذى ولى حكم إرمينية وديار بكر بعد وفاة أبيه ٢٦٩هـ، وضم إليهما قلعة ماردِين (قلعة حصينة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دُنَيْسر، ودار، ونَصيبين). (معجم البلدان ٥/٤٦)، سنة ٢٧٩هـ (تاريخ الإسلام ٢٠/٢٣٩، والبداية والنهاية ١١/٧٠). وظل أحمد هذا فى موقعه حتى توفى فى ذى الحجة ٢٨٥هـ (تاريخ الطبرى ١٠/٦٨، ومروج الذهب مجلد ٢ صـ٦٠٤، والبداية والنهاية ١١/٨٣). وبعد ذلك ولى ابنه (محمد) ما كان يليه أبوه على سبيل التغلب؛ مما دفع المعتضد إلى محاصرته، حتى اضطر إلى التسليم، فأمَّنه الخليفة، وخلع عليه سنة ٢٨٦هـ (تاريخ الطبرى ١٠/٧٠، ومروج الذهب ٢/٦٠٤- ٦٠٧ (وسَمَّى الشيخَ عبدَ الرزاق)، والكامل ٦/٣٩٥، وتاريخ الإسلام ٢١/٢٤، والنجوم ٣/١٣٣). وقد نقل المقريزى – دون أن يذكر – عن البلوى فى كتاب (الخطط) ١/٣١٥ دون تحقيق، فجعل أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانى متقلد جُنْدَىْ فلسطين والأردن. فلما مات، وثب ابنه على الأعمال، واستبد بها. . . إلخ. واعتمدت د. سيدة كاشف على نص البلوى غير الدقيق، فنقلت عنه أيضاً ما قاله دون تحقيق (أحمد بن طولون: صـ٦٤- ٦٥).

(٢) (مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر)، لابن منظور ٢٠/٧٣.

(٣) السابق: ٢٠/٧٤.

(٤) مروج الذهب: مجلد ٢ صـ٥٥٢.

(٥) تاريخ الطبرى ٩/٣٧٢.

(٦) مروج الذهب: مجلد ٢ صـ٥٥٢.

بالاستيلاء على دمشق[١]، ومنع الأموال، وغير ذلك من الإجراءات التى امتدت إلى بدايات عهد (المعتمد) سنة ٢٥٦هـ، وما أعقبها من تطورات ومفاوضات[٢]، أفضت إلى تكليف ابن طولون بمحاربة ابن الشيخ، ثم تراجعت الخلافة عن ذلك وأمرته بالتوقف[٣]، وكلّفت أماجور التركى بتلك

(١) لم يكن ابن خلدون دقيقاً، عندما ذكر أن المعتمد ولى عيسى دمشق، لكنه منع الخراج (تاريخه ٤٢٣/٣)؛ لأن عيسى تغلب عليها قبل المعتمد، وعلاقته بالمعتمد كانت سيئة، ولم يبايع له حتى أُوهِمَ أن المعتمد يمنحه إرمينية إلى جانب الشام.

(٢) أهم ما فى هذه المفاوضات أن حسيناً الخادم خدع عيسى بن شيخ، حتى ظن أن الخلافة بدت من الضعف، حتى إنها تمنحه إرمينية إلى جانب الشام؛ لقاء مبايعته للمعتمد، وخطبته له، وارتدائه السواد. (مخطوط مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزى (مصورة عن نسخة أحمد الثالث) جـ ١٠ ورقة ٤٩- ٥٠.

(٣) الراجح أن الخليفة المعتمد على الله (٢٥٦- ٢٧٩هـ) هو الذى أمر ابن طولون بذلك، وبالتالى هو الذى أمره بالرجوع عنه (سواء كان ذلك التراجع بقرار من المعتمد نفسه، أم بإيعاز وتحريض من أعداء ابن طولون بالداخل: ابن المدبّر صاحب الخراج، وشُقَير عامل البريد). وهذا الرأى الذى رجّحتُه على خلاف ما انتهى إليه عدد من الباحثين: فقد رأى د. حسين نصار محقق (ولاة مصر) للكندى أن الذى أمر ابن طولون بالخروج هو الخليفة (المهتدى). (راجع: ولاة مصر صـ٢٤١ بالمتن، وما يتصل بها فى هامش ٤ وما يتعلق بها فى جدول التصويبات آخر الكتاب صـ٣٦٢). وتلقّف ذلك عنه حسن عبد الحميد جبر فى رسالته للدكتوراه (هامش ٣ صـ١٤١). أما فى دكتوراه (الحياة السياسية، ومظاهر الحضارة فى عهد المعتمد)، لمحمد حسب الله، فقد ذكر صـ١٥٠: أن ابن الداية والكندى رأيا أن المهتدى هو الآمر بالخروج، والمعتمد أمـر بالرجوع. أما البلوى، وابن خلدون، والمقريزى، فرأوا أن المعتمد هو الآمر فى الحالين. ورجح الرأى الأول، معتمداً على أن ابن طولون خرج فى جمادى الآخرة ٢٥٦هـ، والمعتمد تولى فى رجب من العام نفسه. ونقل عنه الرأى نفسه صاحب دكتوراه (حضارة مصر فى العصر الطولونى) صـ٢٥. وبالعودة إلى هذه المصادر للتوثيق، وجدت أن ابن الداية (صـ٨٠) لم يحدد شخصية الآمر بالخروج، واكتفى بقوله: (وكتب السلطان إلى أحمد بن طولون). أما البلوى، فقال: (وكتب إلى أحمد بن طولون يأمره) صـ٥١، ولم يصرح، لكن السياق قبله يشير إلى أنه (المعتمد)، الذى أُخذت له البيعة من ابن الشيخ. أما الكندى، ففى (الولاة، ط. جست) صـ٢١٤، لم يصرح قائلاً: " وكتب إلى أحمد ابن طولون بالخروج ". أما ابن خلدون، والمقريزى فقد صرحا أن المعتمد هو الآمر بالخروج (تاريخه ٣٨٧/٤، والخطط ٣١٥/١). ونخرج من ذلك بحقيقتين:الأولى – أنه لا خلاف حول شخصية من أمر ابن طولون بالرجوع (المعتمد). الثانية – أنه لا يوجد مصدر واحد من المصادر السابقة صرّح – بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة – أن الآمر بالخروج هو الخليفة (المهتدى). بقى – بعد ذلك – أن نُفنّد الدليل، الذى اعتمد عليه البعض فى القول بأن المهتدى هو الآمر بالخروج، والقائل: إن ابن طولون خرج لملاقاة (عيسى بن شيخ) فى جمادى الآخرة سنة ٢٥٦هـ، وأن المعتمد بويع فى رجب من العام نفسه. والحق أن مصدر هذه التواريخ هو الكندى فى (كتاب الولاة صـ٢١٥ – ط. جست). وبالتحقق من صحة تلك التواريخ، وبالنظر إلى ملابسات هذا الخروج ظهر لى عدم دقتها؛ لما يلى:

أ- لم تشر المصادر المعتبرة فى (سيرة ابن طولون) لابن الداية، والبلوى إلى شئ من هذه التواريخ، وهى أدق وأكثر تفصيلاً – من وجهة نظرى – وأقرب إلى الأحداث من كتاب الكندى الذى لم يعالج تاريخ الطولونيين على النحو المرضى.

ب- أن قرار المعتمد بخروج ابن طولون لم يحدث إلا بعد أن أصر عيسى بن شيخ على رفض مطالب الخليفة المهتدى، وقد وصلت أنباء وفاته إلى الوفد المفاوض، وكذلك وصل نبأ بيعة المعتمد إليهم، وجاءتهم أوامر الخليفة الجديد بالمطالبة ببيعة ابن الشيخ له، فاحتيل عليه حتى بايع، ثم عـاد الوفد إلى المعتمد، فعرّفوه حقيقـة تطلعات =

المهمة، التى انتهت بتحول عيسى إلى إرمينية بعد الهزيمة. ويبدو أن صلاته الطيبة بالوزير (عُبيد الله بن يحيى بن خاقان)[1] ساعدته على تثبيت أقدامه فى إرمينية، ويبدو – أيضاً – أنه ضُمَّتْ إليه ديار بكر[2]، وآمِد[3]. وظل فى منصبه، حتى وفاته – على الراجح – سنة ٢٦٩ هـ[4].

تقويم دولة ابن طولون، والحكم عليه:

انتقالاً من القضايا الجزئية السابقة إلى النظرة الكلية الشاملة، نحاول أن نطل إطلالة مركزة علـى (شخصية أحمد بن طولون) ودولته من زوايا عديدة باعتبار موضوع كتابىَ: ابن الداية، والبلوى. فنقوم – فى البداية – بإرساء أساس الحكم عليه، ثم بيان إيجابياته، وأخيراً سلبياته، وخلاصة الرأى فيه.

- ابن شيخ، وأنه ما بايع إلا وهو يفهم أن ذلك مقابل بقائه فى الشام، واستخلافه على أرمينية. هنا كان لابد مما ليس منه بُدّ، فكتب المعتمد إلى ابن طولون بالخروج إليه. (البلوى صـ٥٠- ٥١). هذا هو منطق الأحداث يفرض علينا نفسه.

ج- بالنظر إلى التواريخ المذكورة فى كتاب الكندى المشار إليه (صـ٢١٤- ٢١٥) نجد أنه قال: أظهر أحمد الخروج إلى ابن شيخ فى صفر سنة ٢٥٦هـ. وخرج إليه بعد رفض إجابة مطالبه يوم الخميس ٦ من جمادى الآخرة ٢٥٦هـ، ودخل الفسطاط راجعاً بعد قرار منعه لأيام خلت من شعبان من العام نفسه. وتوفى المهتدى فى شعبان سنة ٢٥٦هـ وبويع المعتمد. والحق أنها تواريخ غير دقيقة؛ لأن الطبرى – وهو أخبر بتاريخ الخلفاء – ذكر أن المهتدى خُلع يوم ١٤ من رجب ٢٥٦هـ، وقُتل يوم الخميس ١٨ من رجب (تاريخ الطبرى ٤٥٧/٩). وبويع المعتمد بيعة خاصة يوم الثلاثاء، أو الأربعاء ١٦ أو ١٧ من رجب (السابق ٤٦٢/٩). وبويع البيعة العامة فى دار العامة يوم الاثنين ٢٢ رجب سنة ٢٥٦هـ (السابق ٤٦٨/٩). وبناء على ذلك، فأنا أرى أن الأوامر صدرت إلى ابن طولون بعد فترة مناسبة من استقرار الأمر للمعتمد، ورجوع وفد التفاوض إليه بقفه على جلية الأمر. فلعل ذلك كان أواخر شعبان، ثم جرت مفاوضات بين وفد ابن طولون وابن شيخ، ولعلها استمرت شهراً آخر، ثم بدأ يتحرك ابن طولون فى شهر شوال مثلاً، فأتاه الأمر بالرجوع. وتم تكليف القائد التركى ماجور بتنفيذ المهمة، فأعد جيشه وسار به، وحاصر ابن شيخ فى دمشق (تاريخ اليعقوبى ٤٧٤/٢)، ودارت المعارك بين الفريقين، حتى هُزم ابن شيخ ورحل تاركاً الشام كلها لماجور، الذى تقلدها فى بداية سنة ٢٥٧هـ فيما أرجح وهو ما يلتقى مع رواية البلوى (صـ٢٥٢).

(١) مختصر تاريخ دمشق جـ١٦ صـ١٣. ويلاحظ أن الطبرى أخطأ لما جعل وفاة هذا الوزير سنة ٢٥٢هـ. (تاريخه ٣٥٤/٩). فالصواب أنه كان وزيراً للمتوكل، ثم استوزره المعتمد لأول ولايته سنة ٢٥٦هـ، وتوفى – على الراجح – سنة ٢٦٣هـ (مختصر تاريخ دمشق ١١/١٦- ١٤، وتاريخ ابن خلدون ٤٢٣/٣).

(٢) هى بلاد كبيرة واسعة، تنسب إلى بكر بن وائل، وحَدّها من دجلة إلى بلاد الجبل المطل على نصيبين (معجم البلدان ٥٦١/٢- ٥٦٢).

(٣) هى جزء من ديار بكر السابقة، وهى أعظم مدنها، وأجلها قدراً، وأشهرها ذكراً. وهى بلد حصين فى وسطه عيون وآبار. (السابق ٧٦/١).

(٤) الكامل، لابن الأثير جـ٦/٣٣٠، ومخطوطة (مرآة الزمان) لسبط ابن الجوزى (جـ١٠ ورقة ٥٠). وهو أرجح من تاريخ ٢٦٨هـ، الذى ذكره ابن خلدون فى (تاريخه ٤٢٩/٣).

أولاً – أساس الحكم التاريخى:

يُقصد بالحكم التاريخى ما يطلقه المؤرخ من نقد وحكم على حاكم من الحكام، أو قائد من القواد، أو موقف من المواقف، أو عصر من العصور. وهذا الحكم يجب أن ينأى به المؤرخ الحق عن التعصب والهوى، وأن يؤسسه بعد حسن تصور الأمر الذى يصدر حكمه عليه، وبعد دقة فى النقل، وتَحرٍّ فى الوقائع، وتثبُّت وأناة وطول تحقيق وتمحيص، وأن يؤدى ذلك الحكم بلغة مهذبة، ولسان عَفّ. ويحتكم المؤرخ المسلم إلى ميزان الشرع الحكيم ويزن به أعمال كل من يدرس سيرته، فيُمْدَح الشخص إذا أحسن وعدل وخدم أمته، ويُذَمّ إذا كان غير ذلك، دون جنوح إلى تبرير الأخطاء، وإحسان الظن فى غير موضعه؛ حفاظاً على المنهج الإسلامى(١).

ثانياً – من إيجابيات دولة ابن طولون:

١- الاستقرار الداخلى:

وهذه سمة بارزة من سمات عهد أحمد بن طولون، لها عدة مظاهر، منها:

أ- حفظ الأمن والنظام:

وذلك واضح من خلال اهتمامه بتعيين قائد من قواده الثقات على الشرطة السُّفْلانيّة (الفسطاط)، وقد أوصاه أن يرفق بالرعية، وينشر العدل بينهم، ويقضى حوائجهم، ويتفقد مصالحهم، ويظهر إكرامهم وصيانتهم. ففى هذه المنطقة يسكن عوام الناس وصالحوهم، وابن طولون يرجو دعاءهم، ففيهم القراء، والمتهجدون، والذاكرون. وكان يأمر صاحب الشرطة الفَوْقانيّة (العَسْكَر) أن يشدد على رعيته ويرهبهم، ويغلظ عليهم؛ لكثرة ما يرتكبون من مظاهر اللهو والعربدة والفسوق (من غناء، وسُكْر، ونحوهما)(٢).

ب- قمع ثورات الثائرين، والقضاء على المفسدين:

وذلك واضح من خلال قضائه على حركة (ابن الصوفى)، الذى وردت الأنباء سنة

---

(١) منهج كتابة التاريخ الإسلامى، لمحمد بن صامل العليانى هامش صـ٢٣١- ٢٣٢، صـ٢٤٨ وما بعدها.

(٢) سيرة أحمد بن طولون للبلوى صـ٢٠٥- ٢٠٦. وقال أحمد عبد السلام ناصف فى كتابه: (الشرطة فى مصر الإسلامية) صـ١٥٦- ١٥٧: الشرطة فى الفسطاط أعظم وأجَلّ من الشرطة فى العَسْكَر، رغم إطلاق اسم الشرطة السفلى على (شرطة الفسطاط)؛ لأن الفسطاط القسم الرئيسى الأصيل. فتقسيم الشرطة إلى (سفلى)، و(عليا) لا يرجع إلا إلى الموقع الجغرافى، ولا علاقة له بالتقسيم الطبقى؛ لأن مدينة العسكر أعلى من الفسطاط جغرافياً.

٢٥٦هـ بدخوله (إسْنا) بالصعيد، وقيامه بنهبها والإفساد فى نواحيها[١]. وكذلك أرسل الجيوش المتتالية، التى نجحت فى القضاء على رجل ثائر بالصعيد من بقايا أصحاب ابن الصوفى، يكنى (أباروح) كان قد قطع الطريق، وأخاف السبيل[٢]. وتعرض ابن طولون لانتقاص سيادة دولته، عندما ثار أهل برقة، ووثبوا بأميرهم (محمد بن فروخ الفرغانى)، وأخرجوه منها، فأرسل إليهم الجيوش تَتْرَى، وعلى رأسها غلامه لؤلؤ، حتى أعادوا الهدوء هناك، واستعاد ابن طولون سيطرته عليها، وعادت جيوشه مظفرة، تسوق الأسرى، وتطوف بهم فى شوارع مصر؛ مما كان له أكبر الأثر فى تغلغل هيبة ابن طولون فى صدور الناس كِباراً وصغاراً[٣].

ج- القضاء على نفوذ ابن المدبِّر[٤] صاحب الخراج، وشُقَير صاحب البريد:

عانى المصريون من ظلم ابن المدبِّر وتعسفه[٥]، وتجبره فى تحصيل الخراج، وفى فرض ضرائب جديدة اقترنت به، أثقلت كاهل الناس[٦]. وقد كان من الممكن إذا استمر هذا الرجل فى منصبه أن تتفجر ثورات الناس؛ حنقاً عليه. فرأى ابن طولون بثاقب فكره أن إزاحته عن ذلك المنصب تحقق له وللناس فوائد جَمَّة، منها: أنه يهدئ نفوس الناس وثائرتهم، ويتقرب إليهم ويكتسب حبهم وودهم (خاصة أنه خَفَّفَ عنهم الضرائب، ورفق بحالهم)[٧]. ومن جهة أخرى يتخلص من

(١) سيرة البلوى صـ٦٢- ٦٣.

(٢) المصدر السابق: صـ٦٧- ٦٨.

(٣) السابق: ٧٠- ٧٢، وماجستير (برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر) صـ٩٥- ٩٦.

(٤) هو أحمد بن محمد بن عُبَيْد الله، أبو الحسن بن المدبِّر الكاتب. أصله من سامراء. تولى المساحة بدمشق وغيرها أيام المتوكل سنة ٢٤١هـ. ولاه المتوكل خراج دمشق والأردن. كان أديباً كاتباً شاعراً. وهو أسن من أخيه إبراهيم. كان يلى خراج مصر، حتى دخل إليها أحمد بن طولون والياً، فاختلف معه، حتى اضطره إلى ترك مصر، ثم احتال عليه لتحريضه الخلافة ضده، فأحضره إلى مصر ثانية، وسجنه وعذبه سنة ٢٦٥هـ، وظل فى محبسه حتى مات فى حياة ابن طولون (فى صفر سنة ٢٧٠هـ). (تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٣٧/٧- ٣٤٠، ووفيات الأعيان ٥٥/٧- ٥٦، وسير أعلام النبلاء ١٢٦/١٣، وفوات الوفيات للكتبى ١٣٢/١- ١٣٤).

(٥) المكافأة ١٣٩- ١٤٠، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٦٧/٢ (سجن ابنُ المدبِّر الفقيهَ الشافعى أحمد بن يحيى بن الوزير التجيبى فيما انكسر عليه من بعض الخراج، حتى مات فى سجنه سنة ٢٥٠ أو ٢٥١هـ).

(٦) حول ما استحدثه ابن المدبِّر من ضرائب فى مصر لم تكن معروفة قبله، استحدثها منذ توليه الخراج بعد سنة ٢٥٠هـ (وهى – بخلاف الخراج الذى يُؤَدَّى سنوياً – ضرائب هلالية تُؤَدَّى شهرياً على المراعى والمصايد والنطرون) راجع: سيرة البلوى صـ٤٣، ونهاية الأرب ٢٦٢/٨- ٢٦٤، والخطط ١٠٣/١- ١٠٤، ١٠٧، ١٠٩، والفضائل الباهرة صـ١٢٦، ود. سيدة كاشف فى كتاب (أحمد بن طولون) صـ٤٧- ٤٩، ودكتوراه حسن حبر صـ٩٩- ١٠٠.

(٧) ذكر المقريزى أنه لما أضاف المعتمد لأحمد الخراج والثغور الشامية إلى جانب ولاية مصر، تنزّه عن أدناس المعاون والمرافق (الاسم الذى أطلقه ابن المدبِّر على ضرائبه الإضافية)، وكتب بإسقاطها فى جميع أعماله، وكانت تبلغ بمصر خاصة مائة ألف دينار سنوياً. (المقريزى: الخطط ١٠٣/١- ١٠٤). وقد رجح حسن حبر فى رسالته للدكتوراه (صـ١٥٢ هامش٢) أن يكون ذلك تم سنة ٢٦٢هـ.

منافس خطير يقاسمه حكم مصر، بل يتفوق عليه، وله نفوذ كبير. ولذلك حرص ابن طولون على تجريده من مظاهر هيبته وسلطانه[١]، حتى اضطره إلى ترك مصر[٢]. ولما علم ابن طولون بتدابيره ومكاتباته هو وشقير إلى الخلافة يحرضانها عليه، ويحذرانها سعيه إلى الاستقلال عنها[٣]؛ احتال على ابن المدبر، إلى أن حبسه فى مصر حتى الموت[٤]. وعَرَّض شُقيراً للعقاب البدنى والنفسى الرهيب، حتى تم الإجهاز عليه[٥]. وبذلك أراح نفسه من شرهما وخطرهما قبل أن يريح الناس منهما (ضرائب، وتجسس). وهكذا، التقت رغبة المصريين ومصلحتهم مع رغبة ابن طولون ومصلحته الشخصية فى الاستئثار بحكم مصر، وتولى خراجها، والانفراد بامتلاك مقاليد الأمور بها.

٢- صفاته الطيبة وأثرها فى مصر:

لاشك أن نشأة أحمد بن طولون الدينية، وإقامته فى مناطق الثغور (خاصة طَرَسوس)، مرابطاً فى بداية حياته العسكرية[٦]، كل ذلك جعله يتمتع بمجموعة من الخلال الطيبة والصفات الحميدة، التى كان لها أثرها فى نفوس المصريين تجاهه. ومن هذه الشمائل: شجاعته وشهامته[٧]، وحفظه القرآن، ورعايته حَفَظَة كتاب الله[٨]، ورحمته ورفقه برعيته[٩]، وعدالته[١٠]، وزهده[١١]، وتقشفه

---

(١) سيرة ابن الداية صـ٧٨، وسيرة البلوى صـ٤٥.

(٢) سيرة ابن الداية صـ٨٤، وسيرة البلوى ٥٩- ٦٠.

(٣) المصدر السابق: صـ٥٨، والخطط ٣١٦/١.

(٤) سيرة البلوى صـ١٧٥- ١٧٨.

(٥) المصدر السابق: صـ٥٨- ٥٩.

(٦) سيرة ابن الداية صـ٧٤، وسيرة البلوى ٣٦.

(٧) من أبرز أمثلة ذلك: صيانته الخليفة المستعين، وحسن قيامه بشأنه لما نفاه (المعتز) – بعد خلعه – إلى (واسط)، ثم رفضه أن ينفذ الأوامر بقتله مقابل أن يُوَلى على واسط. (حول موقف ابن طولون الشجاع، وما آل إليه مصير المستعين من القتل على يد (سعيد الحاجب)، وثناء الناس على ابن طولون؛ لعدم نكثه بيعة المستعين، وعدم اشتراكه فى إراقة دمه (وإن لم يستطع أن يمنع قتله)، يراجع: (تاريخ الطبرى ٣٦٢/٩- ٣٦٣، وسيرة ابن الداية ٧٥- ٧٦، وسيرة البلوى ٤١، وتاريخ ابن الوردى ٣١٧/١، وتاريخ ابن خلدون ٣٦٤/٣، وأحمد بن طولون، للدكتورة سيدة كاشف صـ٢٣، وحضارة مصر الإسلامية فى العصر الطولونى، للدكتور حسن محمود صـ٢٩- ٣١). وعلى كل حال، فقد كان ابن طولون سبباً لما سَلَّم المستعين للقتل بيده وهو يعلم، ثم عاد بعد مقتله للصلاة عليه، ومواراته التراب. ولعله رأى أنه مهما حاول تجنيبه الموت، فلن يستطيع الوقوف أمام قوة الأتراك والخليفة الجديد(المعتز)وأمه، فآثر الاكتفاء بعدم تلويث يده بقتله.

(٨) سيرة البلوى ١٨٦- ١٨٩.

(٩) السابق ١٩٩- ٢٠١.

(١٠) من أمثلة عدله: معاقبته أحد قواده لاعتدائه على راهب قبطى (السابق ٢٠٦- ٢٠٨). وكان يحرص على الجلوس للمظالم يومين فى الأسبوع (الخطط ٢٠٧/٢).

(١١) كانت تُهْدَى إليه الجوارى الجميلات، فيقوم بإهدائهن إلى غلمانه؛زاهداً فى المتع والملاذ، فتَدْنه بحراسة دولته، وشغله بمصالح ومتطلبات جنده (سيرة ابن الداية ٩٣- ٩٤).

واقتصاده فى النفقات[١]، وكثرة إحسانه وصدقاته[٢]، وجديته ويقظته وسهره على مصالح الرعية[٣]، ورعايته وتوقيره العلماء[٤].

٣- استقلاله بمصر ورعاية مصالحها ضد أطماع الموفّق:

لا يعنى ذلك أننا نشجع انسلاخ وانفصال ولايات الخلافة الإسلامية عنها، ونعده من إيجابيات (أحمد بن طولون) وحسناته، إنما نقصد مفهوم الاستقلال كما عرفه ابن طولون، وهو أن يحكم ولايته حكماً شبه مستقل، يرعى مصالحها، ويوفر حياة طيبة لأهلها، ويقوم بمشروعات تهدف إلى خير مواطنيه، ثم هو - فى الوقت نفسه - يعترف ببيعة الخلافة، وسلطة الخليفة الروحية، ويؤدى ما عليه من خراج سنوياً لعاصمة الخلافة بما لا يضر مصالح شعبه واحتياجاته (من مأكل، ومشرب، وملبس، وجيش قوى يدافع عنه)[٥]. وقد حقّق ابن طولون هذا المفهوم الصحيح، لكن أعداءه - حسداً من عند أنفسهم- سخطوا عليه، ودبروا له المكايد فى عاصمة الخلافة، وحرّضوا عليه الخليفة (المعتمد)، حتى كتب إليه مرة بالاستخلاف على مصر، والقدوم إلى عاصمة الخلافة؛ لتدبير شئونها[٦]. وقد كان (الموفق) أخو الخليفة (المعتمد) ألدّ أعداء ابن طولون، ولطالما وقف فى طريق قوة ابن طولون ودولته النامية، وسلك فى سبيل ذلك طرقاً ووسائل متعددة، منها: مكاتبته أن يرسل إليه خراج مصر أضعافاً مضاعفة[٧]، وإصداره أوامره - وقد كان يعد الخليفة الحقيقى؛ لانشغال أخيه باللهو والمتع[٨] - إلى موسى بن بغا بتسيير الجيوش نحو مصر، وعزل ابن طولون عنها[٩]، وتدبير المؤامرات عن طريق مكاتباته مع جواسيسه إلى قادة جند ابن طولون يستميلهم نحوه، ويغريهم بولاية مصر بدلاً من ابن طولون، واحتضانه لؤلؤاً غلام ابن طولون الخارج عليه[١٠]، وإفشاله محاولة ابن طولون نقل الخلافة العباسية إلى مصر عن طريق إحضار (المعتمد)

---

(١) المصدر السابق: ١٣٣.

(٢) سيرة البلوى صـ٩٨، ١٩٨- ١٩٩، وغيرها.

(٣) السابق: ١٩٩- ٢٠٠.

(٤) مثل: الربيع بن سليمان المرادى صاحب الشافعى (الخطط ٢/٢٦٥- ٢٦٦، وماجستير الربيع المرادى وأثره فى الفقه الشافعى، لعبد العزيز شرف الدين صـ٥٧)، وبكار بن قتيبة القاضى الحنفى (سير أعلام النبلاء ١٢/٦٠٠- ٦٠١).

(٥) حول طبيعة الاستقلال السياسى لدى ابن طولون راجع: (مصر فى عصر الطولونيين والإخشيديين)، للدكتور حسن محمود، ود. سيدة كاشف صـ٣٤، ودكتوراه (حضارة مصر فى العهد الطولونى) لحجازى طراوة صـ١٧، وماجستير (الطولونيون فى مصر ومفهوم الاستقلال السياسى)، لأحمد السيد شحاته صـ٣٤، وبعدها.

(٦) سيرة ابن الداية: ٨٣، وسيرة البلوى صـ٥٦- ٥٧.

(٧) سيرة ابن الداية: صـ٨٩، وسيرة البلوى ٨١- ٨٢.

(٨) التنبيه والإشراف: صـ٣١٨- ٣١٩.

(٩) سيرة ابن الداية: ٨٨، وسيرة البلوى ٨٥- ٨٦.

(١٠) سيرة ابن الداية ١٢٦، وسيرة البلوى ٢٧٦.

إليها[١]، وإجباره أخاه (المعتمد) على لعن ابن طولون واعتباره خارجاً على الخلافة[٢]. وعلى كل، فقد استطاع ابن طولون الحفاظ على دولته أمام هذه المحاولات المستميتة للنيل منه، فلم يرسل ما أراد الموفق من أموال[٣]، وخدمه القدر بوفاة موسى بن بغا وغيره ممن طمعوا فى ولاية مصر، ونجح فى الإيقاع بكافة الجواسيس الذين عملوا لحساب الموفق[٤]، ونجح فى التظاهر بمناصرة المعتمد أمام طغيان أخيه وحَجْره عليه، وقَهْره إياه، وقام بلعن الموفق على المنابر، وقطع اسمه من الخطبة، وجنَّد من العلماء والقضاة والشعراء من دافعوا عن سياسته، وأيدوا فعلته[٥]. ولم يستطع الموفق النَّيْل من دولته حتى وفاته.

٤- مشروعاته الحضارية فى مصر:

وهذه هى الثمرة الحقيقية التى جناها شعب مصر، ومثَّلتْ فى بعض نواحيها الأثر الباقى لدولة ابن طولون حتى بعد انهيارها وتحويلها إلى أثر بعد عين. لقد كان الموفق حريصاً على استنزاف ثروات مصر؛ لتمتلئ خزائن الخلافة، ولا يهمه بعد ذلك أن يجوع أو يظمأ أو يَعْرَى شعب مصر. لكن ابن طولون جعل خير مصر لأهلها. وقد نجح الرجل بدهائه وخبرته ومهارته فى القيام بعدد من الإنجازات، التى ظلت مرتبطة باسمه على مر الزمان. لقد انتهز فرصة أمر المعتمد له بالاستعداد لمجابهة (عيسى بن الشيخ) فى بلاد الشام، وأوامره إلى ابن المدبِّر بإطلاق النفقات له، حتى كوَّن جيشاً ضخماً، وجدَّد آلات حربه، حتى بلغ مائة ألف جندى، معهم أفضل الأسلحة فى ذلك العصر[٦]. واهتمَّ بالأسطول فعهد به إلى خبراء صناعة الأساطيل، ووفر لهم كافة الإمكانات اللازمة لإنشاء أسطول مصرى يدافع به عن سواحل مصر، ويغزو به الروم عن طريق بلاد الشام[٧]. واهتم ابن طولون بتحصين جزيرة الروضة[٨] سنة ٢٦٣هـ؛ تحسباً لأى هجوم يُجابَه به من قِبَل النيل. واهتم بإقامة المشروعات العمرانية الزاهرة، كإنشاء مدينة القطائع[٩]، وجعلها

(١) المصدر السابق صـ٢٨٩- ٢٩٤.
(٢) السابق: صـ٢٩٨- ٢٩٩.
(٣) سيرة ابن الداية، ٨٠، ٨٣، وسيرة البلوى ٥١.
(٤) استطاع ابن طولون بذكائه وفطنته، وشدة حذره وتوحسه، أن يوقع بكثير من جواسيس الموفق رغم تنكرهم (راجع سيرة البلوى صـ١٢٢- ١٢٨).
(٥) السابق: ٢٩٤- ٣٠١.
(٦) الخطط ١/٣١٣، وتاريخ مصر الإسلامية، للدكتور الشيال ١/٦٠، وبعدها.
(٧) سيرة ابن الداية ٩٤- ٩٥، وسيرة البلوى ٨٧، ٢٠٨.
(٨) سيرة ابن الداية ٨٨، وسيرة البلوى ٨٦- ٨٧، والخطط ١/٣١٩، وتاريخ مصر الإسلامية، للدكتور الشيال ١/ ٧٧.
(٩) الخطط ١/٣١٣، وتاريخ مصر الإسلامية، للدكتور الشيال ١/٦٠، وبعدها.

عاصمة لدولته، وإنشاء البِيمَارَسْتَان[١]؛ لعلاج المرضى، وإنشاء مسجده الذى لا يزال شاهداً على تقدم العمارة وفن البناء فى زمانه[٢].

ثالثاً – سلبيات ابن طولون:

أ- طبيعته الانفعالية الحادة، وظلمه وبطشه واستبداده:

لعل أصل ابن طولون التركى كان له دخل فى مزاجه الحاد وطبيعته المتهورة. لكن التدين والصلاح الذى وصف به كان من المفروض أن يهذب طبيعته. وبعد أن صار حاكماً لمصر من المفترض أن يكون حليماً رحب الصدر، لا يعرف قلبه ضِغْناً ولا حسداً. لكن الواقع يشهد بتسرعه فى إصدار العقاب الشديد بأتفه الأسباب[٣]. وكان جزاء ابن عمار على تمحيصه النصح لابن طولون أن رَدَّه إلى السجن ثانية؛ لأنه لا يجوز لمن فى مثل عقليته – رغم حالته المزرية فى السجن – أن يبقى طليقاً حراً[٤]، فهو خطر على ابن طولون، فينبغى – فى رأيه – أن يَئد كل ذى موهبة ومكانة؛ حتى لا ينافسه أحد ! ومن المشهور المتواتر وجود مُطْبق (سجن تحت الأرض) يقاسى ويلاته المحبوسون، الذين مات منهم فى حبس ابن طولون حوالى ١٨ ألفاً[٥]. ولا شك أنهم ماتوا من التعذيب، والحر القائظ صيفاً، والبرد القارس شتاء، ولا شك أن منهم المظلومين، والمصادَرين[٦].

---

(١) كلمة فارسية مُعَرَّبة بمعنى (المستشفى). (المعجم الوسيط جـ١ صـ٨٢). أما (المارَستان)، فبمعنى المستشفى، أو المَصَحَّة. (المرجع السابق ٢/٨٩٨). وكان ابن طولون مهتماً بتوفير الأدوية والعقاقير الرئيسة فى مستشفاه، الذى أنشأه سنة ٢٥٩هـ، وأنفق عليه ٦٠ ألف دينار (سيرة البلوى صـ١٨٠، وصبح الأعشى ٣/٣٤٣، والخطط ٢/٢٦٥). ويمكن مراجعة المزيد من إجراءات استقبال المرضى، ونوعيات المعالَجين فى المارستان، ووسائل العلاج، ودرجة الاهتمام بالمرضى خاصة المجانين منهم، وتفقد ابن طولون أحوالهم بنفسه فى: (الخطط ٢/٤٠٥- ٤٠٦).

(٢) يراجع ما يتصل ببناء جامع ابن طولون وفنه المعمارى، ونفقاته (٢٠ألف دينار)، وما فى آخره من أدوية وعقاقير، وطبيب يعالج ما قد يطرأ على المصلين فى الصلاة، وأحداث بنائه (الذى امتد من ٢٦٣- ٢٦٥هـ) فى (سيرة البلوى،٣٥٠، ورحلة ابن جبير صـ٢٦، والخطط ٢/٢٦٥- ٢٦٦).

(٣) وذلك عندما همّ بإيقاع خمسمائة جلدة بالسياط على خطيب الجمعة؛ لأنه نسى الدعاء له آخر الخطبة، لولا أن تداركته رحمة من ربه، فعاد إلى المنبر، واعتذر عن النسيان، وبالغ فى الدعاء، فأبدلت له العقوبة دنانير، وهنَّأه الناس على السلامة. (سيرة البلوى صـ١٥٩).

(٤) سيرة ابن الداية ١٢٧- ١٢٨، وسيرة البلوى صـ٢٨١- ٢٨٦.

(٥) مخطوطة تاريخ القضاعى: ورقة ٦٤، والوافى بالوفيات ٦/٤٣١. ويمكن مراجعة حال السجون، والتعذيب المفضى إلى الموت البطئ فى عهد ابن طولون وغيره بأساليب لا إنسانية؛ تأثراً بالنشأة العسكرية للأتراك، وبهدف إرهاب شعب مصر فى (رسالة دكتوراه المجتمع المصرى فى العصر الطولونى)، لمحمود رزق محمود صـ٣٩٤- ٤٠٠.

(٦) كان ابن طولون – أحياناً قليلة – ينظر فى أمر التجار المسجونين، فيكتشف براءتهم، فيأمرهم بإطلاقهم. (المكافأة صـ٨٩- ٩١).

لقد حكم ابن طولون دولته حكماً بوليسياً بغيضاً قائماً على التجسس فى كل شئ[١]، وإحصاء أنفاس الناس[٢]، وإلقاء الرَّوْع فى قلوبهم، حتى كان الناس يخيفون به الصبيان على حد تعبير البلوى[٣]. ولا أستبعد أن يكون ذلك الجفاء والقسوة والغلظة وسوء الظن، حتى تجاه كبار غلمانه وقواده وربما أولاده، كان له دخل فى خروج ابنه (العباس) عليه، تؤيده جماعة من كبار كتّاب وقواد ابن طولون[٤]. ولا أستبعد أن يكون خروج لؤلؤ غلامه بالأموال والجيوش، وانضمامه إلى (الموفق)[٥] علامة على ما كان يعتور هؤلاء المقربين من فزع رهيب، أن ينالهم منه أذى شديد، فكانوا يهربون عند أول بارقة أمل تلوح لهم.

وإذا كنا ذكرنا من قبل رعايته للعلماء واحترامه إياهم، فإنه — فى الوقت نفسه — كان لا يتحمل نقداً من أحد، ولو كان من بعض الصوفية[٦]، وكان يستمع إلى وشايات البعض فى العلماء ولا يتورع عن حبسهم[٧]، ولا يرضى منهم إلا المداراة والتأييد[٨]، فإذا جابهه أحدهم

---

(١) يمكن مراجعة نماذج كثيرة من تجسسه حتى على أقرب معاونيه، وأخلص غلمانه فى (سيرة البلوى صـ١١٥-١١٨، ١١٩، ١١٩- ١٢٢، ٢١٠).

(٢) وظل ذلك قائماً حتى وهو فى مرض وفاته، يقوم بتنفيذ سياسته كتّابُه ومعاونوه (السابق صـ٣٣٤- ٣٣٦).

(٣) السابق: ٧٢.

(٤) يمكن مطالعة تفاصيل خروج العباس، ودور القادة والكتّاب المحرضين له على هذا الخروج، وسر التمادى فى العصيان إلى آخر الشوط فى: (المصدر السابق صـ٢٤٤ وما بعدها، وماجستير (برقة وطرابلس من الفتح العربى حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر)، لصالح مصطفى مفتاح صـ٩٧- ١٠١.

(٥) حول الأسباب السياسية والاقتصادية لخروج لؤلؤ على سيده، الذى عامله باستبداد، وظروف وأحداث ذلك الخروج، راجع: (سيرة ابن الداية ١٢٦، وسيرة البلوى ٢٧٦، وأحمد بن طولون للدكتورة سيدة كاشف صـ١٠٣ وبعدها، ودكتوراه (حضارة مصر فى العصر الطولونى) لطراوة صـ٣٧- ٣٨.

(٦) بل يُحَوِّل صراحته فى الحق والنقد إلى اتهامات تنقلب عليه، ويجمع مِنَ الناس مَنْ يشهد عليه، وتكون العاقبة جلده بالسياط، والطواف به، وحبسه فى المطبق. (سيرة ابن الداية صـ١٠٩- ١١٠، وسيرة البلوى صـ٢١٤- ٢١٦). وحبس ابن بنان الصوفى؛ لأنه أنكر عليه بعض الأشياء (المقفى ٤٩٦/٢- ٥٠٠، وحسن المحاضرة ٥١٢/١- ٥١٣).

(٧) وحدث ذلك مع الفقيه الشافعى كُنَيْز الخادم لَمّا وشى به المالكيون، فحبسه فى مكان قذر مدة سبع سنين، ولم يُطلَق سراحه إلا بعد وفاة ابن طولون، فأقام الرجل سبع سنين أخرى بالإسكندرية، وأعاد صلواته خلال فترة حبسه، ثم رحل إلى بغداد. (مختصر تاريخ دمشق ٢٢٣/٢١- ٢٢٤، وطبقات الشافعية للسبكى ٣٤٥/٢- ٣٤٦، وطبقات الإسنوى ٣٤٤/٢).

(٨) مثل: الفقيه رئيس المالكية فى مصر ((محمد بن إبراهيم بن زياد الإسكندرانى) المعروف بـ (ابن الموّاز)، الذى ولد سنة ١٨٠هـ، وتوفى ٢٦٩هـ. وخرج مع ابن طولون إلى دمشق، لَمّا قدمها؛ لخلع الموفق (سير النبلاء ٦/١٣، والمقفى ٨٧/٥). ويبدو أن ذلك كان قبل وفاته بيسير. وقد ذكر البلوى (سيرته صـ٢٩٤): أن جميع الفقهاء وقضاة أعمال ابن طولون، لما استفتاهم فى خلع الموفق، أفتوه إلا بكار بن قتيبة. وهذا يعنى أن ابن المواز ممن وافق (على سبيل المداراة فيما أرجح)، فهو كان قد قارب التسعين، ولا يقوى على حبس ابن طولون إياه. والظاهر أنه ندم على الموافقة، فاعتزل الناس ببعض حصون الشام أواخر عمره، حتى مات بدمشق (رحمه الله). (سير أعلام النبلاء ٦/١٣). ومن ثم، فلا يصح ما ورد فى بعض الروايات من أنه كان فى مصر، وأن ابن طولون أرسل —

بموقف معارض، قلب له ظهر المِجَنّ، وأمر بتقييد حريته (كما فعل مع القاضي بَكّار)[(١)].

هذه الشخصية المستبدة المتعالية المتعجرفة كان يكفيها فى بعض المواقف أن يستسلم لها عدوها، وأن يقر لها بخطئه، ويمرغ الوجه ويعفره فى التراب، عاضاً أصابع الندم على ما بدر منه من عداوة سافرة؛ حتى يصفح عنه ابن طولون، ويعفو عنه، ويُقيل عثرته[(٢)]. المهم أنه لا يُطيق أن يقف أمامه أحد، أو يخاشنه. أما من استسلم له ولاَيَنه، وأظهر الذلة والمسكنةَ والخضوع له، قبله ورضى عنه.

ب- طرقه الملتوية للحفاظ على منصبه:

الأصل فى صاحب المنصب أن يكون جده واجتهاده وإخلاصه العامل الأساسى لاحتفاظه بمنصبه. وفى زمن ابن طولون، وفى عهد الخليفة المعتمد الضعيف اللاهى كانت هناك مراكز قوى عديدة، تتدخل لدى الخليفة لحمله على تولية فلان، أو عزل آخر. ومن هنا كان لا بد لابن طولون أن يكون على صلة حسنة قوية بهذه القوى الفاعلة المؤثرة فى قرار الخليفة. ولما كانت التقارير تُرفع من داخل مصر (ابن المدبِّر، وشقير الخادم)، ومن خارجها (ماجور التركى)[(٣)]، تحذر الخلافة من نية ابن طولون للاستقلال بمصر؛ فإن ابن طولون — وهو أشد الناس حرصاً على منصبه — كان يتخذ من الأساليب الشرعية وغير الشرعية ما من سبيله صد القادة عن قبول ولاية مصر بدلاً منه[(٤)]، بالإضافة إلى تقديم الرشاوى الطائلة إلى بلاط الخليفة[(٥)]، إلى جانب ما يُرْسَل سراً للمعتمد؛ لأجل تثبيته فى حكم مصر. وأعتقد أن ابن طولون لو حَسَّنَ علاقته

- إلى ابنه خمارويه أن يبعث إليه بعدد من فقهاء مصر إلى دمشق، ومنهم: بكار، وابن المواز، وأنه من بين أحد عشر فقيهاً أُرسلوا إليه، لم يجبه ثلاثة منهم (بكار، وابن المواز، وفهد بن موسى). (المقفى ٨٨/٥). فالرأى الأول أدق وأصح، ونُقل عن ثقات، خاصة إذا علمنا أن الأخير — وإن كان يُنسب لآخر تلامذته — إلا أنه — فى الغالب — لم يصحبه أواخر حياته؛ لأنه لا يعرف — كما رُوى عنه، على سبيل القطع — مكان، وزمان وفاة أستاذه (فمرة يقول بوفاته سنة ٢٦٩هـ بدمشق كما رجحنا، ومرة يقول: قيل: توفى بالإسكندرية ٢٧١هـ). وبذلك نضعِّف روايته، وروايات الآخرين القائلين بوفاته ٢٨١هـ (العبر، للذهبى ٤٠٤/١، وذلك قبل أن ينقح ذلك الرأى، ويصوِّبه فى آخر كتبه: سير أعلام النبلاء)، و(مرآة الجنان ١٩٤/٢).

(١) انقلب على بكار بن قتيبة الفقيه القاضى الحنفى؛لرفضه مجاراته فى لعن الموفق، وخَلْعه من ولاية العهد. (تاريخ دمشق ٢٤٢/١- ٢٤٣، وسير أعلام النبلاء ٦٠٢/١٢- ٦٠٣).

(٢) كما هو الحال الذى كان يتمنى ابن طولون حدوثه من جانب (سيما الطويل) خلال محاربته ابن طولون بالشام (سيرة البلوى صـ٩٤- ٩٥)، ومع ابنه العباس (المصدر السابق) صـ٢٧٠- ٢٧١).

(٣) سيرة ابن الداية صـ٨٣، وسيرة البلوى ٥٦.

(٤) المصدر السابق: صـ٦٠- ٦٢.

(٥) نعنى بذلك ما دفعه من رشاوى إلى (يارجوخ)، و (الحسن بن مَخْلد)؛ ليتوسطا له عند الخليفة ببقائه والياً على مصر (السابق ٥٧).

بالموفق، ونجح فى إقناعه بولائه الصادق للخلافة، وقدم له معونات قيّمة فى حربه مع الزَّنْج، لأيده الموفق، ولضمن له منصبه، و لم يحتج لسلوك السبل غير المشروعة.

جـ- مجالس لهوه ومنادمته:

وهذا جانب من جوانب الضعف البشرى، الذى ينتاب بعض الحكام، ومنهم: (أحمد بن طولون). وقد وردت أكثر من رواية تاريخية[1]، تفيد حضور ابن طولون بعض مجالس الغناء والشراب (شراب النبيذ) مع ما يقع فى هذه الجلسات من تَبَسُّط واستخفاف وسُكْر وعربدة، واندفاع إلى الرقص والتصفيق؛ نتيجة شدة الطرب، وتمايل وانتشاء مع إيقاع الألحان.

وفى تقديرى أن هذه سلبية من سلبيات ابن طولون تؤخذ عليه، وتتناقض مع الجندية والوقار والالتزام والانضباط، الذى يجب أن يتسم به الحاكم، فضلاً عن أن يكون حرباً على كل مظاهر المجون والخلاعة فى دولته.

د- فشله فى ميدان جهاد الروم:

لا شك أن أحمد بن طولون لم تكن أطماعه تقف عند حد السيطرة الكاملة على شئون الحكم فى مصر، وإنما كان يتطلع إلى مد نفوذه إلى بلاد الشام أيضاً؛ بحجة جهاد الروم المعتدين على سواحل الشام، وحماية الثغور الإسلامية هناك من غاراتهم[2]. وقد تهيأ لأحمد بن طولون الخروج بجيوشه إلى الشام أكثر من مرة[3]، لكنّا لم نقف على ما يفيد جهاده البيزنطيين. وكل ما ورد أنه وافق على عقد هدنة مع ملك الروم، وأصدر توجيهاته إلى عامله على الثغور باستغلال فترة الهدنة فى ترميم الحصون، وتحصين الثغور؛ تحسباً لأى هجوم مفاجئ؛ فالروم لم تعقد الهدنة إلا مضطرين (كوجود خلافات داخلية عندهم مثلاً)، فينبغى الاستفادة من تلك الهدنة المؤقتة بما فيه مصلحة المسلمين[4]. ووردت أخبار - كذلك - تفيد

---

(١) سيرة ابن الداية صـ١١٢، ١٢٣، وسيرة البلوى ٢١٧- ٢١٨.

(٢) خاصة أن له خبرة فى شئون المرابطة بالشام (فى طرسوس تحديداً) فى بدايات حياته العسكرية.

(٣) خروج ابن طولون إلى الشام بعد موت ماجور سنة ٢٦٤هـ، وبالتحديد خرج فى شهر شوال، واستخلف ابنه العباس ومعه الواسطى على مصر، وأخضع بلاد الشام واحدة بعد الأخرى (وقتل سيما الطويل المتغلب على أنطاكية)، وانتهى إلى طرسوس، وفكر فى غزو الروم، لكن خبر خروج ابنه العباس اضطره إلى العودة سريعاً إلى مصر. (سيرة البلوى ٩١- ١٠١). والمرة الثانية التى خرج فيها إلى الشام كانت ٢٦٩هـ للقاء المعتمد، وتبعها فشله فى استقدامه إلى مصر، وأحداث لعن الموفق بالشام، ثم الصدام مع يازمان الخادم المتغلب على طرسوس، وفشل أحمد فى مواجهته، ومرضه، ثم عودته إلى مصر (السابق ٢٨٩- ٣١٢).

(٤) سيرة ابن الداية ٩٨، وسيرة البلوى ١٠٩.

اتفاقه مع الروم على تبادل الأسرى[١]. ومعلوم أن ابن طولون فشل سنة ٢٦٩هـ فى آخر رحلاته إلى الشام، فى القضاء على نفوذ يازمان الخادم، بل فشل فى دخول ثغر طرسوس، و لم يحسن تقدير الموقف، فهبط عليه وعلى جنده صقيع الشتاء القارس؛ مما أتى على كثير من جنده ودوابه، واضطر للرحيل إلى مصر عليلاً علة الموت[٢]. وهكذا، فشل الرجل فشلاً ذريعاً فى تثبيت أقدامه فى بلاد الشام، فضلاً عن الوحدة معها ضد الروم.

هـ- عدم تخطيط ابن طولون لمستقبل دولته:

من خلال متابعة سيرة هذا الأمير، ألفيناه معتداً بنفسه، مستبداً فى تصرفاته وسياسته، لا يجرؤ أحد من أعوانه (ولا الواسطى وزيره)[٣] على الظهور بجانبه، ولا يُبقى هو على ذى كفاءة يلعب دوراً إلى جانبه. ومن هنا كان المعتمد الأساسى عليه فى كل صغيرة وكبيرة فى البلاد. وكان من المنتظر– على الأقل – أن يحسن إعداد ولده الأكبر العباس؛ ليتولى المسئولية من بعده، ويبدو أن ابن طولون بذل بعض الجهد فى هذا السبيل[٤]، لكنه لم يكن كافياً من جهة، وكان يشوبه التأنيب والتهديد والقسوة من جهة أخرى، فكان من أمر العباس ما كان؛ مما خَفَّض أسهمه عند والده، وصرف نظره عن توليته الأمر من بعده، واتجه إلى أخيه الأصغر الذى لم تكن النية منعقدة – أساساً – على توليته. صحيح أن ابن طولون اختصه بالنصح والتوجيه أواخر عهده بالدنيا[٥]، لكن ذلك ما كان ليكسبه الخبرة اللازمة لحكم بلد مهم كمصر، واسترداد السيطرة على بلاد الشام. ولذلك حملت سياسة ابن طولون فى طياها عوامل الهيارها، فكان سفه خمارويه، وضعف حكام بنى طولون من بعده، فالهارت الدولة سريعاً سنة ٢٩٢هـ.

خلاصة الرأى عندى:

١- أن الأمير أحمد بن طولون له حسناته كما أن عليه سيئاته، ولستُ ممن يهاجمونه على

---

(١) وهذا يعنى وجود حملات بحرية إسلامية من عمال الثغور التابعين لأحمد بن طولون ضد الروم. ومن ذلك: ما وقع سنة ٢٦٤هـ من هجوم أمير الثغور عبد الله بن رشيد بن كاوس على الروم وانتصاره، لكنه وقع فى كمين فأسر. وفى سنة ٢٦٥هـ رَدَّه ملك الروم مع بعض الأسرى، وهدية لابن طولون. (تاريخ الطبرى جـ٩ صـ٥٣٣-٥٣٤، ومخطوطة مرآة الزمان – مصورة عن نسخة أحمد الثالث) جـ١٠ ورقة ٣٥، وتاريخ الإسلام ١٣/٢٠-١٤، وتاريخ ابن خلدون ٤٢٢/٣).

(٢) سيرة البلوى ٣١٠- ٣١٦.

(٣) كان الواسطى –على قربه من ابن طولون – شديد الخوف، والحذر منه (السابق ٢٨٥).

(٤) مثل: التوجيه العملى الذى حاول فيه تأديب ابنه العباس، وتخليصه من عاداته السيئة (التسرع والطيش، وطلب الأموال من الناس؛ لقضاء حوائجهم). (سيرة ابن الداية صـ١٠٨- ١٠٩، وسيرة البلوى ٢١٢- ٢١٤).

(٥) المصدر السابق: ٣٣٩- ٣٤٠.

طول الخط، فينسبون إليه كل نقيصة، ويسلبونه كل ميزة[١]، وكذلك لستُ مع أولئك الذين يرونه دون مستوى القيادة[٢]، بل أرى أنه يتمتع بصفات الحاكم الكفء، لكنه انحرف بكفاءاته ومواهبه، فأساء استخدامها؛ مما كان له أسوأ الأثر فى دولته من بعده، وفى شعبه.

٢- أن أحـوال مصـر الاقتصادية والأمنية فى عهد ابن طولون أفضل بكثير من عصور التبعية للخلافـة العباسية. ولذلك فإنى لا أُعَوِّل كثيراً على آراء الذين يَنْعَوْن عليه معاملته الموفق معاملة النِّدّ للـند، وتصـرفه فى مصر تصرف المستقل، الذى لا يتبع خلافة تستطيع عزله[٣]؛ لأن الخلافة التى يدافعون عن متوليها (المعتمد) كانت فى أضعف حالاتها. وماذا يُنتظر من خليفة لاه، لا يفيق من متعه وملذاته ؟ وماذا ينتظر من أخيه المشغول معظم وقته بحرب الزنج (٢٥٥- ٢٧٠هـ) ؟!

٣- فى نظرى سيئات ابن طولون ترجح حسناته. ويكفى ما ألحقه بالناس من هلع وخوف وجـبن، وما حاق بالآلاف من سجن، وتشريد، وقتل[٤]. إن الناس لم يحبوه، وإنما خافوه. ولا يصح أن نُخدع بمظاهر كاذبة[٥]، أو نسئ تفسيرها[٦].

٤- هـناك تـناقض واضح بين عدد من صفات ابن طولون وسلوكياته (يجلس للمظالم ويـرتكب المظالم فى آن، ويبدو فى صورة مارد جبار، ومرة أخرى يلبس إهاب الإنسان الوادع

---

(١) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، للدكتور عبد الحليم عويس صـ٧٢.

(٢) السابق: صـ٧١.

(٣) دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية، للدكتور عبد الحليم عويس: ٧٣.

(٤) راجع أحد نماذج القتل والنسف البشعة التى ارتكبها ابن طولون، وأجبر وزيره الواسطى على التجسس على أصحابه، فكان سبباً فى حتفهم. (البلوى: سيرة ابن طولون صـ٢٢٦- ٢٣٠). وقد يتعلل البعض قائلاً: هذه هى السياسة ! والحق أن قتل برئ واحد ظلماً يهدم تاريخ أى حاكم، ويلطخ تاريخ أية أمة رأى أفرادها الظلم وسكتوا عنه، مهما خلّف ذلك الحاكم من آثار التمدن والحضارة المادية. وقد رَدّ ابن الجوزى رداً رائعاً على - من يحملون جرائمهم على شماعة السياسة قائلاً: " ومن أعظم خطأ السلاطين والأمراء نظرهم فى سياسات متقدميهم، وعملهم بمقتضاها من غير نظر فيما ورد به الشرع. ومن خطئهم تسمية أفعالهم الخارجة عن الشرع سياسة؛ بأن الشرعَ هو السياسة لا عملَ السلطان برأيه وهواه. ووجْه خطئهم فى ذلك أن مضمون قولهم يقتضى أن الشرع لم يَرِدْ بما يكفى فى السياسة، فاحتجنا إلى تتمّة مِنْ رأينا. فهم يقتلون من لا يجوز قتله، ويفعلون ما لا يَحِلُّ فعله، ويُسَمُّون ذلك سياسة " ! (المنتظم ١/١١٧).

(٥) كخروج الرعية على مختلف طبقاتها ونِحَلها (مسلمين، ونصارى، ويهود) يضرعون إلى الله، ويحملون كتبهم المقدسة، ويضجون إلى الله بالدعاء لابن طولون بالشفاء، وذلك فى مرض وفاته (سيرة البلوى صـ٣٣٠- ٣٣١)، وكذلك مواكب جنازته الحارّة المتألمة (السابق صـ٣٤٤- ٣٤٥).

(٦) أما عن الدعاء له، فهو بأمر مباشر منه إلى قادته، فنقلوا الأمر بدورهم إلى الرعية، فهل لها إلا أن تسمع وتطيع. ثم إن عامة الشعب المصرى ساذج، وسَرْعَانَ ما ينسى الإساءة. وأما مواكب الجنازة، فهى تشبه الجنائز الرسمية والعسكرية اليوم، والحديث فيها كان عن غلمان ابن طولون ورجاله وقادته ونسائهم. وذُكر فيها العامة على استحياء، ولعلهم خرجوا أداء لواجب العزاء، وما فى القلب يعلمه الله.

اللطـــيف)[١]، شـــأنه فى ذلـــك شأن كثير من الحكام المستبدين. ويمكن تفسير هذا التضارب الموجود الذى لا يُنكَر، ويحتاج إلى تفسير، من وجهين اثنين كلاهما يكمل الآخر:

الأول – أن تقواه التى اشتهر بها ظاهراً، لا يُعبِّر عنها سلوكه ولا تاريخ حياته؛ مما يحملنا علـــى القـــول بعـــدم صدقه فيها. وإنما احتمى بها ظاهراً؛ ليجلب تعاطف شعبه الساذج معه، ولحماية عرشه[٢].

الثانى – أنه من أولئك الحكام الذين يتصفون بالعاطفة الدينية، ويهتمون بشئون العبادة، ما دامت خارج شئون الحكم والسلطان. أما فى سبيل الحفاظ على مناصبهم، فإنهم لا يتورعون عن الجـــرائم وارتكابها. فابن طولون يجمع بين الإجرام والتقى، وبين الشر الخالص والخير الخالص، دون تعارض، ودون أن يُحِسَّ هو بما يرتكب من جرائم[٣].

(منهج ابن الداية والبلوى فى سيرة أحمد بن طولون)

أولاً – من حيث قدرة كليهما على بيان منهجه فى كتابه:

لا ريب أن أى مؤلِّف معتبَر يضع لنفسه هدفاً يسعى إلى تحقيقه من وراء كتابه، وقد يذكر بعضهم غرضه من التأليف صراحة فى مقدمة الكتاب قبل الولوج إلى موضوعاته، والآخرون لا يصرحون بذلك، تاركين إياه لذكاء القارئ. وقد سلك ابن الداية الطريقة الأخيرة فى مؤلَّفه عن (ابن طولون)، فلم يذكر مقدمة لكتابه[٤]، تاركاً إيانا نحن – الباحثين – نستنبط أهداف ومقاصد كتابه[٥] من خلال طريقته التى عرض بها مادته التاريخية.

---

(١) مقال: (سيرة أحمد بن طولون للبلوى)، لعبد الحميد العبادى – مجلة (كلية الآداب – جامعة فؤاد الأول) – المجلد الأول/١٩٤٣م صـــ٨.

(٢) د. سيدة كاشف: أحمد بن طولون صـــ٢٥٩، وبعدها.

(٣) د. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس صـــ٣٥١.

(٤) لعل ابن الداية وضع مقدمة موجزة، تتفق مع طبيعة كتابه المختصرة لكن ابن سعيد صاحب (كتاب المُغرِب)، الذى احتفظ لنا بسيرة ابن الداية كاملة من حيث المتن، ارتأى أن يكتفى بمقدمته هو عن دولة بنى طولون دون أن يعرض مقدمة ابن الداية، إن وجدتْ.

(٥) أعتقد أن أغراض كتابَى ابن الداية والبلوى متقاربة (وقد ظهرا فى القرن الرابع الهجرى)، فلعلهما أرادا رسم صورة نموذج طيب لحاكم قدير، حظيت مصر فى أيامه بالاستقرار والرخاء؛ كى يسعى الناس إلى من يعيد لمصر استقرارها، الذى فقدته خلال فترة ما بين العصرين (الطولونى، والإخشيدى). وبالإضافة إلى ذلك فلعلهما فى تتبعهما حياة هذا القائد من البداية حتى النهاية – بإيجابياتها وسلبياتها – يقدمان للناس العبرة والعظة، فلعله يوجد من بين أبناء مصر من يضطلع بقيادة وطنه، مستفيداً مما مر به ابن طولون من تجارب، فيفيد من حسناته، ويتجنب زَلاَّته.

أما البلوى، فقد وضع لنفسه مقدمة بيَّن فيها ما يلى[١]:

أ- أنه كتب كتابه هذا؛ تلبية لرغبة رجل عظيم عزيز لديه[٢]، طالع سيرة ابن الداية، فلم تقع منه الموقع الذى كان يتمنى، و لم تحقق المعنى الذى إليه قصد، فهى سيرة موجزة، وهو يريد كتاباً أكبر منه شرحاً، وأكمل وصفاً، ثم إن ابن الداية لم يأت بجميع أخبار (أحمد بن طولون)، ولا أخبار ابنه (خمارويه)، رغم ما كان من جميل أفعاله، وحسن آثاره. و لم يأت بأخبار سائر إخوته بعدُ. فهو - إذاً - يريد كتاباً عن سيرة (آل طولون)، لا (ابن طولون) وحده.

ب- أن هذا العظيم أخذ على ابن الداية فى سيرته أنه لم يراع ترتيب الأحداث وتسلسلها ومنطقيتها على النحو الصحيح، ففى كتابه خلط فى الأخبار، فهو يشرح قصة، ثم يرجع إلى ما قبلها قبل إكمالها، وكذلك يأتى برواية تدل على ذكاء عقل ابن طولون وفطنته، ولطيف حسه، ثم يأتى بضدها. وبذلك خالف طريقة العلماء فى تدوين الأخبار والتأريخ للأحداث.

جـ- بناء على ما وُجِّه من نقد إلى كتاب ابن الداية، بذل البلوى جهده لتلافى سلبيات سلفه، فذكر أنه لم يَدَعْ من أخبار جماعتهم (أى: آل طولون) شيئاً يدخل فى التاريخ، ويُتأدَّب به، ويُستحسن ذكره إلا ذكره، وأنه جعل ذلك مرتباً على أبواب، وجعل محتوى ومضمون كل باب متفقاً مع العنوان الذى ذكره له، وعنون له به، فلم يخلط بالباب ما ليس داخلاً تحته.

وهكذا، كان ابن الداية أستاذاً ورائداً لكتابة السير التاريخية، وأنه وقعت منه هَنَات، وأن البلوى أتى لاحقاً له، فحاول سد الثغرات، وعلاج السلبيات. فهل وَفَّى البلوى بما وعد به من قواعد منهجه ؟ ذلك ما يتضح فى الصفحات التالية.

ثانياً - من حيث الإيجاز والتفصيل، وما يترتب عليهما من غموض، أو وضوح فى العرض التاريخى:

هذه القضية المنهجية نعرض لها؛ لأنها تقفنا على أمرين:

أ- التحقق من مدى صدق منهج البلوى، الذى صاغه فى مقدمته، وهل نجح - فعلاً - فى الإتيان بما تغاضى عنه ابن الداية، وفصّل ما أجمله ؟

ب- الوقوف على العلل الكامنة وراء طريقة هذا أو ذاك، وربطها بموضوع الرواية من جهة ومنهج كل منهما من جهة أخرى.

---

(١) سيرة البلوى صـ٣١- ٣٢.

(٢) سبق أن رجحتُ أن تلك الشخصية المهمة هى شخصية (الوزير على بن عيسى بن الجراح).

بعد البحث والتحقيق فى روايات كليهما تبين لى أنها من حيث الإيجاز والتفصيل، والإتيان والإهمال كما يلى:

١- روايات ذكرها كلاهما، لكن **ابن الداية** أجملها فغمضت، **والبلوى** فصّلها فوضحت:

مثال ذلك: الرواية الذى ذكر فيها **ابن الداية** أن ابن طولون خرج متنزهاً يوماً، فرمى بقوسه حماماً فصرعه، فإذا به يجد فى أصل جناحه رقعة فيها ما نصه: " قد استراح مولاى. خذوا حذركم، واستتروا، وكل مالكم معكم، فقد عصى الأميرَ لؤلؤٌ، وقَبلَ الخَلْع ". فأمر ابن طولون فى تلك الساعة بإحضار خادم لشقرون جارية لؤلؤ، كان يتحرك، فقال: " من كان منكم عليلاً فى عسكر لؤلؤ ؟ ولمن تسرح حمام ؟ قال: ليس فى دارنا طائر يسرح به. فوكّل بعبيد الله بن سليمان "[١].

هذه الرواية تفيد خروج لؤلؤ على مولاه، وهربه بالأموال، وما وجد فى جناح الطائر هو رسالة تفيد وجود مريض ما عوفى. ولا نفهم سر القبض على عبيد الله هذا. وهكذا، أدى الاختصار الشديد إلى الغموض.

أما البلوى، فقد عرض لمضمون القصة ذاته، لكنه أورد من الإضافات ما جَلّى به الغموض، فتذكر روايته أن ابن طولون لَمَّا وقف على نص الرسالة، الذى يحدد المولى المستريح (مولاى محمداً)، ولعله (محمد بن سليمان كاتب لؤلؤ، ومحرضه على عصيان ابن طولون)، وكذا يفيد الغدر بابن طولون فى قول: " وارفعوا كل شئ، فقد عصى الأميرَ لؤلؤٌ؛ أمَرَ ابن طولون من وقته بإحضار خادم، كان على مُخَلّفِى لؤلؤ (أى: ممتلكاته التى تركها فى مصر)، وسأله ابن طولون: من منكم له حمام هدى ؟ وهذا التساؤل أوضح من تساؤل رواية ابن الداية: ومن لكم عليل فى عسكر لؤلؤ ؟ وهو أدق وأوضح من رواية ابن الداية (فهو يبعد التهمة عن المسئول هنا). وكان الجواب: ليس فى دارنا - يا مولاى - حمام هدى، ولكن لعبيد الله بن سليمان أخى كاتبنا محمد طيور تسرح، وقد كان مغموماً بعلّة أخيه (محمد بن سليمان). فأمر مولاى (ابن طولون) بالقبض على عبيد الله بن سليمان من ساعته[٢].

هكذا، اتضح لمن هذا الحمام ؟ ومَنْ ذا أرسل الرسالة ؟ ومن محمد العليل ؟ ولم كان القبض على عبيد الله هذا ؟

---

(١) سيرة ابن الداية ١٢٦.

(٢) سيرة البلوى ٢٨٠.

٢- ما أجمله البلوى، وفصّله ووضحه ابن الداية:

وهذا على غير ما اعتاد البلوى. ومثاله[١]: أنه فى الوقت الذى فصّل فيه البلوى فى أوصاف الغلمان، الذين يتقوى بهم ابن المدبِّر، ويكتسب عن طريقهم الهيبة، أكثر مما أورده ابن الداية بهذا الشأن، إذا بنا نجد البلوى يكتفى فى ذكر هدية ابن المدبِّر لابن طولون لما دخل مصر، برصد قيمتها (١٠ آلاف دينار) دون تفصيل أصنافها وأنواعها كما فعل ابن الداية[٢]. والحق أن البلوى فصّل حيث يجب التفصيل، فمناط اهتمام ابن طولون هو هؤلاء الغلمان؛ ولذلك فصّل البلوى فى ذكر أوصافهم، فهم الذين طلبهم ابن طولون بعد ذلك، فاعتز بهم، وسلب ابن المدبِّر هيبته. أما ما أهداه إليه ابن المدبِّر فليس محل اهتمامه وقام بردِّه، فلا يستأهل التفصيل والذكر مع رجل يستهدى أشياء معينة، ففطن إلى ذلك ابن المدبِّر، وأحس بخطره عليه ابتداء من هذا الموقف.

٣- روايات تفرد بذكرها البلوى:

توجد نماذج عديدة دالة على اهتمام البلوى بإيراد روايات مفصلة جديدة ذات أبعاد مهمة، مثل: الرواية التى تذكر مدى قرب الواسطى من ابن طولون، حتى إنه كان إذا عاتبه ضربه بيده، مما يعد تشريفاً للواسطى؛ إذ يعامله ابن طولون كبعض ولده[٣]. وفى الوقت نفسه يورد روايات عن النظام الجاسوسى، الذى ابتدعه ابن طولون فى مصر؛ ليضمن لنفسه الأمان، حتى جعل أقرب غلمان الواسطى جاسوساً على الواسطى نفسه لصالح سيده ابن طولون؛ مما جعل الواسطى يزداد هلعاً وحذراً لمّا اكتشف ذلك[٤]. وكذلك الروايات الدالة على ابتداعه نظام التجسس على المسجونين فى حبسهم، ورصد ما يقولون عليه عن طريق عيونه داخل السجن[٥].

٤- روايات تفرد بها ابن الداية:

معلوم أن ابن الداية تَوَخَّى الإيجاز فى كتابه، لكن ميوله الأدبية شَدَّتْه لذكر رواية عن العجوز أم عقيل، التى أتت تتظلم إلى ابن طولون، فأعجب بفصاحتها وظرفها[٦]. فلعل البلوى رأى أن إيراد غير هذه الرواية أولى، فكتابه مملوء بأخبار دالة على عدل ابن طولون وسماع المظلومين. وأورد ابن الداية رواية أخرى لم يذكرها البلوى، فيها يعاقب ابن طولون أبا أيوب صاحب

(١) وهناك مثال آخر على هذه الحالة، يتعلق بحال الواسطى، والمستعين، وابن طولون لما قدم سعيد الحاجب لقتل المستعين، وما فصّله ابن الداية من نتائج رفض ابن طولون قتل المستعين. (سيرة ابن الداية ٧٥، والبلوى ٤١- ٤٢).

(٢) سيرة ابن الداية ٧٧ ٧٨، وسيرة البلوى ٤٣- ٤٤.

(٣) المصدر السابق: صـ١١٣- ١١٤.

(٤) المصدر السابق: صـ١١٤- ١١٥.

(٥) المصدر السابق: صـ١١٥- ١١٧.

(٦) سيرة ابن الداية: صـ١٠٣.

الخراج؛ لاستجابته لابنه العباس لما شق عصا الطاعة، وأخذ أموالاً من التجار لحساب العباس[١].

والحق أن هذه الرواية تلقى ضوءاً جديداً على تداعيات خروج العباس على أبيه، والعقوبات التى أنزلها ابن طولون بالمشاركين – ولو بالسلبية – فى حادث خروج ابنه العباس عليه.

وهكذا، يمكن القول بأن الغالب تفصيل البلوى فى رواياته، وإيجاز ابن الداية. وكلاهما له غرض وفلسفة، تحكم طريقته فى العرض التاريخى حسب موضوع الرواية، ومنهجه العام الذى يتوخاه.

ثالثاً – من حيث القدرة على توظيف اللغة والأدب تاريخياً:

تمتع كل من: (**ابن الداية، والبلوى**) بمقدرة لغوية وأدبية عالية، استطاعا حسن توظيفها فى العرض التاريخى للأحداث. فابن الداية كان يستخدم لفظة (السلطان)[٢]، ويعبّر بها عن الخليفة العباسى؛ إشارة إلى ضعف الخلفاء فى عصره، وازدياد نفوذ الأتراك (خاصة عهدى المستعين، والمعتز).

وكان يستخدم لفظة (الحَضْرَة)[٣] تعبيراً عن عاصمة الخلافة (سواء بغداد، أم سرَّ مَنْ رَأى). وهو يشير بذلك إلى أهميتها فى تواجد رجال البلاط بها من أتراك وغيرهم حول الخليفة العباسى، وتأثير قراراتها فى مصر، ومكانة ابن طولون فيها. ولفظة (تَعَالَم)[٤] التى أفادت أن الأتراك أعلم كل منهم الآخر، وتبادلوا الحديث عن مَكْرُمات ومآثر ابن طولون، وشهامته، ورفضه قتل الخليفة المستعين بنفسه. فهى تعنى أنه صار مَحَطَّ الأنظار، ومثار الإعجاب والإكبار، حتى صار يُؤتَمن على (الأسرار، والأموال، والفروج)[٥].

أما البلوى، فقد كان بارعاً فى استعراض ثقافته الشعرية المرتبطة بالحدث التاريخى الذى يشرحه. وفى كتابه أمثلة كثيرة على ذلك، منها:

أ- أن ابن طولون لما تَوَجَّه إلى الشام بعد وفاة ماجور التركى، لقى بها (أحمد بن وصيف) بدمشق، حيث كان المهتدى نفاه إليها، وقد انضم إلى ابن طولون هو وجماعة قواد ماجور. وقد عَرّف به البلوى، فذكر أنه (وصيف الكبير التركى)[٦]. الذى يقول فيه الشاعر،

---

(١) المصدر السابق: ١٢٥.

(٢) السابق: ٧٧، ٨٠.

(٣) سيرة ابن الداية: ٧٨، ٨٣. (٤) السابق: ٧٤.

(٥) السابق. ويلاحظ فى هذا التعبير دقة فى الأداء اللغوى، فالمرء يحفظ السر القولى، ثم يترقّى عند الناس فيأتمونه على أموالهم، وأخيراً يصل إلى قمة الثقة بـــ(حفظه وصيانته الأعراض). وهذا يدل على أن ابن طولون بلغ الغاية والمنزلة السامية عند الأتراك.

(٦) الصواب: أن يقول: هو ابن وصيف الكبير التركى.

وفى بُغَا أبى موسى[١]:

خليفـــة فى قفـــص   بـــين وَصيـــف وبُغــا
يقـــول ما قـــالا له   كمـــا تقـــول البَبَّغـــا

ثم قال البلوى: " والخليفة الذى قيل هذا فيه هو المستعين بالله؛ لأنه كان يؤثرهما جداً، ويقَدّمهما، ويفضّلهما، ويقول برأيهما "[٢].

أ- واستشهد بشعر كثير؛ كى يُعَمّق حقيقة نفسية تاريخية، عرفها عن أحمد بن طولون من واقع تجارب ومجريات حياة هذا الأمير. لقد رفض سيما الطويل الاستسلام لابن طولون والاعتذار إليه، حتى عَرّض نفسه للقتل. قال البلوى معلّقاً: وأحمد من طبعه أنّ مَـنْ لايَـنَه واستسلم إليه، رأى منه كل ما يحبه، وبلغ منه كل ما يريده. ومن خاشَنَه أو قاومه، لم يُطِقْه، وكافأه بما يستحقه، كما قال الشاعر:

وكالسيف - إنْ لايَنْتَهُ - لاَنَ مَتْنُه   وحَدّاه - إن خاشَنْتَه - خَشِنان[٣]

رابعاً - من حيث القدرة على ترتيب الأحداث وتسلسلها المنطقى، وتنظيم المادة العلمية:

هذا العنصر المنهجى المركب على درجة كبيرة من الأهمية؛ لأنه ذو صلة جدّ وثيقة بفهم النص التاريخى. إننا نبحث عند التأريخ لحادثة ما عن عناصرها، ونجمع خيوطها منسقة مرتبة، وننظر فى تطورها التاريخى؛ حتى نصل إلى فهم منطقى لها. وبالنظر إلى سيرتى ابن الداية والبلوى، فإن بحث هذه القضية المنهجية **ينقسم إلى شقين:**

الأول - مدى قدرة كليهما على عرض (سيرة أحمد بن طولون) بطريقة منظمة، تسلم كل فكرة فيها إلى الفكرة التى تليها، وترتبط بها برباط منطقى دقيق، حتى نهاية الكتاب. ويراعى فى ذلك التسلسل الجانب الزمنى، وأعنى به اهتمام كل منهما بتوقيت الأحداث التاريخية، التى

---

(١) ومن الخطأ أن يعد (بُغا)، الذى ورد فى بيتى الشعر المذكورَيْن، هو الكبير أبا موسى؛ لأن الذى صحب (وصيفاً)، وكانت له معه السيطرة على المستعين (٢٤٨- ٢٥١هـ) هو (بُغا الصغير الشّرَابىّ). ودليل على صحة ذلك أن (بُغا الكبير) توفى بعد مبايعة المستعين بوقت قصير، لا يسمح بما وُصف من سيطرة كبيرة على المستعين (بويع المستعين فى السادس من ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ، وتوفى بغا الكبير - بعد مرض قصير - فى منتصف جمادى الآخرة من العام نفسه). (تاريخ الطبرى ٩/٢٥٦، ٢٥٨، وتاريخ الإسلام ١٨/١٨٦). وبناء على ما تقدم، يكون وصيف وبُغا الشرابى الصغير هما المقصودَيْن فى هذا الشعر. (قُتل أولهما سنة ٢٥٣هـ، وثانيهما سنة ٢٥٤هـ). (تاريخ الطبرى ٩/٣٧٤، ٣٨٠، وتاريخ الإسلام ١٩/٩٣- ٩٤).

(٢) سيرة البلوى صـ٩٣.

(٣) السابق: صـ ٩٤- ٩٥.

يعرضانها، فذلك أمر غاية فى الأهمية لإدراك الترابط الموضوعى والمنطقى بين جزئيات الكتاب.

والحق أن لدىَّ ملاحظات على هذا الجانب، أركزها فيما يلى:

١- أن الترابط والتسلسل الموضوعى فى كلا الكتابيْن متحقق فى مواضع كثيرة منذ بداية أحمد بن طولون والحديث عن أصل والده، ومولد أحمد، ووفاة والده طولون، ورعاية أصدقاء والده له، وانخراطه فى سلك الجندية، ومرابطته فى طرسوس، وما قيل عن شجاعته فى الدفاع عن قافلة بها مقتنيات للخليفة (المستعين). وكان ذلك سبباً فى ارتفاع مكانته لدى الخلافة، واشتهاره بين الأتراك وعلو منزلته، مما سهّل له – عند بايكباك – أمر نيابته عنه فى ولاية مصر. ويستمر الكتابان فى الحديث عن دخوله مصر وتاريخ ذلك، وما جوبه به من حسد وحقد ابن المدبر وشقير، وصراعه معهما، حتى تخلص من شرهما. وتمضى الأحداث لتوضح أن موت بايكباك وتولى يارجوخ مصر كان خيراً على ابن طولون، الذى ازداد نفوذه فى مصر نيابة عن ذلك الرجل، الذى ما إن توفى حتى دانت مصر كلها له. ويواصل المؤرخان متابعة بقية أحداث فترة حكم ابن طولون فى مصر وأعماله، وعلاقته بالخلافة وبالموفـــق، وبلاد الشام، وصفاته من خلال ذلك كله، وما قام به العباس بن أحمد بن طولون، ولؤلؤ من خروج عليه وعصيانه. وهكذا، نشعر بالتناسق العام بين جزئيات السيرة حتى وفاة ابن طولون.

٢- لا يعنى ما تقدم عدم وجود اختلال – أحياناً – فى تسلسل الأحداث، فإننا نجد بعض المواضع القلقة، التى يضطرب فيها السياق التاريخى، منها:

أ- ما وقع فيه البلوى من اضطراب عندما وصل بالأحداث إلى سنة ٢٥٨هـــ، التى جعلها تاريخاً لخروج ابن المدبر من مصر – بوساطة أخيه إبراهيم – إلى الشام؛ ليلى خراج فلسطين والأردن ودمشق لما ضاق به المقام فى مصر مع ابن طولون(١). ثم إذا بنا بعد ذلك بقليل نُفاجأ به، يحدثنا حديثاً مطولاً عن ثورات وحركات تحاول الانتقاص من استقرار مصر، وتشيع النهب والسلب والتخريب فى صعيد مصر، بدءاً من سنتى ٢٥٥هـــ، ٢٥٦ هـــ(٢). وكان الأجدر والأولى به أن يقدّم هذه الأحداث أولاً، ثم يذكر خبر خروج ابن المدبر من مصر. أما ابن الداية، فلم يتناول هذه الحركات أصلاً. وقد يُرَدّ على ذلك بأن البلوى أراد تجميع تطورات علاقة ابن المدبر بابن طولون فى إطار واحد، فواصل الكلام عليه حتى نهاية مرحلة من مراحل الصراع بينهما (٢٥٨هـــ). والحق أن الصراع مع ابن المدبر استمر ولم يتوقف حتى نجح ابن طولون – كما عرفنا من قبل – فى إحضاره إلى مصر وحبسه بها حتى وفاته (قبل وفاة ابن طولون بقليل).

---

(١) سيرة البلوى: صـــ٦٠.

(٢) المصدر السابق: صـــ٦٢- ٧٠.

وكان الأصح أن يأتي بتاريخ هذه الحركات في مكانها وميقاتها الصحيح، ويبين من خلالها كيف واجه ابن طولون دسائس ابن المدبر بالعاصمة، وحركات الخارجين بالصعيد معاً، مما كان سيعطى بعداً جديداً لسياسته.

ب- وقع ابن الداية في شئ من الاضطراب في سوق الأحداث التاريخية، وذلك عندما أورد - أولاً - أوامر الموفق إلى (موسى بن بغا) بالتحرك بجيوشه إلى مصر؛ لإخراج ابن طولون منها، وأصدر تقليداً إلى ماجور بولاية مصر بدلاً منه[١]. ثم بعد ذلك ذكر كتاب ابن طولون المطول إلى الموفق رداً على كتاب سابق أرسله الموفق إليه[٢]. والحق أن البلوى تدارك هذا الأمر، فعكس الترتيب، وهو الأمر المنطقي المقبول[٣]. فالذي حدث - أولاً - هو رد ابن طولون الشديد اللهجة على الموفق، وتهديده إياه بجيوشه الجرَّارة، لما استقلّ الموفق ما أُرسل إليه من خراج مصر[٤]، فكانت النتيجة أن غضب الموفق غضباً شديداً، وأحس بخطورة ابن طولون على الخلافة، وإمكان استقلاله بمصر؛ مما حَرَّكه سريعاً لمطالبة موسى بن بغا بطرد ابن طولون من مصر بالقوة، وتولية ماجور بدلاً منه[٥].

جـ- وقع ابن الداية في خلط آخر، عندما ذكر قصة مطولة بإطلاق ابن طولون يوسف بن إبراهيم من محبسه سنة ٢٦٤هـ، تبعها بأخبار خروج ابن طولون إلى الشام أواخر العام المذكور[٦]. وبعد ذلك ذكر موضوع خروج العباس على أبيه، وحدد تاريخ إعادته إلى مصر أسيراً بسنة ٢٦٧ هـ[٧]. إلى هنا والتسلسل في الأحداث قائم متحقق، لكنه بعد ذلك مباشرة يورد خبراً لا مناسبة لذكره في هذا الموضوع، إذ يذكر إرسال أبي الفتوح محمد بن الفتح بن خاقان أخته خديجة زوجة لابن طولون، الذي كان عقد عليها بوساطة المعتمد سنة ٢٦٠هـ، وأن أحمد كافأ أخاها بعد هذا العقد، فولاه ديار مُضَر. ويواصل ابن الداية روايته غير المتسقة مع الأحداث السابقة عليها، فيشرح لنا مكاتبات محمد بن الفتح إلى ابن طولون يخبره فيها بإلحاح الوزير الحسن ابن مَخْلَد المَنْفيّ بالرقة عليه برغبته في القدوم إلى مصر؛ ليقيم إلى جوار ابن طولون، ثم يورد تبسط الحسن - بعد مجيئه إلى مصر - مع ابن طولون، وعدم توقيره إياه، وخروجه عن اللياقة في مجلس

---

(١) سيرة ابن الداية: صـ٨٨.
(٢) السابق: صـ٨٩- ٩١.
(٣) سيرة البلوى: صـ٨٥- ٨٧، ودكتوراه حسن حبر صـ١٤٦.
(٤) سيرة البلوى: ٨١.
(٥) السابق: ٨٥.
(٦) سيرة ابن الداية: ١١٥.
(٧) سيرة ابن الداية: صـ١٢٢.

شراب حضره ابن طولون؛ مما أغضبه عليه، فأمر بحبسه، حتى خرج إلى الشام فمات هناك[١]. ولما كان معلوماً أن هذا الوزير توفى حوالى سنة ٢٦٩هـ، فذلك يعنى أن ابن الداية ارتد بالحديث من سنة ٢٦٧هـ إلى حدث وقع سنة ٢٦٠هـ، أعقبه بآخر انتهى سنة ٢٦٩هـ؛ مما يدل على اضطراب شديد فى روايته التاريخية، وعدم اتساقها مع ما قبلها.

ولم يكن البلوى أحسن حالاً من ابن الداية فى معالجة وعرض هذه الجزئيات؛ إذ إنه عرض لأحداث خروج ابن طولون إلى الشام واضطراره للعودة؛ لعلمه بخروج ابنه العباس عليه[٢]. ثم عرض لصفة من صفات (ابن طولون)، وهى (دهاؤه وجودة رأيه وحزمه)، وأخذ يسوق من الشواهد التاريخية ما يبرهن به على تحققها فيه، حتى انتهى منها[٣]، وانتقل إلى صفة أخرى، وهكذا[٤] حتى وصل إلى ما يسميه بـ(عجيب أخبار ابن طولون)، أورد خلالها خبر إطلاق سراح(يوسف بن إبراهيم)[٥] من محبسه، وأتى بقصة غريبة لا تُصدّق[٦]. وأخيراً، عرض لخبر زواج ابن طولون من أخت (محمد بن الفتح)، وما حدث بينه وبين

---

(١) السابق: ١٢٣. وجدير بالذكر أن (الحسن بن مَخلدَ) ولى ديوان الضيّاع للمتوكل سنة ٢٤٣هـ (تاريخ الطبرى ٢٠٩/٩). وكانت له مشاركة ونفوذ فى الأحداث ببغداد (السابق: ٢١٤/٩- ٢١٧، ٢٥٩، ٣٢٤- ٣٤٢، وغيرها). ثم ولاه المعتمد الوزارة للمرة الأولى فى ذى القعدة سنة ٢٦٣هـ، فوليها أياماً، ثم هرب لما قدم موسى ابن بُغا سَامَرّا، فولّى موسى (سليمانَ بن وهب) مكانه (السابق ٥٣٢/٩). ومعنى هذا أن ابن الداية، والبلوى لم يكونا دقيقيْن لّما ذكرا أن ابن طولون كاتَب (يارجوخ) المتوفى يوم الجمعة ٨ رمضان ٢٥٨هـ (تاريخ الطبرى ٥٠١/٩، وسيرة البلوى ١٥٣)، وكذلك الوزير الحسن بن مخلد، وأعطاهما أموالاً كثيرة؛كى يستخدما نفوذهما فى عاصمة الخلافة؛ لتثبيت ابن طولون فى حكم مصر. (سيرة ابن الداية ٨٤، والبلوى ٥٧- ٥٨)؛لأن ابن مخلد- آنذاك-لم يكن وزيراً بعد، وما ولى الوزارة إلا بعد وفاة يارجوخ. ولعله أيامها كان صاحب نفوذ فى بلاط العباسيين(ماجستير:الطولونيون فى مصر ومفهوم الاستقلال السياسى)، لأحمد السيد شحاتة صـ٦٧(هامش٥). وفى سنة ٢٦٤هـ، وبالتحديد يوم ٢٧ من ذى القعدة، استوزر المعتمد الحسن ثانية بعد غضبه على (سليمان بن وهب). (تاريخ الطبرى ٥٤٠/٩)، لكن سرعان ما هرب من الموفق، الذى قبض أمواله، وأموال عماله (السابق ٩ /٥٤١). ويذكر الذهبى أن الحسن ولى الوزارة ثالثة سنة ٢٦٥هـ، ثم سُخط عليه فى شعبان منها من قبل المعتمد، فانسحب إلى مصر حيث ابن طولون. ثم وُشِيَ به عنده، واتُّهم بأنه عين للموفّق عليه، فسُجن وعُذّب حتى هلك ٢٦٩هـ. (تاريخ الإسلام ٨١/٢٠). والصواب - عندى - ما ورد عن ابن الداية، والبلوى: أنه كان منفياً بالشام، فكاتب محمد بن الفتح بن خاقان صهر ابن طولون بشأن رغبته فى المجئ إلى مصر، فاستقبله ابن طولون - فيما أرى - بدايات ٢٦٦هـ، حتى غضب عليه، وحبسه؛ لتجاوزه حدود الأدب معه. ثم أخرجه معه إلى الشام ٢٦٩هـ، فمات فى الطريق. (سيرة ابن الداية ١٢٣، و سيرة البلوى ١٧٣- ١٧٥).

(٢) المصدر السابق: ٩١-١٠١.

(٣) هى صفة (دهاء ابن طولون، وجودة رأيه، وحزمه). (السابق: صـ١٠١- ١٢٢).

(٤) ثم عرض لفراسة ابن طولون (السابق: ١٢٢- ١٤٠)، ثم حُسْن تَأتّيه، وبطلان كثير مما يُشنّع به عليه (السابق ١٤٠- ١٥٣).

(٥) السابق: ١٦٤- ١٦٨.

(٦) سيرة البلوى: ١٦٨- ١٧٣.

(الحسن بن مخلد)[١].

وهكذا، لا نرى انسجاماً بين المرويات المتتابعة وإن كان عذر البلوى يتمثل فى تعرضه لصفات ابن طولون بالموضوع، وتدليله على كل صفة بعدد من الأحداث والوقائع غير المتعاقبة من الناحية الزمنية؛ لاهتمامه بالموضوع على حساب الترتيب الزمنى، لكنه لا يُغفر له عدم انطباق العنوان على بعض أمثلته الواردة تحته أحياناً[٢]، وفصله بين صفة وأخرى من صفات ابن طولون بروايات لا علاقة لها بما قبلها[٣]، ولا رابط بينها وبين ما بعدها[٤].

٣- من أهم واجبات المؤرخ الأساسية ذكر توقيت الأحداث بدقة، وقد عُنى ابن الداية بذكر تواريخ عدد من الأحداث المهمة، مثل: تاريخ ميلاد ابن طولون (٢٢٠هـ)[٥]، وتاريخ وفاة والده (٢٤٠هـ)[٦]، وتوقيت ميلاد أبى الجيش ابنه[٧]. وحدد بدقة - باليوم، والشهر، والعام - تاريخ دخول (أحمد بن طولون) مصر والياً عليها نائباً عن بايكباك[٨]، وتوقيت سيطرة ماجور التركى على الشام بعد فرار عيسى بن الشيخ منه[٩]، وتاريخ إيقاع ابن طولون بأخيه موسى ونفيه إلى الثغر[١٠]، وتاريخ ولاية أحمد بن محمد بن أخت الوزير على خراج مصر[١١]، ووفاة ماجور عامل الشام[١٢]، وتاريخ قتل سيما الطويل ودخول ابن طولون طرسوس[١٣]، وسِنّ ابن طولون لما دخل إلى مصر، وعمره[١٤].

---

(١) السابق: ١٧٣- ١٧٥. ويلاحظ أن البلوى ذكر - هنا - وصول (خديجة بنت الفتح بن خاقان) أخت (محمد بن الفتح بن خاقان) إلى مصر؛ ليبنى بها ابن طولون، وذلك بتاريخ آخر سنة ٢٦٥هـ بعد أن كان المعتمد عقد بين ابن طولون وخديجة هذه نكاحاً، لم يحدد البلوى تاريخه. أما ابن الداية، فاكتفى بتحديد تاريخ العقد فقط (٢٦٠هـ). (سيرة ابن الداية ١٢٣). وبذا يكمل كل منهما الآخر فى هذه المعلومة.

(٢) كما حدث فى استطراده بروايات متعاقبة عن موقفه من الكتابة والكُتّاب فى مصر بعد إيقاعه بالكاتب (ابن مفضّل)، بما لا يتفق مع صفة ابن طولون المبرهَن عليها (إنصافه، وحسن تأتّيه). (سيرة البلوى ١٤٢- ١٤٨).

(٣) وذلك عندما أتى برواية، تتعلق بموت (بارحوخ)، وتتحدث عن أولاده من بعده، وموقف ابن طولون منهم، وإحسانه إليهم؛ وفاء لوالدهم. (سيرة البلوى ١٥٣- ١٥٤). وهى لا علاقة لها بحسن تأتّى ابن طولون، ونُطْلان كثير مما يُشنّع به عليه.

(٤) وكذلك لا رابط بينها وبين حكاية الخراسانى، الذى لقى جزاء خيانته جارَه؛ لأنه اعتدى على عرضه (السابق ١٥٤- ١٥٦).

(٥) سيرة ابن الداية: ٧٤.

(٦) المصدر السابق: ٧٤

(٧) ولد منتصف المحرم سنة ٢٥٠هـ من جاريته (ميّاس). (السابق: ٧٥).

(٨) السابق: صـ٧٦: (يوم الأربعاء لسبع ليال بقين من رمضان سنة ٢٥٤هـ).

(٩) المصدر السابق: ٨١ (سنة ٢٥٧هـ).

(١٠) السابق: (٢٥٨هـ).

(١١) السابق: ٨٤ (٢٥٨هـ).

(١٢) السابق: ١١٥ (٢٦٤هـ).

(١٣) السابق: ١١٧ (المحرم سنة ٢٦٥هـ)

(١٤) السابق: ١٣١. (كان سِنّه ٣٤ سنة، ويوماً واحداً، وعاش ٥٠ سنة).

وعُنِيَ **البلوى** بذكر بعض التواريخ المهمة أيضاً، مثل: تاريخ وفاة موسى بن بغا[١]، وتاريخ مسير ابن طولون نحو الشام بعد وفاة ابن بغا[٢]، وحدد بدقة تاريخ وفاة أحمد بن طولون[٣].

ملاحظة:

لا يعنى ما تقدم من أمثلة دلّلنا بها على اهتمام ابن الداية والبلوى بتوقيت الأحداث التاريخية، أنهما سَدَّا كافة الثغرات فى هذا الشأن. إن هناك أحداثاً على درجة من الأهمية فى حياة ابن طولون لم يذكرا تواريخ وقوعها، مثل: تاريخ حركة أبى رَوْح[٤]، وثورة أهل برقة بعاملهم[٥] (لدى البلوى). ولم يهتم كلاهما بذكر تاريخ وفاة الوزير الحسن بن مخلد[٦]، وكذلك لم يُذكر تاريخ (تقليد المعتمد ابنَ طولون الشام كله مضافاً إلى الثغور الشامية)[٧]، وتاريخ عودة ابن طولون إلى مصر بعد علمه بخروج ابنه العباس عليه[٨]، وكذلك تاريخ القضاء على كل من شقير الخادم[٩]، وابن المدبر[١٠]، وتوقيت ورود الكتب بتقليد محمد بن هلال خراج مصر بعد عزل ابن المدبر[١١]، وتاريخ عود ابن المدبر لمنصبه ثانية[١٢]، وتاريخ خروج لؤلؤ غلام ابن طولون عليه[١٣]، وكذلك تواريخ منشآت ابن طولون، مثل: تحصين جزيرة الروضة[١٤]، وتاريخ، بناء جامعه[١٥]، وإنشاء بيمارستانه[١٦]، وغيرها من المشروعات المفيدة.

---

(١) سيرة البلوى: ٨٧ (صفر سنة ٢٦٤هـ).

(٢) السابق: ٩١ (شوال ٢٦٤هـ)

(٣) السابق: ٣٤٣ (بعد ذهاب طائفة من ليلة الأحد، لعشر ليال خلون من ذى القعدة سنة ٢٧٠هـ).

(٤) سيرة البلوى: ٦٧.

(٥) السابق: ٧٠.

(٦) راجع: تحقيقى وترجيحى بشأنه من قبل فى هذا الفصل.

(٧) سيرة البلوى: ٩٢.

(٨) سيرة ابن الداية: ١١٨، و سيرة البلوى: ١٠١، ٢٤٤.

(٩) لم يحدد ابن الداية تاريخ ذلك صراحة، وإن أشار إليه إشارة خَفِيَّة، لما ذكر أن ذلك كان فى الجمعة التى وصل فيها إلى مصر نبأ حادث المعتز (وفاته). (سيرة ابن الداية ٧٩). فلعله كان سنة ٢٥٥هـ. أما البلوى، فلم يُشر مطلقاً فى روايته إلى تاريخ ذلك (سيرته صـ٥٨- ٥٩).

(١٠) ظل فى محبس ابن طولون، حتى عَمِيَ ومات (دون ذكر وفاته). (سيرة ابن الداية ١٢٥، و سيرة البلوى ١٧٨).

(١١) و(١٢) سيرة ابن الداية ٧٩: و سيرة البلوى ٥٩.

(١٣) سيرة ابن الداية:١٢٦.وذكر البلوى (صـ٢٨٧): أن ابن طولون خرج للحاق بلولو. فلما بلغ الرملة، صَحّ عنده دخول لؤلؤ العراق (آخر سنة ٢٦٨هـ)، ولم يحدد بالضبط متى أعلن العصيان. بينما ذكر الطبرى أنه أظهر الخلاف سنة ٢٦٨هـ (تاريخه ٦١١/٩).

(١٤) سيرة ابن الداية: ٨٨، وسيرة البلوى ٨٦- ٨٧.

(١٥) المصدر السابق: صـ٥٦.

(١٦) المصدر السابق: صـ١٨٠- ١٨٣.

وربما يُعتذر عنهما بأنهما ركزا اهتمامهما بذكر مواقيت الأحداث الرئيسية، وما دونها فى الأهمية يشار إليها إشارات غير مباشرة، يُترك للقارئ تحديدها تقريباً. فكلاهما لا يكتب تاريخاً حولياً يسردان لنا فيه ما وقع – بالضبط – كل عام من أحداث، وإنما يحاولان إبراز الجوانب المهمة فى حياة الشخصية التى يكتبان سيرتها، وقد تفوتهم فى ثنايا ذلك بعض التواريخ.

الشق الثانى – تنظيم المادة العلمية، وحسن توزيعها:

وهذه جزئية مكملة للكلام السابق، ونبحثها على مستوى **البلوى فقط**، فهو صاحب المادة التاريخية الغزيرة المتنوعة المتشعبة، التى تحتاج إلى حســـن تنظيم وتوزيع، بحيث يعرف صاحبها متى يفصّل، ومتى يوجز إلى حين يأتى مكان التفصيل. أما ابن الداية فكتابه المختصر، ومادته الموجزة لم تلجئه كثيراً إلى ما لجأ إليه البلوى.

ويمكن تناول هذه الجزئية فيما يلى:

أ- تناول البلوى حياة ابن طولون فى قسط كبير من كتابه على هيئة استعراض لصفاته واحدة تلو الأخرى، فكان يأتى بالسمة كعنوان جانبى، ثم يسوق عليها ما تيسر له من الأدلة والشواهد التاريخية من حياة ابن طولون مما يصلح أن يندرج تحتها ويدعمها[١].

ب- كان يكتفى فى بعض المواضع بذكر قدر من المادة العلمية يناسب ذلك الموضع، ثم يَعد بذكر البقية فى مكان يأتى بعدُ أشد مناسبة له. ومن أمثلة ذلك: حديثه عن حركة البناء والعمران التى شادها ابن طولون، فتناول: بناء العين والجامع، وكلاهما بناهما رجل نصرانى حاذق بالهندسة. ثم أمسك عن تفصيل ما يتعلق بدور هذا المهندس، وقال: " ونحن نأتى بخبره، إن شاء الله"[٢]. وبالفعل وفّى البلوى بوعده عندما كان يحدثنا عن رغبة ابن طولون العارمة فى أعمال البر والخير، فتناول بناء العين والمسجد الطولونى، وذكر – تفصيلاً – ما قام به المهندس النصرانى فى هذا الشأن، وموقف ابن طولون منه[٣]. وتوجد عدة نماذج تؤكد لنا براعته فى امتلاك زمام مادته العلمية، وحسن توزيعها (فيما يتصل بالعباس بن أحمد بن طولون[٤]،

---

(١) كان يذكر صفات ابن طولون واحدة واحدة، ويمثّل لكل منها بما تيسر له من الوقائع التاريخية (سيرة البلوى: صـــ١٠١ وما بعدها، ١٢٢ وما بعدها، و١٤٠ وما بعدها). وكان يحسن الربط إذا استطرد – داخل الصفة الواحدة – لموضوعات وروايات ليست من صلب موضوعها. وبعد الانتهاء من الاستطراد يعود إلى موضوعه، ويقول مثلاً: " قال: وعدنا إلى أخباره المشهورة فى دهائه، وعقله، وحزمه " (السابق ١٠٦). وكذلك قوله صـــ١٤٨: (وعدنا إلى أخباره الموجبة له العذر فيما يأتيه من العقوبة).

(٢) السابق: ٥٦.

(٣) السابق: ١٨١- ١٨٣.

(٤) السابق: ١٠٦، ٢٤٤، وما بعدها.

وبموقف الموفق من نبأ وفاة ابن طولون)[١]. إلا أن البلوى خانه التوفيق مرة، فوفى بما وعد بالحديث عنه، لكن الرواية المكملة أتت متناقضة مع الأولى وغير مفهومة[٢].

جـ- وأحياناً، كان البلوى يذكر حادثة مترتبة على شئ سبق أن أشار إليه من قبل، فيذكّر القارئ بأنه قَدَّم ذكر ذلك الشئ من قبل[٣]، أو أنه ذكره فى أول أخباره[٤]؛ كى يستعيد القارئ معلوماته السابقة، ويربط بينها وبين ما يقرأ، فتكون الفكرة واضحة حاضرة لا غموض ولا انغلاق فيها.

خامساً – الاستطراد:

فيه يلتمس المؤرخ أدنى ملابسة، وأقرب فرصة؛ ليضيف جديداً من عنده (ثقافته، واطلاعه)، أو يأتى برواية تالية تكون بمنزلة التعليق، أو الإضافة والتكملة للرواية السابقة. ويكون الاستطراد مقبولاً إذا أضاف جديداً، يعمق به الحدث التاريخى وكان ذا حجم معقول. ويكون معيباً عندما يكون خروجاً عن الموضوع الأصلى، ومعرقلاً لاتصال الحدث، ومعوقاً لفهمه، ولا يضيف جديداً. والآن نلتمس هذا العنصر المنهجى الجديد عند مؤرخينا.

١- عند ابن الداية:

لا يميل ابن الداية إلى أسلوب الاستطراد فى العرض التاريخى؛ لأن هذا لا يتوافق مع الاختصار الذى توخّاه فى كتابه، لكنى – بعد النظر والتتبع – تبينتُ ثلاثة مواضع فقط يمكن أن نعتبرها من قبيل الاستطراد، **منها موضعان مقبولان:**

أ- لما أرسل ابن طولون الواسطىّ كاتبه إلى دار الخلافة؛ ليتصدى لمحاولة ماجور عزله عن ولاية مصر؛ عيّن كاتباً آخر مصرياً هو (جعفر بن عبد الغفار). وكان من الممكن انتهاء الحدث عند ذلك، لكن ابن الداية أورد رواية مطولة، فيها حوار بين الأمير وأحمد بن خاقان، تدور حول سر اختياره كاتباً مصرياً، رغم تفوق الكتّاب العراقيين. ومن

---

(١) السابق: ١٤٠، ٣٥٨، وما بعدها.

(٢) وهى تتعلق فى موضوعها بشكوى كيدية، تقدم بها (ثابت بن سليمان) إلى نسيم الخادم يذكر فيها أن أباه (سليمان) – وكان يكتب لشقير الخادم، ثم خدم ابن طولون – استودعه شقير ٤٠٠ ألف دينار، وأنه أتى لإبلاغ الأمير؛ خشية امتداد يد أبيه إليها. فأمره ابن طولون بكتمان هذا الأمر، وعدم إبلاغ أبيه بشئ من ذلك. ثم انتظر سنة حتى توفى الأب، وبعدها طالبه ابن طولون بأموال أبيه التى ذكرها من قبل، فلم يَحرْ جواباً، فضُرب ٥٠٠ سوط حتى مات، وصودرت أملاكه، وما خلّفه له أبوه؛ جزاء سعايته بأبيه كذباً وافتراء. (سيرة البَلوى صـ١٧٩، ٢٤٢- ٢٤٣).

(٣) مثال ذلك قوله: فلما أهدى إلى أحمد بن طولون الهدية – التى قدمنا ذكرها – ردها، ولم يقبلها. وبعدها بأيام كتب ابن طولون لابن المدبر يذكّره بالهدية التى ردها، ويطالبه بغلمانه. (السابق: ٤٣، ٤٤- ٤٥).

(٤) ذكر صـ١٠٦: أنه وجّه بالواسطى إلى العراق – كما ذكرنا فى أول أخباره (صـ٥٧)، واستكتب ابنُ طولون جعفرَ ابن عبد الغفار. فهو يشير إلى إرسال الواسطى إلى بغداد؛ لتقدم الرشاوى؛ كى يتم تثبيت ابن طولون فى مصر.

خلال الحوار ظهرت نجابة وفطنة الأمير فى سر اختيار الكاتب المصرى[١]. فالاستطراد – هنا – حسن؛ لأنه استُخدم لتطوير الحدث التاريخى، وإبراز ملمح مهم من ملامح شخصية (ابن طولون) موضوع الكتاب الأساسى.

ب- أورد ابن الداية رواية عن المائة ألف دينار، التى أُخذت من مجموع متاع وأموال ابن مُفَضَّل الكاتب، والتى وصَّى بها ابن طولون للحسن بن مهاجر، ثم طَور ذلك برواية تالية تجاوز فيها عصر ابن طولون، الذى يسجل ابنُ الداية (المستحسنَ من سيرته) إلى عصر ابنه (خمارويه)؛ لكى يستوفى ترجمته للحسن بن مهاجر حتى نهايتها، وفيها ذكر أن ابن مهاجر قُتل على يد خمارويه، ووجدوا له ثمانين ألف دينار، هى ما تبقى من وصية ابن طولون، وكان قد فَرَّق عشرين ألفاً فى أهله، وكان يسعى على رزقه[٢].

أما الموضع الثالث والأخير، فهو استطراد لا داعى له، ويتناول ما دار فى مجلس الكاتب (محمد بن عبد كان) عن الكاتبيْن: محبوب بن رجاء، والحسن بن مهاجر[٣]، ومقارنة بينهما لا حاجة إليها بعد أن وصل فى ترجمته إلى منتهاها فى رواية سابقة.

٢- عند البلوى:

على العكس مما سبق تكثر الاستطرادات المطولة (أحياناً)؛ نتيجة التفاصيل التى يزخر بها كتابه من جهة، ورغبته فى عرض جانب من ثقافته الأدبية والتاريخية المتنوعة، وتميزه بالقدرة على قياس الأحداث التاريخية بعضها على بعض، رابطاً بين المواقف التاريخية المتشابهة.

وأجتزئ من مواضعه العديدة بالأمثلة الآتية:

أ- بعد أن ساق رفض ابن طولون القيام بقتل المستعين على نحو ما كتبت به إليه (قبيحة) أم المعتز، استطرد قائلاً بأن أحمد بن طولون أحسن وأجمل فى ذلك، ووقف موقف الرجل التابعى، الذى رفض الاستجابة للحَجّاج، لَمّا أمره بقتل رجل، اتُّهِمَ بما أراد قَتْلَهَ بسببه، واستشهد بشعر قاله ذلك التابعى، وشرح لفظة مشكلة فيه[٤].

---

(١) سيرة ابن الداية: صـ٨٣. (٢) سيرة ابن الداية: ١٠٧. (٣) السابق: ١٠٨.

(٤) سيرة البلوى: صـ٤٠. قال فى هذا الشعر:

ولستُ بقاتلٍ رجلاً يصلى ... على سلطانِ آخَرَ من قريش
له سلطانُـه وعلـىَّ إثمـى ... معاذَ الله من جهل وطَيْـش
إذا طاوعْتُـه وعصيتُ ربى ... فما فضلى هناك على قُمَيْش

وشرح لفظة (قميش)، فقال: اسم رجل خليع ماجن مارد.

وأرى أن القياس هنا مع الفارق، فالآمر هنا قبيحة والأتراك وراءها، وهناك الحَجّاج بسطوته. والمأمور هنا ابن طولون، وهناك تابعي صالح. والمتهم هنا خليفة المسلمين دون ذنب جناه، والمتهم هناك رجل مسلم عادي اتهمه الحجاج بتهمة توجب قتله. والذى يهم البلوى — فى النهاية — هو امتناع كلا الرجلين عن جريمة قتل، يريان المحكوم عليه فيها لا يجوز قتله.

ب- فى سياق رواية عن سهر ابن طولون واهتمامه بتجريب المَنْجَنيقات[1] بنفسه، وإشفاقه على الناس أن يصيبهم أذى، ورد ذكر خليج أمير المؤمنين، فانتهز البلوى الفرصة؛ ليعرض لنا معلوماته التاريخية، واستطرد مُعَرِّفاً إيانا هذا الخليج قائلاً: إنما سُمِّى بأمير المؤمنين؛ لأن عمر بن الخطاب ﷺ قام بحفر خليج، يصل من النيل إلى القُلْزُم، وتُحمل فيه المِيرَة (الطعام) إلى الحرمين، وسمى بذلك؛ لأن عمر أول من سمى بـ (أمير المؤمنين). ثم واصل وصفه تجربة المنجنيقات، التى يشرف عليها ابن طولون بنفسه[2].

من نماذج استطراداته المعيبة:

أ- تقديمه المطول المفصَّل الذى قدّم به للصدام بين ابن طولون والموفق؛ نتيجة مطالبة الأخير بأضعاف أضعاف خراج مصر. فلما لم يجبه ابن طولون، كلّف موسى بن بغا بمهاجمة ابن طولون فى مصر. قام البلوى بالتقديم لهذا الحدث باستعراض تفاصيل إسناد محاربة الزنج إلى الموفق فى عهد المعتمد، ثم قيام الخليفة بتقسيم مملكته بين ابنه المفوَّض، وأخيه الموفق، كما فعل الرشيد مع ابنيْه (الأمين، والمأمون). واستطرد لبيان فضل المأمون على الأمين، وبيان شروط تقسيم المملكة الذى وضعه المعتمد[3]. وقد كان يكفيه تعريف مقتضب بمكانة الموفق قبل أن يعرض لخلافه مع ابن طولون.

ب- بعد أن ساق لجوء لؤلؤ إلى الموفق عاصياً مولاه، وبيّن أن محمد بن سليمان كاتبَ لؤلؤ كان شديد الفزع من ابن طولون؛ لأنه كان يؤدب الكاتب كثيراً على ذنب الصاحب، بعد ذلك قال البلوى: إنما أراد ابن طولون أن يعجل فى أمر محمد بن سليمان، كما صنع فى أمر صنم كان فى عين شمس (أى: أراد القضاء على ابن سليمان، كما حَطَّمَ صنم عين شمس، وأزاله من الوجود)، ثم استطرد يحكى قصة ذلك الصنم، وإزالة ابن طولون تلك الأسطورة سنة ٢٥٨هـ. ثم عاد يكمل كلامه عن لؤلؤ ومحمد بن سليمان، وسر تحريض الأخير لؤلؤاً

(١) مفردها: مَنْجَنيق (بكسر الميم، وفتحها). وهى لفظة دخيلة أعجمية معرَّبة، يقصد بها: آلة من آلات الحصار القديمة، كانت تُرْمَى بها حجارة ثقيلة على الأسوار، فتهدمها. وهى لفظة مؤنثة. الفعل منها: مَجْنَقَ القومُ أى: رَمَوْا بأحجار المجنيق. وأصلها بالفارسية: مَنْ جي نيكْ، أى: ما أجودَنى. (لسان العرب، مادة: مجنق، جـ٦ صـ٤١٤٢، والمعجم الوسيط ٨٨٩/٢).

(٢) سيرة البلوى: ٢٠٠- ٢٠١.

(٣) سيرة البلوى: ٧٧- ٧٩.

على عصيان مولاه[١]. وأعتقد أن هذا استطراد متكلّف لا داعى له، والقياس بينهما مع الفارق، فالصنم خرافة معروفة لا تحتاج إلى تدليل، لكن محمد بن سليمان حقيقة معروفة، ووسوسته إلى لؤلؤ، وإيقاعه بين ابن طولون ولؤلؤ مشهورة؛ لأجل مصلحته.

سادساً – الاستقصاء:

ونعنى به مدى قدرة مؤرخيْنا على العرض المتكامل لسيرة أحمد بن طولون من مختلف جوانبها وزواياها، بالإضافة إلى التعمق فى نفسيات الشخصيات والأحداث المهمة ذات العلاقة بابن طولون من خلال ما يُسرد من روايات عنها. أما بالنسبة للعرض المتكامل، فأعتقد أن ما ذكرته فى محتويات السيرتين يمكن أن يسد هذا الجانب. ويهمنى – الآن – التعرض لعدد من النماذج، يمكن من خلال رواياتها أن ندرسها من الداخل، وأن نَسْبُر أغوارها، التى هى قصد المؤرخ من إيرادها.

١– لؤم أحمد بن طولون، وشدة خُبْثه فى التخلص من (شُقَيْر الخادم) صاحب البريد[٢]:

أ– فى البداية أمر بإحضاره راجلاً من داره إلى قصر ابن طولون.

ب– أمر أن يُحرك حركة عنيفة، ويُكَدّ فى عَدْوه من داره بمصر إلى الميدان بالقطائع (ويعرف ابن طولون أنها مسافة بعيدة، وأن شقيراً مُبَدَّن مُرَفَّه يمكن أن يقتله التعب)، فوصل وقد كاد التعب والإرهاق الشديد يقتله.

جـ– لما أُوقف بين يدى ابن طولون أمر أن تُحضر السياط والعُقابان[٣]، فأُحْضِرا، وأمر بشده فى العقابين. (وهذا تمهيد لإنزال العقوبة به، وإهانة مذهلة لم يكن يتخيلها، حتى وهو قريب من الموت).

د– ثم أتى دور الحرب النفسية: غفلوا عنه وهو مُقَيَّد، ينتظر العقاب أو الموت بين لحظة وأخرى (يموت عدة مرات خلال ساعة، وظل يستغيث فيها من شدة القيد، وشدة القلق، والخوف والفزع). وأخيراً، انهارت قوته، وسقط.

هـ– ويبدو أن أحمد بن طولون أحضر مَنْ فحصه، فتبين فيه الموت. هنا أكمل ابن طولون دوره، فأمر بفك قيوده دون ضربه، ثم من فَرْط خُبْثه أمر أن يُرَدّ إلى بيته راكباً؛ كى لا يقال: مات من شدة الضرب، أو إرهاق المشى. فلما ذهبوا به إلى داره، مات من ليلته.

---

(١) السابق: ٢٨٨– ٢٨٩.

(٢) سيرة ابن الداية ٧٩، و سيرة البلوى ٥٨– ٥٩.

(٣) مفردها: عُقاب. هما الخشبتان اللتان تُمدّ قدما الرجل بينهما بطريقة مؤلمة تصيب الجِلْد؛ تمهيداً لضربه، وجلده بالسياط. (لسان العرب، مادة (ع.ق.ب) جـ٤ صـ٣٠٢٩).

و- وأخيراً، لما بلغ ابنَ طولون موتُه، أنفذ الشهود والعدول، حتى شاهدوا شقيراً عريان، وتأكدوا أنه مات من غير ضرب ولا سبب، غير فناء أجله![1].

٢- طبيعة نفسية كل من: ابن المدبر، وابن طولون فى علاقتهما معاً:

نجح ابن طولون فى سحب غلمان ابن المدبر، فأفقده هيبته ومكانته، ثم تمكن من عزله، وولّى مكانه محمد بن هلال. وقد ضيّق عليه ابن طولون الخناق، حتى خاف على نفسه، فتقرب من أحمد وتلطف معه، فقد كان فيه (دهاء عظيم، ورياء كبير). لقد وجد أنه لا مفر له من ذلك رغم عدائه وكرهه الشديد له، حتى إنه لما طلب إلى أخيه إبراهيم التوسط له للخروج إلى الشام، اضطر أن يَهَبَ لابن طولون ضياعاً له فى مصر؛ وأن يزوج ابنته من خمارويه بن أحمد بن طولون[2]؛ حتى يخرج من مصر، ويأمن على نفسه فى الشام. والحق أن ابن طولون فعل ما فعل؛ ليخلو له دَسْت الحكم فى مصر دون منافس، وابن مدبر كاتبَ الخلافة ضد ابن طولون، ليس حرصاً عليها، وإنما محاولة منه؛ للتخلص من حاكم قوى كابن طولون. فكلاهما يعمل لنفسه فقط.

سابعاً – مدى حضور شخصيتهما وتفاعلهما مع الأحداث:

هذه قضية منهجية كبيرة الأهمية؛ لأنها تكشف عن أمور عدة: مدى تفاعل المؤرخ مع الأحداث التاريخية التى يسجلها، وهى مَحَكٌ أساسى دال على عقليته وثقافته، ووجهة نظره فى الحياة والأشخاص، وهى تكشف من بين ثنايا السطور مدى إدراكه ومعرفته بالهدف من كتابة التاريخ، وتبين من خلال تعليلاته للأحداث، وتعليقاته على نتائجها مدى حياده وتنـزهه عن الهوى، أو تحيزه وتعصبه لشخصيات معينة. **ومن هنا، فإنه يمكن دراستها فى النقاط الآتية:**

أولاً – التعليل:

لم يكتف ابن الداية والبلوى بسرد الأحداث التاريخية، ونقلها عن مواردها، وإنما كانا يحاولان تعليل بعض الأحداث.

---

(١) ولا شك أنه متأثر فى ذلك بطريقة الأتراك فى عاصمة الخلافة، إذ كانوا ينقضُّون على خصومهم من الخلفاء أو الوزراء والقواد حتى يهلكوهم، بحيث لا يُرَى أثر ظاهر لعملية الاغتيال تلك، ثم يحضرون الشهود والقاضى؛ ليقروا أن الوفاة طبيعية. وهذا يشبه ما يقع فى العصر الحديث من وسائل تعذيب بشعة للخصوم فى السجون، بحيث لا تترك أثراً يُذكر على جسد الضحية، رغم أنها تسبب له شديد الايلام، وقد تأتى على نفسه. فإذا وُقِّع الكشف الطبى، لا تُرى آثار شبهة جنائية، فيُعتقَد بالدليل المرئى أن الضحية مات حتْفَ أنفه ! والشئ الغريب المرفوض – مهما كانت جناية شقير – أن يُثنى البلوى على طريقة ابن طولون فى الإجهاز عليه قائلاً: " فكان علم أحمد بن طولون بأن ما عمله يبلغ به ما يجب من أمره من غير مكروه، ولا ضَرْب وغيره حسناً ". (سيرة البلوى: ٥٩).

(٢) المصدر السابق: ٦٠.

١- ابن الداية:

تراوحت تعليلاته وتنوعت وتعددت صورها: فهناك **التعليل السريع الخاطف**، مثل: تعليله معاقبة ابن طولون للحسن بن شعرة (مضحك المتوكل)، الذى كان أحد مسامرى ابن المدبر فى مصر، بالجلد خمسمائة سوط حتى الموت، بأنه لم يكن لسقوط المِرْكَن[١] من أعلى داره على كِفْل[٢] دابة ابن طولون فى موكبه، وإنما كان لما فى قلب ابن طولون عليه[٣]. ويعنى: غيظ وغضب وكراهية ابن طولون له؛ لأنه بلغه عنه سخريته واستهزاؤه بابن طولون فى بعض المجالس الخاصة لابن المدبر، وقد حذره ابن طولون، فلم يستجب لتحذيره، و لم يكف عن فعلته تلك[٤].

وكذلك علّل عدم قدرة ابن المدبر أن يكافئ ابنَ هلال على سوء بلائه عنده، رغم إرادته ذلك، بأنه لم يمكنه مع انحراف ابن طولون عنـــه[٥]. أى: لم يستطع ابن المدبر رد إساءة محمد بن هلال، الذى كان ابن طولون وَلّاه الخراج بعد عزل ابن المدبر عنه، وذلك بعد أن أعاد المعتمدُ ابنَ المدبر إلى منصبه ثانية؛ لحماية ابن طولون له؛ إذ كان يكره ابن المدبر.

وهناك تعليلات متوسطة فى طولها. من نماذجها:

ما ذكره ابن الداية من أسباب نجاح أحمد بن طولون فى دخول أنطاكية، وإلحاق الهزيمة بـــ (سيما الطويل)، الذى تحصن بها رغم حصانتها، وأنها لم تُفتح - قط - عَنْوَة. **هذه الأسباب هى:**

أ- كراهية الأهالى له؛ لإساءته إلى الرعية، ومصادرة أموالهم.

ب- حصار ابن طولون الطويل مع ضربها بالنفط والمنجنيق أجهد أهلها؛ مما دفع الناس إلى إرشاد ابن طولون إلى المكان، الذى يمكنه عن طريقه الدخول من سور المدينة.

جـــ- انتهاز جند ابن طولون الثغرة المشار إليها، فأسرعوا بدخول المدينة، ومهاجمة حصنها، ونصب رايات ابن طولون فوق الحصن؛ مما أضعف الروح المعنوية لجند سيما، إضافة إلى هجوم الناس عليه من ورائه فانهزم، وسيطر ابن طولون على المدينة، وقُتل سيما الطويل بعد ذلك[٦].

---

(١) على وزن (منبر). والجمع: مَراكِن. وهو إناء غسل الثياب ونحوها (اللسان، مادة: ر.ك.ن) جـــ٣/١٧٢٢، والمعجم الوسيط ١/٣٨٤).

(٢) هو كساء الدابّة. (مادة ك.ف.ل) فى (لسان العرب) جـــ٥ صـــ٣٩٠٦.

(٣) سيرة ابن الداية: ٧٨.

(٤) المصدر السابق ٧٨.

(٥) السابق: ٧٩.

(٦) سيرة ابن البلوى: ١١٦- ١١٧.

وأخيراً، نعرض نموذجاً **لتعليل مطول** أورده ابن الداية، يتعلق بخروج العباس بن أحمد بن طولون على أبيـــه[(١)]. **قال ابن الداية: وكان السبب فى خلاف العباس على أبيه:**

أ- بعض قواد أبيه، الذين كانوا يرهبون ابن طولون ولا يحترمونه، وينتظرون الفرصة للخلاص منه؛ لاستبداده وبطشه، فزينوا للعباس عصيان والده، وحَسَّنوا له التغلب على مصر، والفتك بالواسطى، الذى كان ابن طولون تركه معه؛ ليكون مشيراً عليه بما يصلح، أثناء خروج ابن طولون إلى الشام.

ب- اشتعال الخلاف بين الواسطى والعباس: فقد حرّض قادة السوء العباس على الواسطى، وأغروه بالإساءة إليه، ومنعه من القيام بمَهَامّه فى الدولة فى غياب ابن طولون. وينضاف إلى ما تقدم تدخل هؤلاء القادة المقربين إلى العباس فيما لا يعنيهم، وتقريب العباس بطانته ممن كانوا على علم بالنحو، والشعر، وما جرى مجراه (مثل: جعفر بن حدار[(٢)]. وأحمد ابن المؤمل)، وهم لا علم لهم بالسياسة والحرب ولا بتدبير الأمور. فلما منعه الواسطى من جعلهم فى غير مكانهم، وقع الصدام بينهما. وعندئذ كتب الواسطى كتباً إلى ابن طولون يعلمه جليّة الأمر، ورد عليه ابن طولون حانقاً على ولده، آمراً الواسطى بمداراته حتى يرجع إلى مصر. وكان الكاتب محبوب بن رجاء معادياً للواسطى، فكان يرسل إلى العباس الكتب المتبادلة بين الواسطى وأبيه.

هنا ازدادت حدة وغضب وإهانات العباس للواسطى، فاعتزل فى بيته، فهاجم العباس منزله، واستولى على أجوبة كتب أبيه، فخشى غيظه وحنقه الشديد، فخرج ومن معه، وأخذ الواسطى أسيراً إلى برقة.

ويواصل ابن الداية تعليلاته لجوانب هذا الحدث التاريخى الجلل، فيذكر أن العباس رفض الاستجابة لوفد أبيه، **ولم يقبل العودة لأمرين:**

أ- أن أصحابه – خاصة جعفر بن حدار[(٣)] – حَذّروه غدر أبيه، وأكدوا له أنه لن يرحمه، ولن يرحمهم إذا وقفوا بين يديه.

---

(١) السابق: ١١٨- ١٢٠.

(٢) هو الكاتب الشاعر المصرى أبو القاسم، جعفر بن محمد بن أحمد بن حدار. كثير الشعر، حسن البلاغة، له ديوان شعر، ومكاتبات كثيرة حسنة. كان ممن خرج مع العباس على أبيه، وحَرّضه على التمادى فى العصيان. قُبض عليه واقتيد إلى مصر أسيراً، فضُرب ٣٠٠ سوط، ثم قطّع العباس يديْه ورِجْليْه من خلاف بأمر أبيه. توفى فى ذى القعدة ٢٦٨هـــ. (سيرة ابن الداية ١١٨- ١٢٠ (واسم جده: حدار)، وسيرة البلوى ٢٦٩، (حدار)، والولاة – ط.جست – صـــ٢٢١ (جِدَار)، ومعجم الأدباء ١٨٢/٧- ١٨٦(حُذَار)، والمغرب(قسم مصر) ـــ٢٥١(جدار)، والمقفى ٥٩/٣- ٦٠ (خدار).

(٣) ورد باسم (أحمد بن حدار) فى (سيرة ابن الداية) صـــ١٢٠، وهو غير صحيح.

ب- أن العباس سأل القاضي بَكّار بن قتيبة – وكان ضمن وفد أبيه إليه –: بالله، هل يأمن عليه ؟ فقال بكار بكل صدق: حلف لى أبوك ألا يسوءك. فأما أن يفى لك بما حلف أو لا يفى، فذلك ما ليس فى علمى، إنما علمه لله. وهكذا، كان الشك يحيط بموقف ابن طولون تجاه ابنه نفسه، فما بالنا بالذين حرضوه عليه! وكانت النتيجة زيادة وجل وقشعريرة العباس، وتماديه فى غَيِّه.

٢- البلوى:

تتضح شخصية البلوى فى تعليلاته أكثر من ابن الداية. وقد سلك مناهج شتى فى إيراد تعليلاته كما يلى:

أ- تعليل خاطف سريع:

قال فى سبب معاداة الموفق لابن طولون، وإرساله الكتب إلى قواده يغريهم به، ويستميل قلوبهم إليه: "لمَا كان فى نفسه عليه من قوة موالاته للمعتمد، وصحة طاعته له "[١].

قال فى سبب امتناع أكثر من واحد من أتباع ابن طولون من تولى الثغور بالشام: أبى موسى ابن طولون ولاية الثغور لأخيه (وكان مقيماً بطرسوس)؛ لأنه كان فى نفسه غضب وغيظ على ابن طولون، وكانت بينهما جفوة موحشة؛ لرفض ابن طولون توليته الإسكندرية كما كان يرجو، ولضربه إياه لما بسط لسانه فيه؛ مما جعله يخرج إلى طرسوس مغضباً[٢]. وامتنع إبراهيم بن عبد الوهاب عن ذلك المنصب تصاونا[٣] (أى: ورعاً، وصيانة لنفسه عن تولى المناصب).

ب- التعليل القدرى:

كان البلوى – أحياناً – يخلط العلل المادية المنطقية بالتعليل القَدَرى، كما فعل فى تعليله امتناع (سيما الطويل) من الاستجابة لنداءات ابن طولون المتكررة له بالدعاء للخليفة ثم لابن طولون؛ حتى يرفع عنه الحصار، ويرحل فى مقابل ذلك عنه. علل ذلك باطمئنان سيما إلى حصانة أنطاكية، وعدم الثقة بكلام ووعود ابن طولون. هذا هو الجانب المنطقى المادى من التعليل. ثم التفت البلوى إلى علة قدرية، قد لا يلتفت البعض إليها رغم بداهتها، فقال: " فامتنع سيما من ذلك، ولَجّ فيه؛ لأسباب المنيّة "[٤]. أى: لأن منيته تناديه، فقد اقتربت ساعته، وحان أجله فى ذلك الحصار، فكان لا بد أن يرفض كل عروض ابن طولون؛ ليتم فيه قضاء الله.

---

(١) سيرة البلوى ٨١.

(٢) السابق: ٩١.

(٣) معلوم أنه أنفذ – بعد ذلك – طخشى بن بلبرده، ووصّاه بحسن العشرة لأهل الثغور، وجميل السيرة فيهم، واحتمال هفواتهم، فحسنت سيرته بطرسوس حتى مات هناك، فحزن عليه سكان سائر الثغور. (المصدر السابق: ٩١).

(٤) سيرة البلوى: ٩٤.

وأحياناً لا يذكر البلوى إلا **التعليل القدرى للحدث**، يسوقه على ألسن الناس، ويقوم هو بالتصديق عليه، مدفوعاً إليه بشدة إعجابه بشخصية ابن طولون. مثاله: ما قام به ابن طولون من إرسال الجيوش؛ لضبط أطراف بلاد الشام قبل منصرفه من الثغور إلى مصر بعد بسط النفوذ عليها. من هذه الجيوش جيش أرسله بقيادة (أحمد بن جيغويه) إلى (حَرّان)، فطرد منها (محمد ابن أُتامش)، وهزمه شر هزيمة، ثم اصطدم بأخيه (موسى)، وكان فارساً مَهيباً، خافه ابن جيغويه. ولم ينقذ الموقف إلا حيلة، احتالها أعرابى على موسى، واستدرجه إلى كمين له، حتى وقع فى الأسر. هنا يقول البلوى: فتعجب الناس من ذلك، وتحيروا، وقالوا: ليس هذا بتدبير الأعرابى، ولا بشجاعة ابن جيغويه، ولكنه بإقبال ابن طولون (حظه السعيد)، تيسّر أَخْذُ موسى هذا. فيصدّق البلوى على ذلك ويؤيده؛ بأن إقبال ابن طولون أدى إلى ذلك النصر اليسير لجيوشه؛ إذ لم يُقدَّر لواحد من غلمان موسى أن يسلك الطريق الذى سلكه فى تلك الليلة المظلمة، وكل ذلك"ليتم القضاء المُقدَّر لأحمد بن طولون"[١].

جـ- تعليلات دقيقة جديدة:

١- دلّل البلوى على عمق نظرته فى الحوادث التاريخية، من خلال دقة تعليلاته وبراعتها. ومثال ذلك[٢]: الرواية التى تذكر تجسس ابن طولون على رجل من الأتراك يعيش فى مصر، وليست لديه معلومات عنه. فلما تمت مراقبته عن طريق عيون ابن طولون وهو فى قعر داره، رفع أصحاب الأخبار إلى الأمير تقريراً بما رأوه منه. فالرجل كان يشرب النَّبيذ حتى يَسْكَر، ويَهْذِى، ويقول فى هذيانه - وهو يُمسك بسيفه - عن ابن طولون: لأقتلنّ هذا العاصى المتحكِم فينا، ويلعنه، فتجئ جاريته فتنهاه عن ذلك القول، وتأخذ منه السيف وتظل تسقيه حتى ينام. فلما وقف الرجل بين يدى الأمير ووبَّخه على ما كان منه فى داره، دُهش الرجل، ورفع رأسه إلى السماء متعجباً من فعل الله لابن طولون (ملّكه رقابهم وأرزاقهم والدنيا كلها فلم يبال الناس، حتى صار صاحب خبر عليهم، فرفع إلى ابن طولون ما تخرجه حماقة النبيذ إذا شربه الناس. كل هذا يتقرب من قلبه ا). فأغرق ابن طولون فى الضحك على وقاره، ولم يعاقبه. ثم أرسل إليه ٥٠٠ دينار، وأخرجه إلى (طرسوس)، وكتب بأرزاقه هناك، وأرسل إلى الجارية مبلغاً مماثلاً. ثم يأتى – هنا – دور البلوى لتعليل تصرف ابن طولون، فيقول: أخرج الرجل؛ لأنه لا يتحمل وجوده معه فى بلد واحد بعدما صدر منه. وعلل عدم معاقبته؛ لجميل فعل جاريته (إسكاتها إياه، ورفقها وتلطفها معه؛ ليصلح من خطابه، ويقلع عن اللعن)، ورميه بطَرْفه إلى

(١) المصدر السابق: ١٠٣- ١٠٦.

(٢) السابق: ١٢٠- ١٢٢.

السماء (أى: توجهه إلى الله بالشكوى لَمّا واجهه الأمير بما قال فى داره).

٢- أتى **البلوى بتفسيرات جديدة** لم يذكرها غيره، تتعلق بخروج العباس على أبيه، منها: أنه فسّر خروجه هذا بحمقه ونقص عقله؛ مما دفعه إلى العصيان والتمرد[١]. وعلل تقديم أبيه له على سائر إخوته فى النيابة عنه بمصر لما خرج إلى الشام، رغم علمه عنه الحمق، بأن هذا نتيجة كبر سن العباس على بقية أخوته، ولأنه كان أحظاهم عنده، ولِهَوًى فيه من هَوَى الأبوة[٢] (أى: لا تعليل له). وكذلك عَلّل تَحَرُّز بَكّار عن تأكيد وفاء ابن طولون لابنه العباس إن عاد إليه طائعاً، بأنه فعل ذلك؛ لدينه وورعه وزهده[٣]. وكذلك ذكر أسباباً جديدة لخروج العباس إلى إفريقية٤: ثقته بأن ما معه من أموال وعتاد يوصله إليها، وتحسين أصحابه ذلك له، وإطماعهم إياه فى السيطرة على إفريقية؛ عن طريق تهوين وتصغير شأن إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١- ٢٨٩هـ) صاحب إفريقية. وهم – فى الحقيقة – يبعدونه عن أبيه. كما أن العباس بدا له أن قبائل البربر تؤيده وتناصره، إذ إنه كاتَب وجوه البربر، فأسرعت إليه جماعة منهم أعطاهم بعض المال. ورغم تخلف أكابر القبائل – لِتِرات بينهم وبين قوم يخشوهم إذا خرجوا إليه – فقد كان مطمئناً إلى كفاية من قدم إليه؛ لكى يتقدم إلى إفريقية.

وكذلك علّل الكآبة الشديدة والغم الظاهر الذى علا وجه ابن طولون، لَمَّا أُشيع خبر مقتل ابنه بعد هزيمته البشعة فى إفريقية على يد قوات (إبراهيم بن أحمد بن الأغلب)، وقبيلة نَفُوسَة الإباضيَّة٥ (بقيادة إلياس بن منصور الزَّناتى رئيسهم)، بأن ذلك لو كان وقع، لوضع ابن طولون بين شرَّيْن:

أ- فقد ابنه، وذهاب جميع ما كان معه من مال طائل.

ب- ضرورة أخذه الثأر. وهو إن تغافل ضاعت هيبته، وإن نهض للانتقام، احتاج إلى أموال عظيمة، لم تكن فى حسابه، ولم يُدبِّر أمرها[٦].

٣- وأخيراً، انفرد البلوى – فيما أرى – بتعليل ظاهرة شاعت فى تلك العصور (ظاهرة

---

(١) سيرة البلوى: ٢٤٤.

(٢) قال البلوى فى ذلك: " ومن الناس مَنْ يَعمَى عن حظ نفسه وعيب ولده؛ لهواه فيه، وإن كان أبوه حازماً لا يُطعن عليه، لكنه كما قال الشاعر: ويسىء فى الإحسان ظناً لا كمَنْ هو بابنه وبشعره مفتون
(سيرة البلوى: صـ٢٤٤).

(٣) السابق: ٢٥٢ (٤) السابق: ٢٥٣.

(٥) من فرق الخوارج العشرين. إمامهم عبد الله بن إباض بإجماع. افترقت الإباضية فرقاً، يجمعها القول بأن كفار هذه الأمة - يعنون بذلك مخالفيهم من هذه الأمة – بَرَاء من الشرك والإيمان، فليسوا مؤمنين ولا مشركين، لكنهم كفار. وأجازوا شهادتهم، وحرموا دماءهم سراً، واستحلوها علانية. (الفرق بين الفرق للبغدادى صـ١٢٠).

(٦) سيرة البلوى: صـ٢٥٥ ٢٥٦.

قطع رءوس القتلى وحملها إلى من يهمه الأمر). فقد أمر ابن طولون بالأسرى إلى الحبس (أى: الذين أسرتهم جيوشه ممن كانوا مع ابنه العباس)، وبالرءوس (أى: رءوس القتلى) أن تُنْصَب على القِسِيّ[1]؛ ليراها من لم يرها، ويُشاهِدها ويَشاهَد منها كل معروف، فيتعرف عليهم أهلوهم ممن خفى عليهم أمرهم[2].

ثانياً – التعليق:

وهذا من عناصر المنهج المهمة، التى تبين موافقة المؤرخ للحدث أو رفضه إياه، سواء كان ذلك بطريقة مباشرة منه، أم ضمنية، أم ساقه بطريقة غير مباشرة على لسان غيره. كما أنه يطلق على شرح المؤرخ للحدث، وبيان خلفياته ومضامينه، أو الربط بينه وبين غيره. وكلما كثرت التعليقات الصحيحة الصادقة الجديدة، كان ذلك دليلاً على الإبداع والابتكار. ويرتبط بهذا عنصر الحياد وعرض الحقائق مجردة، أو الانحياز والتأثر بالهوى.

١- ابن الداية:

اعتمد على انتقاء روايات استحسنها من موارده. وهذا إقرار منه برضاه وموافقته على ما ورد فيها. **وتأخذ التعليقات لديه صوراً شتَّى:**

أ- تعليق ورد على لسان غيره:

ومثاله: ما ساقه على لسان مجهول تعليقاً على شدة تحذير ابن طولون طبيبه سعيد بن توفيل من الإهمال بشأنه، قال: " فقال بعض الغلمان: ما سمعتُ حَثاً لمتطبب على مبالغة فى سعى أحسن من هذا "[4]. وأحياناً **يَرِد التعليق على لسان راوى الحدث** (أبى جعفر بن عبد كان)؛ إعجاباً بصياغة أفكار ابن طولون إلى عامله على الثغور بشأن تكليفات موجهة إليه خلال فترة هدنته مع الروم. قال ابن عبد كان: " فلم يحضرنى فى الكتاب أحسن من معانى ألفاظه، فلم أتجاوزها "[5].

ب- تعليق يسير خاطف لابن الداية:

عَلّق ابن الداية على استخفاف ابن طولون بالمعتقدات الخاطئة الخاصة بصنم عين شمس، الذى كانت الأساطير تزعم أنه ما اقترب منه والٍ إلا عُزل. فقال الأمير للقائم على شئون الصنم بعد أن أمر باجتثاثه: من صرف منا صاحبه ؟ قال: أنت أيها الأمير. فعلّق ابن الداية قائلاً: " وعاش أحمد

---

(١) جمع (قَوْس). وتُجمع على جموع كثيرة، منها: أقواس، وقِسِيّ. وهى آلة على هيئة هلال تُرمى بها السهام. وهى لفظة معروفة عجمية وعربية، تذكر وتؤنث. ويقال: رموا أعداءهم عن قوس واحدة. أى: كانوا متفقين. (اللسان، مادة: ق.و.س) جـ٥ صـ٣٧٧٣، والمعجم الوسيط ٢/٧٩٦).

(٢) سيرة البلوى ٢٦٨.

(٤) سيرة ابن الداية ٩٤.

(٥) السابق: ٩٨.

ابن طولون بعدها اثنتى عشرة سنة أميراً "[١]. أى: إلى سنة ٢٧٠هـ، حين توفى أميراً (و لم يُعْزَل).

وفى رواية أخرى: بعد أن ساق ابن الداية نص ما وجد فى رقعة مكتوب فيها تاريخ دخول ابن طولون مصر، وعمره يوم دخلها، علّق قائلاً: " قال أحمد بن يوسف: فَصَحّ عندى أنه عاش خمسين سنة "[٢]. وهو تعليق صحيح؛ فقد ولد سنة ٢٢٠هـ.

ابن الداية بين الحياد والتحيز:

بادئ بدء نقرر أن ابن الداية حكم على نفسه بالتحيز لأحمد بن طولون **بدليلين قررهما كما يلى:**

الأول – ما يؤمن به من فكر نظرى سجله فى (العهود اليونانية)، إذ يقول فى المقدمة ما نصه[٣]: " واعلم أن **أفضل المدح** ما ساق إلى الممدوح فضيلة، و لم يُلْحِقّ بغيره رذيلة. لكنى أرى أن الأوْلَى بمن صَحَّتْ فطرته، وكَرُم طبعه الإمساك عن معايب الأعلام فى كل حَوْزَة، ونشر فضائلهم؛ ليقتدى بها مَنْ أتى بعدهم، واغتفار ما عَثَرَ به من زللهم؛ لصغَره فى جنب ما تأدَّى إلينا من فضلهم، وأفدناه منهم ". **وهذه العبارة حَمّالة بكثير من وجوه النقد، منها:**

أ- أنه لم يكن موفقاً، عندما جعل المدح داخلاً فى سياق الحديث عن السياسة والسياسيين، وشئون الحكم، وإدارة الدول، وتأريخ المؤرخين لكل ذلك. فالمدح ليس من شيم المؤرخين المنصفين (حتى إذا كانت الشخصية المترجم لها ذات مآثر عظيمة؛ فأداؤها لواجبها منوط بها، وإهمالها يُعاب عليها). إنما المدح من شأن الشعراء المتزلفين المتملقين؛ لقاء حفنة دراهم أو دنانير[٤]. وإن كنا نوافقه على إعطاء كل ذى حق حقه، وألا نخلط بين الأمور فى الحكم على الأشخاص والأحداث، فلا ننال من شخص بباطل؛ ليكتسب الآخر مديحاً أو ثناء، أو نقرر له – بالأحرى – مأْثرة دون وجه حق.

ب- يرى ابن الداية أن الأوْلَى والأفضل عند تناول الأعلام المُبرِّزين فى كل اتجاه، أن ننشر فضائلهم، ونركز على إبراز محاسنهم. والهدف الاقتداء بهم ممن يأتى بعدهم، وعلى هذا نَغضّ الطَّرْف عن ذكر مآخذهم وسلبياتهم؛ لأنها قليلة إذا قيست بما أدوه لنا من خدمات جليلة. ثم يحكم ابن الداية على من يقوم بذلك بأنه (صحيح الفطرة، كريم الطبع). ونحن نرى أن الصواب خلاف ما يقول؛ لأن مقتضى كلامه يدخلنا فى إطار التحيز البغيض، فنخفى عيوباً، سوف

---

(١) السابق: ١٠٣.

(٢) سيرة ابن الداية: ١٣١.

(٣) الفلسفة السياسية عند العرب: صـ٤٥- ٤٦.

(٤) دعك من مبالغات روايات الأدب والأخبار، التى تزعم أن شاعراً ما نال مقابل بيت من شعر – مثلاً – عشرة آلاف درهم. إنها – فى رأيى – أخبار بواطيل.

تتكشف إنْ عاجلاً أو آجلاً، ونزيف الحقائق، أو على الأقل نعرض صورة مبتورة خَيِّرَة صرْفاً، وهو ما يناقض طبيعة البشر، التى يعرفها الناس جيداً. فالشخصيات والأحداث تُعْرض – بعد التحقق من صدقها – دون رتوش، ولا تَجَمُّل كاذب.

الثانى – سيطرت الأفكار النظرية الخاطئة السابقة على ذهن ابن الداية، فانطلق من الفكر النظرى إلى الواقع التطبيقى، حين طبّق ذلك فى كتابه (سيرة ابن طولون)، عندما انتقى ما استحسن من أخباره، وسَمّاه (المستحسَن من أخبار أحمد بن طولون). وهذا يعنى أنه يدرأ ما يُستقبح ويُستهجن منها، فهو – إذن – يعرض للجانب الحسن فقط، وهو ما يتعارض مع التأريخ الملتزم المحايد المنصف.

وإذا انتقلنا إلى كتاب ابن الداية فى السيرة، وجدنا نماذج عديدة، تدل على تحيزه لابن طولون، منها: ما ورد عن ابن طولون أنه كان رقيباً على نفسه فى أكثر ما يجرى على يديه من الأشياء، يتصدق فى أثرها، ويتضرع إلى ربه فى تمحيص ما ثبت عليه فيها، ويتأوَّل فيما يأتيه بما تُريه الحُجَّة فى أكثر سَطَواته[١]. وهذا يعنى أن إساءات ابن طولون إلى الناس كثيرة، وأنه يتصدق لمحو تلك الإساءات والمظالم، ويُؤَوِّل تصرفاته، ويبحث فيها عن حجج وبراهين، تطمئنه إلى سلامة منطقه. كان الواجب على ابن الداية أن يعلق ولا يسكت[٢]؛ فالإساءة تتطلب رفع الظلم عمن أساء إليه، وصفح المظلوم عنه. والتصرف الصحيح لا يحتاج إلى تأويل، ولو كان – حقاً – رقيباً على نفسه يتقى الله، ما كانت سطواته تلك.

ومن دلائل تحيزه:

إغفاله ذكر كتاب الموفق، الذى أرسله إلى ابن طولون بخصوص الخراج، واكتفى بذكر عامة ما فيه من تهديد وتعنيف ابن طولون، ومطالبته بالخراج الحقيقى لمصر[٣]. وكان يمكن الإتيان بنص كتاب الموفق وبيان حججه تفصيلاً، فلعله كان صادقاً فى طلب العون لمحاربة الزنج، لكنه أخطأ الطريقة والأسلوب. ويغلب على الظن أن كتاب الموفق كان محفوظاً بالديوان، فكان الحياد يقتضى أن يأتى بنص الكتابيْن معاً، بدل أن يكتفى بنص كتاب ابن طولون فقط٤. ولا يُتعلل – هنا – بالاختصار؛ لأننا سنسأل: لم كان الاختصار فى حق الموفق فقط دون ابن طولون ؟!

---

(١) سيرة ابن الداية: صـ٨٥.

(٢) ورد فى سيرة البلوى صـ٧٤ الموقف المتحيز السابق نفسه، و لم يعلق هو الآخر.

(٣) السابق: ٨٩. (٤) السابق: ٨٩- ٩١.

وأخيراً، فقد خالف ابن الداية طبيعته العقلانية المعروفة عنه، لّما ذكر رواية تتنبأ بأوصاف ابن طولون ومدة دولته(١)، وكذلك ما أورده مما لا يُعَوَّل عليه، مما رآه أحدهم فى منامه، عندما شاهد ابن طولون بعد وفاته، وهو فى حال حسنة؛ لإنصافه المظلوم(٢). فكأنه يريد أن يشعرنا بحسن خاتمة الرجل، ويحكم له بالخيرية المطلقة، وأن مثواه الجنة. وهذا مما لا يعلمه بشر، ولا يُستدل بالمنامات عليه؛ فقد تكون من قبيل الخيالات والشطحات، أو وانعكاسات لأمنيات مُلِحَّة.

٢- البلوى:

اهتم بالتعليق على الأحداث التاريخية اهتماماً كبيراً، وتوسع فى ذلك بحكم ميله إلى التفصيل فى ذكر المعلومات. **وقد اتخذت تعليقاته صوراً متعددة، منها:**

أ- تعليق سريع:

ذكره البلوى خلال حديثه عن أهل ثغر طرسوس، الذين ضاقوا بجيش ابن طولون فى الطرقات، فعلّق على طبيعتهم قائلاً: " وفيهم غلظة أهل الثغر "(٣)، ثم خَيَّروا ابن طولون بين المقام بينهم فى عِدَّة يسيرة، أو الرحيل بجيوشه الجرارة. وكذلك علّق البلوى على إيقاع أحد القبط براهب قبطى؛ لشئ كان يحقده عليه، فأراد التشفى منه، فوشَى به عند أحد قواد ابن طولون، فقال: " والقبط لا يحسنون أكثر من سعاية بعضهم ببعض "(٤).

ب- تعليق محترز دقيق وجيز:

مثل قوله: " فكان تسرع الغطريف تسرعَ باسل (شجاع)، لزمه فرض وطمع فى الظَّفَر وعَجَل. ولو تثبّت وكان فى أجله تأخير لم يقتل "(٥). أى: وصف هذا القائد الطولونى، الذى أرسله الأمير على رأس جيش لردع ثورة أهل برقة، فتسرّع فى قتالهم دُون حيطة أو أهبة لازمة، فعَرّض نفسه للقتل. فشجاعته وإقدامه لما لم يجتمع لها فيها الحذر الواجب، والأجل الممتد، أفضى به ذلك إلى القتل.

جـ- تعليقات قدرية مطولة، وأحياناً يمزج بينها وبين التعليقات المنطقية: ومن أمثلة ذلك:

أثبت البلوى تغلغله فى صميم الحدث التاريخى، ونفاذه إلى حقيقة اليد الإلهية، التى تقف

---

(١) سيرة ابن الداية: صـ٧٦- ٧٧.

(٢) السابق: ١٣٢.

(٣) سيرة البلوى ٩٧.

(٤) السابق: ٢٠٦.

(٥) السابق: ٧٠- ٧١.

وراء الأحداث وتحركها؛ لتصل إلى قدرها المحتوم. لقد علّق على محاولات ابن طولون المستميتة لرد غلامه لؤلؤ عن غيِّه قائلاً: " وظن أحمد بن طولون أن المخادعة تمكنه من لؤلؤ، والملاطفة تَثنيه، ولم يعلم أن سبب زوال ملكه يكون على يدى محمد بن سليمان؛ لمَا حقده عليه من أفعاله به، وحققه منه "(١). وكأنه يريد القول بأن ابن طولون لو كان يعلم مستقبل الأحداث، ما عَنَّى نفسه فى محاولاته، فكاتبُ لؤلؤ (محمدُ بن سليمان)، الذى طالما نال منه وانتقم؛ بسبب سيده، هو الذى سيكتب نهاية دولة بنى طولون بيده.

وقد جمع البلوى بين الجانبين (القدرى، والمنطقى) فى تعليقه على إيقاع ابن طولون بطبيبة (سعيد بن توفيل)، فقال: " قال مؤلف هذا الكتاب: وكان أحمد بن طولون يُحَذِّر سعيداً قديماً من قتله له، وكان قد وقع له؛ لتتم المشيئة فى سعيد أيضاً، أنه قد أغفل علاجه فى بدء العلة، حتى تزايدت عليه وعظم أمرها. لم يكن الأمر كما ظنه أحمد بن طولون به، ولا كان الخطأ إلا منه على نفسه، والذنب له دون غيره "(٢). هنا جمع بين مشيئة الله فيهما معاً، وبيَّن خطأ الطبيب أولاً، وعدم اتباع ابن طولون نصيحة الطبيب (لمَّا أكل السمك دون علمه)، فكان ما كان (قتل ابن طولون سعيداً، ثم مات ابن طولون من مرضه).

البلوى بين الحياد والتحيز:

أعتقد أن البلوى أقل تحيزاً من ابن الداية، إذ لم يتبعه فى منهجه الذى اختطه لنفسه من الاكتفاء بذكر محاسن ابن طولون. ومن هنا ألفينا البلوى منصفاً محايداً فى عدد غير قليل من الروايات، رغم أنه كان شديد اللهجة، قاسى العبارات، لكنه كان مُحقاً فى تعليقه النقدى اللاذع. ومن أمثلة ذلك: هجومه الشديد على العباس ومن معه عندما خرجوا على ابن طولون دون وجه حق، فوصم هؤلاء بضعف السياسة والتدبير، وشَدَّد النَّكير على العباس خاصة، فاتهمه بعمى القلب، وعمى قلب من أشار عليه، واستنكر على العباس خروجه قائلاً: أليس البلد فى يده، وأمره نافذ فيه، وفيما يريده من مال وغيره، متمكن منه، مبذول له ؟! لكن نعوذ بالله من الخذْلان(٣). وكذلك وصف لؤلؤاً بأحَطِّ الأوصاف لما انقلب عليه الموفق، فوصفه بالأصل الدنى، والفعل الرَّدى(٤).

لا يمنع ما تقدم وجود بعض أمثلة بدا فيها تحيز البلوى لابن طولون ومبالغاته بشأنه؛ لفرط إعجابه به. ومن ذلك قوله: إن خروج موسى بن بغا بأمر الموفق ضد ابن طولون أهَمَّ الأخيرَ

(١) سيرة البلوى: ٢٧٧.
(٢) السابق: ٣٢٩.
(٣) سيرة البلوى: صـ٢٤٦- ٢٤٧.
(٤) السابق: ٣٠٨- ٣٠٩.

وأقلقه، لا لأنه يقصر عن موسى، لكن لتحمله هتك الدولة، وأن يأتى ما يكون سبيله فيه سبيل من قاوم السلطان، وكسر جيشه[١]، فهو يقصد – فى تحيز واضح لابن طولون – أن الأمير لا يريد إحراج جيوش الخلافة، أو إلحاق الهزيمة بها. لقد كان موسى – كما قال البلوى – عِوَلَ الدولة، وأشد أهلها بأساً وإقداماً[٢]. فجيوشه – إذن – ليست لقمة سائغة لابن طولون، وهو إن كان لم يتقدم لملاقاته، فذلك يرجع؛ لعدم صرف الخلافة الأموال اللازمة لجيوشه[٣]. وعلى كل، فمصر بها ثغرات وعورات يمكن لابن بُغا النفاذ منها. وإذا كان ابن طولون حَصّن جزيرة الروضة، فأعتقد أن ذلك لم يكن خوفاً على الرعية، وإنما كان لحفظ حُرَمه الكثيرات وذخائره، فاتخذ أمام الحصن القائم بين الفسطاط والجيزة السفن والأساطيل[٤]. ثم إنى أعتقد أنه لم يخش على جيوش الخلافة، وإنما الحقيقة أنه كان حريصاً على التظاهر بأنه فى خدمة الخليفة وناصر له، فكيف يحارب جيوشه ؟! إنه سيفقد الحجة التى يتكئ عليها فى معاداة الموفق، وسيفقد شرعيته. ومن هنا كان ابن طولون فى موقف حرج.

ومن عجب أن البلوى دافع عن بطش ابن طولون، فبعد أن عَدّد نماذج عقوبات أنزلها ابن طولون بأناس، تطاولوا بألسنتهم عليه، فعاقبهم بالحبس والضرب حتى الموت[٥]، علّق البلوى قائلاً: " كل هذه الأحوال التى عددناها، فالعذر فيها كلها بَيِّن لأحمد بن طولون، والذنب لمن بسط لسانه فى مثله، ويتعدى إلى غير ما هو أهله "[٦].

ويبلغ البلوى درجة الذروة فى التحيز لابن طولون، عندما يعتمد على مرويات غير موثوق بها، تقطع له بأنه فى النعيم المقيم. فإذا تساءلتَ عمن قتلهم ابن طولون، انبرى البلوى قائلاً: إن من قتلهم ابن طولون كانوا يستحقون ما حكم به عليهم؛ لأنهم أساءوا فيما بينهم وبين خالقهم، وفى حق أناس مستضعفين آخرين، قتلوهم ظلماً وعدواناً[٧]. والحق أن البلوى – هنا – يقرر ويؤصِّل مبادئ خطيرة، ليست من الإسلام فى شئ؛ إذ يبرئ ابن طولون من جنايات قتل بشعة، ارتكبها بحجة أن قتلاه كانوا يستحقون ذلك؛ لأخطائهم فى حق الله، وظلمهم العباد، بانياً ذلك على منامات، يمكن أن تكون أوهاماً.

---

(١) سيرة البلوى: ٨٦. (٢) السابق: ٨٥. (٣) تاريخ ابن خلدون: ٣/٤٢٦.

(٤) سيرة البلوى: ٨٦– ٨٧. (٥) المصدر السابق: ١٧٨. (٦) السابق: ١٧٩.

(٧) سيرة البلوى: ٣٥٤– ٣٥٥. والحق أن للبلوى رواية احترز فيها – نوعاً ما – بهذا الشأن، إذ قال: صحّت رواية محبوب ابن رجاء: أنه رأى فى منامه ابن طولون، الذى قال له: " خَفَّفَ عنى أن أكثر من أسأتُ إليه، كان مستحق ذلك من ربه، فجعلنى عقوبة له، بعثها الله ﷻ عليه منى ". (السابق: ٣٥٥). وواضح أن عباراتها المحترز بها هى: (خَفَّفَ، وأكثر)، لكنها – رغم ذلك – لا يُعَوَّل عليها فى نظرى.

ثامناً، وأخيراً – حقيقة التاريخ وفهم أغراضه:

بهذه القضية المهمة نختم حديثنا المفصَّل عن (منهج ابن الداية، والبلوى) فى كتابة (سيرة ابن طولون). لقد وردت عدة روايات بها نماذج عديدة، تدعو إلى العظة والاعتبار كهدف أصيل من أهداف التاريخ[١]. ذكر **ابن الداية** أن نسيماً الخادم (أخص رجال ابن طولون به) قال: إن مولاه عرض عليه –يوماً– جوهراً وأعلاقاً نفيسة، كانت فى خزانة له، فحمد الله وأثنى عليه، وتذكر أن الله عَوّضه خيراً، فقد عُرضت عليه ولاية واسط مقابل قتل المستعين. فلما ترك ذلك لله ﷻ، عَوضّه الله ولاية مصر والشام[٢].

أما **البلوى**، فقد عرض صورة لؤلؤ غلام ابن طولون، وقد عاد إلى مصر ذليلاً فقيراً، احتقره الناس، ولم يحسنوا إليه؛ جزاء غدره وخيانته، وثمرة لعقله السخيف، وفعله القبيح[٣]. وكذلك العبارة التى قالها القاضى بكار بن قتيبة لرسول ابن طولون، عندما أرسل إليه يساومه فى خلع الناكث (الموفق)، وذلك قبل وفاة ابن طولون بشهر، قال فيها: " خَفَ الله فى أمرى، فإنى شيخ فانٍ، وأنت عليل مُدْنَف (شديد المرض)، ولعل التقاءنا بين يدى الله ﷻ قريب"[٤]. وكذلك آخر كلمات نطق بها ابن طولون قبل موته بلحظات:

"يا رب، ارحم من جهل مقدار نفسه، فأبْطَره حِلْمُك عنه"[٥].

---

(١) وذلك بخلاف ما يراه الدكتور حسين مؤنس (رحمه الله) فى كتابه: (الحضارة) صـ١٣١- ١٣٢: إذ يرفض أن تكون دراسة التاريخ بهدف العبرة والعظة؛ لأن الناس لا تتعظ بالتجارب الماضية، وكذا الأمم وحكامها، وإلا لاختفت من العالم الحروب والصراعات والأطماع. كما أنه يرى أن الاتعاظ بأحداث الماضى – لأخذ الحسن وترك القبيح – لا يتأتى فى الحاضر؛ لأن الانتفاع بتجارب الماضى لا يصح إلا إذا تشابهت الحالات تماماً، وهو أمر غير متحقق أبداً، بالإضافة إلى أن مقياس الحسن والقبح يتغير من عصر إلى عصر. ويخلص (صـ١٣٦- ١٣٨) إلى أن: التاريخ يُدرس منـــه ما يُستفاد بـــه فى الحاضر لذاتـــه، باعتباره تجارب نافعة، تعيننا على حل مشكلاتنا، وتزداد به أفكارنا خصوبة، ونصل إلى الأفضل فى حياتنا. والمؤرخ يسجل الأحداث ويدرسها، ويخـــرج بنتائـــج منهـــا، يعرضها فى كتبه دون أن تأخذ شكل الوعظ (فما أثقله على القلوب !)، ويدع الحقائق تتكلم، فهو ضمير أمته، وعقلها الباطن، الذى يصحح مسارها، وهو قابع فى مكتبه يؤلف، أو بين تلامذته يُحاضر. والحق أن آراء الدكتور مؤنس آراء مستنيرة متفتحة، لكنها تحتمل النقاش. ونحن لا نختلف معه حول فائدة التاريخ ودور المؤرخ وأهميته. لكننا نتحفظ تجاه رفضه أن يكون التاريخ للعظة والعبرة، بل نضيف هذا الجانب إلى ما ذكر، وليس معنى أن كثيراً من الناس لا يتعظ أن ننفي هذا الغرض الأسمى الذى يدركه ويستفيد منه الألبّاء. قال الله (تعالى): ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾ (يوسف: الآية ١١١). وكذلك لا أوافق على تغير مقاييس (الحسن، والقبح)، عبر الأزمنة والعصور؛ لأن المبادئ والقيم السامية التى تحكم الجميع ثابتة فى كل زمان ومكان.

(٢) سيرة ابن الداية ٧٦. (٣) سيرة البلوى ٣٠٩.

(٤) المصدر السابق: ٣٣٢. (٥) سيرة البلوى ٣٤٣.

وأخـــيراً، فـــإن كـــلاً مـــن: ابـــن الداية، والبلوى قد فهم التاريخ فهماً شاملاً، وذلك مـــن خـــلال عـــلاج ســـيرة ابـــن طولـــون علاجـــاً مستقصـــياً مـــن مخـــتلف الـــزوايا والجوانب، خاصة كتاب البلوى المفصّل، الذى عرض بتوسع لذلك. فلم يكن التاريخ مجرد سرد للأحـــداث السياســـية الـــتى مـــر هـــا ابـــن طولـــون، وإنمـــا امـــتدت واتســـعت عقلية هـــذين المؤرخـــيْن لتناول الجوانب العمرانية(١)، والاقتصادية(٢)، والاجتماعية(٣)، والإدارية(٤)،

---

(١) اهتم ابن الداية بإبراز النواحى العمرانية فى (سيرة ابن طولون)، فوصف دار الإمارة وأفنيتها، والميدان، ومدينة القطائع (صـــ٨٣)، والمسجد، والعين، والمارستان (صـــ٨٦)، وتنوع الشوارع اتساعاً وضيقاً ٩٢- ٩٣، ووصف سجوناً خاصة لبعض النزلاء الكبار كابن المدبر (عبارة عن حجرة واسعة، بها مائدة طعام، وخادمان) صـــ١٢٤. واهتم البلوى بذلك الجانب، فتناول تخطيط الشوارع، وتقسيمها إلى رئيسية تمر فيها مواكب الأمير، وشوارع فرعية داخلية، ومدى الاهتمام بنظافة الأولى، لتلائم علية القوم (صـــ٤٢). وامتاز البلوى بإعطاء القارئ صورة حية ماثلة للعيان لدار الإمارة بكافة تفاصيلها (صـــ٥٢- ٥٤). ووصف مدينة القطائع، وروعة تخطيطها العمرانى، وتوفير كافة مستلزماتها للاكتفاء الذاتى (صـــ٥٢- ٥٤). وأطال فى الحديث عن قصر ابن طولون، وأبوابه الكثيرة، وغرض كل باب منها، والطائفة المخصصة للدخول من كل باب، وتناول هندسة وتنظيم، وتوقيت استخدام هذه الأبواب(صـــ٥٤- ٥٦).

(٢) اهتم ابن الداية بإبراز بعض النواحى الاقتصادية، فذكر مقدار ما يُحمل من الخراج إلى الخلافة من أموال وأشياء عينية (صـــ٨٤، ٨٧)، وتحدث عن إصلاحات ابن طولون الاقتصادية، وإسقاطه ضرائب ابن المدبر (صـــ٨٥)، واهتمامه بتقديم العطاء لأئمة المساجد (صـــ٩٦)، واهتمامه بصناعة الأسطول (صـــ٩٥)، ومكافآته للعاملين بدار سك النقود (الدينار الأحمدى) (صـــ٩٩)، ونفقات مطبخ ابن طولون (صـــ١١٢)، وعرض لجانب من مصادرات ابن طولون لبعض الكتّاب (صـــ١٠٦- ١٠٧). وعرض البلوى لبعض مظاهر الاقتصاد، منها: وجود نظام المقايضة فـــى البيع والشراء (صـــ٦٥)، وما يرسل للخلافة سنوياً (صـــ٨٠)، والاهتمام بإنشاء السفن الحربية لدعم صناعة الأسطول (صـــ٨٧)، وعرض لبعض المصادرات (صـــ١٣١)، ونفقات مطبخ ابن طولون (صـــ١٤١)، وارتفاع أسعار القمح وثورة الناس ومعاقبة ابن طولون للقمّاحين والدقّاقين (صـــ١٤٩).

(٣) أبرز ابن الداية عدداً من الظواهر الاجتماعية، منها: حرص الشعب المصرى على التطلع إلى مواكب ابن طولون، ومراسم تلك المواكب (صـــ٧٦، ٧٨، ٩٧)، وذكر أصناف أطعمة ابن طولون على موائده الحافلة (صـــ١٠٠، ١٠٩)، ومراسم جنائز العامة (١٠٢)، وطبقة المستورين فى عهد ابن طولون (صـــ١٠٥)، ويوم السلام على الأمير (صـــ١١٣)، وصورة من حياة بعض المساجين فى السجون (صـــ١١٤). أما البلوى، فقد تعرض لبعض هذه الظواهر فى كتابه. ومن نماذج ذلك: تكافل المجتمع الإسلامى (صـــ٣٤)، ومواكب الأمراء وعلية القوم (صـــ٤٢)، وأوصاف طبقة الجند المصاحبين لابن المدبر، وأزياؤهم، وسلاحهم، ومكان جلوسهم (صـــ٤٤)، ومواكب الجيوش بعد انتصارها (صـــ٧٢)، وطبقة الصنّاع وما عليها من ديون مستحقة أُسقطتْ (صـــ٨٨)، ووصف بعض البيوت من الداخل فى نظافتها وفرشها (صـــ١١٩- ١٢٠)، وأنواع أطعمة ابن طولون (صـــ١٢٦)، وما يشيع فى بيوت العامة من شرب النبيذ، واقتناء الحمام، والدجاج على أسطح المنازل (صـــ١٥٧)، ومراسم جنازة ابن طولون (صـــ٣٤٥- ٣٤٦).

(٤) من نماذج الترتيبات الإدارية والتنظيمية التى أورد جانباً منها ابن الداية: وجود جوازات للمرور من مكان لآخر فى مصر أو إلى خارجها (صـــ٨٢)، واختيار الكتّاب الأكفاء بشروط معينة (صـــ١٠٦)، ووجود عدد من المناصب، مثل: (عامل معونة الناحية صـــ٩٨، وعميد الناحية صـــ٩٩، وعامل السجون صـــ١١٠، ورئيس السعاة (المخبرين) صـــ١١٢. وبالنسبة للبلوى، فقد أبرز الاهتمام بالعاصمة كمركز ثقل حضارى واجتماعى (صـــ٤٢)، وجواز السفر للمرور (صـــ١٣٨، ١٥٤)، ووجود إجراءات لشراء البيوت من تسجيل ووكالة =

والفكـــرية[١] في عهد الأمير (أحمد بن طولون). وباختصار عالج المؤرخان — خاصة البلوى — الجانب الحضارى إلى جانب التاريخى السياسى، فأتت كتابتهما متكاملة شاملة، ذات أثر بعيـــــد في المؤرخين من بعدهم.

خلاصة في أهمية ابن الداية والبلوى في عالم التاريخ والمؤرخين:

أ- يعد هذان المؤرخان المصدر الأساسى، الذى اعتمد عليه من أتى بعدهما من المؤرخين في كتابة تاريخ (أحمد بن طولون)[٢].

ب- مثّل هذان المؤرخان ثقافة القرن الرابع الهجرى كأحسن ما يكون التمثيل، ويمتاز ابن الداية بالموسوعية الثقافية إلى جانب الإلمام بعلوم جديدة، كانت بمنزلة روافد غذت التاريخ، وعَمّقت أسلوب عرضه، ومنهج تقديمه كالفلسفة، والمنطق، والفلك.

جـ- خطا هذان المؤرخان بعلم التاريخ خطوات كبيرة إلى الأمام عن طريق ريادتهما في كتابة (السير التاريخية)، ومنهجهما التاريخى المتكامل المحكم، الذى دلّل على فهم التاريخ فهماً شاملاً، وتناول أحداثه بطريقة علمية رائدة، وقدرة على التفاعل مع الأحداث واندماج فيها، وحسن فهم لها، وذلك من خلال الحضور مع الأحداث تعليلاً، وشرحاً، وتعليقاً.

- (صـ١٦٠)، ووجود ديوان للرسائل صـ١١٢، وللتصفح ١١٣، إلى جانب مناصب، مثل: صاحب الخـــراج، والأميـــن عليه، وصاحب ديوان الأملاك صـ٧٣، وكاتب السر (صـ١٠٠، ١١١)، وصاحب الخبر (صـ١١٨، ١٢٤)، والقائم بضبط المجرمين الهاربين (صـ١٣٠)، وصاحب الشرطة (صـ١٥٥).

(١) من مظاهر ذلك عند ابن الداية: إقامة الأئمة في مساجدهم صـ٩٦، ومفسر الرؤى الغسّال صـ١٠٣، ووجود علماء نحو وأدباء (خرجوا مع العباس) صـ١١٨، وأشعار ابن المدبر في استعطاف ابن طولون (صـ١٢٣-١٢٤). وفي كتاب البلوى: تعلم البعض اللغة القبطية (صـ١٣١)، وقدرة بعض الكتّاب على الارتجال في الخطابة (صـ١٤٧)، ودراسة علوم الفلك (صـ١٦٥)، وشعر/ يوسف بن إبراهيم في استعطاف ابن طولون (صـ١٦٥-١٦٦).

(٢) وردت نقول عديدة عن (سيرة ابن الداية) في: تاريخ دمشق ٣٤٠/٧، وبغية الطلب ١١٢/٣- ١١٣، ووفيات الأعيان ١٧٣/١، والمغرب لابن سعيد (قسم مصر) صـ١٣٤- ١٤٣، ومختصر تاريـــخ دمشق ٨٨/٨- ٨٩، ٣١/٢٠. أما البلوى، فقد نقل عنه المقريزى نصوصاً عديدة دون أن يصرح باسمه، واكتفى بتلقيبه بـ (جامع السيرة الطولونية)، وذلك في (الخطط) جـ١ صـ١٧١، ٢٣٠)، جـ٢ (١٢٣- ١٢٤، ١٧٨- ١٨١، ٢٦٥- ٢٦٧، ٤٠٥، ٤٥٧ - ٤٥٨).

الفصل الثالث

ابن زولاق مؤرخ سيرة الإخشيد، وصاحب أخبار سيبويه المصري

(سيرة الإخشيد) لابن زولاق

تقديم:

نتناول - ابتداء من الآن، وحتى نهاية هذا الفصل - جانباً كبيراً من الإنتاج التاريخى للمؤرخ المصرى المبرِّز (ابن زُولاق). ونعرض هذا النتاج حسب الترتيب الزمنى له، فنبدأ بكتابه الذى أرَّخ فيه لعهد الإخشيد من خلال كتابة سيرته. **وسوف تمر دراسة هذه السيرة عبر مراحل متعاقبة:**

أولاها - ترجمة مركزة للمؤرخ ابن زولاق.

ثانيتها - عرض سريع لمحتويات (سيرة الإخشيد).

ثالثتها - موارده فى هذه السيرة (النقد الخارجى).

رابعتها - النقد الداخلى لبعض القضايا التاريخية التى تثيرها.

خامستها - منهجه التاريخى فى عرض هذه السيرة.

أولاً - ترجمة ابن زولاق (٣٠٦- ٣٨٧هـ/٩١٩- ٩٩٧م)*

١- مولده وأسرته:

هو الإمام العلامة المحدّث الفقيه المؤرخ أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن

(*) وردت له ترجمة فى: الأنساب (مادة الزُولاقى): ١٧٩/٣، والمنتظَم لابن الجوزى (ط.دار الكتب العلمية) حـ١٤ صـ٢١٠- ٢١١ (هامش ٤)، ومعجم الأدباء ٢٢٥/٧- ٢٣٠، واللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير حـ٢ صـ٨١، ووفيات الأعيان ٩١/٢- ٩٢، وسير أعلام النبلاء ٤٦٢/١٦- ٤٦٣، وتاريخ الإسلام ١٥٤/٢١، ١٨/٢٧ (وفيات سنة ٣٨٦هـ)، و ١٣٦/٢٧ (وفيات سنة ٣٨٧هـ)، وتاريخ ابن الوردى ٤٣٧/١، ومخطوط عيون التواريخ للكتبى (مصور عن الظاهرية): ورقة ٢٤٦، والبداية والنهاية ٣٤٣/١١، والمقفى للمقريزى ٢٨٤/٣- ٢٨٦، ولسان الميزان (ط.موسسة الأعلمى) لابن حجر ١٩١/٢، ومخطوط (عِقْد الجُمان) للعَيْنى ١٢٥/١٠، والفضائل الباهرة لابن ظهيرة ١٣١، وحسن المحاضرة ٥٥٣/١- ٥٥٤، وبدائع الزهور لابن إياس ١٩٨/١، -

الحسـن بن[(١)] عليّ بن خالد[(٢)] بن راشد بن عبد الله[(٣)] بن سليمان[(٤)] ابن زُولاق[(٥)] الليثي[(٦)]، مولاهم المصرى[(٧)].

ولـد مؤرخنا (ابن زولاق) فى شهر شعبان من سنة ٣٠٦هـ، بعد وفاة الفقيه منصور بن إسماعيل بثلاثة أشهر (فى جُمادَى الأولى)[(٨)]. ولسنا نعرف عن والده شيئاً. والقليل الذى تناقلته المصادر إنما يتعلق بجده (الحسين بن الحسن بن على)[(٩)]، وبوالد جده (الحسن بن على بن خالد)، الذى كان يكنى بـ (أبى علىّ)، ويُلقّب بـ (المصرى الشيعى). وهـذا يعنى أن أسـرة ابن زولاق متواجدة على أرض مصر منذ قديم، حتى نُسب والد جده إليها، وأنها كانت متعاطفة مع آل البيت، فعُرفت بالتشيع المعتدل غير المذموم كعامة أهل مصر منذ قديم[(١٠)]. وقد اشتهر هذا الرجل بالعلم، فكان من مشاهير العلماء وأعيانهم فى مصر؛ إذ

- والكنى والألقاب للقمّى ٢٩٨/١، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان (ط.الهيئة العامة) ٨٦/٢- ٨٧، ومعجم المؤلفين ٥٣١/١- ٥٣٢، وظهر الإسلام لأحمد أمين ١٦٦/١، وتاريخ التراث العربى ٥٨٢/١، ومحمد عبد الله عنان فى: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصـرية ٤٠- ٤١، ومؤرخى مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى صـ٣٤ وبعدها، ود.على إبراهيم حسن فى: استخدام المصادر وطرق البحث صـ١٤٠- ١٤٢، ود.شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون ٣٧٦/١- ٣٦٩، ١٨٧/٢. Guest ; Introduction Of wulah and el qudah , P. 45- 46. Byrout , 1908 .

(١) ورد هذا الجزء من النسب محرفاً فى (لسان الميزان ١٩١/٢). هكذا: إبراهيم بن الحسن بن الحسين.

(٢) ورد بدلاً منه اسم (حلف) فى: (معجم الأدباء ٢٢٥/٧، ولسان الميزان ١٩١/٢). والصواب ما ذكرته فى المتن. والدليل ترجمة الذهبى لهذا الجد (الحسن بن عليّ بن خالد بن زولاق) فى (تاريخ الإسلام) ١٥٤/٢١.

(٣) ورد مكانه اسم (عبيد الله) فى (البداية والنهاية) ٣٤٣/١١ تحريفاً.

(٤) وردت فى (المقفى) ٢٨٥/٣ (سليم)، وهو تحريف؛ بدليل ما ورد فى (تاريخ ابن الوردى) ٤٣٧/١: أنه من ولد سليمان بن زولاق.

(٥) هكذا بضم الواو، كما ذكر ابن حلكان فى (وفيات الأعيان ٩٢/٢)، وخلافاً للتصحيف الوارد فى (مخطوط عيون التواريخ، ورقة ٢٤٦)، حيث وردت بالراء. ويغلب على ظنى أن اسم زولاق مأخوذ من الفعل (تَزَلَّق)، أى: تَزَيَّن وتَنَعَّم، حتى يكون للونه لمعان ولبشرته بريق، أو صبغ نفسه بالأدهان ونحوها. (اللسان: مادة (ز.ل.ق) ٣/ ١٨٥٤). وهو يناسب مكانة الأسرة ووجاهتها، كما سنرى.

(٦) نسبة إلى ليث بن كنانة، وهى قبيلة كبيرة،يُنسب إليها بالولاء.(وفيات الأعيان ٩٢/٢).

(٧) ورد هذا النسب الصحيح الكامل لدى ابن حلكان (المصدر السابق ٩١/٢).

(٨) ذكر ذلك تحديداً فى (وفيات الأعيان) جـ٢ صـ٩٢. واكتفى بذكر سنة الميلاد: الذهبى فى (سير أعلام النبلاء ٤٦٣/١٦، والمقفى ٢٨٥/٣، وتاريخ التراث العربى ٥٨٢/١، ومعجم المؤلفين ٥٣١/١). وحدث تحريف فى (لسان الميزان) لابن حجر ١٩١/٢، فجعل تاريخ ميلاد ابن زولاق سنة ٣٣٦هـ.

(٩) تتلمذ على أبيه (الحسن بن على)، وروى عنه. ولد على أرض مصر، ونشأ بها. حدّث عنه: ابن رشيق المُحَدِّث. (مخطوط تاريخ علماء أهل مصر) لابن الطحّان، ورقة ٢٣٣.

(١٠) " قال يزيد بن أبى حبيب فقيه مصر: كان أهل مصر يكتبون بمسائلهم (أى: فى الفقه) إلى جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ولا يعدلون عن فتياه ". وقد احتفل أهل مصر جداً بمقدم السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد مع زوجها (إسحاق بن جعفر) إلى مصر، ومنعه أهلها من دفنه إياها بالمدينة لما توفيت، فدُفنت فى مصر، واتخذ المصريون قبرها مشهداً، وهو باقٍ معروف حتى زمن ابن زولاق. (مخطوط مختصر تاريخ مصر، لابن زولاق) ورقة ١٥- ١٦.

كان من عيـــون المحدّثين المسندين[١]، وكان من الفقهــــاء ورواة الأخبار[٢].

وقد روى عن أبي صالح (عبد الله بن صالح المصرى كاتب الليث بن سعد المتوفى ٢٢٣هـــ)، ويحـــيى بن سليمان الجُعْفِي[٣]. وروى عنه المحدث المشهور (سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني المتوفى ٣٦٠هـــ). وتوفى والد جده هذا فى شوال سنة ٢٨٣هـــ[٤]. وعلى ذلك، فيغلب على الظـــن أن يكون ابن زولاق نشأ فى أسرة محبة لعلوم الدين، لديها شئ من الاهتمام بالحديث، والفقه، والتاريخ.

٢- تكوينه الثقافى:

عـــاش مؤرخنا ابن زولاق عمراً مديداً، بلغ إحدى وثمانين سنة؛ إذ كانت وفاته يوم الـــثلاثاء الخامس والعشرين من شهر ذى القعدة سنة ٣٨٧هـــ فى مصر، أيام الحاكم بأمر الله، ونظـــر الحسن بن عَمّار الوزير[٥]. وفى اعتقادى أن هذا العمر الطويل المبارك قد شهد جهوداً كبيرة من ابن زولاق؛ لأجل تحصيل العلم المتاح فى عصره، خاصة أنه نشأ فى تربة علمية خصبة، وعاصر أحداثاً سياسية متلاحقة متباينة، تدفع طالب العلم إلى الانكباب على التحصيل والدرس، والاستزادة من الزاد الثقافى، الذى يقدمه علماء ذلك العصر. فابن زولاق عاش قرابة عقدين من عمره فى فترة ما بين العصرين الطولونى والإخشيدى بما سادها من اضطرابات وصراعات وعدم اســـتقرار؛ مما كان يدفع طلاب العلم إلى تجنب هذا الواقع الكئيب، والاتجاه بكليتهم للاغتراف من ينابيع العلم، لعلهم - بعد ذلك - يسهمون فى تغيير هذا الواقع المؤلم.

---

(١) المخطوط السابق: ورقة ١٢. (٢) السابق: ورقة ١٢.

(٣) هو أبو سعيد الكوفى المقرئ. سكن مصر. روى عن: عمه، وعبد الله بن إدريس، وابن وهب، وغيرهم. روى عنه: البخارى، وروى عنه الترمذى بواسطة، وغيرها. وثقه ابن حبان، وتوفى بمصر سنة ٢٣٧ أو ٢٣٨هـــ. (تهذيب التهذيب ١٩٩/١١، وتقريب التهذيب ٣٤٩/٢، وقال عنه: صدوق يخطئ). ويلاحظ أن الذهبى لقبه بـــ (الجعفرى) تحريفاً فى (تاريخ الإسلام ١٥٤/٢١).

(٤) الأنساب ١٧٩/٣ (مادة الزولاقى)، واللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير ٨١/٢، وتاريخ الإســـلام للذهبى ١٥٤/٢١.

(٥) المقفى،للمقريزى٣٨٥/٣.ويلاحظ اختلاف المصادر فى تحديد تاريخ وفاة ابن زولاق، فرجّح ياقوت تاريخ ٣٨٦هـــ (معجم الأدباء ٢٢٦/٧)،وذكر الكتبى فى(مخطوط عيون التواريخ،نسخة الظاهرية)،ورقة ٢٤٦:أنه توفى يوم الأربعاء ٢٥ من ذى القعدة ٣٨٦هـــ.أما غالبية المصادر،فعلى تاريخ ٣٨٧هـــ،مثل:سير أعلام النبلاء ٤٦٣/١٦، وتاريخ ابن الوردى٤٣٧/١،والبداية والنهاية٣٤٣/١١،ومخطوط(عقد الجمان) للعينى ١٠/ورقة ١٢٥.وتأرجح الذهبى، فذكره مرة فى وفيات سنة٣٨٦هـــ فى(تاريخ الإسلام)١١٨/٢٧،وعاد فذكره ثانية فى وفيات سنة ٣٨٧هـــ (المصدر السابق:جـــ٢٧ صـــ١٣٦)،وهو الراجح فيما نرى؛لوثاقة القائلين به،خاصة المقريزى فى (المقفى)، وعبارته المحددة الواضحة فيه.ولكنه فاته ذكره فى(اتعاظ الحنفا). وأخطأ ابن ظهيـــرة، وابن إياس فى ذكر تاريخ وفاة ابن زولاق، فجعلاه عام ٣٨٩هـــ أيام الحاكم. (الفضائل الباهرة ١٣١، وبدائع الزهور ١٩٨/١).

وبعد ذلك عاصر الدولة الإخشيدية، وكانت فترة حكمها التى امتدت حوالى خمسة وثلاثين عامـــاً، تمـــثل ازدهـــاراً واستقراراً فى مصر، على الأقل فى فترة حكم الإخشيد. وفى ظل تشجيع الإخشـــيد وكافور – من بعده – للعلم وللعلماء كانت النهضة العلمية فى ذلك العصر فى مختلف المجـــالات، ويأتى على رأسها علم (التاريخ) بفضل جهود علمائه، الذين يأتى فى أوائلهم مؤرخنا ابـــن زولاق. ثم تســـتقبل مصر تحولاً جديداً من الحكم السنّىّ إلى الشيعى، ومن التبعية للخلافة العباســـية فى المشـــرق إلى تبعـــية جديدة للعُبيديين القادمين من المغرب، فينغمس ابن زولاق فى الاهـــتمام بذلك التغيير الكبير الحادث فى بلده مصر، ويعايش الحكام الجدد ويخالطهم عن كثب، ويسجل لنا أحداث عصرهم عن قرب، بدءاً من القائد جوهر، ومروراً بالمعز، وانتهاء بالعزيز.

ويمكـــن رصـــد أهـــم الملامح العامة لمكونات ابن زولاق الثقافية فى النقاط الموجزة الآتية:

أ- طلـــب ابن زولاق الحديث والفقه على أعلامهما فى مصر، من أمثال: الفقيه الحنفى أبى جعفـــر الطحاوى[١] (ت ٣٢١هـــ)، وأبى بكر بن الحداد الفقيه الشافعى[٢] (ت ٣٤٥هـــ). ولم يَفُتِ ابنَ زولاق التلقى على العلماء الوافدين إلى مصر، فكان يتبادل معهم رواية الحديث، يسمع منهم، ويروى لهم ما عنده. وقد حدث هذا مع المحدّث (عبد الله بن وهبان البغدادى)، الذى قدم إلى مصـــر، وأقام بها حتى وفاته سنة ٣٢٨هـــ[٣]. ويبدو أن ابن زولاق كانت له رحلات لطلب الحـــديث خارج مصر، فقد ورد أنه رحل إلى العراق، وسمع هناك المحدّث (سعيد بن عبد الله بن ســـهل البغدادى) سنة ٣٢٢هـــ[٤]. وورد – أيضاً – أنه زار الشام حوالى سنة ٣٣٠هـــ[٥]، إن

---

(١) وفيات الأعيان ٩٢/٢، وسير أعلام النبلاء ٤٦٣/١٦، وتاريخ الإسلام ١١٨/٢٧. وترجمته كالآتى: أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى المصرى الحنفى. ولد ٢٣٩هـــ، وسمع يونس بن عبد الأعلى، وبحر بن نصر الخولانى، وبكار بن قتيبة، وغيرهم. حدث عنه الطبرانى، وأبو بكر بن المقرئ، وغيرهما. له مؤلفات عديدة، منها: أحكام القرآن، ومعانى الآثار، واختلاف العلماء. توفى سنة ٣٢١هـــ. (سير أعلام النبلاء ٢٧/١٥- ٣١، وطبقات المفسرين للداودى ٧٣/١- ٧٥).

(٢) لسان الميزان ١٩١/٢. وترجمته كما يلى: هو الإمام محمد بن أحمد بن محمد بن جعفر المصرى. ولد سنة ٢٦٤هـــ (يوم مات المزنى). أخذ الفقه عن منصور بن إسماعيل الضرير، وجالس أبا إسحاق المروزى لما ورد مصر. له كتاب (الباهر فى الفقه). وولى قضاء مصر عام ٣٢٤هـــ، وله كتاب (أدب القضاء)، و(جامع الفقه). وتوفى سنة ٣٤٥هـــ. (تهذيب الأسماء واللغات للنووى جـــ١ من القسم الأول صـــ١٩٢- ١٩٣، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٧٩/٣- ٨٣).

(٣) تاريخ بغداد: ١٨٢/١٠، ومعجم الأدباء ٢٢٧/٧.

(٤) تاريخ بغداد ١٠٦/٩- ١٠٧.

(٥) سير أعلام النبلاء ٤٦٣/١٦. وذكر أنه ارتحل فيها إلى دمشق، وأن ابن عساكر فاته أن يذكره فى (تاريخ دمشق)، وقال: لم تبلغنى سيرته كما فى النفس (أى: كما أحب). وقال فى (تاريخ الإسلام) ١١٨/٢٧: قدم إلى دمشق بعد سنة ٣٣٠هـــ. وكلامه فى السير أثبت وأرجح وأكثر تحديداً، وهو آخر ما أَلَّف.

كـــنا لا نعرف شيئاً عن سبـــب زيارته تلك، لكن يبدو أنها كانت لطلب العلم أيضاً. وأعتقد أن ابن زولاق جمع قدراً طيباً من علم الحديث، جعلت إمام المحدثين ابن حجر يثني عليه، ويصفه بأنه صدوق لا شك فيه[١].

ب- بالنســبة لعلــم الفقه، أعتقد أن ابن زولاق كان على درجة طيبة من رحابة الفكر، واتســـاع الأفق، فلم يحصر نفسه داخل مذهب فقهي معين. والدليل على ذلك تنقله فى الأخذ علـــى فقهاء من مذاهب شتى (أحناف، وشافعية). ويبدو لى أنه طالع شيئاً من الفقه الظاهرى؛ بدليل الاهتمام الذى أولاه بابن إمام أهل الظاهر الفقيه الشاعر محمد بن داود المتوفى سنة ٢٩٧ هـــ[٢]. وعلى كل، فالظاهر أن ابن زولاق رسخت أقدامه فى الفقه بعامة (وفى الفقه الشافعى خاصة)، حتى نُسب إليه[٣]، وإن لم أجد له فى ذلك آثاراً باقية.

جـ- طلب ابن زولاق علم النحو، وتَلَقّى الآداب والأشعار، وكان زميلاً لواحد من كبار علمـــاء الـــنحو والكلام فى عصره (سيبويه المصرى)، الذى كانت تربطه به صلات، وله معه مواقف عديدة[٤]. وأعتقد أن لغة ابن زولاق الدقيقة[٥]، وعباراته الفصيحة الموجزة المركزة[٦]، وما يرويه من محفوظات أشعاره[٧]، وما سجله من نثر (سيبويه المصرى) وحِكَمه البليغة[٨]، لهى شواهد صادقة، ودلائل مضيئة على تمكنه فى مجالَى: اللغة، والأدب.

---

(١) لسان الميزان ١٩١/٢. وقد رَدّ بذلك عما رماه به رجل يدعى (ابن أعين الغزال) من الكذب، وأوضح ابن حجر أن هذا الرجل لا يعرفه (فهو مجهول لدى ابن حجر). ويمكن مراجعة ترجمة هذا الرجل باسم (ابن عين غزال) المتوفى بعد سنة ٣٣٠هـــ فى: (الأنساب ٤٩٤/٢، والمقفى ٧٣٩/٣- ٧٤٠، وتبصير المنتبه ١٠٤٣/٣).

(٢) راجع (تاريخ بغداد) ٢٥٩/٥، حيث يروى لنا ابن زولاق تنافس وتناظر محمد بن داود مع القاضى أبى العباس بن سُرَيْج. أما ما رواه فى صـــ٢٦٠، فينصلّ بجانب من هزل هذا الرجل فى عبارات نثرية بليغة، تتصل بما عُرف عنه من ميل إلى صديقه (محمد بن جامع الصيدلانى).

(٣) المقفى ٢٨٥/٣. وأورد له الصفدى فى (الوافى بالوفيات) ١٧٦/٢ عبارة ذكر فيها كتب ومؤلفات الإمام الشافعى. وذلك يدل على عظيم اهتمامه، وميله إلى ذلك المذهب.

(٤) راجع بعضها فى (أخبار سيبويه المصرى) صـــ٥٠- ٥١.

(٥) سيرة الإخشيد (ضمن كتاب المغرب لابن سعيد): صـــ١٩٥ (حيث استخدم لفظة: (تكافّ) فى معرض توقف الإخشيد وسيف الدولة عن الحرب بينهما، فهى تدل على رغبة متبادلة فى الكف عن محاربة كل منهما الآخر، وجنوحهما إلى السلم والصلح). وكذلك تضمينه بعض عبارات القرآن فى كلامه، وهى ذات دلالة على المعنى الذى يريد، مثل: تعبيره عن تسلل ابن رائق تحت جنح الظلام من دمشق إلى الرملة، وقتله وصلبه أحد رجال الإخشيد، فقال: (أسرى ليلاً) صـــ١٧٨، وهى مأخوذة من قوله: (تعالى) " سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً " (الإسراء: من الآية الأولى). يمكن مراجعة مزيد من الأمثلة (صـــ١٥٣، ١٥٥، ١٨٠، ١٩٣).

(٦) أخبار سيبويه المصرى: ٢٣.

(٧) راجع أشعاراً كثيرة، وردت فى (المصدر السابق): صـــ٤٧، ٥١، ٥٤ – ٥٧.

(٨) السابق: ٢٢.

د- وأخـــيراً، علم التاريخ: يبدو أن اهتمام جد أبيه برواية الأخبار قد تبعه اهتمام متوارث فى أســـرته على مستوى جده، ثم أبيه فى حب التاريخ وروايته. وأكاد أقطع بأن محور اهتمامهم كان منصبّاً على (تاريخ العلويين فى مصر)، وتَلَقّاه عنهم ابن زولاق، فنقل لنا جانباً طيباً منه فى مخطوطته: (مختصر تاريخ مصر)[1]. وقد أُشرِب ابن زولاق حب التاريخ، ورواية أحداثه، وكان حريصاً على جمعها وكَتْبها، وكثيراً ما كان يُنشد: مازلتَ تكتب فى التاريخ مجتهداً حتى رأيتك فى التاريخ مكتوبا[2].

والحق أن ابن زولاق تلقى علم التاريخ على أعلامه فى مصر، وقصر اهتمامه على أحداث بـــلاده. ويأتـــى على رأس أساتيذه من المؤرخين: المؤرخ المصرى الرائد فى مجال السير التاريخية (أحمـــد بـــن يوســـف المصرى المعروف بابن الداية ت ٣٤٠هـــ). وقد انتهج ابن زولاق نهج أســـتاذه، فكـــتب لنا عدداً من السير التاريخية المهمة[3]، وطوَّر فيها، ووسَّع مجالها[4]، على ما سنرى بعد قليل. أما أستاذه الآخر فى مجال التاريخ، فهو المؤرخ العظيم الكندى (ت ٣٥٠هـــ). وقد تأثر به ابن زولاق، ونحا منحاه فى اختيار الموضوعات التى يطرقها ويؤلف فيها، فكتب مثل أســـتاذه فى مجال (الخطَط)، (والقضاء)[5]. وزاد عليه ما كتبه فى (الفضائل)[6]، وتاريخه الكبير المـــرتب على السنين. وهكذا، يمكن القول بأن ابن زولاق كان امتداداً لمن عاصره وسبقه من المـــؤرخين المصـــريين[7]، وأنه كان حلقة مكملة لهم فى بناء صَرْح المدرسة التاريخية المصرية فى القـــرن الرابع الهجرى، وأنه لولا جهوده المضنية المتواصلة المقتصرة على مجال التاريخ المصرى، لوُجدت ثغرات عديدة فى أحداث عصره، لا تجد من يسد خللها.

---

(١) وذلك تحت عنوان: ذكر عيون أشراف مصر، ومن دخلها من آل أبى طالب (ورقة ١٣- ١٦). وراجع – كذلك – ما ذكره فى (الكواكب السيارة) لابن الزيات صـــ٣٠.

(٢) معجم الأدباء: ٢٢٦/٧. وقد تخيل شخصاً آخر شديد النهم فى الإقبال على كتابة التاريخ، فخاطبه بهذا الخطاب، الذى نَمّ عن شديد شغفه بهذا العلم، حتى إنه توقـــع أن تظل نفسه تَوّاقة إليه، ممسكة بالقلم تسطر أحداثه حتى آخر حياتها، حينما تُفاجأ بانتقالها عن هذا الوجود، وأصبحت محلاً لكتابة غيرها عنها فى كتب التاريخ.

(٣) تتلمذ ابن زولاق على ابن الداية، وقرأ كتبه التاريخية عليه، وحدَّث بها، ثم عمل ما فاته من (سيرة أحمد بن طولون)، و(سيرة ابنه خمارويه). (المغرب – قسم مصر – صـــ١٤٨، والإعلان للسخاوى نشر: روزنتال) صـــ٥٥١، وتاريخ مصر الإسلامية للشيال جـــ١ صـــ١٣١). هذا إلى جانب (سيرة الإخشيد، وجوهر، والمعز، والعزيز، وغيرها)، مما سنتناوله بعد ذلك.

(٤) فكتب سيرة أحد علماء مصر فى النحو والكلام (سيبويه مصر)، وهو ما لم يلتفت إليه أستاذه ابن الداية.

(٥) لسان الميزان ١٩١/٢، ومقال الأستاذ عنان عن (ابن زولاق) فى (ملحق جريدة السياسة اليومية) عدد ٧/٨/ ١٩٣٢، صـــ٤، ومقدمة محققى كتاب المغرب لابن سعيد (قسم مصر، صـــ م٤٤، وتاريخ مصر الإسلامية للدكتور الشيال ١٣١/١).

(٦) ذكر السيوطى فى (حسن المحاضرة) ٥٥٣/١: أن الكندى صنّف كتاب (فضائل مصر). والصواب أنه لابنه عمر ابن الكندى.

(٧) أعتقد أن ابن زولاق تأثر فى كتابته عن (خطط مصر) – مثلاً – برائد هذا الفن التاريخى فى مصر (المؤرخ ابن عبد الحكم ت ٢٥٧هـــ).

٣- علاقاته الشخصية، وأثرها فى إنتاجه التاريخى:

أعتقد أن مؤلفات ابن زولاق، التى دبجتها قريحته، كانت ثمرة يانعة لمجموعة من العوامل، تدخلت فى نسيج تشكيلها، وإخراجها إلى حيِّز الوجود. وقد تناولنا بعضها فيما مضى (تأثير أسرته، ومكونات ثقافته داخل، وخارج مصر). وأعتقد - مرة أخرى - أن كتب هذا العالِم، وقد اقتصرت على مجال (تاريخ مصر)، قد استفادت من كافة روافده الثقافية الأخرى (حديث، وفقه، ولغة، وأدب)؛ لتصب - فى النهاية - فى مجال اختصاصه الأثير لديه (التاريخ). والدليل على ذلك أن كافة كتبه المعروفة لدينا - سواء كان منها مطبوعاً، أم مفقوداً لا نعرف سوى بعض بقاياه، أو مجرد عناوينه - تدخل فى صميم (تاريخ مصر).

يمتاز ابن زولاق على كثير من مؤرخى القرون الماضية فى مصر بميزة فريدة هى أنه (**يكتب تاريخاً عاصره بنفسه**)، وذلك فى العصر الإخشيدى، فالعُبَيْدى. والحق أن هذه النوعية من التأريخ تتطلب أمرين مهمين: الاطلاع على خبايا الأمور، والاختلاط برجال الحكم؛ لمعرفة ما يدور وراء الكواليس. والأمر الآخر: شجاعة نادرة، وبعد عن الهوى، ونزاهة بعيدة المدى. وأدع الأمر الثانى - مؤقتاً - لحين تناول سمات شخصية ابن زولاق، وبيان منهجه فى كتابه: (سيرة الإخشيد)، وغيره من الكتب الأخرى. وأركز - الآن - على الأمر الأول علاقاته بحكام عصره). **وهذه أوجزها فيما يلى:**

أ- صلاته برجالات العصر الإخشيدى:

من رجال هذا العصر العالم النحوى المتكلم (سيبويه المصرى) المولود سنة ٢٨٤هـ، والمتوفى سنة ٣٥٨هـ[١]. وقد كان بعقل هذا الرجل شئ من الوسوسة والاختلاط. وكان ابن زولاق قد بدأت صلته به فى مجلس الفقيه أبى بكر بن الحداد، عشية جمعة بعد صلاة العصر فى المسجد الجامع سنة ٣٢١هـ[٢]، ثم توطدت الصلات بينهما بعد ذلك، حتى بلغت معرفة ابن زولاق به، وتتبعه أخباره وقربه منه، أن كتب سيرته، وأفرد لها كتاباً، سندرسه قريباً، إن شاء الله. وقد كان هذا الرجل مشهوراً للعامة والخاصة، وكان يُظن به الجنون، فسهل عليه الاختلاط بكافة طبقات المجتمع من الباعة فى سوق الوراقين[٣]، إلى الفقهاء والعلماء فى مجالسهم[٤]، إلى الأشراف العلويين فى

(١) أخبار سيبويه المصرى: ١٧.

(٢) المصدر السابق: صـ٢٢.

(٣) المصدر السابق: صـ٤٣

(٤) السابق: ١٩، ٢٢.

بيوتهم[١]، إلى ذوى المناصب فى طريقهم ومواكبهم من أمراء[٢] ووزراء[٣]، وأصحاب خراج[٤]، وصاحب ديوان الأحباس[٥]، حتى بلغ به الأمر أن جالس (أونوجور بن الإخشيد) وسامره، ومعه الوزير الحسين بن محمد المادَرائي، وواكلهما ونادمهما[٦]. وبدهى أن ذلك الرجل كان يعرف كثيراً من الأسرار والأخبار، وكان لا يتورع – ووسوسته تحميه فى كثير من الأحيان – عن توجيه النقد اللاذع المرير بألفاظ خشنة مستهجنة قاسية؛ لما يراه من اختلال[٧]، أو انحراف[٨]، أو إسراف[٩]، أو غش وتدليس[١٠]. ولا شك أن مصاحبة ابن زولاق إياه جعلته يقف على كثير من الأمور، ويدرك العديد من الحقائق، التى ساعدته على كتابة مؤلفاته.

لم تذكر لنا المصادر شيئاً من علاقة (ابن زولاق) بالإخشيد، لكن هناك نصّاً يفيد وجود علاقة وطيدة بين مؤرخنا وكافور الإخشيدى، إذ أوفده فى أيام تدبيره دولة (أونوجور بن الإخشيد) برسالة منه إلى سيف الدولة (على بن عبد الله بن حمدان)، وذلك فى السابع من ذى القعدة سنة ٣٤٧هـ[١١]. وهذا يعنى أن مؤرخنا كان على صلة ببلاط كافور، باعتباره أحد العلماء المبرّزين فى عصره، ولعله كان يتمتع بمهارات دبلوماسية رفيعة لا نعرف عنها شيئاً، أهّلته لحمل رسالة كافور إلى سيف الدولة، ولعلها كانت محاولة لتهدئة الأحوال بينهما[١٢]. وعلى كل، فإنى أرى أن ابن زولاق المؤرخ لم يكن بعيداً عن أحداث عصر الإخشيد، وإنما كان يتابعها بحس المؤرخ اليَقِظ، وعندما طلب إليه أبو الحسن (على ابن الإخشيد) أن يكتب سيرة أبيه (الإخشيد) سنة ٣٥٠هـ، كتبها له مستعيناً على ذلك بما شاهده بنفسه من أحداث، أو

---

(١) السابق: ٣١- ٣٢.
(٢) السابق: ٣٢.
(٣) لاحظ إرسال الوزير أبى بكر بن مقاتل احتياجاته إليه سرّاً (السابق ٤١- ٤٢).
(٤) مثل: موقفه من أبى بكر الخازن (المصدر السابق: ٤٥).
(٥) هو الحسين بن أيوب الصَّيْرَفِىّ (السابق: صـ٥٠- ٥١).
(٦) أخبار سيبويه المصرى: ١٨؛ ٣٦.
(٧) مثل: احتجاجه الشديد، وتهكمه المقزز بمبايعة أحمد بن على بن الإخشيد وهو طفل، بعد وفاة كافور، وهو ابن إحدى عشرة سنة. (السابق: ٥٢- ٥٣).
(٨) احتج على وصاية كافور، وصغر الصبى علىّ بن الإخشيد، وتدخُّل أم هذا الصبى؛ كى يتولى الحكم. وقد صاح بكافور: مَدْح القط خرى فى السعير، لا أعتق الله منك قُلامة ظُفر. والتفت إلى الناس قائلاً: حصلنا على خَصِىّ (كافور)، وصبى (على بن الإخشيد)، وامرأة (أمه). (السابق ٣٢).
(٩) كحشد المواكب وازدحام الطرقات بالناس؛ لأجل مرور موكب الإخشيد (السابق ٢٨).
(١٠) كتشكيكه فى صحة إسلام الوزير اليهودى الأصل (يعقوب بن كلّس فى عهد كافور)، وكان ذلك سنة ٣٥٦هـ (السابق ٤٤).
(١١) المقفى ٣/٢٨٥.
(١٢) فقد كانت للحمدانيين أطماعهم فى بلاد الشام، وكانوا قد انتهزوا فرصة وفاة الإخشيد، واعتدوا على ممتلكاته بالشام من قبل.

ناقلاً إياها عن كل موثوق به ما أمكنه ذلك، حتى أتمها ولاقت استحسان الأمير، وأجرى عليه هو ووالدته مكافأة سنوية؛ جزاء إتمامه هذا العمل[١].

ب- علاقته بالعُبيديين:

ينفـــرد كـــل من: ابن الجوزى[٢]، ثم المقريزى[٣] بخبر، مفاده أن مؤرخنا ابن زولاق كان فيمن خرج إلى المعز؛ للقائه لما قدم إلى مصر، وأنه خطب بين يديه خطبة أصغى إلى جميعها، وما سار حتى فرغ منها. ويتضح من نص هذه الخطبة أن ابن زولاق أصيل فى تشيعه؛ مما يدل على أنـــه كان على صلة بما يقوله دعاة العبيديين المنتشرون فى أرجاء مصر (فى عهد كافور خاصة)، وأنه كان على علم وقناعة بمبادئهم، وربما كان من العاملين على تهيئة الأمور فى مصر لقدومهم. ولعـــل تأكـــده من أنهم هم السادة والحكام الجدد كان أكبر دافع لإظهار تشيعه لهم، وإظهار المديح فى حقهم. لقد سلّم على المعز بإمرة المؤمنين، وعَدّه الإمام المنتظر، ومَهْدِىَّ الأمة وعالمها، وخليفة رب العالمين، وصاحب السر والإعلان. وأخذ يمدح بيته جاعلاً إياه من آل بيت النبوة. وأخـــيراً، مـــدح علمه فى كتبه التى وردت إلى مصر، وأقرّ ابنُ زولاق أنه كان ممن نشرها فى أمصار المسلمين، واعتبرها شرفاً شرّفهم الله به على جميع العالمين.

وإذا صَحَّت نسبة هذه الخطبة إلى ابن زولاق، فإننا لا نستبعد أن يكون ابن زولاق قد وُلِّى - أيام المعز مثلاً - النظر فى ديوان المظالم[٤]، وإن كنا لا نعرف تاريخ ذلك بالتحديد، ونعجب لعدم ذكر المقريزى نفسه هذه الخطبة، وخبر هذا المنصب فى كتابه: (اتعاظ الحنفا)، وهو الذى يعد من أكثر المصادر تفصيلاً فى تاريخ العبيديين، على ميل المقريزى نفسه إلى تصحيح نسبهم. وعلى كلٍ، فلعل المقريزى تدارك فى كتاب (المقفى) ما فاته فى (الاتعاظ). ومعلوم أنه ليس هو الوحيد الذى أورد هذه الخطبة، وإنما سبقه إليها ابن الجوزى. وبناء على ذلك، فأنا أميل إلى أن تشـــيع ابـــن زولاق كان حقيقة، خاصة أن ابن حجر يؤيد ذلك - وهو الذى لا بد قد طالع مؤلفاته التى ضاعت - ويذكر أنه ظاهر من تصانيفه التى صنَّفها قديماً[٥]. وسوف نلاحظ - من خـــلال بقايـــا سيرة المعز لابن زولاق - أنه قريب من الأحداث؛ مما يشير إلى ارتفاع مكانته عندهم، وإلا لتعرض للتنكيل والقتل.

---

(١) سيرة الإخشيد: صـــ١٤٩.

(٢) المنتظم (ط.دار الكتب العلمية): جـــ١٤ صـــ٢١٠- ٢١١ (هامش٤): وأشار إلى أنها موجودة على هامش النسخة الخطية المرموز لها بالحروف (ل)، أى: نسخة برلين على ما ذكر المحقق فى مقدمته ٤٧/١، وهى على خلاف النسخة الأم عنده (نسخة أحمد الثالث).

(٣) المقفى ٢٨٥/٣- ٢٨٦.

(٤) المقفى ٢٨٦/٣، ولسان الميزان ١٩١/٢.

(٥) لسان الميزان ١٩١/٢. ولعله يقصد ما كتبه فى (سيرة المعز، وجوهر).

ويؤيد هذا الرأى السابق ما أورده ياقوت فى كتابه: (سيرة العزيز) لابن زولاق، وفيه يتضح أنـه لا يـزال يتمتع بمكانة سامية فى ظل دولة بنى عُبيد فى عهد (العزيز)؛ إذ كان يحضر مجلس الوزير (يعقوب بن كلس)، الذى فيه أرسل العزيز إليه بالخِلَع، وقرئ فيه سجل تشريفه بعد أن ولى الوزارة (٣٦٥هـ). وقد دار فى هذا المجلس حوار ونقاش بين ابن زولاق والوزير، ظهر منه أن الوزير كان فى نفسه شئ تجاه ابن زولاق، وأنه لم يقبل كلامه المجامل له، وردّه عليه، وأساء تأويلـه، وعدّه ذمّاً له، فى الوقت الذى قاله فيه ابن زولاق على سبيل المدح والثناء؛ مما دفع ابن زولاق إلى الانصراف[١].

والآن، وبعـد إبـرازنا العوامل التى يسَّرت لابن زولاق تأليف مصنفاته التاريخية – خاصة التى عاصـر أحداثها، حتى لُقِّب بالمؤرخ المشهور[٢]، والتاريخى[٣]، وصاحب التواريخ والتصانيف –[٤] نعرض – على عجالة – أسماء هذه المؤلفات التاريخية[٥]، مرتبة حسب ظهورها على وجه التقريب:

١- الذيل على سيرة أحمد بن طولون[٦].

٢- الذيل على سيرة أبى الجيش خمارويه[٧]. **(وهما مفقودان)**.

٣- **سيرة الإخشيد**: وهى مفقودة فى الأصل، إلا أن ابن سعيد جمع لنا ما تيسر له منها فى كتابه: (المُغْرِب فى حُلَى المغرب – القسم الخاص بمصر)[٨].

٤- كتاب سيرة المادرائيين[٩] (وهو مفقود).

٥- كتاب سيرة كافور (مفقود)[١٠].

٦- إتمـام أخـبار أمـراء مصر للكندى[١١]: وهو كتاب مفقود ذيّل به، وأكمل كتاب

---

(١) معجم الأدباء ٧/٢٢٧- ٢٢٨

(٢) لسان الميزان ٢/١٩١.

(٣) المقفى ٣/٢٨٥

(٤) تاريخ الإسلام ٢٧/١١٨

(٥) ذكر حست فى مقدمته بالإنجليزية صـ٤٥- ٤٦ لكتاب (الولاة والقضاة) للكندى الكتب الآتية لابن زولاق: (القضاة، والأمراء، وسيرة الإخشيد، وسير المادَرائيين، وسيرة المعز، وسيرة القائد جوهر، وسيرة العزيز). وهى المذكورة فى: المقفى جـ٣ صـ٢٨٦.

(٦) سيرة الإخشيد فى كتاب (المغرب – قسم مصر) صـ١٤٨.

(٧) المصدر السابق: سيرة الإخشيد فى كتاب (المغرب – قسم مصر) صـ١٤٨.

(٨) صـ١٤٨- ١٩٧.

(٩) مخطوط (عيون التواريخ) للكتبى (مصور عن الظاهرية):ورقة ٢٤٦، والمقفى ٣/٢٨٦

(١٠) مخطوط (عيون التواريخ) للكتبى (مصور عن الظاهرية): ورقة ٢٤٦.

(١١) سيرة الإخشيد (فى كتاب المغرب – قسم مصر) صـ١٤٩

(الولاة، أو أمراء مصر) المذكور من وفاة الإخشيد (سنة ٣٣٤هـ) حتى دخول (جوهر) مصر بجيوش العبيديين سنة ٣٥٨هـ، وما تلا ذلك من أحداث دخول المعز مصر. وهذا يعنى أنه استكمل به تأريخه للدولة الإخشيدية، وفترة حكم جوهر حتى مجئ سيده.

٧- أخبار سيبويه المصرى[١] (وهو مطبوع).

٨- مجموعة كتب عن: (خطط مصر)[٢]، و(التاريخ الكبير على السنين)[٣]، و(فضائل مصر وأخبارها وخواصها)، و(مختصر تاريخ مصر)[٤]. الأولان منهما مفقودان، والأخيران مخطوطان.

٩- سيرة جوهر[٥].

١٠- سيرة المعز[٦]. **(كلها مفقودة).**

١١- سيرة العزيز[٧].

١٢- أخبار قضاة مصر[٨]: وفيه أكمل كتاب (القضاة) للكندى، فيعد بمنزلة ذيل عليه، إذ يبدأ من حيث انتهى (من فترة ولاية القاضى بكار بن قتيبة سنة ٢٤٦هـ، ويختتم الكتاب بذكر القاضى العُبيدى (محمد بن النعمان) متكلماً على أحواله إلى شهر رجب سنة ٣٨٦هـ). (وهو مفقود).

ويلاحظ على أسماء مؤلفاته السابقة ما يلى:

أ- أننى حاولت استقصاء كافة أسماء مؤلفاته، من خلال ما ورد فى المصادر والمراجع المختلفة.

ب- أن كل ما يُعرف من هذه المؤلفات يدخل فى إطار (تاريخ مصر)، فلعله اختص بذلك.

---

(١) سوف أدرسه بعد قليل بإذن الله. والغريب أن المصادر لم تذكره، على كثرة ما ذكرتْ من كتبه الأخرى المفقودة الكثيرة.

(٢) ذكره الذهبى فى (تاريخ الإسلام ١٣٦/٢٧)، وابن الوردى فى (تاريخه) حـ١ صـ٤٣٧، وابن ظهيرة فى (الفضائل الباهرة) صـ١٣١، ومخطوط عقد الجمان ١٠/ورقة ١٢٥ (وقال عنه: استقصى فيه).

(٣) ذكره الكتبى فى (مخطوط عيون التواريخ) ورقة ٢٤٦، وكحالة فى (معجم المؤلفين) ٥٣١/١.

(٤) ذكر فى مقدمته أنه اختصره من (تاريخه الكبير على السنين)، ولم يذكر إسناد الخبر على سبيل الاختصار والتيسير (ورقة ٣)

(٥) ورد ذكرها فى: مخطوط عيون التواريخ للكتبى: ورقة ٢٤٦، والمقفى ٢٨٦/٣، ومعجم المؤلفين ٥٣١/١.

(٦) مخطوط عيون التواريخ للكتبى: ورقة ٢٤٦، والمقفى ٢٨٦/٣.

(٧) ورد ذكرها فى مخطوط عيون التواريخ: ورقة ٢٤٦، والمقفى ٢٨٦/٣

(٨) وفيات الأعيان ٩١/٢- ٩٢، والبداية والنهاية ٣٤٣/١١

ج- أن كـــل مؤلفاته - للأسف الشديد - تكاد تكون مفقودة، اللهم إلا كتاب (أخبار ســـيبويه المصـــرى)، وبعده (سيرة الإخشيد)، وهذان مطبوعان. أما (فضائل مصر)، و(مختصر تاريخ مصر) فمخطوطان.

د- أنه تخصص فى كتابة كتب سير الحكام، بالإضافة إلى سيرة أحد العلماء.

هـــــ- أنه كان يحاول سد ثغرات تركها مؤرخون سابقون فى علاج بعض فترات تاريخ مصر، فعالج ما فات ابن الداية فى تاريخ الدولة الطولونية (عهدى ابن طولون، وخمارويه فقط)؛ لأن الدولـــة أخـــذت فى الانهيار بعد خمارويه. وعالج تاريخ الدولة الإخشيدية كاملاً؛ لوجود كافـــور من بعد موت الإخشيد. واهتم بالتأريخ لصدر الدولة العبيدية من حكام وقضاة، حتى قبل وفاته بقليل[١].

وأخـــيراً، فإنه يمكن تركيز السمات العامة المستخلصة من حياته ومؤلفاته فى النقاط الآتية:

أ- إلمامه بثقافات عصره المشهورة (خاصة التاريخ).

ب- تواضعه وحياؤه، ومسالمته[٢].

ج- مداراته، وتشيعه[٣].

ثانياً - محتوى سيرة الإخشيد(*):

١- بـــدأ المؤرخ المصرى ابن زولاق كتابه ببيان جهود سابقيه فى كتابة سيرة ابن طولون، وابنه خمارويه، وذكر لنا ملاحظاته على مَنْ سبقه فى كتابة (سيرة الإخشيد).

٢- انـــتقل - بعد ذلك - إلى ترجمة (جد الإخشيد، ووالده)، وبيان أصل الأخير ومناصبه التى وليها، وظروف وفاته فى السجن لدى الوزير (العباس بن الحسن) سنة ٢٩٤هـــ، ثم انتقام ولديْه: محمد، وعُبيد الله له من هذا الوزير.

---

(١) جعلها الأستاذ عنان نحو عام ونصف (مقاله عن ابن زولاق فى ملحق جريدة السياسة اليومية) عدد ١٧/٩/١٩٣٢م، صـــ٩. وهو الصواب.

(٢) راجع أخبار سيبويه المصرى: صـــ١٧، ٥٠.

(٣) مداراته كراهية الوزير ابن كلس له (معجم الأدباء ٧/٢٢٨)، وتشيعه بالانتساب إلى مذهب العبيديين، وتصحيح نسبهم (كنز الدرر جـــ٦ صـــ٤)

(*) اعتمدت فى دراسة هذه السيرة ومحتوياتها على القدر، الذى احتفظ لنا به منها ابن سعيد المغربى فى كتابه: (المغرب فى حلى المغرب - القسم الخاص بمصر) صـــ١٤٨ - ١٩٧. وجدير بالذكر أن هناك طبعة قديمة للمستشرق (تلكوست) مملوءة بالأغلاط، ونشر فيها من المغرب الجزء الخاص بالدولة الإخشيدية، وذلك سنة ١٨٩٩م (مقدمة محققى المغرب لابن سعيد - قسم مصر - صـــ م ٥١).

٣- حال ولديْه، وتقلُّب (محمد بن طغج) فى خدمة تكين، ومناصبه بالشام.

٤- تــرقب (محمــد بــن طغــج) أحوال مصر وهو بالشام،حتى توفى تكين واليها سنة ٣٢١هــ، فأخذ يتحين الفرصة للانقضاض على حكم مصر، وتفاصيل دخوله مصر بالقوة،حتى فرض سيطرته عليها، ثم أمّن المصريين من نهب جنده.

٥- ذكــر ابن زولاق بعض أعمال ابن طغج فى مصر، مثل: نقله دار الصناعة من جزيرة الروضة إلى دار بنت الفتح بن خاقان؛ حرصاً على تأمين السفن والمراكب، وقام بتحويل موضع الصناعة الأول إلى بستان سمّاه (المختار)، وجعله متنزهاً يفاخر به أهل العراق.

٦- بــيان علاقة ابن طغج مع كل من: محمد بن على المادَرائى، ومحمد بن تكين، والوزير الفضل بن جعفر لما قدم إلى مصر.

٧- مصادرة ابن طغج المادَرائىَّ، حيث قبض ضياعه بالشام، وأكثر ضياعه فى مصر، وقام بمصادرة أولاده، وحاشيته أيضاً.

٨- مظاهر ترسم ابن طغج خطوات ابن طولون، إذ قلّده فى مواكبه واحتفالاته، ومراسم استعراض جيوشه.

٩- اهتم ابن زولاق بعرض نماذج كثيرة لمصادرات ابن طغج كبار أثرياء مصر فى عهده، مــثل: كاتــبه محمد بن كَلا، وعفان بن سليمان البزّاز أجَلّ تاجر فى مصر أيامه (استولى على جانب من تركته لما مات).

١٠- عــرض ابن زولاق النص المطوَّل لكتاب (إبراهيم بن عبد الله النجيرمى) سنة ٣٢٥ هــــ، الذى يردّ فيه - على لسان ابن طغج - على كتاب أرمانوس (ملك الروم)، وفيه يشرح مكانـــة دولته وعظم اتساعها، ويبيّن سياسته الداخلية والخارجية، وآفاق التعامل والتعاون مع الروم فى مجال التبادل التجارى، مع الاتفاق على تبادل الأسرى.

١١- زيادة مكانة ابن طغج لدى الخليفة العباسى (الراضى)، ومنحه إياه لقب (الإخشيد) سنة ٣٢٧هــ، بعد أن كان طلبه إليه ابن طغج سنة ٣٢٦هــ.

١٢- عرض ابن زولاق تفاصيل الصراع والصدام مع ابن رائق، وما نتج عنه من صلح بين الطرفين، وأحداث مقتل ابن رائق. ثم صدام الإخشيد مع سيف الدولة، وما أسفر عنه من تصالح الطرفين.

١٣- ذكر ابن زولاق بعض إصلاحات الإخشيد الاجتماعية فى مصر، مثل: هدم المواخير، ودور المقامرين، ومعاقبة المشاركين فيها.

١٤- أكثر من عرض نماذج دالّة على شراهته الشديدة للمال، وكثرة مصادراته؛ طمعاً فى أموال الآخرين، وقيامه باحتكار العنبر للتجارة فيه.

١٥- لقاؤه بالخليفة المتقى بالرقة، وفشله - كما فشل ابن طولون مع المعتمد من قبل - فى استقدام الخليفة إلى مصر، ونقل الخلافة إليها.

١٦- ظـــروف وفاة الإخشيد بدمشق سنة ٣٣٤هـــ، ومقدار ما خلّف من تركة (أموال وعبيد، ودواب ومراكب، وبغال، وجواهر، وغيرها).

ثالثاً - النقد الخارجي لسيرة الإخشيد (موارده):

حـــدد المؤرخ ابن زولاق منهجه فى اختيار (موارده)، التى يستمد منها مادته التاريخية فى (سيرة الإخشيد) فى كلمات قاطعة واضحة محددة، يقول فيها بالنص: " ولم أُضمّن هذه السيرة إلا مـــا شاهدتُه، أو أخبرنى به مَنْ أثق به حسبما أمكننى "[١]. وهذا يعنى - باختصار - أنه دقّق وانتقـــى مـــوارده، وحرص أن يسجل ما رآه بنفسه باعتباره معاصراً لأحداثها، وما لم يشهده بنفسه نقله من الموثوق بهم قدر الإمكان.

وبعـــد قـــراءة وتأمل هذه السيرة، وجدتُ أننا يمكن أن نحـــلل مواردها إلى الأقسام الآتية:

١- القسم الأول - موارد صريحة محددة نقل عنها سماعاً:

وهذه عددها ثلاثة وعشرون (٢٣) مورداً، توزع كالآتى:

أ- أربعة موارد:

روى عن كل منها روايتين، وهى: (الحسين بن أحمد بن أرنخا)[٢]، وأبو الفضل جعفر بن الفضل الوزير[٣]، ومحمد بن الحسن[٤]، ومحمد بن الحسين)[٥].

ب- بقية الموارد:

روى عن كل منها رواية واحدة فقط (عددها ١٩ مورداً)، وهى: (أحمد بن عبيد الله[٦]،

---

(١) سيرة الإخشيد (داخل كتاب المغرب - قسم مصر لابن سعيد)، لابن زولاق: صـــ١٤٩.
(٢) المصدر السابق: صـــ١٥٨، ١٦٠.
(٣) سيرة الإخشيد (داخل كتاب المغرب - قسم مصر لابن سعيد)، لابن زولاق: صـــ١٧٣- ١٧٤.
(٤) السابق: صـــ١٨٩- ١٩٠.
(٥) السابق: ١٦٢، ١٧٩.
(٦) السابق: ١٥٠.

وفارس بن نصر العراقى[١]، وحمزة بن محمد الحافظ[٢]، وعلى بن يعقوب[٣]، والفضل بن محمد[٤]، وعلى بن محمد الصّورى الفقيه[٥]، ومحسن[٦]، ويحيى بن مكى بن رجاء المعدّل[٧]، ومحمد بن الحسين المكفوف المفسرّ[٨]، وسليمان بن الحسن بن طاهر[٩]، وعبد الوهاب بن سعيد الكاتب[١٠]، ومزاحم بن رائق[١١]، ومسلم بن عبيد الله الحسينى[١٢]، وأبو الفرج البالِسى الطبيب[١٣]، والأصبهانى صاحب محمد بن رائق[١٤]، وأحمد بن عبد الله الفَرْغانى[١٥]، ومنصور ابن أحمد الصَّيْمَرِىّ[١٦]، ومحمد بن المِنْهال[١٧]، ومحمد بن عبد الله[١٨].

٢- القسم الثانى - موارد صريحة محددة، لكنها مصدَّرة بلفظة (قال):

وهما روايتان اثنتان مُصدرتان بـ:

أ- وقال طُغْج[١٩].

ب- وقال أبو بكر محمد بن على المادَرائى[٢٠].

٣- القسم الثالث - موارد صريحة غير محددة:

وهذه بلغ عددها عشرة موارد كالآتى:

(وحدثنى بعض عدول مصر[٢١]، وحدثنى بعض أصحابه[٢٢] (أى: أصحاب الإخشيد)،

---

(١) السابق: ١٥٤. (٢) السابق: ١٦٥.

(٣) السابق: ١٧٧. (٤) السابق: ١٦٧.

(٥) السابق: ١٨١. يُنسب إلى مدينة (صُور)، وهى بلدة كبيرة من بلاد الساحل بالشام، وثغر من ثغور المسلمين المشرفة على بحر الشام (الأبيض)، وهى داخلة فيه، والماء يحيط بها من ثلاث جهات، وهى شديدة المنعة والتحصين. (الأنساب ١٤/٣، ومعجم البلدان ٤٩٢/٣).

(٦) و (٧) سيرة الإخشيد: ١٨١.

(٨) السابق: ١٨٧.

(٩) السابق: ١٨٩. ورد بلفظ الحسين محرفاً.

(١٠) سيرة الإخشيد: ١٨٣.

(١١) و(١٢) السابق: ١٨٥.

(١٣) السابق: ١٨٧. ويُنسب إلى (بَالِس): مدينة مشهورة بين الرقة وحلب على بعد عشرين فرسخاً من حلب. (الأنساب ٢٦٨/١، ومعجم البلدان ٣٩٠/١).

(١٤) سيرة الإخشيد: صـ١٨٩.

(١٥) السابق: ١٩٢.

(١٦) السابق: ١٩٦. نسبة إلى (الصَّيْمَر): نهر من أنهار البصرة عليه عدة قرى، أو نسبة إلى (الصَّيْمَرَة): بلدة من ديار الجبل وخوزستان (الأنساب ٥٧٦/٣، ومعجم البلدان ٤٩٨/٣- ٤٩٩).

(١٧) و(١٨) سيرة الإخشيد: ١٩٦.

(١٩) السابق: ١٥١. (٢٠) السابق: ١٨٧.

(٢١) سيرة الإخشيد: صـ ١٥٠. (٢٢) السابق: ١٥٥.

فحـــدثنى بعـــض الكتّاب[١]، سمعت بعض الشيوخ المصريين من أهل التنجيم[٢]، فحدثنى بعض الوجـــوه بمصر[٣]، قال: وحدثنى بعض الإخشيدية[٤]، وحدثنى بعض الشيوخ[٥]، وحدثنى بعض أهل مصر[٦]، وحدثنى بعض غلمانه[٧] (غلمان الإخشيد)، وكنتُ أسمع الناس يقولون)[٨].

٤- القسم الرابع - موارد مجهولة:

ورد ذلك فى ثلاثة مواضع هى:

(وحُكى أن[٩]، وقيل[١٠]، ومما تُحُدِّث عنه أنه قال) [١١].

٥- القسم الخامس - روايات لا مورد لها:

وقد وردت فى سبعة مواضع؛ بعضها مصدر بلفظة (قال)[١٢]، وموضع مُصدّر بصيغة: ومن حكايات الإخشيد فى أول أمره قال[١٣]، وبعضها لم يُسبق بأية صيغة[١٤].

٦- القسم السادس والأخير - الوثائق:

وقد أورد ابن زولاق فى (سيرة الإخشيد) تسع وثائق كما يلى:

(وثيقة مكاتبات تكين ومحمد بن طغج المتبادلة[١٥]، ومرسوم تولية الراضى الخليفة العباسى أبا بكر المادَرائى تدبير شئون مصر[١٦]، ووثيقة مطوَّلة عبارة عن كتاب الإخشيد (رَدِّه)، الذى أرسله إلى رومانوس إمبراطـــــور الروم[١٧]، وكتاب الإخشيد إلى الراضى، يسأله منحه لقب الإخشيد[١٨]، ووثيقة صلح الإخشيد مع ابن رائق[١٩]، ورسالة القائم العُبيدى إلى الإخشيد[٢٠]، ووثـــيقة رد القائم على عرض الإخشيد المصاهرة بينهما[٢١]، ووثيقة صلح جديدة بين الإخشيد وابن رائق[٢٢]، وكتاب سيف الدولة إلى أهل دمشق بعد هزيمة جيش الإخشيد أمامه)[٢٣].

---

(١) السابق: ١٥٦. ورد فى رواية أخرى بلفظة: (وحدثنى) صـــ١٨٨.
(٢) السابق: ١٥٩.
(٣) السابق: ١٧٦.
(٤) السابق: ١٨٢، ١٨٨.
(٥) و(٦) السابق: ١٨٩.
(٧) السابق: ١٨٦.
(٨) السابق: ١٨٧.
(٩) السابق: ١٦٣.
(١٠) السابق ١٦٤.
(١١) السابق: ١٨٤.
(١٢) سيرة الإخشيد: ١٥٠، ١٥٢- ١٥٣، ١٨٥.
(١٣) السابق: ١٨٠.
(١٤) السابق: ١٨٥، ١٩٠.
(١٥) السابق: ١٥٥.
(١٦) السابق: ١٥٧.
(١٧) السابق: ١٦٧- ١٧٢.
(١٨) السابق: ١٧٣
(١٩) السابق: ١٧٤.
(٢٠) السابق: ١٧٥- ١٧٦.
(٢١) السابق: ١٧٧.
(٢٢) سيرة الإخشيد: ١٧٩.
(٢٣) السابق: ١٩٣.

ملاحظات عامة على موارد ابن زولاق في (سيرة الإخشيد):

أ- قصَّـــر ابن زولاق في التعريف بموارده، فلم يترجم لأي منها كما كان يفعل ابن الداية أستاذه. ومن ثم، فإننا نعاني جهلاً بهذه الموارد، اللهم إلا ما يلحق بقليل منها من ألقاب، تعطي بصيصـــاً خافـــتاً من الضوء، يكشف لنا شيئاً ما عن طبيعة هذه الموارد، كما في قوله: علي بن محمـــد الصوري الفقيه، ومحمد بن الحسين المفسِّر، وعبد الوهاب بن سعيد الكاتب، وأبو الفرج البالسي الطبيب، وهكذا. وقد أدى تقصيره هذا إلى بعض المشكلات(١)، وإن كنا حاولنا التغلب عليها(٢).

ب- لم يســـتخدم ابن زولاق الإسناد الكامل لرواياته التاريخية، واكتفى بذكر المورد الذي نقل عـــنه في معظم الأحيان. وفي بعضها كان يأتي بالمصدر الأصلي الذي نقل موردُه عنه. وهذا المصدر

---

(١) من تلك المشكلات: التداخل الحادث – نتيجة التصحيف – بين بعض الموارد، مثل: محمد بن الحسين، ومحمد بن الحسن. وقد نشأ ذلك من تصحيف لحق أحد الموارد الأخرى، وهو (سليمان بن الحسن بن طاهر). إذ ورد هكذا: (سليمان بن الحسين بن طاهر)، ولما كنا على يقين من اسم العلوي، الذي توسط في الصلح بين الإخشيد، وكل من: ابن رائق وسيف الدولة، استطعنا الجزم بتصويب الاسم. ثم ذكر ابن زولاق في روايتين أخريين اسم المورد (محمد بن الحسن) هكذا، فوقعنا في حيرة شديدة: هل هو محمد بن الحسين الذي روى عنه روايات أخرى، ولكن حدث تصحيف ؟ أو هو شخص آخر بهذا الاسم ؟ أو هو محمد بن الحسن بن طاهر أخو سليمان المتقدم لكن ابن زولاق لم يذكر اسم الجد فأشكل علينا الأمر ؟! وبتقليب الأمر على وجوهه رجَّحنا الاحتمال الأخير، خاصة أن موضوع الرواية يتصل بابن رائق، وهذه الأسرة لعميدها دور في الإصلاح بين الإخشيد وبينه، وقد وردت في الرواية كنية هذا الأب (أبو محمد)، فيحتمل أن له ابناً آخر يُدعى (محمداً) هو صاحب هذه الرواية.

(٢) بحثنا عن تراجم عدد من الموارد؛ كي نحل مشكلة أخرى هي معرفة مدى الصلة بين المورد المنقول عنه وموضوع الرواية التي يرويها، ووُفقتُ في تعرف عدد منها، لكني لا أستطيع الترجمة لها فذلك مما يطول جداً، وسأكتفي بمجرد الإشارة إلى بعضها، مثل: الحسين بن أحمد بن أرغنا (له علاقة بسيبويه المصري، ومعاصر له ولابن زولاق). (راجع: أخبار سيبويه المصري صـــ٤٠). ومحمد بن الحسين المفسر ليس هو الذي (توفي ٣٥١هـــ)، وله ترجمة في (وفيات الأعيان ٢٩٨/٤)؛ لأن المقصود بالمفسر هنا هـــــو الذي يفسر الرؤى (روايته في سيرة الإخشيد صـــ١٨٧)، ومحمد بن الحسين (وردت عنه روايات أُلحق به فيها لقب الخوارزمي، وله صلة بسيبويه المصري (أخبار سيبويه المصري صـــ٤٤، ٤٦، ٤٨). وربما اعتمد ابن زولاق، على ما يبدو من نصوص بعض الروايات، على موارد ذات صلة وثيقة بالأحداث التي ترويها. ومن ثم لم نجد داعياً لتعريف هذه الموارد. فمثلاً: (الحسين بن أحمد بن أرغنا) نقل عنه ابن زولاق رواية، قال فيها: قال لي أبي: ثم شرح صلة الإخشيد الوثيقة بالوزير الفضل بن جعفر، وأن الإخشيد لما أراد وضع الترتيبات النهائية لدخول جيوشه مصر بالقوة؛ ليتولى حكمها، أرسل والد هذا المورد (أحمد بن أرغنا)؛ ليُحضر الوزيرَ إليه بدمشق لتدبير الأمور، وأمره أن يكون ذلك في سرية تامة. وفعلاً توجه ابن أرغنا إلى الوزير، ودخلا دمشق متنكرين في زي التجار. ثم وصف ابن أرغنا تفاصيل إكرام الإخشيد للوزير من طعام وشراب، ثم خلوتهما معاً لبحث الأمر، ثم انصراف الوزير بعد ذلك (سيرة الإخشيد ١٥٨). وواضح هنا أن والد هذا المورد كان من خواص غلمان الإخشيد، وموضع ثقته، بحيث ائتمنه على ذلك السر، وكلفه بهذه المهمة الدقيقة. وتبقى – بعد هذا – مشكلة عدم معرفتنا ببعض الموارد، مثل: محسن (الذي لا نعرف مجرد اسم أبيه)، ومحمد بن عبد الله، وأحمد بن عبيد الله، وغيرهم.

الأصلي قد يكون والد المورد[١]، وقد يكون شخصاً آخر على صلة وثيقة بالحدث[٢]. وفي مرة وحيدة ترجم ابن زولاق لهذا المصدر الأصلي، قائلاً: " وكان أحد القواد "[٣].

ج- من الملاحظ أن عدداً من موارد ابن زولاق، ينتمون إلى أقاليم أخرى فبعضهم لُقّب بالعراقي، وآخر لُقّب بالصيمري، وثالث لُقّب بالبالسي، على نحو ما ذكرنا في استعراض القسم الأول من أقسام موارده. ومن الممكن أن يختلط بعض موارد ابن زولاق مع علماء أقاليم أخرى يشبهونهم في الاسم (مثل: محمد بن الحسين المكفوف المفسر، ومحمد بن الحسن المفسر البغدادي)؛ ولذا كان يجب أن يعرفنا ابن زولاق بموارده، ولو بترجمة قصيرة - كما كان أستاذه ابن الداية يفعل - حتى ندرك صلة المورد بالرواية[٤]، كما قلت من قبل.

د- نشهد لابن زولاق عموماً بالدقة في استخدام ألفاظ الرواية التاريخية، فهو - أحياناً - يُصدِّرُ الرواية بلفظة: (قال)، ويعني نفسه[٥]. ويستخدم لفظة (حدثني)، (وحدثني)، (فحدثني) في بعض المواضع بدقة كبيرة. فاللفظة الأولى يأتي بها في بداية رواية جديدة في موضوعها، وليست مكملة لما قبلها[٦]، ويستخدم الثانية في الرواية التي تؤكد ما قبلها ولا ترتبط بها ارتباطاً عضوياً وثيقا[٧]. بينما تأتي الثالثة - غالباً - عندما يقدّم ابن زولاق لروايته بكلام، يُلحق بهذه اللفظة كرابط يربط بها بين موضوع الرواية التالي، والكلام الذي تقدمه[٨]. واستخدم لفظة: (وحدثنا) مرة واحدة بدقة تامة؛ لأنها استخدمت للتعبير عن تلقي ابن زولاق كتاب سيرة ابن طولون لأستاذه ابن الداية، وسماعه عليه، وقد كان يحدّثه به ويحدّث به غيره في مجلس علمه. يقول النص: "وحَدّثَنا أبو جعفر أحمد بن يوسف في كتابه في سيرة ابن طولون بما خَلّفَه، فأردت أن أذكر في سيرة الإخشيد ما خلّفه "[٩]. وهذا يعني أن علم التاريخ في القرن الرابع الهجري استوى على سوقه - بعد استقلاله عن الحديث - وغدا له علماؤه المتوفرون عليه، ومجالسه

---

(١) مثل: وحدثني الحسين بن أحمد بن أريغا قال:قال لي أبي (سيرة الإخشيد: ص ١٦٠).

(٢) وحدثني محسن قال: سمعت كافوراً يقول (السابق ١٨١)، وحدثني محمد بن الحسين المكفوف المفسر قال: قال لي الإخشيد (السابق ١٨٧).

(٣) السابق: ١٦٧.

(٤) وذلك من الأهمية بمكان؛ للتحقق من مدى صدق الوقائع والأحداث.

(٥) السابق: ١٥٠، ١٨٥.

(٦) قال: حدثني أحمد بن عبيد الله قال: ووصف ضخامة خزانة طفج التي تحمل الطّيب في أسفاره. (السابق ١٥٠).

(٧) بعد الرواية السابقة قال: وحدثني بعض عدول مصر قال: رؤيته قاضي مصر الحسين ابن أبي زرعة يكثر الطّيب، فرد عليه القاضي بأن طفج أمير دمشق كان يعرفه أهل دمشق بكثرة استعماله له (سيرة الإخشيد ١٥٠).

(٨) في أول سنة ٣٢٦هـ أرسل الراضي إلى مصر يستدعي الفضل بن جعفر للوزارة، فامتنع أن يلبس الخِلَع المرسلة إليه. فحدثني ابنه أبو الفضل قال: ركب الإخشيد بنفسه إليه، وألبسه إياها بيده (المصدر السابق ١٧٣).

(٩) السابق: ١٩٦.

الخاصة به، ومريدوه الذين يحضرون تلك المجالس، يسمعون من المؤرخين، ويروون عنهم كتبهم.

هـ- هناك تناسب بين بعض الموارد وموضوع الروايات المنقولة منها؛ مما يفيد دقة ابن زولاق فى اختيار هذه الموارد. فعندما يرى الأمير فى منامه رؤيا، يطلب الإخشيد إلى (محمد بن الحسن المكفوف مفسِّر الرؤى) أن يؤولها له. ولما كانت تتصل بما يتنبأ به لكافور من مكانة فى دولة الإخشيد بعده، اعتمد ابن زولاق على هذا المورد المفسِّر فى نقل هذه الرواية، فهو أقدر من يحكى تفاصيلها؛ لأنه أحد أطرافها[١]. ولما أراد التحدث عن تولى الفضل بن جعفر الوزارة للراضى، وجد أن خير من يحدثه عن ذلك ابنه جعفر بن الفضل[٢]. واختار أن ينقل عن طبيب الإخشيد أبى الفرج البالسى ما يتصل بتقرب كافور من سيده بتقريب أحب الطعام إليه، وتقديمه إياه بيده إليه. فالطبيب يشرف على كل لون يُقدَّم إلى الإخشيد، وينظر فى مائدة الطعام، وأدرى بما يُقدَّم وما يُمنَح، وشاهد كافوراً يقوم بما قام به[٣].

و- بالنسبة لموارد ابن زولاق غير المحددة أو المجهولة، فإنها - رغم حرصه على إيراد ألفاظ الرواية بها - أقل فى درجة الوثوق بها من الموارد الصريحة المحددة. وعلى كل، فعرض مضمون الرواية على المنطق العقلى والحس التاريخى كفيل بقبولها أو رفضها.

ز- وهناك روايات لم يذكر لها مورداً؛ نظراً لارتباطها - فى الغالب - بأمور عاصرها ابن زولاق، ولمسها بنفسه، وشاهدها بعينه[٤]، فلا حاجة للسؤال عنها.

ح- وأخيراً، تأتى وثائق كتابه، وهى متنوعة بين الطول والقصر، وتصاحب الإخشيد عبر مراحل حياته، منذ خدمته فى مصر أيام الأمير تكين، ومروراً بتمكنه من حكم مصر وارتفاع مكانته وتلقبه بالإخشيد، ومبيِّنة جوانب علاقته بالروم والعبيديين، وابن رائق وسيف الدولة. فهى - إذَن - على جانب كبير من الأهمية، ولا بد أن ابن زولاق قد نقلها عن رواة ثقات قريبى عهد من الأحداث[٥]، أو عن طريق وثائق الدولة وسجلات ديوان الإنشاء[٦].

---

(١) السابق: ١٨٧.
(٢) سيرة الإخشيد: ١٧٣.
(٣) السابق: ١٨٧.
(٤) مثل: تفاصيل دخول الإخشيد مصر بالقوة (السابق: صـ١٥٨- ١٥٩)، ومراسم الإخشيد فى مواكبه الليلية بالشموع المضاءة على البغال (السابق: ١٨٥)، ومواظبته على صلاة الجمعة بالجامع العتيق (السابق)، ووصف شكل الإخشيد (السابق: ١٩٠).
(٥) سيرة الإخشيد: ١٥٥.
(٦) مثل: كتاب الراضى إلى المادَرائى بتوليته تدبير شئون مصر (السابق ١٥٧)، ووثيقة رد الإخشيد المطول على رسالة رومانوس الرومى (السابق ١٦٧- ١٧٣)، وغير ذلك.

رابعاً – النقد الدخلى:

أحـــاول – فى هذه الجزئية – معالجة عدد من القضايا التاريخية، التى تثيرها أحداث (سيرة الإخشيد) لابن زولاق، واضعاً فى اعتبارى أمرين مهمين:

الأول – ألا يحدث تكرار هنا مع ما سبق أن ذكرته فى الدراسة التمهيدية، عن الأوضاع السياســية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية فى العصر الإخشيدى[1]. وهذا يقتضى معالجة قضـــايا جديـــدة بتفصيل أكثر من خلال ما يذكره ابن زولاق مقارنة بغيره من المصادر، مع الاسترشاد برأى وفكر الباحثين المعاصرين.

الـــثانى – وضــــع تصور شامل، وتقويم متكامل لفترة حكم الإخشيد وحدها، باعتبارها موضـــوع سيرة ابن زولاق. ويتأتى ذلك من خلال النقد والتمحيص لصفات هذه الشخصية، وبيان مرتكزات سياساتها الداخلية وبيان الرأى فيها، إلى جانب إعمال العقل فى تفسير علاقاته الخارجية؛ لنصل – فى النهاية – إلى الحكم له، أو عليه.

١- حول التكييف القانونى لحكم الإخشيد بلاد مصر والشام:

وهـــذه قضية أساسية لمعرفة الطريقة، التى وصل بها هذا الرجل إلى حكم هذين الإقليمين الكبيرين حكماً شبه مستقل فى ظل السيادة الروحية للخلافة العباسية، والدور الذى لعبه الوزير (الفضـــل بـــن جعفر) – على وجه الخصوص – حتى وصل محمد بن طغج إلى ما وصل إليه، وطبيعة صلات هذا الرجل بالإخشيد قبل توليه حكم مصر وبعدها حتى وفاته.

أ- رأى ابن زولاق فى هذا الموضوع:

١- بيّن ابن زولاق أن مكانة (محمد بن طغج) ارتفعت فى بغداد، عندما تصدى هو وأخوه (علىّ)، وبعض الجند لبعض قطاع الطريق، الذين حاولوا الاعتداء على موكب الحاجّ من الشام والعــراق (وكانـــت فيهم جارية شَغْب أم المقتدر)، وذلك أثناء ولاية (ابن طغج) على عَمّان وغيرها من قبل تكين سنة ٣٠٦هـــ. وعُرف ابن طغج – بعد ذلك – لدى مؤنس الخادم عندما أقــبل الأخـــير من العراق بجيوشه إلى مصر؛ لمواجهة جيش العبيديين من قبل القائم، فخدم ابن طغـــج مؤنســـاً، وقام على شئونه، وكان على رأس المدافعين عن مصر ضد هجمة العبيديين، فشـــكره مـــؤنس. بعد تقلد (محمد بن جعفر القُرْطىّ) خراج مصر، غضب عليه محمد بن على المادَرائـــى وصرفه، فأكرمه ابن طغج وستره عنده. فلما سار القرطى إلى العراق، رد لابن طغج

---

(١) صـــ٩- ١٦، ٥١، ٥٩- ٦٠.

الجميل، وسعى له فى ولاية الرملة، ثم عُوِّض عنها بدمشق، فخرج ابن طغج إلى هناك، حيث ولى دمشق، وقوى نفوذه وجنده[١].

٢- ظل ابن طغج على دمشق، ووُلِد له بها ابنه القاسم (أونوجور) يوم عرفة سنة ٣١٩هـ[٢]. وظل ابن طغج بدمشق يرقب أحوال مصر، حتى توفى واليها تكين (١٦ من ربيع الأول سنة ٣٢١هـ)، الذى كان قد استخلف ولده (محمداً) فى مرض موته، وبايع للخليفة الجديد (القاهر) بعد وفاة (المقتدر). حدث خلاف بين محمد بن تكين، والمادَرائى خرج على أثره محمد من مصر، ثم جاءه تقليد القاهر له ولاية مصر، فمنعه المادَرائى منها. انتهز ابن طغج هذا الصراع، وأرسل من دمشق كاتبه (على بن محمد بن كلا) إلى القاهر يلتمس ولاية مصر، فرفض الخليفة؛ لأنه ولى محمد بن تكين من قبل. وظل الأمر كذلك حتى خُلع القاهر، وسُملت عيناه، فأرسل الإخشيد كاتبه سرّاً إلى بعض كتّاب القاهر، وقدّم له رشوة، مقدارها ١٠ آلاف درهم، على أن يزوّر له كتاباً بأمر القاهر بتقليد ابن طغج مصر. وتم المراد، وأنفذ الكتاب إلى محمد بن طغج، فأرسله بدوره إلى مصر. فى ذلك الوقت نجح ابن تكين فى إنزال الهزيمة بالمادَرائى، وأظهر كتاب القاهر بتوليته[٣].

٣- لما وصل كتاب تولية ابن طغج المزوَّر، تلقفه المادَرائى؛ نكاية فى ابن تكين، ودُعى لابن طغج على منابر مصر، وهو لا يزال بدمشق، اثنين وثلاثين يوماً. ثم ورد تقليد القاهر (أحمد بن كيغلغ) مصر وأعمالها (٩ من شوال سنة ٣٢١هـ)،فكأن تقليد ابن طغج لم يكن. وسُرَّ المادَرائى بذلك، وعادت له نعمته، وخرج ابن تكين إلى بُلْبَيْس. لما ولى الخليفة الراضى، أرسل الوزير الفضل بن جعفر للإشراف على مصر والشام، وكان قد اشترط أن يكون له مطلق الأمر فى التولية والعزل. ولّى الراضى (محمد بن تكين) حكم مصر، فاصطدم بابن كيغلغ وهُزم، ونُفى إلى إخميم. تصاهر ابن طغج مع الفضل بن جعفر الوزير (زَوّج الأول ابنته من ابن الآخر)، وتوطدت العلاقة بينهما، فكتب الوزير للإخشيد بولاية مصر؛ استناداً إلى حقه الذى اشترط من قبل. ولما سار رسول ابن تكين إلى دمشق، أخذ منه ابن طغج كتاب تقليد (ابن تكين)، ومحا اسم (تكين)، وكتب مكانه (طغج)، فصار ذا عهدين بولاية مصر (عهد الوزير الفضل، وعهد الراضى المزوَّر). ثم فشل ابن طغج فى دخول مصر سلماً؛ لوقوف المادَرائى فى طريقه. وفى الوقت نفسه أقر الراضى (ابنَ كيغلغ) على مصر؛ لأنه كتب يشكره، وكان ابن كيغلغ أخذ

---

(١) سيرة الإخشيد: ١٥٣. وتم ذلك بضم قوات كثيرة بدمشق إلى قواته، وحصول إخوته عنده، فاستَعزَّ بهم (عُبيد الله، والحسن، والحسين، وعليّ).

(٢) السابق: ١٥٥.

(٣) سيرة الإخشيد: ١٥٦.

قـــواته، ومنع دخول بعض من ولاهم الوزير الفضل خراج مصر وغيره من المناصب. وصارت للمادَرائـــى الـــيد الطـــولى فى مصر، لما كتب إليه الراضى يفوّض إليه شئونها (يقلد من شاء، ويصرف من شاء)[١].

٤- أرســـل المادَرائى إلى ابن طغج كتاب الراضى إليه بعد أن قرأه على الناس، فتأكد ابن طغج أنه لا بد من دخول مصر بالقوة، وسارع بالإرسال إلى الوزير الفضل، فجاءه سرّاً متنكراً فى زى التجار، واتفقا معاً على ترتيبات دخول مصر[٢]. ثم جرت أحداث الصدام المسلح حتى استســـلم ابـــن كيغلغ لما رأى كتاب تقليد الراضى إياه، وتمكن ابن طغج من دخول مصر يوم الأربعاء لسبع بقين من رمضان سنة ٣٢٣هـــ[٣].

٥- ثم دخـــل الوزيـــر (الفضـــل بن جعفر) إلى مصر بعد حكم الإخشيد لها، فاستقبله الإخشـــيد، وخلـــع علـــيه عند باب المدينة وزُينت لهما المدينة. وكشف الوزير مكان استتار المادَرائى، ثم أحضره وسأله أموالاً تُعين على نفقات الحج، فزعم قلة ما لديه من الأموال[٤].

٦- أراد الفضـــل بـــن جعفر أن يجد رجلاً، يناظر محمد بن على المادَرائى فيما عليه من أموال، فلم يجد إلا (الحسين بن الرَّقىّ)، الذى أُوذى وعُذّب بسبب المادَرائى من قبل، وكان قدم من دمشق، ودخل مصر مع الفضل بن جعفر. ولم تتم المناظرة لحيلة، قام بها المادَرائى أغرى فيها الإخشـــيد بأموال طائلة، فأنقذه من ذلك الموقف العصيب المهين، واشترط الإخشيد - بمقتضى ذلـــك - علـــى الوزير أن يكون مكرماً للمادَرائى، ولا يأخذ منه إلا ما يوجد عليه من أموال، فضمن الوزير ذلك، ثم قام بقبض ضياعه بالشام، وأكثر ضياعه بمصر[٥].

٧- جمـــع الإخشيد فى مصر بين ولايتى: (الحرب والصلاة)، و(الخراج وتدبير الأموال) كابن طولـــون. وكان مقر الأولى فى دار الإخشيد، والثانية فى دار الفضل بن جعفر. ولما انتهى الوزير من تـــدبير الـــبلد، وتقرير الأموال، وكشف الضياع فى مصر، خاصة ضياع المادَرائيين، خرج إلى الشام ومعه المادَرائى مُوَكّلاً به. وعاد الإخشيد بعد توديع رسمى وشعبى للوزير، وولى أمور مصر كلها[٦].

٨- فى شهر شعبان من سنة ٣٢٤هـــ، كتب الإخشيد إلى الخليفة الراضى يُعْلمه بما تم فى مصر على يديه ويدى الوزير الفضل، وما وفراه من أموال، وما تم بشأن المادَرائى، فقدم رسول

---

(١) سيرة الإخشيد: ١٥٧.
(٢) وكانت رسل المادَرائى بكتاب الراضى إليه قابلت جيوش الإخشيد بالفَرَما قادمة إلى مصر، فأرسلهم إلى الوزير الفضل بن جعفر بالرملة، فقيَّدهم الوزير (السابق ١٥٨).
(٣) السابق: ١٥٧- ١٥٩.
(٤) السابق: ١٦١.
(٥) سيرة الإخشيد: ١٦٢.
(٦) السابق: ١٦٣.

الراضى إليه بالخِلَع والطَّوْق والسِّوارَيْن، واستقُبل استقبالاً حافلاً. وخرج الإخشيد يوم الأربعاء وعلـيه خلع الراضى، وصليا فى الجامع العتيق، وعادا إلى دار الإخشيد. وعاد الفضل بن جعفر الوزير من الشام إلى مصر، فتلقاه الإخشيد وجميع الناس(١).

٩- فى سـنة ٣٢٦هـ، وبعد ما خلعه الراضى على ابن طغج من خِلَع وغيرها، كتب ابن طغـج إليه يسأله منحه لقب الإخشيد، فوافق الراضى. وفى أول سنة ٣٢٦هـ، أرسل الراضى إلى مصر، يستدعى الفضل للوزارة (أى: فى بغداد)، فامتنع من لبس الخلع، لكن الإخشيد أقنعه بقـبول ذلك، وألبسه إياها بنفسه، وشَيَّعه أهل مصر، فخرج إلى الشام، ثم إلى العراق. وخَلَّف ابنه أبا الفضل (جعفراً) بحمص. فلما بلغ الرقة، لقيته خلع أخرى للوزارة، فلبسها ودخل بغداد، ودَبَّر الأمور، لكنه وجدها مضطربة، فاستأذن الخليفة الراضى فى المسير إلى الشام ومصر؛ لجمل الأمـور، وكشف الأعمال، مستخلفاً مكانه (عبد الله بن على المغربى). وسار إلى الشام، فتوفى بالرملة ٨ من جمادى الأولى سنة ٣٢٧هـ. فحزن الإخشيد لفقده، وأرسل إلى الرملة فى طلب المادَرائـى، الذى كان مَوَكَّلاً به بالرملة فى دار الفضل ثلاث سنين، وثمانية أشهر. فلما وصل المادَرائى، أنزله الإخشيد معه فى داره(٢).

ب- والآن، مع مناقشة هذه الأحداث، والتعليق عليها:

أ- أول مـا نلاحظـه على هذه الأحداث أنها توضح تعلق ابن طغج بحكم مصر، فيجمع بـذلك بـين الشام المتواجد فيها ومصر، كما كان سلفه ابن طولون من قبل. وفى سبيل ذلك أوضح ابن زولاق أن الإخشيد زَوَّر عقد ولايته على مصر مرتين (عن طريق الرشوة مرة، وعن طريق التزييف أخرى). ومن ثم تكون ولايته غير قانونية ولا شرعية؛ لأنها لم تصدر - أساساً - عمن يملك التولية والعزل (الخليفة العباسى). وقد كان من الممكن أن نصدق كلام ابن زولاق هـذا الشأن، فحال الخلافة بلغ درجة كبيرة من الضعف، وأصبحت قراراتها فى التولية والعزل متضاربة، وأصبح - كما رأينا من نصوص ابن زولاق - كتاب التقليد فاقد الأهلية والاحترام، والقـوة هى أساس فرض النفوذ. كان من الممكن قبول ذلك لولا تضاربه مع الحقائق التاريخية المقـررة، التى تقطع بأن الخليفة القاهر بالله ظل فى الحكم، حتى خُلع يوم السبت ٣ من جمادى الأولى سـنة ٣٢٢هـ، وسُملت عيناه(٣). ومعنى هذا أنه كان لا يزال فى الحكم عندما ولى

---

(١) السابق: ١٦٥-١٦٦.

(٢) سيرة الإخشيد: ١٧٣. وهذا دليل حب الإخشيد وإكرامه إياه، ولم لا والإخشيد هو الذى صانه من قبلُ من الإهانة المحققة، التى كان سيتعرض لها على يد الوزير الفضل ؟.

(٣) كانت مدة حكمه خليفة سنة، و٦ أشهر، و٧ أو ٨ أيام. وبويع بعده ابن أخيه (الراضى ابن المقتدر). (النجوم ٣/ ٢٧٩- ٢٨٠).

الإخشيد مصر للمرة الأولى، فقد ورد الكتاب بولايته يوم الأحد ٧ من رمضان سنة ٣٢١هـ، وظل هكذا - وهو فى دمشق لم يدخل مصر - مدة ٣٢ يوماً، حتى قدم رسول ابن كيغلغ بولايته الثانية على مصر فى التاسع من شوال من العام نفسه[١] (وفى عهد القاهر أيضاً). ومن ثم، فرواية ابن زولاق التى تجعل تزوير الكاتب تقليد الإخشيد مصر بعد خلع القاهر، غير صحيحة[٢]. ويكون القاهر قد عاد عن تمسكه بولاية محمد بن تكين لسبب لا نعرفه، لعله ضعف ابن تكين عن مقاومة المادَرائى الرافض لولايته.

أما بالنسبة لما زعمته رواية ابن زولاق عن محو الإخشيد اسم تكين من كتاب تقليد (محمد ابن تكين)، وكتابته اسم أبيه (طغج) مكانه، ونسبته بذلك كتاب الراضى إلى نفسه بولاية مصر، فأعتقد أن الرواية متكلفة، وواضح منها أنها ملفقة وغير مقنعة،فلا مناسبة لتَوَجُّه رسول الخليفة بكتاب إلى ابن تكين، فيذهب به إلى ابن طغج بدمشق، ويسلمه إياه، فيقوم بذلك التزوير بنفسه! وأعتقد أنه لا داعى لما ذهبت إليه الدكتورة سيدة كاشف[٣]، ومَنْ تبعها من الباحثين[٤]، من تعليل عدم قبول كلام ابن زولاق فى هذا الموضوع بأنه يرجع إلى التعديلات التى أدخلها ابن زولاق على كتابه بعد سقوط الدولة الإخشيدية، ومقدم العبيديين إلى مصر؛ تقرباً إليهم، وطلباً لرعايتهم، عن طريق الحط من شأن الإخشيد ودولته، والزعم بأن ولايته غير شرعية[٥].

ب- يعد دخول الإخشيد مصر بجيوشه نوعاً من فرض الأمر الواقع بقوة السلاح؛ إذ إننا نعتقد أنه لم يدخلها بكتاب من الراضى سلفاً، وإنما كان معتمده على تقليد الوزير الفضل إياه[٦]، بحكم ما بينهما من مصاهرة، ومصالح مشتركة (ابن طغج يريد حكم مصر إلى جانب

(١) كان ابن زولاق دقيقاً فى تحديد هذا التاريخ (سيرة الإخشيد صـ١٥٧). أما الكندى فى كتاب (الولاة - ط.جست - صـ٢٨٢)، فجعله اليوم السابع من شوال بدل التاسع، وهو تحريف واضح. أما د.حسين نصار فى طبعته لكتاب (ولاة مصر) للكندى، فتنبه إلى ذلك وصحّح التحريف، وعلق فى هامش ١ صـ٣٠٠ بأن هذا الرقم هو الذى يتناسب مع القول بأنه قضى فى ولايته الأولى ٣٢ يوماً فقط. وورد فى (الخطط) دون تحريف ٣٢٨/١. ولا صحة لما ورد فى (النجوم) ٢٧٠/٣ من قوله: ولى الإخشيد مصر للمرة الأولى من أواخر شعبان إلى أواخر رمضان.

(٢) مصر فى عصر الإخشيديين: صـ٦٩.

(٣) مصر فى عصر الإخشيديين: ٧١.

(٤) حسن حبر فى رسالته للدكتوراه صـ٢٢٨، وفرج الأحول فى رسالته للماجستير: (حضارة مصر فى عهد الدولة الإخشيدية) صـ٣٥- ٣٦.

(٥) سوف أوضح وجهة نظرى فى التعديلات، التى أشار إلى إحداثها فى سيرته ابن زولاق، والمقصود منها عند تناولى (منهجه التاريخى) بعد قليل.

(٦) فإذا كنا لم نقبل أن يُزَوِّر الإخشيد كتاب الراضى كما وصمه ابن زولاق، فنحن - فى الوقت ذاته - نرى أن الإخشيد لم يكن لديه أصلاً كتاب تقليد من الراضى. وما ذكره ابن زولاق من أن ابن كيغلغ سلّم لما رأى كتاب تقليد الراضى للإخشيد أمر مشكوك فى صحته، والصواب أنه سَلّم؛ لأنه لا قِبَل له بجيوش الإخشيد، ولم يكن يريدها حرباً منذ البداية، لكن المادَرائى دفعه إلى القتال دفعاً (الولاة، للكندى ٢٨٦).

الشـــام، والوزيـــر يريد فرض سيطرته على ماليتهما معاً، وعزل المادَرائى وسلبه جميع نفوذه، ومصادرة ممتلكاته وما لديه من أموال لصالح الخلافة؛ كى يحظى برضاها). والدليل على صحة ما ذهبتُ إليه أن الكندى ذكر أن الراضى ولى الإخشيد على صلاة مصر وخراجها للمرة الثانية فى الرابع والعشرين من رمضان سنة ٣٢٣هـــ[1]. فالخلافة لم تقره فى منصب كان فيه من قبل، وإنما ولَّته بعد أن انجلت الأمور، وتكشّف لها أنه أقوى المتصارعين على ولاية مصر. ويلاحظ أن ابـــن زولاق أغفل ذكر هذا التاريخ المهم، وإن كان قد أشار بعد ذلك إلى جمع ابن زولاق بين الصلاة والخراج، وأوضح مكان إدارة كل، وأبرز دور الوزير الفضل، وهو الإشراف العام على الشئون المالية فى كل من: مصر، والشام. وبذلك تأكدت ولاية الإخشيد الشرعية، واتضح دور الوزير الفضل إلى جانبه، وانفرد بهما معاً بعد خروج الوزير إلى الشام (وإن كان هذا لا يمنع من قيامه بدور المراقبة والمحاسبة).

ج- بالنســـبة لعلاقة الإخشيد بالوزير الفضل، فقد أوضح لنا ابن زولاق دور الوزير الفعَّال فى تولية الإخشيد مصر، لكنى لا أوافق على ما ورد فى بعض المراجع من أن الفضل قدم سنة ٣٢٤هـــ إلى مصـــر بالخِلَع إلى الإخشيد من قبل الراضى تولية له على مصر[2]. فابن زولاق يذكر أنه قدم إلى مصر بعد الإخشيد لها، وما كان للإخشيد أن يتملكها إلا بعد تقَليد الخليفة له كما مر قبلاً.

---

(١) الولاة، للكندى ٢٨٦.

(٢) مصر فى عصر الإخشيديين، للدكتورة سيدة كاشف: صـــ١٠٤. وبالرجوع إلى مصادرها المذكورة فى هامش ٦ صـــ١٠٤ تبين ما يلى: ورد فى (الولاة للكندى صـــ٢٨٧) ما نصه: " ثم قدم أبو الفتح الفضل بن جعفر بن محمد بن فرات مُكَشِّفاً (أى: لكشف الأموال، والضِّياع)، وقدم بالخلع، فخُلعتْ على محمد بن طغج ". وفى (الخطط ٣٢٩/١): ذكر أن الوزير الفضل قدم بالخلع لمحمد بن طغج. أما ابن زولاق، فنصه يختلف عما مضى، إذ يفيد أن الوزير لما قدم إلى مصر، استقبله ابن طغج، وخلع عليه عند باب المدينة خلعاً سلطانية (أى: الإخشيد هو الذى خلع على الوزير ما يليق بمكانته، وما يناسب قدره؛ عرفاناً بجميله عليه فى ولاية مصر). ثم إن الخلع ليست من مراسم ولاية الولايات غالباً، وإنما تُخلع على الوزراء. أما الوالـــى، فيكفيه كتاب التقليد من الخلافة). وإذا صح – بعد ذلك – خلع الراضى، ثم المتقى على الإخشيد؛ لسمو مكانته، فذلك أمر وقع بعد الحادثة التى ناقشها. هذا هو الفهم الذى أرجحه من خلال أصح النصوص بهذا الشأن (نص ابن زولاق). أما الكندى والمقريزى، فقد عكسا رواية ابن زولاق، وهما غير مقبولتين؛ لأن تقليد الإخشيد وصل من الراضى قبل مجئ الوزير الفضل. ثم إن أيًّا من النصوص السابقة لم يحدد تاريخ قدوم الوزير إلى مصر. وقد حددته د.سيدة كاشف على سبيل الاستنتاج معتمدة على ما ورد فى بعض المصادر من أن الإخشيد ولى سنة ٣٢٤هـــ أعمال مصر مع ما كان معه من الشام. (تجارب الأمم ٣٣٢/١، وتكملة تاريخ الطبرى ٢٩٨، والكامل ١٢٦/٧، وتاريخ الإسلام ٣٤/٢٤). وأعتقد أن هذا النص يُفهم على أنه تأكيد من الخلافة على جمع الإخشيد بين ولايتى مصر والشام، فتقليده مصر، كان سنة ٣٢٣هـــ. ويبدو أن المتقى لله (ورد خطأ بلقب المقفى لأمر الله) لما ولى وَسّع نفوذ الإخشيد، فجدَّد له ضم الشام إلى مصر، وكذلك الحجاز، وغيرها. (وفيات الأعيان ٥٨/٥). وترى د.سيدة كاشف أن سلطة الإخشيد على الحجاز واليمن كانت شكلية (مصر فى عصر الإخشيديين صـــ٣٧٤).

هــذا، وقد ظلت العلاقة حميمة، والاستقبالات الشعبية والرسمية قائمة على قدم وساق مع الاحتفالات والزينات في البلد كله عند دخول الوزير الفضل[١]. ومع ذلك كله، فإنى ألمح رغبة دفينة داخل نفس الإخشيد أن تزول سلطة إشراف الوزير على الأوضاع المالية فى مصر والشام؛ ولــذلك فكأنمــا انتهز فرصة توليه وزارة الخليفة الراضى، حتى أقنعه وألح عليه بقبول المنصب، وألبسه خِلَع الوزارة بيديه. وفعلاً كأنما تنفس الإخشيد الصُّعَداء بخروجه، ثم موته قريباً إلى ذلك (ســنة ٣٢٧هـــ)، وموت ابن رائق بعده (٣٣٠هـ)، ففرغ قلبه بموتهما على حد تعبير ابن زولاق الدقــيق[٢]، وبدأ يسلك مسلك ابن طولون، وابنه خمارويه فى اختصاص نفسه بموكب معين وملبس معين دون سواه، واشترط فى عسكره شرطاً معيّناً[٣].

٢- سياسة الإخشيد الداخلية، والخارجية:

تنبع سياسة الإخشيد على الصعيدَيْن: الداخلى، والخارجى من واقع صفاته النفسية، وحالته الجســدية المركوزة داخله؛ إذ إن تصرفاته هى انعكاس واضح لتلك الصفات جيدها ورديئها. ومـــن هنا سأعرض - باختصار - لعدد من صفاته تلك؛ حتى يصح الربط بينها وبين سياساته الداخلية والخارجية، وعلى ضوء ذلك يمكن تفسيرها.

من صفات الإخشيد الطيبة:

أ- تمــتعه بخُلّة الصفح والعفو الجميل: فقد كان الإخشيد أكرم (محمد بن تكين)، وكان يؤاكله، وولاّه طــبرية. فلما ورد ابن رائق إلى الشام، صار ابن تكين معه ضد الإخشيد، وعندما انهزم ابن رائق فى موقعة العريش، استأمن ابن تكين، فلم يؤاخذه الإخشيد، وظل مكرماً إياه[٤].

ب- حرصه على أداء الشعائر، وحضور ختم القرآن[٥]، وغَشَيان مجالس العلماء والفقهاء ومكافأتهم[٦]، وكراهيته تنازعهم واختلافهم[٧].

---

(١) تعددت مرات دخول وخروج هذا الوزير. وسوف أرصد مدى اهتمام ابن زولاق بتوقيت ذلك مقارنة بالمصادر الأخرى، ومدى دقته فى الترتيب والتسلسل المنطقى فى عرض الأحداث، وذلك فى (منهج ابن زولاق فى سيرة الإخشيد)، بإذن الله.

(٢) سيرة الإخشيد: صـــ١٨٠.

(٣) المصدر السابق: ١٨٠. وقد اشترط فى عسكره ألا يكون لهم شيخ، وأمر الشيوخ بصبغ لحاهم، وزاد فى الرواتب للوفاء بذلك.

(٤) السابق: ١٨٤.

(٥) السابق: ١٨٥.

(٦) كافأ أحد فقهاء الشافعية بدمشق بتوليته (مظالم السواحل)، لما أجابه عن معنى عبارات يذكرها الفقيه المزنى الشافعى. (سيرة الإخشيد: ١٨١).

(٧) هَمَّ بمعاقبة الفقيه ابن الحداد الشافعى، وعدد من فقهاء المالكية لما كثر لغطهم فى مجلسه، فقد كان يصون مجالسه التى يحضرها عما يُستقبح (المصدر السابق: ١٨٢).

ج- يبدو أن الإخشيد كان منذ بداية حياته مطالعاً للقرآن، تالياً له، واتضح ذلك فى رده على كتاب تكين إليه[١].

من صفاته السلبية:

مع ما تقدم من صفات حسنة للإخشيد، إلا أنه كان يعانى صفات نفسية ذميمة، أعتقد أن لها دخلاً فى النوبات العصبية (كالصرع مثلاً)، التى كانت تنتابه بين الحين والآخر[٢]، منها:

اتصافه بالشره الشديد فى تناول الطعام[٣]، ونَهَمه الذى لا حدود له فى امتلاك الأموال، وكان هذا يدفعه إلى السطو على مال الغير[٤]، والتطلع إلى ما يمتلكه الغير وسلبه إياه[٥]، إلى جانب البخل الشديد، الذى قد يصل إلى حد الإمساك عن تناول الطعام بعض الأيام؛ لانشغال قلبه بإخراج بعض الأموال[٦]. وكذلك البخل بالإدلاء بالرأى النافع المفيد، واحتفاظه به لنفسه[٧].

وقد انعكست هذه الصفات وغيرها على سياسته الداخلية فترة حكمه. ومن أبرز معالم هذه السياسة ما يلى:

أ- انعدام حرمة الأموال:

لم تكن لممتلكات الناس الخاصة (أموال، وضياع، وغيرها) أية حرمة لدى ابن طغج، وكان

---

(١) قال تكين فى رسالته لابن طغج، لما هرب من مصر إلى الشام فى عهده ما حكاه القرآن على لسان فرعون يخاطب به موسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً، وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ﴾. (الشعراء: من الآيتين ١٨- ١٩). فكان من رد ابن طغج عليه: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾. (الشعراء: من الآية ٢١). (سيرة الإخشيد: ١٥٥). وذكر ابن زولاق فى موضع آخر أن الإخشيد كان محباً لقراءة القرآن، ويبكى عند سماعه (السابق: ١٨٨).

(٢) أعتقد أن شدة تعلقه بالمال، وعظيم انشغال قلبه به، ونهمه الذى لا حد له لامتلاكه، كان يضغط على أعصابه بقوة، فيسهم فى حالات الصرع، التى تنتابه بين فترة وأخرى. وقد أورد ابن زولاق بعض مناسبات معاودة هذه الحالة المرضية للإخشيد، فاتضح منها أنها تأتيه عندما يتعرض لضغط نفسى، وعصبى شديد. ومن مواضع ذلك: أنها انتابته عند تأهبه للمسير لقتال ابن رائق، فعُولج أياماً (السابق: ١٧٤). وكذلك عندما جاءه رد نائبه فى بلاط الخليفة الراضى، وقد أخبره بأن الراضى لم يُعلّق على كتاب الإخشيد إليه، شاكياً طمع ابن رائق فى ولاية مصر،وأن(بحكم)أرسل ابن رائق مُقلّداً ولاية مصر، وأن الخلافة ستكون مع من تكون له الغلبة بالسيف منهما. (السابق ١٧٦).

(٣) سيرة الإخشيد: ١٥١، ١٨١.

(٤) السابق: ١٨١- ١٨٢.

(٥) حتى ولو كان ذلك ثياباً وملابس غالية ثمينة، ينزعها عن صاحبها، ويرتديها هو. (السابق: ١٨٥).

(٦) حدث ذلك عندما طالبه ابن رائق بمزيد من الأموال، التى يقدمها للخلافة سنوياً، و لم يعد إلى طعامه حتى خَفف عنه المحيطون به، وهَوّنوا عليه ذلك، وطالبوه أن يعتبرها أموالاً كتلك التى قدمها الرسول للمؤلفة قلوبهم. (السابق: ١٨٢- ١٨٣).

(٧) لقد احتجن لنفسه بموضوع مكان نقل دار صناعة السفن من مكانها الأصلى بالجزيرة على النيل؛ كى لا تكون عرضة لإحراق المراكب بها، رغم أن ذلك المكان خطر له عندما أثير الموضوع فى مجلس طعام تكين وهو حاضر إياه، وقال - فى نفسه - يومها: أدع ذلك الرأى لنفسى إذا ملكتُ مصر. وبالفعل نقله فى ولايته إلى دار بنت الفتح بن خاقان؛ حتى لا يفصل بينه وبينها ماء، وحَوّل دار الصناعة القديمة إلى بستان. (السابق: ١٦٠).

يستطلع للحصول على الأموال بكافة الطرق والأساليب، وقد عُرف ذلك عنه منذ كان حاكماً لدمشق[١]، وبدأ به عهده فى حكم مصر لما سمح لجنده عقب دخول مصر بالسلب والنهب مدة يومين كاملين، ثم أُعلن أن مَنْ نهب قُتل[٢]. وكذلك تعرض محمد بن على المادَرائى لمصادرة ضياعه وممتلكاته بمصر والشام[٣]. والواقع أن الإخشيد ما كان يأتيه الخبر بامتلاك أى من كتّابه أو قواده شيئاً من المال، إلا بادر إلى مصادرته[٤]. وقد حدث ذلك مع كاتبه (عمران بن فارس)، إذ استدعاه من الشام ونكبه فى أمواله وصادرها[٥]، وكذلك كاتبه (محمد بن كلا)[٦]، وكان لا يتورع عن الاستيلاء على تركات المتوفَّيْنَ من القادة أو التجار الأثرياء[٧]، ناهباً بذلك حقوق وأموال الورثة (وفيهم اليتامى، والأرامل).

ومن عجب أن يدرك الإخشيد أن أموال المصادرة مشئومة، لكنه يعتذر بأنه ما أنفقها إلا فى سفر إلى عدو[٨]. ويذكر ابن زولاق أن الإخشيد كان رقيق الوجه فيه حياء، فلا يعذب أحداً عند مصادرته، ولا يتعرض للحُرَم[٩]، ولا يرى المُصادَر إلا بعد فترة، ثم يصطفيه ويؤانسه[١٠]. ويبدو أن الناس عرفت تلك السياسة الذميمة، فلم تستجب لنداء الإخشيد إليهم أن يتبرعوا فى المسجد؛ لأجل فداء الأسرى؛ مما اضطره إلى إرسال المراكب والأموال اللازمة من طريق أخرى[١١].

ويمكن القول بأن هذه السياسة ظالمة، خاصة أننا لم نرها مسبوقة بتحقيقات (أو مناظرات) تتم مع أولئك المصادَرين؛ للتأكد من مصادر ثرواتهم، ومدى أحقيتهم فى امتلاك هذه الأموال. ولا نقبل دفاعه عن نفسه بأنه كان ينفقها فى أسفاره؛ لصَدّ أعدائه. كما لا نقبل دفاع البعض عنه من أنه كان يستهلك الجانب الأكبر منها فى إقامة المشروعات والمنشآت، والمشاركة فى نفقات فداء الأسرى، بخلاف ما يبعث به إلى الخلافة من أموال[١٢]؛ لأن ذلك كله لا يبرر الجرم الفظيع الذى ارتكبه فى أكل أموال الناس بالباطل. وتلك الأمور التى يتحدثون عنها لها مواردها

---

(١) فقد اتُّهِم الإخشيد - رغم كراهيته سفك الدماء - بدَسّ السم لبُشْرَى الخادم، الذى وقع فى أسره بعد قتال سهما، ثم احتوى على نعمته، وضم قواته وجنده إليه. (سيرة الإخشيد: ١٥٣، ود. سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين: صـ٦٥).

(٢) سيرة الإخشيد: ١٥٩.

(٣) السابق: ١٦٢. (٤) السابق: ١٨٧. (٥) السابق: ١٥٤. (٦) السابق: ١٦٤.

(٧) فقد صادر فى شهر شعبان سنة ٣٢٤هـ مبلغ مائة ألف دينار من تركة أجَلّ تاجر فى مصر بعد وفاته، وهو عفّان بن سليمان البزّاز (السابق: ١٦٥).

(٨) السابق: ١٨٨.

(٩) السابق.

(١٠) سيرة الإخشيد: ١٨٨.

(١١) السابق: ١٦٦.

من خزينة الدولة، ثم إن ما وجد من أموال فى ممتلكاته وخزائنه[١] - مهما كان مبالغاً فيه - يدل على كثره هذه الأموال لنفسه؛ نتيجة لهمه، وأطماعه المادية التى لا حدود لها[٢].

ب- انتهاجه سياسة اللين والمدافعة، وقبوله الرأى السليم:

وخير مثال ضربه ابن زولاق على ذلك حادث انهدام جزء من كنيسة أبى شنودة سنة ٣٢٦ هـ. وقد حاول النصارى بذل الأموال للإخشيد؛ ليسمح لهم بعمارتها، لكن يبدو أنه خشى ثورة الناس عليه، فأحال على فُتيا الفقهاء، فالبعض أجاب والبعض رفض. وحدث ما توقعه الإخشيد، إذ ثارت العامة إلى دار من أفتى بتعميرها، وحاولوا إشعال النار فيها، وقتله؛ مما دفعه إلى الاستتار نادماً على فتواه. وارتكب الناس أحداث شغب عظيمة، وأغلقوا الدروب، وأحاطوا بالكنيسة. وقد أرسل إليهم الإخشيد وجوه غلمانه، مثل: كافور، وشادن فى عسكر كبير، وأمرهم ألا يلتحموا بالناس، لكن الرعية هى التى زحفت إليهم، ورموهم بالحجارة، فأمرهم الإخشيد بالرجوع. ثم عالج الموقف بكياسة وتؤدة، إذ أوفد الفقيه ابن الحداد (وكان ممن أفتى بعدم جواز تعمير الكنيسة) إلى تلك الكنيسة، فإن كانت آيلة للسقوط هدمها، وإلا فلا. واصطحب ابن الحداد معه المهندس (على بن عبد الله البواش)، ورفق بالناس وطمأنهم، حتى دخل ومعه المهندس إليها. فلما فحصها، وجد أنها يمكن بقاؤها خمس عشرة سنة، ثم يَهْوِى منها جزء، وبعدها بخمس وعشرين سنة تسقط بكاملها. فلما سمع الإخشيد ذلك الرأى، قَبِلَه وعمل به، فتركها و لم يعمرها[٣]. وبذلك تجنب ثورة الناس العارمة، و لم يَعْتَدِ - فى الوقت نفسه - على مقدسات النصارى.

ج- محاولة إقامة العدل،وحسن معاملة الرعية (خاصة العلويين):

يبدو أن مظالم الإخشيد المالية لم تكن تتجاوز القادة والكُتَّاب، والتجار الأثرياء. أما عامة الناس، فقد كان الإخشيد حريصاً على إجابة مطالبهم. فقد ورد أنه كان يجلس بنفسه للناس للقضاء فى المظالم كل أربعاء[٤]. وكان يكرم الصالحين ويُنَفِّذ ما يرون، فقد دخل عليه أحدهم، ويدعى (محمد بن أحمد الدِّيَنَورىّ) منكراً لأمور، فأزالها الإخشيد[٥].

---

(١) سيرة الإخشيد: ١٩٦- ١٩٧.

(٢) حتى لقد بلغ جشعه حداً، أوصله إلى الاحتكار، إذ كان يحب العنبر، فكان أكثر ما يُهْدَى إليه. فإذا جاءت الأعياد، أُخرجت كمياته الضخمة من خزائنه، وتُباع إلى التجار، فيشتريه الذين يهدونه إليه، فيحصل له الثمن الوافر، ثم يعود إليه العنبر ثانية. وهكذا، أقام سنين كثيرة، حتى اجتمع عنده قناطير. (السابق: صـ١٨٦- ١٨٧).

(٣) سيرة الإخشيد: ١٨٣- ١٨٤.

(٤) المصدر السابق: صـ١٩٠- ١٩١.

(٥) سيرة الإخشيد: صـ١٩١.

وبالنسبة للشام، فقد كان يسير فى شوارع الرملة، حتى صاحت به امرأة من فوق سطح: أيها الأمير، قِفْ عليّ بوقوفك بين يدى الله. فنظر إليها، ونزل عن دابته، وأُحضرت المرأة، فشكت إليه غياب صبيها عنها، فأمر بإحضاره، وتصدق عليها بمائة دينار، عسى الله أن يرحم ذل موقف بين يديه[١]. وقد أورد ابن زولاق رواية، تفيد حسن معاملة العلويين، واحترامه إياهم، وتساهله معهم، ومنحه الأمان لأحد كتّابه المستترين عنه فى دار أحد العلويين؛ إكراماً له[٢].

بالنسبة لعلاقات الإخشيد الخارجية، فـإننى أكتفى – فقط – بمحاولة تفسير سياسته تجاه ابـن رائق[٣]، ثم سيف الدولة الحمدانى[٤] بالشام. يتضح من أخبار صدامه مع هذين الرجلين، ومع غيرهمـا من الطامعين فى دولته[٥]، أنه رجل مسالم، يميل إلى الصفح والمسالمة، ولا يلجأ إلى القتال إلا حين لا تنفع الوسائل السلمية. وقد لجأ إلى المصاهرة والمصالحة مع ابن رائق؛ لعلمه أنه رجل الخليفة، والصـدام مـع جيوشه وإلحاق الهزيمة بها يوقعه فى الحرج الشديد. ولذلك تحمل عداوة واعتداء ابن رائق حتى خلّصه القدر منه سنة (٣٣٠هـ) . أما سيف الدولة ، فرغم انتصار الإخشيد عليه إلا أنه لم يكـن معه حاسماً . وقد فسّر الإخشيد نفسه ذلك بأن سيف الدولة رجل صعب المراس ، عسكر حـذاءهم – رغـم هزيمته – بوجه صفيق ، وقلة حياء . وقد اختار الإخشيد مسالمته ، ولم يسمع لغلمانـه المتحمسـين لمواصلة القتال ؛ لأنه رأى أن الأمر لن يخرج عن شيئين : إما أن ينتصر سيف الدولـة ، فتكون هزيمتهم عاراً وفضيحة . وإما أن ينتصر الإخشيد ، ويقع سيف الدولة فى الأسر ، فيجهـز له كل وسائل الراحة ، ويكلفه – بعد ذلك – رَدَّه لأهله ؛ لأنهم لا يتركونه . بعد ذلك لا يَسْلَم من أذى وامتنان غلمانه عليه ، يطالبونه بالأموال ، ويسألونه الأعمال والولايات[٦].

والخلاصـة :

أن الإخشـيد نجح فى إقامة دولة قوية ، ضمت مصر والشام ، محاولاً تَرَسُّمَ خُطَى ابن طولون فى سيرته ودولته[٧] ، وحقق لمصر الاستقرار والازدهار، لكنه أساء فى أسلوب المصادرات . ونجح فى إقامة علاقات متوازنة بالخارج، سالم وصالح فيها قُوَى عصره، وجنّب شعبه مخاطر الحروب وويلاتها .

---

(١) المصدر السابق: صـ١٩١.

(٢) راجع تفاصيل قصة هذا الكاتب (سهل بن محمد البغدادى) مع العلوى (أبى إبراهيم الرَّسّىّ العلوى)، التى انتهت بتأمين الإخشيد للكاتب، ومنحه خاتمه للعلوى وتكريمه. (السابق: ١٨٨).

(٣) تفاصيل الصدام فى: زبدة الحلب ١/٩٩- ١٠٢.

(٤) السابق: ١/١١٤- ١١٥.

(٥) نجح الإخشيد فى استقطاب كافة الطامحين إلى ولاية مصر (ذكرهم ابن زولاق فى سيرة الإخشيد صـ١٨٢).

(٦) سيرة الإخشيد: ١٩٥، وأضاف بعض المحدثين أنه يريد الإبقاء على الحمدانيين، كحصن فى مواجهة الروم (مصر فى العصور الوسطى) ص ٢٤٤.

(٧) سيرة الإخشيد: ١٦٣، ١٨٠ – ١٨١.

خامساً ، وأخيراً - منهج المؤرخ ابن زولاق فى (سيرة الإخشيد)

ما قبل معالجة المنهج :

لدىّ ملاحظتان على تلك السيرة متصلتان بمنهج الرجل ، أعرضهما كما يلى :

أ- مقدمة ابن زولاق لكتابه هذا(١):

وفيها اتضحت منهجيته وروحه العلمى ، ونظراته الناقدة الواعية . لقد أوضح فيها - باختصار - ظروف تأليفه هذا الكتاب ، ومن سبقه فى مجاله التأليفى ، ورأيه فيما سبق فى موضوعه هذا . ذكر ابن زولاق فيها تتلمذه على أستاذه ابن الداية ، وما ألّف من كتب على نمط تآليفه . وذكر أن (محمد بن موسى بن المأمون الهاشمى) عمل كتاباً فى سيرة الإخشيد ، يتقرب به إليه . وقد وُضع هذا المؤلَّف قبيل وفاة الإخشيد (قريباً من سنة ٣٣٤هـ) . وكعادة العلماء المنهجيين اطلع ابن زولاق علـى ما كُتب فى موضوعه من قبل . فلما نظر فى كتاب ابن المأمون هذا ، لم يجده على منهج كتب السير التاريخية ، ووجد فيه سلبيات ، منها : أنه كتاب مدح أقرب إلى الذم . ولخّص ابن زولاق ما فيه فى جزئيتين اثنتين : تحدث عن نفقات الإخشيد واقتصاده فيها ، فنشر بخله بين الناس . وانتزع من القرآن آيات فى الحلم والصفح ، وقال : هذه صفاته . ففهمت الناس ما وراء ذلك من وصفه بالجبن والهلع . وعاب ابن زولاق عليه أنه لم يستوف ولم يستقص مختلف جوانب حياة الإخشيد (من ذكر نشأته ، وحروبه ، وولاياته . . . إلخ) .

ثم ذكر ابن زولاق أنه كان مع مؤلف هذا الكتاب بمصر سنة ٣٣٤هـ ، وكان الإخشيد بالشام فى سفره الذى مات فيه ، وقد سأل أحد طلاب العلم كتاب ابن المأمون ، فرد مؤلفه : إنى سألت الإخشيد عند خروجه إلى الشام دَفْعَ الكتاب إلى الناس الذين يطلبونه لينسخوه ، لكنه رفض . وعلّق ابن زولاق قائلاً : وهذا يعنى أن الإخشيد قرأ الكتاب ، وفهم أنه إلى الهجاء أقرب (وهو نفس فهم ابن زولاق) . ثم مدح عقل الإخشيد بأنه كان فطناً جيد الرأى .

وأخيراً ، ذكر ظرف وسبب تأليفه كتابه هذا ، وهو أن علىّ بن الإخشيد طلب إليه عمل سيرة أبيه ، فكان هذا الكتاب ، الذى استحسنه علىّ، وكافأ هو ووالدته ابن زولاق بمبلغ جار سنويّاً . ثم أوضح تدقيقه فى انتقاء موارده . وذكر أن له كتاباً آخر ذيَّل به على كتاب (الولاة) للكندى ، وبه أتم كتابة تاريخ الدولة الإخشيدية . ثم بيّن أنه زاد فى هذه السيرة أشياء بعد (علىّ بن الإخشيد) .

---

(١) سيرة الإخشيد: ١٤٨ - ١٤٩.

ب- حول حجم ما بقي من سيرة الإخشيد :

ليس الجزء المذكور فى كتاب (المغرب) لابن سعيد معبِّراً عن الكتاب بكامله ، وإنما هو جزء لا بأس به منه، احتفظ لنا به ابن سعيد ، وهو يؤرخ للدولة الإخشيدية ؛ لأنه نقل عنه وعن غيره من الكتب[1]. وثمة دليل آخر على ذلك، وهو أنه بدأ عرضه لمَا احتفظ به من كتاب ابن زولاق بقوله : " ومن كتاب ابن زولاق"[2]، وهذا يفيد البعضية لا الكلية.

عناصر المنهج :

أولاً - من حيث توقيت الأحداث :

وفى هذه الجزئية نرصد مدى قدرة المؤرخ ابن زولاق على ذكر توقيت الأحداث التاريخية ، بالإضافة إلى درجة دقته فى ذكرها . ويمكن أن نقسم تلك الروايات من حيث التوقيت إلى ما يلي :

١- روايات اهتم فيها ابن زولاق بذكر مواقيت أحداثها المهمة، مثل:

تاريخ ميلاد الإخشيد[3]، وتاريخ وفاة طغج[4]، وتاريخ بدء سخط تكين عليه[5]، وتاريخ ميلاد ابنه أونوجور[6]، وتاريخ وفاة الوالى تكين[7]، وتاريخ نهاية ولاية الإخشيد الأولى على مصر[8]، وتوقيت دخول مصر بعد انتصار جيوشه[9]، وتحديد موعد نقل دار الصناعة[10]. ويلاحظ أن هذه التواريخ ذكرها ابن زولاق - في الغالب - باليوم والشهر والسنة في دقة بالغة، وكل حدث ذكر توقيته له أهميته القصوى في أحداث سيرة الإخشيد، ومجريات حياته.

وهناك روايتان ذكر ابن زولاق تاريخهما، ويغلب على الظن أنه تفرد بذكر ذلك التوقيت، وهما روايتان تتعلق الأولى منهما بتاريخ طلب الإخشيد إلى الخليفة الراضى منحه لقب الإخشيد[11]. والثانية تتصل بتاريخ وصول رسول الخليفة بهذا اللقب[12].

---

(١) و (٢) سيرة الإخشيد: ص ١٤٨.

(٣) فى النصف من رجب سنة ٢٦٨هـ. (سيرة الإخشيد: ١٥٠).

(٤) توفى فى الحبس سنة ٢٩٤هـ (المصدر السابق: ١٥١).

(٥) سنة ٣١٦هـ (السابق: ١٥٣).

(٦) فى يوم عرفة سنة ٣١٩هـ (السابق: ١٥٥).

(٧) ١٦ من ربيع الأول ٣٢١هـ (السابق: ١٥٦). وهو مهم لابن طغج، فقد كان يترقب ذلك للانقضاض على حكم مصر.

(٨) من شوال ٣٢١هـ (السابق: ١٥٧).

(٩) يوم الأربعاء لسبع بقين من رمضان سنة ٣٢٣هـ. وهذا أرجح من تاريخ آخر سابق فى رواية سابقة (لتسع بقين من رمضان). (السابق: صـ١٥٩).

(١٠) فى شعبان سنة ٣٢٥هـ. (السابق: ١٦٦).

(١١) سنة ٣٢٦هـ (السابق: ١٧٣). (١٢) فى شهر رمضان سنة ٣٢٧هـ (السابق: ١٧٤).

٢- روايات أغفل فيها ابن زولاق توقيت الأحداث رغم أهميتها:

لم يذكر تاريخ كتابة الإخشيد رسالته المطولة إلى رومانوس الرومي رداً على كتاب أرسله إليـه[١]، و لم يحدد فى إحدى المرات متى ثارت بالإخشيد السوداء[٢] (نوبات الصرع)، فتاريخها مهـم؛ لأنـه مـرتبط بكتابة عدد من القادة إلى الخلافة، يسألونها توليتهم مصر مكانه. وقام الإخشـيد بحـركة إصلاح دينى اجتماعى، و لم نعرف متى كان ذلك تحديداً؛ لأنه قال: " وأمر الإخشـيد – فى وقت من الأوقات – بهدم المواخير ودور المقامرين، والقبض عليهم[٣] ". ورغم أهمية صراع الإخشيد مع ابن رائق، لم يذكر لنا بالتحديد متى قُتل ابن رائق[٤]، رغم تأثير ذلك الإيجابى فى دولة الإخشيد. وأخيراً، تعددت مرات دخول وخروج الوزير (الفضل بن جعفر) إلى مصر والشام[٥]، و لم يُعْنَ ابن زولاق بتواريخ ذلك، رغم صلته الوثيقة بسيرة الإخشيد.

(١) سيرة الإخشيد: ١٦٧- ١٧٣. وإن كنتُ استنتجت من رواية أول صـ١٧٣: أن الكتاب المرسل من الإخشيد مؤرخ بتاريخ سنة ٣٢٥هـ (يقول فى بداية هذه الرواية: وفى هذه السنة – وهى سنة ٣٢٥هـ – جهز الإخشيد المراكب الحربية للمسير إلى الثغور؛ للفداء بين المسلمين ونصارى الروم).

(٢) السابق: ١٦٤.

(٣) السابق: ١٨٠.

(٤) ثم ورد الخبر على الإخشيد بقتل ابن رائق (السابق: ١٧٩). و لم يذكر فى أية سنة كان ذلك. وقبل هذه الرواية ذكر أحداثاً ترجع إلى سنة ٣٢٩هـ (بيعة المتقى بالخلافة، وإقراره الإخشيد فى مكانه). ومعلوم أن ابن رائق قتل سنة ٣٣٠هـ.

(٥) سأحاول–جاهداً–استنتاج تلك التواريخ من خلال عقد المقارنات، والجمع بين النصوص التاريخية فى المصادر والمراجع، التى تعرضت لهذا الموضوع. فى البداية: نحن نعرف تاريخ دخول الإخشيد مصر (٢٣ من رمضان سنة ٣٢٣هـ)، ونريد أن نعرف متى دخل الوزير الفضل بن جعفر مصر (بعد امتلاك الإخشيد لها) ؟ والجواب يسير استنتاجه؛ لأنه وردت رواية – فى (سيرة الإخشيد) صـ١٦١ – تذكر أن الفضل لما دخل إلى مصر، وعرف مكان المادَرائى وأحضره، طالبه بأموال ونفقات موسم الحج. وهذا يعنى أنه دخل مصر قريباً من موسم الحج. ولما كانت رحلة الحج تستغرق – آنذاك – وقتاً طويلاً، فإننا نُقدِّر أن الفضل دخل مصر (حوالى الأسبوع الأول من شوال سنة ٣٢٣هـ). ويُقوِّى ذلك ما ورد فى (الولاة للكندى) صـ٢٨٦- ٢٨٧: أن الوزير أتى بعد خروج صاحب أسطول الإخشيد (صاعد)؛ لمطاردة الجند المغاربة بالفيوم بقيادة حبشى. ثم أقام الوزير فى مصر يشرف على شئونها المالية، ويكشف ضياعها (خاصة ضياع المادَرائى) فترة عدة شهور، ثم خرج بالمادَرائى موكَّلاً به إلى الشام. والسؤال الآن: متى خرج به من مصر إلى الشام ؟ ذكرت د. سيدة كاشف فى (مصر فى عصر الإخشيديين صـ٧٩): أنه أقام فى مصر إلى جمادى الأولى سنة ٣٢٤هـ، ثم خرج إلى الشام. ويرى د. زيود: أنه خرج إلى الشام فى جمادى الأولى سنة ٣٢٤هـ ومعه المادَرائى. وظل يتنقل بين مصر والشام حتى مات الفضل بالرملة فى ربيع الأول سنة ٣٢٧هـ (العلاقات بين الشام ومصر فى العهدين الطولونى والإخشيدى) صـ٢٨٤.

والحق أن د. سيدة كاشف أقرب إلى الصواب، والدكتور زيود جانبه الصواب. والراجح– عندى –أن الوزير الفضل ظل فى مصر، حتى حُسمت معارك جيش الإخشيد ضد الجند المغاربة لصالح الإخشيد، وعاد الجيش بالأسرى فنزل الجيزة هم فى جمادى الأولى ٣٢٤هـ، ثم طيف بالأسرى أول يوم من جمادى الآخرة. وعقب ذلك خرج الفضل من مصر لليلة خلت من جمادى الآخرة إلى الشام (الولاة للكندى صـ٢٨٨). ثم هناك تفاصيل أخرى بعد ذلك، فلنا أن نتصور مدة سفر الفضل بالمادَرائى حتى وصل إلى الرملة بالشام، ولعله وصل –

ثانياً - من حيث ترتيب الأحداث وتسلسلها:

بدأ ابن زولاق كتابه - بعد المقدمة - بعنوان رئيسى (ذِكْر الإخشيد)[١] ، وهو يتناسب مع مـا سـيذكره بعد ذلك من حياة الإخشيد منذ بداياتها الأولى، حيث ذكر اسمه ونسبه بالكامل، وتفسير لفظة (طغج)، وذكر جده ووالده وهكذا[٢]، وذلك فى محاولة منه لعلاج النقص والقصور، الـذى عابه على سيرة ابن المأمون الهاشمى من قبل. والمتتبع لسيرة الإخشيد يلحظ أن هناك مواطن راعى فيها ابن زولاق (الترتيب والتسلسل المنطقى والزمنى للأحداث)، مثل: الصفات الأولى التى ذكر فيها أوليات محمد بن طغج، وأخبار جده، ثم والده، وتقلب ابن طغج فى الوظائف، حتى غدا حاكمـاً لدمشق. ثم تطورات الموقف بعد وفاة والى مصر تكين، ومعارك ابن طغج التى خاضها حتى دخل مصر منتصراً، محققاً هدفه فى الجمع بين مصر والشام[٣].

وجدير بالذكر أن هناك بعض الأجزاء من سيرة الإخشيد، ينهج فيها ابن زولاق نهجاً أقرب إلى الـتاريخ الحولى، لكن مع تطوير فيه، بحيث لا يقطع الحدث الممتد، أو بالأحرى لم تكن هناك حـوادث مطوّلة، يمكن أن تمتد أكثر من عام. فكان ابن زولاق يقول: وفى سنة ٣٢٥هـ حدث كـذا وكذا، ويتلوها بالسنة التالية وهكذا، حتى سنة ٣٣٠هـ[٤] (التى سبق أن حددناها موعداً

= منتصف الشهر مثلاً، فحبس المادَرائى فى داره، وظل هكذا حتى وفاة الفضل فى ٨ من جمادى الأولى سنة ٣٢٧ هـ (وهذا هو التاريخ الصحيح لوفاته)، الذى ذكره ابن زولاق فى (سيرة الإخشيد) صـ١٧٣، والصولى فى (أخبار الراضى) صـ١٣٣، وغيرها. وقد أخطأ الكندى لما جعل وفاته فى ٨ من ربيع الأول ٣٢٧هـ، إذ كيف يجعله فى مصر فى ٨ من ربيع الأول، ثم يجعل التاريخ نفسه هو تاريخ وفاته بالرملة ؟! (الولاة - ط. جست - صـ٢٨٨). وبحساب المدة بين خروج الفضل من مصر، وحبسه المادَرائى فى داره بالرملة بالشام، وتاريخ إطلاق سراحه بعد وفاة الفضل يكون قضى فى الحبس ثلاث سنوات إلا قليلاً (فتكون المدة التـى ذكرها ابن زولاق: ٣ سنوات، و٨ شهور غـير دقيقة). لم يذكر الكنـدى دخـول الفضل مصر بعـد ذلك إلا يوم الخميس ٢٥ من محرم ٣٢٧هـ، ثم خرج منها الخميس ٨ من ربيع الأول ٣٢٧هـ (الولاة ٢٨٨). وهذا كلام غير صحيح، فقد كان الوزير الفضل - بحكم إشرافه على مصر والشام مالياً - قد دخل مصر قبل شهر شعبان سنة ٣٢٤هـ؛ بدليل أن خِلَع الراضى جاءت للإخشيد وهو فى مصر (فى شعبان ٣٢٤هـ) لما بلغه ما قام به الإخشيد والفضل فى مصر (سيرة الإخشيد ١٦٥- ١٦٦). ودخل مصر - أيضاً - أول سنة ٣٢٦هـ، لما استُدْعى للوزارة (السابق ١٧٣). وبذا يكون الفضل قضى فى الوزارة حوالى سنة، وخمسة شهور (وهو أدق مما قاله مسكويه فى (تجارب الأمم) ٤٠٩/١: أن مدته سنة، و٨ شهور، و٢٥ يوماً). ولما رأى الفضل دسائس دار الخلافة، أغرى ابن رائق بأموال مصر والشام، وخرج ليجمعها له. (يذكر ابن زولاق ١٧٣، والكامل ٣٦/٧): أنه سار إلى الشام، حيث مات. أما الكندى، فيذكر مجيئه إلى مصر، ومقامه بها من ٢٥ من محرم إلى ٨ من ربيع الأول ٣٢٧هـ (الولاة ٢٨٨)، ثم خرج إلى الرملة حيث وافته المنية - كما قلنا - ٨ من جمادى الأولى ٣٢٧هـ.

(١) سيرة الإخشيد: صـ١٤٩.

(٢) المصدر السابق: صـ١٤٩، وما بعدها.

(٣) سيرة الإخشيد: ١٤٩- ١٥٩.

(٤) السابق: ١٩٠- ١٩٧.

لمقتل ابن رائق، وظاهر سياق الرواية لدى ابن زولاق يقول هذا أيضاً). وكذلك يسير ابن زولاق علـــى الخط ذاته بدءاً من أحداث سنة ٣٣١هـــ، حتى وفاة الإخشيد سنة ٣٣٤هـــ. صحيح أن الأحـــداث لم تَسِر سنة وراء سنة على التوالى كالمثال السابق، إلا أن الأحداث متسلسلة ومنطقية. وبعـــد وفاة الإخشيد تحدث عن تركته، وما خلّفه من أموال وجواهر وممتلكات ضخمة تَنِدُّ عن الحصر[١]. وأظن سيرة الإخشيد قد انتهت عند هذا الحد.

وهـــناك نماذج أُخرى ينهار فيها ذلك الترتيب تماماً. وأعتقد أن عقلية منهجية منظمة، مثل: عقلـــية المـــورخ ابن زولاق لا يمكن أن تقع فى ذلك الاضطراب، ولعل عدم سوق ابن سعيد لها كاملـــة – كما كتبها صاحبها – أدى إلى ذلك الخلط. فمثلاً: نجد روايات تتعلق ببعض المظاهر الحضـــارية فى عهد الإخشيد بعد حديثه عن إنهاء الوزير الفضل بن جعفر مهمته فى كشف ضياع المادَرائـــى، وخـــروجه به إلى الشام موكلاً به[٢]. هنا لا يوجـــد أى ترابط بين الموضوعين. وفى موضـــع آخـــر: يسوق أحداثاً وقعت سنة ٣٢٥هـــ، ثم يتلوها بأخرى وقعت سنة ٣٢٤هـــ، ثم يعود فيذكر أحداثاً تتصل بسنة ٣٢٥هـــ مرة أخرى[٣]. ويبلغ انهيار السياق التاريخى أشده عندما يتناول بعض حكايات عن الإخشيد تعود إلى فترات تاريخية مختلفة، ولا يوجد أدنى رابط بينها[٤]. وهكذا تحتاج هذه السيرة – بوضعها الحالى – إلى صبر وأناة فى قراءة الأحداث وتتبعها[٥].

ثالثاً – من حيث الموضوعية والمنطقية فى اختيار الأحداث:

ونقصـــد هـــذا الملمـــح المنهجى أن نلقى الضوء على موقف المؤرخ ابن زولاق من إيراد الـــروايات ذات الطابـــع الخرافى، أو الأسطورى، أو المبالغ فيها. ويضاف إلى ذلك موقفه من صـــاحب السيرة (الإخشيد)، هل المؤرخ ابن زولاق متحيز إليه، أو متحامل عليه، أو أنه يقف على الحياد، فيؤرخ لحياته بأمانة ونزاهة وموضوعية، وتجرد عن الميل والهوى ؟ الحق أن الدكتورة سـيدة كاشـــف – كما ذكرتُ من قبل – تعتقد أن نسخة سيرة الإخشيد الموجودة فى كتاب (المُغرِب) لابن سعيد ليست هى النسخة الأصلية، وتستدل على ذلك بعبارة ذكرها ابن زولاق

---

(١) السابق: ١٦٣.

(٢) السابق: ١٦٦– ١٧٣.

(٣) سيرة الإخشيد: ١٦٦– ١٧٣.

(٤) مثل: حديثه عن حكاية له فى دمشق مع تكين، ثم حديثه عن موقف الإخشيد من المواخير ودور القمار فى عهده، ثم بعض مظاهر تشبهه بابن طولون، وهكذا. إنها روايات لا رابط بينهـــا على المستوى الزمنى والموضوعى (السابق ١٩٠– ١٩٨).

(٥) لا أوافق على التعميم المطلق، الذى وصفت به د. سيدة كاشف (سيرة الإخشيد كما نقلها ابن زولاق) بأنها مجموعة جزازات غير مرتبة لا موضوعياً ولا تاريخياً (تصدير مصر فى عصر الإخشيديين) صـــ٥. فذلك لا ينطبق على السيرة كلها.

نفسه، أنه أضاف إلى كتابه أشياء بعد (عليّ بن الإخشيد). ووصلتْ من ذلك إلى نتيجة مفادها أن ابـــن زولاق أضـــاف إلى سيرته – بعد سقوط الإخشيديين – إضافات فيها مجاملة ومداهنة وتقرب للعبيديين حكام مصر الجدد (مثل: طعنه بالتزوير فى كتاب تقليد الإخشيد ولاية مصر، وكـــذلك كلامـــه على ما حَلّ بجثته بعد وفاته، وبعض إشارات فى كتابه لا يُنتظر أن يتضمنها كـــتاب عـــن الإخشيد، يُقدَّم إلى ابنه، ويحوز رضاه)[١]. ويضيف باحث ثان – إلى ما تقدم – دلـــيلاً آخر على تحيز ابن زولاق ضد الإخشيد، وهو أنه لم يذكر شيئاً عن أولاده بعد وفاته، قاصداً بذلك الحط من شأنهم، فكأنه يريد أن يقول: لولا وجود كافور، ما قامت لدولتهم قائمة بعد وفاة عميدها ومؤسسها[٢].

وإذا جاز لى أن أعلق على الكلام السابق، فإنى أحدد تعليقى فيما يلى:

أ- لا خلاف بينى وبين الباحثين الآخرين حول عدم أصالة النسخة، التى بين أيدينا من سيرة الإخشـــيد، فهـــى – فى رأيى – ليست المقدَّمة إلى (عليّ بن الإخشيد)، وليست التى طالعها ابن ســـعيد، وإنمـــا هى مقتبسات مطوَّلة اقتبسها فى كتابه (المغرب)، تصل إلى حد النقل شبه الحرفى لجانـــب كـــبير مـــن هذه السيرة، التى أرى أنه احتفظ لنا فيها بمقدمتها، ونهايتها، وكان أميناً فى الحفاظ على ذكر مواردها. وأستبعد أن يكون ما فيها من خلل فى الترتيب راجعاً إلى الأصل ولا إلى الـــناقل (ابن سعيد)، وإنما هو من فعل النسَّاخ من جهـــة، وعوادى الزمن الذى تعرضت له مخطوطات كتاب المغرب من جهة أخرى؛ لأن كلاً من ابن زولاق، وابن سعيد مؤرخان كبيران منهجيان لا يقع منهما ذلك.

ب- ولا خـــلاف بينـــنا – أيضاً – فى أن ابن زولاق – وهو الذى أعْلَمَنا بذلك – أضاف إلى كـــتابه أشياء بعد وفاة عليّ بن الإخشيد (ت ٣٥٥هـــ). لكنى أفسر هذه الإضافات ودافعها تفسيراً مخـــتلفاً، فهـــى – عـــندى – تشمل الإضافات، التى لا أعتقد أن حصافة ابن زولاق تجعله يتزلق، ويصـــطدم بأســـرة الإخشـــيد فيذكرها (وهو ما قاله الباحثون قبلى)، لكنى أضيف – إلى ذلك – التنقـــيحات والتصويبات، التى لا يَغْفل ابن زولاق – وهو المؤرخ الكبير – عن إدخالها فى كتابه عند إعـــادة النظر فيه. وتلك طبيعة المؤرخ المدقق، الذى ينتقد نفسه بلا هوادة، ولا يفتأ يعدِّل ويصوِّب؛ حـــتى يقرب من الكمال. وإن كنت – بطبيعة الحال – لا أستطيع تحديد تلك التصويبات، لكن دقته التى تبدَّت لنا، تشير إلى إعادته النظر مرات. إلى هنا وبين رأيَيْنا خُطًى متقاربة، كما يقولون.

ج- لا أوافـــق علـــى اتهـــام ابن زولاق بالتحيز ضد الإخشيد، وميله مع الهوى لصالح

---

(١) مصر فى عهد الإخشيديين صـــ٥.

(٢) ماجستير فرج الأحول: (حضارة مصر فى عهد الدولة الإخشيدية) صـــ٥٨.

العبيديين، الذين رعوه حق الرعاية، فيكون الرجل بذلك قد فقد أهم شروط المؤرخ وهى (العدالة، والمصداقية، والحيادية). فهو – لأجل عطاء علىّ بن الإخشيد وأمه، كما أقر هو نفسه – يطمس ما يَشين الإخشيد، ولأجل منصب وعطاء العبيديين يُلصق بالإخشيد كل ما يحط من قدره ؟! أعتقد أن ذلك بعيد عن الحقيقة؛ لأن الأمر لو كان كما يقولون ما صرّح فى مقدمته بهذه الاعترافات، ولأضعف ذلك كثيراً من قوة الاتهامات، ولأحالها إلى مجرد استنتاجات. ثم إنه عندما اقتصر على سيرة الإخشيد دون بنيه، فلأن هذا هو موضوع كتابه، ومنهجيته وعقليته تأبيان عليه أن يتجاوزه، فليس الأمر انتقاصاً من قدر دولته. ثم إذا أردنا الحقيقة، فدولته – فعلاً – هَوَتْ إلى الحضيض بعده، ولولا كافور لم تقم لها قائمة. ثم إن الرجل تناول دولة الإخشيديين من بعد وفاة الإخشيد حتى دخول المعز مصر فى كتاب آخر، كما ذكرتُ من قبل، لا لأن خلفاء الإخشيد يستأهلون الكتابة عنهم، وإنما استكمالاً لحلقات التاريخ وبيان تغيرات حركته.

د- إننى أفسر إضافاته تفسيراً جديداً، يجعلنا ننظر إلى شجاعة وأمانة هذا المؤرخ نظرة إكبار؛ لأنه سرعان ما عاد إلى الحق، لما تهيأت له الفرصة من قريب. لقد اضطر أن يصنع ما صنع اضطراراً، وما إن توفى (على بن الإخشيد)، حتى وجد الفرصة سانحة؛ كى يعيد الحق إلى نصابه. فهو لم ينتظر – إذن – حتى دخل العبيديون مصر، وأسقطوا بقايا الإخشيدية المنتفعين، ثم أقبل بالزُّلْفَى إليهم، وإنما فى عصر كافور قام بإحداث التغيير المطلوب؛ لأنه شعر بزوال الحرج، فغيَّر وهو آمن مطمئن. ومن هنا تسقط الحجة القائلة بمداهنته العبيديين فى ذلك الأمر. فالرجل غيَّر قبل مجيئهم مصر، ثم ماذا يستفيد العبيديون من الحط من شأن الإخشيد ؟ إن الناس فى مصر تمنوا زوال هذه الدولة بعدما عانوا فى أواخرها من القحط والجوع والكوارث، وتطلعوا إلى الحكم الجديد، وأمان جوهر لهم بصدور يملؤها الأمل. ثم إن ابن زولاق انغمس عند دخول جوهر فى متابعة أخبار العبيديين عن كثب من خلال صلاته بهم، وشُغل بالتأريخ لفترة حكم جوهر، فالمعز، فالعزيز حتى وافته مَنِيَّته، فهو لا وقت عنده يضيعه فى كتاب عن دولة زالت من الوجود.

هـ- إن مطالعتى لسيرة الإخشيد دلّت على حيادية ابن زولاق إلى حد كبير، فهو قد أعطى الرجل ماله وما عليه، فوصفه فى مقدمة كتابه بجودة الرأى والفطنة، وذكر صفاته الحسنة إلى جانب مساوئه، بل أتى بالروايات التى دافع من خلالها الإخشيد عن نفسه، فَبرّر لجوءه إلى مصادرة الأموال، وعلّل عدم حسمه معاركه مع سيف الدولة رغم انتصاره عليه؛ مما جعله عرضة لاتهامه بالجبن والخَوَر والتردد. أعطاه ابن زولاق الفرصة كاملة ليعرض وجهة نظره

المقبولة، ولو كان متحيزاً ضده، لطمس ذكر ذلك كله. بل ابن زولاق أتى برواية رأى البعض[١] أن فيها مبالغة فى وصف قوة وشجاعة الإخشيد، وإن كنتُ أرى أنها قابلة للتصديق، وليست فى حجم تهويل رواية ابن الداية عن شجاعة ابن طولون فى الدفاع عن قافلة المستعين. وفى المقابل عرض الرجل لروايات اطمأن إلى صدقها، ووثق برواتها، كالفعلة السيئة التى ارتكبها محمد بن طغج وأبوه بقتل أحد وجوه العلويين بالشام[٢]، والروايات الخاصة بتركة الإخشيد بعد وفاته[٣]، (رغم المبالغة فيها إلا أن لها أصلاً ونصيباً كبيراً من الحقيقة؛ نظراً لكثرة مصادراته). أما الروايات التى تصف ظروف دفن الإخشيد، وتغير جثته لما شُغلوا عنها بالفتنة الحادثة بالشام، وشيوع النهب والسلب هناك، وبحثهم عن كافور يغيّرون به رائحته النتنة فلم يجدوا إلا مغشوشاً، فتأذّى منه حاملوه إلى مثواه ببيت المقدس[٤]، أعتقد أنها روايات مشكوك فى صحتها، خاصة أن ابن زولاق كان فى مصر لما مات الإخشيد بالشام، ولا نعرف شيئاً عن المورد الذى نقلها إليه، وهى تثير الاشمئزاز، وتناقض المنطق والعقل، فلو كان حدث لجثته ما حدث لدُفن مكانه حيث توفى. وفى سيرته روايات قليلة ذات طابع خرافى[٥]. ونلحظ - أخيراً- تشيع ابن زولاق فى بعض عباراته[٦]، لكنها لا تؤثر فى مسيرة الأحداث، ولا فى حياده الذى تمتع به، فأمانته العلمية شئ، ومعتقده الشيعى شئ آخر، وتلك سمة المؤرخ الحق.

رابعاً - مدى حضور شخصيته:

ونقصد بذلك قياس قدرة ابن زولاق على تعليل الأحداث، والتعليق عليها، ومدى دقته فى العرض التاريخى المبتكر، وإدراكه غرض التأريخ وفائدته.

تأثر ابن زولاق بثقافته الأدبية والفقهية، ولذلك أتى أسلوبه فى العرض التاريخى للأحداث موجزاً مركزاً دقيقاً فى أحيان كثيرة[٧]، معبِّراً عن بعض المفاهيم التى نرجح أنه

(١) عندما تصدى بقواته لُقطّاع طريق حاولوا النيل من ركب الحاجّ (سيرة الإخشيد ١٥٣، ومصر فى عصر الإخشيديين صـ٦٢ هامش ٢).

(٢) سيرة الإخشيد: ١٥١.

(٣) السابق: ١٩٦- ١٩٧.

(٤) السابق: ١٩٦.

(٥) رواية الطائر الذى دار فوق رأس ابن طغج ثلاث دورات وهو بالشام، فتمنى إمرة مصر، فتحققت له (السابق ١٥٦)، وما قاله المنجمون من موافقة طالعه طالع ابن طولون عند دخول مصر مع الاتفاق فى التوقيت (السابق ١٥٩).

(٦) مثل قوله عن عليّ: (صلوات الله عليه). (سيرة الإخشيد: ١٥١)، وعن القائم: (عليه السلام). (السابق ١٥٢).

(٧) من أمثلة ذلك: إشارته المركزة إلى ظَفَر طُغْج بصاحب القرامطة سنة ٢٩٠هـ (المصدر السابق: صـ١٥٠)، وتعبيره المركز المكثف عن صفح محمد بن تكين عن المادَرائى بعد كل إساءاته إليه (السابق ١٦١- ١٦٢). ودقته فى تحديد مكان مولد ابن طغج (ولد ببغداد بشارع باب الكوفة). (السابق ١٥٠).

يقصدها[١]. ومما يُحتسَب له - أيضاً - فى هذا الإطار قدرته الطيبة على التجميع والتنظيم للمعلــومات التى يضمها إطار واحد، وموضوع مشترك[٢]. وأخيراً، فإننا نأخذ عليه بعض التكرار[٣]، الذى قد يكون من فعل نُسّاخ المخطوطة، ولا دخل له به. وبالنسبة لقدرته على ابــتكار منهج جديد، أو ما شابه ذلك، فذلك ما لا نجد له مظاهر وشواهد تدلل عليه، بل إننى أجده مقلداً أستاذه المؤرخ ابن الداية، ومكملاً رسالته فى كتابة (سِيَر الحكام التاريخية). ويــبدو أنه كما كان الإخشيد متأثراً بابن طولون، معجباً به، يحذو حذوه ويحاول تقليده، فــإن ابــن زولاق مؤرخ (سيرة الإخشيد) كان يقلد أستاذه ابن الداية مؤرخ (سيرة ابن طولون) فى أفكاره وموضوعاته[٤].

هذا، وقد تأثرت قدرة ابن زولاق على التعليل بأسلوبه الموجز المركز فى العرض التاريخى؛ ولذلك لم نجد لديه التعليلات المطولة المسهبة، التى رأينا بعض نماذجها من قبل لدى البلوى. لقد اتســمت تعليلاته بالدقة والوجازة[٥]، وأعتقد أن بعضها - على الأقل - كان يحتاج إلى مزيد وضوح وتفصيل[٦].

لم تكــن تعلــيقات ابن زولاق على بعض الأحداث التاريخية بأحسن حالاً من تعليلاته، فتعليقاته محدودة موجزة لا تكاد تُتَبَيَّن، وهى تتصل بعقد مقارنة[٧]، أو تَتَبُّع حدث عاصره، حتى

---

(١) تعبيره عن الخليفة العباسى بالسلطان (السابق ١٥٩، ١٦٣). وقد سبقه إلى ذلك الداية والبلوى، ولعل ذلك دليل عدم رضا عن هؤلاء الخلفاء، وقد يكون لتشيعه دَخْلٌ فيه. وكذلك استخدم لفظة (بقال)، عندما ذكر أن عسكر مصر الذى رابط لمنع ابن طغج من دخولها بقواته، بلغ ثلاثين ألفاً، وقد سَدّ من الجبل إلى البحر (السابق: ١٥٨). وهى دالّة على تشكيكه فى صحة ضخامة هذا الحشد.

(٢) مثل: تجميعه محاولات سبعة من الأمراء المسير إلى الإخشيد لأخذ أعماله، وتمكنه من استقطابهم وردهم عن هدفهم. (السابق ١٨٢)، وكذلك ما ذكره عن عدد مرات سفره الخمس إلى أعدائه لقتالهم (السابق ١٨٨).

(٣) وهو تكرار فى المعنى العام لرواية تفيد حرصه على صلاة الجمعة، وحضور ختم القرآن فى رمضان والدعاء (السابق: ١٦٠، ١٨١، ١٨٥).

(٤) تأثر ابن زولاق - عموماً - بأستاذه ابن الداية فى كتابة سير الحكام. وأعتقد أنه تأثر به فى بعض الأفكار والموضوعات، التى حرص على تناولها فى كتابه؛ لأن ابن الداية تناول نظائر لها فى كتابه (مثل: بيان عدد من المراسم التى اهتم بها الإخشيد؛ تأثراً بابن طولون (سيرة الإخشيد: صـــ١٦٣، ١٦٦، ١٨١). وتحدث ابن زولاق عن الرواية التى تذكر الكنز، الذى عثر عليه الإخشيد فى دار (خديجة بنت الفتح بن خاقان). عندما اختارها مكاناً لصناعة السفن (السابق: ١٦٠)، كما تحدث - من قبل - ابن الداية عن كنز الصحراء، الذى عثر عليه ابن طولون، وبنى منه جامعه، والعين، والمارستان، وأنفق منه فى كثير من وجوه البر. (سيرة ابن طولون ٨٦). وقد صرّح ابن زولاق بأنه يذكر ما خلّفه الإخشيد فى تركته، كما ذكر ابن الداية ما خلّفه ابن طولون (السابق: صـــ١٩٦).

(٥) راجع نماذجها فى (سيرة الإخشيد): صـــ١٥٧، ١٥٩، ١٦١، ١٦٧.

(٦) مثل: تعليله خلاف ابن طغج وتكين والى مصر، وهرب الأول إلى الشام (سيرة الإخشيد: صـــ١٥٣).

(٧) حيث ذكر اتجاه الإخشيد - بعد تخلصه من الوزير الفضل، وقتل ابن رائق - إلى سلوك طريقة أحمد بن طولون، وابنه أبى الجيش فى بعض الأمور (السابق ١٨٠).

يكمله ويبلغ به منتهاه[١] وأحياناً، يعلق تعليقاً قاطعاً، لكنه تنقصه الدقة[٢].

وفى نهاية هـذه الجزئية أنوه إلى اهتمام ابن زولاق بجانب العبرة والعظة فى أحداث التاريخ، وذلك من خلال ما أورده من رواية تدلل على أن مَنْ تَوَرَّع عن ارتكاب الحرام، وأرْضَى الله فى سخط عباده، أبدله الله من الخوف أمناً وطمأنينة ونجاة[٣] وثمة رواياته المتعاقبة فى وصف نهاية الإخشيد، وما حَلَّ بجثته بعد موته[٤] حتى يتعظ المتعظون، ويتيقنوا نهاية كل حى مهما عظم شأنه، وسما مقامه فى هذه الدنيا، وأن الإنسان مهما جمع من الأموال من حِلِّها وحرامها، فإنه - يوماً لا بد - مفارقها، ومخلفها وراء ظهره، يستمتع بها ورثته، ويتطلع إليها المتطلعون[٥] ويُحاسَب وحده عليها: من أين اكتسبها ؟ وفيم أنفقها ؟

خامساً، وأخيراً - من حيث النظرة الشاملة فى علاج التاريخ الحضارى:

لم تقتصر نظرة المؤرخ المصرى ابن زولاق لتاريخ الإخشيد على أنه مجرد سرد للأحداث السياسية التى وقعت فى حياته حتى مماته، وإنما عرض فى ثنايا رواياته للعديد من المظاهر الحضارية الإدارية[٦]، والاقتصادية[٧]

(١) مثل: تتبعه ما حَلَّ بالكنيسة، التى سقط منها جزء زمن الإخشيد، ورفض الأخير ترميمها وذلك سنة ٣٢٦هـ، وما قاله المهندس المعاين لها من أنها ستسقط جميعها عند تمام أربعين سنة، علّق قائلاً: " وكان أمرها كما قال ابن البواش المهندس، فعُمِّرَتْ سنة ٣٦٦هـ قبل تمام أربعين سنة، ولو تُركَتْ سقطتْ (السابق: ١٨٤).

(٢) كقوله: " وليس يُعرف للإخشيد وقعة قاتل فيها غير هذه " (السابق: ١٧٨)، وذلك عقب معركة دارت بين ابن رائق والإخشيد، فانهزم فيها الإخشيد أولاً، ثم دارت الدائرة على ابن رائق بعدها. وتعليقه هذا فيه تعميم وغير دقيق؛ لأن ابن زولاق نفسه ذكر - بعد ذلك - معركة، حارب فيها الإخشيد، وهزم فيها سيف الدولة. (السابق: ١٨٨).

(٣) حدث ذلك مع طغج والد الإخشيد، لما رفض تنفيذ أوامر خمارويه بقتل(راغب)والى طرسوس(فيما يظهر)، واشتركا معاً فى غزو الروم.ثم وصل خمارويه فجأة إلى دمشق؛ ليوقع بـ(طغج)، ولكنه قتل فى تلك الليلة، وأراح الله (طغج) منه. (السابق: صـ١٥٠).

(٤) سيرة الإخشيد: ١٩٦.

(٥) راجع مقادير ما خلّفه الإخشيد فى تركته.وقد جلس ابنه (أونوجور) مكانه، واستوزر المادَرائى، الذى طلب من أم ولد الإخشيد المال للرجال، فقالت:ما عندى.فقال:ما فعلت سبعة أرادب أخذها منى دفعة واحدة، ما أنفق منها ديناراً واحداً ؟!(السابق:١٩٦- ١٩٧).

(٦) وردت عدة وظائف فى سيرة الإخشيد، منها:وظيفة كافور فى بادئ أمره (صاحب وضوء الإخشيد). (السابق:صـ١٥٥).ووظيفة والى الإسكندرية التى وليها ابن طغج لتكين والى مصر (السابق ١٥٢)، وبعده وليها (أحمد بن صالح).(السابق ١٥٣). وهناك محمد بن جعفر القرطى، الذى ولاه مؤنس الحسبة، ثم الخراج بمصر (السابق صـ١٥٤).

(٧) تزخر سيرة الإخشيد بالعديد من الملامح الاقتصادية، منها: ما يتصل بصناعة مراكب الأسطول (السابق ١٦٠)، ووضع الإخشيد رواتب ثابتة للفقراء والمعوزين تصرفها لهم الدولة (السابق ١٩٠)، وأسعار بعض أدوات المائدة (السابق ١٥٤)، وأسعار بعض الفواكه (السابق ١٥١)، والتبادل التجارى مع دولة الروم (السابق: ١٧٢)، وتجارة العنبر (السابق صـ١٨٦- ١٨٧)، ومقدار خراج مصر والشام فى سنوات حكم الإخشيد (السابق ١٨٧). إلى جانب بعض النشاط العمرانى، مثل: إنشاء بستان للإخشيد ومقدار تكلفته (السابق ١٦٠).

والاجتماعـــية[١] والفكرية[٢] بحيث يمكن – فى النهاية – أن نحكم على نظرة ابن زولاق للتاريخ بأنهـــا نظرة شاملة متكاملة متطورة، تسجل وضوح الفكرة ورحابة النظرة لدى مؤرخى القرن الرابع الهجرى فى مدرسة مصر التاريخية.

خلاصة مقارنة:

بعد انتهائنا من دراسة منهج ابن زولاق فى (سيرة الإخشيد) نركز هذه الملاحظات العامة المقارنة بين (سيرة ابن طولون) لابن الداية والبلوى، و(سيرة الإخشيد) لابن زولاق **فيما يلى:**

١ – الشخصية التى كتب عنها ابن الداية والبلوى، وهى شخصية ابن طولون، أعظم وأشهر مـــن الشخصـــية التى كتب عنها ابن زولاق (شخصية الإخشيد). فالأولى استقلالها أبعد أثراً، وحضـــارتها الـــتى خَلَّفَتْها أعظم، وآثار التى كانت تدل عليها أكبر[٣]. وواجهت شخصية ابن طولـــون عقبات كبيرة حتى تمت له السيطرة، بينما لم يُواجَه الإخشيد بعقبات كبيرة. ومن هنا تفوقت (سيرة ابن طولون)على (سيرة الإخشيد)؛ لأن الإخشيد كان يقلد ابن طولون فى مراسم دولته[٤]، وكذا قلد ابن زولاق ابن الداية فى معالم وأفكار كتابه.

٢ – نـــبرة الإعجاب والانبهار والتحيز لابن طولون واضحة وعالية فى كتابَى: ابن الداية،

(١) حفلت سيرة ابن زولاق بكثير من النواحى الاجتماعية، كالطِّيب (نوع من العطور). (سيرة الإخشيد: ١٥٠)، وأنواع الأطعمة والفواكه (السابق ١٥١، ١٥٨)، ورحلات الصيد ومجالس المنادمة لابن بسطام فى مصر، وخدمة الإخشيد له (السابق ١٥٢)، ووسائل الاتصال بين الناس (رسائل حمام الزاجل). (السابق ١٥٥، ١٨٨)، وشارات تقليد الولاة (السابق ١٥٥)، ومواكب الإخشيد المختلفة، ومراسم الإضاءة الليلية لها بالشموع (صـــ ١٥٩، ١٨٥)، ومواكب رمضان ومظاهر الاحتفال فيه وختم القرآن، واحتفالات الجند ليلة عيد الفطر (السابق: ١٦٠، ١٦٣- ١٦٤)، وألوان الاحتفالات والزينات والخِلَع فى موكب الإخشيد والوزير الفضل، وإطلاق الحمام المضمَّخ بالمسْك وماء الورد فى وجهيْهما (السابق ١٦١)، ومظاهر اللهو فوق أسطح المنازل (السابق ١٦٦)، وبعض مظاهر الانحراف فى المجتمع (مواخير، ودور للقمار) صــ١٨٠- ١٨١.

(٢) أوضح دور الفقهاء فى إصدار الفتاوى، ومكانة ابن الحداد الفقيه الشافعى لدى الإخشيد، وعامة الناس (السابق ١٨٣)، ومناقشات الفقهاء الشافعية والمالكية، وشدة اختلافهم حتى أغلق الإخشيد المسجد فترة، ثم أعاد فتحه (السابق ١٧٣، ١٨٢).

(٣) يرى د.حسن مؤنس، ود.عويس: أن الدولة الإخشيدية لا أثر لها ولا مكان لها فى التاريخ (الحضارة صـــ١٢٩، ودراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية صـــ٨٣- ٨٥). وهذا ظلم كبير لها.

(٤) ولم يقف حب الإخشيد للطولونيين عند هذا الحد، بل كان يجالس ويواكل جماعة منهم، مثل: عَدْنان بن أحمد ابن طولون، وابن أخيه (قيس بن العباس بن طولون)، وغيرهما. (سيرة الإخشيد: صـــ١٦٣). ويبدو أن مجالسة أبي مَعَدّ (عدنان بن أحمد بن طولون) كانت فى بدايات عهد الإخشيد (ولى سنة ٣٢٣هـــ)؛ لأن عدنان هذا وفد على بغداد، وروى بها الحديث (حَدث بها عن الربيع المرادى، وبكر بن سهل الدمياطي. ونقل عنه عبيد الله بن الخَلاّل). ويبدو أنه قدم دمشق – أيضاً – وحَدث بها، وكان ثقة صالحاً. (تاريخ بغداد ٣١٩/١٢، ومختصر تاريخ دمشق ٢٨٩/١٦، والنجوم ٣٠٠/٣).

والبلوى. أما ابن زولاق فنبرته معتدلة، وعباراته محايدة، ولا أثر فيها للمبالغة والتهويل، اللذَيْن نراهما بوضوح لدى سابقيْه.

٣- كان أثر ابن الداية والبلوى بعيداً فيمن أرَّخ بعدهما لدولة ابن طولون، فاعتمدوا عليهما اعتماداً أساسياً، خاصة كتاب البلوى المفصَّل. أما ابن زولاق، فالنقول عن (سيرة الإخشيد) محدودة نوعاً ما[(١)]، ولعل مَنْ تناولوا تاريخ الإخشيد لم يذكروا المصدر الذى نقلوا عنه (وهو ابن زولاق)، بالإضافة إلى الاهتمام بالطولونيين أكثر من الإخشيديين.

(من سير العلماء: أخبار سيبويه المصرى) لابن زولاق

تقديم:

بعد إتمام حديثنا المطوَّل عن (سير الحكام التاريخية) المطبوعة والمفقودة، التى كتبها مؤرخو المدرسة المصرية التاريخية فى القرن الرابع الهجرى، آن لنا أن نتناول اتجاهاً جديداً آخر فى كتابة السير فى المدرسة نفسها والقرن نفسه، ألا وهو كتابة (سير العلماء). ولا نجد نموذجاً لهذا اللون من الكتابة التاريخية إلا فى كتاب المؤرخ المصرى الفذ الموهوب، ذى المواهب والملكات التاريخية المتعددة، وصاحب الإنتاج التاريخى الغزير، إنه (ابن زولاق)، وذلك فيما كتبه عن سيرة زميل دراسته، وصديقه المعاصر له (عالم النحو والكلام الملقَّب بسيبويه المصرى). وسوف نتناول - بإيجاز - هذا الكتاب، من حيث: (موضوعه، ومحتواه، وموارده، ومنهج مؤلفه فيه، ونظرة عامة على أهميته وما أثاره من قضايا).

أولاً - محتواه العام*:

١- بيان مكانة (سيبويه المصرى)، الذى جمع ابن زولاق ألفاظه وحِكَمه، وتناول أخباره. وقد عَرَّف باسمه وكنيته ولقبه (هو أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى الصَّيْرَفىّ)، وميلاده (٢٨٤هـ)، ووفاته عن ٧٤ سنة (ت ٣٥٨هـ).

٢- معرفة سيبويه بالقرآن، ومعانيه، وقراءاته، وأحكامه. وكذلك علمه بالحديث وغريبه، ومعانيه ورواته، وتلقيه العلم على النَّسائىّ، والطحاوىّ. تَفَقُّهه على قول الشافعى، ومجالسته ابن الحداد الفقيه، وحبه الجدل والكلام والاعتزال، وتلقيه على وجه المتكلمين بمصر آنذاك (أبى علىّ محمد بن موسى القاضى الواسطى).

---

(١) نقل عنها ابن العَديم فى (بغية الطلب) جـ٥ صـ٢٤٠٩، والمقريزى فى (الخطط) جـ٢ صـ٢٥، ١٨١، ١٩٧.

* اعتمدتُ على الطبعة المعروفة لهذا الكتاب، التى قام على نشرها الأستاذان: محمد إبراهيم سعد، وحسين الديب، ونُشرت سنة ١٩٣٣م، وقدّم لها الأستاذ (محمد عبد الله عنان). ونص الكتاب (صـ١٦- ٥٨).

٣- ســـر تخليطه الذى وقع له، وتناوله بالحديث القضاء والقدر، ومظاهر جنونه وخروجه عن وعيه.

٤- شدة انتقاده الوزراء والقواد والأمراء فى العصر الإخشيدى، مثل: صالح ابن نافع (أحد قـــواد الإخشـــيد)، ونقده مواكب الإخشيد، وتهجمه بالقول على (محمد بن عبد الله الخازن). وعدم رضائه عن تولية كافور الخصىّ الحكم،

ومهاجمته ولاية الصبى (أحمد بن على بن الإخشيد) بعد وفاة كافور. وشيوع سخطه ونقده وإنكـــاره على أمور عديدة، فأنكر وشكّك فى صحة إسلام يعقوب ابن كلس فى عهد كافور، وانـــتقد بـــيت شعر مشهوراً للمتنبى، وكراهيته - عموماً - للظلم والظالمين، ولَعْنه إياهم. وقد عرَّضه تهجمه المستمر على علية القوم لإدخاله المارستان للعلاج، ثم إدخاله الحبس.

٥- وأخـــيراً، فقـــد كانت لسيبويه المصرى علاقات بالأشراف العلويين، مثل: أبى جعفر مســـلم، وأخـــيه أبى محمـــد عبد الله، وإحسانهما إليه. ومجالسته أونوجور، والحسين بن أحمد المادَرائى من قبلُ، وتلافى الناس لسانه اللاذع عن طريق دفع المال إليه، حتى أجرى عليه أبو بكر محمد بن على بن مقاتل الوزير راتباً شهرياً (قدره خمسة دنانير).

وفى الـــنهاية، ذكر ابن زولاق أنه لو جُمعت ألفاظ سيبويه، وأسجاعه، وأشعاره، لكانت أكثر مما ورد فى هذا الكتاب. ولكن فيما ذكره عنه كفاية.

ثانياً - موارد كتاب (أخبار سيبويه المصرى) لابن زولاق:

تنوعت موارد ابن زولاق فى هذا الكتاب على النحو الآتى:

١- موارد صريحة محددة:

بلغ عددها اثنين وعشرين (٢٢) مورداً موزعة على النحو الآتى:

أ- سيبويه المصرى: ونقل عنه ابن زولاق (١٥ رواية)[١].

ب- محمد بن الحسين الخوارزمى (٥ روايات)[٢].

ج- أبـــو الحسن السامرى الصوفى[٣]. وأبو الحسن محمد بن عبد القاهر[٤]، وعبد الله بن محمد[٥] (لكل روايتان).

(١) أخبار سيبويه المصرى، لابن زولاق: صـــ١٩- ٢١، ٢٨، ٣٧- ٣٨، ٣٩- ٤٠، ٤٣، ٤٨، ٥٤ - ٥٨.
(٢) المصدر السابق: ٣٩، ٤٤، ٤٦- ٤٨.
(٣) أخبار سيبويه المصرى: صـــ٢٦- ٢٧.
(٤) السابق: ٣٨- ٣٩.
(٥) السابق: ٤٠، ٤٦.

د- سبعة عشر مورداً، لكل مورد منها رواية واحدة، **وهذه الموارد هي:**

(أحمد بن مسروان القاضى[١]، وأحمد بن محبوب الفقيه[٢]، ومحمد بن عبد الله ابن عبد الحكم[٣]، ومحمد بن عبد الله بن أحمد[٤]، والحسن بن موسى الخياط[٥]، وعبد الله بن وليد القاضى[٦]، وأبو عيسى عبد العزيز بن أحمد الداعى[٧]، ويحيى بن الحسن[٨]، ومحمد بن عبد الله الخُزاعى[٩]، وأبو علىّ الحسين بن محمد المادَرائى[١٠]، وأبو محمد الهاشمى[١١]، وأبو طاهر القاضى[١٢]، وأبو محمد عبد الله أخو مسلم[١٣]، وعلىّ بن أحمد[١٤]، وإبراهيم بن على المَكى[١٥]، وعبد الرحمن بن يوسف[١٦]، وأبو جعفر مسلم[١٧].

٢- موارد صريحة غير محددة:

وهذه عددها ١٣ **مورداً هي:**

(حدثنى مَنْ حضره يوم جمعة[١٨]، فحدثنى بعض أصدقائى[١٩]، وحدثنى مَنْ حضره عند أبى بكر بن الحداد[٢٠]، فحدثنى بعض غلمان أبى علىّ الحسين بن محمد[٢١]، وحدثنى بعض أهل عقبة بن فليح[٢٢]، حدثنى بعض أسباب أبى بكر محمد بن على بن مقاتل وزير الإخشيد[٢٣]، وحدثنى مَنْ أثق به[٢٤]، وحدثنى بعض مَنْ أثق به[٢٥]، وسمعتُ مَنْ يخبر عن سيبويه[٢٦]، وأنشدنى بعض إخوانى لسيبويه[٢٧] وحدثنى مَنْ رأى سيبويه[٢٨]، وحدثنى مَنْ سمعه[٢٩]، وحدثنى بعض جلساء أبى جعفر مسلم الحسينى)[٣٠].

---

(١) و(٢) و(٣) و(٤) أخبار سيبويه المصرى: ١٦.
(٥) السابق: ١٩. (٦) السابق: ٢١. (٧) أخبار سيبويه: ٢٣-٢٤.
(٨) السابق: ٢٨. (٩) السابق: ٣٣. (١٠) السابق: ٣٤-٣٥.
(١١) السابق: ٣٣. (١٢) السابق: ٤٠-٤١.
(١٣) وردت (أبو مسلم)، والصواب ما ذكرت (السابق): ٤١.
(١٤) أخبار سيبويه المصرى: صـ٤٥.
(١٥) المصدر السابق: صـ ٤٩- ٥٠.
(١٦) السابق: ٥٢. (١٧) السابق: ٥٨. (١٨) السابق: ١٨-١٩.
(١٩) السابق: ٣٠- ٣١. (٢٠) السابق: ٣٣. (٢١) السابق: ٣٤.
(٢٢) السابق: ٣٥. (٢٣) السابق ٣٥-٣٦. (٢٤) السابق: ٣٦.
(٢٥) السابق: ٣٦- ٣٧. (٢٦) السابق: ٣٧. (٢٧) السابق: ٤٩.
(٢٨) السابق: ٥١. (٢٩) السابق: ٥١-٥٢. (٣٠) السابق: ٥٥-٥٦.

٣- موارد مجهولة:

وقد وردت حوالى ست روايات ذات موارد مجهولة **كما يلى:**

(وحُدِّثتُ عن سيبويه[١]، حُكِىَ لنا[٢]، حُدِّثنا عن علىّ بن الجَعْد[٣]، وحُدِّثتُ أن سيبويه[٤]، وحُكِىَ لى عن سيبويه)[٥].

٤- روايات لا مورد لها:

وهى متعددة؛ نظراً لزمالة المؤلف (لابن زولاق) لسيبويه المصرى، ومعاصرته إياه ومصاحبته له، فكان يلمس أحواله فى كثير من الأحيان بنفسه، ويرى كثيراً من تصرفاته وسلوكه بعينه، فهى روايات تعتمد على المشاهدة والمعاينة؛ لذا لا مورد له فيها إلا نفسه[٦].

ملاحظات منهجية عامة على طريقته فى إيراد موارده:

أ- حرص ابن زولاق فى كتابه هذا – رغم صغر حجمه – على توثيق رواياته عن طريق ذكر موارده التى نقل عنها مادته التاريخية والأدبية. والملاحظ أن نسبة عدد موارده الصريحة إلى موارده المجهولة لصالح موارده الصريحة، وذلك مؤشر إيجابى على وثاقة غير قليل من أحداث كتابه. وإذا كانت هناك روايات كثيرة لم يذكر لها مورداً، فذلك راجع – كما ذكرتُ من قبل – إلى أنها أحداث ووقائع لمسها وشاهدها وتابعها بنفسه. وجدير بالذكر أن أكبر عدد روايات نُقلت من مورد صريح محدد فى كتابه، إنما هى الروايات التى رواها عن الشخصية نفسها، التى يدور حولها الكتاب، وذلك مؤشر إيجابى آخر، يَزيدنا اطمئناناً إلى مادة الكتاب التاريخية.

ب- حرص ابن زولاق فى مقدمة كتابه العامة على ذكر أسانيد بعض الروايات كاملة، لكنه – بعد ذلك – كان يكتفى من الإسناد بذكر مصدره المباشر فقط. ولم يقم بالتعريف بموارده، أو بالترجمة الخفيفة لها إلا نادراً[٧]، وإن كان بعضها معروفاً[٨] مشهوراً، اللهم إلا قليلاً[٩].

---

(١) السابق: صـ٢٨- ٢٩.

(٢) المصدر السابق: صـ٣٦.

(٣) السابق: ٤٨.

(٤) السابق: ٥٢.

(٥) السابق: ٥٧.

(٦) وكان يعبر عنها بالرؤية (رأيت كذا)، والمقابلة (قابلتُ كذا). (أخبار سيبويه: ٢٢- ٢٦، ٢٩- ٣٢، ٣٧، ٤٢، ٥٢).

(٧) ذكر عن الحسن بن موسى الخياط أنه إمام الجامع (أخبار سيبويه المصرى ١٩). أو وصف المورد بـ (القاضى) كما فى صـ١٦، ٢١، أو بالفقيه (صـ١٦).

(٨) من موارده المشهورة: الفقيه المالكى (محمد بن عبد الله بن عبد الحكم) صـ١٦، وأبو طاهر القاضى (صـ٤٠).

(٩) ممن لا نعرف من موارده: عبد الله بن محمد (صـ٤٦)، وإبراهيم بن على المكى (صـ٤٩)، وعبد الرحمن بن يوسف (صـ٥٢).

ج- اســتخدم ابــن زولاق الألفاظ المعبِّرة عن كيفية تلقى معلوماته على موارده بطريقة دقيقة، مثل: حدثنا، وحدثنى، وسمعتُ، وأنشدنى (بالنسبة للشعر). وقلما يستخدم لفظة (قال)[١] الدالــة على عدم معاصرته مورده، فهو نقل من طريق كتاب من كتبه مثلاً، أو نقل عن طريق آخَــرَ، لكنه لم يُشِرْ إليه. ولا شك أن دقة ابن زولاق وأمانته فى النقل تتبدى واضحة فى ألفاظه الدقــيقة، الــتى عَبَّــر بهــا عن موارده المجهولة، رغم أنها تقفنا أمام الرواية بالتأمل، والتفكير، والرويّة[٢].

د- يُقــدِّم ابن زولاق - أحياناً - بتقديم مناسب قبل أن يذكر مورده ومحتوى روايته[٣]، فيشعرنا بما يقوم به الباحثون المعاصرون من التمهيد لفكرهم، التى يريدون اقتباسها من المراجع، ثم يعرضــون بعد ذلك اقتباسهم بدقة. وأحياناً كان يبلغه الخبر من مصادر مجهولة غير معروفة، فيتجه بالسؤال إلى واحد من أبرز مَنْ حضر وشارك فى أحداث هذا الخبر[٤]، وذلك للاستيثاق من مضمونه، وفحواه قبل روايته.

ثالثاً – أهم الملامح المنهجية فى كتاب (أخبار سيبويه المصرى) لابن زولاق:

١- من حيث الترتيب العام:

قَــدم ابن زولاق لكتابه بمقدمة عامة مَهَّد بها لموضوع كتابه، ثم أورد على هذه المقدمة نموذجين[٥]. وبعد ذلك أتى بمقدمة خاصة، بَيَّن فيها مكانة ومنــزلة الشخصية، التى سيترجم لها، ويخصها بالحديث فى الكتاب كله، وأوضح أنها لم تحظ بالاهتمام الكافى الذى تستحقه. ثم ذكــر ظروف تأليفه هذا الكتاب، وإن لم يحدد الشخصية، أو نوعية الأفراد الذين سألوه أن يجمــع مــن كلام (سيبويه المصرى) ما يقدر عليه، مما حفظه عنه، وما بلغه عنه، فكان هذا الكتاب[٦].

٢- مدى الترابط بين جزئيات الكتاب:

بدأه ابن زولاق ببيان اسم ونسب سيبويه هذا كاملاً، ومولده زماناً ومكاناً، ووفاته تحديداً (ذاكــراً عمره الذى عاش). وعَرّف بوالده. ثم ذكر صلته به، ومعاصرته إياه، ومعرفته بأحداث

---

(١) أخبار سيبويه: ١٦، ٥٨.
(٢) أى: التركيز على تعقل مضمونها؛ لأنها مجهولة المورد.
(٣) أخبار سيبويه المصرى: ١٩، ٢١، ٣٤، وغيرها.
(٤) مثل: تأكده مما سمعه عن مظاهر عبث وقعت فى مجلس أونوجور، فسأل سيبويه - باعتباره أحد الحضور فيها - عنها (المصدر السابق ٣٦).
(٥) أخبار سيبويه: ١٦.
(٦) أخبار سيبويه المصرى: ١٧.

حياته. ويذكر – بعد ذلك – صفات سيبويه بجملة، وعلومه، وأساتيذه، وأبرز صلته بالحسين بن محمد المادَرائى وزير مصر، وتتلمذ سيبويه على المتكلمين[١].

تعـرض ابن زولاق لنماذج متفرقة عديدة من حياة هذه الشخصية، التى يُسطِّر لنا سيرها، فـإذا بنا نُفاجأ بانعدام التسلسل والترابط بين هذه المواقف التى يعرضها[٢]، وكأنه فقد منهجيته المعـروفة عـنه، وإذا بنا أمام نصوص تاريخية مهمة فى ذاتها، لكن عقدها قد انفرطتْ حبّاتُه، وأصبحت بلا منهج[٣]، اللهم إلا بعض الترابط الجزئى الداخلى القليل[٤].

٣- من حيث التوقيت:

لم يكـن ابـن زولاق حريصاً على الالتزام بذكر توقيت وقوع الأحداث، ربما لأنه لم يُعْنَ بعرضـها مرتبة، ولأنها حوادث متفرقة وقعت عبر الأيام والشهور والسنين المتوالية، وليست ذات صلة بأحداث سياسية مشهورة، كما أنى أعتقد أن المؤلف يكتب من ذاكرته، ومن واقع صلته بـ (سيبويه المصرى)، ومن خلال ما يسمع من موارده، فالكل يتذكر بعض المواقف والأحداث، لكنه لا يضـبط متى بالتحديد وقعت، ولذلك نجد ابن زولاق كثيراً ما يستخدم تعبير: (حدث يوماً)، و(وقع يوماً)[٥]. أما إذا ارتبطت بعض المواقف بأحداث مهمة، فهو يذكر تواريخها[٦]، ناهيك عن أهم تواريخ حياة سيبويه (من مولد، ووفاة)، مما لم يَفُتْه – بالطبع – تصدير سيرته به[٧].

٤- القدرة على تحديد أماكن وقوع الأحداث:

فـابن زولاق مصرى، ومجاور – غالباً – فى سكناه لسيبويه؛ ولذلك فهو يصف الأماكن وصـف العالم بها، ولذلك تعددت مرات ذكره لأماكن تتعلق بسيبويه المصرى، والأحداث التى وقعـت لـه فى حياته، مثل: المكان الذى كان يسكنه، وظروف سقوطه فى البئر المقابل للدار، والمكان الذى بلغ فيه أصحابَه نبأُ سقوط سيبويه فى البئر، فهُرعوا إلى إغاثته، وإنقاذه من موت محقـق وشـيك[٨]، وما وقع للبئر – بعد ذلك – من ردم، وتحديد مكانها بالضبط[٩]. وكذلك وصف مكان آخر سكنته أسرة سيبويه عند رجل نصرانى[١٠].

---

(١) السابق: ١٧- ١٨.

(٢) السابق: راجع صـ٢٣، وما بعدها (خاصة صـ٥٠، وبعدها).

(٣) وهو ما عَبّر عنه البعض بأنه نص تاريخى غير منظم، ولا مرتب من ناحية هيكله الداخلى (التعليق على النصوص التاريخية، ترجمة (د.عبد الله جمال الدين عن الإسبانية) فى حوليات دار العلوم العدد ١٤٦- ١٩٩٠م، صـ٢٧٥.

(٤) أخبار سيبويه المصرى: صـ٣٠.

(٥) أخبار سيبويه المصرى: ٢٤، ٣٥، ٣٧، ٤١، ٥٢، ٥٨.

(٦) المصدر السابق: ٢٢، ٢٧، ٣٠، ٣٧.

(٧) السابق: ١٧. (٨) السابق: ٢١-٢٢. (٩) السابق: ٢٢. (١٠) السابق: ٢٣.

٥- شخصية ابن زولاق من خلال (سيرة سيبويه المصرى):

أعتقد أنها شخصية حاضرة من خلال معاصرتها لحياة سيبويه، ومشاركتها فى بعض أحداثها. وقد علّل ابن زولاق بعض الأمور الواردة بسيرته، مثل: سبب تلقيبه بـ (سيبويه)[١]، وعرضه ما قيل عن سبب اختلاطه، وإيراده ما يدلل على ترجيحه وجهاً معيناً فى ذلك الإطار[٢]، وكذلك سبب عدم التعرض له رغم ما يتلفظ به من كلام المعتزلة[٣].

وكانت شخصية ابن زولاق تتضح من خلال ما يقدم من شرح لبعض العبارات المستترة التى يستفوه بها سيبويه[٤]، ومن خلال تعليقات واستنتاجات يذكرها فى بعض المواضع[٥]. ويغلب على ظنى أن ابن زولاق كان متحيزاً لسيبويه فى شرحه طبيعة اختلاطه، إذ إن هناك أمثلة على عدم تورعه من النطق بما يَفْحُش ويُستقبح من العبارات، وهو الشئ الذى نفاه عنه ابن زولاق دون وجه حق[٦].

٦- بعض المظاهر الحضارية فى الكتاب، ودلائل أهميته:

تعرض ابن زولاق فى ثنايا حديثه عن سيرة (سيبويه المصرى) للعديد من المظاهر الحضارية التى تجعل من الكتاب مصدراً مهماً للتأريخ للحياة الاقتصادية[٧]، والاجتماعية[٨]، والثقافية[٩] فى ذلك العصر الإخشيدى. وسواء كان ذلك يتم عن وعى من المؤرخ، أم كان يأتى عفوياً، فالمحصلة النهائية أنه كان يعطينا فكرة شاملة عن الموضوع الذى يؤرخ له. والشئ ذاته يقال عن كتاب (أخبار سيبويه المصرى)، فبالرغم من أنه مختصر جداً، ويُعَدّ فى المقام الأول من كتب السير التى تُعَرِّف بسيرة عالم من العلماء، عَدُّوه من عقلاء المجانين، إلا أن الروايات الواردة به عالجت جوانب حضارية شتَّى، جعلت الكتاب على درجة كبيرة من الأهمية لمن أراد التأريخ للعصر الإخشيدى[١٠]، كما أعتقد أن من ترجموا لهذا العالم كانوا عالة على كتاب ابن زولاق هذا، سواء ذكروا ذلك صراحة، أم لم يذكروا[١١].

---

(١) أخبار سيبويه المصرى: ١٨. (٢) السابق: ٢١-٢٢. (٣) السابق: ٢٣-٢٤.

(٤) السابق: ٣٢. (٥) السابق: ٤١.

(٦) زعم ابن زولاق أن اختلاط سيبويه من النوع الذى لا يُتفوه خلاله بالقبيح من القول (السابق: ٢٥). وهذا منافٍ لعبارات أوردها ابن زولاق على لسانه فيها إفحاش وقبح (السابق: ٤٢، ٥٣).

(٧) يمكن مراجعة نماذجها فى: السابق: صـ٢١ (النواحى المعمارية، والآبار المحفورة فى الشوارع، ووجود طاقات فى المنازل)، صـ٥٢ (سوق البَزّازين)، صـ٢٣، ٢٧- ٢٩ (أجرة سكنى البيوت شهرياً، وأنواع الفرش والحصير)، صـ٢٧، ٣٨، ٤١- ٤٢ (الرواتب الشهرية التى تُمنح لبعض الأفراد).

(٨) مثل: الأطعمة (أخبار سيبويه المصرى صـ٣٤)، وموكب الإخشيد لصلاة الجمعة (صـ٢٨)، وطبقة الرَّعاع والصبيان، وموقفها من سيبويه بعد حبسه (صـ٣٠- ٣١)، وتعاطف أناس آخرين معه (صـ٢٦).

(٩) مثل: أسواق الوَرّاقين، وازدحامها يوم الجمعة (صـ١٨) ومجالس العلم بالمسجد، ومذاكرات الحديث ومناقشاته (صـ٢٧، ٤٣)، وأشعار ينشدها سيبويه (صـ٥١)، وعبارات فصيحة بليغة له (صـ٣٢)، ومناقشته المتنبى الشاعر المشهور، وتخطئته فى بيت مشهور له (صـ٤٥).

(١٠) د.سيدة كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين صـ٦. (١١) معجم الأدباء ١٦٨/٧، ٣١٣/٧-٣٢٣.

الفصل الرابع والأخير
من السِّير التاريخية المفقودة

السير التاريخية المفقودة:

بعد أن فرغنا من دراسة (سير الحكام التاريخية) المطبوعة لمؤرخى مصر فى القرن الرابع الهجرى، ننتقل – الآن – نَقْلَة جديدة من نوعها، لعلها تكون فريدة فى بابها، ألا وهى تجميع ما تبقى من السير المفقـــودة فى هـــذا المجـــال. وقد قمنا فى سبيل ذلك بعملية مسح شاملة لما تيسر لنا من مخطوطات ومصـــادر، ثم أعدنا ترتيب هذه البقايا المتناثرة؛ لنلقى عليها – بعد ذلك – نظرة متأملة، تتناسب مع حجم وأهمية ما تم تجميعه؛ كى نخرج – فى النهاية – بملاحظات منهجية عامة عليها.

أولاً – المؤرخ المصرى (أحمد بن يوسف بن الداية):

درســـنا لـــه – من قبل – سيرة (أحمد بن طولون) مطبوعة. وقد عَثَرْتُ على[1] نص تاريخى وحيد، أرجح أنه له من بقايا كتابه المفقود: (سيرة خمارويه). وهاكم هذا النص[2]:

" قرأتُ فى سيرة خمارويه بن أحمد بن طولون فى نسخة عتيقة، ولم يُسمّ مؤلفها[3]:
أن خمارويـــه لمـــا خاف أن يضطرب الشـــام، أنفذ إليه جيشاً، أمّر عليه سعداً[4] الأَيْسَرَ، وأمدَّه بأحمـــد بن محمد الواسطى (كاتب أبيه)؛ ليدبر الجيش، ويتولى النفقات فيه. وكان الواسطى يطمع أن يدبـــر أمـــر خمارويه، وأنه يَرُدُّ تدبير الأمر إليه، وقال: هذا صبى حَدَثٌ، أدبِّره كما أرى. فلما أخرجه إلى هذا الوجه، واستكتب محبوب بن رجاء بعده، فسدت نيته، وقال: محبوب أحد كُتّابى يتصـــرف بين أمرى ونَهْيِى[5]. آلَ الأمرُ إلىّ أن صِرْتُ بعض خلفائه ؟! فتغيَّر على سعد وافترقا.

---

(١) أى: اطلعتُ. من بـــاب عَثَرَ يَعْثُر عثوراً. وأعثره عليه غَيْرُه: أطلَعَه. ومنه قولـــه (تعالى) فى سورة الكهف: (مـــن الآية ٢١): ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا﴾. لكن عَثَرَ يَعْثِرُ عَثْراً، وعِثاراً: زَلَّ وكَبَا. (مختار الصحاح ٤١٢، والمعجم الوسيط جـــ٢ صـــ٦٠٥، مادة: ع.ث.ر).

(٢) بغية الطلب، لابن العديم جـــ٣ صـــ١١١٣ – ١١١٥.

(٣) رجحت أن يكون لابن الداية؛ لقدم النسخة من جهة، ولصلة ابن العديم مؤلف كتاب (البغية)، الذى ورد فيه هذا النص بكتب ابن زولاق، ونقله بخطه (سيرة الإخشيد)، فلو كان هذا النص من كتاب ابن زولاق عن (خمارويه)، والذى ذَيَّل به على كتاب ابن الداية، لنسبه إليه.

(٤) وردت فى النص بغير النصب (سعد)، وهو خطأ نحوى.

(٥) وردت فى النص (ونهئ)، وهو تحريف من النساخ.هو أبو العباس أحمـــد بن الموفَّق، الذى ولى الخـــلافة بعد ذلك (٢٧٩ – ٢٨٩هـــ)، ولُقِّب بـــ (المعتضِد بالله). (الكامل ٣٣٨/٦).

وتغيَّر الواسطى، وكتب إلى ابن الموفَّق[١] كتاباً، يحثه على المسير إلى مصر، وقال: أنا أسستُ أمر أبى الجيش، والله لأهدمنَّ ما كنتُ بنيتُه، وضَمَّن الكتاب هذه الأبيات: (من البسيط)

يأيهـا الملك المرهـوبُ جانبُـهُ ... شَمِّرْ ذيول السُّرَى[٢] فالنصر قد قَرُبَا
كـم ذا القعودُ و لم يَقْعُدْ قُعـودَ كُمُ ... عـن القتـال لقد أصبحتُم عَجَبَـا
لـيس المريـدَ لما أصبحتَ تطلبـه ... ولا المشمِّرَ عن سـاق وإن لَغَبَـا[٣]
لا تقعـدنَّ عـن التفريـط منعكفـاً ... واجْـدِدْ، فقد قال قـوم: إنه رَهِبَـا
فأنـت فى غفلـة يَقْظَانُ ذو سِنَـة ... مُطالِـبُ الوِتْرِ[٤] ذو جِـدٍّ إذا طلبـا
أجـاد مـروان[٦] فى بيت أصـاب به ... عـينَ الصواب فما أخطا ولا كَذَبـا
إذ قـال لمـا رأى الدنيا تَميـد بهـم ... بعـد الهُدُوِّ، وعاد الحبـل مضطربـا
إنى أرى فتنـة تغلـى مراجلهـا ... والمُلْـكُ بعـد أبى ليلى[٥] لِمَنْ غَلَبَـا

فلمـا قـرأ ابن الموفـق كتاب الواسطى، قـال لابن كُنْـداج[٧]، وابن أبى السَّاج[٨]: ما

(١) هو أبو العباس أحمد بن الموفَّق، الذى ولى الخلافة بعد ذلك(٢٧٩-٢٨٩هـ)، ولُقِّب بـ (المعتضد بالله). (الكامل ٦/٣٣٨).

(٢) سَرَى الليلُ، يَسْرِى سَرْياً، سِرَايةً، ومُسْرًى. أى: مضى وذهب. (المعجم الوسيط: س.ر.ى، جـ١ صـ٤٤٤). والمعنى: أقبل الصبح، واقترب فجر النصر.

(٣) لَغَبَ فلان يَلْغَب لَغْباً ولُغُوباً:تعب،وأعيا.(المرجع السابق:مادة ل.غ.ب) جـ٢ صـ٨٦٣ ,

(٤) أى: بالثأر. (المرجع السابق، مادة: (و.ت.ر) جـ٢ صـ١٠٥١).

(٥) هو معاوية الثانى (معاوية بن يزيد بن معاوية). وذكر الطبرى أنه الذى قال فيه الشاعر:إنى أرى فتنةً قد حان أوّلُها والمُلْكُ بعد أبى ليلى لمَن غَلَبَا(تاريخ الطبرى ٥/٥٠٠ (أحداث سنة ٦٤هـ).

(٦) يقصد: مروان بن الحكم.

(٧) هو إسحاق بن كُنْداج الخَزَرى اليهوديّ الأصل. كان ممن ساند الموفق فى إحباط سعى أخيه الخليفة المعتمد المسير مع أحمد بن طولون إلى مصر، ووعده الموفق – جزاء ذلك – إقطاعات واسعة، ومالاً جزيلاً، وزيادة رياسته ومحله (وذلك فى جمادى الأولى سنة ٢٦٩هـ). (سيرة البلوى ٢٩٠- ٢٩١). وكانت له معركة – وهو على الموصل – ضد ابن دعباش عامل ابن طولون على (الرقة وأعمالها، وعلى الثغور والعواصم) سنة ٢٧٠هـ (تاريخ الطبرى ٩/٦٦٧). وكان ممن شارك ابن الموفق فى معركة الطَّواحين ضد خمارويه (بغية الطلب ٣/١٤٩٩).

(٨) أبوه هو أبو السَّاج، الذى تُنسب إليه الأجناد الساجيّة ببغداد. وقد توفى هذا الأب فى ربيع الآخر سنة ٢٦٦هـ بـ (جُنْدَيْسابور) من أعمال خوزستان. (وفيات الأعيان ٢/٢٥٠- ٢٥١). أما ابنه محمد، فيكنى بـ (أبى عُبيد الله). وخان ابن الموفق فى معركة (الطواحين)، ودعا لخمارويه بعد ذلك سنة ٢٧٣هـ، وفيها هزم ابنُ أبى الساج إسحاقَ ابن كنداج بالرقة (تاريخ الطبرى ١٠/١٢، وبغية الطلب ٣/١٤٩٩). هذا، وقد توفى محمد بن أبى الساج بأذربيجان فى ربيع الأول سنة ٢٨٨هـ، وتفرق غلمانه بعده. (مروج الذهب ٢/٦٢٨، ووفيات الأعيان ٢/٢٥٠).

قعودكم؟! وضرب طبله وسار، وساروا معه حتى كبسهم فى شَيْزَر[١]، وقتل منهم مقتلة عظيمة. وكان الواسطى[٢] بالرملة يقطع الطريق فيما بين ابن أبــّا، وسعد الأعسر[٣] وهما بدمشق، فسار أحمد بن الموفق إلى دمشق، وكبسها على غرَّة، فانهزما إلى الكسوة، وقُتل من بقى من أصحابهما. ثم إنهـــم اجــتمعوا، وقصدوا الواسطى[٤] فهزموه، وأخذ على طريق الساحل، حتى لحق أحمد بن الموفق. ودخل المصريون الرملة، فنهبوا دار الواسطى وخزائنه. ثم ذكر وصول أحمد بن الموفق، وأنه لمـــا أبصـــر عسكر أبى الجيش هاله وأكبره، وصغر جيشه فى عينه، فشجعه الواسطى، وضمن له النصـــرة علـــيه، وقال له: لا يغرك هذا؛ فأكثرهم عامَّة: بقّال، وحائك، وفاعل. فثقْ بالنصر ولا تَجْــزَعْ. إلى أن التقى العسكران، وكانت النصرة على أحمد بن الموفق. فركبا دوابَّ الهزائم، ومَرّ كل واحد منهما على حدة. فأما ابن الموفق، فلم يَرُدَّ وجهَه عن دمشق شىءٌ، فلم يفتح لـــه أهلها بابها، ومنعـــوه من الدخول، فمَرَّ على طِيَّتِــه[٥] إلى طَرَسوس. وأما الواسطى[٦]، فأضرَّ به الهرب إلى أنطاكيـــة، فأقام بها مُدَيْدة، ومات كمداً ".

ملاحظات عامة على النص المفقود السابق:

١- نجـــح ابـــن الداية فى انتقاء عناصر الحادثة الملائمة لغرضه الأساسى منها، وركز عليها. فرغم أن هذه الرواية تتناول موقعة الطَّواحين بين (أبى العباس بن الموفق)، و(جيش خمارويـــه)، وكانت لها أسباب ومقدمات، وفى وصفها تفصيلات هزيمة خمارويه فى البداية وفـــراره، ثم تغير الظروف بعد ذلك؛ مما أدى إلى انتصار خمارويه[٧]، فإن ابن الداية لم يُعْنَ من ذلك كله إلا بوصف دور الواسطى فى إشعال المعركة فى البداية، وفى إتمامها لما كاد أبو

(١) قلعة بالشام، بينها وبين حماه يوم. يجرى وسطها نهر الأردن، الذى توجد عليه قنطرة وسط المدينة، ويبدأ أوله من جبل لبنان. وهى قلعة قديمة، تعد داخلة فى كورة حمص. (معجم البلدان ٣/٤٣٤).

(٢) هو أحمد بن محمد – ويقال: محمد بن أحمد – الواسطى الكاتب (أبو عبد الله). كان صاحب ابن طولون منذ قدم، وصحبه مع المستعين فى واسط. كان حلو الحديث ظريفاً، حسن المجالسة، شاعراً كاتباً. صحب ابن طولون منذ ولايته على مصر حتى وفاته، وكان بمنزلة وزير له، وكان له دور كبير فى إتمام بيعة خمارويه، وقتل أخيه العباس. (سيرة ابن الداية صـــ٧٥- ٧٦، ١٣١، وبغية الطلب ٣/١١١١- ١١١٣، ومختصر تاريخ دمشق ٣/٢٩٣).

(٣) راجع ترجمة (أحمد، أو محمد بن أبّا) أحد قواد ابن طولون، وخمارويه بعده فى (مختصر تاريخ دمشق ٣/٦- ٧). أما سعد الأيسر أو الأعسر، فكان من القواد البارزين، وله دور كبير فى معركة الطواحين، وخرج عن الطاعة بعد ذلك، فقتله خمارويه ٢٧٣هـــ، (الولاة ٢٣٦، والنجوم ٣/٦٤).

(٤) وردت فى النص (ابن الواسطى)، والصواب ما ذكرتُ.

(٥) الطِّيَّة: الجهة أو الناحية البعيدة. (المعجم الوسيط، مادة: ط.ى.ى) جـــ٢ صـــ٥٩٣.

(٦) وردت فى النص (ابن الواسطى)؛ والصواب ما ذكرت.

(٧) تفاصيلها فى: تاريـــخ الطبرى – ٢٧١هـــ – جـــ١٠ صـــ٨، والـــولاة صـــ٢٣٥، والـــكامل ٦/٣٤٢، والنجوم ٣/٦٣- ٦٤).

العباس يتراجع. واكتفى من نتائجها بمحصِّلتها العامة، وكان تركيزه الأساسى على ما انتهى إليه أمر الواسطى محور هذه الأحداث،ومحركها من البداية حتى النهاية.

٢- تمتاز رواية ابن الداية بميزتين مهمتين: الأولى - القدرة على الغوص وراء أسباب موقف الواسطى من خمارويه، وإبراز دور العوامل النفسية فى تحريك الأشخاص نحو سلوكيات معينة(١). الثانية - الاهتمام بذكر أبيات الشعر التى كتب بها الواسطى إلى ابن الموفق، وهى وسيلة قوية ووثيقة مؤكدة، تعكس طبيعة الواسطى وثقافته الأدبية والتاريخية ككاتب ووزير لابن طولون من قبل، وتؤكد قيامه بعملية التحريض المذكورة(٢).

٣- تعكس هذه الرواية التاريخية نظرة الحكام إلى عوامِّ الناس من بَقَّالين، وحائكين، وصنَّاع فى ذلك الزمان، وهى نظرة دونية، يعتقدون بمقتضاها أن هؤلاء لا يُحسنون يحاربون. ولعل مرد ذلك يتمثل فى أن الجيوش كانت من الجند المحترفين، ولا يشارك فيها أهل البلاد من المصريين.

٤- يُحسب لابن الداية فى هذا النص قدرته على تطويع بلاغته العالية، وأسلوبه البليغ فى إزاحة جفاف المادة التاريخية، وفى حسن تصوير الأحداث التاريخية بدقة، لكن فاته فى هذا النص شئ مهم يتصل بالواسطى، وهو ذكر تاريخ وفاته(٣).

ثانياً - المؤرخ المصرى ابن زولاق:

ويُنسب إلى هذا المؤرخ الفَذّ ذى الإنتاج التاريخى الغزير، الكتب المفقودة الآتية:

١- (سيرة أحمد بن طولون): وجدتُ من بقاياها النصوص التاريخية التالية:

أ- وقفتُ على سيرة للإخشيد(٤) قديمة، عليها خط الفَرغانى، فيها:

أن أحمد هو ابن ألنج من الأتراك، كان طولون صديق أبيه، ومن طبقته. فلما مات ألنج ربّاه طولون وكفله. فلما بلغ من الحداثة، مشى مع الحشوية وغزا، وتنقلت به الأحوال، إلى أن صار معدوداً فى الثقات. وولى مصر، واستقر بها. قال صدر الدين بن عبد الظاهر: و لم أر ذلك لغيره من المؤرخين(٥).

---

(١) يبدو أن الواسطى كان يتفانى فى خدمة ابن طولون؛ خوفاً ورهباً، ثم طمعاً بعد ذلك؛ بدليل تصرفه نحو خمارويه. وقد وصفه ابن طولون بأنه قوى الحيلة فاسد الدين، وكان يتوقع منه ما حدث. (سيرة البلوى ٣٣٧- ٣٣٨).

(٢) أكد وقوعها طراوه فى دكتوراه (حضارة مصر فى العصر الطولونى) صـ٤٤- ٤٦، ونفاها حسن عبد الحميد فى دكتوراه (صـ١٦٤). والأول أرجح.

(٣) استكمل هذا النقصَ ابنُ العديم من تاريخ المسبِّحى، فذكر وفاته فى شعبان ٢٧٢هـ. (بغية الطلب ١١١٦/٣).

(٤) من الواضح أن هناك خطأً فى العبارة؛ لأن النص التالى يتعلق بابن طولون لا الإخشيد، فالصواب: (وقفت على سيرة لابن طولون). وأما خط الفرغانى، فلعلها نُسخت بخط ذلك المؤرخ تلميذ ابن الداية، ومعاصر وزميل ابن زولاق، وأرجح أنه الفرغانى الأب (عبد الله بن أحمد المتوفى ٣٦٢هـ).

(٥) تاريخ ابن خلدون ٣٨٦/٤.

ب- قال ابن زولاق مؤرخ مصر:

" قُبض على العباس بنواحي الإسكندرية، وأُدخل إلى الفسطاط على قَتَب على بغل مُقَيَّداً في سنة سبع وستين ومائتين. ونَصَبَ لكتَّابه، ومنْ خرج بهم إلى ما خرج إليه دَكَّة عظيمة رفيعة السَّمْك في يوم الأربعاء، لا أعرف موقعه من الشهر. جلس أحمد بن طولون في عُلُوّ يوازيها، وشرع من ذلك العُلُوّ إليها طريقاً. وكان العباس قائماً بين يدى أبيه في خَفْخَاف مُلْحَم وعمامة وخُفٍّ، وبيده سيف مشهور، فضرب ابن جدار ثلاثمائة سوط وتقدم إليه العباس، فقطع يديْه ورجليْه من خلاف، وأُلقى من الدكة إلى الأرض. وفعل مثل ذلك بالمنتوف، وبأبي مَعْشَر. واقتصر بغيرهم على ضرب السَّوْط. فلم تمض أيام حتى ماتوا "[١].

ج- البالِسيّ الضرير:

شاعر من أهل بالس، ذكر له ابن زولاق في (سيرة أحمد بن طولون) أبياتاً، قالها في أحمد ابن طولون، حين حصر الموفقُ المعتمدَ على الله وحبسه، يُخاطب أحمد بن طولون، ويمدحه حين قام بنصرة المعتمد[٢]:

يا سَمِيَّ النبي لا نَسِيَ اللَّـ ـهُ لك الذبَّ عن حريم النبيّ
دولة الدين والخلافة عَزَّتْ بك لا بالطريد عنها النَّفِيّ
المزال اسمه على الرغم من كـ ـل مقام امرئ كريم سَنِيّ
رام مالا ينال فلقد خا ب وخاب اعتداده بالخَصِيّ

د- قرأت في سيرة (أحمد بن طولون) من تأليف ابن زولاق المصرى، قال في آخرها:

" ورآه عبد الله بن القاسم، وكان من أصحاب سيما الطويل، قال: رأيتُ فيما يرى النائم كأن سيما الطويل متعلق بأحمد بن طولون على باب مسجد، وهو يصيح بأعلى صوته: يا رسول الله، أعْدِني[٣] على أحمد بن طولون، فإنه قتلني واصطفى ما ملكتُ، وأسرع في أهلي

---

(١) معجم الأدباء: ٧/١٨٣- ١٨٤.

(٢) بغية الطلب جـ١٠ صـ/٤٧٥١. ذكر البلوى في (سيرة ابن طولون) صـ٣٠١ اسم هذا الشاعر، وأبياتاً من شعر له طويل في مخاطبة الأمير ابن طولون. لكنه لقّبه بـ (النَّابُلسيّ)، ولا أدرى أيهما أصوب، وإن كان البلوى أقدم، ومحققه رحل أدب ولغة، فمادته أضبط وأصوب. (ورد لدى البلوى كلمة البغيّ) آخر الشطر الثاني من البيت الثاني. وتلاه بتوضيح له قائلاً: يعني أبا أحمد الموفق لَمّا نفاه المهتدى، فرَدّه المعتمد. وأول لفظة في البيت الثالث؛ (أَنْزالُ). وفي البيت الرابع: (ما لن يناله فلقد خاف وخاب اعتصامه). ثم علق البلوى شارحاً: يعني اعتصامه بيازمان الخادم. ثم أتى بيت خامس لم يذكره ابن زولاق هو: ولبعداً له وسحقاً لإسحاق اليهودى دينُه الخَزَرىّ.

(٣) يعني: مَكِّنّى منه، أو اقتصَّ لي منه. عَدَنَ يَعدِن عَدْناً وعُدُوناً بالمكان، أى: أقام به. (لسان العرب، مادة (ع.د.ن) جـ٤ صـ٢٨٤٣- ٢٨٤٤)، والمعجم الوسيط ٢/٦١٠). وقد ورد بلفظ (أعِنّى) في (سيرة البلوى) صـ٣٥٥.

وولدى. فصاح به صائح: كذبتَ يا سيما، ما قتلك أحمد، بل قتلك عَجيج شَمْل التاجر[١]، الذى ظننتَ أن عنده مالاً، فضربتَه حتى أشرف على الهلكة، ثم دخَّنْتَ عليه حتى مات فى التدخين. أنت وأحمد خاطئان إلا أن أخَفَّكما وِزْراً أحْسَنُكما سيرة، وأكثرَكما معروفاً أقربُكما من المغفرة[٢] ".

ملاحظات عامة على بقايا (سيرة ابن طولون) لابن زولاق:

أ- انفرد ابن زولاق دون غيره من المؤرخين بنسبة أحمد بن طولون إلى ذلك الرجل التركى المسمى (ألنج). وقد سبق أن ذكر البلوى الرد على مَنْ نَسَبَه إلى (يَلْبَخ). ويصدق ذلك الرد هنا أيضـــاً، ولعـــل الاسم واحد ووقع فيه تحريف، وكان ينبغى على ابن زولاق التحقق من صدق الرواية، إضافة إلى ضرورة ذكر مصدرها.

ب- اهـــتم ابـــن زولاق بإيـــراد أدق التفاصيل عن حال العباس، لما أُدخل إلى الفسطاط (تقييده، والتضييق عليه فى مركبه[٣]، ووصف ملبسه وحاله بين يدى أبيه)[٤]. ويلاحظ الوصف الدقـــيق الـــذى أُوقِعَ فيه العقاب بالمتآمرين[٥]، والعرض البيّن لما حَلّ بأبرزهم وأشدهم جرماً، وأكثرهم تحريضاً للعباس، مع جعل تمام العقاب على يد العباس نفسه؛ نكاية لهم، وتسفيهاً له فى أعـــين الناظرين، فلا يفكر أحد فى التآمر مع هذا الأحمق القاسى ثانية. والملاحظ أن ابن زولاق اهـــتم بذكر توقيت السنة التى أُدخل فيها العباس أسيراً، وكان أميناً عندما لم يتذكر موقع اليوم الذى حُوكم فيه الجُناة من الشهر، رغم أنه كان دقيقاً، فذكر اسم اليوم، الذى حدث فيه هذا.

---

(١) ورد فى البلوى (المصدر السابق) صـــ٣٥٦: " قتلك عجيج سَهْل التاجر ". والعجيج: رفع الصوت بالدعاء. من قولهم: عَجّ يَعِجّ عَجاً وعَجيجاً. (اللسان، مادة: ع.ج.ج، جـــ٤ صـــ٨١٣، والمعجم الوسيط ٢/٦٠٥- ٦٠٦). ويكون فى اسم هذا التاجر روايتان: (شمل، وسهل). و لعل الأخير أرجح.

(٢) بغية الطلب ٢/٨٣٤- ٨٣٥.

(٣) ذكر أنه دخل على قَتَب على بغْل. والقَتَب: الرَّحْل الصغير على قدر سَنام البعير (وهو – هنا – البغل). الجمع: أقْتاب. (اللسان، مادة: ق.ت.ب) جـــ٥/٣٥٢٤، والمعجم الوسيط ٢/٧٤٠).

(٤) كان قائماً فى زى متواضع، وهيئة ذليلة. الخَفْخاف المُلْحَم: ثوب جديد يحدث صوتاً عند تحركه وهو (الخَفْخَفَة)، وهو جنس من الثياب يختلف نوع سُداه ونوع لُحْمَته كالصوف والقطن، أو الحرير والقطن. (اللسان، مادة خ.ف.ف) جـــ٢ صـــ١٢١٣، ومادة: ل.ح.م، جـــ٥/٤٠١٢). وفى المعجم الوسيط (ل.ح.م) ٢/٨٥٢. ويلاحظ أنه عَبّر عن الثوب الذى يرتديه العباس تعبيراً دقيقاً، فهو نظيف لكنه لا يليق بأبناء الأمراء، ثم إن العباس وقف مرتجفاً، فيُحْدث الثوب صوتاً؛ خشية قتل أبيه له.

(٥) وصف البناء العالى الذى شاده ابن طولون؛ لإيقاع العقوبة بالمتآمرين، فيراهم الجميع، وجعل لنفسه مكاناً موازياً؛ ليشفى غليل نفسه. ثم إنه بالغ فى ارتفاعه؛ ليلقى المتآمرون حَتْفَهم عند الإلقاء بهم من هذا الشاهق. والدَّكّة: بناء يُسَطّح أعلاه للجلوس عليه. أما لفظة الدَّكّة المحدثة، فهى مقعد مستطيل من خشب – غالباً – يُجلس عليه. والجمع: دكاك. (المعجم الوسيط، مادة: د.ك.ك) ١/٣٠٢. وجعلها رفيعة السُّمْك، أى: عالية السَّقف. أما السُّمْك، فهو غِلَظ الشئ وثَخانته (وهى لفظة محدثة). والجمع: سُموك. (السابق ١/٤٦٧).

وجديـــر بالذكر أن ابن زولاق لم يكن دقيقاً – من وجهة نظرى – فى تحديد المكان، الذى أمسك فيه بالعباس؛ إذ جعله (نواحى الإسكندرية). وفى اعتقادى أنه كان فى (نواحى برقة)، وإلا مـــا طلب الواسطى إلى ابن طولون أن يعود من الإسكندرية إلى الفسطاط، لَمَّا أراد الخروج إليه بنفســـه. لقـــد قال ابن الداية بالنص عن الواسطى، لما هرب من حبس العباس: " فلقى أحمدَ بن طولون، وقد خرج إلى الإسكندرية، وعزم على الرحيل إلى برقة، فصغَّر أمره عنده "[١]. و لم تذكر الـــرواية مصدر معلومات ابن زولاق، فلعل ابن العديم تغاضى عن ذكره. وعلى كل، فواضح أن ابن زولاق – بالفعل – يأتى بمعلومات لم تَرِدْ فى سيرة ابن الداية، فهو يذيِّل على سيرته، ويأتى بما فاته منها، لكن هذا – فى نظرى – لا يمنع من الاقتباس منه فى بعض الأحداث، مع وضع إضافات من لدنه. وبالعودة إلى هذه الرواية فى سيرة ابن الداية[٢]، لم أجد بها جديداً، اللهم إلا فى ذكر ابن زولاق يوم معاقبة الجناة، وبقية الرواية تكاد تكون منقولة بنصها من ابن الداية.

ج- وكمـــا أعطتنا الرواية السابقة بعض لمحات عن نوعية الأزياء، وشكل العقاب الصارم فى ذلـــك العصـــر، تضيف رواية (سيما الطويل) وصفاً للتعذيب الجسدى، الذى يُمارَس ضد الضـــحية، حتى يلقى نهايته اختناقاً. ويلاحظ وجود مصدر لهذه الرواية (عبد الله بن القاسم)، بيـــنما كـــان راويهـــا فى (سيرة البلوى) عبد الله بن الفتح[٣]، ومضمون الروايتين واحد. أما مدلولهما، فيشير بكثير من الموضوعية إلى عدم القطع بالمغفرة لابن طولون، ويشير إلى بعض مما ارتكب كلاهما من أخطاء، وإن كان يحكم لابن طولون من طَرْف خَفِىّ بأنه أقرب إلى مغفرة الله، علـــى اعتـــبار كثرة صدقاته وإحسانه. وعلى كل، فهذه الرواية التى اختارها ابن زولاق مـــتحفظة، بعـــيدة عن التحيز،وهى أقرب إلى الحيادية من روايات أُخرى، عالجناها من قبلُ فى سيرة البلوى، وإن كان الجميع لا يُعَوَّل عليه فى مصير ابن طولون.

٢- سيرة خمارويه، لابن زولاق:

من بقاياها التى وضعتُ يدى عليها بعد فحص كثير من المصادر ما يلى:

أ- **قـــال ابـــن زولاق**[٤]: " وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان على

---

(١) سيرة ابن الداية: صـــ١٢٢. وقد أخطأ الطبرى، لما ذكر أن العباس بن أحمد بن طولون زحف لحرب أبيه سنة ٢٦٨هــ، فخرج أبوه أحمد إلى الإسكندرية، فظفر به، وردَّه إلى مصر، فرجع معه إليها. (تاريخ الطبرى ٩/ ٦٠٢). فلا المكان صحيح، ولا الحادثة وقعت، ولا التاريخ دقيق.

(٢) سيرة ابن الداية: صـــ١٢٢.

(٣) صـــ٣٥٥. والظاهر أن الاسم الوارد فى (سيرة البلوى) أدق؛ إذ إن له فيها بعض روايات بهذا الاسم، وفى موضوعات تتصل بما بعد وفاة ابن طولون (مواقف المعتمد من نبأ وفاة ابن طولون صـــ٣٥٧- ٣٥٨). فلعل النساخ حرّفوه فى كتاب (ابن زولاق)، أو فى (بغية الطلب).

(٤) معجم الأدباء ٦/٨٥- ٨٧.

المكاتـبات والرسائل، منذ أيام أحمد بن طولون، ومكاتباته وأجوبته موجودة، إلى أن قدم علـيه أبو يعقوب إسحاق بن نُصَيْر البغدادى من العراق، والتمس التصرفَ، فقال له ابن عـبد كان: فيماذا تتصرف ؟ فقال: فى المكاتبات والأجوبة والترسُّل. وكان بين يدى أبى جعفـر كتبٌ قد وردتْ، فقال له: خذ هذه وأجبْ عنها، فأخذها ومضى إلى ناحية من الـدار، فأجاب عنها، ثم وضع خُفَّه تحت رأسه ونام. وقام أبو جعفر إلى الحجرة التى له، فاجـتاز به والكتب بين يديه، فأخذها وقرأها. فلمّا تأمَّلها، جعل يُرَوِّح إسحاقَ بن نصير حـتى انتبه، فقال له: عمن أخذتَ الكِتْبَةَ ؟! وأجرى عليه أربعين ديناراً فى كل شهر. فلم يَـزَلْ مـع أبى جعفر إلى أن توفى أبو جعفر، وانفرد بالأمر على بن أحمد المادَرائى، فقال لإسحاق: الزمْ منزلَك، فانصرفَ. فوردت كتب، فأجاب عنها علىّ بن أحمد، ودخل على أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، فعرضها عليه، فقال له: ما هذه الألفاظ التى كانت تخـرج مـنى وعـنى ؟ فمضى علىّ بن أحمد، وعاد إليه، فما أراد أبو الجيش الجوابَ ولا استجاده. فخرج علىّ بن أحمد، قال: هاتوا إسحاق بن نصير، فجئ به، فقال: أجبْ عن هـذه، فأجاب، ودخل (علىّ بن أحمد) على (أبى الجيش)، فقرأ الأجوبة، فقال: نعم، هذا الـذى أعـرف " أيْشٍ الخبرُ ؟! فقال له: كاتب كان مع أبى جعفر، فاعتزل، وأحضرته السـاعةَ، فقال: هاته. فأحضره، فقال: كمْ رزقُك ؟ فقال: أربعون ديناراً. فقال لعلىّ بن أحمد: "اجعلها أربعمائة فى السنة، اجعلها له أربعمائة فى الشهر. وقال لإسحاق بن نصير: لا تُفـارقْ حضـرتى. فبلغ إسحاق حتى صار رزقه ألف دينار فى كل شهر. فكان يجود بذلك، ويُفْضِل به على الناس، ولقد أرسل إلى بغداد إلى ثلاثة أنْفُس: إلى أبى العباس المُبَرِّد، وإلى أبى العباس ثعلب، وإلى وَرَّاق كان يجلس عنده، دفعةً واحدة ثلاثة آلاف دينار، لكل واحد منهم ألف دينار. وجرى ذلك على يدىْ أحمد بن الوليد التاجر خال القاضى بمصر". قال ابن زولاق: مات سنة سبع وتسعين ومائتين(١)

ب- " وذكـر أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق فيما قرأته فى سيرة أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون قال(٢):

وفى هـذه السنة، فى صفر منها – يعنى سنة ثمان وسبعين ومائتين – مات أبو أحمد الموفق، وعُقد العهد لابنه أبى العباس. وكان للموفق غلام خادم من جِلَّة غلمانه يعرف بـ (راغب)(٣).

(١) معجم الأدباء ٨٥/٦، والمقفى ٥٩/٢.

(٢) بغية الطلب ٣٥٥٣/٨- ٣٥٥٥.

(٣) له ترجمة فى (المصدر السابق) ٣٥٥٣/٨، ٣٥٥٥- ٣٥٥٦

فلمـــا مات مولاه أحزنه موته، فأحب أن يسكن طرسوس، فاستأذن فى ذلك، فأُذن له، فخرج قاصداً يريد الثغر. وكان خمارويه – يومئذ – بدمشق. فلما بلغ راغب إلى حلب، وهَمَّ بالدخول إلى طرســـوس، قيل له: طرسوس من عمل أبى الجيش، وهو بالقرب منك، فلو صِرْتَ إليه زائراً وقضـــيتَ حقـــه، وعَرَّفته ما عزمتَ عليه من المقام بالثغر ما ضَرَّك ذلك، وكان أجَلّ لمَحَلّك، وأقـــوى لك على ما تريده. فبعث بثقْله، وجميع ما كان معه مع غلام له يُعرف بـــ (مكنون)، وأمره أن يتقدمه إلى طرسوس، ورحلَ هو مُخفاً إلى دمشق، فلقى أبا الجيش، فأحسن أبو الجيش تلقـــيه، وسُرَّ بنظره، ووصله، وأحسن إليه، وكان يكثر عنده ويحادثه. وكانت لراغب عارضة، وبـــيان، وحسن عبارة، وكان قد رأى الخلفاء، وعرف كثيراً من أخبارهم، فكان يصل مجلسه بشئ من أخبارهم وسِيَرهم، فأنِس به خمارويه، وكان يستريح إلى حديثه ومذكراته. فلما رأى راغـــب ما يخصه به خمارويه من التكرمة والأنس به، والاستدعاء إذا تأخر، استحيا أن يذكر له الخروج إلى طرسوس.

فلما طال مقامه بدمشق، ظن مكنونٌ غلامُه أن أبا الجيش قد قبض عليه، ومنعه من الخروج إلى الثغـــر، فـــأذاع مـــا ظنه عند المُطَّوِّعَة وشكاه إليهم، وأكثر هؤلاء المُطَّوِّعة من أهل الجبل وخراســـان، معهـــم غلظ الأعجمية، وسوء أدب الصوفية، فأحفظهم هذا القول وظنوه حقاً، فقالوا: تَعْمدُ إلى رجل قد خرج إلى سبيل الله؛ محتسباً نفسه لله ﷻ، وفى مقام مثله فى الثغر قوة للمســـلمين، وكَـــبْت لأعدائهم من الكافرين، فتقبض عليه وتمنعه من ذلك؛ جرأة على الله ؟! فتلففوا، وتجمعوا، ومشى بعضهم إلى بعض، وأقبلوا إلى واليهم، وهو ابن عم خمارويه، فشغبوا عليه، فأدخلهم إليه؛ ليُسَكِّن منهم، ويَعِدُهم بما يحبون، فقبضوا عليه، وقالوا: لا تزال فى اعتقالنا، أو يطلـــق صاحبك صاحبنا، فإن قتله قتلناك به. وتَسَرَّع سِفلَهم إلى داره، فنُهبت[1]، وهُتكت حريمه، ولحقه كل ما يكره.

وجـــاءت الكتب إلى أبى الجيش بذلك، فأحضر راغباً، وأقرأه الكتب، وقال له: والله، ما منعـــناك، ولا حظرنا عليك الخروج. ولقد سُررنا بقربك، وما أوليتَ وأوليناك إلا جميلاً، وقد جـــنى علينا سوء ظن غلامك ما لم نَجْنه، فإذا شئتَ فارحَلْ مُصَاحَباً، وقل لأهل طرسوس: يا جهلة، ما يومنا فيكم بواحد ؟ تتسرعون إلى ما نكره مرة بعد أخرى ونُغضِي عنكم، ويَحْلُمُ الله ﷻ، ولولا المحافظة على ثغر المسلمين وعز الإسلام، لا خشية منكم ولا من كثرتكم، وإلى الله الشـــكوى، ولـــولا الخوف من غضبه ﷻ؛ لجازيناكم على أفعالكم. فودَّعه راغب، ورحل إلى طرســـوس. فلمـــا صـــح – عند أهل طرسوس – خبر راغب، أطلقوا عن محمد بن موسى بن

(١) وردت محرفة هكذا (فنبهت) فى: (بغية الطلب ٨/٣٥٥٤).

طولـــون(١). فلما أُطلق، قال: أصلح الله بلدكم. ورحل عنهم، فسكن بيت المقدس. وكان له دين، وفيه خير كثير.

ملاحظات عامة على ما تبقى من (سيرة خمارويه) لابن زولاق:

أ- اهـــتم ابـــن زولاق فى نصه الذى تناول (إسحاق بن نُصَيْر النصرانى الكاتب) بإظهار ملامح من النواحى الإدارية والاقتصادية بمصر، فقد عرفنا من خلال روايته أهم وظائف الديوان فى عهد خمارويه (المكاتبات، والأجوبة، والترسل)، وعرفنا أن للديوان رئيساً هو ابن عبد كان، لـــه حجرة خاصة به فى دار الديوان. فلما مات انفرد بالأمر علىُّ بن أحمد المادَرائى. وبدت لنا أهمية العراق كرافد رئيسى لمقدم الكتَّاب إلى مصر (إسحاق بن نصير قدم من بغداد).

ب- وظـــيفة الكتابة تُدرّ على صاحبها دخلاً كبيراً، وصاحبها له وجاهته، وتُهَيَّأ له السبل المـــريحة لأداء عملـــه بدقة وإتقان (لمسنا ذلك من خلال المِرْوَحة التى استخدمها ابن عبد كان؛ لإيقاظ ابن نصير، ولمسناه من تحول ابن نصير من فقره وحاجته الشديدة إلى يسر حاله بعد أن عُـــيِّن فى الديـــوان مقابل أربعين ديناراً شهرياً، تحولت بعد انتظام أمر المكاتبات على يديه إلى أربعمائـــة دينار شهرياً، ثم تدرّج وترقّى حاله حتى وصل إلى ألف دينار شَهْرياً، فغدت له دار كـــبيرة(٢) بعـــد أن كان ينام على خُفِّه فى الديوان، يوم أن قدم يسأل عن وظيفة له فى ديوان الإنشاء فى عهد خمارويه).

ج- فـــات ابـــنَ زولاق تحديدُ التوقيت، الذى توفى فيه ابن عبد كان، وانفرد بالأمر بعده (علـــى بن أحمد المادَرائى)، الذى فشل فى القيام بمهمة ابن عبد كان فى المراسلات والمكاتبات. ويبدو أن ذلك كان فى بدايات عهد خمارويه، لكنه لم يَفُتْه إظهار قيمة إنسانية طيبة، تمثلت فى توســـعة ابـــن نصير على المحتاجين بعد أن زاد دخله، إلى جانب وفائه العظيم لمن له حق عليه (إرساله ثلاثة آلاف دينار للمبرد، وثعلب، ورجل ورّاق كان يستعير منه نُسَخ الكتب لينسخها، وكان يُنظره فى الأجرة إلى حين مَيْسَرة(٣).

---

(١) والده هو موسى بن طولون، أخو الأمير أحمد بن طولون، وكان مع أخيه فى مصر. وقد طلب إليه أن يوليه ثغر الإسكندرية، لكن أحمد كان ينوى توليته ثغر طرسوس، فغضب موسى من أخيه، وعاتبه بكلام شديد أمام الناس، فعاقبه أحمد. بعدها خرج موسى حانقاً إلى طرسوس، وأقام هناك، ورفض تولى شئونها، لَمَّا كُلِّف ابن طولون بضبط الثغور الشامية. (سيرة البلوى صـــ٤٦- ٤٩، ٩١).

(٢) بقيت هذه الدار إلى أن دخل محمد بن طغج مصر والياً عليها سنة ٣٢٣هـــ، إذ ورد أن محمد بن على المادَرائى كان مستتراً من ابن طغج فى الدار، التى كانت لإسحاق بن نصير الكاتب، وظل بها حتى كشف الوزير الفضل مكانه، وأمر بالقبض عليه (سيرة الإخشيد صـــ١٦١).

(٣) راجع ما يحدّث به ابن الداية عن (أحمد بن وليد) فى كتابه (المكافأة) صـــ٢٩- ٣١.

د- بخصوص النص المتصل بـــ (راغب) مولى الموفّق، فقد اهتم ابن زولاق بتحديد توقيت وفاة الموفق بالشهر والسنة، وهو فى الوقت ذاته كان بداية توجه (راغب) مولاه للرباط فى ثغر طرسوس.

هـــ- رغم انفتاح الحدود بين أقاليم الدولة الإسلامية، إلا أن التنقل - خاصة تنقل راغب بغلمانـــه وجنده، وأثقاله للإقامة الدائمة فى طرسوس - كان يحتاج إلى نوع من جواز المرور، خاصة أنه دخل منطقة خاضعة لخمارويه، فاحتاج إلى استئذان للسماح له بذلك.

و- أظهر ذلك النص التاريخى الطبيعة العامة لسكان الثغور (المناطق الساحلية) بأنهم جفاة قساة. ولعل ذلك يرجع إلى حياة الشَّظَف والقلق التى يعيشونها. كما أشارت إلى طبقة الغوغاء من عوام سكان طرسوس، وما يتصفون به من فوضى واندفاع وطيش وتهور، وأبانت عن خطر سريان الشائعات الكاذبة على الأمن والاستقرار.

ز- أوضـــحت الرواية أن سياسة خمارويه مع سكان الثغور لا تختلف عن سياسة أبيه من قـــبل (العفو والتسامح والصفح)؛ نظراً لدورهم الخطير فى صد هجمات الروم، لكنها لم تتابع تطورات علاقة خمارويه براغب[1]. ويبدو أن اقتباس ابن العديم من سيرة خمارويه لابن زولاق، وقف عند هذا الحد.

٣- سيرة المادَرائيين[2]، لابن زولاق:

من بقايا كتابه عن هذه الأسرة، ذات النفوذ المالى والإدارى فى مصر منذ عهد خمارويه إلى

(١) يبدو أن خمارويه خشى ازدياد نفوذ (راغب) فى طرسوس، فكلّف (طغج) والد الإخشيد بقتله، لكنه لم ينفذ الأمر، وشارك راغباً فى جهاد الروم، حتى تعرض لغضب خمارويه، الذى أتى إلى دمشق، لكنه قُتل ليلة مجيئه سنة ٢٨٢هـــ (المكافأة: صـــ ١٥٠).

(٢) واحده: المادَرائىّ. ذكر المقريزى فى (المقفى) جـــ٥ صـــ١٣٨ - نقلاً عن ابن زولاق - أنهم يُنسبون إلى (مَادَرَايا)، بفتح الميم، وبعدها ألف، ثم دال مهملة وراء مهملة مفتوحتين، بعدهما ألف، ثم ياء آخر الحروف، وألف: قرية بالبصرة. وورد فى (الأنساب)، للسمعانى بالدال، نسبة إلى(مادَرايا)،وقال: وأظنها من أعمال البصرة (جـــ٥ صـــ١٦٠).أما ياقوت فى (معجم البلدان)جـــ٥ صـــ٤٠، فذكر أنها بالذال، نسبة إلى(ماذرايا)، وإليها يُنسب الماذَرائيُّون كتّاب الطولونية فى مصر. ويذكر أن (ماذَرايـــا) قرية فوق واسط، خرب أكثرها فى عصره. وتابعته عليه د.سيدة كاشف فى (مصر فى عصر الإخشيديين) صـــ٣٧ وما بعدها. وذكرت أن أسرة الماذَرائيين فارسية الأصل، ولعل وجود اسم رُستَمَ فى نسبها جعلها تميل إلى ذلك. وقد وردت بالذال فى (كتاب الولاة، ط.جست - صـــ٢٤٤، وكذلك فى (ولاة مصر - ط.نصار، صـــ٦٨). وفى (الخطط)، للمقريزى ١/٨٢، ٢/ ١٥٥: استخدم لقب المارداثى، ثم استخدم (المادرانى) جـــ١ صـــ٣٣٢. وفى (ذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٣/ ٩٣، والكواكب السيّارة صـــ٧٣): ورد لقب (المادَرائى). وأعتقد أن الصواب ما أورده ابن زولاق، فهو صاحب سيرتهم، ولا بد أنه تحقق من نسبهم، كما أن ما ورد عنه قاطع؛ لضبطه البلدة، التى يُنسبون إليها بالحروف، مما ينفى وقوع أى لبس، أو تصحيف، و تحريف.

حوالى سنة ٣٤٥هـ (وفاة أبى بكر محمد بن على المادَرائى) ما يلى:

أ- حكى ابن زولاق قال:

"خرج المادَرائى يودع قوماً خرجوا للغَزاة، فبينما هو مارٌّ فى بعض الطرقات، إذ رأى شيخاً قد أقبل وهو يبكى، وفى عنقه خريطة[١]، وهو مقلّد بسيف، وفى يده عُكَّازُهُ، فدعاه (علىّ بن أحمد)، وقال له: إلى أين يا شيخ ؟ قال: إلى بلاد الروم، أُقاتل أعداء الله، فإن لحقنى أجلى على الطريق، كان أجرى على الله (تعالى). فقال له: هل لك فى شئ تركبه ؟ ثم استدعى بغلام، وقال له: أحضر الساعة[٢] غلاماً، وبغلة، وعمامة، وسيفاً. فأُحضر ذلك. فقال للشيخ: خذ هذا، ولك فى كل سنة مثله. فبكى الشيخ، فقال: اللهم، لا تحرمْه الشهادة. فلما كان من الغد، قُتل فى ذلك الموضع، فمات شهيداً. وكان ذلك ببركة دعاء الشيخ، فإنه كان أعظم ما فى قلبه الشهادة. وكانت وفاته سنة ٢٨٣هـ، ودفن بالمقبرة المذكورة، ودفن ولده إلى جانبه. وكانت وفاة ولده أبى بكر سنة ٣٤٥هـ، ومناقبه غير محصورة[٣].

ب- وقال ابن زولاق فى كتاب (سيرة المادَرائيين):

ولما قدم الأستاذ (مؤنس الخادم) من بغداد إلى مصر، استَدْعَى أبو علىّ (الحسينُ بن أحمد المادَرائى) - المعروف بـ (أبى زُنْبُور)[٤] - الدقّاقَ، وهو الذى نسميه - اليوم - الطحّان، وقال: إن الأستاذ مؤنساً قد وافَى، ولى بَمشْتُول[٥] قدر ستين ألف إردب قمحاً، فإذا وافَى، فقم له بالوظيفة. فكان يقوم له بما يحتاج إليه من دقيق حُوَّارَى[٦] مدة شهر. فلما كمل الشهر، قال كاتب مؤنس للدقّاق: كم لك حتى ندفعه إليك ؟ فأعلمه الخبر، فقال: ما أحسب الأستاذ يرضى أن يكون فى ضيافة أبى علىّ. وأعْلَم مؤنساً بذلك، فقال: أنا آكُلُ خبز حسين ؟! لا يبرح الرجلُ، حتى يقبض ماله. فمضى الدقّاق، وأعلم أبازنبور، فقام من فوره إلى مؤنس، فأكَبَّ على رجليْه، فاحتشم منه، وقال: والله، لا أجيبك إلا هذا الشهر الذى مضى، ولا تُعاوِدْ. ثم رجع، فقال

(١) وعاء من جلْد أو نحوه، يُشَدّ على ما فيه. وفى الاصطلاح الحديث: ما يُرسَم عليه سطح الكرة الأرضية، أو جزء منه. والجمع: خرائط. (المعجم الوسيط، مادة: خ.ر.ط) ٢٣٦/١.

(٢) فى المصدر: السرعة. وما أثبتُّه أرجح.

(٣) الكواكب السيّارة: صـ٧٣- ٧٤.

(٤) وردت كنيته فى (معجم البلدان ٤٠/٥) هكذا: أبو زينور، وهى مُصَحَّفة. توفى سنة ٣١٧هـ.

(٥) هما قريتان: مشتول الطَّواحين (السوق)، ومشتول القاضى. كلتاهما من كورة الشرقية. والأولى هى المقصودة هنا، وهى حسنة العمارة بها عدة طواحين لطحن الدقيق الحُوَّارَى، وتجهيزه إلى مصر والحجاز (معجم البلدان ١٥٤/٥، والقاموس الجغرافى ق٢ جـ١ صـ١٠٤).

(٦) الدقيق الأبيض، وهو لُباب الدقيق. (اللسان، مادة: ح.و.ر، جـ١٠٤٤/٢، والمعجم الوسيط ٢١٣/١).

للدقاق: قم له بالوظيفة فى المستقبل، واعمل ما يريده. قال: فجئتُهُ وقد فرغ القمح، ومعى الحساب، وأربعمائـــة دينار. قال: أيْشٍ هذا ؟ فقلت: بقية ذلك القمح. فقال: اعفنى منه. وتركه[1]. فتأملْ ما اشـــتمل علـــيه هذا الخبر من سعة حال كاتب من كتّاب مصر، كيف كان له فى قرية واحدة هذا القـــدر مـــن صـــنف القمح ؟ وكيف صار مما يفضل عنه، حتى يجعله ضيافة ؟ وكيف لم يَعْبَأْ بأربعمائـــة ديـــنار، حـــتى وهبها لدقّاق قمح ؟ وما ذاك إلا من كثرة المعاش، وقِسْ عليه باقى الأحوال"[2].

ج- ذِكْر المادَرائى[3]:

" هـــو أبـــو بكر محمد بن على بن محمد بن رستم بن أحمد وقيل: محمد بن على بن أحمد بن عيسى بن رستم، وقيل: محمد بن على بن أحمد بن إبراهيم بن الحسين بن عيسى بن رستم المادَرائى. أحـــد عظمـــاء الدنيا ولد بـــ (نَصيبين) لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسين ومائـــتين. وقدم إلى مصر فى سنة اثنتين وسبعين ومائتين، وخلف أباه (علىّ بن أحمد المادَرائىّ) أيام نظره فى أمور أبى الجيش (خمارويه بن أحمد بن طولون)، وسنّه - يومئذ - خمس عشرة سنة. وكان معـــتدل الكتابة، ضعيف الحظ من النحو واللغة. ومع ذلك، فكان يكتب إلى الخليفة فمنْ دُونَه على الـــبديهة مـــن غـــير نسخة، فيخرج الكتاب سليماً من الخلل. ولما قُتل أبوه فى سنة ثمانين ومائتين، استوزره (هارون بن خمارويه)، فدبّر أمر مصر إلى أن قدم (محمد بن سليمان الكاتب) من بغداد إلى مصـــر، وأزال دولة بنى طولون، وحمل رجالهم إلى العراق، فكان أبو بكر ممن حمله، فأقام ببغداد إلى أن قدم صحبة العساكر لقتال حَباسة[4]، فدبَّر أمر البلد، وأمر ونهى، وحَدَّث بمصر عن أحمد بن عبد الجبار العُطَارِدىّ[5]، وغيره بسماعه منهم فى بغداد. وكان قليل الطلب للعلم، تغلب عليه محبة الملك، وطلب السيادة. ومع ذلك، كان يلازم تلاوة القرآن الكريم، ويكثر من الصلاة، ويواظب على الحج. وملك بمصر من الضِّياع الكبار ما لم يملكه أحد قبله، وبلغ ارتفاقه[6] فى كل سنة أربعمائة ألف دينار ســـوى الخراج. ووهب وأعطى، وولّى وصرف، وأفضل ومنع، ورفع ووضع، وحج سبعاً وعشرين حجة، وأنفق فى كل حجة منها مائة وخمسين ألف دينار.

---

(١) يعنى: أى شئ (الخطط ١/٣٣١- ٣٣٢).

(٢) هذا تعليق المقريزى.

(٣) عنوان للمقريزى بعد تصحيح النسبة.

(٤) وردت بالحاء تصحيفاً.

(٥) هو أبو عمر الكوفى. ضعيف فى الحديث، لكن سماعه للسيرة صحيح. توفى سنة ٢٧٢هـــ، أو ٢٧٧هـــ (سير أعلام النبلاء ٤٥٢/١٥، وتهذيب التهذيب ٤٤/١- ٤٥، والتقريب ١٩/١).

(٦) ورد فى النص: ارتفاعه، وهو تحريف. والمقصود: ما يُرتفق به ويُنتفع ويُستعان (المعجم الوسيط، مـــادة: ر.ف.ق): ٣٧٥/١.

وكان تكين أمير مصر يُشيِّعه إذا خرج للحج، ويتلقاه إذا قدم. وكان يحمل إلى الحجاز جميع ما يحتاج إليه، ويفرق بالحرمين الذهب والفضة، والثياب والحلوى، والطِّيب والحبوب، ولا يفارق أهل الحجاز إلا وقد أغناهم. وقيل مرة - وهو بالمدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام: ما بات فى هذه الليلة أحد بمكة والمدينة وأعمالهما إلا وهو شبعان من طعام أبى بكر المادَرائى.

ولما قدم الأمير (محمد بن طغج الإخشيد) إلى مصر، استتر منه؛ فإنه كان منعه من دخول مصر، وجمع العساكر لقتاله، فاجتمع له زيادة على ثلاثين ألف مقاتل، وحارب بهم بعد موت تكين أمير مصر. ومرت به خطوب؛ لكثرة فتن مصر إذ ذاك، وأُحرقت دوره ودور أهله ومجاوريه، وأُخذتْ أمواله. واستتر، فقُبض على خليفته وعماله، فكتب إلى بغداد، يسأل إمارة مصر، وكتب محمد بن تكين بالقدس يسأل ذلك. فعاد الجواب بإمارة ابن تكين، وأن يكون المادَرائىّ يدبر أمر مصر، ويولى من شاء. فظهر عند ذلك من الاستتار، وأمر ونهى، ودبَّر أمر البلد، وصار الجيش بأسره يغدو إلى بابه. فأنفق فى جماعة، واصطنع قوماً، وقتل عدَّة من أصحاب ابن تكين، وكان محمد بن تكين بالقدس، وأمْر مصر كله للمادَرائى بمفرده، ومعه (أحمد بن كَيْغَلَغ)، وقد قدم من بغداد بولاية ابن تكين على مصر، وولاية أبى بكر المادَرائى تدبير الأمور، فاستمال أبو بكر (أحمدَ بن كَيْغَلَغ)، حتى صار معه على ابن تكين، وحاربه، وكان من أمره ما كان إلى أن قدمت عساكر الإخشيد، فقام أبو بكر لمحاربتهم، ومَنْع الإخشيد من مصر، فكان الإخشيد غالباً له، ودخل البلدَ، فاستتر منه أبو بكر إلى أن دُلَّ عليه، فأخذه وسلَّمه إلى الفضل بن جعفر بن الفرات.

فلما صار إلى ابن الفرات، قال له: أيش هذا الاستيحاش والتستر، وأنت تعلم أن الحج قد أظَلَّ ويُحتاج لإقامة الحج ؟ فقال له أبو بكر: إن كان إلىّ فخمسة عشر ألف دينار. فقال ابن الفرات: أيش خمسة عشر ألف دينار ؟! قال: ما عندى غير هذا. فقال ابن الفرات: بهذا ضربتَ وجه السلطان بالسيف، ومنعتَ أمير البلد من الدخول. ثم صاح: يا شادن، خُذْه إليك. فأُقيم، وأُدخل إلى بيت، وكان - يومئذ - صائماً، فامتنع من تناول الطعام والشراب، ولزم تلاوة القرآن والصلاة طول يومه وليلته، وأصبح فامتنع ابن الفرات من الأكل؛ إجلالاً له. فلما كان وقت الفطر من الليلة الثانية، امتنع أبو بكر من الفطر، كما امتنع فى الليلة الأولى، فامتنع ابن الفرات أيضاً من الأكل، وقال: لا آكل أبداً، أو يأكل أبو بكر. فلما بلغ ذلك أبا بكر، أكل. فأخذ ابن الفرات فى مصادرته، وقبض علىْ ضياعه التى بالشام ومصر، وتَتَبَّع أسبابه[1]، ثم خرج

(١) كل شئ يُتوصل به إلى غيره، ويقصد: عماله، ومساعديه. (اللسان، مادة:س.ب.ب) جـ٣/١٩١١، والمعجم الوسيط ١/٤٢٧).

بـــه معـــه إلى الشام، وعاد به إلى مصر، ثم خرج به ثانياً إلى الشام، فمات الفضل بن الفرات بالرملة، ورجع أبو بكر إلى مصر(١)، فرَدّ إليه الإخشيد أمور مصر كلها، وخلع على ابنه، وتقلد السـيف، ولَبِسَ المِنْطَقة(٢)، ولبس أبو بكر الدُّرَّاعة(٣)؛ تَنَزُّهاً. ثم تنكّر عليه الإخشيد، وقبضه فى سـنة إحـدى وثلاثـين وثلاثمائة، وجعله فى دار، وأعد له فيها من الفرش والآلات، والأوانى والملبوس، والطِّيب والطرائف، وأنواع المآكل والمشارب ما بلغ الغاية، وتفقّدها بنفسه، وطافها كلـها، فقيل له: عملتَ هذا كله لمحمد بن علىّ المادَرائىّ ؟! فقال: نعم، هذا ملك، وأردتُ ألا يحتقـر بشـئ لنا، ولا يحتاج أن يطلب حاجة إلا وجدها، فإنه إنْ فقد عندنا شيئاً مما يريده، استدعى به من داره، فنسقط نحن من عينيه عند ذلك. فلم يزل مُعْتَقلاً، حتى خرج الإخشيد إلى لقاء أمير المؤمنين (المتقى لله)، فحمله معه.

ولما مات الإخشيد بدمشق، كان أبو بكر بمصر، فقام بأمر أونوجور بن الإخشيد، وقبض على (محمد بن مقاتل وزير الإخشيد)، وأمر ونهى، وصَرَّف الأمور إلى أن كانت واقعة غلبون، واتصـال أبى بكـر بـه. فلما عادت الإخشيدية، قُبض على أبى بكر، ونُهبت دوره، وأُحرق بعضها، وأُخذ ابنه، وقام أبو الفضل جعفر بن الفضل بن الفرات بأمر الوزارة.

فعـندما قـدم كافور الإخشيدى من الشام بالعساكر، التى كانت مع الإخشيد، أطلق أبا بكـر، وأكرمه، ورَدَّ إليه ضياعه، وضياع ابنه. فلما ماتت أم ولده، لحقه كافور، ومعه الأمير أونوجـور عـند المقابر، وترجّلا له وعزّياه، ثم ركبا معه، حتى صَلّيا عليها. فلما مرض مرض موته، عاده كافور مراراً، إلى أن مات فى شهر شوال سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، فدُفن بداره، ثم نُقل إلى المقابر.

وكانت فضائله جَمَّةً، منها: أنه أقام أربعين سنة، يصوم الدهر كله، ويركب كُلَّ يوم إلى المقابر بُكرة وعشية، فيقف له الموكب حتى يمضى إلى تربة أولاده وأهله، فيقرأ عندهم، ويدعو لهـم، وينصـرف إلى المساجد فى الصحراء، فيصلى بها والناس وقوف له، إلا أنه كان فى غاية العَجَلـة، لا يُراجَع فيما يريده، ولو كان ما كان. ولما أراد المقتدر أن يقيم وزيراً، كُتبت رقعة فيها أسماء جماعة، وأُنفذت إلى (علىّ بن عيسى)؛ ليشير بواحد منهم. وكان أبو بكر ممن كُتب معهـم اسمه، فكتب تحت كل اسم واحد منهم ما يستحقه من الوصف، وكتب تحت اسم أبى

(١) سبقت دراسة تواريخ ذلك تفصيلاً فى دراسة منهج ابن زولاق فى (سيرة الإخشيد)، لكن الجديد - هنا - مصاحبة أبى بكر المادرائى له عند خروجه ودخوله الشام.

(٢) هى كل ما يُشَدُّ على الوَسَط من حزام ونحوه (كالإزار فى المرأة قديماً، ومن ذات النِّطاقين. (اللسان، مادة: ن.ط.ق) جـ٥/٤٤٦٢-٤٤٦٣، والمعجم الوسيط ٢/٩٦٨-٩٦٩).

(٣) هى ثوب من صوف، أو جُبّة مشقوقة فى المقدَّم. (اللسان، د.ر.ع) ٢/١٣٦١، والمعجم الوسيط ١/٢٩٠).

بكــر (محمد بن على المادَرائى): " مُتْرَف عَجول ". وبنى أبو بكر السقايات والمساجد فى المَعَافــر، وفى يَحْصُب، وبنى وائل[١]. وليس لشئ منها اليوم أثر يُعرف. ومرَّتْ له فى هذا الكتاب أخبار. وقد أفرد له ابن زولاق سيرة كبيرة، وهذا منها. والله أعلم[٢].

ج- وكان قد سُمع فى (سيرة المادَرائيين):

أنــه عُمــل له هذا الإفطي[٣]، ولــه فى كل واحــدة خمسة دنانير. ووقف أستاذ على السِّماط[٤]، فقال لأحد الجلساء: افطنْ له. وكان عُمل السِّماط عدة صُحون من ذلك الجنس، لكن ما فيه الدنانير صَحْن واحد. فلما رمز الأستاذ لذلك الرجل بقوله: افطن له، وأشار إلى الصحن، تناول ذلك الرجل منه، فأصاب الذهبَ، واعتمد عليه، فحصل له جملة، ورآه الناس، وهو إذا أكل يخرج من فمه، ويجمع بيده، ويَحُطّ فى حِجْره، فتنبهوا له، وتزاحموا عليه، فقيل لذلك من يومئذ: افطن له[٥].

د- قال ابن زولاق فى كتاب (أخبار المادَرائيين كُتَّاب مصر):

وحضر أبو الحسن وهب بن إسماعيل مجلس أبى بكر بن على المادَرائىّ فى المسجد الجامع، وهو يعقد الضياع، فقال له أبو بكر: الساعة آمر بالنداء على صفقة، فخذها شركة بينى وبينك. فنودى على صفقة، فقال أبو بكر: اعقدوها على أبى الحسن. فعُقدت عليه، وتحملها، فأفضلتْ له أربعين ألف دينار، فاستنض[٦] عشرين ألف دينار، و لم يدر ما يعمل فيها إلى أن اجتمع مع أبى يعقوب كاتب أبى بكر؛ ليتحدثا. فقال أبو يعقوب: رأيتُ الشيخ، يعنى: أبا بكر المادَرائى فى اليوم مشغول القلب، أراد جمع مال، وقد عجز عنه. فقال له أبو الحسن: عندى نحو عشرين ألف دينار. فقال: جئنى بها. فأنفذها إليه، وجاءه خطه بالمبلغ، فاتفق أن مضى أبو الحسن إلى أبى بكر المادَرائى، فقال له: تلك الصفقة قد غلقت ما عليها، وفضل أربعون ألف دينار، وقد حصل عندى عشرون ألف دينار، حملتها إلى أبى يعقوب، وأرسلتُ فى استخراج الباقى، فاحمله. فقال المادَرائى: ما هذا العجز ؟ إنما قلت لك: تكــون بينى وبينك؛ خوفــاً من تفريطك، وإنما أردت

---

(١) الخطط ٢/١٥٥- ١٥٧.

(٢) عبارة المقريزى.

(٣) نوع من الكعك والقُرَص، تُعمل بالفُستق والسكر الأبيض المطيَّب بالمسْك (الخطط ١/٣٣٢).

(٤) الصف من الرحال، أو ما يُمَدّ ليوضعَ عليه الطعام فى المآدب ونحوها. والجمع: سُمُط، وأسْمِطَة: (اللسان - س.م.ط) ٢٠٩٤/٣، والمعجم الأوسط ٤٦٦/١).

(٥) الخطط، للمقريزى جـ١ صـ٣٣٢.

(٦) استنضَّ الشئ: تتبَّعه. يقال: يستنضّ الماءَ: يستقطره. ويستنض حقه منه: يستنجزه، ويأخذه الشئ بعد الشئ. (اللسان، مادة: ن.ض.ض: ٤٤٥٥/٦- ٤٤٥٦، والمعجم الوسيط ٩٦٦/٢).

(أسرة الماذرائيين) *

محمد بن أحمد بن إبراهيم [١] بن أحمد بن الحسن بن رستم
أبو عبد الله المادرائى الأطروش (ت ٣٢٢هـ)
عميد الأسرة . ولى خراج مصر من قبل المعتمد سنة ٢٦٦هـ [٢]

أخوه وكاتبه أبو الحسن [٣] على بن أحمد بن إبراهيم المادرائى، قتل حوالى ٢٨٣هـ) غدت الزعامة له ، وصار وزير خمارويه وكاتبه [٤]

أخوه كاتب خمارويه أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المادرائى (حضر مقتل خمارويه بدمشق ٢٨٢هـ، وتوفى سنة ٣١٣هـ) [٥]

أخوه أبو على (المشهور بأبى زُنْبُور)(الحسين بن أحمد بن إبراهيم المادرائى ٢٣٢هـ-٣١٧هـ) ولى خراج الشام أيام ابن طولون باقتراح عميد الأسرة . [٦]

وَلَدَاه

(استقدمهما إلى مصر سنة ٢٧٢هـ)

أبو بكر محمد بن على بن أحمد ابن إبراهيم الماذرائى زعيم الأسرة بعد أبيه (ت ٣٤٥هـ)

أبو الطيب أحمد بن على بن أحمد ابن إبراهيم المادرائى (ت ٣٠٣هـ)[٧]

ابنه

(أبو محمد على بن أحمد بن على المادرائى)
(٢٩٤-٣٧٢هـ) [٨]

---

* راجع دراسة د.سيدة كاشف عن هذه الأسرة فى(مصر فى عصر الإخشيديين)صـ٣٧-٥٢.
(١) سمّاه الخطيب فى (تاريخ بغداد ٣٨٥/٤) : أحمد بن محمد بن إبراهيم . وسمّاه أحمد بن إبراهيم كل من : ابن الداية فى سيرته (صـ١٢٥) ، والبلوى صـ١٦١) .
(٢) المقفى للمقريزى ١٣٦/٥-١٣٨ .
(٣) المصدر السابق : ٤٦٧/٣ .
(٤) مخطوط تاريخ دمشق ٨٥٦/١١،وتاريخ الإسلام للذهبى١٣/٢١،والمقفى ١٣٧/٥-١٣٨ .
(٥) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور ١٧/٤ ، والوافى بالوفيات للصفدى ٣٠٦/٥ .
(٦) المقفى ٤٦٦/٣-٤٨١ .
(٧) الوافى بالوفيات ١٨٦/٧ .
(٨) ذيل ابن النجار ٩٣/٣-٩٤ .

حفظ المال عليك. ثم أمر أبا يعقوب أن يردّ عليه ما دفعه إليه، وقال لأبي الحسن: رُدّ عليه خَطَّه، فقبض ما دفعه إلى أبي يعقوب[١].

هـ- قرأت في كتاب (أخبار المادَرائيين) لأبي محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق الفقيه المصري[٢]، قال:

عليّ بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن علي، أبو محمد. كان سَرياً، له أملاك حسنة، ورثها عن أبيه. كتب الحديث عن. . . مولده سنة أربع وتسعين ومائتين، وتوفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة[٣].

ملاحظات عامة على بقايا (سيرة المادَرائيين) لابن زولاق:

أ- عرضت لنا هذه السيرة صورة مصغرة لما كانت عليه روح الجهاد ضد الروم في المجتمع المصري، وذلك من خلال الشيخ، الذي لا يملك إلا خريطته، وسيفه وعكازه، وهو طاعن في السن يسعى إلى الجهاد سعياً، فما كان من علي بن أحمد المادَرائي إلا أن زوده في الحال بما يعينه على الجهاد.

ب- رسم لنا ابن زولاق صورة للحياة الاقتصادية الناعمة، وروح الترف والإسراف الشديد في المآكل والمشارب والمآدب في عهد أبي بكر المادَرائي، ومن قبل في عهد (الحسين بن أحمد المادَرائي ت ٣١٧هـ). وأعتقد أن الرخاء يمكن أن يصدق على عهد الإخشيد. أما عصر ما بين الطولونيين والإخشيديين، فهو محل شك كبير؛ إذ لم تكن البلاد آمنة مستقرة، ويصعب في ظل جو التوترات والثورات، والنزاعات أن تحظى البلاد بكل هذا الثراء (المبالغ في وصفه من جانب ابن زولاق). وكذا نلمح المبالغات الكبيرة في وصف صلاح أبي بكر المادَرائي وأمواله وممتلكاته، ومقدار صداقاته بما لا يصدقه عاقل، وكذا المبالغة في وصف نفوذه.

ج- عرض لنا ابن زولاق الاختلافات حول نسب أبي بكر المادَرائي دون ترجيح.

د- اهتم ابن زولاق بذكر التواريخ الدقيقة الخاصة بأبي بكر المادَرائي (مولده مكاناً وزماناً، وسِنّه، وتاريخ استخلاف أبيه له، وتاريخ وفاته). وفي الوقت نفسه لم يذكر لنا تاريخ قدوم

---

(١) الخطط ٨٢/١.

(٢) في المصدر: (البصري)، وهو تحريف.

(٣) ذيل تاريخ بغداد، لابن النجار جـ٣/٩٣- ٩٤. ولعل هذا هو آخر أفراد تلك الأسرة في مصر، ولا ندري عنه شيئاً إلا من خلال هذا المصدر. ويعد أبو بكر المادَرائي (ت ٣٤٥هـ)، هو آخرهم شهرة وجاهاً، ومنزلة، وتأثيراً في شئون الإدارة والمال في مصر.

مـؤنس إلى مصـر علـى الحسين بن أحمد المادَرائى، ولعله اعتمد على شهرة صلة ذلك بحملة العبيديين الثانية على مصر (٣٠٧- ٣٠٩هـ)، فلم يذكر تاريخه.

هـ- تعليل ما مر بأبى بكر المادَرائى من خطوب ومحن بكثرة الفتن والثورات فى مصر آنذاك، وكذلك قدرته على التعليل الواضح للأكنة المسماة (افطنْ له).

و- أعطانا ابن زولاق صورة حقيقية لمكانة أبى بكر المادَرائى لدى الوزير الفضل بن جعفر، ثم لـدى الإخشيد من خلال طريقة التعامل معه قبل مصادرته، وعند التحفظ عليه والتوكيل به (حتى أفرج عنه، وأخرجه معه الإخشيد إلى لقاء الخليفة المتقى لله سنة ٣٣٣هـ، وتلك معلومة جديدة فى هذا المجال).

ز- امتاز ابن زولاق بإيراد بعض الأخبار التى تفوق فى دقتها ما ورد فى (سيرة الإخشيد)، فقد ذكر هناك أنه لا يملك لنفقات الحج سوى خمسة آلاف دينار،وأن الإخشيد لما دخل مصر والياً تغافل عن أبى بكر المادَرائى، حتى دخل الوزير الفضل،فكشف مكانه وصادره[1]. أما هنا، فالمبلغ هو ١٥ ألف دينار، وهو معقول بالنسبة لثراء أبى بكر المادَرائى إلى حد ما، وإن لم يقنع الوزير الفضل بالطبع. وذكر – هنا – أن الإخشيد هو الذى كشف مكانه، وسلّمه للوزير، وهو يتناسـب مع تغيظه عليه؛ لِمَا سبّبه له من مؤونة بتجميع الجيوش ونفقات الجند، واضطراره إلى خوض حرب، و لم يسمح له بدخول مصر سلماً فى هدوء.

ح- حظـى أبو بكر المادَرائى بجانب كبير من اهتمام ابن زولاق، فأفرد له كماً هائلاً من المادة العلمية، وأطال فى الترجمة له، بما يلائم مكانته ودوره الذى قام به، لكن هذا لم يدفعه إلى التحيز له، بل كان محايداً، فهو وإن بالغ فى وصف غناه وصلاحه من وجهة نظرنا، ففى الوقت نفسـه ذكر أخطر عيبيْه: الترف، والعجلة. وعلى كل، فلازلنا فى حاجة إلى مزيد من الكشف عن بقايا هذا الكتاب؛ كى تزداد معرفتنا بتفاصيل الأدوار، التى لعبها أفراد هذه الأسرة الفذة فى إدارة شئون مصر.

٤- بقايا (سيرة كافور) لابن زولاق:

أ- قال الحسن بن زولاق المصرى المؤرخ:

" كـان الشريف عبد الله بن أحمد الحَسَنى[2]، وهو ابن طَباطبا، يرسل إلى كافور فى كل

(١) صـ١٦١.

(٢) ورد فى (نهاية الأرب) ٥٨/٢٨: الحسينى. وهذا تحريف. راجع ترجمته، ونسبه المنتهى إلى (الحسن بن على)، وتعريفاً بحياته الممتدة من سنة (٢٨٦- ٣٤٨) فى: (المقفى جـ ٤صـ٤٤١- ٤٤٢).

يوم جامَى[١] حلوى، ورغيفاً فى منْديل[٢] مختوم، فخُوطب كافور فى الرغيف، وقيل له: الحلوى حسن، فما تصنع بالرغيف ؟! فأرسل إليه، قال: يُجريني الشريف الحلوى على العادة، ويُعفيني مـن الرغيف. فركب الشريف إليه، وقال: أيدك الله، أنا ما أُنفذ الرغيف؛ تطاولاً ولا تعاظماً، وإنمـا هـى صبية حَسَنيّة تعجنه بيدها وتَخْبِزه، فأرسله على سبيل التبرك، فإذا كرهتَه قطعناه. فقال: لا والله، ولا يكون فى قُوتى سواه "[٣].

ب- قال ابن زولاق:

" ورأيـتُ أبـا جعفر مسلماً فى جنازة عبد الله بن أحمد ماشياً بنعل من داره إلى المصلّى، ومشى أكثر الناس لمشيه، وحضر كافور ومولاه "[٤].

ج- قال ابن زولاق:

" أقـام كافور الإخشيدى الأستاذ إحدى وعشرين سنة، وشهرين، وعشرين يوماً، يعنى: أقام مدبِّر مملكة مصر من قبل ولدىْ أستاذه، وهما أونوجور، وعلىّ ابنا الإخشيد محمد بن طغج، وأقام هو فيها سنتين، وأربعة أشهر، وسبعة أيام ملكاً مستقلاً بنفسه[٥].

قال ابن زولاق: " وكان كافور دَيِّناً كريماً ".

قـال: " ولما توفى كافور، اجتمع الأولياء وتعاقدوا ألا يختلفوا، وكتبوا بذلك كتاباً ساعة توفى كافور، وعقدوا الولاية لأحمد بن على بن[٦] الإخشيد، وكان - إذ ذاك - صبياً ابن إحدى عشـرة سـنة، وكافـور بعدُ فى داره لم يُدْفن، ودُعى له على المنابر بمصر وأعمالها والشامات والحرمين، ثم من بعده للحسن بن عُبيد الله بن طغج. ثم عُقد للحسن بن عُبيد الله المذكور على بـنت عمـه فاطمة بنت الإخشيد بوكيل، سَيَّره من الشام، وجعل التدبير بمصر - فيما يتعلق

---

(١) الجام: إناء للشراب والطعام من فضة أو نحوها، وهى مؤنثة. وذكر فى (اللسان): أنها عربية صحيحة. بينما جعلها (المعجم الوسيط) مُعَرّبة. وقد غلب استعمالها فى قدح الشراب. ويقال: صَبَّ عليه جامه، أى: غضب عليه، واستفزه. الجمع: جامات، وجُوم، وأجوام. (اللسان: ج.و.م، ١/٧٣١- ٧٣٢، والمعجم الوسيط ١/١٥٤). وأثبتها المحقق فى النص بالنون (جامَين). والصواب النحوى: حذف النون.

(٢) بالفتح والكسر: ما يُمسح به. ويقال: تَمَنْدَلْتُ. هو نسيج من قطن أو حرير، أو نحوهما مُرَبَّع الشكل، ويُمْسَح به العرق، أو الماء. الجمع: مَناديل. (اللسان: ن.د.ل، ٦/٤٣٨٤، والمعجم ٢/٩٤٨).

(٣) نهاية الأرب ٢٨/٥٧- ٥٨.

(٤) المقفى ٤/٤٤٨.

(٥) النجوم ٤/١٠.

(٦) سقطت كلمة (ابن) من الأصل.

بالأمـــوال – إلى الوزيـــر أبى الفضل جعفر بن الفرات، وما يتعلق بالرجال والعساكر لسمول الإخشيدى صاحب الحمّام بمصر. وكل ذلك كان فى يوم الثلاثاء لعشر بقين من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة "[١]. انتهى كلام ابن زولاق ﷺ [٢].

ملاحظات على بقايا (سيرة كافور) لابن زولاق:

أ- **يكشف النصان**: الأول، والثانى عن العلاقة الحميمة بين كافور والشريف العلوى عبد الله بـــن أحمد الحسنى، ومدى ما كان يتمتع به هذا الرجل من ثراء.وهذه الصلات امتداد لصلات الإخشيد الوطيدة بهم من قبل. وفى النص الأول بيان لنوع الآنية التى كان يُهدى فيها هذا الشريف الحلـــوى إلى كافور، وكذا ما يوضع فيه الرغيف، الذى خُبز على يد ابنة الشريف غالباً فى داره. وواضح أن اعتقاد بركة هؤلاء الأشراف كان مَحَكَّ إرضائهم وقبول هداياهم.

ب- **فى النص الأخير**: يذكـــر لنا ابن زولاق رأيه صراحة فى كافور، فينعته بالدين والكرم. وواضـــح دقة ابن زولاق فى ذكر مدة وصاية كافور على ابنَي الإخشيد (باليوم، والشهر، والسنة)، وكذا مدة استبداده بالحكم من (وفاة علىّ بن الإخشيد، حتى وفاة كافور نفسه).

ج- وأبـــرز ابن زولاق اهتمام القائمين بالأمر عَقِيبَ وفاة كافور بجمع الكلمة وتوحيد الشمل، وعدم التنازع (ربما خشية مقدم العبيديين)؛ ولذا نظّموا شئون البلاد يوم وفاة كافور، واخـــتاروا (أحمد بن على بن الإخشيد) أميراً لمصر رغم حداثته؛ حفاظاً على وحدة الأسرة الإخشيدية. وفى الوقت نفسه جُعل بعده ابن عم أبيه؛ لضمان استقرار الشام. ووُطِّدَت الصلة بـــه عن طريق عقده على ابنة عمه الإخشيد. واختير لشئون المال صاحب خبرة فى هذا المجال (جعفر بن الفضل)، وفى شئون الحرب أحد قادة الإخشيد[٣]. وحرص ابن زولاق – فى النهاية – على بيان توقيت إتمام ذلك كله، وأنه كان فى غاية السرعة يوم وفاة كافور وقبل دفنه[٤].

---

(١) النجوم الزاهرة: ١١/٤.

(٢) كلام صاحب (النجوم).

(٣) يُطلق عليه اسم (سمول الإخشيدى) بالسين فى (النجوم) ١١/٤. وذكر ابن زولاق أنه كان (صاحب الحَمَّام)، ولا أدرى ماهيّة هذا المنصب، ولعله له صلة بمراعاة الآداب والأخلاق، وحفظ النظام، فربما كان فرعاً من الشُّرَط. وورد بالشين فى (وفيات الأعيان) ٣٧٦/١، وتكرر ذكره بالشين – دون ضبط (فى اتعاظ الحنفا، ط.دار الفكر)، صـــ١٧٤، ١٧٩.

(٤) لكن الأمور لم تستقر فى مصر؛ لسوء سيرة وسياسة (الوزير جعفر بن الفضل)؛ إذ قام بالقبض على جماعة ومصادرتهم، وهرب يعقوب بن كِلِّس من بطشه إلى المعز، وتهيأت الظروف بعد احتلال النظام وثورة الجند بالوزير، لمجئ جوهر بجيوشه إلى مصر. (النجوم ٢٢/٤).

٥- بقايا (سيرة جوهر)، لابن زولاق(*):

أ- قال ابن زولاق:

" سألت أبا جعفر مسلماً[١] عند رجوعه عن مقدار العسكر، فقال: هو مثل جمع عرفات كثرة وعدة، وسألته عن سن القائد جوهر، فقال: نيّف وخمسون سنة "[٢].

ب- وقال ابن زولاق[٣]:

" ولما أصبح، أنفذ عليّ بن الوليد القاضي لعسكره، بين يديه أحمال مال، ومناد ينادي: " من أراد الصدقة، فلْيَصِرْ إلى دار أبي جعفر ".

فاجتمع خلق من المستورين، والفقراء، فصاروا بهم إلى الجامع العتيق[٤]، ففُرّق فيهم.

ولما كان يوم الجمعة - لعشر بقين من شعبان - نزل جوهر فى عسكر إلى الجامع العتيق لصلاة الجمعة، وخطب بهم هبة الله بن أحمد - خليفة عبد السميع بن عمر العباسي - ببياض. فلما بلغ إلى الدعاء، قرأه من رقعة، وهو: " اللهم، صَلِّ على عبدك ووَلِيِّكَ، ثمرة النبوة، سليل العزة الهادية المهدية، عبد الله الإمام مَعَدّ أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين، كما صليتَ على آبائه الطاهرين وأسلافه الأئمة الراشدين. اللهم، ارفع درجته وأعْلِ كلمته، وأوْضِح حُجّته، واجمع الأمة على طاعته، والقلوب على موالاته ومحبته، واجعل الرشاد فى موافقته، ووَرِّثْه مشارق الأرض ومغاربها، وأحْمِده مبادئ الأمور وعواقبها، فإنك تقول وقولك الحق: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ**﴾[٥]. فقد امتعض لدينك، ولما انتُهِك

(*) أعتقد أن هناك تداخلاً بين مادة (سيرة جوهر)، وكتاب (إتمام أمراء مصر) لابن زولاق؛ إذ إن كليهما يتعرض لأحداث عهد جوهر، وإن كنتُ أعتقد أن ابن زولاق المؤرخ الحصيف لم يكرر نفسه، وكان حديثه عن جوهر فى (سيرته) المخصصة له مفصَّلاً. وقد اقتصرتُ فى (بقايا سيرة جوهر) على ما نص المقريزى صراحة على أنه لابن زولاق، ثم ما اندرج تحت هذا القول من مادة تاريخية، تتصل بأعمال جوهر فى مصر. وزعم أن المقريزى فى (اتعاظ الحنفا) رتب أحداثه على السنين، وزعم أن الأحداث من (سنة ٣٥٨هـ إلى دخول المعز ٣٦٢هـ) يمكن أن تكون منقولة عن (سيرة جوهر) لابن زولاق، إلا أنى لم أورد منها إلا ما صرح المقريزى بأنه من كلام ابن زولاق، خاصة أن احتمال نقله هذه الأحداث عن مصادر أخرى وارد، بل تحقق بالفعل، عندما وازنتُ بين أخبار حفر جوهر الخندق؛ استعداداً لصد هجوم القرامطة على مصر، التى أوردها المقريزى فى (الخطط ٢/٤٥٩)، ونسبها إلى ابن زولاق، وبين ما يناظرها فى (اتعاظ الحنفا - ط.دار الفكر) صـ١٨٠، غير منسوب إليه، فوجدتُ اختلافاً بينهما.

(١) وردت بالنص غير مصونة (مسمم)، والصواب ما ذكرتُ.

(٢) اتعاظ الحنفا (ط.دار الفكر) صـ١٥٤.

(٣) المصدر السابق: صـ١٦٢- ١٦٣.

(٤) هو جامع عمرو بن العاص ﷺ.

(٥) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

من حرمتك، ودُرِسَ من الجهاد فى سبيلك، وانقطع من الحج إلى بيتك، وزيارة قبر رسولك ﷺ؛ فأعـد للجهـاد عُدَّتـه، وأخذ لكل خَطْب أُهْبَتَه، فسيَّر الجيوش لنصرتك، وأنفق الأموال فى طاعتك، وبذل المجهود فى رضاك، فارتدع الجاهل، وقصُرَ المتطاول، وظهر الحق وزهق الباطل. فانصـر - اللهم - جيوشه التى سَيَّرهَا، وسراياه التى انتدها لقتال المشركين، وجهاد الملحدين، وللـذبِّ عـن المسلمين، وعمارة الثغور والحُرَم وإزالة الظُّلَم والتُّهَم والنَّهَم، وبَسْط العدل فى الأمـم. اللهم، اجعل راياته عالية مشهورة، وعساكره غالبة منصورة، وأصلِحْ به وعلى يديْه، واجعل لنا منك واقية[١] عليه ".

ج- وذكر ابن زولاق[٢]:

أن القائد جوهراً لَمَّا اختَطَّ القاهرة، وكثر الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر، حفر خندق السرىّ بن الحكم بباب مدينة مصر، وعمل عليه باباً فى ذى القعدة سنة ستين وثلاثمائة، وحفر خـندقاً فى وسـط مقـبرة مصر، وهو الخندق الذى حفره ابن جَحْدَم. ابتدأ حفره من بِرْكة الْحَبَش، حتى وصله بخندق عبد الرحمن بن جَحْدَم، حتى بلغ به قبر (محمد بن إدريس الشافعى)، ثم حفر من الجبل إلى أن وصل لخندق ابن جحدم وسط المقابر. وبدأ به يوم السبت التاسع من شوال سنة إحدى وستين وثلاثمائة،وفرغ منه فى مدة يسيرة ".

ملاحظات عامة على ما بقى من (سيرة جوهر) لابن زولاق:

أ- بدءاً من هذه السيرة يجب أن نلاحظ أن المؤرخ ابن زولاق يؤرخ لأحداث دولة العبيديين فى مصر، منذ دخلها جوهر، وحتى قرب وفاة ابن زولاق نفسه (بدايات عهد الحاكم ٣٨٧هـ). وهو باعتباره شيعياً مناصراً للعبيديين، فهو مهتم جداً بتسجيل أخبارهم يوماً بيوم. والملاحظ أنه لم يشارك فى استقبال جوهر عند قدومه إلى مصر، وهذا أمر طبيعى؛ لأنه لم يكن على رأس أعيان الأشراف العلويين[٣]، ولم يكن فى منزلة القاضى أبى طاهر الذُّهْلى، فهؤلاء مَثَّلوا وفد التفاوض نيابة عن شعب مصر، حتى حصلوا على أمان جوهر المشهور.

أمـا ابـن زولاق، فهو من رجالهم. ولذلك سأل ابن زولاق واحداً من أبرز مَنْ كانوا فى اسـتقبال جوهر (الشريف أبا جعفر مسلماً) عن مدى كثرة، وكثافة جند جوهر، وعن سن ذلك

---

(١) وردت فى النص (وامية)، والصحيح ما أثبتُّه، وأثبته النويرى فى (نهاية الأرب ١٣٢/٢٨). وقد ساق النويرى النص بطوله (صـ١٣١- ١٣٢)، ولم ينسبه لا إلى مصدره الأصلى (ابن زولاق)، ولا إلى مصدره الوسيط (اتعاظ الحنفا للمقريزى).

(٢) الخطط ٤٥٩/٢.

(٣) منهم: الشريف مسلم بن عبيد الله، وإبراهيم بن أحمد الرَّسِّى (المقفى ٣٧/١- ٣٨).

القائد، الذى يدخل مصر؛ ليحولها من المذهب السنى إلى الشيعى(١). وكانت الإجابة مثلجة صدره ولا شك؛ فالجند يشبهون كثافة وازدحام الحجيج يوم عرفة، والقائد ذو خبرة وحُنْكَة.

ب- اهـــتم ابـــن زولاق ببـــيان تفاصيل ما قام به جوهر يوماً بيوم، فذكر اهتمامه بتوزيع الصـــدقات علـــى المحتاجين صبيحة غداة يوم وصوله إلى مصر، وكذلك اهتم بذكر نص الدعاء المطوَّل، الذى قُرِئ من رقعة مكتوبة، وهو ما يعنى فرض توجهات الحكام الجدد منذ الأيام الأولى، التى وطئت أقدامهم فيها أرض مصر، ولم يكن خطيب الجمعة فى المسجد العتيق موجوداً، فخطب بديله وألبسوه البياض شعارهم(٢). وواضح من نص الدعاء أنه مملوء بالمغالطات. ولا شك أن ابن زولاق حرص على ذكره كاملاً؛ إيماناً بما فيه وإعجاباً، وتحيزاً لأصحابه.

ج- اهـــتم ابن زولاق بذكر تواريخ الأحداث (توقيت صلاة أول جمعة صلاها جوهر فى مصر، وكذلك توقيت العمل فى حفر الخندق؛ لمجابهة القرامطة، وإن لم يحدد - بالضبط - تاريخ الانـــتهاء من الحفر. ويلاحظ وعى ابن زولاق ببداية الخندق وخط سيره ومنتهاه؛ مما يدل على أنه يكتب عن معاينة ومشاهدة. وتلك ميزة يتميز بها عن غيره فى وصف تلك الأحداث.

٦- بقايا (سيرة المعز لدين الله) لابن زولاق*:

أ- " قـــال الفقيه الحسن بن إبراهيم بن زولاق (رحمه الله)، ومن خطه نقلتُ: "
حـــدثنى أحمد بن جعفر قال: كان القائم بأمر الله ﷺ يوماً فى مجلس أبيه المَهْدىّ جالساً بين يديه، وكان ابنه المنصور قائماً بين يَدَىْ جَدّه، فقال المهدى لابن ابنه المنصور: ايتنى بابنك، (يعنى: المعز لـــدين الله). فجـــاءت به دايتُه - وله سنة أو فوقها - فأخذه المهدى فى حِجْره وقَبّلَه، وقال لابنه

---

(١) وهو تحول فى التبعية من الخلافة العباسية إلى الدولة العُبيدية الوافدة من المغرب، تلك التى اتخذت التحول المذهبى أساساً لهذا التغيير.

(٢) سَمَّى النويرى الخطيب الأصلى للجامع العتيق(عبد السميع بن عمير العباسى).والصواب: عبد السميع بن عمر.وعلل النويرى عدم خطبة هذا الخطيب بتغيبه (نهاية الأرب ١٣١/٢٨).هذا،وقد أقدم العبيديون على الأذان بـــ(حَىَّ على خير العمل)فى مسجد ابن طولون يوم الجمعة ٨ من جمادى الأولى ٣٥٩هـــ.(الكامل ٣٠٩/٧-٣١٠،واتعاظ الحنفاــط.دار الفكر صـــ١٦٩).ثم أُذن بعده فى الجمعة التالية(١٥ من جمادى الأولى) بالجامع العتيق،وجُهر فى الصلاة بالبسملة. (نهاية الأرب للنويرى ١٣٣/٢٨). قد أخطأ النويرى لما جعل تاريخ تعديل الأذان فى مسجد ابن طولون فى ٨ من ربيع الآخر. وقد جعل المقريزى فى (اتعاظ الحنفا -ط. دار الفكر- صـــ ١٧٠) تعـــديـــل الأذان بالجامع العتيق ٢٦ من جمادى الأولى. وأعتقد أن المقريزى لم يكن دقيقاً لما جعل تعديل الأذان بالجامع العتيق فى ذلك التاريخ؛ لأنه لا يوافق يوم جمعة، وما دام التعديل حدث فى مسجد، فإنه يسرى مباشرة إلى المسجد الآخر فى الجمعة التالية. وبهذا غيّر وبدّل العبيديون فى الشعائر تدريجياً.

* لم أجمع من بقايا هذه السيرة إلا ما صرحت المصادر بنسبته إلى ابن زولاق فى (سيرة المعز). ولذلك استبعدت الإشارة إلى (نهاية الأرب ١٤٤/٢٨) فى وصف صلاة المعز عيد الفطر فى مصر فى شوال ٣٦٢هـــ؛ لأن النويرى صدَّر الرواية بـــ (قال ابن زولاق فى تاريخ مصر) رغم أنها تتفق مع المادة المأخوذة من (سيرة المعز) فى مصادر أخرى، ولعل النويرى نقلها باختصار؛ ذلك أنه قال: إنها فى (تاريخ مصر)، ولم يصرح أنها فى (سيرة المعز)، =

القائم بأمر الله: يا أبا القاسم، ما على ظهر الأرض مجلس أشرف من هذا المجلس، اجتمع فيه أربعة أئمـــة، يعنى المهدىُّ نفسه، وابنه القائم، وابن ابنه المنصور، وابن ابن ابنه المعز لدين الله. وزادنى أبو الفضـــل رَيْـــدان – (صاحب المظَلّة) – فى هذا الخبر أن المهدىَّ جمعهم فى دُوَّاج[١]، وقال: جمع رسول الله ﷺ معه ثلاثة أئمة فى كِساء سِوَى نَفْسه، وقد جمع هذا الدواج أربعة أئمة[٢].

قال ابن زولاق[٣]: ولما وصل المعز إلى قصره بمصر فى يوم الثلاثاء لخمس خلون من شهر رمضـــان سنة اثنتين وستين وثلاثمائة[٤]؛ خَرّ ساجداً، ثم صلى ركعتين، وصلى بصلاته كُلُّ مَنْ دخل معه. واستقر فى قصره بأولاده وحشمه، وخواص عبيده. والقصر – يومئذ – مشتمل على ما فيه من عَيْن ووَرِق (ذهب، وفضة)، وجوهر وحُلِىّ، وفُرُش وأوان، وثياب وسلاح، وأسْفاط وأعدال[٥]، وسروج ولُجُم[٦]. وبيت المال بحاله بما فيه، وفيه جميع ما يكون للملوك[٧].

وخرج غَدَ هذا اليوم – وهو يوم الأربعاء – جماعةُ الأشراف والقضاة، والعلماء والشهود،

= إمكانية خطئه فى النسبة للمصدر، ورغم احتمال تكرار الخبر فى كلا المصدرين. كذلك استبعدت الرواية التالية لها، والمصدرة بـــ (قال) العائدة على (ابن زولاق)، والتى تذكر عزل المعز جوهراً؛ لعدم تصريحه – كذلك – بنسبتها إلى (سيرة ابن زولاق). ولذا لا يصح ما ذكره عنان فى (مؤرخى مصر الإسلامية) صـــ٤١ من نسبة كتاب المعز المطول إلى الأعصم القرمطى إلى (سيرة المعز) لابن زولاق؛ لأن المقريزى لم ينسبه إليه (الاتعاظ – طبعة الفكر – صـــ٢٥١– ٢٦٥ ناقص الآخر،ويوجد هذا القسم الناقص فى(ط.المجلس الأعلى) صـــ٢٠٠– ٢٠٢). ويلاحظ – كذلك – أن النويرى صَدّره بقوله:(قال بعض المؤرخين). (نهاية الأرب ١٤٥/٢٨)، فلم أشر إليه كذلك، ولم أعتبر الكتاب داخلاً فى (سيرة المعز). وكذلك لا يصح ما ذكره عنان فى (مؤرخى مصر الإسلامية) صـــ٤٢ بشأن اعتبار ما ورد عن احتفال المعز يوم عرفة ٣٦٢هـــ فى مصر على أنه من (سيرة المعز)؛ لأن المقريزى لما أورد الخبر فى (اتعاظ الحنفا – ط.الفكر) صـــ١٩٣، وفى (ط.المجلس) صـــ١٤٠، التى صَوّب د.الشيال أحد الألفاظ بها، لم يذكر أنه فى (سيرة المعز).

(١) هو ضرب من الثياب، ويحسبه ابن دريد لفظاً غير عربى. داج يَدوج دَوْجاً. والدّاحة: ما صَغُر من الحوائج. والدُّوَّاج، والدُّوَاج: معْطَف غليظ (اللسان: مادة د.و.ج) ١٤٤٩/٢، والمعجم الوسيط ٣١٢/١).

(٢) اتعاظ الحنفا (ط.الفكر) صـــ ١٨٧.

(٣) ألحقت هذا النص بـــ (سيرة المعز)؛ لسياق الكلام قبله ومضمون الرواية، ولأن المقريزى نقل فى الخطط هذه الرواية، وصدَّرها بقوله: (قال الفقيه أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق فى كتاب (سيرة المعز) ٣٨٥/١.

(٤) مأخوذة من (الخطط) ٣٨٥/١ عن (هيئة جلوس الخليفة لمجلس المُلْك). ووردت فيه، وفى (الاتعاظ – ط.الفكر) صـــ١٨٧: لسبع. وهو تحريف. (راجع: وفيات الأعيان ٢٢٧/٥، واتعاظ الحنفا، ط.دار الفكر صـــ ١٨٦).

(٥) الأسفاط جمع سَفَط، وهو الوعاء يوضع فيه الطِّيب ونحوه من أدوات النساء، أو هو من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الفاكهة وغيرها. (المعجم الوسيط، مادة: س.ف.ط) جـــ١ صـــ٤٥٠. الأعدال جمع عِدْل. ولعله يقصد الجُوالق أو الغرارة التى هى عبارة عن وعاء من الخَيْش ونحوه، يوضع فيه القمح وغيره. (المرجع السابق، مادة: ع.د.ل جـــ٢ صـــ٦٠٩، ومادة: غ.ر.ر جـــ٢ صـــ٦٧٢).

(٦) سُروج: جمع سَرْج، وهو رَحْل الدابة. (السابق، مادة س.ر.ج) جـــ١ صـــ٤٤١. اللجم: جمع لِجام، وهو الحديدة فى فم الفَرَس، ثم أطلق على الحديدة وما يتصل بها من سُيور وآلة. (السابق، مادة: ل.ج.م) جـــ٢ صـــ٨٤٩.

(٧) اتعاظ الحنفا – ط.الفكر – ١٨٧– ١٨٨، والخطط ٣٨٥/١.

ووجوه أهل البلد، وسائر الرعية؛ لتهنئة المعز.

ولعشر خَلَوْنَ من رمضان، أمر المعز بالكتاب على المشايخ في سائر مدينة مصر: " خير الناس بعد رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ". وأُثبت اسم المعز لدين الله، واسم ابنه عبد الله الأمير. ووقّع المعز بيده إلى (محمد بن الحسين بن مهذب) - صاحب بيت المال -: " تقدمْ يـا محمـد بابتياعٍ لنا ولمولاك عبد الله في كل يومٍ من الفاكهة الرطبة واليابسة كذا وكذا بسعر الناس، ولا تُعَرِّف الرسولَ؛ لئلا تقع محاباة ولا مساهمة، وكذلك حوائج المطبخ "[١].

وللنصف منه[٢] جلس المعز في قصره على السرير الذهب، الذي عمله جوهر[٣] في الإيوان[٤] الجديـد، وأذن بدخول الأشراف أولاً، ثم بعدهم الأولياء، وسائر[٥] وجوه الناس، وجوهر قائم[٦] بـين يديه، يقدِّم الناس قوماً بعد قوم؛ ثم مضى جوهر[٧]، وأقبل بهديته التي عبأها[٨] ظاهرة يراها الـناس، وهي: من الخيل مائة وخمسون فرساً مسرجة ملجمة، منها مُذَهَّب، ومنها مرصَّع، ومنها مُعَنْبَـر. وإحـدى وثلاثون قبة على نوق بَخَاتي[٩] بالديباج والمناطق والفُرُش، منها تسع بديباج مـثقل، وتسـع نوق مجنوبة[١٠] مزينة بمثقل. وثلاثة وثلاثون بغلاً، منها: سبعة مسرجة ملجمة. ومائـة وثلاثـون غلاً للنقل، وتسعون نجيباً، وأربعة صناديق مشبكة يُرى ما فيها، وفيها أواني الـذهب والفضـة. ومائة سيف مُحَلَّى بالذهب والفضة، ودرجان من فضة مخرَّمة فيها جوهر، وشاشـية مرصـعة في غلاف، وتسعمائة ما بين سَفَط وتَخْت[١١]، فيها سائر ما أعَدّه له[١٢] من ذخائر مصر[١٣].

وأذن المعـز لابـنه (عـبد الله) في الجلوس في مجلسه، وحمل أبو جعفر مسلم بن عُبيد الله

(١) اتعاظ الحنفا - ط. الفكر - ١٨٨.
(٢) أي: من رمضان (الخطط ١/٣٨٥).
(٣) عبده القائد جهور (السابق).
(٤) الإوان، والإيوان: مجلس كبير على هيئة صُفّة واسعة، لها سقف محمول من الأمام على عَقْد، يجلس فيها كبار القوم. والجمع: أُون - وهي كلمة معربة. (المعجم الوسيط، مادة: أ.و.ن) جـ١ صـ٣٤.
(٥) ثم أذن بعدهم للأولياء ولسائر (الخطط ١/٣٨٥).
(٦) وكان القائد جوهر قائماً (المصدر السابق: ١/٣٨٥).
(٧) القائد جوهر. (السابق: ١/٣٨٥).
(٨) عباها (السابق).
(٩) البُخت: الإبل الخراسانية، مفردها: بُختيّ. والجمع: بَخَاتيّ، وبَخَاتي، وبخات. (المعجم الوسيط، مادة: ب.خ.ت) جـ١ صـ٤٢.
(١٠) أي: مَقودة (يقودها فارس). (لسان العرب، مادة: ج.ن.ب) جـ١ صـ٦٩١.
(١١) وعاء تُصان فيه الثياب. والجمع: تُخوت. (المعجم الوسيط، مادة: ت.خ.ت) جـ١ صـ٨٦.
(١٢) ما أعدّ له (السابق).
(١٣) اتعاظ الحنفا (ط.الفكر) صـ١٨٨ - ١٨٩، والخطط ١/٣٨٥.

الحسيني هديته، وهي: أحد عشر سَفَطاً من متاع تُونَة[١]، وتِنّيس ودمياط، وخيلاً وبغالاً، فقال: " كنتُ أشتهي أن يلبس منها المعز لدين الله ثوباً، أو يتعمم بالعمامة التي فيها، فما عُمل لخليفة – قط – مثلها ". وأذن المعز لجماعة بالجلوس في مجلسه، وأطلق جماعة المعتقلين من الإخشيدية والكافورية، الذين اعتقلهم جوهر، وعدَّتهم نحو الألف.

وقـــال المعز للقاضي أبي طاهر: كم رأيتَ من خليفة ؟ فقال: ما رأيت خليفة غير مولانا المعز لدين الله (صلوات الله عليه). فاستحسن ذلك منه على البديهة، مع علم المعز أن أبا طاهر رأى المعتضـــد، والمكتفي، والمقتدر، والقاهر، والراضي، والمتقي، والمستكفي، والمطيع. فشكره، وأُعجب بقوله[٢].

وركـــب المعز (لدين الله)[٣] يوم الفطر – لصلاة العيد – إلى مصلى القاهرة[٤]، التي بناها القائد جوهر. وكان محمد بن أحمد بن الأدرع الحسيني قد بَكَّر، وجلس في المصلى تحت القُبَّة، فجاء الخدم وأقاموه، وأقعدوا موضعه أبا جعفر مسلماً[٥]، وأقعدوه (هو)[٦] دونه. فكان[٧] أبو جعفر مسلم خلف المعـــز عن يمينه وهو يصلي، وأقبل المعز في زيه وبنوده وقبابه، وصلى بالناس صلاة العيد تامة طويلة، قـــرأ في الأولى بأمّ الكتاب، و(هل أتاك حديث الغاشية)، ثم كبّر بعد القراءة وركع فأطال، وسجد فأطـــال. قال ابن زولاق[٨]: أنا سبَّحْتُ خلفه في كل ركعة، وفي كل سجدة نيّفاً وثلاثين تسبيحة. وكان القاضي النعمان بن محمد يُبَلِّغ عنه التكبير. وقرأ في الثانية بأم الكتاب، وسورة (والضحى)، ثم كبّـــر – أيضـــاً – بعد القراءة، وهي صلاة جده عليّ بن أبي طالب عليه السلام[٩]. وأطال – أيضاً – في الثانـــية الـــركوع والســـجود، وأنا[١٠] سبّحتُ خلفه نيفاً وثلاثين تسبيحة في كل ركعة، وفي كل ســـجدة. وجهر بـــ (بسم الله الرحمن الرحيم) في كل سورة، وأنكر جماعة[١١] يتوسمون[١٢] بالعلم قـــراءته قبل التكبير؛ لقلة علمهم، وتقصيرهم في العلوم. (حدثنا محمد بن أحمد قال: حدثنا عمر بن

---

(١) جزيرة قرب تنيس ودمياط من فتوح عُمير بن وهب. يُضرب المثل بحسن ثيابها وطُرُزها. (معجم البلدان ٢/٧٣).
(٢) اتعاظ الحنفا (ط.الفكر) صـ ١٨٩- ١٩٠.
(٣) زيادة في (الخطط) ٤٥١/١.
(٤) الجامع الأزهر.
(٥) هكذا بالنصب على الصحيح كما ورد في (الخطط ٤٥١/١) بخلاف إبقاء د.الشيال لها دون نصب (الاتعاظ – ط.الفكر) صـ١٩٠.
(٦) زيادة في (الخطط): ٤٥١/١.
(٧) في السابق ٤٥١/١: وكان.
(٨) زائدة هنا في (الاتعاظ، ط.دار الفكر) صـ١٩٠.
(٩) زيادة في (الخطط): ٤٥١/١.
(١٠) أنا (المصدر السابق: ٤٥١/١).
(١١) جماعات (الخطط: ٤٥١/١).
(١٢) هكذا في (السابق)، وهو الصواب. وردت في (اتعاظ الحنفا، ط.الفكر) صـ١٩٠: يترسمون.

شـيبة، حدثنا عبد الله ورجاء، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن عليّ ﷺ: أنه كان يقرأ في صلاة العيد قبل التكبير)[١].

فلما فرغ من الصلاة صعد المنبر، وسلم على الناس يميناً وشمالاً، ثم نشر البنديْن[٢] اللذين كانا علـى المنبر، فخطب وراءهما (على رسمه)[٣]، وكان في أعلى درجة من المنبر وسادة ديباج مثقل، فجلـس عليها بين الخطبتين، واستفتح الخطبة بـ(بسم الله الرحمن الرحيم)، وكان معه على المنبر جوهـر، وعمَّـار بن جعفر، وشفيع (صاحب المظلة)، ثم قال: الله أكبر، الله أكبر، استفتح[٤] بذلك، وخطب وأبلغ، وأبكى الناس، وكانت خطبته[٥] بخضوع وخشوع.

فلمـا فرغ من خطبته انصرف في عسكره، وخلفه أولاده الأربعة بالجواشن والخُوَذ[٦]، على الخـيل بأحسـن زى، وسـاروا بين يديه بالفيلْين. فلما حصل في قصره، أحضر الناس، فأكلوا ونشَّطهم إلى الطعام، وعَتَبَ على مَنْ تأخَّر، وتَهدَّد مَنْ بلغه عنه صيامُ العيد"[٧].

ج- "ومن أحسن السياسات في النداء على النيل ما حكاه الفقيه ابن زولاق في " سيرة المعز لدين الله"[٨].

" قال: وفي هذا الشهر – يعني: شَوَّال – سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، منع المعز لدين الله من الـنداء بزيادة النيل، وألا يُكتب بذلك إلا إليه، وإلى القائد جوهر.فلما تَمَّ، أباح النداء، يعني:لما تَمّ ست عشرة ذراعاً، وكُسر الخليج "[٩].

د- " قال ابن زولاق في كتاب (سيرة المعز لدين الله):

وفي ذى القعـدة – يعني من سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وهي السنة التي قدم فيها الخليفة المعـز لدين الله إلى القاهرة من بلاد المغرب – ركب المعز لدين الله ﷺ لكسر خليج القنطرة،

---

(١) زيادة بـ (الخطط) ١/٤٥١.
(٢) ستر بالسترين (السابق)، وهو أصح.
(٣) زيادة في (السابق).
(٤) واستفتح (السابق).
(٥) خطبة (السابق).
(٦) بالدال في (الخطط). (السابق). جمع جَوْشَن، وهي الدِّرْع. (المعجم الوسيط، مادة: ج.و.ش.ن) ١/١٥٣. والخُوَذ جمع خُوذَة، وهي غطاء الرأس في الحرب (المرجع السابق، مادة: خ.و.ذ) ١/٢٧٠.
(٧) اتعاظ الحنفا (ط.الفكر) صـ١٩٠- ١٩١، والخطط ١/٤٥١.
(٨) في (المصدر السابق)١/٦٢: سيرة العزيز لدين الله. وهذا خطأ ظاهر. وذكر المقريزى مضمونه بإيجاز دون نسبته إلى ابن زولاق (اتعاظ الحنفا، ط.دار الفكر) صـ١٩١.
(٩) راجع تعليق المقريزى البديع على فوائد إخفاء مقدار ارتفاع مياه النيل عن عوام الناس، وأن ذلك من حسن السياسة الاقتصادية (المصدر السابق: صـ١٩١). ورد في (الخطط) للمقريزى جـ١ صـ٩٥: أن ماء النيل إذا بلغ ارتفاعه أكثر من ست عشرة ذراعاً إصبعاً واحداً، قالوا: كسر الخليج. بمعنى: فُتحت الترع، ففاض الماء، وغمر الأراضى.

فكُسر بين يديه، ثم سار على شاطئ النيل، حتى بلغ إلى بنى وائل، ومَرَّ على سطح الجُرْف[(١)] فى موكب عظيم، وخلفه وجوه أهل الدولة، ومعه أبو جعفر أحمد بن نصر، يسير معه، ويُعرّفه بالمواضع التى يجتاز عليها. وبجعت له الرعية بالدعاء. ثم عطف على بِرْكة الحَبَش[(٢)]، ثم على الصحراء، على الخندق الذى حفره القائد جوهر. ومر على قبر كافور، وعلى قبر عبد الله بن أحمد بن طباطبا الحَسَنىّ، وعرّفه به، ثم عاد إلى قصره "[(٣)].

هـ- وقال ابن زولاق:

" وفى يوم ثمانية عشر من ذى الحجة سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وهو يوم الغَدير، تَجَمّع خلق من أهل مصر والمغاربة، ومن تبعهم للدعاء؛ لأنه يوم عيد؛ لأن رسول الله ﷺ عهد إلى أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فيه، واستخلفه. فأعجب المعزَّ ذلك من فعلهم.وكان هذا أول ما عُمل بمصر[(٤)].

و- وقال ابن زولاق فى كتاب (سيرة الإمام المعز لدين الله)، ومن خطه نقلتُ:

وفى هذا الشهر، يعنى: المحرمَ سنة ثلاث وستين وثلاثمائة: تبسطت المغاربة فى نواحى القرافة والمَعَافر وما قاربها، فنزلوا فى الدُّور، وأخرجوا الناس من دورهم، ونقلوا السكان، وشرعوا فى السكنى فى المدينة، وكان المعز قد أمرهم أن يسكنوا أطراف المدينة. فخرج الناس، واستغاثوا بالمعز، فأمرهم أن يسكنوا نواحى عين شمس، وركب المعز بنفسه حتى شاهد المواضع، التى ينزلون فيها، وأمر لهم بمال يبنون به، وهو الموضع الذى يُعرف - اليوم - بالخندق، والحفرة، وخندق العبيد. وجعل لهم والياً، وقاضياً. ثم سكن أكثرهم بالمدينة مخالطين لأهل مصر، ولم يكن القائد جوهر، يبيحهم سكنى المدينة، ولا المبيت بها، وحظر ذلك عليهم، وكان مناديه ينادى كل عشيّة: لا يبيتنَّ أحد فى المدينة من المغاربة[(٥)].

ز- قال ابن زولاق فى كتاب (سيرة المعز لدين الله):

فى يوم عاشوراء من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، انصرف خلق من الشيعة وأشياعهم إلى المشهدين: قبر كلثوم، ونفيسة. ومعهم جماعة من فرسان المغاربة ورَجّالتهم بالنياحة والبكاء على

---

(١) الجُرْف: شق الوادى إذا حفر الماءُ فى أسفله. والجمع: أجراف، وجِرَفَة (المعجم الوسيط، مادة: ج.ر.ف) جـ١ صـ١٢٣.

(٢) أرض منخفضة واسعة مشرفة على نيل مصر خلف القرافة، تُزرع فتكون جنة خضراء، وهى من أعظم متنزهات مصر. (معجم البلدان ١/٤٧٧).

(٣) الخطط ١/٤٧٠.

(٤) السابق ١/٣٨٩. وورد ذلك النص فى (اتعاظ الحنفا، ط.دار الفكر) صـ١٩٤- ١٩٥، مختصراً دون نسبة لابن زولاق.

(٥) الخطط ٢/١٣٨.

الحسين ﷺ، وكسروا أوانى السقّائين فى الأسواق، وشقّقوا الرّوايا[١]، وسبُّوا من ينفق فى هذا اليوم، ونزلوا حتى مسجد الريح. وثارت عليهم جماعة من رعية أسفل؛ فخرج أبو محمد الحسن[٢] بن عمار، وكان يسكن هناك فى دار محمد بن أبى بكر، وأغلق الدرب، ومنع الفريقين، ورجع الجميع. فحَسُنَ موقع ذلك عند المعز، ولولا ذلك لعظمت الفتنة؛ لأن الناس قد غلّقوا الدكاكين وأبواب الدور، وعطلوا الأسواق، وإنما قويت أنفُسُ الشيعة؛ بكون المعز بمصر، وقد كانت مصر لا تخلو منهم فى أيام الإخشيدية والكافورية فى أيام عاشوراء عند قبر كلثوم، وقبر نفيسة. وكان السودان وكافور يتعصبون على الشيعة، وتتعلق السودان فى الطرقات بالناس، يقولون للرجل: مَنْ خالُك ؟ فإن قال: معاوية، أكرموه. وإن سكت لقى المكروه، وأُخذتْ ثيابه وما معه، حتى كان كافور قد وكّل بالصحراء، ومنع الناس من الخروج "[٣].

ح- قال ابن زولاق فى كتاب (سيرة المعز)، ومن خطه نقلتُ:

"ولست عشرة بقيت من المحرم، يعنى من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، قلّد المعز لدين الله الخراج، ووجوه الأموال، وسائر الأعمال فى أرض مصر، أبا الفرج يعقوب بن يوسف بن كلّس الوزير، وعُسلوج بن الحسن، وكتب لهما بذلك سجلاً، قُرئَ يومَ الجمعة على منبر جامع ابن طولون، فاستغضبا فى الطلب واستخراج الأموال، فكان يُستخرج فى اليوم نيّف وخمسون ألف دينار مُعزّيّة. وكان صرف الدينار المُعزّىّ خمسةَ عشر درهماً ونصفاً".

وحدثنى عسلوج بن الحسن: أنه استخرج للمعز فى يوم مائة وعشرين ألف دينار معزية.

وحدثنى ابن السرى كاتب عسلوج: " أنه حَصّل فى يوم واحد من مال تنيس ودمياط والأشمونين[٤] أكثر من مائتى ألف دينار، وعشرين ألف دينار، وهذا مما لم يُسمع بمثله قطُّ فى بلد "[٥].

---

(١) الرَّوايا: جمع الراوية، وهى المَزادة فيها الماء. ولعل المقصود: مزّقوا قِرَب الماء. (المعجم الوسيط، مادة: ر.و.ى) جـ١ صـ٣٩٧.

(٢) ورد بلفظ الحسين، وهو تحريف.(راجع: اتعاظ الحنفا - ط.المجلس - جـ٢/٥- ١٣).

(٣) المصدر السابق (ط.المجلس): ١/ ٤٣٠- ٤٣١.

(٤) سمّاها ياقوت (أُشمون)، وهى مدينة قديمة عامرة بأهلها، وقصبة كورة الأشمونين غربى النيل بصعيد مصر، ذات بساتين ونخيل كثير. (معجم البلدان ١/٢٣٧- ٢٣٨). ولعلها قرية من قرى مركز ملوى بمديرية أسيوط حديثاً. (القاموس الجغرافى) لمحمد رمزى، القسم الثانى، الجزء الرابع صـ٦٠.

(٥) الفضائل الباهرة ١٢٧- ١٢٨. وردت هذه الرواية بما يقارب هذا فى (الخطط) ٢/٢٦٩، وبإيجاز فى (المصدر نفسه) ١/٨٢.

ط- وقال ابن زولاق:

وفى هـــذه السنة - يعنى سنة ثلاث وستين وثلاثمائة - منع أمير المؤمنين المعز لدين الله من وقود النيران ليلة النَّوْرُوز[١] فى السِّكك، ومِنْ صَبِّ الماء يوم النوروز[٢].

ى- قال ابن زولاق فى كتاب (سيرة المعز لدين الله أبى تميم مَعَدّ):

ولأربـــع خلون من ذى القعدة - يعنى ثلاثة وستين وثلاثمائة - وصل ابن النابُلُسىّ، وأبو المنجِّى، وابنه، وعشرون رجلاً من القرامطة، فطيف بهم على الإبل بالبرانس والقيود. وكان ابن النابلســـى ببُرْنُس[٣] مُقيَّداً على جمل، وخلفه رجل يمسكه، والناس يَسُبُّونه ويشتمونه، ويَجُرُّون بـــرجله مـــن فوق الجمل، واشتغلوا بسبّه عن الذين كانوا معه. فلما فرغ التَّطْواف ورُدُّوا إلى القصـــر، عُدل بأبى المنجى وابنه ومَنْ معهما من القرامطة إلى الاعتقال، وعُدل بابن النابلسى[٤] إلى المنظـــر؛ ليُسْلَخَ. فلما علم بذلك رمى نفسَه على حجارة ليموت، فرُدَّ وحُمل على الجمل، فعـــاد ورمى نفسه، فرُدَّ وشُدّ، وأُسرع به إلى المنظر، فسُلِخَ وحُشِىَ تبناً، ونُصبتْ جثته وجِلْده على الخشب عند المنظر[٥].

ك- وقال (أى: ابن زولاق):

فى ســـنة أربع وستين (أى: وثلاثمائة)، وفى يوم النوروز زاد اللعب بالماء، ووقود النيران، وطـــاف أهـــل الأسواق، وعملوا فيه، وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم، ولعبوا ثلاثة أيام، وأظهروا السَّماجات (القبائح) والخلى فى الأسواق، ثم أمر المعز بالنداء بالكف، وألا تُوقَد نار، ولا يُصَبّ ماء. وأُخذ قوم، فطيف بهم على الجمال[٦].

ل- قال ابن زولاق:

ولأربع خلون من صفر (أى: سنة ٣٦٥هـــ) ورد حاجّ البَرّ، وقد كان البر أقام سنين لم يُسلك[٧].

---

(١) من المواسم الفارسية القديمة التى يُحتفل بها فى بداية الربيع. وقد أبطله المسلمون حتى أعاده العباسيون ثانية. واحتفل فى مصر بالنوروز القبطى فى عهد الفاطميين. (السابق: ٤٩٣/١). وورد فى (المعجم الوسيط، مادة: ن.ورز.ر)حـــ٢ صـــ١٠٠٠- ١٠٠١: أنه يعرف بالنيروز فى الفارسية بمعنى: اليوم الجديد. وهو أول يوم من أيام السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق الحادى والعشرين من مارس، وهو أكبر الأعياد القومية للفرس.

(٢) الخطط: ٢٦٨/١، ٤٩٣.

(٣) كل ثوب رأسه منه ملتزق به. والجمع: برانس. (المعجم الوسيط، مادة: ب.ر.ن.س) حـــ١ صـــ٥٤.

(٤) هو أحمد بن سهل بن نصر، وأبو بكر الرَّمْلى. يعرف بـــ (ابن النابلسى). كان عبداً صالحاً عالماً زاهداً، سجنه بنو عُبيد وصلبوه؛ لدفاعه عن السنّة، وتصريحه ببغضهم، وإعلانه أن قتالهم واجب. هرب من الرملة إلى دمشق، فقبض عليه، وأرسل إلى مصر. (معجم البلدان، مادة: نابلس) حـــ٥ صـــ٢٨٨- ٢٨٩. (ويلاحظ قوله: قبض عليه والى دمشق أبو محمد الكتانى صاحب العزيز. والصواب: أنه صاحب أبى تميم المعز).

(٥) المقفى ١٧٧/٥- ١٧٨. (٦) الخطط ٢٦٨/١، ٤٩٣.

(٧) اتعاظ الحنفا (ط.المجلس الأعلى) ٢٢٧/١.

قال ابن زولاق فى كتاب (سيرة المعز):

وفى شهر صفر من سنة خمس وستين وثلاثمائة، أنشئ ســـوق الشرايحيين بالقاهرة[١]. وفيه (أى: فى صفر من ذلك العام) حضر علىّ بن النعمان القاضى جامع القاهرة، وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت، ويُعرف هذا المختصر بـــ (الاقتصار). وكان جمعاً عظيماً.

وفى ربيع الآخر وردت رسالة القرامطة بأنهم فى الطاعة.

وفيه أذن المعز لجماعة المصريين، فدخلوا عليه، وخاطبهم – وهو على سرير الملك – فصاح بـــه رجل منهم: " يا أمير المؤمنين، قال الله ﷻ: " **وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَـــاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ. ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ** "[٢]". يا أمير المؤمنين، لننظر كيف تعملون. قال: صدق الله، كذا قال ﷻ، ونسأل الله التوفيق.

واعـــتلّ المعـــز لثمان خلون من ربيع الأول، فأقام ثمانية وثلاثين يوماً، ووُصف له البطّيخ البرلسى يؤخذ ماؤه، فطُلب بمصر فلم يوجد سوى واحدة اشتريت بخمسة دنانير، ثم وجد منها ثمـــانى عشـــرة بطيخة، اشتُرِيَتْ بثمانية عشر ديناراً. وكان الناس يَغْدون إلى القصر ويروحون، والذى يُمَرِّضُه طبيبه (موسى بن العازار)، وعبده جوهر.

فلمـــا كـــان لأربع عشرة بقيت من ربيع الآخر، اشتدت العلة، وعُرِّف باجتماع الناس، وكثـــرة الرِّقاع فى الظُّلامات والحوائج، وسُئل فيمن ينظر فى ذلك، فأمر أن ينظر فيه ولى عهده نزار فاستخلفه، وخرج للسلام إلى الناس، فانصرفوا.

وخـــرج القائـــد جوهر وموسى بن العازار الطبيب بالعزيز فأجلسوه، وخرج إليه إخوته وعمومـــته وسائر أهله فبايعوه، ثم أُدخل إليه أكثر الأولياء، فبايعوه وسلّموا عليه بالإمرة وولاية العهد، فابتهج الناس بذلك.

ودخل عليه من الغد القاضى أبو طاهر، وجماعة من الشهود والفقهاء، فسلّموا عليه بولاية العهـــد، وقَبّلوا له الأرض، فردَّ عليهم أحسن رَدّ، وأخبرهم بأن المعز بخـــير، قال: " مولانا – صلوات الله عليه – فى كل عافية وسلامة فى أحواله، وفى رأيه لكم ". وانصرَفوا.

---

(١) الخطط ٢/١٠٠. سماها المقريزى بـــ (سوق الشوّايين)، وذكر أنها أول سوق وضعت بالقاهرة، وكانت تعرف بـــ (سوق الشرايحيين)، وكانت تمتد من باب حارة الروم إلى سوق الحلاويين. ثم لما سكنه بعض بائعى الشواء حوالى سنة ٧٠٠هـــ، عرف السوق بهم، وانتقل سوق الشرايحيين – زمن المقريزى – إلى خارج باب زويلة، وعُرف بـــ (البسطيين).

(٢) سورة يونس: الآيتان ١٣- ١٤.

وكان يوم جمعة، فدعا له عبد العزيز بن عمر العباسى على منبر الجامع العتيق بعد أن دعا للمعــز، فقال: " اللهم، صَلِّ على عبدك ووَلِيِّك، ثمرة النبوة، ومَعْدن الفضل والإمامة، عبد الله مَعَدّ أبى تميم الإمام المعز لدين الله، كما صليتَ على آبائه الطاهرين، وأسلافه المنتَخَبين من قبله. اللهم، أعِنْه على ما وليّته، وأنجزْ له ما وعدتَه، وَملِّكْه مشارق الأرض ومغاربها، واشدُد – اللهم – أزره، وأعِزَّ نصره بالأمير نِزار أبى المنصور وَلِيِّ عهد المسلمين، ابن أمير المؤمنين، الذى جعلتَه القائم بدعوته، والقائم بحجته. اللهم، أصلح به العباد، وَمَهِّدْ لديه البلاد، وأنجِزْ له به ما وعدتَه، إنك لا تُخلف الميعاد ".

وتوفى المعز لدين الله عشيّةَ هذا اليوم ليلة السبت السادس عشر من شهر ربيع الآخر. وقيل: يــوم الجمعة حادى عشر، وقيل: ثالث عشر. و لم يظهر ذلك، ولا نطق به أحد مدة ثمانية أشهر. وقيل: إن السيدة – لما اشتدت علة المعز – أحضرت القائد جوهراً[١]، وهو ملتفٌّ فى بُرْد من. . . وحضــر يعقوب بن يوسف بن كلِّس، وعُسْلُوج القائد، وأفلح الناشب، وطارق الصقلبى، فقالوا للمعــز: نريد أن تبصرنا رشدَنا، وتُعْلمنا لمن الأمر. فلم يُجبهم، فقال له جوهر: قد كنتُ سمعتُ مــنك قولاً فى هذا، استغنيتُ به عن إعادة السؤال، غير أنهم أكرهونى على الدخول. وقال لهم: قابلــتمونى بما لا يجب. وبكى، فخرجوا. فلما كان اليوم الثالث مات، فصار العزيز إذا رُفعت إليه الأمور يدخل كأنه يشاوره، ويخرج بالأمر.

ـ قال ابن زولاق:

وكان – يعنى المعز – فى غاية الفضل والاستحقاق للإمامة، وحسن السياسة. وكان مولده سنة تسع عشرة وثلاثمائة، أدرك من أيام المهدى جَدِّ أبيه أربع سنين، وتوفى القائم، وللمعز ست عشــرة ســنة. واجــتَمع للمعز بمصر ما لم[٢] يجتمع لآبائه، وذلك أنه حصل له بالمغرب أربعة وعشرون بيتاً من المال، منها: أربعة عشر خَلَّفها المهدى، و لم يُخَلِّف القائم عليها شيئاً، وخَلَّف المنصور بيتاً واحداً وكسوة، وأضاف إليها المعز تسعة، فصارت أربعة وعشرين بيتاً، أنفق أكثرها على مصر إلى أن فُتحت ودخلها، وحصل له من مال مصر أربعة بيوت سوى ما أنفقه، وسوى ما قدم به معه. واجتمع له أن خلفاءه بمصر استخرجوا له ما لم يُستخرج لأحد بمصر، فاستُخرج له فى يوم واحد مائة ألف دينار، وعشرون ألف دينار.

وهُــزمت القــرامطة فى أيامه أربع مِرار: مرتين فى البر على باب مصر، ومرتين فى

(١) وردت غير منصوبة فى(اتعاظ الحنفا – ط.المجلس الأعلى):١/٢٢٩، وهو خطأ نحوى.

(٢) وردت هكذا فى (اتعاظ الحنفا، ط.المجلس الأعلى ١/٢٣٠): لا. هذا تحريف.

البحر، وما تم عليهم هذا قط، منذ ظهر أمرهم. وأقيمت له الدعوة يوم عرفة فى مسجد إبراهيم ﷺ، وبمكة والمدينة، وسائر أعمال الحرميْن، و لم تُرَدّ له راية.

وســـار ابن السميسق ملك الروم إلى ريّان عبد المعز - وهو بطرابلس - فانهزم، وأُخذت غنائمه، وأسر رجاله. وكُتب اسمه على الطُرُز بتنِّيس، ودمياط، والقيس، والبهنسى قبل أن يملك مصر. وتتابعت له الفتوح. ودُعِى لفاطمة ولعليّ - عليهما السلام - فى أيامه على المنابر فى سائر أعمالـــه، وفى كـــثير من أعمال العراق. ونُصبت الستائر على الكعبة وعليها اسمه. ونُصبت له المحاريب: الذهب، والفضة داخل الكعبة، وعليها اسمه. وكاتبه أهل العراق، وأهل اليمن، وأهل خراسان، وأهل الحرميْن، والترك بالخلافة.

وكـــان على التجهز للمسير للحج، ثم إلى قسطنطينية للجهاد. وكان مقامه بمصر سنتين، وسبعة أشهر، وعشرة أيام[١].

قـــال مصنفه - رحمة الله عليه - : ليس الأمر كما قال ابن الأثير، **فقد حكى الفقيهُ الفاضل المؤرخ أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق المصرى فى كتابه: (سيرة المعز) - وقد وقفتُ عليها بخطه - رحمه الله -** أخبارَ المعز منذ دخل مصر إلى أن مات يوماً يوماً، وأن المعز إنما عهد لابنه يوم الخميس لأربع عشرة بقيت من شهر ربيع الآخر قبل موته بيومين، وذكر أن سبب العهد إليه اجتماع الناس بباب القصر وكثرة الرقاع، وأنه سئل فيمن ينظر فى ذلك، فأمر ابنه نزاراً العزيز أن ينظر فيه فاستخلفه. وقد ذكرتُ ملخص هذه السيرة فيما مر من أخبار المعز، وأن ابـــن زولاق أعـــرف بأحوال مصر من ابن الأثير خصوصاً المعز، فإنه كان حاضراً ذلك، ومشاهداً له، وممن يدخل إليه، ويُسَلِّم مع الفقهاء عليه، ويروى فى هذه السيرة أشياء بالمشاهدة، وأشـــياء حَدَّثه بها ثقات الدولة وأكابرها، كما هو مذكور فيها، إلا أن ابن الأثير تبع مؤرخى العراق والشام فيما نقلوه. وغير خافٍ على مَنْ تَبَحّر فى علم الأخبار كثرةُ تَحاملهم على الخلفاء الفاطمـــيين، وشـــنيع قولهم فيهم. ومع ذلك، فمعرفتهم بأحوال مصر قاصرة عن الرتبة العليّة، فكـــثيراً مـــا رأيـــتُهم يحكون فى تواريخهم عن أخبار مصر مالا يرتضيه جهابذة العلماء، ويَرُدُّه الحُـــذّاق العالمون بأخبار مصر. وأهل كل قطر أعرف بأخباره، ومؤرخو مصر أدرى بماجرياته، وفوق كل ذى علم عليم[٢].

---

(١) اتعاظ الحنفا (ط.المجلس الأعلى) حـــ١ صـــ٢٢٧- ٢٣١.

(٢) هذا تعليق المقريزى (السابق: ١/٢٣٢). وعلق د.الشيال بالهامش بقوله: " هذه نظرية نقدية هامة للمؤلف - المقريزى - للمراجع التى أرَّخت للفاطميين ". راجع ما نقله ابن الأثير من روايات تَشين المعز (الكامل) حـــ٧ صـــ٣٦٠- ٣٦١.

ملاحظات عامة على بقايا (سيرة المعز) لابن زولاق:

أ- يلاحظ أن بقايا كتاب (سيرة المعز لدين الله) لابن زولاق مؤرخ مصر كبيرة، ولا شك أن ما ضاع منها أكبر وأكبر. فمن طريقة عرضها يتضح أن صاحبها كان يؤرخ لعهد المعز يوماً بيوم، على حد تعبير المقريزى، وقد رأى الكتاب، ونقل عن خط مؤلفه ابن زولاق. والحق أنه كتاب ضاف، لكنى لا أعتقد أنه أُلِّف بتكليف رسمى من جوهر(١)؛ لأن إعجاب ابن زولاق بالدولة العبيدية، وبالمعز خاصة كما سنرى، وحاسته التاريخية تجعله يدرك أهمية استكمال التأريخ لعصره، خاصة إذا كان عهد المعز هو محور الانقلاب الحاصل فى تاريخ مصر ومصائرها(٢). لقد أحسن ابن زولاق إعداد العدة، وكان على قرب من الأحداث، يسجل تاريخها عن كثب، وهو أعرف بأحوال بلده وعصره من غيره.

ب- من ملامح بقايا كتاب ابن زولاق نلمس نغمة الإعجاب والانبهار، التى يبديها ابن زولاق به. ورغم أن المعز قدم لدولته خدمات جليلة (يكفيه أنه فُتحت مصر فى عهده، واتسعت ممتلكاته شرقاً وغرباً)، إلا أن رواية ابن زولاق يؤخذ عليها شئ من المبالغة كقوله عن نبوءة المهدى بفتح المعز مصر، وأنه سيتم على يديه ما لم يتم على أيدى آبائه، وما ألمح إليه المهدى - والمعز لا يزال فى المهد رضيعاً تحمله دايته - أنه سيكون خليفة، وأن الكساء الذى دخل تحته المهدى وأبناؤه، يفوق مَنْ دخلوا تحته مَنْ أدخلهم الرسول تحت كسائه.

ونلمح التجاوزات والمبالغات - أيضاً - فى أرقام الخراج، وما استخرج من الأموال فى أيام قليلة فى عهد المعز، إلى جانب أن يقال: إن العزيز أخفى خبر وفاة والده شهوراً طويلة، فذلك ما لا بد أن يكشف عنه، ولا سبيل لإخفائه تلك المدة الطويلة.

ج- يُحسب لابن زولاق اهتمامه بتحديد التواريخ بدقة، فكتابه أشبه باليوميات والمذكرات التاريخية، التى يسجلها صاحبها يومياً. وقد ساعده على ذلك معاصرته للأحداث وقربه من رجال الدولة ومشاركته فيما يحكى لنا عنه (مثل: وصفه صلاة عيد الفطر للمعز، وقد كان حاضراً تلك الصلاة، حتى عَدَّ خلف المعز نيفاً وثلاثين تسبيحة فى كل مرة من: ركوعه، وسجوده على مدار الركعتين).

د- كشفت بقايا هذا الكتاب عن عمق وتأصل اهتمام ابن زولاق بالنواحى الحضارية، كالمظاهر الاجتماعية ممثلة فى المواكب والمراسم والاحتفالات، وتقاليد الجلوس فى مجلس الملك،

---

(١) عنان: مؤرخو مصر الإسلامية صـ٤٣.

(٢) المرجع السابق صـ٤٣، ومقالة عنان فى (ملحق جريدة السياسة اليومية) صـ٩ (تاريخ ١٩٣٢/٩/١٧م).

وبـروتوكولات وتـرتيبات المجلس فى أثناء خطبة الجمعة للمعز، وفى الصلاة. لمست روايات الكـتاب مقـدار الثراء الفاحش الذى كان عليه القادة وحكام العبيديين من خلال استعراض هـدايا المعـز وجوهـر المتبادلة. وكذلك تعرض مؤرخنا لبيان تطور العلاقات الاجتماعية بين الشعب المصرى من جهة، والجند المغاربة الوافدين فى جيوش جوهر والمعز من جهة أخرى، وما شـابها من تغير وتطور دفع ثمنه عامة الناس من أموالهم وأعراضهم وديارهم ودمائهم. كما أبرز ابـن زولاق أهـم ما اتسمت به الدولة العبيدية فى مصر من كثرة الأعياد والاحتفالات، وما يشوب ذلك من انحرافات جسيمة خطيرة، يضطر – مع تزايد معدلاتها والإغراق فيها – المعزُّ إلى الحد منها، لكنها ما تلبث أن تعود كما (فى الاحتفال بيوم عاشوراء على طريقة الشيعة المنحرفة، ويوم وليلة النيروز).

هـ- وكشف ما بقى من الكتاب عن محاولات المعز الجدية للحفاظ على قوة الدفع الاقتصادية، وعدم التسبب فى ارتفاع الأسعار، أو الاحتكار من خلال كتمان مقدار ارتفاع مياه النيل.

و- وأخـيراً، أعطانـا صورة حية لما تبذله الدولة الشيعية فى مصر من صبغ الحياة العلمية والدينية بالصبغة الشيعية الإسماعيلية، وذلك من خلال مجالس الدعوة، وما يمليه على بن النعمان سنة ٣٦٥هـ من مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت، وذلك من كتاب (الاقتصار)، فى جامع القاهرة (الأزهر)، وفى حضور جمع عظيم من الناس (حضروا – فى اعتقادى – عن جهل ومجاراة للأوضاع، أو رهبة ومداراة للحكام).

٧- وأخيراً، بقايا (سيرة العزيز بالله) لابن زولاق:

أ- " **وحـدَّث ابـن زولاق** فى كتاب (سيرة العزيز) المتغلِّب على مصر، المنتسب إلى العلـويين، مـن تصنيفه، حاكياً عن نفسه، قال: لما خُلع على الوزير يعقوب بن كِلِّس، وكان يهودياً فأسلم، وكان مكيناً من العزيز. فلما أسلم، قلَّده وزارتَه، وخلع عليه.

قال ابن زولاق: وكنتُ حاضراً مجلسه، فَقُلتُ: أيها الوزيـرُ، روى الأعمش، عن زيد ابن وهب، عن عبد الله بن مسعود، أنه قال: حدثنى الصادق رسول الله ﷺ: " أن الشقى مَنْ شـقِىَ فى بطـن أمه، والسعيدَ مَنْ سَعِدَ فى بطن أمه ". وهذا عُلُو سَماوىّ. فقال الوزير: ليس الأمـرُ كـذلك، وإنمـا أفعالى وتوفيراتى وكِفايتى، ونيابتى ونيَّتى وحرصى، الذى كان يُهْجَى ويُعاب. وقد مات قوم ممن كان وبقى قوم. وكان هذا القول بحضرة القوم الذين حضروا قراءة السـجل، الذى خرج من العزيز فى ذكر تشريفه. قال ابن زولاق: فأمسكتُ، وقلتُ: وفَّق الله الأمـير، إنمـا رَوَيْـتُ عن رسول الله ﷺ حديثاً صحيحاً. وقمتُ، وخرجتُ وهو ينظر إلىَّ.

وانصـــرف الوزيـــر إلى داره بمـــا حباه العزيز به. قال: فحدثنى أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الحســـينى الـــزينبى قال:عاتبتُ الوزير على ما تكلم به، وقلتُ: إنما روى حديثاً صحيحاً بجميع طرقه، وما أراد إلا الخيرَ.فقال لى:خَفِىَ عنكَ، إنما هذا مثلُ قول المتنبئ:

ولله ســـرٌ فى عُـــلاك وإنما كلامُ العـــدَى[1] ضَرْبٌ من الهَذَيـــانِ

وأجمـــع الناسُ على أن ذلك هَجْوٌ فى كافور؛لأنه أعْلَمَه أنه تقدم بغير سبب.وابن زُولاق هجـــانى على لسان صاحب الشريعة ﷺ، فما أمكننى السكوت. وكان فى نفسى شئ، فجعلتُ كلامـــه سبباً.قال أبو عبد الله الزينبى:فأشهد أن الوزير لم ينقض يومه، حتى تكلم بمثل كلامى، الذى أوردتُه عن النبى ﷺ، وذلك أن رجلاً عرض عليه رقعة، فقال:كم رِقاعٍ، كم حَرِصٍ هو ذا الـــرجلُ، يطوف البلدان، ويتقلَّب فى الدول، ويسافر فلا ينجح، وآخر يأتيه أملُه عَفْواً، قد فرغ الله مـــن الأرزاق والآجـــال والمـــراتب، ومن الشقاوة والسعادة.ثم التفت إلىَّ وضحك، وقطع كلامه.قال ابن زولاق:وكنتُ هنأتُ ابن رشيق بهذه التهنئة، فى مجلس عظيم حَفْلٍ، حين جاءته الخلـــع من بغداد، والتقليدُ وألبسوه. ورويتُ له هذا الخبر، فبكى وشكر، وحسدنى على ذلك أكثر الحاضرين، وكافأنى عليه أحسن مكافأة[2].

ب- **قال شيخنا المقريزى** (عليه رحمة الله تعالى): وقد عاينتُ أنا فى (سيرة العزيز بالله): أن حسين بن القاسم، وعلى بن عمر بن العداس، وعبد الله بن خلف الرصدى استخرجوا له فى ثلاثة أيام مائتى ألف دينار، وعشرين ألفاً عزيزية، منها: أول يوم أربعة وستون ألفاً، والباقى فى يومين، وذلك فى سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، بعد قبضه على وزيره (يعقوب بن كلس)[3].

ملاحظات عامة على (بقايا سيرة العزيز) لابن زولاق:

أ- مـــن الملاحـــظ أن صاحب (معجم الأدباء) ممن لا يعترفون بنسب العُبيديين المدَّعى، ولا بخلافتهم المزعومة؛ بدليل قوله فى التقديم للنص، الذى اقتبسه والذى احتفظ لنا به من (سيرة العزيز)، بأنـــه المتغلِّب على مصر، المنتسب إلى العلويين. نأتى بعد هذه الملاحظة المبدئية إلى النص الأول الذى بقـــى مـــن تلـــك السيرة، وهو يدور حول الحوار بين ابن زولاق المؤلف المؤرخ، ووزير العزيز ابن كلـــس، الذى منحه العزيز خلَعه وتشريفه، وصدر بذلك سجل قرئ على رجال الدولة والمقربين، وكـــان من الحضور ابنُ زولاق. وقد حاول ابن زولاق تهنئة ابن كلس بهذا الشرف العظيم، الذى

(١) أى: الأعداء (مادة: ع.د.و). (المعجم الوسيط ٢/ ٦١٠).
(٢) معجم الأدباء ٧/ ٢٢٧- ٢٣٠.
(٣) الفضائل الباهرة لابن ظهيرة ١٢٨.

أحَلَّــه مــنه العزيــز، وذكر له أن هذا دليل رضا الله عنه، لكن ابن كلس زعم أن ذلك بمجهوده واجــتهاده وحرصــه. فسكت ابن زولاق عن مواصلة الكلام وانصرف. وقد حاول أحد العلويين الحاضــرين الــدفاع عن ابن زولاق، لكن ابن كلس كان يحمل فى نفسه ضِغْناً وكراهية – لم يذكر ســببها – تجاه ابن زولاق، فتعمد أن يرد عليه هذا الرد الجافّ؛ إحراجاً له، رغم أنه يعلم صدق نيته وقصده. ثم تبين الرواية أن ابن كلس – أثناء نظره فى رقاع الناس المرفوعة إليه – رَدّد نفس مقولة ابن زولاق بــأن المقاديــر أُحكمت، والأرزاق والآجال لا حيلة للمرء فيها. وكذا الشقاوة والسعادة، ومهما بذل الإنسان فهو مُيَسَّر لما خُلق له. وبعدها حدثنا ابن زولاق أنه سبق أن هنّأ بالطريقة نفسها رجــلاً يُدعَى ابن رشيق – يبدو أن له مكانة ومنزلة، لكننا لا نعرفه – فبكى فرحاً وشكراً بتهنئته أنه من أهل السعادة لا الشقاوة، وكافأه أحسن مكافأة، حتى حسده الحاضرون.

ب- يلاحــظ على النص المتقدم بعد أن شرحناه، أنه لا يهتم بذكر تاريخ منح هذه الخلع لابــن كلس، ولم يتوسع فى تفاصيل ونص سجل تشريفه، ومراسم واحتفالات مثل هذا اليوم، كمــا أن ابــن زولاق استطرد فيه استطراداً معيباً، فلم نر من خبر يتعلق بالعزيز فى هذا النص المطول، سوى سجله الذى أمر فيه بالخلع على ابن كلس، وبعد ذلك أطال مؤرخنا فى الحديث عمــا دار بينه وبين الوزير، وبين الشريف العلوى والوزير بخصوصه، ثم ما منحه إياه ابن رشيق من عطاء ومكافأة حسنة.

ج- أما نص (الفضائل الباهرة)، فأعتقد أن ابن زولاق جنح فيه إلى المبالغة حول هذا الكم الضــخم من الأموال، التى جُمعت للعزيز فى ثلاثة أيام فقط. وقد حدد تاريخ ذلك، لكنه جعله أثــناء القبض على الوزير ابن كلس. ونعتقد أنه منافٍ للحقائق التاريخية، التى تذكر أن الأمور اضطربت لما عزله، فاضطر لإعادته[١].

ملاحظة أخيرة:

نسب ريبيرا نصاً لابن زولاق يعود إلى عهد الحاكم بأمر الله، وفيه يعمل الحاكم الحيلة ضد السرَّاق والمجرمين؛ لقمعهم عن الجريمة وردّ ما سرقوا، وإياهم الناس بمعرفته الغيب، وإحضاره ما يفقــده الناس[٢]. والحق أن المؤلف لم يذكر مصدر هذا الكلام، ولم يعلق المترجم عليه. ومعلوم أن ابن زولاق توفى أوائل عهد الحاكم، وأنه لم يؤثَر عنه كتابة (سيرة الحاكم بأمر الله)، كما أن

(١) ليس صحيحاً أن ابن كلس كان مقبوضاً عليه سنة ٣٧٤هـ كما يذكر ابن زولاق، إنما قُبض عليه مدة شهرين سنة ٣٧٣هـ، ثم أعيد إلى منصبه بعد التدهور الحادث. ولعل ابن زولاق ذكر استخراج كل هذه الأموال عند غياب الوزير؛ لما فى قلبه عليه مما دار بينهما من حوار تعرضنا له منذ قليل.

(٢) التربية الإسلامية صــ٢٦١ (ترجمة د.الطاهى مكى).

هـــذه الفعلة للحاكم لا تكون إلا بعد بزوغ شخصيته، وسيطرته على مقاليد الأمور، وذلك لا يكـــون قـــبل مقتل (برجوان) سنة ٣٩٠هـــ، بينما مات زولاق ٣٨٧هـــ. وقد بحثت – قدر الطوق – عن هذا النص فى المصادر المختلفة، حتى وقفت عليه فى كتاب لابن زولاق(١).

وهكذا يمكن القول: إن ابن زولاق المؤرخ المصرى من أوائل الذين آثروا التخصيص على التعميم فى مؤلفاتهم، واقتصر نشاطهم على تاريخ بلدهم ورجاله. وقد أتم بكتبه جهود سابقيه، وكانت مشاهداته وتحقيقاته أعظم مصادره. واستطاع التخلص من قيود الإسناد إلا إذا نقل عن مـــورد مهم موثوق به، وتحررت لغة التأريخ على يديه وانطلقت. وتشيعه لم يَجْنِ على مجهوده ونـــتاجه التاريخـــى، فـــروايته جديرة بالاعتماد والثقة، بل هى أنفس ما لدينا من وثائق العصر ومؤلفاته(٢).

(ثانياً، وأخيراً – وماذا عن كتب السِّيَر التاريخية للحكام وللعلماء فى الأندلس ؟)

بعـــد هذه المرحلة الشاقة الطويلة من التجوال والتطواف فى ربوع الكتابات المصرية من (ســـير الحكـــام، والعلماء) المطبوع منها والمفقود، آن الأوان لننتقل إلى الشق الثانى من هذا الموضوع، وهو كتب السير التاريخية فى الأندلس فى القرن الرابع الهجرى؛ كى تتم دراستها، ومقارنتها بمثيلتها فى مصر.

والحـــق أننى لم أظفر – للأسف الشديد، رغم البحث والتقصّى والسؤال – بسيرة واحدة كاملـــة، ســـواء مطبوعة، أم مخطوطة، أم ببقايا سيرة مفقودة، كتبها مؤرخو الأندلس فى القرن الـــرابع الهجـــرى موضـــع البحث والدراسة، وذلك على مستوى الحكام، أو العلماء، أو حتى العُـــبّاد). وكل ما وجدتُهُ نُتَفٌ من إشارات يسيرة جداً لبعض مؤرخين، لا نعرف عن معظمهم ســـوى الاســـم والنسب غالباً، واسم كتاب يمكن أن يندرج تحت كتب السير التاريخية؛ مما لا يشـــفى الغُلّـــة، ولا يعطى فكرة ما عن صاحب الكتاب، ناهيك عن عدم وجود قِطَع من هذه المؤلفات التاريخية المفقودة –اللهم إلا اليسير جداً – يمكن أن تُجمّع وتُدرس على نحو ما فعلنا مع مؤرخى مدرسة مصر التاريخية.

---

(١) وهو مخطوط (تاريخ مصر وفضائلها على التمام) ورقة ٥٤ (نُسخة المكتبة الأهلية بباريس رقم ١٨٧١). والحق أن هذا المخطوط قد أضيفت إليه صفحات تعود إلى فترات تاريخية متأخرة عن وفاة ابن زولاق، ومنها هذا النص.

(٢) مؤرخو مصر الإسلامية، لعنان صـــ٤٧ – ٤٨.

وهاكم كل ما وقعتْ عليه يدى من مادة:

أولاً - (فى السير التاريخية للحكام):

أ- **حسـين بن عاصم***: وهو من أهل العلم والأدب.له كتاب(المآثر العامرية) فى: سِيَر المنصـور بن أبى عامر، وغزواتـه، وأوقاتـها[1].

ب- **محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوى**:له تاريخ فى الدولة العامرية[2].

ج- عـبد الـرحمن بن محمد بن المَشّاط الرُّعَيْنىّ (ت ٣٩٧هـ): قلّده المنصور (التاريخ)، فكان صاحب (النَّظْم)، وجمع للمنصور تاريخه فى كتاب، سَمّاه (الباهر). وقد نُهب هذا الكتاب فى نكبة آل عامر[3].

ثانياً - (فى سِيَر العلماء):

أ- عبد الله بن الخليفة الناصر* (ت ٣٣٩هـ):

كـان هـذا الأمير الأندلسى عالماً، فقيهاً شافعياً، مؤرخاً. ومن مؤلفاته التى يمكن أن تدخل فى مجال (سير العلماء): مجلد (مناقب بَقِىّ بن مَخْلَد ت ٢٧٦هـ)، رواه عنه (مسلمة ابن قاسم)[4]. وفى مصدر آخر ورد أن هذا الكتاب يُعرف بـ (المُسْكِتَة)، وأنه مكون من ستة أجـزاء[5]. ولا أدرى معـنى هـذا الاسم الأخير، ولا المقصود به. ولعله يدافع فيه عن الفقيه الشافعى الأندلسى أمام تيار المالكية الجارف فى بلاده. أما أجزاؤه الستة، فلعلها صغيرة، وتُمثّل فى مجموعها المجلد المذكور آنفاً.

---

* يلاحظ التفريق بين هذا المؤرخ الذى عاصر (المنصور بن أبى عامر ت ٣٩٢هـ)، وآخر بالاسم نفسه، وإن كان نسبه كاملاً، وولى السوق أيام الأمير محمد، وتوفى فى صدر أيامه، كما يذكر ابن الفرضى خطأً (وسوف أناقش ذلك عند دراسة كتابه فى الباب التالى). المهم أنهما شخصيتان مختلفتان.

(١) هذه أوفى ترجمة له حتى الآن (الصلة، ط.الحسينى) لابن بشكوال جـ١ صـ١٤٠. وله ترجمة مختصرة فى: (الجذوة ١/٣٠٠، والبغية ٢٦٧، وتكملة الصلة - ط.الحسينى - لابن الأبار ١/٢٧٢، والنفح ٣/١٧٤).

(٢) تكملة الصلة - ط. الحسينى - ١/٣٨٤.

(٣) ترتيب المدارك ٢/٤/٦٧٩، وتكملة الصلة - ط. الحسينى - ١/٢٩٦- ٢٩٧، وكتاب بونس بويجس عن المؤرخين فى الأندلس بالإسبانية صـ٩٨ (عن ترجمة خاصة إلى العربية بخط الدكتور عبد الله جمال الدين).

* له ترجمة فى: البغية صـ٣٤٦- ٣٤٧، ٣٥٠، والمغرب (قسم الأندلس) ١/١٨٦، وتاريخ ابن خلدون ٤/١٨٤، والنجوم ٣/٣٤٦.

(٤) تاريخ الإسلام ٢٥/٤٥، والنجوم ٣/٣٤٦.

(٥) تكملة كتاب الصلة لابن الأبار (ط.الحسينى): ٢/٧٨٠. وجدير بالذكر أن له كتاباً فى أخبار بنى العباس سَمّاه (العليل، والقتيل).

هذا، وقد احتفظ لنا ابن الأبّار بجزء يسير من هذا الكتاب، أورده فيما يلي:

١- **عيسى بن فُطَيْس بن أصْبَغ بن عيسى بن فُطَيْس الوزير**: المكنَّى (أبا الأصبغ). له رواية عن (أحمد بن بَقيّ بن مخلد). ذكر ذلك أبو محمد (عبد الله بن الناصر) فى (المسكتة)[١].

٢- **ترجمة لأحد المحدِّثين** – فيما يبدو، وبها سقط – الموجود منها: ويكنى بأبي عون. و لم يذكر اسمه. له رحلة إلى صنعاء اليمن. وقع ذكره فى (المسكتة) من تأليف الأمير عبد الله بن الناصر عبد الرحمن فى (فضائل بقى بن مخلد)[٢].

٣- **أم الحسن** بنت أبي لواء سليمان بن أصبغ بن عبد الله بن وانسوس بن يَرْبوع المِكْناسيّ، مولى سليمان بن عبد الملك. روت عن (بقى بن مخلد). سمعتْ منه، وصحبتْه، وقرأتْ عليه بلفظها كتاب (الدهور)، وحضر ذلك ابنُه (أبو القاسم أحمد بن بَقيّ)، وهو يمسك عليها كتاب الشيخ. قال الأمير عبد الله ابن الناصر عبد الرحمن بن محمد فى (المسكتة): " كانت الزاهدة ابنة أبي لواء تسمع فى داخل دار أبي عبد الرحمن (بقيّ بن مخلد) منه يوماً فى الجمعة، منفردة بدولتها، يعنى: بقى بن مخلد. ولها رحلة حَجَّتْ فيها، وكانت امرأة صالحة زاهدة فاضلة عاقلة، وقع ذكرها فى كتاب (فضائل بقى بن مخلد).

وذكرها الرازى، وقال: حَجَّتُ وسمعتِ الفقه والحديث. وقد سمع منها بقى بن مخلد، ثم حَجَّتْ حجة ثانية، فتوفيت بمكة، ودُفنت هنالك. هكذا قال. وسماع بقيّ منها غلط فى ظني. والصحيح سماعها منه[٣].

ب- محمد بن يحيى بن أحمد (ابن الحَذّاء القرطبي):

ولد سنة ٣٤٧هـ، وطلب العلم وهو ابن خمس عشرة سنة (٣٦٢هـ). له كتاب (الخُطَب، وسِيَر الخُطَباء) فى سِفْرَيْن. توفى سنة ٤١٦هـ[٤].

---

(١) تكملة كتاب الصلة: (ط.مدريد ١٩١٥م): صـ٢٣٨ (وذُكر اسم الكتاب بالنون، وهو تصحيف، وسيَرِد فى النص التالى بالتاء، وهو الصواب).

(٢) السابق: ٢٦٦.

(٣) تكملة كتاب الصلة (ط.مدريد): ٤٠١- ٤٠٢، وورد بعد ذلك أن (عبد الله) جد أبيها كان خيِّراً فاضلاً، وله رحلة حج فيها، ولجأ إليه بشر كثير يوم هَيْج الرَّبَض فى عهد الحكم بن هشام ١٨٠- ٢٠٦هـ)، فأغلق عليهم باب مسجده وكان يوم جمعة، وكتب إلى الحكم فى تأمينهم، فأجابه، وسَكّن رَوْعَتهم. وأرجح أن هذا من كلام ابن الأبار.

(٤) الصلة (ط. الحسينى): جـ٢ صـ٤٧٨- ٤٨٠.

ملاحظات عامة:

١- من الملاحظ أن كتب السير التاريخية فى الأندلس سارت فى مسارين[١] شبيهين بمسير نظائـــرها فى مدرسة مصر التاريخية، وأن ما بقى من أسماء سير الحكام فى الأندلس منحصر فى سيرة (المنصور بن أبي عامر) مع التركيز على غزواته، كما فى كتاب (حسين بن عاصم). أما فى كـــتاب ابن معمر اللغوى فى تاريخ الدولة العامرية، فالظاهر أنه شمل سير ولديْه بعده، وإن كنا نـــتوقع أن يُكـــتب معظم ما فيه عن المنصور بحكم طول فترة حكمه، وكثرة أحداث عصره، ومنجـــزاته بالقـــياس إلى ولديْه من بعده، خاصة ابنه (عبد الرحمن)، الذى لم يصنع شيئاً قط، وتَسـبَّب فى هدم دولتهم، وانهيار خلافة بنى أمية. وبالنسبة لابن المشّاط الرعينى، فلعل المنصور استحدث منصب صاحب (النظم)، وجعل للمؤرخين مكانة سامية فى دولته، ونتوقع أن يكون كتابه عن (المنصور) جُمع بأمر منه، وامتلأ بأخبار عجائب انتصاراته الباهرة، فهو كتاب أقرب إلى المديح والمبالغة منه إلى التأريخ المحايد.

٢- وبخصـــوص كتابَىْ (عبد الله بن الناصر)، و(ابن الحذاء)، فهما يمثلان النوع الثانى من كتب (السير التاريخية) بالأندلس. وقد كتب أولهما كتابه بدافع حبه وتقديره لواحد من أعظم فقهـــاء ومحدِّثى الشافعية فى الأندلس. والمادة العلمية المتبقية منه لا تتناول صاحبه مباشرة، وإنما تتعرض لعدد من تلاميذه، الذين تلقوا العلم على يديه، أو على يد ابنه (أحمد). وثمة إشارة مهمة اتضـــحت مـــن حديثه عن إحدى النساء الفُضْلَيات فى الأندلس، فأعطتنا فكرة لا بأس بها عن مكانة العلم وانتشاره بين النساء، وما تمتعتْ به هذه المرأة من إقبال على طلبه فى دار بَقىّ، وفى حضـــور ابنه، فى يوم محدد أسبوعياً، تقرأ عليه العلم فيه. وخرجت إلى المشرق حاجّة، ولا يبعد أن تطلـــب العلـــم هـــناك أيضاً. وبالنسبة للخطباء فهو كتاب أرجح صدوره فى القرن الرابع الهجـــرى، وكم كنا نود الاطلاع ولو على جزء منه، فهو – على الأقل – يتناول بعض خطباء القرن الرابع المتميزين، ويأتى على رأسهم: (القاضى منذر بن سعيد البلوطى ت ٣٥٥هـــ).

٣- أعتقد أن خليفة مثل: الناصر، وولده (المستنصر) لا بد أن يكونا قد حظيا بمن أفردهما بكـــتاب أو أكثـــر عـــن ســـيرة كليهما؛ نظراً لطول فترة حكمهما (خاصة الناصر)، وعظمة منجـــزاتهما داخلياً، وخارجياً. وإذا كان الأندلسيون ليسوا مُولَعين بتقديس حكامهم، وسريعى

(١) قد يكون هناك مسار ثالث عن (سير العابدين فى الأندلس)، لكنى لم أعثر على عنوان كتاب بهذا الشأن، وإن وجدت مادة عن نساء طالعن؛ وتدارسن سير العابدين، مثل: أم الحسن أخت القاضى (منذر بن سعيد البلوطى)، وهى امرأة فاضلة متعبدة، يقصدها عجائز ونساء صوالح فى ناحيتها، يجلسن معاً للذكر والفقه، ويتدارسن سير العابديـن. (ذكر ذلك ابن الأبّار نقلاً عن ابن حيّان) فى (تكملة الصلة – ط.مدريد) صـــ٤٠٢- ٤٠٣. وقد تكون هناك مؤلفات، رجعن إليها بشأن (سير العابدين).

الملـــل والسأم منهم خاصة أهل قرطبة، فيختلفوا بذلك عن المصريين، إلا أننى أعتقد أنه كانت هـــناك كـــتب عن هذين الخليفتين العظيمين، لكن ما تعرضت له الأندلس من محاولة المنصور الاســتبداد المطلق بالحكم، وإحراق العديد من كتب مكتبة المستنصر، ثم ما وقع من فتنة آخر القرن الرابع الهجرى، أتت على ما كُتب عن المنصور نفسه، ثم ما جرى لمكتبات الأندلس على يـــد نصارى الإسبان بعد ذلك، كل ذلك كفيل بإضاعة هذا التراث، الذى لو بقى لأثرى هذه الدراسة كثيراً.

وفى نهايـــة هذا الباب، أعتقد أننا حاولنا أن نعرض للاتجاه الأول من الاتجاهات الثلاثة المعتـــبرة للتأليف التاريخى فى ذلك القرن فى مصر والأندلس، بقدر ما سمحت به المصادر والمادة العلمـــية المتوافرة. وبقى أن ننتقل إلى الباب التالى، واتجاه جديد للمؤرخين، يتناسب مع ازدهار الحركة العلمية فى ذلك القرن، وهو اتجاه (التراجم والطبقات)، بإذن الله.

الباب الثانى

مؤرخو التراجم والطبقات

يحوى هذا الباب الفصول الأربعة التالية:

أولاً – المؤرخان المصريان: محمد بن الربيع الجيزى، ومحمد بن يوسف الكندى.

ثانياً – المؤرخ الأندلسى: الخشنى.

ثالثاً – المؤرخان الأندلسيان: ابن جلجل، والزبيدى.

رابعاً – المؤرخ الأندلسى: ابن الفرضى.

خلاصة عامة مقارنة.

مدخل

نتناول - فى هذا الباب الجديد - كتب (التراجم والطبقات فى مصر والأندلس فى القرن الرابع الهجرى). ويمثّل هذا الباب جانباً مهمّاً من جوانب المكتبة التاريخية فى كلا الإقليمين فى الفترة المشار إليها، وفى الموضوع المتحدَّث عنه. أما بالنسبة للفترة الزمنية، فالقرن الرابع الهجرى يعد قرن النضج والازدهار فى اتجاهات التأليف التاريخى فى مصر، ويعد طفرة كبرى، فى بلاد الأندلس، واكبت عصر الخلافة بما فيه من تقدم وازدهار حضارى. وأما الموضوع، فهو رصد دقيق وأمين لحركة النهضة العلمية فى كلا البلدين منذ الفتح الإسلامى لهما حتى عصر مؤرخى هذه الحركة، وذلك من خلال تصوير البيئة العلمية لعلماء مصر والأندلس، مما قد لا نجده فى كتب (التاريخ العامّ)، أو حتى فى كتب (الحوادث التاريخية المحلية).

وأحب أن أُشير – فى هذا المدخل – إلى أمرين مهمّيْن:

الأول – أن عملى فى هذا الباب قائم على دراسة أبرز وأهم كتب التراجم والطبقات فى مصر والأندلس؛ إذ لا يتسع المجال للإحاطة بكل صغيرة وكبيرة من الكتب المؤلّفة؛ نظراً لكثرتها الكاثرة، ولفقد معظمها[1]، حيث لم يبق منها سوى القليل، الذى نحاول – من خلاله – عرض صورة شاملة متكاملة – ما أمكن – لمنجزات مؤرخينا فى هذا النطاق.

الثانى – أن الدراسة منصبّة – أساساً – على المؤرخين المصريين، الذين ترجموا لعلماء بلدهم خاصة، وكذلك نركز فى دراسة المؤرخين الأندلسيين على أعمالهم التى ترجموا فيها لعلماء الأندلس. أما ما كان خارج علماء بلديْهمَا، فهو خارج عن نطاق البحث[2]، فلا أفرده بالدراسة والتحليل المنهجى، وإن كان ذلك لا يمنع من الاستفادة منه عند تلمس الملامح الشخصية لمؤرخينا عند الترجمة لهم، والتعريف بهم. وكذلك لا تخضع للدراسة تلك الكتب التى أخذت شكل التراجم، لكنها أُدْخِلَ فى علم آخر كعلم الرجال مثلاً[3]، منها فى علم (التاريخ).

---

(١) ويتمثل ذلك فى الأندلس، إذ اهتم الأندلسيون؛ بوضع مؤلفات فى تراجم علماء كثير من أقاليم الأندلس. وكثيراً ما تطالعنا المصادر بأسماء مؤلفات فى تراجم المحدِّثين والفقهاء فى أقاليم، مثل: ريّة، وطليطلة، وقرطبة، وغيرها. وهذا يَندّ عن الحصر، كما أنها مفقودات لا نكاد نعثر منها إلا على النزر اليسير.

(٢) مثل: كتاب (علماء إفريقية) للخُشَنىّ، وفيه يترجم هذا المؤرخ لعلماء إفريقية، ونحن يهمنا ما ألّفه عن علماء الأندلس فحسب.

(٣) مثل: كتاب (الألقاب) لابن الفرضى، وكتابى: (المؤتلف والمختلف)، و(مشتبه النسبة)، لعبد الغنى بن سعيد المصرى (ت ٤٠٩هـ).

هذا، وقد بدأتُ هذا الباب بدراسة (كتب التراجم فى مصر)، فهى المدرسة الأم والأقدم، ذات التأثير فى المدرسة التاريخية الأندلسية فيما مضى، بل كان مؤرخو الأندلس عالة على المؤرخين المصريين فى كتابة (التاريخ الأندلسى فى أحداث الفتوح الإسلامية الأولى).

والملاحظ على كتب المؤرخين المصريين فى مجال التراجم أنها جميعها تتسم بسمَة واضحة، هى أنها كلها (مفقودة). فلم أجد – فيما طالعته – كتاباً مطبوعاً، ولا حتى مخطوطاً، يمكن أن نستغنى به عن مشاق وصعوبات البحث عن بقايا المفقود، وتجميعه، وتنسيقه، وعرضه على نحو أقرب ما يكون – قدر الجهد والاستطاعة – لصورته الأولى، التى تركها عليها صاحبه.

وإزاء ما تقدم، فقد كان لزاماً علىَّ أن أخوض غمار البحث عن المفقود. **وقد تمكنتُ من تجميع بقايا كتب أربعة فى هذا المجال:**

أولها – عن الصحابة الذين دخلوا مصر. وقد ألَّفه محمد بن الربيع الجيزى (ت ٣٢٤هـ)، وهو يُعدّ تطويراً وتفصيلاً لما بدأه ابن عبد الحكم فى القرن الثالث الهجرى[(١)].

وثانيها – كتاب ترجم فيه ابن يونس لعلماء مصر منذ الفتح الإسلامى حتى عصره.

وثالثها – كتاب للمؤرخ السابق نفسه، يكمل به كتابه السالف، وفيه يترجم للعلماء الوافدين على مصر.

وأخيراً – يأتى كتاب المؤرخ المصرى الكندى، الذى ترجم فيه لنوعية خاصة من علماء مصر، وهم (الموالى).

وقد تراوحت بقايا هذه الكتب بين القلة (كما فى الكتابيْن: الأول، والرابع)، والكثرة

(١) إذا كان ابن عبد الحكم يركز على ما تيسر من الأحاديث التى رواها الصحابة فى مصر (وذلك فى القسم السابع والأخير من كتابه: فتوح مصر وأخبارها صـ٢٤٨ – ٣١٩)؛ فإن ابن الربيع الجيزى يبدو مهتمّاً بصورة أكبر بالترجمة لهؤلاء الصحابة، مع محاولة حصر أعدادهم. وجدير بالذكر أن استبعدتُ المحدّث المؤرخ البغدادى الأصل (أبا علىّ سعيد بن السَّكَن، المتوفى سنة ٣٥٣هـ) من الدراسة، رغم أنه أتى إلى مصر، واستقر بها على ما يبدو. (سير أعلام النبلاء ١٦/١١٧ – ١١٨، وحسن المحاضرة ١/٣٥١ – ٣٥٢)؛ لأن كتابه عن (تاريخ الصحابة) لا يقتصر على الترجمة للصحابة، الذين نزلوا مصر على نحو ما صنع ابن الربيع الجيزى فى كتابه، وإنما – ومن خلال بقاياه المفقودة – يتضح أنه كتب كتاباً عاماً عن الصحابة فى مختلف الأقاليم الإسلامية لا فى مصر وحدها. ونحن لا نستطيع معرفة نسبة ما ذكره عن صحابة مصر إلى ما ذكره عمن سواهم؛ لأن الكتاب مفقود، ونصوصه المتبقية قليلة، ومعظمها تعليقات حديثية على مرويات هؤلاء الصحابة، كما أننا لا ندرى مكان تأليفه إياه (فى بغداد، أو فى مصر). ومن هنا كان لا يصلح للدراسة وفق منهجنا.

(كما فى نتاج ابن يونس)[1]. وفى ضوء ما جُمع حاولتُ استنباط الملامح العامة لمنهج المؤرخين المصريين من خلال بقايا كتبهم المفقودة.

وأما بخصوص الأندلس، فالكتب الأربعة – محل الدراسة – كلها مطبوعة بحمد الله. وقد بدأ الخشنى بالترجمة لأهم فقهاء ومحدثى الأندلس، بينما اهتم ابن جلجل بالتأريخ لطبقات الأطباء، بينما ترجم المؤرخ اللغوى الزبيدى لعلماء النحو واللغة على مختلف طبقاتهم وبلادهم[2]. وأخيراً أتى ابن الفرضى؛ ليكون مسك الختام، إذ أطلّ على علماء الأندلس إطلالة عامة شاملة، وقام بالترجمة لما تيسر له منهم على مختلف علومهم واختصاصاتهم، فأفاد ممن سبقه، وأضاف إلى جهودهم جهداً مشكوراً. وقد قمتُ بتحليل مناهج هؤلاء المؤرخين بعد الترجمة لهم على النحو المعتاد.

وفى النهاية، أتت زبدة هذا الباب المطوّل، ممثلة فى جوانب المقارنات المتعددة، التى عَقدتُها بـــين مؤرخـــى البلديْن فى مجال (التراجم والطبقات)؛ وذلك لرصد أوجه الاتفاق والاختلاف بينهم، وبيان أوجه العلاقة القائمة على قدر ما سمحتْ به المادة العلمية فى المصادر المختلفة، مع الوضع فى الاعتبار أننا نقارن بين نتاج مفقود، وآخر كامل مطبوع.

---

(١) وأحب أن أشير – فى هذا الصدد – إلى أن هذا الكتاب يخلو من دراسة كتابَى ابن يونس المشار إليهما سلفاً؛لأننى جمعت ما تيسر لى منهما،وقمت بدراستهما دراسة مفصلة فى عمل علمى مستقل،نشر فى مجلدين اثنين فى (دار الكتب العلمية ببيروت) سنة ٢٠٠٠م.

(٢) أدخلتُ كتابَى: ابن جلجل، والزبيدى، رغم أنهما لم يقتصرا على أطباء الأندلس، ونحوييها ولغوييها؛ لأن الكتابيْن مطبوعان، وهذه ميزة مهمة، تساعدنا على تعرف منهج المؤرخيْن وغايتهما فى عرض أجزاء كتابهما، وتفتح أمامنا مجالاً للدرس والمقارنة بين اهتمام كُلٍّ ببلده وبغيرها من البلاد، ونصيب كل فى الإسهام العلمى فى مجالَى: الطب، والنحو واللغة. بالإضافة إلى أنهما النموذجان الوحيدان، اللذان تم ترتيب مادتهما على الطبقات فى هذه الدراسة، كما أنهما ترجما لنوعية جديدة من العلماء، أفردا لهم هذين الكتابيْن، وتلك ظاهرة فريدة، تستأهل التأمل والدرس.

الفصل الأول

المؤرخان المصريان:

(محمد بن الربيع الجيزى، ومحمد بن يوسف الكندي)

أولاً -(مؤرخو التراجم فى مدرسة مصر التاريخية)

(١) المؤرخ المصرى (ابن الربيع الجيزى)

تقديم:

نبدأ فى دراسة (مؤرخى التراجم) فى مصر بـــ (المؤرخ المصرى محمد بن الربيع الجيزى)، وكتابه الذى يترجم فيه للصحابة، الذين نزلوا مصر. ويتقدم تلك الدراسة – على ما تعودنا – تعـــريفٌ بهذا المؤرخ. ومن الملاحظ أن المعلومات الواردة عنه فى المصادر نادرة، وسأحاول عن طـــريق هذه المادة، ومن خلال ما ورد عن والده (الربيع بن سليمان الجيزى)، إلقاء الضوء على ثقافة وحياة هذا المؤرخ، والبيئة العلمية التى نشأ فى رحابها قدر المستطاع.

والده: ويمكن تركيز الحديث عنه فى النقاط الآتية:

١ – **هو أبو محمد، الربيع بن سليمان بن داود الأزدى، مولاهم المصرى**[١] **الجِيزى**[٢]، المعـــروف بـــ (الأعـــرَج)[٣].

(١) وقع أكثر من خطأ فى ترجمته–لعله من النسَّاخ–فى (تقريب التهذيب)لابن حجر:١/٢٤٥؛ إذ لُقِّب بـــ (البصرى) بدل (المصرى)، وقيل فى نسبه: (الجيزى المرادى)، وهذا خلط بينه وبين الربيع المرادى، فصاحبنا هذا هو (الأزدى بالولاء، الجيزى المصرى).

(٢) نسبة إلى الجيزة، وهى بُلَيْدَة فى غربى فُسطاط مصر قُبَالَتها، يفصل بينهما عرض النيل، والأهرام فى عملها، وبالقرب منها. وقد سكنها عقيب فتح الإسكندرية بعض قبائل العرب من جند هَمْدان، والأزد، وغيرهم. (معجم البلدان ٢/٢٣٢، ووفيات الأعيان ٢/٢٩٣).

(٣) تفرد ابن خلكان بجعله الجَدّ الأكبر للربيع (الربيع بن سليمان بن داود بن الأعرج الأزدى بالولاء). (المصدر السابق: ٢/٢٩٢). وأعتقد أن الصواب على خلاف ذلك، وهو ما أجمعت عليه المصادر الأخرى، فجعلته لقباً للربيع. وصرّح ياقوت بذلك، فقال: ويكنى أبا محمد، ويعرف بـــ (الأعرج). (معجم البلدان ٢/٢٣٢).

وهـــذا النســـب[١] يعنى: أنه يُنسب إلى قبيلة (الأزد) بالولاء، وأنه عاش على أرض مصر؛ مـــولداً وحياة ووفاة، كما سنرى بعد قليل. ويتضح – أيضاً – أنه عاش بالجيزة، ولُقِّب بلقب الأعرج؛ ربما لعَرَج كان فى إحدى رجليْه.

٢ - **ولـــد الربيع بن سليمان** بعد سنة ١٨٠هـ[٢]،وتوفى – فى الغالب – يوم الأحد لليلـــتين بقيتا من شهر ذى الحجة سنة ٢٥٦هـــ[٣]،عن عمر يفوق السبعين عاماً. وخلال هذه الفترة من عمره المبارك اهتم بتحصيل العلم وروايته. ويأتى الحديث النبوى الشريف على رأس العلوم، التى تلقاها على يد أعلام المحدِّثين فى مصر[٤] من أمثال: إسحاق بن بكر بن مُضَر، وأسد ابـــن موســـى[٥]، وأصْبَغ بن الفرج، وطَلْق بن المسَّح الإسكندرانى[٦]، وعبد الله بن عبد الحكم (وأكثـــر فى الـــرواية عنه[٧]، وعبد الله بن وهب، وغيرهم[٨]. وممن روى عنه من علماء مصر: الإمام أبو جعفر الطَّحاوىّ[٩].

وكانت للربيع بن سليمان صلات علمية بالعلماء من خارج مصر، فروى عن (إسماعيل بن أبى أُوَيْـــس)، وغيره من أهل المدينة[١٠]. وروى عنه: أبو داود، والنَّسائىّ[١١]، ومحمد بن بِسْطام

---

(١) ورد هذا النسب صحيحاً كاملاً فى: تهذيب الكمال ٨٦/٩، وسير أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وتهذيب التهذيب ٢١٢/٣).
(٢) تفرد بهذا النص ابن حجر فى (المصدر السابق) جـــ٣ صـــ٢١٣، نقلاً عن الكِنْدىّ فى كتاب (الموالى) المفقود، ولا أدرى سر عدم تحديد تاريخ ولادته قبل ذلك، لكنى أعتقد أن ولادته لا تتأخر عن سنتى: ١٨١، ١٨٢هـــ؛ كى تتسنَّى له الرواية عن أستاذه (عبد الله بن وهب)، الذى استتر من الوالى (عبَّاد بن محمد) لما أراد توليته القضاء؛ مما جعله يولى (لَهِيعَة بن عيسى) بدلاً منه فى مستهل شعبان ١٩٦هـــ، ومات بعدها ابن وهب بحوالى عام (١٩٧هـــ). (القضاة، للكندى صـــ٤١٧،ووفيات الأعيان ٣٦/٣).
(٣) تهذيب الكمال ٨٧/٩، وتهذيب التهذيب ٢١٢/٣. وهو أصح من تاريخ ٢٥٧هـــ، الذى ذكره البعض بصيغة الظن (قيل)، إلى جانب التاريخ الراجح (سنة ٢٥٦هـــ). ذكرهما معاً: السبكى فى: (طبقات الشافعية الكبرى ٢/ ١٣٢، وطاش كبرى زاده فى: (مفتاح السعادة) ٣٠١/٢.
(٤) تهذيب الكمال ٨٦/٩.
(٥) ذكر السيوطى أنه أحد حُفَّاظ الحديث فى مصر، وجعل الربيع بن سليمان الجيزى أحد الرواة عنه، وجعل هذا العالم المُلقب بـــ (أسد السنَّة) ممن تُوفُّوا سنة ٢١٢هـــ. (حسن المحاضرة ٣٤٦/١).
(٦) توفى سنة ٢١١هـــ، وهو أحد مشاهير أتباع التابعين، الذين وردت لهم أحاديث فى الكتب الستة. (حسن المحاضرة ٢٨٦/١).
(٧) وفيات الأعيان ٢٩٢/٢.
(٨) مثل: عبد الله بن يوسف التِّنِّيسىّ، وأبى الأسود النَّضر بن عبد الجبار. (تهذيب الكمال ٨٦/٩، وتهذيب التهذيب ٣/ ٢١٢، وإن كان قد وقع فيه خطأ فى اسم والد النضر، فذكر أنه (عبد الحميد) بدلاً من (عبد الجبار).
(٩) سير أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وتهذيب التهذيب ٢١٢/٣.
(١٠) الأنساب، للسمعانى ١٤٤/٢. راجع ترجمته فى (تهذيب التهذيب): ٢٧١/١ - ٢٧٣.
(١١) سير أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وتهذيب التهذيب ٢١٢/٣.

ابن رجاء الضَّبِّيّ السُّوسيّ (ت ٣١٣هـ) لَمّا رحل إلى مصر[١].

٣ - يعد (الربيع بن سليمان الجيزى) أحد فقهاء المذهب الشافعى، وواحداً من علمائه، الذين تلقوا على أيدى مؤسس المذهب[٢]، إلا أنه كان أقل تلاميذه رواية عنه[٣]؛ مما دفع البعض للتشكيك فى تلقيه على يد الإمام الشافعى[٤]، بالإضافة إلى الخلط بينه وبين قرينه (الربيع بن سليمان المُرادىّ)، الذى فاقه شهرة، ورواية، ومصاحبة للشافعى[٥].

والخلاصة:

أن الإمام (الربيع الجيزى) من علماء الجيزة (المُبَرِّزين)[٦]، وكان من الرجال الصالحين[٧]، الذين أحسبُّوا الحديث، فأكثروا من روايته، وكان مأموناً ثقة[٨]. وكان من فقهاء الشافعية المقلِّين، ولم يُؤْثَر عنه وضعه مؤلفات فى الحديث أو الفقه، كما لم تُعرف عنه اهتمامات بعلم التاريخ.

---

(١) الديباج المُذْهَب: ١٨٨/٢.

(٢) ذكرت كثير من المصادر أنه روى عن الشافعى (تهذيب الكمال ٨٦/٩، وسير أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وتهذيب التهذيب ٢١٢/٣). ونص البعض صراحة على أنه صاحب الشافعى (تهذيب الأسماء واللغات للنووى، ق١ جـ١ صـ١٨٧، ووفيات الأعيان ٢٩٢/٢).

(٣) ذكر البعض قلة رواية الربيع الجيزى عن الشافعى دون ذكر نماذج من ذلك القليل (مثل: ابن العماد الأصفهانى فى: شذرات الذهب ١٥٩/٢ - ١٦٠، وعبد الحليم الجندى فى: الشافعى ناصر السنة صـ٢٥٥). وقد أُثر عنه أنه روى عن الشافعى فى الفقه فى موضعين اثنين: فى كراهية قراءة القرآن بالألحان، وفى أن شَعْرَ الميتة يَطْهُر بالدباغ تبعاً للجلد. (طبقات فقهاء الشافعية للعبّادى صـ١٦، وطبقات الشافعية، للسبكى ١٣٢/٢، وللإسنوى ٣١/١، ولابن هداية الله الحسينى صـ٢٥). وقد أشار سركيس فى (معجم المطبوعات العربية والمعربة) صـ٤٦٩، إلى أن الربيع الجيزى روى عن الشافعى كتاب: (اختلاف الحديث)، وأنه مطبوع بهامش كتاب (الأم). فإن صحَّتْ تلك المعلومة، فهى إضافة جديدة لما رواه الربيع الجيزى عن الشافعى، تدعم صحبته له، وتتلمذه عليه فى مجالَى: (الحديث، والفقه).

(٤) الأنساب ١٤٤/٢، والشافعى: حياته وعصره، لأبى زهرة صـ١٦٣ - ١٦٤.

(٥) ترجم السبكى للربيع المرادى (ت ٢٧٠هـ) فى (طبقات الشافعية): ١٣٢/٢ - ١٣٩. وذكر الإسنوى فى طبقاته ٣١/١: أن ما رواه المرادى عن الشافعى كثير، وأنه إذا أُطلق (الربيع) فقط، فالمرادى هو المقصود.

(٦) عاش الربيع بالجيزة، وبها مات، ودُفن. (حسن المحاضرة ٣٩٨/١).

(٧) وفيات الأعيان ٢٩٢/٢. ويستدل على ذلك بما رواه ابن خلكان فى (المصدر السابق)، والقنُّوجى فى (التاج المكلَّل صـ٤٧): أنه كان راكباً بمصر، فسقط رماد على ثيابه، فنفضه ولم يتكلم، فقيل له: ألاَ تزجرهم؟! قال: من استحق النار وصولح بالرماد، فقد ربح. وذلك دليل على فرط صلاحه، وتقواه.

(٨) تهذيب الكمال ٨٧/٩، وسير أعلام النبلاء ٥٩١/١٢، وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال ٣١٩/١.

(١) المؤرخ المصرى (محمد بن الربيع الجيزى ٢٣٩ - ٣٢٤هـ)(*):

يمكن التعريف به فيما يلى:

أ - هو أبو عبد الله(١)، محمد بن الربيع بن سليمان بن داود الجيزى المصرى. ولد سنة ٢٣٩ هـ، وتوفى فى شهر ربيع الأول سنة ٣٢٤هـ(٢)، عن عمر يبلغ الخامسة والثمانين عاماً.

ب - كان اتجاه محمد بن الربيع إلى تحصيل علوم عصره اتجاهاً ذاتيّاً فطريّاً فى الغالب الأعم(٣).

وقد اتجه إلى تعلم القراءات القرآنية، فتلقاها على يد العالم المشهور (يونس بن عبد الأعلى)(٤). ويبدو أنه أنفق فى ذلك وقتاً ثميناً طويلاً من عمره، حتى بلغ منزلة سامية، أهّلته لأن

(*) تعرض هذا المؤرخ لإهمال شديد من مؤلفى (التراجم)، فلم يحظ بالقدر المطلوب للتعريف به وإلقاء الأضواء الكافية على حياته.ويُلاحَظ أن المصادر اهتمت بالترجمة لوالده (الربيع الجيزى) على حساب الترجمة لابنه المؤرخ،وحتى المصادر التى ترجمت لابن الربيع، معلوماتها – فى الغالب – سطحية، ومكررة. وقد بذلتُ ما فى وسعى من جُهْد لكتابة ترجمته فى ضوء المادة المتاحة فيما يلى: (الإكمال ٤٦/٣، والأنساب ١٤٤/٢، ومعجم البلدان ٢٣٢/٢، وتاريخ الإسلام ١٦١/٢٤، وطبقات القراء لابن الجزرى ١٤٠/٢، وتبصير المنتبه ٣٦٤/١ (اكتفى بذكر اسمه، وعرّف بابنه سربعاً)، ومقدمة حسنت بالإخبرية لكتابى (الولاة، والقضاة) للكندى صـ٢٠). أما السيوطى، الذى كنا ننتظر منه ترجمة وافية – وهو أعرف بقدْره مؤرخاً، واحتفظ لنا بجزء لا بأس به من كتابه: تاريخ الصحابة، كما سنرى – فإنه ذكره ضمن قوائم المؤرخين فى مصر (حسن المحاضرة ٥٣٣/١)، وذكر أنه (مرّ)، أى: سبقت ترجمته، وبمسح الكتاب لم نجد أية ترجمة لمؤرخنا المذكور، وتلك واحدة من هفواته فى هذا الكتاب.

(١) اختلفت المصادر فى كنيته، فالبعض كنّاه بـ (أبى عُبيد الله)، مثل: (الانتقاء) لابن عبد البر صـ١١٣، وتاريخ الإسلام ١٦١/٢٤). بينما جعله البيهقى (أبا عُبيد) فى: (مناقب الشافعى) جـ٢١٧/١. وبعضهم خلط فى كنيته بين اسم جده الثانى (داود)، وبين كنية محرّفة (عبيد الله)، فذُكرت له كنيتان: (أبو داود)، وأبو عُبيد الله). (طبقات القراء) لابن الجزرى ١٤٠/٢. هذا، وقد اكتفى د.البرى بنقل ذلك، مع الإشارة إلى وجود خلط بين اسمه (والصواب: اسم جده الثانى)، وكنيته (والصواب: كنيته المحرفة)، ولم يصوّب الخطأ، أو يحقق المسألة. (القرآن وعلومه فى مصر صـ٢٦١، وهامشها رقم ٣). واتجه عدد من المصادر إلى تكنيته بـ (أبى عبد الله)، كما فى: (مخطوط تاريخ علماء أهل مصر)، لابن الطحّان، ورقة ٢٣٩، والأنساب ١٤٤/٢، ومعجم البلدان ٢٣٢/٢، ومعجم الأدباء ٥١/٣، وابن حجر فى (الإصابة) جـ٧ صـ٣٨٥). والراجح – عندى – الرأى الأخير؛ لكثرة القائلين به، ووافقهم خاصة ابن الطحان) أقدمهم، الذى عقد فى باب (العين) تراجم من يُسمَّوْن بـ (عَبْد الله)، هكذا ضبطها، وكان من هذا الباب (عبد الله بن محمد بن الربيع)، الذى به يكنى مؤرخنا. وامتد هذا الباب من ورقة ٢٣٨ إلى ورقة ٢٤٠). أما المصادر الأخرى، فلعل النساخ حرّفوا عبد الله إلى (عبيد الله).

(٢) تاريخ الإسلام ١٦١/٢٤.

(٣) وذلك لأن أباه توفى وهو ابن سبعة عشر ربيعاً،فلم يكن تأثيره العلمى فيه كبيراً،وإن كان له بعض الأثر فى توجيهه، كما يتضح من بعض روايات له عن والده،سرّاها فيما بعد.ويبدو أن همه للعلم منذ الصغر، وما خلفه أبوه من روايات كان له أثرة فى تحصيله العلوم.

(٤) وفيات الأعيان ٢٥٠/٧، وطبقات القراء ١٤٠/٢.

يكـــون مقصِـــد طلاب القراءات، فروى عنه، وتتلمذ عليه: جعفر بن أحمد البزّاز، ومحمد بن إبـــراهيم بن زاذان[١]، وغيرهما. ويبدو أن شهرته فى علم القراءات جعلت طلاب العلم يتلقون عليه القراءة، سواء كان ذلك خارج مصر، أم داخلها. فمثلاً: روى عنه القراءةَ (أبو بكر، محمد ابـــن إبراهيم بن على بن عاصم المقرئ) بمكة، ثم أتى إليه فى مصر؛للتلقى عليه ثانية فى أخريات حياة (ابن الربيع الجيزى) سنة ٣١٦هـــ[٢].

ج - ويأتـــى الحديث النبوى الشريف على رأس العلوم، التى شكّلت ثقافة ابن الربيع الجيزى. فقد روى عن: والده (الربيع بن سليمان الجيزى)، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، والـــربيع المـــرادى، ويونس بن عبد الأعلى، وغيرهم[٣]. هذا، وقد قصد ابنَ الربيع عددٌ من علمـــاء الأقاليم الإسلامية الأخرى، فتلقوا عليه الحديث، منهم: سعيد بن خلف القيروانى[٤]، وأحمـــد بـــن هـــلال بن زيد العَطّار القرطبى[٥]، وأحمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدفى القرطبى أيضا[٦]، ومحمد بن عبد الله بن خالد الخراسانى (نزيل مصر)[٧].

لم يُخلّـــف لنا (ابن الربيع الجيزى) مؤلفات حديثية[٨]، ولكن بعض المصادر احتفظت لنا بتعريف مقتضب بولديْه: عبد الله[٩]، والربيع، اللذين كانا من المشتغلين برواية الحديث، خاصة ثانـــيهما الذى سمع من عُبيد الله[١٠] بن سعيد بن عُفَيْر، وعبد الله بن محمد بن أبى مريم، وكتب عنه قوم من أصحاب الحديث، وتوفى فى شهر ربيع الأول سنة ٣٤٢هـــ[١١].

د - أعـــتقد أن ابن الربيع كان من المنتمين إلى المذهب الشافعى كوالده (رحمه الله تعالى).

---

(١) السابق ٢/١٤٠.

(٢) طبقات القراء ٢/٤٤.

(٣) المدارك ٢/٣/٦٣، والأنساب ٢/١٤٤.

(٤) تكملة الصلة (ط.مدريد): صـــ٣٢٣.

(٥) تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس (ط.الخانجى)، لابن الفرضى ١/٥٨ - ٥٩.

(٦) وكان من كبار محدِّثى الأندلس (ت ٣٥٠هـــ)، وله تاريخ فى تراجم المحدثين مفقود. وقدم إلى مصر، وتتلمذ على يد ابن الربيع (تاريخ العلماء والرواة، لابن الفرضى ١/٥٦، ومعجم الأدباء ٣/٥٠ - ٥٢).

(٧) تهذيب التهذيب ٩/٢٢٦.

(٨) الموجود قليل من الروايات الحديثية (منها: ما ورد فى: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس: ٢/١١٨ - ١١٩، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار ٣/٣٤٨).

(٩) راجع ترجمة مقتضبة عنه فى (مخطوط تاريخ علماء أهل مصر) ورقة ٢٣٩، حيث ورد بها: أنه يكنى (أبا بكر). روى عن أبيه. ثم قال ابن الطحان: حدثونا عنه.

(١٠) ورد فى (الإكمال) ٣/٤٧ باسم عبد الله، وهو تحريف صوابه ما ذكرته فى المتن (راجع فهرس أعلام الولاة والقضاة للكندى صـــ٦٥٢).

(١١) الإكمال ٣/٤٧، وتبصير المنتبه لابن حجر ١/٣٦٤.

وقد وجدتُ بعض إشارات يسيرة تشير إلى ذلك، منها: مصاحبته لمحمد بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٦٨هـ) تلميذ الإمام الشافعى، وروايته عنه ما يتعلق بمناظرات الشافعى الفقهية فى مصر، وأنــه كان يبدو متحمساً عالى النبرة، قوى الحجة، منصفاً فى مناقشته خصومه[١]. وكذلك روى عــن محمد هذا أنه سمع من الشافعى كتاب (أحكام القرآن) فى أربعين جزءاً، وكتاب (الرد على محمــد بــن الحسن) فى سبعة أجزاء[٢]. ويترجح لدىَّ أن (ابن الربيع الجيزى) تلقى قدراً من الفقه الشافعى على محمد هذا خلال مصاحبته إياه، أو أنه استعار منه بعض كتب الشافعى، التى كانت فى بيت بنى عبد الحكم، مثل: (سنن الشافعى)[٣].

هـ - كان (ابن الربيع الجيزى) يتمتع بقدر لا بأس به من علوم عصره ومعارفه، رغم ندرة المادة العلمية عنه فى المصادر المتاحة، وعدم وجود ما يفيد أنه ألَّف كتباً فى أىّ من المجالات السابق تعرضنا لها. لكن الشئ اليقينى أن هذا القدر من العلوم، بالإضافة إلى ما يجب أن يكون عليه من سمعة طيبة بين الناس، ونزاهة وعدالة وأمانة، وأخلاق فاضلة، إلى جانب اختلاطه بأفراد مجتمعه، ومعرفته بهم عن كَثَب، وإطلاعه الواسع على ظروفهم وحياتهم، ودقائق أمورهم، لا شك أن ذلك كله جعله جديراً بأن يكون مقدَّماً فى شهود مصر[٤]، مقبولاً لدى قضاتها، ذا دور فَعّال مؤثر فى إقامة ميزان العدالة بها، ورد الحقوق إلى أصحابها[٥]، بل كان على قدر من العلم والخُلُق جعله فى مصافّ كبار فقهاء عصره؛ مما دفع قاضياً من أعظم قضاة مصر علماً وفقهاً وثقافة، وخلقاً ومهابة وعدالة وحزماً، يحرص علي مجالسته؛ لمذاكرة العلم معه[٦]، بل يجعل من كلمة نطق بها (ابن الربيع الجيزى) سيفاً مسلطاً على رقبة أحد فقهاء الشافعية البارزين فى عصره[٧].

---

(١) مناقب الشافعى، للبيهقى: جـ١/٢١٧.

(٢) الانتقاء، لابن عبد البر: صـ١١٣.

(٣) المصدر السابق: صـ١١٣. ولعل فى تلمذ (أبى الحسن على بن محمد بن إسحاق الحلبى الفقيه القاضى الشافعى نزيل مصر (٢٩٥ - ٢٩٦هـ) على يد ابن الربيع - فى الفقه على الراجح - دليلاً على بلوغه منزلة جيدة فى مجال الفقه الشافعى (سير أعلام النبلاء ١٦/٥٥٣).

(٤) الأنساب ٢/١٤٤، ومعجم البلدان ٢/٢٣٢.

(٥) كشهادته فى قضية، تظلمت فيها امرأة من محمد بن على المادَرائىّ، فظهرت براءة الرجل أمام القاضى أبى عُبيد، على بن الحسين بن حرب. (راجع تفاصيل القضية فى: رفع الإصر جـ٢ صـ٣٩٧ - ٣٩٨).

(٦) كان القاضى (ابن حَرْبُويَه ٢٩٣ - ٣١١هـ) حريصاً على مذاكرة العلم، فكان له مجلس كل عشية، يتدارس فيه مع أحد كبار علماء مصر آنذاك، فمرة يخلو بالفقيه الشافعى (منصور بن إسماعيل التميمى ت ٣٠٦هـ)، ومرة بأبى جعفر الطحاوى الفقيه الحنفى (ت ٣٢١هـ)، ويوماً بـ (محمد بن الربيع الجيزى الفقيه، والمحدث الشافعى، والمؤرخ المصرى)، وهكذا. (وفيات الأعيان ٥/٢٩١).

(٧) تذكر المصادر أن العلاقة بين القاضى ابن حربويه، والفقيه الشافعى (منصور بن إسماعيل) كانت وطيدة، إلى أن وقع خلاف فقهى بينهما (فى عهد الوالى ذكا ٣٠٣ - ٣٠٧هـ) حول نفقة المطلقة ثلاثاً، فوقع الخــلاف =

و - وأخيراً، ماذا عن (محمد بن الربيع الجيزى) مؤرخاً ؟ الحق أن النزعة التاريخية لدى مؤرخنا (ابن الربيع) لها جذور متأصلة داخله منذ فترة مبكرة، ومن خلال اهتماماته بالحديث والمحدِّثين، والفقه والفقهاء؛ بدليل ما رواه عن اجتهاد المحدِّث (علىّ بن المدينى ت ٢٣٤هـ) فى طلب العلم(١)، وما رواه بمكة عن (يحيى بن بُكَيْر) فيما يتصل بتاريخ ميلاد (الفقيه الليث بن سعد ت ١٧٥هـ)(٢). وفى اعتقادى أن الرجل ظل يُطَوِّف بين علوم القراءات، والحديث، والفقه فترة طويلة من حياته، ثم حَطَّ رحاله - فى النهاية - عند (علم التاريخ). ولرُبَّ سائل يسأل: هل له من آثار تاريخية تشهد له بالولوج فى عالم (المؤرخين) ؟ وإذا كانت له تلك المصنَّفات، فأين هى الآن ؟ ثم إذا أمكن العثور عليها بصورة أو بأخرى، فهل صاحبها الذى عاش ما يزيد على ستين عاماً من عمره المديد فى القرن الثالث الهجرى، بينما عاش أقل من ربع قرن فى القرن الرابع الهجرى، يصلح أن يدخل فى عِداد مؤرخى مصر فى القرن الرابع الهجرى ؟!

أجيب عن التساؤلات السابقة، فأقول: إن كل الثقافات التى اكتسبها مؤرخنا (ابن الربيع الجيـــزى) فى فترة حياته التى غطَّت القرن الثالث الهجرى، وصلاته بالقضاة والقضايا من خلال

- والعداء. وزاد الأمر تعقيداً أن ابن الربيع الجيزى سمع الفقيه منصوراً، يقول مقالة للنظَّام المعتزلـــى (يبـــدو أنهـــا تمـــس العقيدة)، فأبلغها للقاضى ابن حربويه كشهادة على ذلك الفقيه، فقال القاضى: إن شهد عندى شاهد آخر، مثل: محمد بن الربيع الجيزى، ضربتُ عنق منصور، فهَلِعَ منصور، وخشى على نفسه، ولزم جامع ابن طولون، لا يخرج منه إلى المساء، محزوناً مغموماً. ثم اتفق أن مات منصور بعدها بقليل (أيام يسيرة) فى جمادى الأولى سنة ٣٠٦هـ، فكان يعتقد أن القاضى جنى عليه بتهديده إياه، حتى إن الجند والعامة كادوا يفتكون بالقاضى؛ لتعصبهم لمنصور، فلم يخرج القاضى للصلاة عليه، فصلى عليه الوالى (ذكا)، الذى كان متعصباً له فى خلافه مع القاضى (معجم الأدباء ١٨٥/١٩ - ١٨٦، ووفيات الأعيان ٢٩١/٥ - ٢٩٢، والمغرب (قسم مصر) لابن سعيد صـ٢٦٣، وطبقات الشافعية للسبكى ٤٧٩/٣ - ٤٨٠). والحق أنى أفسر هذه الوقائع تفسيراً، يرجع إلى سوء الفهم والاندفاع واللَّدَد فى الخصومة دون داع، فأساس الخلاف: أن القاضى ذكر - وهو يذاكر الفقيه منصوراً الضرير - أن هناك من يزعم أن لا نفقة للمطلقة ثلاثاً، فاندفع منصور ينفى الإسلام عن قائل ذلك. فلما انصرف، حدَّث بذلك الفقيه ابن الحداد، ناسباً القول إلى القاضى (وهو لم يقله). فلما ناقش ابنُ الحداد القاضىَ، أنكر نسبة ذلك الكلام إليه، ووقعت مشادّة بين منصور والقاضى، كل يكذب الآخر، حتى طرده القاضى من مجلسه، ورفض عودته واعتذاره. ثم أشعل الخصومة تعصُّبُ الوالى والجند لمنصور، وانضمام آخرين للقاضى. ولا أعتقد صحة ما ذكره السبكى فى (طبقاته) جـ٣ صـ٤٧٩: أن ابن الربيع تحامل ضد منصور، وأوقع بين القاضى وبينه بشهادته؛ لأن ابن الربيع إنما حكى مقالة عن النظام ذكرها منصور، فتسرع القاضى فى تهديده منصوراً؛ متأثراً بالخصومة القائمة، وربما درءاً لانتشار كلام المعتزلة بين الناس، وكان قدر الله مفعولاً، فتوفى منصور بعداها بقليل.

(١) كان يذكر الحديث فى الليل، فيأمر الجارية أن تُسْرِجَ السِّراج، فينظر فيه. (تاريخ بغداد ٤٦٣/١١).

(٢) حيث روى المقدسى بسنده إلى ابن الربيع الجيزى، أن ابن بكير أنباه أنه سمع الليث ابن سعد يقول: وُلِدْتُ فى شعبان سنة ٩٤هـ. (الجمع بين رجال الصحيحين ٤٣٣/٢).

عملــه كبيراً لشهود مصر حتى سنة ٣١١هــ تقريباً[١]، لم تَضِع هباء منثوراً، وإنما صَبَّتْ بكل خـــبراتها العلمية والعملية فى عقل وفكر ذلك الرجل، لما اعتزل العمل فى سلك القضاء، وتفرغ لتألــيف كتابيْه التاريخييْن[٢]. إننا نرجح أن يكون ذلك المؤرخ قد أبدع كتابيْه هذين في القرن الــرابع الهجــرى (بعد سنة ٣١١هــ)، بعد أن استكمل أدوات البحث التاريخى، وجمع مادته (خاصــة كتابه الثانى). ولا أظنه ألّف شيئاً منها قبل ذلك، وإلا لألّف فى فروع العلم الأخرى، الــتى تمــرَّس بها، وأطال الاطلاع عليها، والرواية فيها. لقد أفاد الرجل من اطلاعاته ورواياته الحديثــية فى تأليف كتابه الأول، عن الصحابة الذين دخلوا مصر[٣]، واهتم فى أثنائه بمروياتهم الحديثــية، فمـــزج فى كتابه هذا، الذى يدخل فى باب (التراجم) بين المادة التاريخية والحديثية، مســتفيداً فى ذلــك من سلفه المؤرخ المصرى (ابن عبد الحكم)، ممهداً لمؤلَّفَىْ خَلَفِه (ابن يونس المــؤرخ). والكــتاب الثانى – وهو كتاب مفقود أيضاً – كتبه عن (أخبار قضاة مصر)، وهو حصيلة تجربته الطويلة فى التعامل مع قضاة مصر، وقضايا أهلها، على اعتبار أنه يأتى على رأس الشهود، الذين يحضرون جلسات حكم القضاة، ويشاركون فى مناقشة القضايا، ويشهدون على أحكامها الصادرة فيها. ولا شك أن علمه بالفقه خدمــه فى حسن فهمه وأدائه لمهام وظيفته، ثم ســاعده كثيراً فى تصنيف مؤلَّفه القضائى. ومن هنا عددتُ (ابن الربيع الجيزى) من مؤرخى القرن الرابع الهجرى؛ لأن مؤلَّفَيْه – فيما أرى – وُضِعا فى ذلك القرن موضع الدراسة.

* * * * *

(١) اخترتُ هذا التاريخ؛ لأنه تاريخ إعفاء القاضى (ابن حربويه) من منصب القضاء فى مصر. (ذيل ابن بُرْد على قضاة مصر للكندى صــ٤٨١). وبعد ذلك لم نجد ذكراً لابن الربيع الجيزى فى عصور القضاة التالين حتى وفاته سنة ٣٢٤هــ (السابق ٤٨١ – ٤٨٧)، إذ إن آخر قضية ورد ذكره فيها كأحد الشهود كانت فى عهد ابن حربويه القاضى (رفع الإصر ٣٩٧/٢ – ٣٩٨).

(٢) ولا مانع من أن يقوم بإقراء القرآن خلال تلك الفترة؛ بدليل تلقى البعض القراءة عليه سنة ٣١٦هــ بمصر (طبقات القراء لابن الجزرى ٤٤/٢).

(٣) وهذا الكتاب مفقود، لكن السيوطى اختصره فى (حسن المحاضرة: ١٦٧/١ – ٢٥٢)، كما وردت بعض شذرات منه فى كتاب (الإصابة) لابن حجر وغيره، على نحو يأتى تفصيلاً فيما بعد.

تعريف عام بكتاب " تاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر "
لمحمد بن الربيع الجيزى (٢٣٩ - ٣٢٤هـ)

أولاً - فُقد هذا الكتاب ضمن ما فُقد من تراثنا التاريخى، لكن السيوطى - لاهتمامه بهذا الشــأن فى كتابه: "حسن المحاضرة" - نَمّى هذا العمل، وزاده معتمداً على كتاب (ابن الربيع) كثيراً، وغيره من المصادر.

ثانياً - يعد هذا العمل تطويراً لما بدأه المؤرخ المصرى (ابن عبد الحكم ت ٢٥٧هـ)، عندما خَصّص (القسم السابع) من كتابه: (فتوح مصر) لأحاديث الصحابة، الذين دخلوا مصر. فتوسع ابن الربيع فى ذلك المجال، وزاد فى عدد الصحابة وتراجمهم، مع المحافظة على إيراد ما تيسر له من مروياتهم، إذا وُجدَتْ.

ثالــثاً - جمعت من بقايا هذا الكتاب ١٣٣ ترجمة، رجّحت ترتيبها على حروف الهجاء (حــرف الألــف - الباء. . . وهكذا حتى (لام ألف، وياء). وبعدها أوردت باب (الكُنَى)، ورتبتُ التراجم فيه على حروف الهجاء (حتى الواو). ثم أوردت باب (المبهمات)، وفيه: رجل صحابى من صُداء. وأخيراً،(الخاتمة).

رابعاً - يلاحظ أن السمة الغالبة على تراجم ابن الربيع هى الوجازة والقِصَر، لكن هذا لا يمنع وجود بعض التراجم النادرة المطوَّلة الباقية. ولعل قصر وسطحية بعض التراجم يرجع إلى تفريغ السيوطى لها من محتواها، واكتفائه بالتركيز على ما يتصل بالرواية الحديثية للمترجَم له.

خامساً - لم أكتف بدقة تجميع ما تبقى من هذا الكتاب، بحيث يُصَرَّح بنسبة الترجمة إلى ابن الربيع فى (كتابه)، وإنما وثّقتُ هذه التراجم - ما أمكن - فى الحواشى، وعلّقتُ - ما أمكن - عليها بعض التعليقات.

سادساً - هذا كتاب له أهميته فى تراجم الصحابة المصريين، وعليه اعتمد ابن الأثير فى (أسْد الغابة)، وابن حجر فى (الإصابة)، والسيوطى فى (حسن المحاضرة)، وهو ممهِّد لكتاب (تاريخ المصريين) لابن يونس الصدفى المؤرخ المصرى، الذى كتبه فى التراجم، فأضاف إلى الصحابة غيرهم من العلماء المصريين.

بقايا كتاب: (تاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر)(*)

لمحمد بن الربيع الجيزى

(حرف الهمزة)

١ - **أبيض بن حَمَّال السَّبَئي**: أخبرني يحيى بن عثمان: أنه شهد فتح مصر(١).

٢ - **الأحَبّ بن مالك بن سعد الله**: أدرك النبي ﷺ، ودخل مصر، لكنه لا تُعرف له رواية(٢).

٣ - **إياس بن البُكَيْر اللَّيْثي**: بدرى، شهد فتح مصر. ولأهل مصر عنه حديث واحد، أخبرنيه مِقْدام(٣) بن داود، حدثنا أبو الأسود النَّضْر(٤) بن عبد الجبار، عن ابن لَهيعة، عن عَيَّاش بن عَبَّاس، عن عيسى بن موسى، عن إياس بن البُكَيْر، أن رسـول الله ﷺ قال: " **من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد، ووُقى فتنة القبر** "(٥).

(حرف الباء)

٤ - **بُسْر بن أرْطاة**(٦): لأهل مصر عنه حديث واحد، وحكاية(٧). روى ابن لهيعة، عن يزيد ابن أبي حبيب، قال: كان بسر إذا ركب البحر، قال: أنت بحر وأنا بسر، عليّ وعليك الطاعة لله، سيروا على بركة الله. مات أيام معاوية بدمشق(٨).

(*) ورد هذا الاسم فى: (الإصابة) لابن حجر جـ١ صـ٤٤١، وحسن المحاضرة ٣/١ - ٤ (مقدمة السيوطى، وفيها ذكره ضمن مصادر كتابه). وأحياناً يأتى باسم آخر يتفق مع موضوعه (من دخل مصر من الصحابة)، كما فى: (حسن المحاضرة ١١/١، ١٦، وبدائع الزهور لابن إياس ٣٣/١). وذكره ابن حجر فى موضع فى (الإصابة) باسم: (من سكن مصر من الصحابة) جـ٤ صـ٧٣٣ - ٧٣٤. وهى عناوين متقاربة، أدقها ما ورد أولاً؛ فهو المعتَمد فى مصادر السيوطى.

(١) حسن المحاضرة ١٦٧/١.

(٢) المصدر السابق: ١٦٩/١.

(٣) أوردها السيوطى(مقدَّم)فى (السابق)١٧٠/١،وهو تحريف.والصواب ما ذكرتُ.

(٤) ورد فى النص باسم (نصر)، وهذا تصحيف.

(٥) السابق: ١٧٠/١.

(٦) أو (ابن أبى أرطاة). (فتوح مصر وأخبارها) لابن عبد الحكم صـ٢٦٠، وحسن المحاضرة ١٧٤/١).

(٧) ورد الحديث،والحكاية الواردة فى النص بعد ذلك فى (فتوح مصر وأخبارها)صـ٢٦٠.

(٨) أورد السيوطى هذه الترجمة فى (حسن المحاضرة ١٧٥/١.

٥ - **بشْر بن ربيعة الخَثْعَمى:** دخل مصر[(١)].

٦ - **بلال بن حارث المُزَنى:** شهد فتح مصر، وتوفى سنة ستين، وهو ابن ثمانين سنة[(٢)].

(حرف التاء)

٧ - **تمــيم بن أوس الدَّارى**[(٣)]: شهد فتح مصر. ولأهل مصر عنه حديث واحد. وسكن فلســطين بعــد قــتل عثمان، وكان النبى ﷺ أقطعه بها قرية (عَيْنُون)[(٤)]. مات سنة أربعين[(٥)].

(حرف الثاء)

٨ - **ثَوبان بن يَجْدُد**[(٦)]: شهد فتح مصر، واختطَّ بها، ولهم عنه حديث واحد[(٧)].

(حرف الجيم)

٩ - **جابر بن عبد الله الأنصارى:** قدم مصر على عقبة بن عامر - ويقال: على يد عبد الله بن أُنَيْس - يسأله عن حديث القصاص، وذلك فى أيام (مَسْلَمَة ابن مُخَلَّد). ولأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث. حدثنى أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، حدثنى عَمِّى ابنُ وهب، حدثنى محمد بن مسلم الطائفىّ، عن القاسم بن عبد الواحد، عن عبد الله بن محمد بن عَقيل بن أبى طالب، عن جابر بن عبد الله الأنصارى، قال: كان عبد الله بن أُنَيْس الجُهَنِىّ - وكان عِداده فى الأنصار - يحدّث عن رسول الله ﷺ حديثاً فى القصاص. قال جابر ابن عبد الله: فخرجتُ إلى السوق، فاشتريتُ بعيراً، ثم شددتُ عليه رَحْلاً، ثم سرتُ إليه شهراً. فلما قدمتُ عليه مصر، سألتُ عنه، حتى وقفتُ على بابــه، فسلّمتُ، فخرج إلىّ غلام أسود، فقال: من أنت ؟ قلتُ: جابر بن عبد الله. فدخل عليه، فذكر ذلك، فقال: قل له: أصاحب رسول الله ﷺ ؟ فخرج الغلام، فقال ذلك، فقلتُ: نعم. فخرج إلىّ والتزمنى والتزمتُه، فقال: ما جاء بك يا أخى ؟ قلتُ:

---

(١) المصدر السابق: ١/١٧٥.

(٢) السابق: ١/١٧٦ - ١٧٧.

(٣) ذكر ابن حجر، والسيوطى: أنه كان نصرانيّاً فأسلم، وكان راهب عصره، وعابد فلسطين. (الإصابة ١/٣٦٨، وحسن المحاضرة ١/١٧٧).

(٤) من قرى بيت المقدس. (معجم البلدان ٤/٢٠٣).

(٥) حسن المحاضرة ١/١٧٧.

(٦) ويقال: ابن جحدر، وهو مولى رسول الله ﷺ. (الإصابة ١/٤١٣، وحسن المحاضرة ١/١٨٠).

(٧) المصدر السابق: ١/١٨٠.

حديث تُحَدِّث به عن رسول الله ﷺ فى القصاص، لم يبق أحد يحدّث به عن رسول الله غيرك، أردتُ أن أسمعه منك، قبل أن تموتَ، أو أموتَ. قال: نعم، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: " إذا كان يوم القيامة، حشر الله الناس حُفاة عُراة غُرْلاً بُهْماً، ثم جلس على كرسيه (تبارك وتعالى)، ثم ينادى بصوت، يسمعه مَنْ بَعُدَ، كما يسمعه من قَرُب، يقول: أنا الملك الديّان، لا ظُلْمَ اليومَ. لا ينبغى لأحد من أهل الجنة يدخل الجنة، ولا ينبغى لأحد من أهل النار يدخل النارَ عنده مَظْلَمة، حتى لطمةٌ بيد ". قيل: يا رسول الله، فكيف، وإنما نأتى الله يوم القيامة حفاة عراةَ غُرْلاً[١] بُهْماً ؟! قال: " من الحسنات والسيئات ". قال له بعض القوم: ما البُهْمُ ؟ قال: سألتُ عنها جابرَ ابن عبد الله، فقال: الذين لا شئَ معهم[٢].

وحدثنا علىّ بن الحسن، عن[٣] الربيع بن إسحاق، عن أحمد بن يحيى بن دريد، عن أبى نُعَــيْم، عن ابن المبارك، عن داود، عن عبد الرحمن العطار، عن القاسم بن عبد الواحد ابن محمد بن عَقيل، عن جابر بن عبد الله، قال: سرتُ إلى عبد الله بن أبى أُنَيْس – وهو بمصر – أسأله عن حديث. . . ثم ذكره[٤].

١٠ - **جابر بن ماجد[٥] الصَّدَفى**: جابر الصدفى، ويقال: قيس الصدفى. روى ابن لهيعة، عن عبد الرحمن بن جابر بن قيس، عن أبيه، عن جده مرفوعاً، قال: " سيكون بعدى خلفاء، وبعد الخلفاء أمراء، وبعد الأمراء ملوك، وبعد الملوك جبابرة، وبعد الجبابرة يخرج رجل من أهل بيتى، يملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جَوراً، ثم يكون من بعده القَحْطانىّ. والذى نفس محمد بيده ما هو بدونه. " ورُوى عن عبد الرحمن بن قيس بن جابر[٦].

١١ - **جاحِل، أبو مسلم[٧] الصدفى**: لا نعرف له حضور الفتح، ولا خِطــةً بمصر. ولم يرو عنه

---

(١) جمع أغْرَل، وغَرْلاء. والغُرْلَة: حلفة الصبى التى تُقطع فى الختان. وتُجمع على (غُرَل). والمقصود: أن الناس تُحشر يوم القيامة على هيئتها، التى كانت قد وُضعت عليها فى الدنيا (قبل الختــان). (لسان العرب: مــادة غ.ر.ل؛ جــ٥/٣٢٤٦، والمعجم الوسيط ٢/٦٧٥).

(٢) حسن المحاضرة ١/١٨٢.

(٣) وردت فى (المصدر السابق) ١/١٨٢ هكذا: بن.

(٤) السابق: ١/١٨٢ - ١٨٣.

(٥) ورد اسم والده فى (الإصابة) ١/٤٤٠، وحسن المحاضرة ١/١٨٣.

(٦) حسن المحاضرة: ١/١٨٣.

(٧) ورد مُكَنّى بــ(أبى محمد)فى(المصدر السابق):١/١٨٤.والصواب ما ذكرتُ فى المتن، فهو الواضح من خلال سند الحديث. وكذا ذكره ابن حجر فى(الإصابة)جــ١ صــ٤٤١.

غير أهل مصر فيما أعلم. وللمصريين عنه حديث واحد من طريق ابن وهب، ثنا أبو الأُشيْم مؤذن مسجد دمياط، عن شُرحبيل بن يزيد، عن محمد بن مسلم بن جاحل، عن أبيه، عن جده، عن رسول الله ﷺ[١]، قال: "إن أحصاهم لهذا القرآن من أمتى منافقوهم "[٢].

١٢ - جبارَة[٣] بن زُرارة البَلَوىّ: بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، وكان اسمه (حبارة)، فسمَّاه النبى (جبارة)[٤].

١٣ - **جَبَلةُ بن عمرو الأنصارى**[٥]: توجد رواية عنه من طريق خالد بن أبى عمران، عن سليمان بن يَسار، أنه سُئل عن النَّفَل[٦] فى الغزو، فقال: لم أر أحداً يعطيه غير ابن حُدَيْج، نَفَّلَنا[٧] فى إفريقية الثلث[٨] بعد الخُمُس، ومعنا من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الأوَّلين ناسٌ كثير، فأبى جبلةُ بن عمرو الأنصارى أن يأخذ منه شيئاً[٩].

١٤ - **جَرْهَد بن خُوَيْلِد**: شهد فتح مصر[١٠].

(١) المصدر السابق ١/٤٤١. (٢) حسن المحاضرة ١/١٨٤.

(٣) هكذا ورد بكسر الجيم مع فتح الباء وتخفيفها فى كل من: (الاستيعاب ١/٢٧٨، والإكمال ٢/٤٦، وأسد الغابة ١/٣١٦، والإصابة ١/٤٥٠، وحسن المحاضرة ١/١٨٤).

(٤) ولنفهُّم سر تغيير الرسول اسم هذا الصحابى، رجعتُ إلى معاجم اللغة، فألفيتُ مادةَ (ح.ب.ر) بها (الحَبار): أثر الشئ، مثل: يُبْس اليد من أثر العمل، أو من صَدْم ونحوه فى الجلْد. تقول: أحْبَرت الضربة جلْدَه، وبجلده: أثرتْ فيه. ورجل مُحَبَّر: إذا أكلت البراغيث جلده، فتركت آثاراً. (لسان العرب ٢/٧٥٠، والمعجم الوسيط ١/١٥٨). وبالنسبة لمادة (ج.ب.ر): جَبَرَ يَجْبُرُ جُبوراً وجِبارَة. ومنه: جُبِر العَظْم: أُصلح. والجَبار: جمع جَبْر. والجِبَارة والجبيرة: عيدان تُجبَّر بها العظام. وفى الدعاء: " اللهم اجْبُرْنى واهْدِنى. أى: عوِّضْنى ما فقدتُه. (مختار الصحاح صـ٩١، واللسان ١/٥٣٥، والمعجم الوسيط ١/١٠٩). ومعنى ما تقدم: أن الرسول غيَّر اسمه إلى الأحسن، فبدلاً من أن يحمل ظلال عيب جلدى، حَوَّله إلى لفظة فيها معنى الإصلاح والتعويض والخير.

(٥) حسن المحاضرة ١/١٨٥.

(٦) و(٧) النَّفَل: الغنيمة والهبة. والجمع (أنفال). وذلك بخلاف (النَّفْل) بتسكين الفاء، الذى يعنى ما شُرِع زيادة عن الفريضة. تقول: نَفَلَ فلاناً: أعطاه نافلة من المعروف. نَفَّلَ (بالتشديد): أعطاه زيادة على نصيبه الواجب. (لسان العرب. مادة (ن.ف.ل): ٦/٤٥٠٩، والمعجم الوسيط ٢/٩٨٠).

(٨) ورد النص فى (فتوح مصر وأخبارها) صـ٣١٨، بلفظة (النصف) بدلاً من (الثلث).

(٩) معلوم أن الأصل فى توزيع الغنائم قوله تعالى: " وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ". (سورة الأنفال: الآية ٤١). فالغنائم تُوزع أربعة أخماسها على المقاتلين؛ للرجل سهم، وللفارس سهمان (أو ثلاثة). والخمس الباقى يُقَسَّم إلى خمسة أقسام: للرسول (أو القائد)، ولذى القربى، ولليتامى، والمساكين، وابن السبيل. ومن حق القائد (أو الإمام) أن يُخرج من سهمه ما يراه فى = صالح المسلمين. وقد رأى ابن حديج أن يزيد المقاتلين على نصيبهم الثلث أو النصف من هذا السهم، فظنه عمرو بن جَبَلة عملاً غير مطابق للسنة، فتحرَّج من أخذه، بينما هو صحيح، ولم يعترض عليه كبار المهاجرين الأولين. (راجع تفاصيل توزيع الغنائم فى تفسير ابن كثير (الآية الأولى من سورة الأنفال) جـ٢ صـ٢٨٤. والآية رقم ٤١، جـ٢ صـ٣١٠ وما بعدها).

(١٠) حسن المحاضرة ١/١٨٦.

١٥ - **جُـنادة بـن أبي أُمَيَّة الأزدي**[١]: كان من الصحابة، شهد فتح مصر، وروى عنه أهلها، وولي البحر لمعاوية[٢].

(حرف الحاء)

١٦ - **حبَان بن بُحّ الأنصاري**: لأهل مصر عنه حديث واحد[٣].

١٧ - **حزام بن عوف البَلَويّ**: من بني جُعَل. حكى سعيد بن عُفَيْر أنه ممن بايع رسولَ الله ﷺ تحت الشجرة في رهط من قومه[٤]، فقال لهم: " لا صخر ولا جعل. أنتم بنو عبد الله "[٥].

١٨ - **حمزة بن عمرو الأسْلَميّ**: شهد فتح مصر[٦].

١٩ - **حنظلة**: صاحب النبي ﷺ. دخل مصر[٧].

٢٠ - **حُيَيّ بن حرام الليثي**: لأهل مصر عنه حديث واحد[٨].

(حرف الخاء)

٢١ - **خارجة بن حُذافة**: لم يرو عنه غير المصريين[٩].

٢٢ - **خالد بن العَنْبَس**: صحابي دخل مصر، ولا تُعرف له رواية[١٠].

٢٣ - **خَرَشَة بن الحارث الأزدي**: لأهل مصر عنه حديث واحد[١١].

---

(١) هذا هو الراجح (ابن أبي أمية). راجع: ابن سعد في (طبقاته) ٣٠٦/٧، وابن عبد الحكم في (فتوح مصر وأخبارها) صـ٣٠٦، وابن حجر في (الإصابة) ٥٠٢/١. وذكر ابن حجر في (تهذيب التهذيب) جـ٢/٩٩: يقال: إن اسم أبيه (أبي أمية) كثيرٌ. وورد باسم (أمية) في (حسن المحاضرة) ١٨٦/١، وأعتقد أنه سهو من الناسخ، أو خطأ مطبعي لم يُصَوَّب، فهو مما لا يفوت ابن الربيع الجيزي، ولا السيوطي.

(٢) المصدر السابق: ١٨٧/١.

(٣) المصدر السابق: ١٨٩/١ - ١٩٠، وحديثه في (فتوح مصر) صـ٣١١ - ٣١٢.

(٤) الإصابة ٦٠/٢، وحسن المحاضرة ١٩٠/١.

(٥) الإصابة ٦٠/٢.

(٦) حسن المحاضرة: ١٩١/١.

(٧) المصدر السابق: ١٩٢/١.

(٨) السابق: سَمَّاه ابن عبد الحكم دون أن ينسبه، وذكر له رواية واحدة (فتوح مصر ٣١٦).

(٩) الإصابة ٢٢٢/٢، وحسن المحاضرة ١٩٣/١. وقد أورد له ابن عبد الحكم روايتين في (فتوح مصر) صـ٢٥٩ - ٢٦٠.

(١٠) أسد الغابة ١٠٦/٢، والإصابة ٢٤٦/٢ (وذكر أن مُغْلَطاي تَعقَّب ما ذكره ابن الأثير في (المصدر السابق)، من ذكر ابن الربيع – لا أبي الربيع كما ورد تحريفاً – له في الصحابة، ولم يُعقِّب). والصواب: أن ابن الأثير على صواب فيما قال؛ بدليل إيراد السيوطي لهذا الصحابي نقلاً عن (كتاب ابن الربيع). وقد رد على مغلطاي ما قال، وذكر أن هذا الصحابي في آخر كتاب ابن الربيع (حسن المحاضرة ١٩٤/١).

(١١) المصدر السابق ١٩٤/١. ذكر ابن عبد الحكم له رواية في (فتوح مصر) صـ٣١٦.

(حرف الدال)

٢٤ - **دحْيَة بن خليفة الكلبى**: شهد فتح مصر، وقد نزل دمشق، وسكن المِزَّة[١]، وعاش إلى خلافة معاوية[٢].

٢٥ - **دَيْلَم بن هُوشَع الجَيْشانى**[٣]: من موالى بنى هاشم، ولأهل مصر عنه حديث واحد[٤].

(حرف الراء)

٢٦ - **ربيعة بن شُرَحْبيل بن حَسَنَة**: صحابى شهد فتح مصر. وقد أدرك النبى، وهو غلام. وأخوه عبد الرحمن بن شرحبيل. ولا يُعرف له حديث[٥].

٢٧ - **ربيعة بن عِباد الدِّيلى**[٦]: ذكره الواقدى فيمن دخل مصر من الصحابة؛ لغزو الغرب[٧].

٢٨ - **رشيد بن مالك**[٨]: من أصحاب النبى ﷺ، وذُكر فى أهل مصر، ولأهل مصر عنه حديث[٩].

٢٩ - **رَكْب المصرى**: له صحبة[١٠].

٣٠ - **رُوَيْفِع بن ثابت**[١١]: شهد فتح مصر، واختط بها. ولأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث[١٢].

---

(١) ضَيْعَة حسنة على باب دمشق. (الأنساب ٥/٢٨٢).

(٢) حسن المحاضرة ١/١٩٦.

(٣) المصدر السابق: ١/١٩٦.

(٤) حديثه فى (فتوح مصر) لابن عبد الحكم صـ٣٠٣. ولم يذكر هذا المؤرخ اسم والد هذا الصحابى، ويمكن مراجعة ترجمته فى (الإصابة) جـ٢ صـ٣٩٢، حيث يوجد أكثر من اسم محتمل له.

(٥) الإصابة: ٢/٥٠٤، وحسن المحاضرة ١/١٩٧.

(٦) ورد نسبه بالياء تصحيفاً فى (المصدر السابق ١/١٩٨)، وقد أثبتُّه كما فى (فتوح مصر) صـ٣١٩. أما ابن حجر فى (الإصابة) جـ٢ صـ٤٦٩، فرجح ضبط أسم أبيه كما فى المتن، وجعل نسبه (الدئلى).

(٧) حسن المحاضرة ١/١٩٨.

(٨) وهو أبو عَميرة المُزَنى (فتوح مصر صـ٣١٣)، وحسن المحاضرة ١/١٩٨.

(٩) راجع حديثه فى (فتوح مصر) صـ٣١٣ - ٣١٤.

(١٠) حسن المحاضرة ١/١٩٩.

(١١) المصدر السابق: ١/١٩٩.

(١٢) ذكر ابن عبد الحكم أن له عند المصريين أحاديث أقل من العشر، ذكر منها خمسة أحاديث (فتوح مصر ٢٧٩ - ٢٨٠).

(حرف الزين)

٣١ - **الزُّبَيْر بن العَوَّام**: شهد فتح مصر، واختط بها. ولأهل مصر عنه حديث واحد: روى عبد الله بن المغيرة بن أبي بُرْدَةَ: سمعتُ سفيان بن وهب الخَوْلانيّ يقول: " لما فتحنا مصر بغير عهد، قام الزبير بن العوام، فقال: يا عمرو، اقسمْها. فقال عمرو بن العاص: لا أقسمها. فقال الزبير: والله، لَتَقْسِمَنَّها كما قسم رسول الله ﷺ خَيْبَرَ. فقال عمرو: لم أكن لأُحْدِثَ حَدَثاً، حتى أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين. فكتب إلى أمير المؤمنين. فكتب إليه عمر ابن الخطاب: أقِرَّها حتى تغزوَ منها حَبَلُ الحَبَلَة ". لم يرو أهل مصر عن الزبير بن العوام غير هذا الحديث الواحد[١]. قُتل راجعاً من وقعة الجمل بوادى السِّباع في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين، وله ست أو سبع وستون سنة[٢].

٣٢ - **زياد بن الحارث الصُّدائيّ**[٣]: شهد فتح مصر، ولأهل مصر عنه حديث واحد[٤].

(حرف السين)

٣٣ - **السائب بن خَلاَّد**: شهد فتح مصر، وقدم على عقبة، فاستذكره حديث: "من ستر عورة. . . "، الذى رحل فيه السائب بن خَلاَّد إلى مصر[٥].

قال ابن عبد الحكم: ذكر يحيى بن حسان، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، قال: إن السائب بن خلاد الأنصارى قدم على (عقبة بن عامر الجُهَنِيّ)، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: " من ستر مسلماً، ستره الله " فقال: أنت سمعتَه من رسول الله ﷺ ؟ قال: نعم. قال: فراح، و لم يَقْدَم من المدينة إلا لذلك[٦].

أخبرني يحيى بن عثمان بن صالح، أنبأنا يونس[٧] بن عبد الأعلى، أخبرني عبد الجبار بن عمر: أن مسلم بن أبي حرّة، حَدّثه عن رجل من أهل قُباء، أنه قدم مصر على مَسْلَمة بن مُخَلَّد،

---

(١) مسند أحمد ١/١٦٦، وفتوح مصر: ٢٦٣، وحسن المحاضرة ١/١٢٦ - ١٢٧. والمقصود أن عمر ﷺ جعل الأرض في أيدى أهلها يزرعونها، ويَجبى المسلمون خراجها، فتستفيد من ذلك الأجيال الآتية.

(٢) المصدر السابق: ١/٢٠٠.

(٣) السابق: ١/٢٠٠.

(٤) راجع: فتوح مصر: ٣١٢ - ٣١٣.

(٥) حسن المحاضرة ١/٢٠٢. وقد ورد نص الحديث في (فتوح مصر) صـ٢٧٥ بلفظ: " من ستر مسلماً، ستره الله ".

(٦) حسن المحاضرة ١/٢٠٢.

(٧) ورد في (المصدر السابق) باسم (يوسف)، وهو تحريف. ويونس المذكور (ت ٢٦٤هـ) يمكن أن يروى عن أستاذه (عبد الجبار بن عمر الأيْليّ) المتوفى بين ٢٦٠ - ٢٧٠هـ. راجع ترجمة الأخير في (تهذيب التهذيب) ٦/٩٤.

فضرب عليه الباب واستأذن عليه، فخرج مسلمة إليه، فقال: انزل، فقال: لا، ولكن أرسل معي إلى فلان – رجل من أصحاب النبي ﷺ – ، قال: حسبتُ أنه قال: سُرَّق. فذهب إليه في قرية، فقال له: هل تذكر مجلساً، كنتُ أنا وأنتَ فيه مع رسول الله ﷺ، ليس معنا أحد غيرنا ؟ فقال: نعم. فقال: كيف سمعتَه يقول ؟ قال: سمعتُه يقول: " من اطلع من أخيه على عورة، ثم سترها، جعلها الله له يوم القيامة حجاباً من النار ". قال: كنتُ أعرف ذلك، ولكني أُوهِمْتُ أن أحدّث به على غير ما كان. ثم ركب على صدر راحلته، ثم رجع[١].

٣٤ – **السائب الغفاريّ**[٢]: لا يوقف له على حضور الفتح، ولأهل مصر عنه حديث واحد من طريق ابنِ لهيعة، عن أبي قَبيل، عن رجل من بني غِفار، حدثه أن أمه أتتْ به إلى رسول الله ﷺ، وعليه تَميمة. قال: فقطع رسول الله ﷺ تَميمتي، وقال: ما اسم ابنك ؟ قالت: السائب. فقال النبي ﷺ: بل سَمِّه[٣] عبد الله. فقلتُ: أتجيب بكلتيهما ؟ فقال: لا والله، ما كنتُ لأجيب إلا على اسم رسول الله ﷺ، الذي سَمّاني[٤].

٣٥ – **سعد بن أبي وَقّاص**[٥]: شهد فتح مصر، ووردها رسولاً من قبل عثمان. سمعتُ يحيى بن عثمان بن صالح يقول: قدم سعد بن أبي وقاص في خلافة عثمان رسولاً من قبل عثمان إلى أهل مصر أيامَ ابن أبي حُذَيْفَةَ، فلقوه خارجاً من الفسطاط[٦]، ومنعوه من دخولها، فقال لهم: فلتسمعوا ما أقول لكم. فامتنعوا عليه، فدعا عليهم أن يضربهم الله بالذل[٧]. ولأهل مصر عنه

(١) حسن المحاضرة ٢٠٢/١ – ٢٠٣.

(٢) ورد في (الإصابة) ٢٦/٣.

(٣) لعل الصواب: سَمِّيه.

(٤) حسن المحاضرة ٢٠٣/١. ويلاحظ أن هناك خلافاً يسيراً بين رواية ابن الربيع الواردة في المتن، ورواية ابن حجر في (الإصابة ٢٦/٣)، حيث تذكر الأخيرة أن الرسول سأل السائب نفسه عن اسمه، فأجاب، فغيّر اسمه. وهنا سأله أبو قبيل: بأيهما تجيب، فقال: بكليهما. فعلّق أبو قبيل بأنه لو كان مكانه، ما أجاب إلا عن الاسم الذي سمّاه إياه رسول الله. أما في رواية ابن الربيع بالمتن، فسؤال الرسول ﷺ عن اسمه موجّه إلى أم الصحابي، فأمرها بتسميته (عبد الله). ولما سأله أبو قبيل عما إذا كان يجيب بكلتا التسميتين، نفى أن تكون إجابته إلا عن الاسم الذي سَمّاه إياه رسول الله ﷺ.

(٥) ذكر السيوطي أن أباه اسمه (مالك). (حسن المحاضرة ٢٠٥/١).

(٦) المقصود: فسطاطه، أي: خيمته التي نزل بها؛ وليست مدينة الفسطاط؛ لأنهم منعوه من دخولها.

(٧) ذكر الحادثةَ الكنديُّ بدقة، وأورد دعاء سعد على مانعيه دخول مصر بنصه، لا بمعناه كما ذكره السيوطي (حسن المحاضرة ٣٣٦/٢). قال في (الولاة صـ١٦): " فخرج إليه (إلى سعد) منهم مائة أو نحوها، فلقوه بمرحلة بني سعد، وقد ضرب فسطاطه وهو قائل: فقلبوا عليه فسطاطه، وشجُّوه، وسبُّوه، فركب راحلته، وعاد راحلاً من حيث جاء، وقال لهم: " **ضربكم الله بالذل والفُرقة، وشتّت أمركم، وجعل بأسكم بينكم، ولا أرضاكم بأمير، ولا أرضاه عنكم** ".

حديث واحد[١]. مات بالعَقيق[٢]، وحُمل إلى المدينة، فدُفن بالبَقيع[٣] سنة خمس وخمسين. وقيل: سنة ست. وقيل: سبع. وله بضع وسبعون سنة. وهو آخر العشرة وفاة[٤].

٣٦ - **سفيان بن وهب الخَوْلانى:** لم يرو عنه غير أهل مصر فيما أعلم. ولهم عنه[٥] حديثان[٦]. مات سنة إحدى وتسعين[٧].

٣٧ - **سلامة بن قيصر الحضرمى:** شهد فتح مصر، ولأهلها عنه حديث واحد[٨].

٣٨ - **سلْكان بن مالك:** ذكره الواقدى فيمن دخل مصر من الصحابة؛ لغزو المغرب[٩].

٣٩ - **سَلَمَة بن الأكْوَع:** ذكره الواقدى فيمن دخل مصر؛ لغزو المغرب مات بالمدينة سنة سبع وسبعين، وهو ابن ثمانين سنة وكان شجاعاً رامياً، وكان يسبق الفرسَ شدّاً على قدميْه[١٠].

٤٠ - **سَنْدَر**[١١]: لأهل مصر عنه حديثان:

أحدهما -من طريق يزيد بن أبى حبيب، عن ربيعة بن لَقيط التُّجيبىّ، عن عبد الله بن سَنْدَر، عن أبيه: أنه كان عبداً لزِنْباع بن سلامة الجُذامى، فعتب عليه، فخصاه وجَدَعَه. فأتى رسول الله، فأخبره. فأغلظ لزنباع القول، وأعتقه منه. قال: أوْصِ بى يا رسول الله. قال: أُوصى بك كل مسلم[١٢].

---

(١) يذكر ابن عبد الحكم أن (سعد بن أبى وقاص) ممن دخل مصر من الصحابة، وليست له - فيما بلغه - حكاية (فتوح مصر ٣١٨).

(٢) قال ياقوت: تقول العرب لكل مَسيل ماء، شَقّه السيل فى الأرض، وجعل منه وادياً واسعاً: هو عقيق. والأعقّة متعددة فى بلاد العرب، لعل المقصود منها: عقيق بناحية المدينة فيه نخل وعيون. (معجم البلدان ١٥٦/٤). ويرجح ذلك ما أورده ابن الأثير فى (أسد الغابة) حـ٣٦٩/٢: أنه توفى بالعقيق على سبعة أميال من المدينة، فحُمل على أعناق الرجال إلى المدينة، وصلى عليه مروان بن الحكم، وأزواج النبى ﷺ فى المسجد النبوى.

(٣) موضع بالمدينة، فيه شجر كثير، وهو مقبرة أهل المدينة. (معجم البلدان ٥٦٠/٢).

(٤) حسن المحاضرة ٢٠٥/١ (صُدّر النص بـ (قال الربيع). والصواب: ابن الربيع.

(٥) وردت فى النص: (عنده). وهى غير دقيقة.

(٦) ذكر ابن عبد الحكم أن له أحاديث فى مصر، ذكر منها حديثين (فتوح مصر ٣٠٧).

(٧) حسن المحاضرة ٢٠٦/١.

(٨) المصدر السابق: ٢٠٦/١.

(٩) السابق: ٢٠٦/١.

(١٠) حسن المحاضرة ٢٠٦/١.

(١١) سمّاه ابن عبد الحكم: (ابن سندر) فى (فتوح مصر) صـ٣٠٣. وصدَّر السيوطى النص بـ (قال ابن أبى الربيع). (حسن المحاضرة) ٢٠٧/١. والصواب: (قال ابن الربيع).

(١٢) المعجم الكبير) ١٦٩/٧ (حديث رقم ٦٧٢٦)، وذكره السيوطى فى (مخطوط جمع الجوامع) حـ١ صـ١١٨٨.

والثاني – من طريق يزيد بن أبي حبيب، عن أبي الخير مَرْثَد بن عبد الله اليَزَنيّ، عن سندر، قال: سمعتُ رسول الله يقول: " أسْلَم سالَمها الله، وغِفار غفر الله لها، وتُجيبُ أجابت الله ورسولَه[1].

٤١ – **سهل بن سعد**: قدم مصر – بعد الفتح – على مسلمة بن مُخَلَّد. ولأهل مصر عنه أحاديث[2]. مات سنة إحدى وتسعين، وقيل: سنة ثمان وثمانين، وهو ابن مائة سنة. وهو آخر من مات من الصحابة بالمدينة[3].

(حرف الشين)

٤٢ – **شَبَث بن سعد البلوى**: ذكر سعيد بن عُفير: أنه شهد فتح مصر، وله صحبة[4].

(حرف الصاد)

٤٣ – **صُحار بن صَخْر**: شهد فتح مصر. ورى عنه ابناه: عبد الرحمن، وجعفر. نزل البصرة، وكان من الفصحاء. سأله معاوية عن البلاغة، فقال: لا تُخطئ، ولا تُبطئ[5].

٤٤ – **صِلَة بن الحارث الغفارى**: عنه حديث واحد: بينما سُليم بن عِتْر كان يقص على الناس وهو قائم، إذ قال له شيخ من بنى غفار له صحبة (صلة بن الحارث الغفارى): والله، ما تركنا عهد نبينا، ولا قطعنا أرحامنا، حتى قمتَ أنتَ وأصحابك بين أظهرنا[6].

(حرف الضاد)

٤٥ – **ضَمْرَة بن الحصين البلوى**: شهد ذكر سعيد بن كثير بن عُفَيْر: أنه ممن بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، وسكنها[7].

(حرف العين)

٤٦ – **عائذ بن ثعلبة البلوى**: شهد بيعة الرضوان تحت الشجرة، واختط بمصر، واستشهد بالبرلس[8].

---

(١) المعجم الكبير للطبراني جـ٧/٢١ (حديث رقم ٦٢٥٥) من طريق آخر، وبحذف ما يخص (تجيب) من الحديث.

(٢) ذكر ابن عبد الحكم منها أربعة أحاديث. (فتوح مصر: صـ٢٧٥ – ٢٧٦).

(٣) حسن المحاضرة: ١/٢٠٧.

(٤) حسن المحاضرة: ١/٢٠٨.

(٥) الإصابة ٣/٤١١، وحسن المحاضرة: ١/٢٠٨.

(٦) فتوح مصر: ٣١٤ (وعبّر عن مقالته تلك بالحديث)، والإصابة: ٣/٤٤٧، وحسن المحاضرة: ١/٢١٠.

(٧) الإصابة: ٣/٤٨٩، وحسن المحاضرة ١/٢١٠.

(٨) الإصابة: ٣/٦٠٧، وحسن المحاضرة ١/٢١٠ – ٢١١.

٤٧ - **عبادة بن الصامت**: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه عشرة أحاديث[١]. مات بفلسطين سنة أربع وثلاثين، وله اثنان وسبعون سنة[٢].

٤٨ - **عبد الله بن أُنَيْس الجُهَنِي**: ويقال: ابن أُنَيْسة، أبو يحيى المدنى، حليف الأنصار. شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وأُحُداً، وما بعدها من المشاهد. ولقّبه النبى ﷺ سريَّة وحده. نزل مصر، ورحل إليه جابر بن عبد الله فى حديث القصاص. مات فى خلافة معاوية سنة أربع وخمسين[٣].

٤٩ - **عبد الله بن الحارث بن جَزْء الزُّبَيْدى**: لأهل مصر عنه عشرون حديثاً[٤].

٥٠ - **عبد الله بن حُذَافة السَّهْميّ**: هو من الصحابة البدريين الذين دخلوا مصر، ولا رواية لأهل مصر عنه[٥].

٥١ - **عبد الله بن حَوالة الأزدى**: شهد فتح مصر،ولأهلها عنه حديث واحد[٦]. نزل الأردن سنة ثمان وخمسين، وهو ابن اثنتين وسبعين سنة[٧].

٥٢ - **عبد الله بن الزبير بن العوام**: قدم مصر فى خلافة عثمان،وشهد إفريقية. ولأهل مصر عنه حديث واحد[٨]. بويع له بالخلافة بعد موت يزيد ابن معاوية سنة أربع وستين، وغلب على أهل الحجاز واليمن، والعراق ومصر، وأكثر الشام، فأقام فى الخلافة تسع سنين، إلى أن قتله الحَجَّاج سنة ثلاث وسبعين[٩].

٥٣ - **عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح**: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه حديث واحد، ولم يروى عنه غير أهل مصر، فيما أعلم. مات بعَسْقَلان سنة ست وثلاثين. والحديث الذى رواه فى قصة: (اُسْكُنْ حِراءُ)[١٠].

---

(١) ذكر له منها ابنُ عبد الحكم ستة أحاديث. (فتوح مصر ٢٧١ - ٢٧٣).
(٢) حسن المحاضرة ٢١١/١. وحدد ابن عبد الحكم وفاته فى مدينة الرملة سنة ٣٤هـ (فتوح مصر) صـ٢٧٣.
(٣) حسن المحاضرة٢١١/١.وسمّاه ابن حجر(عبد الله بن أبى أُنَيْسة)فى (الإصابة) ١٨١/٥.
(٤) حسن المحاضرة: ٢١٢/١. هذا، وقد ذكر ابن عبد الحكم أن له عند المصريين قريباً من عشرين حديثاً،ذكر له منها أحد عشر حديثاً فى كتابه (فتوح مصر)صـ٢٩٩ - ٣٠٢.
(٥) حسن المحاضرة ٢١٢/١.
(٦) ذكر له ابن عبد الحكم حديثاً فى (فتوح مصر صـ٣١١).
(٧) حسن المحاضرة ٢١٢/١.
(٨) أورد اسمَه ابنُ عبد الحكم، وذكر أنه لم تبلغه عنه حكاية (فتوح مصر: صـ٣١٨).
(٩) حسن المحاضرة ٢١٢/١ - ٢١٣.
(١٠) المصدر السابق ٢١٣/١. وورد هذا الحديث فى: (فتوح مصر صـ٢٦٢، والمعرفة والتاريخ للفَسَوى جـ١ صـ ٢٥٣ - ٢٥٤).

٥٤ - **عبد الله بن عباس بن عبد المطلب**: دخل مصر فى خلافة عثمان، وشهد فتح المغرب، ولأهل مصر عنه أحاديث. مات بالطائف سنة ثمان وستنين، وهو ابن إحدى - أو اثنتين - وسبعين[١].

٥٥ - **عبد الله بن عُدَيْس البَلَوى**: لا يُعرف له رواية عن النبى ﷺ[٢].

٥٦ - **عبد الله بن عمر بن الخطاب**: شهد فتح مصر، واختط بها دار البِركَة، ولهم عنه أحاديث. مات بمكة سنة ثلاث وسبعين. وقيل: سنة أربع. وله من العمر أربع وثمانون سنة. وقيل: سبع[٣] وثمانون سنة[٤].

٥٧ - **عبد الله بن عمرو بن العاص**: شهد فتح مصر، واختط بها، ولأهلها عنه أكثر من مائة حديث[٥]. ومات - فيما ذكره ابن عبد الحكم[٦] - بمصر، وقيل: بالشام، وقيل: بعسقلان، ويقال: بمكة سنة خمس وستين، وله اثنتان وسبعون سنة[٧].

٥٨ - **عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق**: دخل مصر فى سبب أخيه محمد. ولأهل مصر عنه حديث واحد[٨]. مات بمكة سنة ثلاث وخمسين، وقيل: سنة خمس، أو ست[٩].

٥٩ - **عبد الرحمن بن شُرَحْبيل بن حَسَنَة**: أخو ربيعة. له رواية، وشهد فتح مصر[١٠]. وكان قد أدرك النبى، ولا يُعرف له عنه حديث هو أخو ربيعة[١١].

---

(١) حسن المحاضرة ٢١٤/١.

(٢) الإصابة ١٧٧/٤، وحسن المحاضرة ٢١٤/١. وجانب ابنَ حجر الصوابُ، لما ذكر أن (ابن الربيع) نسب حديثاً إلى (عبد الله بن عُدَيْس البلوى)، رغم أن ابن حجر ذكر أنه لا تُعرف له رواية (وهو نفس الذى نقله السيوطى عن ابن الربيع، وهو الصواب). والغريب أن ابن حجر لم يعلق على ذلك التناقض، ولم ينتبه إليه، وعاد فى ترجمة أخيه (عبد الرحمن)، وذكر الحديث نفسه له، كما سيأتى (الإصابة ٣٣٤/٤). فلعل النسبة الخاطئة المشار إليها زيادة من النساخ، لم يفطن المحقق إليها.

(٣) وردت بلفظة (سبعة). والصواب ما أثبت.

(٤) حسن المحاضرة ٢١٤/١. وبخصوص الأحاديث التى رواها عنه المصريون، فإنها تبلغ حوالى ثمانية أحاديث، وروى منها ابن عبد الحكم أربعة(فتوح مصر صـ٢٦٤ - ٢٦٥).

(٥) قال ابن عبد الحكم: له شبيه بمائة حديث. (السابق: ٢٥٤).

(٦) السابق: ٩٦.

(٧) حسن المحاضرة ٢١٥/١.

(٨) راجعه فى (فتوح مصر) صـ٢٦٧.

(٩) حسن المحاضرة ٢١٦/١.

(١٠) السابق ٢١٦/١. واكتفى ابن الأثير فى (أسد الغابة) ٤٦٠/٣ بقوله: ذكره ابن الربيع فى الصحابة، الذين دخلوا مصر.

(١١) الإصابة: ٣٨/٥.

٦٠ - **عبد الرحمن بن عُدَيْس البلوى**: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث واحد، متنه: "يخرج أناس من أمتى يَمْرُقون من الدين، كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة، فيُقتلون بجبل لبنان، أو الخليل"[١]. ولم يرو عنه غير أهل مصر. توفى بالشام سنة ست وثلاثين[٢].

٦١ - **عبد الرحمن بن غَنْم الأشعرى**: له صحبة[٣]. أخبرنى يحيى بن عثمان: أن ابن لهيعة والليث بن سعد قالا: له صحبة[٤]. حكى أبو قَبيل أن عبد الرحمن بن غنم الأشعرى قدم من الشام إلى عبد الله بن عمرو، فقال له عبد الله: ما أقدمك إلى بلادنا ؟ قال: أنت. قال: لماذا ؟ قال: كنتَ تحدثنا أن مصر أسرع الأرضين خراباً، ثم أراك قد اتخذتَ فيها الرِّباع، وبنيت القصور، واطمأننتَ فيها. قال: إن مصر قد أوفتْ خرابها، دخلها (بختنصَّر)، فلم يَدَعْ فيها إلا السباع والرِّباع. وقد مضى خرابها، فهى - اليوم - أطيب الأرض تراباً، وأبعدها خراباً، ولن تزال فيها بَرَكة، ما دام فى شئ من الأرضين بركة. دخل مصر فى زمن مروان، ولأهلها عنه حديث واحد[٥]، رواه ابن وهب عن إبراهيم بن نَشيط[٦]، عن ابن أبى حسين[٧]، عن شَهْر[٨]، عن عبد الرحمن بن غنم، أنهم بينما هم عند رسول الله ﷺ، وقد نزلت: " **يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ** . . . " الآية[٩].

٦٢ - **عبد العزيز بن سَخْبَرة الغافقى**: شهد فتح مصر هو وابنه (شفعة)[١٠]. حدثنى يحيى ابن عثمان بن صالح قال: إنه وفد على النبى ﷺ، وكان اسمه (عبد العُزَّى)، فسمَّاه النبى عبد العزيز[١١].

(١) ورد هذا الحديث فى (فتوح مصر) صـ٣٠٤، ودلائل النبوة للبيهقى ٦/٣٩٤.
(٢) حسن المحاضرة ١/٢١٦.
(٣) المصدر السابق: ١/٢١٧.
(٤) حسن المحاضرة ١/١٨.
(٥) المصدر السابق ١/٢١٧.
(٦) ورد فى (الإصابة) جـ٤ صـ٣٥١ محرفاً هكذا (نُبَيط). والصواب ما أثبته فى المتن، فإبراهيم بن نشيط هذا من أسانيد ابن وهب، الذى روى عنهم (تهذيب التهذيب ١/١٥٣)، وكذا ورد صحيحاً فى (فتوح مصر) صـ٣١٩.
(٧) هو عبد الله بن أبى حسين أستاذ (إبراهيم بن نشيط). (تهذيب التهذيب ١/١٥٣).
(٨) هو شَهْر بن حَوْشب (فتوح مصر ٣١٩).
(٩) تتمة الآية: " . . . **إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عَنْهَا واللهُ غَفُورٌ حَلِيم** ". (سورة المائدة: ١٠١). وللحديث تتمة عن طريق شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم أبى مالك الأشعرى. . . قال: فنحن لا نسأله إذ قال: إن لله عباداً ليسوا بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم النبيون والشهداء. . . (مسند أحمد ٥/٣٤١، والأسماء والصفات للبيهقى ٢/٢١٤ - ٢١٥).
(١٠) حسن المحاضرة ١/٢١٧.
(١١) الإصابة ٤/٣٧٥ - ٣٧٦.

٦٣ - **عُتْبة بن النُّدَّر السُّلَمي**[١]: حدثني يحيى بن عثمان بن صالح: أنه شهد فتح مصر. ولأهلها عنه حديث واحد، رُوى من طرق عدة، منها: طريق عُلَيّ بن رباح قال: سمعتُ عتبة بن الندر، وكان من أصحاب النبي ﷺ يقول:. . . فذكر حديثاً في قصة(موسى مع شعيب) في الغنم،وصفة أولادها[٢].

٦٤ - **عثمان بن عَفّان**: دخل مصر في الجاهلية للتجارة، وصار إلى الإسكندرية[٣].

٦٥ - **عَدِىّ بن عَميرة الكندى**: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث. روى عنه ابنه عدى[٤].

٦٦ - **العُرْس بن عَميرة الكندى**: شهد فتح مصر، ولأهل مصر عنه حديثان. روى عنه ابنُ أخيه عدىٌّ، وغيره[٥].

٦٧ - **عقبة بن الحارث المكيّ**: شهد فتح مصر، وهو الذى شرب بها مع عبد الرحمن ابن عمر الخمرَ.وله رواية عن النبي ﷺ، وليس لأهل مصر عنه شئ[٦].

٦٨ - **عقبة بن كُدَيْم**[٧] **الأنصارى**: لأهل مصر عنه نحو مائة حديث. مات بمصر سنة ثمان وخمسين[٨].

٦٩ - **عقبة بن نافع الفهرى**: شهد فتح مصر، ولا يعرف له حديث[٩].

٧٠ - **عَلْقَمة بن رِمْثَة البلوى**: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه حديث واحد[١٠].

---

(١) ورد باسم: عُبَيْد بن النُّدَّر في (حسن المحاضرة) ٢١٨/١. والصواب ما ذكرت.

(٢) يتناول هذا الحديث صفات الغنم، التي منحها شعيب لموسى وزوجه لَمّا هَمّا بالرحيل، بعد قضاء موسى الأجل الأوفى في خدمة شُعَيْب؛ كي يتعيَّشا منها. (فتوح مصر ٣٠٤، والمعجم الكبير للطبراني ١٣٤/١٧ - ١٣٥ (رقم ٣٣٢)، ومجمع الزوائد باب (سورة القصص) جـ٧ صـ٨٧ - ٨٨.

(٣) حسن المحاضرة ٢١٨/١.

(٤) السابق: ٢١٩/١.

(٥) السابق: ٢١٩/١.

(٦) حسن المحاضرة ٢١٩/١.

(٧) ذكره السيوطي مُحَرَّفاً، فقال: (عقبة بن كريم). وكذلك ورد محرفاً - لعله من الناسخ - لدى ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) صـ١٠٩. والصواب في المتن، ولدى ابن الأثير في (أسد الغابة) ٥٨/٤ (وقد نقل مادته في ترجمته عن أبي نعيم)، ورمز له بـ (ع)، وابن مَنْدَة، الذى رمز له بالرمز (د)، على نحو ما شرح رموزه في مقدمته (جـ١/١١)، وابن حجر في (الإصابة ٥٢٥/٤).

(٨) حسن المحاضرة ٢٢٠/١.

(٩) المصدر السابق: ٢٢٠/١. والراجح أنه لا تصح صحبته (الاستيعاب ١٠٧٥/٣، وأسد الغابة ٥٩/٤، والإصابة ٥ /٦٤ - ٦٥).

(١٠) الإصابة: ٢٢١/١. وحديثه المشار إليه موجود في (فتوح مصر) صـ٣٠٢.

٧١ - **عَمَّــار بن ياسر العَنْسي**[١]: دخل مصر رسولاً من قِبَل عثمان بن عفان، وصار إلى صقلّيّة[٢].

ولأهــل مصــر عنه حديث واحد من طرق عدة، منها: طريق أبي عُشَّانَة[٣]، قال: سمعتُ أبا الــيَقْظان عمــار بن ياسر صاحب النبي ﷺ يقول: " أبشروا، فوالله لأنتم أشد حُبّاً لرســول اللهﷺ – و لم تَــرَوْه – مــنْ عامّة مَنْ رآه"[٤]. قُتل بــ(صِفّين) سنة سبع وثلاثين، وهو ابن ثلاث وتسعين سنة[٥].

٧٢ - **عمرو بن الحَمِق الخُزاعي**: دخل مصر في خلافة عثمان. ولهم عنه حديث في الجند الغــربي[٦]، من طريق عبد الرحمن بن شُرَيْح، قال: سمعتُ عَميرة بن عبد الله المَعَافريّ، يقــول: حــدثني أبي: قال: سمعتُ ابن الحَمِق يقول: قال رسول الله ﷺ: " يكونُ فتنة يكــون أسلمَ الناس فيها – أو قال: خيرَ الناس فيها – الجندُ الغربي ". قال ابن الحمق: فلذلك قدمتُ عليكم مصر[٧].

وورد الحــديث من وجه آخر[٨]، عن عمرو بن الحمق، أنه قام عند المنبر بمصر، وذلك عند فتنة عــثمان، فقال: يأيها الناس، إني سمعتُ رسول الله ﷺ، يقول: " تكون فتنة خير الناس فيها الجند الغربي ". وأنتم الجند الغربي، فجئتُكم لأكون معكم فيما أنتم فيه[٩].

٧٣ - **عمرو بن العاص السَّهْمي**: لأهل مصر عنه نحو عشرة أحاديث[١٠].

---

(١) كنيته: أبو اليقظان. ووقع تصحيف في لقبه، فأُطلق عليه (العَبْسيّ). (حسن المحاضرة ٢٢٢/١). والصواب: نسبته إلى (عَنْس)، كما ورد ذلك في (الاستيعاب ١١٣٥/٣، وأسد الغابة ١٢٩/٤، والإصابة ٥٧٥/٤).

(٢) هذا كلام غير صحيح، و لم أجد في تراجمه (طبقات ابن سعد ٩٣/٦، والاستيعاب ١١٣٥/٣ - ١١٤١، وأسد الغابة ١٢٩/٤ - ١٣٥، والإصابة ٥٧٥/٤) ما يفيد ذهابه إلى هذه الجزيرة من جزر البحر الأبيض. وقد فتحها المسلمون على يد أسد بن الفرات (ت ٢١٣هــ) أيام الأغالبة (معالم الإيمان ٢٤/٢).

(٣) هو حَيّ بنُ يُؤمِن المصري الثقة (ت ١٢٨هــ). (تهذيب التهذيب ٦٣/٣، والتقريب ٢٠٨/١).

(٤) فتوح مصر: صــ٢٦٧.

(٥) حسن المحاضرة: ٢٢٢/١. وورد في نهاية ترجمته كلمات لا علاقة لها بها هي: (بتقديم التاء على السين)! ولذا قُمْتُ باستبعادها من النص.

(٦) حسن المحاضرة: ٢٢٣/١.

(٧) ورد في (فتوح مصر) صــ٣٠٩. وأخرجه الفَسَوي في (المعرفة والتاريخ) ٤٨٣/٢، والحاكم في (مستدركه)، كتاب (الفتن والملاحم) جــ٤ صــ٤٤٨، وذكر أنه صحيح الإسناد و لم يُخرِّجه (البخاري، ومسلم)، ووافقه الذهبي وصحّحه صراحة ومجمع الزوائد ٣٠٤/٧.

(٨) لم يذكر السيوطي في نقله عن ابن الربيع ذلك الوجه الآخر (الإسناد).

(٩) حسن المحاضرة ١٦/١.

(١٠) السابق: ٢٢٤/١.وقد روى ابن عبد الحكم أن له عند أهل مصر أكثر من عشرين حديثاً (فتوح مصر صــ٢٤٨)، أورد له منها عشرة أحاديث (السابق: صــ٢٤٩ - ٢٥٣).

٧٤ - **عمـــرو بـــن مُرّة الجُهَنى**: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث. روى عنه عيسى بن طلحة[(١)].

٧٥ - **عَنْبَس[(٢)] بن ثعلبة البلوى**: له صحبة، وبايع تحت الشجرة بيعة الرضوان، وشهد فتح مصر[(٣)].

٧٦ - **عَنْبَسَة بن عَدى**: أبو الوليد البلوى. روى سعيد بن عُفَيْر: أنه شهد الحديبية، وقال له النبى ﷺ، ولرهط من قومه، وانتسبوا إليه: لا إلى جَعْد، ولا إلى صخر، أنتم بنو عبيد الله[(٤)]. بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، ورجع إلى الحجاز[(٥)].

٧٧ - **عَوْف بن مالك الأشْجَعىّ الغَطَفانى**: دخـــل مصر مـــع معاويـــة، ولأهلهـــا عنـــه حديثان[(٦)].

(حرف الفاء)

٧٨ - **فَضالَة بن عُبيد الله الأنصارى**: شهد فتح مصر، ولأهلها عنه نحو عشرين حديثاً[(٧)]. مات سنة ثلاث وخمسين، وقيل: سنة خمس وخمسين[(٨)].

(حرف القاف)

٧٩ - **قـــيس بـــن سعد بن عُبادة الأنصارى**: شـــهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه أحاديـــث[(٩)]. أدرك الإسلامَ عشرةٌ، طولُ كل رجل عشرة أشبار: عبادة بن الصامت، وسعد بن معاذ، وقيس بن سعد بن عبادة، وجرير بن عبد الله البَجَلىّ، وعدىّ بن حاتم الطائـــى، وعمـــرو بن معدى كرب الزُّبيدى، والأشعث بن قيس الكندى، ولبيد بن ربيعة، وأبو زبيد الطائى، وعامر ابن الطُّفَيْل، ويقال: طلحة بن خويلد[(١٠)].

٨٠ - **قَيْسَبَة بن كلثوم**: شهد فتح مصر[(١١)].

---

(١) حسن المحاضرة ٢٢٤/١.
(٢) ورد فى (المصدر السابق ٢٢٥/١) مصحّفاً (عنبس). راجع: (أسد الغابة ٣٠٣/٤).
(٣) الإصابة ٧٣٣/٤، وحسن المحاضرة ٢٢٥/١.
(٤) الإصابة ٧٣٤/٤. (٥) حسن المحاضرة ٢٢٥/١.
(٦) المصدر السابق: ٢٢٥/١.
(٧) ذكر ابن عبد الحكم منها اثنى عشر حديثاً (فتوح مصر) صـ٢٧٦ - ٢٧٩.
(٨) حسن المحاضرة: ٢٢٦/١.
(٩) المصدر السابق: ٢٢٧/١. ذكر منها ابنُ عبد الحكم أربعة أحاديث (فتوح مصر) صـ٢٧٣ - ٢٧٤.
(١٠) حسن المحاضرة ٢٢٨/١.
(١١) السابق: ٢٢٩/١.

(حرف الكاف)

٨١ - **كثير بن أبي كثير الأزدى**[١]: لهم عنه حديث واحد إن كان صحيحاً، وهو حديث حَيْوَةَ بن شُرَيْح، عن عقبة بن مسلم، أنه سأله عن الوضوء مما مَسَّت النار، فقال: إن كثيراً – وكان من أصحاب النبي ﷺ – يقول: " كنا عند النبي ﷺ، فوُضع له طعام فأكلنا، ثم أُقيمت الصلاة، فقمنا فصلينا، و لم نتوضأ[٢] ". والمشهور فيه عقبة بن مسلم، عن عبد الله بن الحارث[٣].

٨٢ - **كعب بن عدى التنوخي**: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث[٤]. روى سعيد بن كثير[٥] بن عفير، حدثني عبد الحميد بن كعب بن علقمة بن كعب بن عدى التنوخي، عن عمرو ابن الحارث، عن ناعم بن أُجَيْل، عن كعب بن عدى، قال: أقبلتُ في وفد من أهل الحيرة إلى النبي ﷺ، فعرض علينا الإسلام، فأسلمنا، ثم انصرفنا إلى الحيرة، فلم نلبث أن جاءتنا وفاة رسول الله ﷺ، فارتاب أصحابي، وقالوا لو كان نبيّاً لم يَمُتْ. فقلتُ: فقد مات الأنبياءُ قبله، فثبتُّ على الإسلام، ثم خرجتُ أريد المدينة، فمررتُ براهب كنا لا نقطع أمراً دونه، فعُجْتُ إليه، فقلتُ: أخبرْني عن أمر أردتُه، لَقَح في صدرى منه شئ. قال: ائت باسمك من الأشياء، فأتيتُه بكعب. قال: ألْقه في هذا الشِّعْر – لشَعْر أخرجه – فألقيتُ الكعب فيه، فإذا بصفة النبي ﷺ كما رأيتُه. وإذا موته في الحين الذى مات فيه، فاشتدت بصيرتى في إيماني، فقدمتُ على أبي بكر، فأعلمتُه، وأقمتُ عنده، ووجَّهَني إلى المقوقس، ورجعت، ثم وجَّهني عمر أيضاً، فقدمتُ عليه بكتابه بعد وقعة اليرموك، و لم أعلم بها: فقال لى: علمتَ أن الروم قتلت العرب، وهزمتهم ؟ قلت: لا. قال: ولِمَ ؟ قلتُ: لأن الله وعد نبيه لَيُظْهره على الدين كله، وليس يخلف الميعاد. قال: فإن العرب قتلت الروم – والله – قِتْلَة عاد، وإن نبيكم قد صدق، ثم سألني عن وجوه الصحابة، فأهدى لهم. وقُلتُ له: إنَ العباسَ عَمَّه حَيٌّ، فَتصِله[٦]؟.

٨٣ - **كعب بن يَسَار بن ضِنَّة العَبْسي**: لأهل مصر عنه حديث[٧].

---

(١) لم يذكر نسبَه ابنُ حجر (الإصابة) ٥/٥٧٤.
(٢) السابق: ٥/٥٧٤ - ٥٧٥.
(٣) السابق: ٥/٥٧٤.
(٤) حسن المحاضرة: ١/٢٢٩.
(٥) ورد في (الإصابة جـ٥ صـ٦٠١) بلفظ (حَبير) خطأ.
(٦) الإصابة ٥/٦٠١ - ٦٠٢. وذكر السيوطي في (حسن المحاضرة ١/٢٣٠): أنه ساق هذا الأثر في قصة المقوقس، و لم أجده.
(٧) المصدر السابق: ١/٢٣٠.

(حرف الميم)

٨٤ - **مالك بن زاهر**: لهم عنه حديث[١] من طريق ابن لهيعة، عن بكر بن سَوادَة، عن سعيد ابن عثمان، أنه رأى مالك بن زاهر، وكان من أصحاب النبيﷺ يُنَقّي باطن قدمه إذا توضأ[٢].

٨٥ - **مالك بن عَتَاهِيَة التجيبي**: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث[٣].

٨٦ - **مالك بن قُدامة**: بايع النبي ﷺ. صحابي دخل مصر[٤].

٨٧ - **مالك بن هُبَيْرة التُّجيبي**: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث[٥].

٨٨ - **محمد بن بَشير الأنصاري**: شهد فتح مصر، وليس له حديث في مصر[٦].

٨٩ - **محمد بن أبي حبيب المصري**: صحابي دخل مصر، وله حديث من رواية عبد الله بن السعدي، متنه: " لا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار "[٧].

٩٠ - **محمد بن مَسْلَمة**: قدم مصر رسولاً من عمر إلى عمرو بن العاص، يقاسمه ماله. مات بالمدينة في صفر سنة ثلاث وأربعين، وله سبع وسبعون سنة[٨]. وكان طويلاً معتدلاً أصْلَع[٩].

٩١ - **مَحْمِيَة بن جَزْء الزُّبَيْدي**: شهد فتح مصر[١٠].

٩٢ - **المستورد بن شَدَّاد الفِهْري**: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه أحاديث[١١]، ولم يرو عنه إلا أهل مصر فيما أعلم إلا قيس بن أبي حازم، فإن له عنه رواية. وقيل: إن أبا إسحاق السَّبِيعي روى عنه أيضاً[١٢].

٩٣ - **مسعود بن أوس الأنصاري**: صحابي دخل مصر[١٣].

---

(١) السابق ٢٣١/١.

(٢) الإصابة ٧٢٥/٥ - ٧٢٦. وورد حديثه هذا في (فتوح مصر) صـ٣١٧.

(٣) حسن المحاضرة: ٢٣٢/١. وحديثه في (فتوح مصر) صـ٣٠٩.

(٤) حسن المحاضرة ٢٣٢/١.

(٥) اكتُفي بالشطر الأول من العبارة في كل من: تهذيب التهذيب ٢٢/١٠، والإصابة ٧٥٧/٥، ووردت كاملة في (حسن المحاضرة) ٢٣٢/١. أما حديثه، فرواه ابن عبد الحكم في (فتوح مصر) صـ٣١٠.

(٦) السابق: ٢٣٣/١. (٧) المصدر السابق: ٢٣٣/١.

(٨) الإصابة: ٣٥/٦، وحسن المحاضرة ٢٣٤/١.

(٩) إضافة في (الإصابة) ٣٥/٦.

(١٠) حسن المحاضرة ٢٣٤/١.

(١١) السابق ٢٣٥/١. وله قرابة ستة أحاديث رُوي منها خمسة في (فتوح مصر ٢٦١).

(١٢) الإصابة ٩٠/٦.

(١٣) حسن المحاضرة ٢٣٥/١.

٩٤ - **مَسْلَمة بن مُخَلَّد الأنصاري**: روى موسى بن عُلَيّ، عن أبيه، عن مسلمة بن مخلد، قال: وُلِدْتُ حين قدم النبي ﷺ المدينة، وقُبض النبي، وأنا ابن عشر سنين[١]. وفي رواية أخرى من وجه آخر: قدم النبي وأنا ابن أربع سنين، ومات وأنا ابن أربع عشرة سنة[٢]. شهد فتح مصر، واختط بها، ولأهل مصر عنه حديثان[٣] أحدهما - أغْزُوا النساء يلزمن الحجال، ولم يصرّح فيه بالسماع. والثاني - أنه ولد سنة الهجرة.

ولي إمرة مصر، وهو أول من جُمعت له مصر والمغرب، وذلك في خلافة معاوية، وصَدْر من خلافة يزيد بن معاوية[٤].

ورد من طريق ضمام بن إسماعيل، عن أبي قَبيل، قال: بعث إليّ حنظلة (يعني: أمير مصر)، فقال: شيخ، لو كان في جسدك للسوط موضع لضربتُك. فقال له أبو قبيل: ولم ذاك ؟ قال: صِرْتَ كاهناً تقول: الآخِر فالآخِر شر ؟! فقال له أبو قبيل: ليس أنا الذي قلتُ هذا، إنما سمعتُه من مسلمة ابن مخلد، وقد قال - وكان زاد في بعث البحر، فكره الجند ذلك، وهو على أعوادك هذه يقول: يأهل مصر، ما نَقَمْتم مني ؟ والله، لقد زدتُ في مددكم، وعددكم، وقوتكم على عدوكم. اعلموا أني خير ممن بعدي، فالآخِر شر. وفي لفظ: والذي نفسي بيده، لا يأتينكُم زمن إلا الآخر فالآخر شر، فمن استطاع منكم أن يتخذ نفقاً في الأرض، فليفعل[٥]. مات بمصر سنة اثنتين وستين[٦]. وقيل: مات بالإسكندرية[٧].

٩٥ - **معاذ بن أنس الجهني**: شهد فتح مصر، ولهم عنه ستة وأربعون حديثاً[٨].

٩٦ - **معاوية بن حُدَيج التجيبي**: شهد فتح مصر، وهو الوافد على عمر بفتح الإسكندرية[٩].

٩٧ - **معاوية بن أبي سفيان**: دخل مصر، وبلغ إلى سَلَمَنْت من كورة[١٠] عين شمس،

---

(١) الإصابة ٦/١١٧.
(٢) المصدر السابق: ٦/١١٧.
(٣) حسن المحاضرة ١/٢٣٥.
(٤) الإصابة ٦/١١٧.
(٥) الإصابة: ٦/١١٧ - ١١٨.
(٦) المصدر السابق: ٦/١١٧، وحسن المحاضرة ١/٢٣٥ - ٢٣٦.
(٧) المصدر السابق: ١/٢٣٦.
(٨) السابق: ١/٢٣٧. وقد ذكر ابن عبد الحكم أن أهل مصر رووا عنه حوالي ٤٠ حديثاً، أورد منها ١٨ حديثاً (فتوح مصر صـ٢٩٥ - ٢٩٨).
(٩) حسن المحاضرة ١/٢٣٧.
(١٠) وردت في (المصدر السابق ١/٢٣٧): (كُوَر). وحَدَّد ابن عبد الحكم تاريخ دخوله في سنة ٣٧هـ (فتوح مصر ٢٦٧).

ورجع من ثَمّ. ولهم عنه حديثان[١]. مات بدمشق فى رجب سنة ست وستين، وله اثنتان وثمانون سنة[٢].

٩٨ - **مُعَيْقِيب بن أبي فاطمة الدَّوْسي**: شهد فتح مصر. مات سنة أربعين فى خلافة عثمان[٣].

٩٩ - **المقْداد بن الأسود**: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديثان[٤]. مات بالمدينة سنة ثلاث وثلاثين، وله نحو سبعين سنة. روى يزيد بن أبي حبيب: أن المقداد بن الأسود غزا مع عبد الله بن سعد إفريقية. فلما رجعوا، قال عبد الله بن سعد للمقداد فى دار بناها: كيف ترى بنيان هذه الدار ؟ فقال له المقداد: إن كان من مال الله، فقد أفسدتَ، وإن كان من مالك فقد أسرفتَ. فقال عبد الله: لولا أن يقول قائل: أفسدتَ مرتيْن، هدمتُها[٥].

١٠٠ - **المُنَيْذِر الأسلمي**: دخل مصر، ولهم عنه حديث، وسكن إفريقية[٦].

١٠١ - **مهاجر**[٧]: مولى أم المؤمنين أم سَلَمة. روى يحيى[٨]، عن إبراهيم بن عبد الله التجيبى، عن عمران بن عبد الله الكندى، عن بُكَيْر[٩] مولى عَمْرَة: سمعتُ المهاجر يقول: خدمتُ رسول الله خمس سنين، فلم يقل لى لشئ صنعتُه: لمَ صنعتَه ؟ ولا لشئ تركتُه: لم تركتَه[١٠] ؟ دخل مصر، وسكن الصعيد، ولهم عنه حديث[١١].

روى عنه: بُكَيْر (جَدّ يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر)، و لم يرو عنه غير أهل مصر[١٢].

---

(١) السابق: ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٢) حسن المحاضرة ٢٣٧/١. والصواب: أنه توفى بدمشق سنة ٦٠هـ. (فتوح مصر ٢٦٧).

(٣) حسن المحاضرة ٢٣٨/١. والصواب: فى خلافة علىّ. (أسد الغابة ٢٤١/٥).

(٤) قال ابن عبد الحكم: لأهل مصر عنه ثلاثة أحاديث (روايات) عن نفسه، وليس لهم عنه، عن رسول الله شئ (فتوح مصر ٢٦٥).

(٥) السابق: ٢٦٦.

(٦) حسن المحاضرة ٢٣٩/١.

(٧) ورد معرًّى من (ال) فى (فتوح مصر ٣١١، وحسن المحاضرة ٢٣٩/١). وعُرِّفت فى: (أسد الغابة ٢٧٩/٥، والإصابة ٢٣٠/٦). والظاهر أن كليهما وارد.

(٨) هو يحيى بن عبد الله بن بُكَيْر.

(٩) هو جد المحدِّث والمؤرخ المصرى السابق.

(١٠) الإصابة ٢٣٠/٦، وحسن المحاضرة ٢٣٩/١.

(١١) حسن المحاضرة ٢٣٩/١. ويلاحظ أنه ورد فى الحديث السابق أنه خدم الرسول سبع سنين (فتوح مصر ٣١١)، بينما ورد فى (الإصابة ٢٣٠/٦) دون تحديد مدة.

(١٢) ورد النص كاملاً فى (حسن المحاضرة ٢٣٩/١)، واقتصر فى (الإصابة) ٢٣٠/٦، على آخره.

(حرف النون)

١٠٢ - **نعيم بن خَبّاب العامرى**: صحابى دخل مصر[(١)].

(حرف الهاء)

١٠٣ - **هُبَــيْب بن مُغْفِل**: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه حديث[(٢)]، وإليه يُنسب وادى هُبيب؛ لأنه كان اعتزل فى فتنة عثمان هناك، وتوفى به[(٣)].

(حرف الام ألف)

١٠٤ - لاحب بن مالك بن سعد الله البلوى: صحابى بايع تحت الشجرة، وشهد فتح مصر، ولا رواية له[(٤)].

(حرف الياء)

١٠٥ - يــزيد بــن أُنَيْس الفهرى: شهد فتح مصر، واختط بها، و لم يرو إلا حديثاً واحداً فى غزوة حُنَيْن رواه عنه غير أهل مصر[(٥)].

(الكُنَى)

(حرف الألف)

١٠٦ - **أبو الأعور السُّلَمىّ**: قدم مصر مع مروان بن الحكم، ولهم عنه حديث[(٦)].

١٠٧ - **أبــو أيــوب الأنصــارى**: شهد فتح مصر، وغزا بحرها، ولهم عنه نحو عشرين حديــثاً[(٧)]. مات بالقسطنطينية غازياً مع يزيد بن معاوية فى سنة اثنتين وخمسين، وقبره هناك يستسقى به الروم إذا قَحَطُوا[(٨)].

(حرف الباء)

١٠٨ - **أبو بَصْرَة الغِفارى**: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه عشرة أحاديث[(٩)].

---

(١) حسن المحاضرة ١/٢٤٠.
(٢) أورده ابن عبد الحكم فى (فتوح مصر) صـ٢٨٦ - ٢٨٧.
(٣) حسن المحاضرة: ١/٢٤٠ - ٢٤١.
(٤) المصدر السابق: ١/٢٤١.
(٥) السابق: ١/٢٤٢.
(٦) حسن المحاضرة ١/٢٤٢. وحديثه فى (فتوح مصر) صـ٣٠٩.
(٧) ذكر ابن عبد الحكم أن له تسعة أحاديث، أورد منها ستة. (السابق: صـ٢٦٨ - ٢٧٠).
(٨) حسن المحاضرة ١/٢٤٣.
(٩) المصدر السابق ١/٢٤٣. قال ابن عبد الحكم: له خمسة أحاديث ذكرها فى (فتوح مصر) صـ٢٨٣ - ٢٨٤.

(حرف الثاء)

١٠٩ - **أبو ثور الفَهْمي:** شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث(١).

(حرف الجيم)

١١٠ - **أبو جبر:** بدرى. أخبرنى يحيى بن عثمان بذلك، وأنه دخل مصر(٢).

١١١ - **أبو جُدَيْع المرادى:** ذكر ابن وزير، وعبد العزيز بن ميسرة: أنه كان عاملاً للنبى ﷺ، وأنه كان من أهل مصر(٣).

١١٢ - **أبو جمعة الأنصارى:** شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث(٤).

(حرف الدال)

١١٣ - **أبو الدّرْداء:** شهد فتح مصر، ولهم عنه خمسة أحاديث. مات سنة اثنتين وثلاثين(٥).

(حرف الذّال)

١١٤ - **أبو ذَرّ الغفارى:** شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه عشرون حديثاً(٦)، منها: حديث قال فيه أبو ذَرّ الغفَارى(٧): قال رسول الله ﷺ: " إنكم ستفتحون أرضاً يُذكر فيها القيراط(٨)، فاستوصوا بأهلها خيراً؛ فإن لهم ذِمَّة ورَحِماً. فإذا رأيتَ رجلَيْن يقتتلان على موضع لَبِنَة، فاخرجْ منها". قال: فمَرّ أبو ذر بـ (ربيعة، وعبد الرحمن) ابنَى(٩)

---

(١) حسن المحاضرة ٢٤٣/١. ذُكر حديثه فى (فتوح مصر) صـ٣٠٣.

(٢) حسن المحاضرة ٢٤٤/١.

(٣) حسن المحاضرة : ٢٥٢/١. أورده السيوطى فى (باب المبهمات)، وقد نقلتُه إلى (باب الكُنَى)، فهو به أليق.

(٤) الإصابة: ٦٦/٧، وتهذيب التهذيب ٦٣/١٢، وحسن المحاضرة ٢٤٤/١. هو حبيب ابن سِباع، وحديثه فى (فتوح مصر) صـ٣٠٨.

(٥) حسن المحاضرة ٢٤٥/١.

(٦) قال ابن عبد الحكم:لأهل مصر عنه أحاديث،ذكر منها تسعة).(فتوح مصر٢٨٤ - ٢٨٦).

(٧) هو جُنْدُب بن جُنادة (هكذا ضبط ابن حجر الاسمين خلال تعريفه بـ (جندب بن مَكِيث، وجنادة بن أبى أمية). (التقريب ١٣٤/١).

(٨) نوع من الأوزان المستخدمة فى مصر آنذاك. ويذكر د.الريس أن الدينار إذا انقسم إلى عشرين قيراطاً، فإن مقدار القيراط يكون ٢٥و٤ ÷ ٢٠ = ٢١٢٥و. من الجرام. وإذا اعتبرناه إلى اثنين وعشرين قيراطاً، فإن القيراط يساوى ٢٥و٤ ÷ ٢٢ = ١٩٣و. من الجرام. وإذا عُدّ منقسماً إلى أربعة وعشرين قيراطاً، فإن القيراط يساوى ٢٥و٤ ÷ ٢٤ = ١٧٧و. من الجرام. (الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية) صـ٣٥٤.

(٩) وهو الأدق كما فى (فتوح مصر) صـ٢٨٥، وهو أصح مما ورد فى (حسن المحاضرة) ١٢/١، إذ ورد بلفظ (ابن).

شرحبيل بن حسنة، وهما يتنازعان فى موضع لبنة، فخرج منها[١]. وقد سكن مصر مدة، ثم خرج منها، لما رأى اثنين يتنازعان فى موضع لبنة، كما أمره رسول الله بذلك. مات بالرَّبَذَة فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين[٢].

(حرف الراء)

١١٥ - **أبو رافع القبطى**: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه حديث. مات بالمدينة بعد عثمان بيسير[٣].

١١٦ - **أبو الرِّمْداء البلوى**: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث[٤].

(حرف الزين)

١١٧ - **أبو الزّعْراء**: صحابى دخل مصر. ولهم عنه حديث[٥]، رواه ابن وهب، عن عبد الله ابن عَيّاش القِتْبانىّ، عن عبد الله بن جنادة المعافرى، عن أبى عبد الرحمن الحُبُلىّ، عن أبى الزعــراء، قال: خرجتُ مع رسول الله فى سفر، فسمعتُه يقول: " غير الدَّجَّال أخْوَفُ على أمتى من الدجال أئمة مُضِلُّون "[٦].

١١٨ - **أبــو زَمْعَة البلوى**: شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث فى الذى قتل تسعة وتسعين نفســاً، وسأل: هل لى من توبة ؟ ولم يرو عن النبى ﷺ غيره، ومات بإفريقية. ويقال: اسمه مسعود بن الأسود[٧].

(حرف السين)

١١٩ - **أبو سعيد** (صاحب رسول الله): ويقال: أبو سعاد. واسمه: عبد الله بن بشر. صحابى دخل مصر[٨].

---

(١) ورد هذا النص فى (المصدر السابق) ١/١١ - ١٢، وكذلك ورد فى (فتوح مصر) صـ٢٨٥ من طريق ابن وهب، عن حَرْمَلَة بن عمران التجيبى، عن ابن شماسة المَهْرِىّ، عن أبى ذر. هذا، وقد أخرج هذا الحديث الإمام أحمد فى (مسنده): ١٧٣/٥ - ١٧٤، والإمام مسلم فى (صحيحه)، كتاب (فضائل الصحابة)، باب (وصية النبى بأهل مصر) جـ٤ صـ١٩٧٠ (رقم ٢٥٤٣).

(٢) حسن المحاضرة ٢٤٥/١. و(حَدَّد ابن عبد الحكم ظروف وفاته، بأنه توفى منصرفَه من المدينة إلى الكوفة). (فتوح مصر ٢٨٦).

(٣) حسن المحاضرة ٢٤٥/١ - ٢٤٦.

(٤) السابق: ٢٤٦/١. حديثه فى (فتوح مصر) صـ٣٠٢. وأكثر المحدِّثين على أنه بالميم، وأهل مصر ينطقونه بالباء (أبو الربداء). (الاستيعاب ١٦٥٨/٤، وأسد الغابة ١١٢/٦).

(٥) حسن المحاضرة ٢٤٦/١.

(٦) الإصابة ١٥٣/٧ - ١٥٤.

(٧) حسن المحاضرة ٢٤٧/١. يراجع الحديث كاملاً فى (أسد الغابة) ١٢٢/٦.

(٨) حسن المحاضرة ٢٤٧/١.

(حرف الصاد)

١٢٠ - **أبو صِرْمَة الأنصارى**: صحابى نزل مصر، وشهد فتح مصر[١]، فيما يذكر يحيى بن عثمان. وذكر أحمد بن يحيى بن الوزير: أنه قدم على (عقبة بن عامر). وروى زياد بن أيــوب، قال: كنا مع أبى أيوب فى البحر، ومعنا أبو صرمة الأنصارى صاحب رسول الله. . . الحديث[٢]. ويقال: هو أبو صرمة، الذى نزلت فيه[٣]: " **وكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**. . . " الآية[٤].

(حرف الضاد)

١٢١ - **أبو ضُبَيْس[٥] البَلَوى**: صحابى دخل مصر؛ لغزو المغرب[٦].

(حرف العين)

١٢٢ - **أبو عبد الرحمن الجُهَنى**:صحابى دخل مصر، ولهم عنه حديثان[٧].

١٢٣ - **أبو عبد الرحمن القَيْنى**: صحابى دخل مصر، ولهم عنه حديث[٨].

(حرف الفاء)

١٢٤ - **أبو فاطمة الأزدى**: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه حديث[٩].

(حرف الميم)

١٢٥ - **أبو مالك[١٠] الأشعرى**: هو الصحابى كعب بن عاصم،شهد فتح مصر، ولهم عنه حديث[١١].

---

(١) المصدر السابق: ٢٤٨/١.
(٢) لم يكمل ابن حجر نص الحديث.
(٣) سورة البقرة: من الآية ١٨٧.
(٤) الإصابة: ٢١٩/٧.
(٥) وردت هذه اللفظة معرَّفة فى (الإصابة) ٢٢٥/٧.
(٦) حسن المحاضرة ٢٤٨/١.
(٧) المصدر السابق: ٢٤٨/١. حديثاه فى (فتوح مصر) صــ٢٩٤ - ٢٩٥.
(٨) حسن المحاضرة ٢٤٨/١.
(٩) السابق: ٢٤٩/١. حديثه فى (فتوح مصر) صــ٣٠٨ - ٣٠٩.
(١٠) ذكر ابن حجر فى (تهذيب التهذيب): ٣٨٩/٨ - ٣٩٠: أن كنيته (أبو مالك). ولا يصح تكنية السيوطى له بــ (أبى فاطمة). (حسن المحاضرة ٢٤٩/١).
(١١) حسن المحاضرة: ٢٤٩/١.

١٢٦ - **أبو مسلم الغافقي**: صحابي دخل مصر، ولهم عنه حديث(١).

١٢٧ - **أبو مُلَيْكَة(٢) البلوى**: صحابي دخل مصر، لهم عنه ثلاثة أحاديث(٣)، منها: ما رواه عُلَىّ ابن رَباح، عن أبي مليكة البلوى، أنه قال لأبي راشد، الذى كان بفلسطين: كيف بك - يا أبا راشد - إذا وليك ولاة، إن عصيتَهم دخلتَ النار، وإنْ أطعتَهم دخلتَ النارَ ؟!(٤).

١٢٨ - **أبو موسى الغافقي**: خدم النبي، وشهد فتح مصر، ولهم عنه ثلاثة أحاديث(٥).

(حرف الهاء)

١٢٩ - **أبو هُرَيْرة الدَّوْسى**: قدم مصر على مسلمة بن مخلد فى خلافة معاوية، ولهم عنه ثلاثة وثلاثون حديثاً(٦).

١٣٠ - **أبو هند الدارى**: دخل مصر، ولهم عنه حديث(٧).

١٣١ - **أبو الهيثم**: صحابي دخل مصر(٨).

(حرف الواو)

١٣٢ - **أبو وَحْوَح البلوى**: صحابي دخل مصر، ولهم عنه حديث(٩).

(المبهمات)

١٣٣ - **رجل من صُداء**: لأهل مصر عنه حديث واحد من طريق أبي عبد الله بن جزء، عن بكر بن سوادة، عن رجل من صداء، قال: أتينا النبي ﷺ - اثنا عشر رجلاً - فبايعناه، وتــرك منا رجلاً، لم يبايعه، فقلنا: بايعْه يا رسول الله. فقال: لن أبايعه، حتى ينزع التى عليه، إنه مَنْ كان عليه مثلُ الذى عليه، كان مشركاً ما كانت عليه. قال: فنظرنا، فإذا فى عَضُده سَيْرٌ فيه شئ من لِحَا شجرة(١٠).

---

(١) المصدر السابق: ١/٢٥٠. حديثه فى (فتوح مصر) صـ٣١٤.
(٢) ورد محرفاً (مُلكية) فى (حسن المحاضرة): ١/٢٥٠.
(٣) المصدر السابق: ١/٢٥٠.
(٤) الإصابة ٧/٣٨٥. أوضح ابن عبد الحكم أن أبا راشد هذا كان أميراً، أو والياً بفلسطين. (فتوح مصر ٣١٥).
(٥) هو مالك بن عبادة(حسن المحاضرة١/٢٥٠).له حديثان فى(فتوح مصر)صـ٣٠٥ - ٣٠٦.
(٦) حسن المحاضرة ١/٢٥٠. ذكر ابن عبد الحكم أن له شيهاً بعشرين حديثا، أورد منها ثمانية (فتوح مصر) صـ٢٨٠ - ٢٨٢.
(٧) حسن المحاضرة ١/٢٥١.
(٨) حسن المحاضرة ١/٢٥١.
(٩) المصدر السابق: ١/٢٥١. حديثه فى (فتوح مصر) صـ٣١٤.
(١٠) حسن المحاضرة: ١/٢٥٢. ولحا الشجرة: اللِّحاء: قشرة كل شئ؛ ويُطلق على النسيج الوعائى، الذى يوصِّل الغذاء فى النبات (المعجم الوسيط مادة: ل.ح.١) جـ٢/٨٥٣).

(خاتمة)

ذكــر ابن وزير: أنه دخل مصر مع عمرو بن العاص من بَلِىّ — ممن بايع تحت الشجرة — مائة رجل. والمقلّل يقول: سبعون رجلاً(١).

* * *

(دراسة كتاب ابن الربيع الجيزى) عن (الصحابة)

والآن مــع دراسة المحاولة المتواضعة التى قمت بها لتجميع بقايا كتابه الأول على ضوء ما سمحــت به المادة المتاحة فى بطون المصادر المتأخرة المعنيّة بذكر تراجم الصحابة المصريين(رضى الله عنهم). وقد حاولتُ أن أتحرى الدقة، فلا أَنسِب إلى(مؤرخنا)ما لم تصرح المصادر الناقلة عنه بنسبته إليه، مرتَّباً تراجمه على(حروف المعجم)، رغم عدم وجود ما يدلل على انتهاج ابن الربيع هذا النهج، إلا أنه المنهج الذى تَوَخّاه السيوطى فى استدراكه(٢)، فلعله تبع منهجه.

ضوابط دراسة بقايا كتاب (ابن الربيع الجيزى) عن (الصحابة فى مصر)

الضــابط الأول – ينبغى – قبل تلك الدراسة – أن نتذكر أننا لسنا أمام كتاب كامل مطــبوع، بل نحن أمام أشلاء كتاب مفقود، لعب المؤرخ السيوطى دوراً كبيراً فى الحفاظ على قدر لا بأس به منه. غير أن السيوطى – بدافع الاختصار – فرّغ كثيراً من التراجم من محتوياتها، فجــاءت سطحية، تكاد تخلو من مادتها التاريخية(٣)، بل أغفل النقل عن (ابن الربيع) فى بعض الأحــيان، خاصة ما يتعلق بترجمة صحابى مهم(٤) فى مصر. ومن هنا يجب أن تكون ملاحظاتنا العامة المنهجية حذرة، واضعة ذلك فى الاعتبار.

الضابط الثانى – ألا ننسب لابن الربيع إلا ما صرَّحت المصادر الناقلة عنه بصحة نسبة ما

(١) حسن المحاضرة ٢٥٤/١.

(٢) وذلك فى كتاب (دَرّ السحابة) الموجود داخل كتابه: (حسن المحاضرة) جـ١ صـ١٦٦ – ٢٥٤).

(٣) راجع – مثلاً – تراجم الصحابة: بشر بن ربيعة الخثعمى (رقم ٥)، وجرهد بن خويلد (رقم ١٤)، وحمزة بن عمرو الأسلمى (رقم ١٨).

(٤) هو الصحابى الجليل الفقيه والى مصر(٤٤ – ٤٧هـ)عقبة بن عامر الجهنى،الذى لعب دوراً رائداً مهمّاً فى حياة مصر العلمية،وذكر ابن عبد الحكم أن لــه فى مصر قرابة مائة حديث،ذكر لــه منها ٣٨ حديثاً فى(فتوح مصر)صـ٢٨٧ – ٢٩٤.هذا الصحابى لم نجد لــه ذكراً فى بقايا كتاب ابن الربيع، ويصعب علينا التسليم بأنه كان يجهله،ولا يعرف قدره.

نقلـــتْ إليه. ومن هنا يجب تحديد بداية ونهاية الاقتباس عن ابن الربيع؛ لئلا يلتبس بما أُخذ عن غيره من المصادر الأخرى(١).

الضـــابط الـــثالث والأخـــير – وقع حذف لكثير من أسانيد مرويات (ابن الربيع)، وكـــذلك اكتفى السيوطى بنقل إشارة ابن الربيع إلى عدد الأحاديث، التى رواها الصحابى دون ذكر الأحاديث نفسها بطرقها المختلفة؛ مما أدى إلى انطماس عدد من موارد ابن الربيع، ونقص مادته، واختفاء معالم حضور شخصيته تعليلاً، وتعليقاً، اللهم إلا فى مواطن محدودة للغاية. ولذا وجب مراعاة ذلك كله عند النظر إلى منهج ابن الربيع.

الملاحظات العامة على بقايا (ابن الربيع الجيزى) عن (تاريخ الصحابة فى مصر):

أولاً – ذكر السيوطى أن المؤرخ (محمد بن الربيع الجيزى) أَلَّفَ كتاباً فى مجلد عن تاريخ الصـــحابة، الذين دخلوا مصر، وأنه أورد به مائة، ونيِّفاً وأربعين صحابيّاً، وأنه استدرك عليه ما فاتـــه منهم، والسيوطى استكمل ذلك من كتاب ابن عبد الحكم، وتاريخ ابن يونس، وطبقات ابـــن ســـعد، وتجريد الصحابة للذهبى، وغيرها، حتى وصل بعددهم إلى ما يزيد على (ثلاثمائة) صحابى(٢).

والحق أنه بالنظر إلى عدد الصحابة، الذين أوردهم السيوطى، نقلاً عن كتاب (ابن الربيع)، نلحـــظ أنهم بلغوا حوالى (١٣٢ صحابيّاً)، وذلك يعنى أن معظم أسماء الصحابة الموجودين فى كتاب (ابن الربيع) موجودة بين أيدينا. أما محتوى تراجم هؤلاء، فهو الذى حدث فيه اختصار شـــديد – كما أشرتُ من قبل، وسأشير بتفصيل آخر من بعدُ – بحيث وجدنا المادة التاريخية المُتَـــبقّاة – مثلاً – فى ترجمة صحابى مهم كعمرو بن العاص(٣)، وابنه عبد الله(٤) شحيحة، ولا تتناســـب – بحال – مع أهميتهما، ودورهما الرائد على المستوى الحربى، والسياسى، والإدارى،

---

(١) حدث تداخل فى ترجمة الصحابى (أبى بصرة الغفارى) بين مادة نقلها السيوطى عن ابن الربيع، وأخرى عن ابن سعد كما يلى: " قال ابن الربيع: شهد فتح مصر، واختط بها، ولهم عنه عشرة أحاديث، وكانت وفاته بمصر، ودُفن بالمقطم. قاله ابن سعد ". (حسن المحاضرة ١/٢٤٣). وبالرجوع إلى (طبقات ابن سعد ٧/٣٤٦)، وجدت أن ما به يتعلق بوفاة الصحابى، ودفنه. ومن ثم، فيرجح أن ما قبل ذلك لابن الربيع، وكان على محقق (حسن المحاضرة) الفصل بينهما بنقطة، وكان على السيوطى تقديم اسم المصدر على النص المقتبس منه؛ منعاً للخلط.

(٢) حسن المحاضرة ١/١٦٦. وقد أشار إلى أنه سيضع علامة ورمز (ك) فوق الصحابى، الذى أضافه على ما فى كتاب ابن الربيع، إلا أنه لم يطبق ذلك فى ترجمة الصحابـــى أبى فاطمة (الأزدى)، الذى وضعت فوقه هذه العلامة رغم أنه نقل فى ترجمته عن (ابن الربيع الجيزى). (حسن المحاضرة ١/٢٤٩).

(٣) ترجمة رقم (٧٣).

(٤) ترجمة رقم ٥٧.

والعلمى فى تاريخ مصر الإسلامية المبكر. وكان على ابن الربيع أن يستبعد الصحابة المجاهيل[١]، والمبهمين[٢]، ويكثّف جهوده فى مزيد من التعريف والترجمة للمبرزين منهم، ولعله فعل ذلك فى أصل كتابه، وذكر–إلى جانب هؤلاء – مَنْ ضعفت شهرتهم؛ للوفاء بشرط كتابه.

من الواضح أن مفهوم الصحبة لدى ابن الربيع يُطلق على (الصحبة العامة)؛ بدليل أنه اعتبر من أدرك الرسول ﷺ – وهو غلام – صحابياً[٣]. وبالنظر إلى مدى انطباق عنوان الكتاب على مضمونه، فقد كان ذلك متحققاً، إذ إن كل مَنْ ترجم لهم دخلوا مصر بعد إسلامهم، وتحققت صفة الصحبة لهم على النحو العام الذى قصده مؤرخنا، اللهم إلا فى موضع واحد يغلب على ظنى أنه خرج فيه عن إطار كتابه، وذلك عندما ترجم للصحابى (عثمان بن عفان)، فذكر أنه دخل مصر تاجراً فى الجاهلية، وتوجّه إلى الإسكندرية[٤]. ولم يذكر عنه مزيد معلومات، تفيد دخوله إليه بعد إسلامه، حتى نعده صحابيّاً من الصحابة الذين أتوا إليها[٥].

وأخيراً، فإن ابن الربيع لم يتعرض – فيما بين أيدينا من كتابه – لترجمة أية امرأة من النساء الصحابيات فى مصر. ولا يُرَدّ على ذلك بأنه إنما عُنى بالصحابة الرجال؛ لأن الصحبة – فى نظرى – تنسحب – أيضاً – على النساء، ما دُمْنَ أدركن رسول الله ﷺ. والحق أن ابن الربيع لم يجد مادة تاريخية عن النساء الصحابيات فى مصر، شأنه شأن ابن عبد الحكم من قبل. وقد فطن السيوطى إلى ذلك، فعقد فى كتابه باباً للنساء[٦]، حاول فيه أن يتلمس بعضهن فى مصر، لكنه ما وصل إلى ترجمة قاطعة بهذا الشأن[٧].

ثانياً – يبدو أن ابن الربيع كان حريصاً على توثيق مادته التاريخية[٨] – إلى جانب أسانيد

---

(١) مثل: قيسبة بن كلثوم (رقم ٨٠)، وأبو جبر (رقم ١١٠)، وغيرهما.

(٢) مثل: رجل من صُداء (رقم ١٣٣). وقد أسقطته من إحصائى عدد الصحابة المتبقين من كتاب (ابن الربيع).

(٣) مثل: الصحابى (ربيعة بن شرحبيل بن حسنة): ترجمة رقم (٢٦).

(٤) ترجمة رقم (٦٤)، وهى كل ما ذكره السيوطى عنه فى (حسن المحاضرة): ٢١٨/١.

(٥) وكذلك بحثت فى عدد من المصادر، التى ترجمت لهذا الصحابى ﷺ، فلم أجد أى ذكر لنزوله إلى مصر، لا فى جاهلية ولا فى إسلام. (طبقات ابن سعد ٣٩/٣ – ٦١، والاستيعاب ١٠٣٧/٣ – ١٠٥٣، وأسد الغابة ٥٨٤/٣ – ٥٩٦، والإصابة ٤٥٦/٤ ٤٥٩، وتهذيب التهذيب ١٢٧/٧ – ١٢٩. وجدير بالذكر أن ابن عبد الحكم لم يذكر هذا الصحابى ضمن الصحابة، الذين دخلوا مصر، ولا فيمن رووا أحاديث لها.

(٦) حسن المحاضرة ٢٥٢/١ – ٢٥٤ (وجعله فى ذيل كتابه: ذرّ السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة)، الذى استدرك فيه ما فات كتاب ابن الربيع، وذلك كله داخل كتابه (حسن المحاضرة).

(٧) فهى كلها مجرد استنتاجات، كأن يقول: دخل أبو ذر مصر، فالظاهر أن امرأته (أم ذر) كانت معه. وكذلك قوله عن: عبد الله بن أُنَيْس الجهنى بأن امرأته صحابية، فالظاهر أنها أقامت معه فى مصر. (المصدر السابق: ٢٥٣/١).

(٨) وإذا كانت بعض مروياته فى بقايا كتابه خِلْوًا من أسانيدها (مواردها)، فذلك إنما يرجـــع إلى حذف السيوطى لها –

أحاديث الصحابة – فاحتفظ لنا السيوطى بعدد من موارده التى استقى منها معلوماته. ومن هذه المـــوارد:الواقدى (ت ٢٠٧هــ)، الذى صرَّح ابن الربيع بالنقل عنه. ويبدو أن ذلك كان من كتابه عن (الصحابة فى مصر)(١).

والملاحـــظ أن ابـــن الـــربيع اعتمد عليه – فى ضوء ما لدينا من بقايا كتابه – فى التعريف بالصحابة، الذين دخلوا مصر؛ لغزو المغرب(٢). وكذلك المؤرخ المصرى (سعيد بن كثير بن عُفَيْر ت ٢٢٦هــــ)(٣)، وعـــبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم (ت ٢٥٧هــ)(٤) من خلال كتابه (فـــتوح مصر وأخبارها)، وأحمد بن عبد الرحمن بن وهب (ت ٢٦٤هــ)(٥)، ومؤرخ مصر يحيى ابن عثمان بن صالح السَّهْمِىّ (ت ٢٨٢هــ)(٦)، ومِقْدام بن داود (ت ٢٨٣هــ)(٧).

وهكـــذا، جمـــع المؤرخ ابن الربيع بين المصادر المكتوبـــة (الواقدى، وابن غفـــير، وابن عـــبد الحكـــم، ويحيى بن عُثمان بن صالح السهمى)، وهى مؤلفات مهمة لمؤرخين كبار، وبين روايات شفهية حديثية (أحمد بن عبد الرحمن بن وهب، ومقدام بن داود). وكان موفَّقاً – إلى حد كبير – فى اختيار كثير من موارده، التى بين أيدينا.

= بدافع الاختصار. وثمة مثالان يؤكدان ذلك: ١ – وردت ترجمة الصحابى (محمد بن مَسْلَمة) فى كتاب (ابن الربيع) – وهى رقم ٩٠ – بدون ذكر المورد، وبالرجوع إلى ما اقتبسه ابن حجر – فى ترجمة هذا الصحابى.

(١) وجدير بالذكر أن ابن الربيع لا يذكر – أحياناً غير قليلة – مصدره المباشر، الذى روى عنه أحاديث الصحابة فى مصر – كما فى تراجم أرقام: ١١، ١٣، ٤٠ – وأعتقد أن ذلك من السيوطى، الذى كان يكتفى بجزء من الإسناد، ويغفل بدايته.

(٢) أشار إلى ذلك الكتاب، ونقل عنه: ابن الأثير فى (أسد الغابة) جـ٢ صـ٤١٤، وابن حجر فى (الإصابة) جـ٣ صـ١٣٧.

(٣) راجع مواضع النقل عنه فى تراجم أرقام: ١٧، ٤٢، ٤٥، ٧٦، ٨٢ (وهما معلومات جديدة). وهو أمر غير مستغرب على هذا المؤرخ المصرى، الذى يرجح أن لـه كتاباً فى (تاريخ مصر). لمزيد من المعلومات عن هذا المؤرخ راجع: رسالتى للماجستير (الدراسات التاريخية فى مصر الإسلامية فى القرن الثالث الهجرى) جـ٢/١٣٣ – ١٥٢.

(٤) صَرَّح بالنقل عنه فى موضعين (ترجمة ٣٣، ٥٧).

(٥) وهو ابن أخى المحدِّث والمؤرخ المصرى (عبد الله بن وهب). وقد نقل عنه (ابن الربيع) حديث (جابر بن عبد الله)، الذى رواه عن عبد الله بن أُنيس الجهنى فى القصاص، وجاء لأهله خصِّيصاً من المدينة إلى مصر. (ترجمة رقم ٩).

(٦) وهو حافظ وعالم بأخبار مصر وتاريخها،وابن المؤرخ(عثمان بن صالح السهمى المتوفى سنة ٢١٩هــ). (راجع دراستى عنهما فى:رسالتى للماجستير جـ٢ صـ٨٠ – ٩٦). وقد نقل ابن الربيع عن (يحيى) فى تراجم أرقام: (١، ٣٥، ٦١ – ٦٣، ١١٠، ١٢٠).

(٧) هو مقدام بن داود بن عيسى بن تَليد الرعينى، أبو عمرو المصرى. روى عن: ابن بُكير، وعمه سعيد بن تَليد، وأسد بن موسى. روى عنه: ابن أبى حاتم، والطبرانى. توفى سنة ٢٨٣هــ. وهو فقيه مفت، وإن كانت روايته غير محمودة. (تاريخ الإسلام ٢١/٣٠٩ – ٣١٠، وتهذيب التهذيب ٦٤/٤، وسمّاه: المقدام). وعلى كل، فقد نقل عنه (ابن الربيع) رواية حديثية واحدة فى ترجمة رقم (٣).

ثالثاً – يمكن إلقاء الضوء على بعض الملامح المنهجية المستنبطة من بقايا كتاب (ابن الربيع الجيزى). كما يلى:

١ – **بالنسبة إلى منهجه العام فى ترتيب تراجم كتابه:** سبق أن رجَّحت الترتيب الألفبائىّ وطبّقتُه فى تجميع بقايا ذلك الكتاب. ولا يطعن فى ذلك عبارة، جاءت عَرَضاً فى ثنايا كلام السيوطى، أوضح فيها أن ترجمة الصحابى (خالد بن العنبس) موجودة فى كتاب (ابن الربيع)، وأنها فى آخره[1]. هذه العبارة لا نفهم مدلولها تماماً. هل تعنى أن ترجمة هذا الصحابى كانت فى نهاية الكتاب؟ أو أنها وردت فى ثنايا ترجمة أخرى لا نعرفها خُتم بها الكتاب ؟ وإذا كان التساؤل الأول صحيحاً، فما هو المعيار الذى خُتم بناء عليه الكتاب ؟ إنه – بالتأكيد – ليس معيار الترتيب المعجمى؛ لأن حرف الخاء ليس نهاية المطاف، ولا بد أن بعده تراجم أخرى عديدة، حتى نهاية حروف الأبجدية. وثمة تساؤل آخر: هل وضعت هذه الترجمة فى نهاية الكتاب؛ لأن صاحبها لا تُعرف لــه أحاديث مروية فى مصر ؟ إن ذلك يعنى أن ابن الربيع استخدم فى ترتيب تراجمه معيار (الرواية الحديثية)، فما كانت لــه روايات قُدّم، وما لم تكن لــه رواية أُخِّر. هى – كما نرى – مجرد احتمالات، تدخلنا فى متاهات، ولا توجد دلائل وقرائن أخرى قوية تؤكدها. ومن ثم، اعتمدنا الترتيب الهجائى؛ لشيوعه، ولاستخدام السيوطى – فى استدراكه على ابن الربيع – له، ولو كان نهج ابن الربيع مخالفاً لنهجه، لبيَّن السيوطى ذلك.

٢ – **هناك عناصر يحرص ابن الربيع على إبرازها، تتضح لنا من خلال مجموع التراجم التى بين أيدينا، منها:** الحرص على بيان دخول الصحابى مصر، وشهوده أحداث فتوحها من عدمه[2]، وبيان عدد ما روى من أحاديث نبوية شريفة فى مصر مع عرضها بأسانيدها، وطرقها المختلفة[3]. وأحياناً يورد آثاراً لهذا الصحابى، أو ذاك[4]. وقد تحتوى الترجمة

---

(١) راجع ترجمته فى (بقايا كتاب ابن الربيع) رقم ٢٢، وفى (حسن المحاضرة) ١/١٩٤.

(٢) من نماذج ذكره شهود الصحابى فتح مصر (تراجم: ١، ٣، ٦، ٧، وغيرها كثير). وأحياناً يذكر أنه لم يقف على شهوده الفتح (ترجمة ٣٤)، وأحياناً يصرح بعدم شهوده الفتح، ودخوله مصر بعدها (ترجمة ٤١).

(٣) يتمثل اهتمام ابن الربيع بذكر عدد الأحاديث، التى رواها الصحابى فى مصر معظم تراجم كتابه. ونادراً ما لا تُعرف للصحابى رواية، فيذكر هذا (مثل: ترجمة رقم: ٢، ٢٢، ٢٦). وأما حرصه على إيراد الأسانيد المختلفة للحديث الواحد، فذلك نجده فى مثل: (تراجم أرقام: ٩، ٣٣، ٧٢). وقد يكون الهدف من ذلك مزيداً من توثيق تلك الروايات الحديثية، أو إضفاء المزيد من المعلومات التاريخية حول الظروف المقولة فيها تلك الأحاديث.

(٤) كما فى وصف (قيس بن سعد) رقم ٧٩، وكما فى وصف (محمد بن مسلمة) رقم ٩٠.

على بعض معلومات تفيد وصفاً لذلك الصحابي[١]، أو بيان مواصفات وميزات ومؤهلات معينة يتسم بها[٢]. ويبدو أن ابن الربيع لم يكن يتوسع في نسب الصحابي وكنيته[٣]، وإن تعرض أحياناً لشئ من ذلك[٤]. وفي بعض الأحيان يتعرض لتاريخ الصحابة قبل شهودهم فتح مصر، متتبعاً ما وقع لهم من أحداث[٥]، مهتماً بإبراز تاريخ الوفاة[٦]، وسن الصحابي[٧]، ومكان دفنه[٨].

٣ - **تراوحت تراجم (ابن الربيع) بين الطول والقصر**[٩]: وقد يكون قصر الترجمة وسطحية معلوماتها ناتجاً - في الغالب - عن اختصار السيوطي لها[١٠]، ونادراً ما يكون لندرة المعلومات المتوفرة لدى ابن الربيع نفسه[١١]. وقد تغزر معلومات ابن الربيع أحياناً، فتسوقه نحو الاستطراد[١٢].

٤ - حول البدء والختام: لم يحتفظ لنا السيوطي بمقدمة كتاب (ابن الربيع)؛ كي يتسنى لنا معرفة منهجه في معالجة محتواه، واكتفى ببعض إشارات يسيرة، تلمسنا منها عدد الصحابة المترجَم لهم بالتقريب، وبعض ملامح منهجية تعرضنا لها من قبل. وبالنسبة للختام، فقد عددتُ النص الذى يشير إلى كثرة من دخل مصر مع عمرو بن العاص من الصحابة الأوائل من (بَلِيّ)[١٣] بمنـــزلة ختام لكتاب ابن الربيع، وكأنه إشارة واضحة إلى أن من عرض لتراجمهم ليسوا كل الصحابة في مصر، فهم يَنِدُّون عن الحصر.

---

(١) كان ابن الربيع يطلق على بعض الآثار التي يرويها الصحابة في مصر (أقوال لهم غير مرفوعة إلى الرسول) أحاديث، وذلك على سبيل التجوز، وباعتبار أنها مستوحاة من روح الإسلام وأحاديث الرسول (مثل: ترجمة ٤٤، ٨٤، ١٢٦).

(٢) كما في وصف (سلمة بن الأكوع) بـــ (الشجاعة، ودقة الرمي، وسرعة العدو) في ترجمة رقم ٣٩. وكذلك ما ورد عن بعض مناصب وليها الصحابة، أو مهام قاموا بها (رقم ٤، ١٥، ٣٥، ٨٢).

(٣) كما يفهم من كلام السيوطي، وإضافاته التي تناولها في (حسن المحاضرة ١/١٦٦).

(٤) مثل: ترجمتىْ رقم (١٠)، (١١٩).

(٥) راجع: ترجمتىْ: (٤٨، ٨٢).

(٦) راجع تراجم أرقام: (٧، ٣٥، ٣٩، وغيرها).

(٧) مثل: تراجم أرقام: (٣٥، ٣٩، ٤١).

(٨) تراجم أرقام: (٣٥، ١٠٧، ١١٣، ١١٧، وغيرها).

(٩) من التراجم المطولة: أرقام (٩، ٣١، ٨٢). ومن التراجم القصيرة أرقام: (٢١، ١٧، ٣١).

(١٠) كما في تراجم أرقام: (١٢، ١٤، ١٨، ٢٩، وغيرها).

(١١) كما في ترجمة رقم (١٩)، وهي ترجمة (حنظلة صاحب النبيﷺ الذى لم يقل عنه ابن الربيع) سوى أنه دخل مصر. وعلّق السيوطي قائلاً: " كذا ذكره ابن الربيع، ولم يزد عليه ". (حسن المحاضرة ١/١٩٢).

(١٢) كما في ترجمة (قيس بن سعد بن عبادة)، التي استطرد فيها؛ ليذكر أسماء عشرة من الرجال، أدركوا الإسلام، وكانوا على قدر مفرط في الطول (ترجمة رقم ٧٩).

(١٣) حسن المحاضرة ١/٢٥٤.

رابعاً، وأخيراً – بقايا كتاب ابن الربيع فى الميزان:

أ – إذا نظــرنا نظرة شاملة على هذه البقايا، لا حظنا أن تاريخ الصحابة فى مصر لا يزال يشغل بال المؤرخين المصريين فى القرن الرابع الهجرى، حتى إن مؤرخنا ابنَ الربيع أفرد كتاباً بهذا الشــأن. وهــذا يدل على أن فى حياة ومرويات هؤلاء الصحابة من العظات والعِبَر، والدروس النافعة، والعلم المفيد[١] ما يمكن اعتباره عطاء متجدداً، يلزم الأجيالَ تَفَهُّمه وتدارُسُه، فى وقت كانت الأجيال تبتعد فيه شيئاً فشيئاً عن ذلك المعين الصافى، فكان لا بد للمؤرخ ابن الربيع أن يقوم بدوره فى جذب الناس إلى تراثهم المجيد، وتاريخ أسلافهم التليد.

ب – لم تتضح شخصية ابن الربيع الجيزى فيما بقى من كتابه الوضوح الكافى[٢]، وإن كنا لا نعــدم وجــود الإشارات المتناثرة هنا وهناك بما يفيد تعليلاً لخبر[٣]، أو دقة وأمانة علمية فى العرض[٤]، أو تشكيكاً فى صحة نسبة رواية فى صورة تعليق خفيف يظهر على استحياء[٥]، أو نقد يُفهم بطريق غير مباشر[٦].

ج – امتازت كثير من الروايات التاريخية فى كتاب ابن الربيع بالصحة التاريخية كقوله عن (سعد بن أبى وقاص): إنه آخر العشرة المبشَّرين بالجنة وفاة[٧]، وقوله عن الصحابى (سهل بن سعد):إنه آخر الصحابة وفاة بالمدينة[٨].

ونلفت النظر إلى أن بعض المعلومات الواردة لدى ابن الربيع خاطئة، مثل: خطئه فى القول:

---

(١) كما فى ترجمة الصحابى (جابر بن عبد الله) رقم (٩)، وما فيها من درس بليغ، وقدوة تُحْتَذَى فى طلب العلم، والسعى إليه، وتحمل المشاق فى سبيله لذاته. وكذلك (ترجمة حبلة بن عمرو الأنصارى – رقم ١٣)، تورعه عن أخذ مال، رأى فيه شبهة، فأبى أن يقبله، رغم قبول كثير من المهاجرين الأولين.

(٢) وخير مثال على ذلك: عدم ميله إلى الترجيح، خاصة عندما يكتفى بذكر التواريخ المختلفة، ثم يترك الأمر على ذلك دون نظر أو تمحيص لاختيار التوقيت الصحيح. وذلك شائع لديه فى تواريخ الوفيات، ومبلغ أعمار بعض الصحابة، ومكان وفياتهم (راجع: ترجمة رقم: ٣٥، ٥٦ – ٥٨، وغيرها).

(٣) مثل: تعليله تسمية أحد الصحابة باسم (هُبَيْب) فى (ترجمة ١٠٣)، وتعليل دخول بعض الصحابة مصر (بهدف غزو المغرب). (رقم ٣٨، ٣٩، ١٢١).

(٤) كقوله عن عدم التثبت من المعلومة، التى يوردها: فيما أعلم. (راجع تراجم أرقام: ١١، ٣٦، ٥٣). والملاحظ أنها كلها تتعلق بتفرد أهل مصر فى الرواية الحديثية عن بعض الصحابة.

(٥) كان ابن الربيع يستخدم لفظة (قيل) الدالة على التشكيك. (راجع ترجمة ٧٩). وصرّح – ذات مرة – بالتشكيك فى نسبة رواية حديث لأحد الصحابة (رقم ٨١).

(٦) ويتضح ذلك من خلال رواية، عتب فيها (المقداد بن الأسود) على (عبد الله بن سعد)؛ لإسرافه ومبالغته فى الإنفاق على إقامة دار لــه بمصر. (ترجمة رقم ٩٩).

(٧) ترجمة رقم (٣٥)، وتهذيب التهذيب ٣/٤٢٠.

(٨) ترجمة رقم (٤١)، وتهذيب التهذيب ٤/٢٢٢.

إن لأهل مصر عن (عقبة بن كليم) نحو مائة حديث[١]؛ إذ إن هذا الصحابي غير مشهور، وغير معقول أن تكون له كل هذه الأحاديث في مصر، ثم لا يورده ابن عبد الحكم في (قسم الأحاديث) من كتابه. والصواب ما ذكره ابن حجر – نقلاً عن ابن يونس – أنه لا تُعرف له رواية[٢]. ويُذكر لابن الربيع ذكره تاريخ وفاة هذا الصحابي[٣]، وهو ما غفل عنه كل من ابن الأثير[٤]، وابن حجر[٥]. وأخطأ ابن الربيع في موضعين آخرين، ما كان لمثله أن يقع فيهما؛ لاستفاضتهما وشهرتهما.

أما الأول، فهو تاريخ وفاة معاوية، إذ جعله سنة ست وستين[٦]، والصواب أنه سنة ستين.

والثاني – أنه جهل تاريخ وفاة (عثمان بن عفان)، لما جعل خلافته تمتد إلى سنة أربعين[٧]. والصواب: أنها انتهت بوفاته شهيداً سنة ٣٥هـ. وأعتقد أن الخطأ نابع من نسخ النسّاخ، وكان على محقق (حسن المحاضرة) التنبه إلى ذلك.

د – أعتقد أن ابن الربيع أفاد حق الإفادة من كتاب ابن عبد الحكم واستوحى منه فكرته (الواردة في القسم السابع من كتابه)[٨]، فطوّرها بالتوسع في التراجم[٩]، والزيادة في أعداد الصحابة المصريين[١٠]، حتى بلغ بهم كتاباً كاملاً، وحوى معلومات جديدة مفيدة[١١]، واعتمد عليه من بعده جلّة من المؤرخين المعنيين بتراجم الصحابة كابن الأثير، وابن حجر، والسيوطي.

---

(١) ترجمة رقم (٦٨).

(٢) تاريخ المصريين لابن يونس صـ٣٤٨ (ترجمة رقم ٩٥٠)، والإصابة ٤/٥٢٥.

(٣) ذكر أنه توفي في سنة ٥٨هـ.

(٤) أسد الغابة ٤/٥٨.

(٥) الإصابة ٤/٥٢٥.

(٦) ترجمة رقم (٩٧).

(٧) وذلك لما ذكر أن الصحابي (معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي) مات سنة ٤٠هـ في خلافة عثمان. (ترجمة رقم ٩٨).

(٨) بل استوحى منه خاتمته، التي تشبه خاتمة ابن عبد الحكم (فتوح مصر صـ٣١٩)، التي ذكر فيها أنه دخل مصر صحابة كثيرون للاشتراك في فتوح إفريقية. ولذا كان توري محقاً في اعتباره مصدراً رئيسيّاً لابن الربيع الجيزي في كتابه (مقدمته بالإنجليزية لكتاب فتوح مصر وأخبارها) صـ٢٢.

(٩) لقد اكتفى ابن عبد الحكم بمجرد ذكر أسماء عدد من الصحابة الذين دخلوا مصر، لكن ابن الربيع اهتم ببعضهم، وترجم له (فتوح مصر صـ٣١٩). وهناك عدد كبير من الصحابة تناولهم ابن الربيع، ولا وجود لهم في كتاب ابن عبد الحكم (تراجم أرقام: ١ - ٢،٥،٧ – ٨،١٠ – ١٢،١٤،١٧،١٩،٢٢،٢٤،٢٨ – ٢٩،٣٤،٣٧،٤٢ – ٤٣،وغيرهم كثير).

(١٠) راجع تراجم أرقام: ٣٩، ٧١، ٨٢، ١٣٣).

(١١) من ذلك – مثلاً – الترجمتان: (٥٨، ٨٢).

٢ - المؤرخ المصرى (الكِنْدى)(*)

المـؤرخ المصرى محمد بن يوسف بن يعقوب الكندى (٢٨٣ - ٣٥٠هـ) مؤرخ مشهور. وواضح من تاريخَى ميلاده ووفاته أنه معاصر لمؤرخنا (ابن يونس). والذى يهمنا من نتاجه التاريخى فى هـذا الفصـل مـا يتصل بالتراجم. وقد أُثر عنه كتاب مفقود، أوردت لـه المصادر عناوين مـتعددة، لكـنها متقاربة[١]، وكلها يدور حول (الموالى). وهاك ما تيسر لى تجميعه من بقايا هذا الكتاب، ثم أُثنّى – بعد ذلك – بملاحظات عامة منهجية على تلك البقايا التى تم تجميعها.

من بقايا كتاب " أعيان الموالى بمصر" للكندى

(باب الهمزة)

١ - **إبـراهيم بـن نَشيط الوَعْلانى المصرى:** كان فقيهاً[٢]. توفى سنة ثلاث وستين ومائة[٣].

٢ - **إبـراهيم بن أبى يعقوب بن عيسى بن عبد الله:** كان فقيهاً، وتوفى فى صدر ستين ومائتين[٤].

٣ - **أحمد بن إسحاق بن واضح:** مولى بنى هاشم. توفى سنة أربع وثمانين ومائتين، وله تصانيف كثيرة، منها: كتاب (التاريخ) كبير، وكتاب (أسماء البلدان) مجلد، وكتاب فى (أخبار الأمم السالفة) صغير، وكتاب (مشاكلة الناس لزمانهم)[٥].

(*) رأيت تأجيل كتابة ترجمة المؤرخ المصرى (الكندى) إلى بداية (الباب الثالث والأخير من الرسالة)، بإذن الله؛ لأننا سندرس هناك أهم مؤلفات الكندى المطبوعة : (الولاة)، و(القضاة)، ففيها ملامح مفيدة فى ترجمة هذا المؤرخ، فالترجمة هناك ألصق وأليق.

(١) مثل : (موالى أهل مصر). (الإكمال ٢٥٥/٤، ومخطوط تاريخ دمشق ١٦٥/٤)، و(تابعي أهل مصر) كما فى (الإكمال ٤٤٠/٧، وأسد الغابة ٥١٣/٤)، و(أعيان الموالى بمصر) كما فى (تهذيب الكمال ١٩٣/١٥)، والموالى (الإعلان بالتوبيخ، ط٢ - مؤسسة الرسالة) صـ٥٨٤.

(٢) تهذيب الكمال ٢٢٩/٢ (وقال الكندى فى كتاب الموالى).

(٣) تاريخ الإسلام ٦٦/١٠ (ذكر محمد بن يوسف الكندى)

(٤) المدارك ٨٨/٢(قال الكندى).وأضاف : أنه مولى سلمة بن عبد الملك الطحاوى. ويقال: مولى قريش. من أصحاب ابن وهب. روى عنه جل روايته، وعن الشافعي. وكان من قبط مصر. وكتب لعيسى بن المنكدر، وهارون الزهرى، والحارث بن مسكين (قضاة مصر).

(٥) معجم الأدباء١٥٤/٥(وصُدِّرت بـ " ذكره أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب المصرى الكندى المؤرِّخ فى تاريخ له،ابتداؤه سنة ٢٨٠هـ).والغالب أنه كتاب (الموالى).وكلام ياقوت فى وصف ابتدائه بهذا العام غير دقيق؛لأنه كتاب تراجم،لا أحداث .

٤ - **أحمد بن سعد بن الحكم بن محمد بن سالم** (المعــروف بابن أبي مريم): كان من أهل العلم، والرحلة، والتصنيف. روى عنه بقي بن مخلد، وكان لا يحدّث إلا عن ثقة[١].

٥ - **أحمد بن صالح** (المعروف بابن الطبرى): كان فقيهاً صاحب مناظرة، وتوفى فى ذى القعدة سنة ثمان وأربعين ومائتين. مولده سنة اثنتين وسبعين ومائة[٢].

٦ - **أحمـــد بن عمرو بن عبد الله بن عمرو بن السَّرح**: كـــان أبو الطاهر فقيهاً، وكان صالحاً ثقة[٣]، وشرح موطأ (عبد الله بن وهب). وتوفى سنة خمسين ومائتين، وقيل: سنة ثلاث وخمسين. مولده سنة سبعين ومائة[٤].

٧ - **أحمد بن معاوية بن عبد الله الأسْوانى**: كان من أصحاب الحارث بن مسكين، وبكار بن قتيبة. روى عنه ابن قُدَيْد. توفى يوم الأحد لسبع خلون من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين ومائتين[٥].

٨ - **أحمـــد بـــن يحـــيى بن الوزير بن سليمان بن المهاجر**: مـــولى الأزد بن رفاعة التجيـــبى. كان فقيهاً[٦] من أصحاب ابن[٧] وهب. كان أعْلَمَ أهل زمانه بالشعر، والغريب، وأيام الناس[٨]. مولده سنة إحدى وسبعين ومائة[٩]. وكان يتقبل، فانكسر[١٠] عليه خراج، فسجنه أحمد ابن محمد بن المدبر[١١]، فمات فى حبسه -بمصر[١٢]- فى شوال سنة خمسين ومائتين[١٣].

٩ - **إسحاق بن الفرات بن جعفر الكندى**: من موالى (معاوية بن حُديج[١٤]). أقام

---

(١) تهذيب التهذيب ٢٦/١ (قال أبو عمر الكندى فى كتاب الموالى) . راجع تفاصيل ترجمته فى (تهذيب الكمال) ١/ ٣٠٨ - ٣١٠ ، وسير النبلاء ٣١١/١٢ ، وتهذيب التهذيب (ت ٢٥٣هــ) ٢٦/١ .

(٢) المدارك ٥٨٢/١ (قال الكندى) . وتوجد تفاصيل ترجمته فى صـــ٥٨٠ - ٥٨١ . وذكر عن مكان وزمان وفاته ما يلى: وقال أبو عمر (لعله ابن عبد البر) ، وللمقرئ: مولده بمصر سنة ١٧٠هــ . وأبوه من عجم الجند من أهل طبرستان .

(٣) حرفت إلى (موضحاً كله) فى (المدارك) ٧٨/٢ . والتصويب بتصرف من (تهذيب التهذيب) ٥٦/١ .

(٤) المدارك ٧٨/٢ (قال الكندى) . وفى صـــ٧٧ : جده مولى عتبة بن أبى سفيان .

(٥) الطالع السعيد صـــ١٤٥ (قال أبو عمر محمد بن يوسف الكندى فى كتابه فى الموالى) .

(٦) المدارك ٨١/٢ ، وتاريخ الإسلام ١٥٢/١٨ .

(٧) السابق (قال أبو عمر الكندى) .

(٨) المدارك ٨١/٢ (مِنْ أعلم)، وتاريخ الإسلام ١٥٢/١٨.

(٩) المدارك ٨١/٢.

(١٠) حرفت فى (السابق) إلى (فأنكر)، وسقط ذكر الخراج.

(١١) حرفت فى (السابق) إلى (سدير).

(١٢) السابق.

(١٣) العبارة فى (تاريخ الإسلام) ١٥٢/١٨ - ١٥٣.

(١٤) صحفت إلى (خديج) فى (رفع الإصر) ١١٢/١. وفى صـــ١١٣: أول من ولى قضاء مصر من الموالى، وكان من كبار أصحاب مالك. وفى صـــ١١٤: شهد لـــه الشافعى بالعلم باختلاف الفقهاء (وكذا ورد فى القضاة، للكندى صـــ٣٩٣).

إسحاق بن الفرات على القضاء منذ استخلفه[١] محمد بن مسروق، إلى أن قدم العمرى فى صفر سـنة خمس وثمانين ومائة. قال أحمد بن يحيى بن وزير: كان عند سعيد بن عفير شئ من أموال اليتامى، فدعاه إسحاق بن الفرات، وهو على القضاء بمصر، فقال: سَلِّمْها. فكأن سعيداً عَرَّض بالقاضـى؛ بأنـه من الموالى، فقال إسحاق بن الفرات: هل تعرف معاوية بن حديج ؟ إنه سيد النـاس كلهم من الفرما إلى الأندلس. قال ابن عفير: إنى لعارف. قال: فإنه مولى، فمن أنت ؟ فأُصْمِتَ سعيد بن عفير، وسلّم ما عنده[٢]. توفى سنة أربع ومائتين[٣].

١٠ - **أصْبَغ بن الفرج بن سعيد بن نافع**، مولى عبد العزيز بن مروان: كذا زعم أصبغ. وكثير من أهل مصر لا يصححون لـه ولاء[٤]. سألت ابن يزيد عن أصبغ: لمن ولاؤه ؟ قال: ليس لهم ولاء، هم من عبيد المسجد. وحدثنى ابن قديد، عن أبى نصر، قال: سمعتُ المزنى والربيع يقولان: كنا نأتى أصبغ قبل قدوم الشافعى، فنقول له: عَلِّمْنا مما علمك الله[٥].

قال أبو نصر: وسمعتُ عمى عبيد بن صالح يقول: قال لى مطرّف بن عبد الله الأصم: من أى بلد أنت ؟ قلت: من مصر. قال: ما فعل عبد الله بن عبد الحكم ؟ قلت: مات. قال: ما فعل أصبغ ؟ قلت: باق[٦]. قال: الحى أفقه عندنا من الميت[٧].

وأخـبرنى ابـن يزيد، عن ابن عثمان، قال: كانت بين عبد الله بن عبد الحكم وبين أصبغ منازعة ومباعدة[٨]، وكان أحدهما يرمى صاحبه بالبهتان[٩].

قـال ابن قديد: وأخبرنى مقدام، قال: أرسل ابن عتبة إلى عبد الله بن عبد الحكم: إن هذا الرجل قد وجب لك عليه حَدّ، قد شهر عندى بذلك، فصِرْ إلىّ حتى أحدّه. فأبى، وقال: إن هو حَدّه، صرنا حديثاً، وقالوا: حُدّ فلان فى سَبّ فلان[١٠].

(١) حرفت فى (رفع الإصر) ١/١١٥ إلى (استُخلف). والصواب ما أثبت، فقد استخلفه القاضى السابق (محمد بن مسروق ١٧٧ - ١٨٤هـ) على أهل مصر عند خروجه منها؛ غضباً عليهم. (القضاة ٣٩٢).

(٢) رفع الإصر ١/١١٥ (قال أبو عمر الكندى فى كتاب الموالى من أهل مصر).

(٣) السابق (أرخه أبو عمر الكندى).

(٤) المدارك ١/٥٦١ (قال أبو عمر الكندى فى موالى مصر).

(٥) المصدر السابق ١/٥٦٣ (حكى الكندى)، والمقفى ٢/٢١٥.

(٦) وردت خطأً فى المقفى ٢/٢١٥ هكذا (باقى).

(٧) المصدر السابق ٢/٢١٥، وتهذيب التهذيب ١/٣١٦ (باختصار).

(٨) المدارك ١/٥٦٤ (ذكر أبو عمر الكندى فى كتاب الموالى)، والمقفى ٢/٢١٥.

(٩) السابق ٢/٢١٥

(١٠) السابق (وحرفت فيه سب إلى سبب).

قال ابن قديد: وكَتب المعتصم فى أصبغ؛ ليُحمل إليه فى المحنة، فهرب إلى حلوان، واستتر بها. وفى ذلك يقول الجمل المصرى فى مدح الأصَمّ[(١)]:

وطويتَ أصبغ حقبة[(٢)] فى بيته فسترته جُـــدُرَ البيـــوت السُتَّـــرِ
أبدلتَه برجالـــه وجموعـــه خوفاً[(٣)] مقاعدَةَ النســاء الخُــدَّرِ[(٤)]
فإذا أراد مـــع الظـــلام لحاجـــة أخذ النقابَ، وفَضْلَ مِرْطِ المِعْجرِ[(٥)].

وكان أصبغ فقيهاً نَظّاراً. وُلد بعد الخمسين ومائة، ولم يلق مالكاً[(٦)]. توفى بمصر يوم الأحد لخمس ليال بقين من شوال سنة خمس وعشرين ومائتين[(٧)].

(باب الحاء)

١١ - الحارث بن مسكين بن محمد بن يوسف (مولى محمد بن زَبّان):[(٨)] يكنى أبا عمرو. قدم المأمون مصر، وكان بها رجل، يقال له: الحضرمى، يتظلم من ابن أسباط، وابن تميم. فجلس الفضل بن مروان فى المسجد الجامع، وحضر مجلسه يحيى بن أكثم، وابن أبى دؤاد، وحضر إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد (وكان على مظالم مصر)، وحضر جماعة من فقهاء مصر، وأصحاب الحديث. وأُحضر الحارث بن مسكين؛ ليُوَلّى قضاء مصر، فدعاه الفضل بن مروان. فبينا هو يكلمه، إذ قال الحضرمى للفضل: سَلْ - أصلحك الله - الحارث عن ابن أسباط، وابن تميم. قال: ليس لهذا أحضرناه. قال: أصلحك الله، سَلْه. فقال الفضل للحارث: ما تقول فى هذين الرجلين ؟ فقال: ظالمَيْن غاشمَيْن. قال: ليس لهذا أحضرناك. فاضطرب المسجد، وكان الناس متوافرين، فقام الفضل، وصار إلى المأمون بالخبر، وقال: خفت على نفسى من ثَوَران الناس مع الحارث. فأرسل المأمون إلى الحارث، فدعاه، فابتدأه بالمسألة، فقال: ما تقول فى

---

(١) لعله القاضى المصرى محمد بن أبى الليث الخوارزمى المعروف بالأصم، الذى كان الشاعر الجمل يمدحه (ترجمته فى القضاة صـ٤٤٩ - ٤٦٧؛ سنة ٢٢٦ - ٢٣٧هـ). وقد وردت فى (المدارك) ٥٦٥/١ (فى مدحه الأصم)، وفى (تاريخ الإسلام) ٩٩/١٦ (مدح الخليفة).
(٢) حرفت فى (المدارك) ٥٦٥/١ إلى (حفية)، والتصويب من (تاريخ الإسلام) ٩٩/١٦.
(٣) كذا فى (المدارك) ٥٦٥/١. ووردت فى (تاريخ الإسلام) ٩٩/١٦: خرَقاً.
(٤) البيتان فى (المدارك) ٥٦٥/١.
(٥) ورد فى (تاريخ الإسلام) ٩٩/١٦. والراجح أن الكندى ذكره أيضاً؛ فالرواية مصدرة نفسه (قال ابن قديد).
(٦) المقفى ٢١٦/٢ (قال الكندى).
(٧) المدارك ٥٦٥/١ (قال الكندى). وقد نقل ابن حجر عنه خبر علاقته بابن عبد الحكم، وموقفه فى المحنة هارباً حتى مات بحلوان (باختصار شديد). (تهذيب التهذيب) ٣١٦/١.
(٨) حرفت إلى (ربان) فى (الخطط) ٢٥٠/٢.

هذين الرجلين ؟ فقال: ظالمَيْن غاشمَيْن. قال: هل ظلماك بشئ ؟! قال لا. قال: فعاملتَهما ؟! قال: لا. قال: فكيف شهدتَ عليهما؟ قال: كما شَهِدْتُ أنك أمير المؤمنين، و لم أرك – قط – إلا الساعةَ، وكما شهدتُ أنك غزوتَ، و لم أحضر غزوك. قال: اخرج من هذه البلاد، فليست لك ببلاد، وبِعْ قليلك وكثيرك؛ فإنك لا تعاينها أبداً. وحبسه فى رأس جبل فى قبة ابن هَرْثَمة. ثم انحدر المأمون إلى البُشْرود، وأحضره معه. فلما فتح البشرودَ، أحضر الحارث، فلما دخل عليه، سأله عن المسألة التى سأله عنها بمصر، فرَدّ عليه الجواب بعينه، فقال، فأىَّ شئ تقول فى خروجنا هذا ؟ قال: أخبرنى عبد الرحمن بن القاسم، عن مالك: أن الرشيد كتب إليه فى أهل (دهلك)، يسأله عن قتالهم، فقال: إن كانوا خرجوا عن ظلم من السلطان، فلا يحل قتالهم، وإن كانوا إنما شَقُّوا العصا، فقتالهم حلال. فقال المأمون: أنت تَيْس، ومالكٌ أَتْيَسُ منك. ارحلْ عن مصر. قال: يا أمير المؤمنين، إلى الثغور. قال: الحَقْ بمدينة السلام. فقال لـــه أبو صالح الحرانى: يا أمير المؤمنين، تغفر زَلَّته. قال: يا شيخ، تَشَفَّعْتَ، فارتفع[١].

كان مفتياً فقيهاً[٢]. ولى القضاء من قبل المتوكل على الله فى سنة سبع[٣] وثلاثين ومائتين، وحفر خليج الإسكندرية[٤]، وأمر ببناء الرحبة فى المسجد؛ ليتسع الناس بها، وحَوّل سُلّم المؤذنين إلى غـــربى المسجد، وكان عند باب (إسرائيل)، وبلّط زيادة ابن طاهر، وأصلح بنيان السقف، وبـــنى ســـقاية فى الحَذّائين، وأمر ببناء الرحبة الملاصقة لدار الضرب؛ ليتسع الناس بها[٥]. وورد الكتاب بصرفه فى شهر ربيع الآخر سنة خمس وأربعين ومائتين[٦].

١٢ – حَمَلَة بن عامر: أبو تُرَيْس. من تابعى أهل مصر. روى عن عمر[٧].

(باب العين)

١٣ – **عبد الرحمن (أبو المهاجر البَلْهِيِىّ)**: كـــان من سَبْى بَلْهيب، حين انتقضت فى

(١) الخطط ٢٠٢/٢ (قال الكندى فى كتاب الموالى). والترجمة ذاتها – دون نسبة إلى الكندى – موجودة فى (تاريخ الإسلام) ٢١٢/١٨ – ٢١٤، ورفع الإصر ١٦٩/١.

(٢) المدارك ٥٦٩/١ (قال الكندى).

(٣) حرفت إلى (تسع)، وجعلت ولايته من قبل الواثق بالله (٢٢٧ – ٢٣٢هـــ) فى (الخطط) ١٧١/١ (وقال أبو عمر – لا عمرو – الكندى). وهذا خطأ بالطبع. ثم وردت صواباً فى (المصدر نفسه) بعد ذلك، كما سيأتى.

(٤) الخطط ٢٥٠/٢ (وذكر أبو عمر الكندى فى كتاب الموالى).

(٥) المصدر السابق: ٢٥٠/٢ (ذكر أبو عمر الكندى فى كتاب الموالى).

(٦) السابق ١٧١/١ (راجع تفاصيل ولايته القضاء من سنة ٢٣٧ – ٢٤٥هـــ فى (القضاة) للكندى صـــ٤٦٧ – ٤٧٥.

(٧) الإكمال ٤٤٠/٧ (ذكر أبو عمر الكندى فى تابعى أهل مصر). وقد نقل ابن الأثير كلام ابن ماكولا لكنه سماه (لبدة بن كعب)، وقال: أظنهما واحداً، والاختلاف فى الاسم. (أسد الغابة ٥١٣/٤).

خلافة عمر، فأعتقه بنو الأعجم بن سعد بن تُجيب. وكان فى مائتين من العطاء، وكان معاوية قد عَرّفه على موالى تُجيب. وهو الذى خرج إلى معاوية بشيراً بفتح (خرِبْتا)[١]. أخبرنى بذلك كلــه ابن قديد، عن عُبيد الله بن سعيد، عن أبيه. وأخبرنى ابن قديد، قال: بنى لــه معاوية داراً فى بنى الأعجم فى الزقاق المعروف بــ (البلهيــى)، وكُتب على الدار: (هذه الدار لعبد الرحمن سيد موالى تُجيب).

وأخـــبرنى عمى، عن ابن الوزير، عن أبى ميسرة: أن البلهيـــى كان فى مائتين من العطاء، وأن معاويـــة وهـــب لــــه سيفاً لم يزل عندهم، وأن عُبيد الله بن الحبحاب قال لأبى المهاجر البلهــيـــى: لا أســتعملك، ثم لا وليـــتُك إلا علـــى قريتك الخبيثة (بلهيب). فقال لـــه ابن البلهيـــى: إذاً أصِلَ رحماً، وأقضىَ ذِماماً.

قال ابن وزير: لما توفى سليمان بن أبى رجاء، ولم يُخلّف ذكراً، طلب ابن البلهيـــى ميراثه، وقـــال: إنـــه مولاى. وروى ابن وهب، عن سليمان بن أبى رجاء (وهو سليمان بن مسلم بن جابر، مولى البلهيـــى)[٢].

١٤ - **عـــبد الـــرحمن بن عبد الحميد بن سالم المَهْرىّ:** أبو رجاء. توفى سنة اثنتين وتسعين ومائة، وكان من أفضل أهل مصر[٣].

١٥ - **عبد الرحمن بن ميسرة** (مولى الملامس بن جذيمة بن سُلَيْم)، من حضرموت، ثم مـــن الأشـــباء: أبـــو ميســـرة. كان فقيهاً مقرئاً[٤]، عفيفاً شريفاً. ولد سنة عشر ومائة، وكـــان أول النـــاس إقراء بمصر بحـــرف نافـــع قبل الخمسين ومائـــة، وتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة[٥].

١٦ - **عَيّان بن بُغْثُم بن سعيد بن دافع:** مسجـــده بالجـــيزة، ويُعـــرف بـــ (مسجد عَيّان)[٦].

---

(١) مخطوط تاريخ دمشق ٢٧٥/١٠ (ذكره أبو عمر محمد بن يوسف الكندى فى كتاب " مَوالى أهل مصر "، ومختصر تاريخ دمشق ٨٣/١٥ - ٨٤.
(٢) مخطوط تاريخ دمشق ٢٧٥/١٠ - ٢٧٦.
(٣) تهذيب التهذيب ١٩٩/٦ (وقال أبو عمر - لا عمرو - الكندى).
(٤) الإكمال ٢٥٥/٤ (ذكره الكندى فى موالى أهل مصر).
(٥) الخطط ٣٣٢/٢ (وذكر أبو عمر - لا عمرو - الكندى).
(٦) الإكمال ٣٥٨/٧ (قاله الكندى).

ملاحظات عامة على بقايا (أعيان الموالى بمصر) للكندى:

١ - من الملاحظ أن الكندى اختار موضوعاً فريداً فى بابه، جعله مجالاً لتراجمه. وأعتقد أنه أراد بذلك التفرد والتميز؛ إذ لم يؤثر التفات أى من المؤرخين المصريين طوال القرون الأربعة الأولى من الهجرة على الأقل، للتأليف فى هذا الموضوع[١].

٢ - أتوقع أن يكون هذا الكتاب - فى الأصل - كبيراً[٢]، لكنه لم يحظ بالاهتمام الكافى من المصادر المتأخرة للنقل عنه؛ لأن كتابَى ابن يونس غَطّيا عليه، إلى جانب اشتهار الكندى بكتابيْن آخريْن فى مجالى (الحضارة والنظم)، وهما (الولاة)، و(القضاة). ومما يقوى الاعتقاد بكبر حجم هذا الكتاب الضائع أن الموالى كانوا على قدر عظيم من الاهتمام بالعلم والتقدم فيه، وبرز منهم العديد من القادة والولاة والقضاة، والمحدثين والفقهاء وغيرهم؛ مما جعلهم يتفوقون فى أحيان كثيرة على العرب أنفسهم[٣]. ويضاف - إلى ما تقدم - أن الكندى لم يجعل كتابه مقصوراً على طائفة محددة من الموالى[٤]، ولم يخص موالى مصر وحدهم بالتراجم[٥]، وإنما كان تناوله شائعاً على مستوى طوائفهم المتعددة، وبلدانهم المختلفة. وكذلك يبدو أنه لم يقف عند نوع واحد من الولاء، وإنما كان يتناول الموالى أيًّا كان نوع ولائهم[٦]، وهو بهذا يجعل الإسلام، والعمل الصالح هو المَحَكّ والأساس الراسخ، ويهدم أية نزعة شعوبية عنصرية فى مجتمعه المصرى[٧].

٣ - من الواضح أن تراجم الكتاب تراوحت بين الطول والقصر، وإن كان فى بعضها

---

(١) ولا يقدح فى ذلك ما ورد فى (رفع الإصر، نشر جست، ضمن ذيول كتاب (القضاة) للكندى صـ٥٥٧)، من أن الكندى ألّف كتاب (الموالى) من أجل بدر بن عبد الله - أو عبد العزيز - الكنانى الصَّيْرَفى، مولاهم المصرى. ذلك الرجل الذى كان مولى لـ (يحيى بن حكيم الكنانى)، وكان صيرفيًّا موسراً. وكان ابنه محمد، على قضاء مصر، وورث عن أبيه غناه وثراءه، وتوفى سنة ٣٣٠هـ (السابق: صـ٥٦٢). أقول: قد يكون الكندى أهداه إليه لصداقة، أو مودة بينهما، وليس شرطاً أن يكون هو صاحب فكرته.

(٢) وسبقنى فى الإشارة إلى ذلك الأستاذ عنان فى (مؤرخى مصر الإسلامية) صـ٣٢.

(٣) راجع فى ذلك مقارنة بين علماء العرب، والموالى فى مصر وغيرها على مستوى الفقهاء فى (مختصر تاريخ دمشق ١٧/٧٠ - ٧١، والخطط ٢/٣٣٢).

(٤) فهو لم يقتصر - إذن - على القادة المبرزين من غير العرب، كما يرى صاحب (مؤرخى مصر الإسلامية) صـ٣٢.

(٥) بدليل ترجمته لأناس وافدين على مصر (ترجمة ٩ فى الموالى).

(٦) راجع ما ورد عن أنواع الولاء فى (تهذيب الأسماء واللغات للنووى: جـ١ ق١ صـ١٤، وكتابى(معالم الثقافة الإسلامية فى القرنين الأولين من الهجرة)صـ٢٠٨(هامش٣).

(٧) راجع ترجمة ١٣ من (الموالى)، وما بها من عرض مفصّل لمكانة أحد الموالى.

تفاصيل كثيرة جديدة، كما فى ترجمة (الحارث بن مسكين)، الذى كان يلى قضاء مصر. ففى ترجمته أظهرت شخصية هذا الرجل قبل ولايته القضاء (فى عهد المأمون)، وشجاعته فى الإجابة عن أسئلته. ثم عرضت الترجمة للعديد من المنجزات الزراعية والمعمارية الحضارية، التى عُهد بها إلى هــذا القاضــى فى عهــد المتوكل (وهى جزئية جديدة، تحتاج إلى تفسير، فالمعلوم أن تلك الأعمال من اختصاصات الولاة فى المقام الأول)[١].

٤ - وأخــيراً، فقــد ظهرت دقة الكندى ومنهجيته فى المادة القليلة المتقدمة من زاويتين: الأولى - دقــته فى إيــراد تواريخ مواليد ووفيات مترجَميه من الموالى، حتى إنه تفوق على ابن يونس فى إحداها، وأتى بتاريخ الوفاة الصحيح[٢]. والثانية - أنه كان حريصاً فى مواضع كثيرة علــى ذكــر مــوارده التى انتقى منها مادته العلمية، وهى موارد أصيلة فى بابها، فهو ينقل عن مؤرخــيْن عظيمــيْن (ابن قديد، وابن وزير)، ولعله نقل من أولهما شفاهة وكتابة. أما الثانى، فالغالــب أنه نقل عن كتاب لــه مؤلَّف فى التراجم. وكذلك نقل عن عمه، الذى نجهل منزلته فى العلــم، لكــن يــبدو أنه على قدر طيب منه، بحيث غدا معتمد المؤرخ الكندى فى بعض الــروايات[٣]. بالإضــافة إلى ذكر بعض الأشعار كوثائق تؤكد الحدث[٤]. وهكذا، انتهينا من المؤرخين المصريين، وبقى الحديث عن (الأندلسيين).

(١) راجع أعمال القاضى المذكور فى (أعيان الموالى بمصر) ترجمة (١١).

(٢) ترجمة ١٤ فى (المصدر السابق). راجع ما ذكرته عن تاريخ الوفاة الصحيح الوارد لدى الكندى، وتخطئته ما جاء لدى ابن يونس، وتعليل الخطأ (دراستى لكتابَى ابن يونس فى أواخر مجلد تاريخ الغرباء صــ٤٠٠ - ٤٠١، هامش رقم ١٣).

(٣) أعيان الموالى بمصر: ترجمة (١٠، ١٣).

(٤) السابق: ترجمة (١٠).

الفصل الثانى

المؤرخ الأندلسى الخشنى

ثانياً – (مؤرخو التراجم والطبقات فى الأندلس)

بقيت لنا – في هذا الباب – دراسة أربعة من مؤرخي التراجم والطبقات في الأندلس، وهم:

(١) الخشنى.

(٢) ابن جلجل.

(٣) الزبيدى.

(٤) ابن الفرضى.

والآن، نفـــرد هـــذا الفصل لدراسة أولهم (الخشنى)؛ ترجمة، وتحليلاً منهجيًا لكتابه (أخبار الفقهاء والمحدّثين).

أولاً – حياة المؤرخ الخُشَنىّ (ت ٣٧١هـ)(*):

١ – **المولد والنشأة:** ولد أبو عبد الله محمد بن حارث(١) بن أسد الخُشَنــىّ(٢) فى مدينة

(*) تُرجم له فى: (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس)، لابن الفرضى (ط.الخانجى) جـ ٢ صـ١١٤ – ١١٥، والإكمال ٢٦١/٣، والجذوة ٩٤/١، وترتيب المدارك ٥٣١/٢ – ٥٣٢، والأنساب ٣٧٠/٢، ٣٧٢، والبغية صـ٧١، ومعجم الأدباء ١١١/١٨، وتاريخ الإسلام ٢٨٣/٢٦ – ٢٨٤، ومرآة الجنان ٣٧٥/٢، والديباج ٢١٢/٢ – ٢١٣، وتبصير المنتبه ٥٠٣/٢، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٩١/٢ – ٩٢).

(١) كذا وردت فى معظم المصادر المترجمة له، اللهم إلا (تاريخ ابن الفرضى، ط.الخانجى) ١١٤/٢، و(الإكمال) لابن ماكولا ٢٦١/٣ (فوردت فيهما معرفة بـ (ال).

(٢) هكذا ضبطه ابن ماكولا فى (المصدر السابق) ٢٦٠/٣ – ٢٦١ (بالحروف)، والسمعانى فى (الأنساب) ٣٧٠/٢، وأضاف قائلاً: هذه النسبة إلى قبيلة، وقرية. أما القبيلة، فهى بطن من قضاعة، وهو خُشَيْن بن النَّمر بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة). والظاهر من كلام السمعانى أنه يَعُدّ مؤرخنا الخشنى الذى معنا هنا، والمحدِّث الأندلسى (محمد بن عبد السلام الخشنى) منسوبَيْن إلى قرية (خُشَيْن) الموجودة بـ (إفريقية). وأنا أميل إلى نسبتهما معاً إلى القبيلة المعروفة بذلك الاسم. ولا داعى للتردد فى صحة ذلك، كما تردد الإبيارى (محقق قضاة قرطبة) للخشنى فى (مقدمته صـ٨)، عندما وجد أن ابن الفرضى فى (تاريخه، ط. الخانجى) جـ٢ صـ١١٤، قد جعل الخشنى المؤرخ من أهل القيروان؛ لأن هذه إشارة إلى أصل مولده، ونشأته، كما سنرى بعد. وتجدر الإشارة إلى أن هناك فارقاً بين الخشنى المؤرخ (أحد مؤرخى ق ٤هـ)، ومحمد بن عبد السلام الخشنى المتوفى سنة ٢٨٦هـ (وهو من رجال ق ٣هـ) بالأندلس. (راجع ترجمة الأخير فى (سير النبلاء) جـ١٣/٤٥٩ – ٤٦٠. وفى شرح هذه التفرقة راجع (الجذوة ١١٩/١، والبغية صـ١٠٤).

القيروان فى تاريخ نجهله تحديدا[١]، وإن كان من الممكن أن نقربه تقريبًا، فنقول: إنه وُلد أواخر القـرن الـثالث (ما بين سنتى ٢٩٥، ٣٠٠هـ)[٢]؛ إذ إن ذلك – فى نظرى – يتوافق مع ما ذكرته بعض المصادر من أنه قدم الأندلس حَدَثاً[٣] سنة إحدى عشرة[٤]، أو اثنتى عشرة[٥] (أى: وثلاثمائة)، على اختلاف فيما بينها.

نشأ الخشنى – إذن – بالقيروان، وتلقى معارفه وعلومه – فى الفترة القصيرة، التى قضاها – علـى أيدى علمائها. والراجح أنه كان شغوفاً بالعلم، نَهِماً فى تحصيله منذ صباه المبكر. ولدينا نصوص تؤكد ذلك، منها ما يلى:

أ – تذكـر بعض المصـادر أنه تفقـه بالقـيروان على أيـدى بعـض علمائهـا، مـثل: أحـمـد بـن نـصر[٦]، وأحـمد بن أحـمد بن زيـاد[٧]،

(١) ولا أدرى على أى مصدر اعتمد د.عبد الواحد ذنون طه فى (نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس) صـ١٣، والإبيارى فى مقدمة تحقيقه لـ (قضاة قرطبة) للخشنى صـ٩، فيما ذكرا من رحيل الخشنى إلى الأندلس، ولما يتجاوز الثانية عشرة من عمره (أو وسنّه اثنتا عشرة سنة)، فكأنما تحرفت كلمة (سنة) فى عينيهما إلى (وسنّه).

(٢) وهذا التحديد أرجح عندى، مما رآه الإبيارى محقق (قضاة قرطبة) للخشنى فى مقدمته صـ١٠ (جعل ميلاده بين سنتى ٢٩٩ – ٣٠٠هـ)؛ لأننى أعتقد أنه ولد – غالبًا – سنة ٢٩٥هـ، أو بعدها بقليل؛ كي يتناسب هذا مع وصفه – بعد ذلك – بالحدَث، وما سيرد من تنقيه العلم، وحضوره المناظرات بالقيروان.

(٣) شاب حَدَث: فَتِيّ السن، ورجل حَدَث شابّ. وهؤلاء غِلْمان أحداث وحُدْثان. (اللسان: مادة ح.د.ث) جـ٢ صـ٧٩٧. والحُداثة: سن الشباب. ويقال: أخذ الأمر بحَداثته: بأوله وابتدائه. (المعجم الوسيط ١٦٦/١). وهذا يعني أن الخشنى كان في مقتبل الشباب (١٦ – ١٧ سنة) على ما أرجح، أو سنّه (١١ – ١٢ سنة) على الاحتمال الآخر المرجوح عندي.

(٤) المدارك ٥٣١/٢.

(٥) تاريخ ابن الفرضى (ط.الخانجى) ١١٤/٢، والديباج ٢١٢/٢.

(٦) تاريخ ابن الفرضى (ط.الخانجى) ١١٤/٢ (وناظر فيه بالفقه: تعلم منه المناظرة، وناظر فى حلقته العلمية الفقهية)، والمدارك ٥٣١/٢، والديباج ١٥٨/١ (سمع منه ابن حارث).

(٧) ما ذكرته بالمتن هنا هو الصواب (راجع الديباج ١٦٩/١)، فقد ترجم له، وكناه بأبى جعفر، ولقّبه بالفارسى. ذكر أنه من أهل **إفريقية**. صحب ابن عَبْدُوس، وابن مسكين القاضى. عالم بالوثائق، وله كتب كثيرة، وكان فقيهًا لا يقلد. توفى سنة ٣١٩هـ. (السابق: ١٧٠/١). وترجم له الخشنى في (علماء إفريقية، ط.الخانجى) صـ٢٢١ – ٢٢٣ (توفى سنة ٣١٨هـ). هذا وقد سماه ابن الفرضى فى (تاريخه. ط.الخانجى) ١١٤/٢، وعياض فى (المدارك) ٥٣١/٢: (أحمد بن زياد). ويلاحظ أنه إذا ذكر هكذا، على سبيل الاختصار، كما فعل الخشنى نفسه فى (أخبار الفقهاء والمحدثين) صـ١١٨؛ فلا بأس. أما الاكتفاء بـ (أحمد بن زياد) فقط فى موضع يُذكر فيه أساتيذ الخشنى الإفريقيون، فغير صحيح؛ لأنه يؤدى إلى الاختلاط بعالم أندلسى قرطبى، يكنى أبا القاسم (توفى سنة ٣٢٦هـ)، وترجم له ابن الفرضى فى (تاريخه، ط.الخانجى) ٤٣/١ (رقم ١٠١)، وهو أحد موارد الخشنى فى كتابه (أخبار الفقهاء والمحدثين)، كما سنرى. وهو – بالطبع – ليس المقصود فى هذا الموضع.

والمُمْسِى(١)، وابن اللبـــاد(٢).

ب - سلك الخشنى - خلال فترة إقامته القصيرة بالقيروان - كل سبيل ممكن لتحصيل العلـم، فكان إذا فاته لقاء عالم من العلماء، يقوم بتعويض ذلك عن طريق سماع روايات الآخـرين عـنه، ويأتى فى طليعة من روى عنهم ذلك والده(٣). وأحياناً كان يجد بغيته فى مطالعـة كتب العلماء ببلده (القيروان)، وينقـل عنها العلم الغزير، الذى أفـاده فى بعـض مـؤلفاته بعد ذلك(٤). وقد يجد كتباً لعلماء أندلسيين، قدموا إلى بلـده قديماً، فيطالعها ويقرؤها ويستحسن ما فيها من علم، كما هـو الحـال مع كتب العالم القرطبى (قاسم بن محمد المتوفى سنة ٢٧٨هـ)(٥).

ج - لم يكتف مؤرخنا الخشنى بذلك - على حداثة سنه - بل كان يراسل بعض فقهاء الأندلس ويكاتبهم، ويستفسر عما يَعِنّ له من مسائل العلم، ويتلقى الأجوبة عن استفساراته(٦).

د - كان الخشنى ذا عقلية تتوقد ذكاء وفطنة، فتذكر لنا المصادر أنه كان يشهد مجالس العلم والمناظرة بين كبار علماء وفقهاء القيروان، وسَطَّر لنا قلمه بأسلوبه البارع ما دار فى عدد

---

(١) عالم زاهد عابد فاضل. من أهل إفريقية، منسوب إلى (مُمْس)، وهى إحدى القرى هناك. (راجع ترجمته باسم العباس بن عيسى، المتوفى فى رجب سنة ٣٣٣هـ) فى (المدارك) ٣١٣/٢ - ٣٢٣.

(٢) هو العالم الإفريقى (محمد بن محمد بن وشاح، المتوفى سنة ٣٣٣هـ فى شهر صفر). (السابق ٣٠٤/٢ - ٣١١). ويلاحظ أنه صرح بسماع ابن حارث منه فى (السابق) ٣٠٤/٢.

(٣) راجع (أخبار الفقهاء والمحدثين) للخشنى رقم (٤٥٩، ٥٠٦)؛ فى أولهما ترجمة لأحد وجوه جَيَّان. وثانيهما - عالم من جيّان - أيضاً - يكثر الرواية عن (سحنون). حدثه عنهما والده، فاستفاد من ذلك فى كتابه. ويلاحظ أن معلوماتنا عن هذا الوالد ضئيلة جداً؛ إذ لم أجد عنه سوى خبر فى (علماء إفريقية، ط. الخانجى) صـ١٩٤ (قال لى أبى: فكثيراً ما كنتُ أدخل على عيسى (يقصد: عيسى بن مسكين قاضى إفريقية المتوفى سنة ٢٧٥هـ) فى مجلس قضائه، وهو صامت لا ينطق، وكاتبه (ابن البنّاء يقضى بين الناس). فلعله كان صديقاً للقاضى، أو أحد الشهود المترددين على مجلسه. ولا شك أن والد الخشنى من رجال ق ٣هـ، ما دام قد عاصر هذا القاضى (ولى ٢٦٦ أو ٢٦٧، وعُزل ٢٧٥هـ) بناء على طلبه لدى خروج إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١ - ٢٨٩هـ) إلى صقلية. (راجع فى فترة حكم الأمير الأغلبى المذكور: البيان المغرب جـ١ صـ١١٦ - ١٣٢). وراجع فى ترجمة القاضى (عيسى بن مسكين) كتاب (علماء إفريقية، ط.الخانجى) صـ٣٠٨، والمدارك ٢١٢/٢ - ٢٢٨.

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين، للخشنى صـ١٦٦ (ترجمة محمد بن عبيد الجزيرى القرطبى، رقم ١٩٣)، الذى قدم إلى القيروان، وروى عنه رجال من أهلها قبل انصرافه. قال: ووجدت اسمه مثبتاً فى كتبهم، وقد كتبتُ عنهم من روايتهم عنه علماً كثيراً (ثم ذكر بعضه فى الترجمة).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: (ترجمة رقم ٤١١، صـ٣٠١)، قال عنه: قرأتُ له قديماً بالقيروان كتباً حسنة، ألّفها على أصحابه القرطبيين، من شاكلة رد (الشافعى) على (أصحاب مالك).

(٦) المصدر السابق صـ٢٩٨ (رقم ٤٠٥)، ترجمة (الفضل بن سلمة الجهنى، من أهل بَجّانة، ت ٣١٩هـ). قال محمد عنه: وردتنى له بالقيروان غير ما صحيفة بأجوبة مسائل، وتلخيص أصول، فرأيت كلاماً، قلّ فى أهل العلم من يُحسن مثله. وكان مذهبه فى الفُتْيا مذهبَ التصحيح والتهذيب على مذهب مالك،والرواة من أصحابه.

من هذه المجالس[١]. صحيح أنه لم يذكر تفاصيل ما كان، ولا يهمنا أن نعرف ذلك فى هذا المقام، لكن الذى تبيّن لنا مما ذكره أنه كان يستخدم كافة حواسّه، التى منحها الله إياها فى متابعة أدق الدقائق، التى تدور من حوله فى تلك المجالس العلمية العامرة، فهو يتعرف الحاضرين ويصاحبهم[٢]، ويتأمل الداخل والخارج، ويفحص وجوههم وحركاتهم، ونظرات الشيخ لهم، وما يدور من حوار عام، ثم ينتظر ليعرف ما يدور من حوار خاص، يخص به الشيخ أحد الحاضرين[٣]. ومن ثم، فلا غرابة أن يكون الخشنى قد وصل فى تلك المرحلة إلى القدرة على الدخول فى معترَك المناظرات الفقهية حامية الوطيس، وأن يكون مُبَرِّزاً فيها. وقد عبّر عن ذلك أحد من شهدوه (وهو أحمد بن عُبادة)، فقال: رأينا ابن حارث فى مجلس (أحمد بن نصر) — يعنى: فى وقت طلبه بالقيروان — وهو شعلة، يتوقّد فى المناظرة[٤].

هـ - لا ريب أن الخشنى عاصر حكم العبيديين لإفريقية، ويغلب على الظن أنه عانى ما عاناه بعض طلاب العلم وشيوخه من أهل السنة من اضطهادات وتعذيب وتنكيل العبيديين وأتباعهم بهم. والحقيقة أن النصوص لا تمدنا بمعلومات كافية بهذا الشأن، اللهم إلا نصّاً ذكره الذهبى، قال فيه الخشنى: إنه صحب أحد علماء القيروان، وكان قد هَرِم، وأنه كان يقرأ هو وزملاؤه عليه بعض كتاب (محمد بن سحنون) فى خفية وتوارٍ؛ لمَا كانوا فيه. وشرح الخشنى - فيما أرجح - ذلك بقوله: (يعنى: خوفاً من الدولة، وهم بنو عُبيد الرافضة). وأضاف قائلاً عن هذا العالم الذى كانوا يتلقون عليه: إنه امتُحن - رحمه الله - على يد قاضى الشيعة (محمد ابن عمر المروزى)، الذى قام بضربه فى الجامع، وحبسه. فُعل ذلك به، وبجماعة من الفقهاء

---

(١) علماء إفريقية، للخشنى (ط.الخانجى) صـ١٩٩.وعنه نقل المالكى فى (رياض النفوس، ط.بيروت) ٢٧٤/٢.(وقد سرد لنا بعضاً مما قيل عن أحد شيوخ القيروان فى بعض المجالس،التى حضرها لأهل العلم، وفيها تُحُدِّث عن طبيعة انتقاد الناس بعضهم بعضا).

(٢) من هؤلاء الذين صحبوا الخشنى فى القيروان، وتفقهوا معه على علمائها: (محمد بن حضر) الأندلسى (من أهل بلنسية)، الذى روى عن علماء بلده، ثم جاء إلى القيروان، ثم عاد إلى بلده ثانية، فتوفى بها (آخر سنة ٣٥٠هـ، أو أول ٣٥١هـ). (المدارك ٤٦٢/٢ - ٤٦٣).

(٣) علماء إفريقية، للخشنى صـ٢١١ - ٢١٢. وعنه نقل — باختصار — ابن عذارى فى (البيان المغرب) ١٩٤/١ - ١٩٥ (وهو الوصف الرائع والبيان البديع الذى ذكره عن دخول محمد بن عبد الله بن مَسَرَّة القرطبى حلقة علم أحمد بن نصر القيروانى، وما دار بينهما آخر المجلس، ووصف الخشنى ابن مسرة بأنه من أهل العلم (من خلال جَوَلان نظراته فى الحاضرين، وتقليبه البصر فى وجوه المتكلمين، فأيقن الخشنى هو وصديقه الفتى ربيع القطان أنه راسخ فى الصنعة. و قال عن منطقه: كلامه مصنوع، لكن حسن جيد).

(٤) تاريخ ابن الفرضى (ط.الخانجى) ١١٥/٢، والمدارك ٥٣٢/٢ (بلفظ: رأيت، وذكر أنه كان بالقيروان)، والديباج ٢١٣/٢.

والغُــزاة؛ إذ كان البــلاء عظيماً ببنى عُبيد الباطنية[١].

وبناء على هذه الإلماحة الخاطفة، فإننى أتوقع – خاصة بعد بزوغ نَجْم الخشنى فى العلم – أن يكــون قد ارتحل سرًّا؛ نجاة بنفسه من ظلم واضطهاد العبيديين فى التاريخ الذى سبق ذكره، وهــو فى مقتبل الشباب. ولا أدرى شيئاً عن موقف أسرته من ذلك الرحيل الاضطرارى، وهل فَرّ بنفسه وحده، أو كان ذلك فى صحبة أسرته. ذلك ما لم يُكشف عنه النقاب بعدُ. المهم أنه حَــطّ رحاله فى بلاد الأندلس، حيث يحكمها الأمويون السنيّون، فيجد بغيته لديهم فى البحث والدرس والتأليف[٢].

٢ – النضج والازدهار:

أ – بعد أن انتقل الخشنى إلى الأندلس (سنة ٣١١، أو ٣١٢هـــ)، واصل جهاده العلمى، متنقلاً بين كور الأندلس المختلفة[٣]، وتلقى على عدد من العلماء، منهم محمد بن عبد الملك بن أيمن[٤]، وقاسم بن أصبغ، وأحمد بن عُبادة، ومحمد بن عمر بن لُبابة[٥]، وأحمد بن زياد، والحسن ابن سعد، وغيرهم[٦].

---

(١) تاريخ الإسلام ٥٥٢/٢٣ (وفيات سنة ٣١٧هـــ)، ترجمة (محمد بن خالد، أبو القاسم الطُّوَيْرىّ).

(٢) ذكر الدكتور أحمد مختار العبادى: أن الخشنى أُحضر إلى الأندلس بدعوة من الخليفة الأموى الحكم المستنصر (بحث: من التراث العربى الإسبانى)، مجلة (عالم الفكر)، مجلد ٨، ع١ (أبريل – يونيه)، ١٩٧٧م (صـــ٤٥). وأعتقد أن هذا القول محل نظر؛ لأنه يعنى أنه قدم الأندلس بعد تولى المستنصر الخلافة (٣٥٠هـــ)، وهو مخالف لما نصت عليه المصادر من قدومه ٣١١، أو ٣١٢هـــ. ويضاف إلى ما سبق أن مقولة د. العبادى لم أجدها فيما طالعت من مصادر ترجمت للخشنى. وحتى لو قيل: إن الحكم أرسل يدعو الخشنى أثناء ولايته للعهد، فذلك لا يصح أيضاً؛ لأن الحكم ولد سنة ٣٠٢هـــ، ومجئ الخشنى إلى الأندلس يتزامن مع بلوغ الحكم سنًّا، لا تسمح له بتوجيه مثل هذه الدعوة.

(٣) فمثلاً: لقى فى (تُطيلَة) الفقيه الفاضل محمد بن عبد الله الفهرى (أخبار الفقهاء والمحدثين) رقم ١٨٩ (صـــ١٦٥). وفى (قرطبة) جالس كثيراً من العلماء، مثل: المحدّث (محمـــد بن زكريـــا بن عبد الأعلى). (السابق: رقم ١٨٣، صـــ١٦٢)، وجاور أحد زهادها وفقهائها، وصحبه دهراً (محمد بن مهلهل الزاهـــــد). (السابق: رقم ٢١٥، صـــ١٨٠). وكذلك جالس الفقيه (أحمد بن بقى بن مخلد)، و(ولى العهد الحكم). (السابق: صـــ٢٠).

(٤) قرأ عليه مؤرخنا الخشنى (السابق صـــ٣٦٠).

(٥) كان الخشنى يحضر مجالس (محمد بن عمر بن لبابة)،ويسمع منه (السابق: ١٩٤، ٣٤٠).

(٦) ذكر بعض هؤلاء العلماء: ابن الفرضى فى (تاريخه، ط. الخانجى) جـــ٢ صـــ١١٤ – ١١٥، والمدارك ٥٣١/٢، والديباج ٢١٢/٢. ومن الملاحظ أن الحميدى ذكر فى (الجذوة) ٩٤/١، والضبى فى (البغية) صـــ٧١، وياقوت فى (معجم الأدباء) ١١١/٨، وابن حجر فى (تبصير المنتبه) ٥٠٣/٢، ذكروا أن الخشنى روى عن ابن وضاح، ونحوه. وفى (الإكمال) ٢٦١/٣، و(الأنساب) ٣٧٢/٢: أن الخشنى روى عن محمد بن وضاح، وطبقته. وأعتقد أن ذلك غير صحيح بمرة؛ فهو غير معاصر للخشنى؛ إذ توفى ابن وضـاح المحدث القرطبى ٢٨٧هـــ، كما يرى ابن الفرضى فى (تاريخه، ط.الخانجى) ١٧/٢ – ١٩، وهو غير معاصر للخشنى. وكذلك لا تصح روايته عن (محمد بن وضاح الشذونى) المتوفى صدر أيام الناصر (السابق ٣٢/٢). وأيضاً لا تجوز رواية محمد بن وضاح الآخر الشذونى أيضاً، المتوفى سنة ٣٦٣هـــ؛ لأنه لم يكن محدثاً، وإنما مجرد ناسخ للمصاحف. (السابق ٧٥/٢).

ب - يبدو أن علم وفقه الخشنى قد ذاع فى أرجاء الأندلس، وتعداها إلى المغرب الأقصى، فيذكر لنا القاضى عياض أن الخشنى دخل بلدهم (سَبْتَة)[(١)] قبل العشرين وثلاثمائة، وأن أهلها تمسكوا ببقائه عندهم. ويبدو أنه مكث بينهم فترة من الوقت، لا نستطيع تحديدها، فيها تفقه عليه قوم منهم، وقام بضبط قبلة جامعهم؛ إذ وجدها تتجه غرباً، فعَدَّلها جهة الشرق، فامتثلوا رأيه[(٢)]. ثم عاد إلى الأندلس مرة أخرى فى وقت لا نعرفه، فتردد فى كور الثغور[(٣)]؛ ربما للمرابطة ومدارسة العلم مع علمائها، حتى استقر - أخيراً - فى حاضرة الأندلس (قرطبة)[(٤)]، حيث روى عنه بعض علماء الأندلس، مثل: (عبد الرحمن بن أحمد بن محمد التجيبى القرطبى)[(٥)]، و(محمد بن مروان بن زهر الإيادى الإشبيلى)[(٦)].

ج - كانت للخشنى اهتمامات ثقافية متعددة فى (الحديث، والفقه، والتاريخ، والشعر)[(٧)]، لكن شغفه بالفقه غَطَّى على علومه الأخرى، واستطاع أن يوجّه الفقه فى خدمة التاريخ، واستفاد - كذلك - من معلوماته عن رجال ورواة الحديث، واستغل ذلك كله استغلالاً حسناً فى تأليف كتابه (أخبار الفقهاء، والمحدِّثين)، الذى سندرسه بعد ذلك؛ مما يدل على علمه بالأخبار، وأسماء الرجال[(٨)]. هذا، وقد وصفه البعض بأنه كان حافظاً للفقه، متقدماً فيه، نبيهاً ذكيّاً، فقيهاً فَطناً متفننًا، عالماً بالفتيا، حسن القياس فى المسائل[(٩)]. فلا غرو - بعد هذا كله - أن يَلْفِت نظر (الحكَم المستنصر ٣٥٠ - ٣٦٦هـ) خليفة الأندلس، الذى شجعه على التأليف العلمى، فوضع الخشنى عدة مؤلفات، أهداها إليه، منها: (الاتفاق والاختلاف فى مذهب مالك)، و(كتاب الفتيا)،

---

(١) كذا ضبطها ياقوت بفتح السين على المشهور، وهى بلدة مشهورة، من قواعد المغرب، ومرساها أجود مرسى على البحر، وهى على بر البربر، تقابل جزيرة الأندلس، وبينها وبين فاس عشرة أيام. وهى مدينة حصينة تشبه (المهدية) بإفريقية؛ لأنها ضاربة فى البحر. (معجم البلدان ٣/٢٠٥ - ٢٠٦).

(٢) المدارك ٢/٥٣١.

(٣) المصدر السابق ٢/٥٣١، والديباج ٢/٢١٢.

(٤) المصدران السابقان: نفس الجزء والصفحة.

(٥) الصلة، لابن بشكوال ١/٣٠٣ (وذكر أن أبا عبد الله محمد بن حارث الخشنى أجاز له الرواية عنه).

(٦) وكان مقدماً فى الشورى، ومن أهل الرواية، والدراية (ت ٤٢٢هـ). (المصدر السابق ١/٤٨٧ - ٤٨٨). ويلاحظ أن بعض المصادر ذكرت أنه روى عنه أبو بكر بن حرمل، وغيره. (ولا أدرى بلد هذا التلميذ). (المدارك ٢/٥٣٢، وتاريخ الإسلام ٢٦/٢٨٤ (حُرِّفت حرمل إلى حوئيل)، والديباج ٢/٢١٣).

(٧) ذكر ابن الفرضى فى (تاريخه، ط.الخانجى) ٢/١١٥: أنه كان شاعراً بليغاً، إلا أنه كان يلحن. وقال: بلغنى أنه ألّف للمستنصر مائة ديوان. وعنه نقل هذا الكلام عياض فى (المدارك) ٢/٥٣١ - ٥٣٢، والذهبى فى (تاريخ الإسلام) ٢٦/٢٨٤. وفى رأيى أن الشعر البليغ يتناقض مع اللحن، ولو كان الخشنى له كل هذه الدواوين، لنقلت عنه المصادر شيئاً من أشعاره تلك. لذلك كله، فإنى أشك فى صحة هذا الكلام.

(٨) الديباج ٢/٢١٣.

(٩) تاريخ ابن الفرضى (ط.الخانجى) ٢/١١٤ - ١١٥، والمدارك ٢/٥٣١، والديباج ٢/٢١٢ - ٢١٣.

و(أخبار الفقهاء والمحدثين)[١]، و(تاريخ قضاة الأندلس)[٢]، وكتاب (تاريخ الإفريقيين)[٣]، وكتاب (فقهـاء المالكـية)[٤]، و(كتاب التعريف)، وكتاب (المولد، والوفاة)، وكتاب (النسب)، وكتاب (الاقتـباس)[٥]، وغيرهـا[٦]. ومن الواضح أن مؤلفاته - فى الغالب - تدور حول الفقه، وتراجم الفقهاء والمحدثين، والقضاة. من أجل ذلك كله، ولاّه الحكم المستنصر بعض المناصب، التى تتلاءم مع كفاءته وعلمه، فجعله مسئولاً عن (المواريث) بـ (بَجّانَة)[٧]، كما ولاّه الشورى بقرطبة[٨]، وإن كنا لا نستطيع تحديد توقيت ذلك بالضبط.

ثانياً – من خصائص شخصيته:

١ - دقته، واعتزازه بنفسه:

لعـل أول ما يطالعه الناظر فيما بين أيدينا من مؤلفات الخشنى التاريخية تصديره عدداً غير

---

(١) ورد بهذا العنوان فى (الجذوة) ٩٤/١، والبغية صـ٧١، ومعجم الأدباء ١١١/١٨. وربما كان هو المشار إليه باسم (تاريخ علماء الأندلس) فى (الديباج) ٢١٣/٢، والمذكور فى (تاريخ ابن الفرضى، ط.الخانجى) ١١٥/٢: أن الخشنى جمع للمستنصر كتاباً فى (رجال الأندلس).

(٢) وهو مطبوع بين أيدينا بعنوان: (قضاة قرطبة).

(٣) أعتقد أنه الموجود بين أيدينا بعنوان: (علماء إفريقية). وربما كان هو نفسه المسمى فى بعض المصادر بـ (تاريخ الأفارقة)، والمنقول عنه بذلك الاسم فى (المدارك ١٩٥/٢ - ١٩٦، ومعالم الإيمان ١٥٩/٢). وسمى فى (الأنساب ٥/ ١٧٧)، ونقل عنه السمعانى فيه باسم (تاريخ المغاربة)، وصرح أنه للخشنى. بينما سَمَّته بعض المصادر الأخرى، ونقلت عنه، باسم (علماء، أو مشايخ القيروان). (الجذوة ٢٤٩/١ - ٢٥٠، والبغية صـ٢٢٩، والصلة ١٠٥/١).

(٤) لعله المسمى بـ (طبقات الفقهاء المالكية) فى (الديباج) ٢١٣/٢. والغالب أنه ترجم فيه لفقهاء المذهب المالكى فى مختلف الأمصار. ومن هنا وجدنا به ترجمة للفقيه المصرى المالكى ابن الموّاز (٢٦٩هـ)، فيما ينقله عنه عياض فى (المدارك ٧٢/٢، ٧٤). وكذلك نقل عن هذا الكتاب – فى الغالب – المقريزى فى (المقفى) ٤٥٧/٧ فى ترجمة الفقيه (محمد بن يحيى بن مهدى الأسوانى المالكى المتوفى سنة ٣٤٠هـ).

(٥) وردت عموم هذه المؤلفات فى (المدارك ٥٣١/٢، ومرآة الجنان ٣٧٥/٢ (وسمى كتاب النسب بالنسيب، وتاريخ علماء الأندلس " بـ (تاريخ الأندلس)، و(علماء إفريقية) بـ (تاريخ إفريقية)، والديباج ٢١٣/٢، وبحث (مكتبة الأمويين الإسلامية فى قرطبة)، للدكتور زغروت (بمجلة البحوث الإسلامية) بالرياض، مجلد ١٧، عدد (ذى القعدة – صفر) ١٤٠٦هـ/١٤٠٧هـ، ص ٣٤٥. وذكر أنها كانت بتكليف من الناصر والمستنصر؛ ليقف المذهب المالكي أمام محاولات الشيعة تسريب مذهبهم من الشمال الإفريقى إلى الأندلس.

(٦) أضاف ابن فرحون إلى مؤلفات الخشنى كتاب (مناقب سحنون).(الديباج ٢١٣/٢،٣٠).

(٧) المدارك ٥٣١/٢. وصُحِّفت فى (الديباج ٢١٣/٢) إلى (بجاية). وبجاية بالمغرب. أما (بجانة)، ففى الأندلس، وهى من أعمال كورة إلبيرة، بينها وبين المريـة فرسخـان، وبها علماء كثيرون (معجم البلدان ٤٠٣/١). ولعلها خطة (توزيع المواريث، والإشراف على اليتامى ماليًا، وتقسيم التركات).

(٨) تاريخ ابن الفرضى (ط.الخانجى) ١١٥/٢، والمدارك ٥٣١/٢، والديباج ٢١٣/٢. وهى من الخطط المساعدة للقضاة بالأندلس، إذ تتكون من كبار الفقهاء، الذين يشاورهم قاضى الجماعة بقرطبة فى القضايا التى تُعرض عليه، ويستأنس برأيهم قبل الفصل فيها.

قلـيل مـــن رواياته بـــ (قال محمد)[١]، أو (قال محمد بن حارث)[٢]، أو (قال ابن حارث)[٣]. وهذه الصيغة التي يستخدمها كثيراً تدل على دقته في نسبة المرويات إلى نفسه، فهي من تجميعه وتنســيقه هـــو؛ ولذلك تجده – أحياناً – يصدر بها مورداً صريحاً، أو مجهولاً. إلى هنا وأتوقف مكتفـــياً بهـــذه اللمحـــة السريعة التي تمس شخصيته، مؤجّلاً التفصيل من الزاوية الأخرى عند الحـــديث عن (الموارد). وبالنسبة للجانب الآخر المستفاد هنا، فيتمثل فيما نشعر به من اعتزاز الخشـــني بنفسه، وهو ما يتأكد بصورة واضحة، عندما يتلو هذه الصيغة تعليق خاص للخشني علـــى حـــدث ما، أو خبر ما في رواية من الروايات، فكأنه يفصح عن نفسه وشخصه ورأيه. وســـوف نذكر عدداً من مواضع حضور شخصيته عند دراسة منهجه في كتابه: (أخبار الفقهاء والمحدثين)، بإذن الله (تعالى).

٢ – أدبه، وصراحته:

تميـــز الخشـــني بالعفة في استخدام الألفاظ، حتى إذا وردت لفظة مستقبحة مستهجنة على لسان أحد المشاركين في الحدث، ترفع وتنزّه بنفسه عن ترديدها كما وردت، وإنما يكنى عنها. ومـــثال ذلك: تعبيره عن ألفاظ، قالها الأمير عبد الرحمن بن معاوية غاضباً (١٣٨ – ١٧٢هـــ) لمصعب بن عمران، الذي أصر على إباء منصب القضاء، لما عرضه عليه الأمير، إذ قال: " فقال لمصعب: اذهبْ، فعليك كذا وكذا، وعلى اللذيْن أشارا بك "[٤].

والصراحة نتلمسها من واقع ما أورد الخشني في بعض مؤلفاته التاريخية. فمن ذلك: أنه كان إذا بحث عن المادة التاريخية المرتبطة بشخصية معينة في فترة معينة من فترات حياتها، فلم يعثر على ما يبغي، صرّح بذلك دون أدنى مواربة[٥]، بل قد يتعدى الأمر ذلك إلى ما هو أكثر؛ إذ قد لا يجد – عمن يترجم له، ويعرّف به – أي خبر لدى رواة الأخبـــار، يقيّده عنه، فيشير إلى ذلك بوضوح تام[٦]. وأعتقد أن ذلك لا يعيبه في شيء؛ ما دام قد استفرغ وسعه، وبذل ما في طاقته.

---

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـــ٩ – ١٠، ١٦، ٢٧، وغيرها، وقضاة قرطبة للخشني (ط.الإبيارى) صـــ٢٧ – ٣١، ٣٨، ٤٢، وغيرها كثير، وعلماء إفريقية (ط.الخانجى) صـــ٢٢٠، ٢٣٢، ٢٣٥.

(٢) المصدر السابق: صـــ١٧٨، ١٩٥، وأخبار الفقهاء والمحدثين صـــ١٧، ١٩.

(٣) علماء إفريقية (ط.الخانجى) صـــ١٨٤، ١٨٦، ١٩١.

(٤) يقصد: ابنه هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، وأحمد بن مغيث (قضاة قرطبة، ط.الإبيارى) صـــ٢٧.

(٥) قال الخشني في (المصدر السابق) صـــ٩٨، عند تناوله للقاضي (الفرج بن كنانة): ولم أجد عند رواة الأخبار للفرج بن كنانة بعد مقدمه من الثغر خبراً.

(٦) كما في ترجمة القاضي (قَطَن بن حَزْء التميمي)، فبعد أن ذكر نسبه، وبلده، وتوليته الحكم بن هشام له قضاء قرطبة، قال: (ولم أجد له عند رواة الأخبار خبراً، أقيّده عنه). (السابق: صـــ٩٩). ويمكن مراجعة المزيد من النماذج في (السابق: صـــ١٠٠ – ١٠١، ١٢٤).

٣ – رقة مشاعره، وحبه للناس:

من خلال مطالعتى كتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين) للخشنى، تبين لى أن هذا المؤرخ هادئ الطبع، حلو المعاشرة، حسن القول، يفيض رقة وعذوبة وإيماناً، ووفاء وعرفاناً لمن يترجم لهم من علماء الأندلس. وهناك عبارات، وجمل قصيرة كان يواظب على ذكرها فى تراجمه، وهى على بساطتها الشديدة، ذات مدلول طيب، ومغزى عميق. ومن ذلك: مواظبته شبه التامة – بعد ذكر اسم المترجم له فى صدر الترجمة – على (الترحم عليه)، بقوله: (رحمه الله)[١]. وفى أحيان نادرة، يترحم على المترجَم له – بعد ذكر تاريخ وفاته – آخر الترجمة[٢]. وكان يترضى على إمام أهل السنّة، ودار الهجرة الإمام مالك، فيقول: ﷺ[٣]. وقد يستخدم عند الترحم صيغاً أُخَرَ، مثل: (رحمه الله، ورحم المسلمين)[٤]، و(رحمة الله عليه، وعلى جميع المسلمين)[٥]، و(عفا الله عنا، وعنه)[٦]، و(رحمنا الله، وإياه)[٧].

٤ – عقليته الواعية المنظمة المجدّدة:

تميـز مؤرخـنا الخشـنى بحب العلم، وشغف مطالعته، وبرز فى عدة علوم، منها: (الفقه، والحـديث، والتاريخ). ومن هنا، فقد شَكّلت هذه الثقافة العريضة عقليته، ووسّعت مداركه، فكان فَطِناً لبيباً، ذا قدرة على التنسيق، والابتداع. ومن شواهد ذلك ما يلى:

أ – كان الخشنى يدرك تماماً أن العلم والفقه شئ، والعبادة والخير والزهد شئ آخر؛ إذ لم يلزم أن يكون العابد الفاضل زاهداً عالماً فقيهاً. ومن هنا كان يفرق بين هذين الأمرين، ويحرص على بيان ذلك فى تراجمه[٨].وهذا فهم صائب دقيق.

ب – كان الخشنى حسن الفهم دقيقه عند النظر إلى كل من: (المحدّث)، و(الفقيه)؛ ولذلك

---

(١) هذا هو ديدنه فى معظم تراجم كتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين). وقد تسقط هذه الجملة الدعائية فى مواضع نادرة، مثل: ترجمة (٤) صـ(١١)، وترجمة ٦١ (صـ٦٣).

(٢) راجع (المصدر السابق): ترجمة ١٢ صـ١١، ورقم ٢٠ (صـ٢٢).

(٣) السابق: ترجمة ٨ صـ١٣.

(٤) السابق: صـ١٩، ٢٤، ٢٦.

(٥) السابق: رقم (٥٨)، صـ٦٢.

(٦) السابق: صـ٢٠.

(٧) السابق: ترجمة (٥٠) صـ٤٢، وترجمة ٧١ (صـ٧٣).

(٨) كما فى ترجمة (أبى الأحوص، رقم ١٨) الواردة فى (علماء إفريقية، ط.الخانجى) صـ١٩٨ (وكان الخير والعبادة أغلب عليه من الفقه). وكذلك ترجمة (أحمد الصواف) فى السابق) رقم ٢٥ (ص٢٠٦).

كان يرى أن للحديث رجاله، وللفقه رجاله أيضاً[١]. وبلغت به الدقة والفطنة مدى أوسع من ذلك، عندما رأى أن هناك من لم يكن عنده فقه، ولاحفظ، وإنما كانت عنده رواية عن بعض العلماء[٢].

ج – علّق الخشنى على ما رواه له (أحمد بن محمد بن عبد الرحمن القُصَرىّ)، من أنه كان يسأل (يحيى بن عمر الأندلسى) عن مسألة من المسائل فيجيبه. وبعد زمان يسأله عنها، فلا يختلف قوله، ولا يتناقض جوابه. وغيره كان على خلاف ذلك. علّق الخشنى على ذلك بقوله: وهذا الوصف منه يدل على ركود النظر، وقلة الإحالة للفكر، وعلى الاقتصار على المقال (المحفوظ)[٣]. فالخشنى يرى – إذن – أنه لا بد للفقيه من إعمال فكره، وإعادة النظر فى فتاواه، وعدم التوقف عند حدود ترديد المحفوظ من المسائل الفقهية لدى السابقين، وعدم الاقتصار على التقليد، بل لا بد من الاجتهاد والتجديد.

د – القدرة على تنسيق المادة العلمية، وحسن توزيعها، ليس على مستوى الكتاب الواحد فحسب، بل على مستوى أكثر من كتاب من كتبه، بحيث إنه لا يقع فى التكرار، فما ذكره فى مكان من كتاب، لا يعيده مرة أخرى فى موضع آخر من الكتاب نفسه، وإنما يكتفى بالإشارة إلى أنه سبق بيانه من قبل[٤]. وقد يتوسع ويفصّل فى كتاب، بينما يختصر الأمر فى كتاب آخر، مشيراً إلى أنه سبق له البيان والتفصيل فى كتاب سابق، يقوم بالنص عليه؛ كى يرجـــــع إليه من شاء[٥].

---

(١) هناك من نص على تقدمهم فى الفقه، وبصرهم بالرأى والحجة فى (أخبار الفقهاء والمحدثين) ترجمة (إبراهيم بن حسين بن خالد القرطبى)، رقم (١) صـ٩ – ١٠، وأحمد بن مدرك الفقيه المفتى الفاضل المالكى القَبْرىّ (رقم ٨ صـ١٣). بينما برع البعض فى حفظ الحديث، والسنن والرجال (مثل: أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيرى)، رقم ١٢ صـ١٤ – ١٦. وهناك من اهتم برواية الحديث، مع قلة إحسانهم الفقه (يأتى بالحديث على وجهه فى زكاة الشياه، ولا يعرف الحكم الفقهى) صـ١٩.

(٢) السابق: (رقم ٤٨٣)، (صـ٣٤٣).

(٣) علماء إفريقية (ط.الخانجى) صـ١٨٤. وقد أورد الخشنى روايات، تفيد معرفته بأن الفقه هو معرفة المسألة، لا مجرد الحفظ دون فهم. (أخبار الفقهاء والمحدثين) صـ١٢٠، ٢١٩.

(٤) علماء إفريقية صـ٢١٤ (ترجمة حسن بن البنّاء)، الذى ضمه إبراهيم بن أحمد بن الأغلب إلى كتابة (القاضى عيسى بن مسكين) على الوجه الذى ذكرتُه – قبل هذا – عند ذكر (عيسى بن مسكين). وبالفعل هذه المعلومة موجودة فى ترجمة القاضى المذكور سلفاً فى (المصدر السابق) صـ١٩٣.

(٥) فى آخر ترجمة (يحيى بن عمر الأندلسى) فى (السابق) صـ١٨٦، قال: (وأُراني أودعت كتاب (التعريف) من ذكر يحيى، ما لم يحضرني فى هذا الكتاب. وكذا فى ترجمة (حمديس القطان) رقم ١٦ صـ١٩٧: وقد ذكرتُ فى كتاب (التعريف) من أخباره ما لم أذكره فى هذا الكتاب. وفى ترجمة (عبد الله بن طالب) صـ٣٠٦: ذكر مناظرة له عند الأمير (إبراهيم بن أحمد بن الأغلب)، قال: ذكرته فى كتاب (التعريف).

٥ - تفاعله مع أحداث عصره:

عرفنا - فيما سبق - أن الخشنى وُلد، ونشأ النشأة الأولى فى القيروان، ثم انتقل إلى الأندلس وهو فى مقتبل الشباب، واستقر بها حتى الممات[١]. وبهذا يكون قد نمى إلى علمه أخبار دولة الأغالبة السابقة (١٨٤ - ٢٩٦هـ)، وعايش بدايات دولة العبيديين المتشيعة، ثم عاش فى كنف الأمويين بالأندلس. والآن ما موقفه من هاتين البيئتين وحكامهما ؟ والجواب: أنه على الرغم من مغادرة الخشنى القيروان، إلا أنه كان يتابع أخبارها، ويرصد ما يتنامى إليه من أحداثها، ويقارن بينها وبين ما يُروى له من أحوال شبيهة بها[٢].

أما موقفه من حكام (**الأغالبة**)، فالملاحظ أنه لم يعاصر حكمهم، لكن يبدو أنه روي له كثير من مفاسدهم؛ مما أثر فى طريقة تعبيره عنهم، فهو لا يصفهم بالأمراء، بل اكتفى بذكر أسمائهم[٣]، وقد يعبر عن كل منهم بـ (السلطان) عند ذكر المحن التى تعرض لها بعض العلماء[٤]. وما وُجد من حالات قليلة، نُسبت فيها الإمارة إلى بعضهم، فذلك مسوق على لسان مصدره الذى نقل عنه[٥].

---

(١) من الملاحظ أن الدكتور حسين مؤنس جعل الخشنى من أعلام العلم والفقه بالمغرب (مقدمته لتحقيق رياض النفوس) صفحة (٣٥م).وهذا غير صحيح؛ بدليل تلقيب المالكى له بالأندلسى فى نقله عنه ترجمة (محمد بن سحنون) فى (رياض النفوس) - ط.بيروت - جـ١ صـ٣٥٦.وهذا هو ما نميل إليه،ورجحه قبلنا د.عبد الواحد ذنون طه فى (نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس) صـ١٥،إذ رأى أنه قيروانى الأصل،لكن ثقافته وطريقة تفكيره تشكلت على أيدى أساتيذه بالأندلس،ونتاجه انعكاس لحياته الفكرية والثقافية والاجتماعية، التى عاشها بالأندلس،التى قضى عمره فيها، وتوفى، ودُفن بها.

(٢) لم تنقطع صلة الخشنى بالقيروان، ونتوقع أن تكون له صلة بأحوالها، عن طريق القادمين إليها من القيروان، أو بالمراسلة، فيما أظن؛ بدليل أنه فى بعض تراجم (علماء إفريقية) - وهو نتاج أندلسى كتبه بالأندلس فيما نرجح - قال: (قال أبو جعفر أحمد بن أبى خالد الدباغ - **وهو اليومَ - أحدُ** عقلاء رجال القيروان) صـ١٩٩. وفى صـ ٢٤٦: أخبرنى أبو جعفر بن شهرين الذى هو - اليومَ - قاضى برقة. وفى (أخبار الفقهاء والمحدثين) صـ١٥٩: ذكر أحداثاً بلغته - فيما نرجح - عن القيروان سنة ٣١٥هـ (وهو بالأندلس)، عندما قام السفهاء، والأحداث هناك بامتحان الناس فى تقليد مالك وأصحابه؛ مما أدى إلى التشتيت والفرقة، حتى اضطر المهدى إلى تعنيف (إسحاق بن أبى المنهال)، طالباً إليه تسكين الأحوال، حتى هدأت الفتنة. (ذكر ذلك تعليقاً على ما رواه بعض تجار القيروان عن خلاف بين رجلين من عوام بغداد حول معنى المقام المحمود)، وما أحدثه ذلك من سباب وشجار، وكذلك ما حكاه له محمد بن عبد الملك بن أيمن حول ما رواه من اشتجار الفتنة بين أهل بغداد حول الموضوع نفسه). (السابق: صـ١٥٨ - ١٥٩).

(٣) علماء إفريقية (ط.الخانجى)، للخشنى:صـ١٨٣، ١٨٩ - ١٩٠، ١٩٤، ١٩٨، وغيرها.

(٤) المصدر السابق: صـ٢٣٣.

(٥) السابق: صـ١٧٩ (فى ترجمة محمد بن سحنون على لسان " لقمان بن يوسف، " وهو المورد الذى نقل عنه الخشنى تلك الرواية)، صـ١٩١ (فى ترجمة أحمد بن أبى سليمان فى حواره مع إبراهيم بن الأغلب).

وبخصوص الحكام العبيديين بالمغرب، فقد رأينا – سلفاً – أنه فرّ من موطنه، ومسقط رأسه (القيروان)؛خوفاً من بطشهم وتنكيلهم بعلماء السنّة وأتباعهم.ولا شك أنه كان يحمل لهم فى قلبه قدراً من البغض والكراهية فى الله ولله (فقد بدّلوا وغيّروا فى عقائد المسلمين الصحيحة، وآذوا أهل السنّة، واضطروه إلى هجران بلده).ومن هنا، فقد رأيناه أثناء ترجمته لأحد علماء وزهاد إفريقية يقول: مات – رحمه الله – بباب المَرْدِيّة ". وعلّق القاضى عياض بعدها مباشرة قائلاً: يريد (ابن حارث) بـــ (المردية): (المَهْدِيّة)، مناقضة لاسمها، الذى سمّاها به بنو عبيد؛ إذ كانت عش كفرهم، ودار ضلالهـــم[(١)].

ولم يقـــف الأمـــر عـــند هذا الحد، بل كان الخشنى يُزرى من شأن من تشيع بالقيروان، وجارَى العبيديين[(٢)].

وبالنسبة لطبيعة نظرته إلى الحكام الأمويين بالأندلس، فإن الخشنى كان عظيم الامتنان لهم، شديد الاحترام والإكبار لذكرهم.وأعتقد أن الخشنى كان مبالغاً فى جانب من جوانب هذا الأمر، ذلك أنه بلغت به المغالاة حدّاً جعلته يترضى عند ذكر عبد الرحمن بن معاوية، فيقول: الإمام رضي الله عنه[(٣)]، وكذلك عند ذكر غيره من بنى أمية[(٤)]. وكان يضفى على الأمراء الأمويين بالأندلس لقب (خليفة)[(٥)]، رغم أن إمارتهم لم تتحول إلى خلافة إلا فى عهد (عبد

(١) ترتيب المدارك ٣١٥/٢ (فى ترجمة العباس بن عيسى المُمْسِيّ ت ٣٣٣هـــ).وصرح القاضى عياض فى هذا النص بنقله عن (تاريخ الأفارقة) للخشنى.وقد رجعت إلى (علماء إفريقية،ط.الخانجى)،الذى بين أيدينا فى ترجمة المذكور (صـــ ٢٣٤، ٢٨٥)،فلم أجد النص فيه، فالغالب أن النسخة المطبوعة بين أيدينا مختصرة على يد العالم الأندلسى (أحمد بن محمد بن عبد الله الطَّلَمَنْكِيّ ت ٤٢٩هـــ)،خلافاً للأصل الكامل الذى طالعه عياض.

(٢) عقد الخشنى فصلاً قصيراً فى (علماء إفريقية) صـــ٢٩١ – ٢٩٦، عنونه بـــ (من تشرّق – أى: تشيع – ممن يُنسب إلى العلم بالقيروان). فهو – إذاً – جعلهم يدّعون الانتساب إلى العلم، ولم يتوسع فى الترجمة لهؤلاء (عالم مدنى الأصل بالقيروان، والباقون عراقيون؛ لأن التشيع كان بهم بارزاً)؛ ربما لأن هؤلاء هم الذين حضر ذكرهم فى ذهنه، وهو بالأندلس، أو لم يتوسع فى ذكرهم؛ إهمالاً لشأنهم.

(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـــ٩.

(٤) فمثلاً: كان يترضى على الداخل ووالده، فيقول عند ذكره عبد الرحمن بن معاوية: (رضى الله عنهما). (قضاة قرطبة، ط.الإبيارى) صـــ٢٧، ويترضى على الخليفة الحكم (رضى الله عنه). (السابق: ٢٩)، ويترضى على خلفاء بنى أمية عمومًا بالأندلس على حد تعبيره، فيقول: (رضي الله عنهم)، (السابق: ٢٤ – ٢٥، ٣٨).

(٥) فيقول مثلاً: الخليفة الحكم، والخليفة عبد الله، والخليفة محمد (أخبار الفقهاء والمحدثين) صـــ٣٢، ٣٩، ٤١، ٤٣، ٥٩، ٨٠، ٨٣، ٩٩، ١٠٧، وغيرها. ويلاحظ أنه قال: الخليفة عبد الرحمن فى (ترجمة رقم ١٢٢، صـــ١٠٧)، وأدى هذا الوصف إلى الخلط بين (عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ – ٣٥٠هـــ)، و(عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦ – ٢٣٨)، لولا وجود قرينة فى الترجمة، تَصْرِف الفهم إلى (الأمير عبد الرحمن بن الحكم)؛ لأن الترجمة ورد بها أن المترجَم له (كرز بن يحيى الصدفى الإستجى). روى عن (عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨هـــ)، فهو معاصر للأمير، لا للخليفة. وكذلك فى (ترجمة محمد بن يحيى السبائى)رقم ١٢٧، صـــ١١٢، فقد ورد أنه كان فى أيام –

الرحمن الناصر) فى ذى الحجة سنة ٣١٦هـ. ولعل الخشنى أراد أن يعبّر عن مشاعره تجاههم، ويُرْضى (الناصر، والمستنصر)، خاصة أنه وافد مهاجر إلى بلاد غريبة، يخشى على نفسه بها الدسائس والوشايات، ثم هو يعبّر عن شديد وفائه لحكامها السابقين والحاليين؛ إذ احتضنته بلادهم، وآوته فى كنفها بعد فراره من بلده.

ومن جهة أخرى، فإن مدح الخشنى الخليفة الناصر، وابنه المستنصر من بعده لا يدخل – فى نظرى – فى باب التحيز، أو المبالغة؛ لأن الخليفتين كليهما جديران بكل تجلة واحترام؛ كفاء ما قدّما للإسلام وللمسلمين فى بلاد الأندلس من عدالة ورعاية[1]، وما حققا من تقدم وازدهار، وعزة ونصر وتمكين. لقد حظى المستنصر بثناء خاص، وتقدير كبير من المؤرخ الخشنى؛ نظراً لجهوده الطيبة المتميزة فى خدمة الثقافة، ونشر العلم. فالخشنى يعرف للعلم قدره، ويفهم – تماماً – أنه أساس الفضائل والمفاخر، وأن الحكام المثقفين الذين يشجعون العلم والعلماء يقودون شعوبهم وأممهم إلى الخيرات والفضائل والمكارم[2]. فإذا عرفنا صلة الخشنى بالمستنصر، وتوجيه الخليفة له إلى التأليف فى الموضوعات التى ألّف فيها؛ مما جعله يُهْدِى هذه المؤلفات إليه؛ أدركنا سر إعجاب الخشنى به. وأيقنّا أن مدحه إياه لم يكن من باب المجاملة، أو التزلف والنفاق، ولكن من باب نسبة الفضل إلى ذويه.

حول تاريخ وفاة الخشنى:

ظل مؤرخنا (الخشنى) على صلة طيبة، ومكانة متميزة على عهد الخليفة الأموى الأندلسى (الحكـم المستنصر)، إلى أن توفى سنة ٣٦٦هـ. ويبدو أن المنصور بن أبى عامر عزل مؤرخنا الخشنى من منصبه؛ تنفيذاً لسياسته الرامية إلى التقصير بصنائع الحَكَم (أى: إهمالهم، وإبعادهم عن مناصـبهم). ولا ريـب أن الخشنى تأثر بذلك تأثراً بالغاً، إذ آلت به الحال بعد كل هذا العلم والفقه، والشهرة والمكانة المرموقة، والتقريب من الخليفة، وإهداء مؤلفاته – خاصة التاريخية –

- الخليفة الحكم (٣٥٠ - ٣٦٦هـ). وبالنظر إلى محتوى الترجمة، وجدنا أنه يروى عن مالك (ت ١٧٩هـ)، فيكون المقصود هو الأمير الحكم بن هشام (١٨٠ – ٢٠٦ هـ). وفى ترجمة رقم ١٣٠ صـ١١٦ لـ(محمد بن تليد): ورد أن الخليفة (الحكم بن هشام) استقضاه على سرقسطة، وأنه كان – أيضاً – فى أيام الخليفة عبد الرحمن (رضى الله عنه) قاضياً. وواضح أنه يقصد توليه القضاء فى عهد الأمير (الحكم بن هشام)، ثم ابنه الأمير (عبد الرحمن بن الحكم بن هشام).

(١) ورد رأى الخشنى صراحة فى (الخليفة الناصر) فى ترجمة (أحمد بن عبادة القرطبى) صـ٢٦، لما قال: (وكان له عند أمير المؤمنين (عبد الرحمن بن محمد) جاه عريض، وحرمة وافرة، **وأفضل ما كان لعالم عند إمام عادل**).

(٢) راجع (قضاة قرطبة، ط.الإبيارى)، للخشنى صـ٢٣ – ٢٤.

إلـــيه، أقول: انتهى به المطاف إلى الجلوس فى حانوت لبيع الأدهان[(١)]؛ كى يتكسب من دَخْله. ويبدو أن الخشنى كان على معرفة قديمة بدراسة الكيمياء، وتجارة العقاقير فى بداية شبابه[(٢)]؛ مما جنّـــبه مذلة السؤال، فوجد فى صنعته تلك ملاذاً، يتعيّش منه، ودخـــلاً يسد به رمقـــه. ولعله كان يختلس بعـــض الوقت؛ لإتمام بعض مؤلفاته.

ويغلب على الظن أن مؤرخنا قد انفطر فؤاده وتصدّع قلبه؛ حسرة وأسى، لما وجد نفسه مضطراً إلى هذا العمل، الذى لا شك أنه أبعده كثيراً عن عمله الرئيسى، وهوايته المفضلة المتمثلة فى الـــبحث والـــدرس والتأليف. وأعتقد أن حياته لم تطل بعد وفاة (المستنصر)، فتوفى – على الـــراجح – سنة ٣٧١هـــ[(٣)]، لا سنة ٣٦١هـــ كما يرى الكثيرون[(٤)]، ولا سنة ٣٣٠هـــ[(٥)]، ولا ســـنة ٣٦٤هــــ (كما يرى البعض)[(٦)]؛ لأنه ثبت أن الرجل عاش بعد وفاة المستنصر (ت ٣٦٦هـــ)، وأكمل كتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين) بعده؛ بدليل ترحمه عليه فى معظم المواضع،

(١) تاريخ ابن الفرضى ١١٥/٢ (قال باختصار: كان يعمل الأدهان، ويتصرف فى ضروب من الأعمال اللطيفة، يقصد: الكيمياء)، والمدارك ٥٣١/٢ – ٥٣٢، وتاريخ الإسلام ٢٨٤/٢٦ (يتعاطى الكيمياء)، والديباج ٢١٣/٢، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٩٢/٢.

(٢) القيروان ودورها فى الحضارة الإسلامية، للدكتور زيتون صـــ٤٠٤ – ٤٠٥ (ورجح أن يكون تعلم فى القيروان).

(٣) هذا هو الراجح لدى، وسنرى أدلته بعد قليل. وسبقنى إليه دون سوق أدلته: بروكلمان فى (تاريخ الأدب العربى) ٩٢/٢ (توفى ٢ من صفر ٣٧١هـــ – ٩ أغسطس ٩٨١م)، وناشر (تاريخ قضاة الأندلس) للنباهى (مقدمته صفحة ى).

(٤) تاريخ ابن الفرضى (ط.الخانجى) ١١٥/٢ (توفى بقرطبة فى الثالث عشر من صفر سنة ٣٦١هـــ، ودفن بمقبرة مومرة. فهو الوحيد الذى أشار إلى مكان الدفن، الذى لم أقف عليه بالتحديد)، والمدارك ٥٣٢/٢ (نقلاً عن ابن الفرضى فى إحدى روايتين، ذكرهما عياض)، وتاريخ الإسلام ٢٨٤/٢٦ (توفى فى شهر صفر)، والإعلام بوفيات الأعلام للذهبى صـــ٢٤٨، ومرآة الجنان ٣٧٥/٢، والديباج ٢١٣/٢ (فى رواية)، والنجوم ٦٨/٤. وقال بذلك من المحدثين: د.زيتون فى (القيروان ودورها فى الحضارة الإسلامية) صـــ٤٤٠، ود.عبد الواحد ذنون طه فى (نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس) صـــ١٥. وأخيراً، فمن الملاحظ أن د.أحمد مختار العبادى تفرد بجعل تاريخ وفاة الخشنى سنة (٣٦٠هـــ/٩٧١م). (بحثه: من التراث العربى الإسبانى) فى مجلة: (عالم الفكر) مجلد ٨، ع١ – (أبريل – يونيه) ١٩٧٧م (صـــ٤٥). ولعله خطأ مطبعى محرف عن (٣٦١هـــ).

(٥) قال ياقوت فى (معجم الأدباء) ١١١/١٨: مات فى حدود الثلاثين والثلاثمائة (وهو نقل غير دقيق عن الحميدى، كما سنرى). أما (الإكمال) ٢٦١/٣، والجذوة ٩٤/١، والأنساب ٣٧٢/٢، والبغية صـــ٧١، فذكر مؤلفوها أنه كان حيّاً فى حدود الثلاثين وثلاثمائة (أى: مات بعد ذلك فى وقت غير محدد) وهذا المذكور هنا بشأن وفاته غير صحيح، فقد وردت نصوص فى كتابه (أخبار الفقهاء والمحدثين) تفيد أنه لا يزال حيّاً سنة ٣٣٦هـــ (صـــ١٧٨)، ثم لا يزال حيّاً أيضاً سنة ٣٤١هـــ (السابق: ترجمة ٩٧، صـــ٨٥). ثم ترحم فى عدة مواضع على الخليفة الناصر (ت ٣٥٠هـــ) صـــ١٨، ٢٦، ٧٠، وغيرها. وسيأتى ترحمه على ابنه الخليفة المستنصر (ت ٣٦٦هـــ).

(٦) سبق إلى إيراد ذلك التاريخ عياض – نقلاً عن ابن عفيف – فى المدارك ٥٣٢/٢، ونقله عن (عياض) – فى الغالب، ولم يصرح – ابن فرحون فى (الديباج) ٢١٣/٢ (وقيل: توفى سنة ٣٦٤هـــ). ويبدو أن (المدارك) هو مصدر د.حسين مؤنس فى (مقدمة تحقيقه للرياض) صـــ٣٥ م.

التى ورد ذكره بها؛ إذ إنه نقل عنه مادة، ضَمّنها تراجم كتابه المذكور[(١)]، وكأنه يترحم على ذلك الزمان الذى ولّى، ولن يعود. ولعله كان يرى – بحاسة المؤرخ – فى أعمال المنصور إرهاصات الردة الحضارية بعامة (والثقافية بخاصة)، عندما استبعد المنصور رجلاً من طراز الخشنى، لا لشئ سوى أنه من رجالات العهد السابق.

****

دراسة كتاب: (أخبار الفقهاء والمحدثين)[(*)] للمؤرخ الأندلسى الخُشَنِىّ

تشمل دراسة الكتاب المذكور النقاط الآتية:

أولاً – عنوان، ومحتوى الكتاب.

ثانياً – الموارد.

ثالثاً – بعض ملاحظات نقدية.

رابعاً، وأخيراً – المنهج المتبع فى تأليف هذا الكتاب.

أولاً – العنوان، والمحتوى:

١ – لهذا الكتاب – كما سبق أن ذكرنا – عنوانان: (أخبار الفقهاء، والمحدثين)، و(تاريخ علماء الأندلس). ولكل منهما إيجابية، وسلبية؛ فالأول حدّد نوعى العلماء المذكورين فى هذا الكتاب بدقة (الفقهاء، والمحدثين)، لكنه لم يحدد الإطار الزمنى والمكانى لتراجم الكتاب، فلم يبين

---

(١) من المواضع التى ترحم عليه فيها فى (أخبار الفقهاء والمحدثين) صـ١٧٨ (هو وأبوه الناصر)، صـ٢١٥ (ولى عهد المسلمين رحمه الله)، وكذلك صـ٣٤١ (وكان هشام المؤدِّب القرطبي يؤدب أولاد أمير المؤمنين (رحمه الله)؛ ولىّ العهد (رحمه الله)، وسائرَ إخوته)، صـ٣٦٣. وللأمانة أقول: هناك بعض مواضع نادرة لم يترحم عليه فيها (مثل: صـ٢٧، حيث قال عنه: (أعزه الله)؛ لأن الرواية المسوقة كان لا يزال الحكم فى خبرها حيّاً، ولعل الخشنى دوّنها فى حياته (فى ترجمة ٣١، لأحمد بن دحيم بن خليل القرطبى ٢٧٨ - ٣٣٨هـ: سمع منه ولى العهد – أعزه الله – بعد أن عاد إلى الأندلس سنة ٣١٩هـ، بعد رحلته التى بدأت للحج سنة ٣١٥هـ، وفيها دخل بغداد سنة ٣١٦هـ (فى أواخرها). ويوجد موضع آخر صـ٣٧ (ذِكْر الحَكَم فيه موضع شك).

(*) اعتمدت – فى دراسة هذا الكتاب – على طَبعة مدريد الصادرة سنة ١٩٩٢م، التى حققها: ماريا لويسا أبيلا، ولويس مولينا. وتجدر الإشارة إلى أن د.عبد الواحد ذنون ذكر فى (هوامش صـ٧٦ من كتاب: نشأة تدوين التاريخ العربى فى الأندلس) الصادر سنة ١٩٨٨م، أن زميله د.رضا هادى عباس شرع فى تحقيق مخطوطة هذا الكتاب. و لم أقف على طبعة هذا التحقيق بعد.

الفترة الزمنية التي عاش فيها هؤلاء، ولا البلدان التي ينتمون إليها. وأما العنوان الثاني، فميزته تحديد القطر الذى ينتمى إليه هؤلاء المترجَمون، لكن يعيبه أنه لم يحدد أى نوع من العلماء يقصد.

٢ - وعلى كل، فإننا إذا ارتضينا العنوان الأول - رغم تحفظنا عليه - فإننا نستطيع القول: إن مؤرخنا الخشنى واظب على بيان نوعية العلم الذي يتسم به المترجمون، فالبعض يغلب عليه معرفة الفرائض[١]، أو هو من أهل البصر بالحجة[٢]، أو مائل إلى الرأى[٣]، أو بصير بالفتيا[٤]، أو له بصر بالمسائل وعلم الوثائق[٥]، أو هو معدود فى جماعة الفقهاء[٦]. وهناك آخرون على الجانب الآخر (الحديث) لهم رواية[٧]، أوضابطون لما سمعوا حافظون لما جمعوا[٨]، أو هم أعلم بالحديث والرجال وأحفظ للسنن والآثار[٩].

٣ - ولا يمنع ما تقدم أن يكون بعض المترجمين جامعاً بين (الفقه، وحفظ الحديث)[١٠]، أو أن تكون له اهتمامات بعلوم أخرى أيضاً[١١]، أو تكون له موهبة بارزة[١٢].

وفى اعتقادى أن مؤرخنا الخشنى كان موفقاً فى تقديم (الفقهاء) على لفظة (المحدثين) فى عنوان الكتاب، فالنظرة الفاحصة المتأملة فى تراجم الكتاب ككل تشير بوضوح إلى غلبة الاهتمام بالفقهاء، وكثرة تراجمهم بالنسبة إلى المحدثين[١٣]. ولعل غلبة الفقه على ثقافة الخشنى لها دخل فى ذلك.

---

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين (ترجمة أحمد بن إبراهيم الفرضى القرطبى، رقم ٢ صـ١١).

(٢) المصدر السابق: (ترجمة إبراهيم بن حسين بن خالد بن مرتنيل، ترجمة ١ صـ٩).

(٣) السابق: ترجمة (أحمد بن عبد الله بن خالد بن مرتنيل القرطبى، رقم ٤ صـ١١).

(٤) السابق: ترجمة (أحمد بن مدرك القَبْرىّ)، رقم ٨ صـ١٣، وترجمة (أحمد بن عتبة الحضرمى البَجّانى، رقم ١٠ صـ١٣).

(٥) السابق (ترجمة أحمد بن محمد اليحصبى القرطبى، رقم ٥ صـ١٢).

(٦) السابق: ترجمة (أحمد بن بشر بن أغبس القرطبى، رقم ١٦ صـ٢٠).

(٧) السابق: (ترجمة أحمد بن الوليد بن عبد الخالق الطليطلى)، رقم ١١ صـ١١).

(٨) السابق (ترجمة أحمد بن عبد الله بن خالد بن مرتنيل القرطبى (رقم ٤ صـ١١).

(٩) السابق: (ترجمة أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيرى)، برقم ١٢ (صـ١٥ - ١٦).

(١٠) السابق: ترجمة: حفص بن عمرو بن نجيح الإلبيرى رقم ٨٠، صـ٧٧)، وترجمة (حامد بن أخطل الإلبيرى)، (رقم ٨٢، صـ٧٧).

(١١) السابق: ترجمة (إبراهيم بن حسين بن خالد بن مرتنيل،رقم١صـ١٠:له تأليف فى التفسير معروف به)، وترجمة (أحمد بن بشر بن أغبس،رقم ١٦صـ٢٠:غلب عليه علم اللغة).

(١٢) السابق: (ترجمة أحمد بن محمد بن عجلان السرقسطى، رقم ٧ صـ١٢: له شعر بارع)، وترجمة (أحمد بن عمرو ابن منصور الإلبيرى، رقم ١٢ صـ١٥: من الخطباء البلغاء).

(١٣) من الفقهاء المترجَم لهم فى (أخبار الفقهاء والمحدثين)، راجع تراجم أرقام: (٢٠، ٢٢ - ٢٣، ٢٧ - ٢٨، ٣٤، ٣٧ - ٤٣، ٤٥ - ٤٦، ٥٣، ٥٥ - ٥٨، ٥٩ - ٦١، ٦٢ - ٦٦، ٧٦، ٧٨ - ٧٩، ٨٦، ٨٨، ٩٠، وغيرها كثير جدّاً. ومن المحدثين: تراجم أرقام: (٢٥، ٣٢، ٣٥، ٤٤، ٦٤، ١٠٠، ٢٠٣، وغيرها).

٤ - بخصـــوص عدم التحديد المكاني في عنوان الكتاب، فقد عوّض مؤرخنا ذلك النقص بالنص – في غالبية التراجم – على البلدة التي ينتمي إليها المترجَمون داخل الأندلس[١]. ويمكن أن نرتب أقاليم الأندلس المذكورة في تراجم الفقهاء والمحدثين – وهي ثمانية وعشرون – حسب عدد المنتمين إليها من علماء الأندلس على النحو الآتي:

١ - **قرطبة**: نُسب إليها (٢١٦ عالماً)[٢].

٢ - **طُلَيْطلَة**[٣]، وإلبيرة[٤]: نُسب إلى كل منهما (٤٣ عالماً).

٣ - **سرقسطة**[٥]: نُسب إليها (٣٤ عالماً).

٤ - **وَشْقَة**[٦]: نُسب إليها (٢٢ عالماً).

٥ - **ريَّة**[٧]: نُسب إليها (١٧ عالماً).

٦ - **وادي الحجارة**[٨]، **وجيّان**[٩]: نسب إلى كل منهما (١٦ عالماً).

٧ - **إســتجة**[١٠]، **وإشبيلية**[١١]، **وتُطيلة**[١٢]، **وتُدْمير**[١٣]: نُسب إلى كل واحد من هذه الأقاليم (١٤ عالماً).

---

(١) كان اسم بلدة المترجم له يسقط أحياناً، كما في ترجمة رقم (١) صــ٩ (إبراهيم بن حسين بن خالد بن مرتنيل). وبالعود إلى (تاريخ ابن الفرضي، ط.الخانجي) ١٦/١، ذكر أنه قرطبي. وكذلك حدث في ترجمة (شيبان بن سليمان الزاهد) في (أخبار الفقهاء والمحدثين) صــ٤٦٧. وبالعود إلى (تاريخ ابن الفرضي، ط.الخانجي) ٢٣٣/١، قال: من أهل قرطبة. وكذلك (محفوظ بن حفاظ) في (أخبار الفقهاء والمحدثين) رقم ٢٦٠، لم يذكر بلده. وجعله ابن الفرضي في (تاريخه) ١٢١/٢ في أهل (قرطبة). وكذلك (قاسم بن أصبغ البيّاني) في (أخبار الفقهاء والمحدثين) رقم ٤١٧ (في ترجمته سَقْط ربما سَقَطَ خلاله اسم بلده). وهو من قرطبة، كما جاء في (تاريخ ابن الفرضي ٤٠٦/١). ويلاحظ أن هناك شخصين آخرين، لم يذكر الخشني بلديهما عند الترجمة لهما (قاسم بن عساكر، رقم ٤٢١ في " أخبار الفقهاء والمحدثين "، ويحتمل أن يكون هو المذكور في (تاريخ ابن الفرضي، ط. الخانجي) ٤٠٥/١ (هو قرطبي). وأما الشخصية الأخرى، فهي شخصية (عبد المؤمن بن ذي النون)، رقم (٣٤٩)، و لم أقف على بلده في المصادر المتاحة لي.

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: من ذلك تراجم أرقام: (١٧ - ١٨، ٢٠ - ٢٢، ٢٥، ٢٧، ٣١ - ٣٤، ٣٨، وغيرها كثير.

(٣) المصدر السـابق: تراجم أرقام: (٣، ٦، ٦٦، ٨٥، ١٠٣، وغيرها).

(٤) السابق: تراجم أرقام: (١٢، ٢٩، ٣٦ - ٣٧، ٤٠، وغيرها).

(٥) السابق: تراجم أرقام: (٧، ٥٠ - ٥١، ٥٩ - ٦٠، ٦٣، ٧٤ - ٧٥، وغيرها).

(٦) السابق: تراجم أرقام (١٩، ٩٢، ٩٨، ١١٠، ١٩٦، وغيرها).

(٧) أخبار الفقهاء والمحدثين: تراجم أرقام (٢٤، ٥٥، ١٤٢، ١٦١، ١٦٦، ١٨٠، ٢٠٨، وغيرها).

(٨) السابق: أرقام (٢٦، ٣٥، ٧٨، ٩٩، ١٢٥، وغيرها).

(٩) السابق: أرقام (٦٧، ٩٠، ١١٩، ١٤١، ١٧٦، ٢٤٩، وغيرها).

(١٠) السابق: أرقام (٢٣، ٤٦، ٥٧، ٧٦، ١٢٢، ٢٣٦، وغيرها).

(١١) السابق: أرقام (٥٤، ٦٩، ١٠١، ١٤٩، ١٦٧، ٢٩٣، وغيرها).

(١٢) السابق: أرقام (٦١، ٨٩، ١٤٧، ١٨٩، ٢٠٦، ٢١٨، وغيرها).

(١٣) السابق: أرقام (٩٥، ١٢٠، ١٣٤، ٢١١، ٢٣٢، ٢٣٧، وغيرها).

٨ - **الجزيرة**[١]، **وبَجّانة**[٢]: نُسب إلى كل منهما (١٢ عالمًا).

٩ - **قَبْرَة**[٣]: نُسب إليها (٧ علماء).

١٠ - **شَذونة**[٤]، **وبطليوس**[٥]: نسب إلى كل منهما (٦ علماء).

١١ - **فريش**[٦]: نُسب إليها (أربعة علماء).

١٢ - **ماردة**[٧]، **وقرمونة**[٨]: نسب إلى كل منهما (ثلاثة علماء).

١٣ - **طرطوشة**[٩]، **وباجة**[١٠]: نسب إلى كل منهما (عالمان اثنان).

١٤ - **لورقة**[١١]، **وأُشونة**[١٢]، **ومالقة**[١٣]، **ولاردة**[١٤]، **ولَشْبُونة**[١٥]، **والثغر**[١٦]: نُسب إلى كل منها (عالم واحد).

ويلاحظ على التوزيع السكانى للمترجمين، الذى ذكرناه آنفاً ما يلى:

١ - مدى الجهد الكبير الذى بذله الخشنى فى جمع المادة العلمية لهذا الكتاب لهذا الكم الهائل من الفقهاء والمحدثين، والذى نعتقد أنه عاصر عدداً لا بأس به منهم، وأنه كان يتنقل بين كور الأندلس المختلفة؛ للسؤال والتحرى عند جمع معلوماته عنهم. ولذا، فالمرجح أن هذا

---

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: تراجم أرقام: (٢٨٩، ٢٢١، ١٨٦، ٥٦ - ٣٣٩، ٢٩٠، وغيرها).

(٢) السابق: أرقام (٩ - ١٠، ٢٨، ٣٠، ١٨٢، ٢١٢، ٣٤٧، وغيرها).

(٣) السابق: أرقام (٨، ٦٢، ١١٢، ١١٧، ٢٤٥، ٣٨١، ٤٦٦).

(٤) السابق: أرقام (٤٥، ٩٤، ١٣٥، ١٦٤، ٣٩٧، ٤٢٦).

(٥) السابق: أرقام (٦٨، ٨٦، ٢٤٧، ٣٨٦، ٤٥١، ٤٦٥).

(٦) السابق: أرقام (٢٦٧، ٤٥٢ - ٤٥٣، ٤٧٢). ذكرها ياقوت بكسر أولها وثانيها (وشدّد المحقق الراء). وهى مدينة بالأندلس غربى فحص البلوط، بها الرخام الأبيض الجيد، والبندق الكثير، والشجر، ومعادن الحديد (معجم البلدان ٢٩٥/٤).

(٧) أخبار الفقهاء والمحدثين: أرقام (٢٤٢، ٣٢٩، ٣٣٥).

(٨) السابق: أرقام (٧٩، ١٦٣، ٢٤٦).

(٩) السابق: رقم (١٤، ٣٢٣).

(١٠) سكنها وتردد بينها وبين فحص البلوط المترجم له فى (السابق)، برقم ١١٤ (صـ١٠١)، وسكن باجة فقط المترجم له فى (السابق)، برقم ٢٥١.

(١١) السابق: رقم (٧٧).

(١٢) السابق:رقم (٨٣).وهى حصن بالأندلس،من نواحى (إستجة). (معجم البلدان ٢٣٩/١).

(١٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: رقم (٣٣٢).

(١٤) السابق: رقم (١٦٩).

(١٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: رقم ٣١٨ (وكان يترد بقرطبة). و(لَشْبونَة) مضبوطة بالحروف، ويقال، أُشْبونَة، مدينة بالأندلس، تتصل أعمالها بأعمال شنترين، وهى قديمة قريبة من البحر (غربى قرطبة)، ولعسلها فضل على كل عسل (معجم البلدان ١٩/٥.

(١٦) أخبار الفقهاء والمحدثين: (رقم ٢٥٩). و لم يحدد أى ثغر من ثغورها.

الكتاب استغرق إعداده وقتاً طويلاً، ووضعت لمساته الأخيرة بعد المستنصر، وهو من أواخر ما دبَّجَتْه قريحة مؤرخنا الخشني.

٢ - أن قرطبة (حاضرة الأندلس) نالت قسطاً وافراً، ونصيباً أكبر من اهتمام الخشني، فهي العاصمة، وهي ملتقى طلاب العلم من كل مكان، وبها فطاحل العلماء، الذين حرصت الخلافة على الانتفاع بعلمهم.

٣ - غالبية من ترجم لهم الخشني أندلسيون مولداً، ونشأة، وثقافة. ويوضع في الاعتبار أن هناك قوماً أتوا من أقاليم أخرى، لكنه ترجم لهم، وعَدَّهم أندلسيين بحكم الإقامة والاستقرار بالأندلس[1].

المحتوى:

ترجم الخشني في هذا الكتاب لعدد من الفقهاء والمحدثين، بلغت أعداد تراجمهم (٥٢٧ ترجمة)، وهم موزعون على (٢٨مدينة أندلسية). وبالنظرة الشاملة إلى النطاق الزمني للمترجمين، ألفينا الرجل يركز اهتمامه على فقهاء ومحدثي القرنين الثالث[2]، والرابع الهجريين[3]، بينما لا يلتفت كثيراً إلى فقهاء ومحدثي القرن الثاني الهجري. ولعل رغبته في التمييز بين المحدثين والفقهاء هي التي ألجأته إلى ذلك، حيث تطور العلوم وازدهارها بالأندلس، ثم إن استقلالها عن المشرق شيئاً فشيئاً، يرتبط بهذين القرنين (خاصة الرابع منهما). وعلى كلٍ، فأقدم علماء هذا الكتاب وفاة تعود سنة وفاته إلى عام (١٨٠هـ)[4]، وبعده آخر توفي سنة (١٩٣، أو ١٩٤هـ)[5].

---

(١) مثل: (أسيد بن عبد الرحمن السباني). شامي، نزل إحدى قرى إلبيرة. (المصدر السابق)، ترجمة رقم (٥٣)، صـ (٤٧).

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: مثل تراجم: (أحمد بن إبراهيم الفرضي)، رقم (٢) صـ١١ (ت ٢٩٠هـ)، و(أحمد بن سليم القروي)، رقم ٩ صـ١٣ (ت ٢٩٠هـ)، و(أحمد بن يونس بن عابس)، رقم ١٩ صـ٢٢ (ت ٢٩٨هـ)، و(أسامة بن صخر)، رقم ٥٠ صـ٤٢ (ت ٢٧٦هـ)، و(حفص بن عمر)، رقم ٧٨ صـ٧٦ (ت ٢٨٨هـ)، و(خطاب بن إسماعيل الغافقي)، رقم ٩٨ صـ٨٦ (ت ٢٩٧هـ)، و(زياد بن محمد بن زياد)، رقم ١٠٥ صـ٩٨ (ت ٢٧٣هـ)، و(زكريا بن يحيى الثقفي)، رقم ١٠٦ صـ٩٨ (ت ٢٧٦هـ)، و(زكريا بن إسماعيل بن عبد الرحيم)، رقم ١٠٨ صـ٩٩ (ت ٢٨٨هـ)، و(زكريا بن عيسى بن عبد الواحد)، رقم ١٠٩ صـ٩٩ (ت ٢٩٤هـ)، و(طوق بن عمرو بن شعيب)، رقم ١١٩ صـ١٠٤ (ت ٢٨٥هـ)، ومحمد بن يوسف ابن مطروح) رقم ١٣١ صـ١١٩ (ت ٢٧١هـ).

(٣) السابق: مثل: (أحمد بن زياد بن محمد بن زياد) رقم ٢٥ صـ٢٤ (ت ٣٢٦هـ)، و(أحمد بن دحيم بن خليل) رقم ٣١ صـ٢٧ (ت ٣٣٨هـ)، و(أحمد بن محمد بن عمر بن لبابة) رقم ٣٤ صـ٣١ (ت ٣٢٦هـ)، و(أحمد بن سعيد بن مسعدة)، رقم ٣٥ (صـ٣١)، (ت ٣٢٨هـ)، و(أحمد بن موسى بن الطفيل)، رقم (٣٧)، صـ ٣١ (ت ٣٢٩هـ)، و(حسن بن سلمون) رقم ٧١ (صـ٧٣)، المتوفى سنة ٣٣٥هـ، و(حسان بن عبد الله بن حسان)، رقم ٧٦ (صـ٧٥)، المتوفى ٣٣٤هـ، و(خلف بن هاشم الأشعري)، رقم (٩٥)، صـ٨٤ (ت ٣٣٤هـ)، ومحمد بن عيسى بن رفاعة، رقم (٢٠٨)، صـ١٧٨ (ت ٣٣٧هـ).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ٧٣ صـ٧٤ (حسين بن عاصم — عاش ٧٠ سنة).

(٥) السابق: (زياد بن عبد الرحمن اللخمي)، رقم (١٠٤)، صـ٩٨.

وبالنسـبة للمتـرجمين المنتسبين إلى القرن الثالث الهجرى، فإن أقدمهم توفى سنة ٢٢٤هـ[١]، وأواخـرهم وفاة توفوا سنة ٢٩٩هـ[٢]، ٣٠٠هـ[٣]، ٣٠٢هـ[٤]، وغير ذلك من السنوات الأولى مـن القرن الرابع الهجرى[٥]. وأخيراً، فإن أحدث مترجمى القرن الرابع الهجرى وفاة هو (عيسى بن خلف الإشبيلى) المتوفى سنة ٣٤٣هـ[٦].

ثانيًا – الموارد:

تنقسم موارد كتاب مؤرخنا الخشنى إلى الأقسام الآتية:

١ – موارد صريحة:

ويبلغ عددها (٥٠) مورداً، هى كما يلى:

أ – **خالد بن سعد**[٧]: روى عنه الخشنى فى كتابه هذا (٢٤٥ رواية)[٨].

ب – **أحمد بن خالد**[٩]: بلغت مروياته التى نقلها عنه الخشنى (٤٠ رواية)[١٠].

(١) السابق: (محمد بن خالد بن مرتنيل)، رقم (١٢٦)، صـ١١٢.

(٢) السابق (أصبغ بن مالك)، رقم ٤٤، صـ٣٩.

(٣) السابق (الخضر بن شامخ)، رقم (٩٧)، صـ٨٥.

(٤) السابق (زكرياء بن هلال التجيبى)، رقم ١١٣، (صـ١٠٠)، وترجمة (أيوب بن سليمان المعافرى)، رقم (٣٨)، صـ(٣٣).

(٥) السابق: مثل ترجمة: (أحمد بن عبد الله بن فرج النميرى)، رقم (٢٠)، صـ٢٢ (ت ٣٠٣هـ)، وترجمة (حزم الأحمر)، رقم ٨٦، صـ٧٩ (ت ٣٠٥هـ)، وترجمة (أحمد بن محمد، المعروف بابن البعوى)، رقم ١٨، صـ٢١ (ت ٣١٢هـ، عن ٧٥ سنة).

(٦) السابق: (عيسى بن خلف)، رقم (٣٥٨)، صـ (٢٧٤).

(٧) من أهل قرطبة. يكنى أبا القاسم. كان إماماً فى الحديث، حافظاً له، بصيراً بعلله، عالماً بطرقه، مُقَدَّماً على أهل وقته فى ذلك. روى عن سعيد بن عثمان الأعناقى، وطاهر بن عبد العزيز، ومحمد بن عمر بن لبابة، وغيرهم. له كتاب فى (رجال الأندلس) ألّفه للمستنصر. توفى سنة ٣٥٢هـ (تاريخ ابن الفرضى، ط.الخانجى) ١/١٥٤ – ١٥٦). ولعل الكتاب المشار إليه هو الذى نقل عنه الخشنى كثيراً من تراجمه.

(٨) من هذه الروايات الكثيرة ما يلى: ما ورد فى تراجم أرقام: (١ – ٢، ٦، ٨، ٢١، ٢٦، ٤٣ – ٤٥، ٧٥ – ٧٦، ٧٨ – ٧٩، ٩٨ – ٩٩، ١٠٤ – ١٠٥، ١٢١، ١٢٦، ١٣٣، ١٣٥، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠، ١٦٢ – ١٦٤، ١٦٨، ٢٠٧، ٢١٤، ٢٢١ – ٢٢٢، ٢٣١، ٢٣٧، ٢٧٢، ٢٧٤، ٣١٨، ٣٢٠ – ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٧ – ٣٢٨، ٤٠٠ – ٤٠١، ٤٠٨، ٤١١ – ٤١٢، ٤٣٨، ٤٤١، ٤٥٣ – ٤٥٥، ٤٥٨، ٤٦٣، ٤٨٧، ٤٩٢ – ٤٩٣، ٤٩٦ – ٤٩٩، ٥٠١ – ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٩ – ٥١٢، ٥١٨، ٥٢٥).

(٩) هو أحمد بن خالد بن يزيد، يعرف بـ (ابن الجَبَّاب). من أهل قرطبة. يكنى أبا عمر. سمع محمد بن وضاح، وقاسم بن محمد، والخشنى، وغيرهم. رحل، وسمع الحديث، ثم عاد إلى الأندلس، فكان إمام وقته غير مدافع فى الفقه، والحديث، والعبادة. ولد سنة ٢٤٦هـ، وتوفى سنة ٣٢٢هـ. (أخبار الفقهاء والمحدثين صـ١٧ – ١٨، وتاريخ ابن الفرضى، (ط.الخانجى) ١/٤٢.

(١٠) من هذه الروايات ما ورد فى تراجم أرقام: (٢، ١٥، ٤١، ٢٥٨، ٣١٠، ٣٥٢، ٤١١، ٤٣٨، ٤٩٢ – ٤٩٣).

ج - **أحمد بن سعيد بن حزم**[١]: وعنه نقل الخشنى (٣٦ رواية)[٢].

د - **محمد بن عبد الملك بن أيمن**[٣]: أورد عنه الخشنى (٢٢ رواية)[٤].

هـ - **محمد بن عمر بن لبابة**[٥]: روى عنه الخشنى (١٩ رواية)[٦].

و - **قاسم بن سَعْدان**[٧]: أورد له مؤرخنا الخشنى (١٧ رواية)[٨].

ز - **عثمان بن محمد**[٩]: ذكر عنه الخشنى فى كتابه (١٦ رواية)[١٠].

---

(١) هو أحمد بن سعيد بن حزم بن يونس الصدفى. من أهل قرطبة. يكنى أبا عمر. عُنى بالآثار والسنن، وجمع الحديث. سمع عبيد الله بن يحيى، وسعيد بن عثمان الأعناقى، وأسلم بن عبد العزيز، وغيرهم. رحل سنة ٣١١هـ مع أحمد بن عبادة الرعينى، ومحمد بن عبد الله بن أبى عيسى، فسمع بمكة، ومصر، والقيروان. وعاد إلى الأندلس، فصنف (تاريخاً فى المحدثين)، بلغ فيه الغاية. وتوفى سنة ٣٥٠هـ. (تاريخ ابن الفرضى، ط.الخانجى) ١/٥٥ - ٥٦. ولعل تأليفه المشار إليه هو الذى احتفظ لنا بالعديد من تراجمه الخشنىُّ فى كتابه، من خلال مقتبساته منه.

(٢) منها ما ورد فى تراجم أرقام: (١١، ١٣٧، ١٥٤، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٧٤، ٢٨٠، ٢٩٦، ٣١٥ - ٣١٦، ٣٢٤، ٤٣٨، ٤٩٢، ٥٠٠).

(٣) يكنى أبا عبد الله. من أهل قرطبة.سمع محمد بن وضاح، ومحمد بن عبد السلام الخشنى، وإبراهيم بن قاسم بن هلال، وغيرهم. رحل سنة ٢٧٤هـ مع قاسم بن أصبغ، وغيره. سمع بمصر، وبغداد، ومكة. فقيه عالم، حافظ للمسائل والأقضية. وكان مشاوَراً فى الأحكام، وولى الصلاة بعد (أحمد بن بقى بن مخلد). ضابط لكتبه ثقة. له مصنف فى السنن على تصنيف (أبى داود). (ولد ٢٥٢هـ، وتوفى ٣٣٠هـ). (أخبار الفقهاء والمحدثين صـ ١٥٧ - ١٥٩، وتاريخ ابن الفرضى (ط.الخانجى)، ٢/٥٢ - ٥٣.

(٤) راجع بعضها فى أخبار الفقهاء والمحدثين صفحات: (١٢، ٥٦، ٧٤، ١١٧ - ١١٨، ١٨٦، ٢٦٢، ٣٤٩).

(٥) فقيه من أهل قرطبة.يكنى أبا عبد الله.روى عن عبد الله بن خالد،وعبد الأعلى بن وهب، وأبان بن عيسى بن دينار،ومحمد بن وضاح،وغيرهم.مقدم على أهل زمانه فى حفظ الرأى، والبصر بالفتيا.وكان مشاوَراً فى أيام الأمير عبد الله، ثم انفرد بالفتيا من أول أيام الناصر، و لم يكن له علم بالحديث. وكان يحفظ أخبار الأندلس. وتوفى سنة ٣١٤هـ. (المصدر السابق: ص ١٤٤ - ١٤٥، وتاريخ ابن الفرضى (ط. الخانجى) ٢/٣٦ - ٣٧).

(٦) منها: عدة روايات فى ترجمة رقم (١) صـ٩ - ١٠، وتراجم أرقام: (٤٨، ٩٣، ١٣٣، ١٥٤، ٢٤١، ٣٩١، ٤٧٦).

(٧) هو قاسم بن سعدان بن عبد الوارث. من أهل (ريّة)، وسكن قرطبة. سمع عبيد الله بن يحيى، وطاهر بن عبد العزيز، ومحمد بن عمر بن لبابة، وأحمد بن خالد، وابن أيمن، وغيرهم. ضابط لكتبه، متقن لروايته، حسن الخط، جيد الضبط. كان عالماً بالحديث، بصيراً بالنحو، والغريب والشعر. توفى سنة ٣٤٧هـ. (تاريخ ابن الفرضى ١/٤٠٨ - ٤٠٩). وأعتقد أن له مؤلفات فى تراجم العلماء ببلده (ريّة)، وهو الذى اعتمد عليه الخشنى فى النقل عنه فى كتابه.

(٨) راجع مروياته فى (أخبار الفقهاء والمحدثين)، تراجم أرقام (١٢٩، ١٤٢، ١٦١، ١٦٦ (٤ روايات)، ١٨٠، ٢٥٠، ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٦٨، ٤١٣، ٤٢٤، ٤٥٧، ٤٦٠، ٥٢١).

(٩) هو عثمان بن محمد بن أحمد بن مدرك القَبْرِىّ (من أهل قَبْرَة). وكان معتنياً بالمسائل، حافظاً لها، عاقداً للشروط، وكان مفتى أهل بلده. توفى سنة ٣٢٠هـ. (السابق: ترجمة ٣٨١، صـ٢٨٤، تاريخ ابن الفرضى (ط.الخانجى) ١/٣٤٧ (رقم ٨٩٣).

(١٠) أخبار الفقهاء والمحدثين: تراجم (٥٨، ٦٥، ١٢٦، ١٣٧ - ١٣٨، ١٤٩، ١٥١، ١٧٠، ١٨٤، ٢٣١، ٢٧٩، ٣٧٨، ٤٣١، ٥١٧).

ح - **أحمد بن عبادة الرعيني**[١]: روى عنه مؤرخنا الخشني(١٤ رواية)[٢].

ط - ولى عهد المسلمين (**الحكم بن عبد الرحمن الناصر**): تتلمذ عليه الخشني، وأورد عنه في كتابه (٩ روايات)[٣].

ى - **محمد بن عمر بن عبد العزيز**[٤]، **ويعلى بن سعيد**[٥]: أورد عنهما الخشني (٨ روايات).

ك - **قاسم بن أصبغ**[٦]: روى عنه الخشني في كتابه (٦ روايات)[٧].

ل - **أحمد بن مُطَرِّف المَشَّاط**[٨]، **وأحمد بن زياد**[٩]، **والزيادى**[١٠]: روى الخشني عن كل (٤ روايات).

م - **والد الخشني**[١١]، **والحسن بن سعد**[١٢]، **وأحمد بن نصر**[١٣]: روى الخشني عن كل منهم (ثلاث روايات).

---

(١) هو أحمد بن عبادة، عَلْكَدَة الرُّعَيْني. من أهل قرطبة. يكنى أبا عمر. سمع من الخشني، وابن وضاح. ورحل، فسمع من ابن المنذر كتابه في (الاختلاف). توفي في رجب سنة ٣٣٢هـ. (السابق: صـ٢٥، وتاريخ ابن الفرضي (ط.الخانجي ١/٤٥).

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـ١٧، ٢٥، ٣٢، ١٣٤، ١٤٢، ٢١٧، ٣٢١ - ٣٢٢، ٣٧١ - ٣٧٢.

(٣) السابق: صـ٢٠، ٥٥ - ٥٦، ٨٨، ٢١٥، ٣٦٣.

(٤) من أهل قرطبة، وأصله من (إشبيلية). يكنى أبا بكر. سمع بقرطبة من طاهر بن عبد العزيز، ومحمد بن عمر بن لبابة، وقاسم بن أصبغ، وغيرهم. عالم بالنحو، حافظ للغة، ولأخبار الأندلس. وله مؤلفات في الصرف. توفي سنة ٣٦٧هـ. (تاريخ ابن الفرضي ٢/٧٨ - ٧٩).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: تراجم أرقام (٥٥، ٢٤٤، ٢٧٧، ٣٣٢ - ٣٣٣، ٣٤٧، ٣٤٩).

(٦) قاسم بن أصبغ بن يوسف البَيّاني. من أهل قرطبة. سمع بها من بقي بن مخلد، وأبي عبد الله الخشني، ومحمد بن وضاح، وأصبغ بن خليل، وغيرهم. رحل إلى المشرق، فسمع بمكة، والكوفة، وبغداد، ومصر. كان بصيرًا بالحديث، والرجال، وكان يُشاوَر في الأحكام. ولد سنة ٢٤٦هـ، وتوفي سنة ٣٤٠هـ. (تاريخ ابن الفرضي ١/٤٠٦ - ٤٠٨ (رقم ١٠٧٠).

(٧) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـ١٣١ (ثلاث روايات)، ١٣٢، ٢١٧ - ٢١٨، ٣٣٦.

(٨) السابق: صـ١١، ٣٨، ٢٣٠، ٢٣٢.

(٩) هو أحمد بن زياد بن محمد بن زياد بن عبد الرحمن اللخمي. من أهل قرطبة. يكنى أبا القاسم. سمع من ابن وضاح، وكان مختصًا به. حدّث كثيرًا. زاهد فاضل. توفي سنة ٣٢٦هـ. (تاريخ ابن الفرضي ١/٤٣ - ٤٤ (رقم ١٠١). وردت مروياته في (أخبار الفقهاء والمحدثين) صـ٩٥ - ٩٦، ٣٦٢.

(١٠) لم أقف على اسمه، ونسبه. (مرويات الخشني عنه في المصدر السابق) رقم ٩٩، ١٥٨، ١٨٣.

(١١) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـ٣٧٨ (لها ثلاث روايات عنه).

(١٢) السابق: صـ٥٨ - ٥٩، ٧٢، ٢٦١.

(١٣) هو أحمد بن نصر بن زياد. من فقهاء القيروان. سمع محمد بن سحنون، وابن عبدوس، وكان عالمًا بالمناظرة، صحيح المذهب، سليم القلب. توفي سنة ٣١٧هـ. (البيان المغرب ١/١٩٤ - ١٩٥). وردت مروياته في كتاب الخشني (أخبار الفقهاء والمحدثين)، تراجم (٣٢، ١٦٥، ٤٩٩).

ن - **محمد بن عيسى بن عاصم**[١]، **ومحمد بن قاسم**[٢]، **وشامخ بن الخضر**[٣]، **وعبد الوهاب بن حزم**[٤]، **وأبو عبيدة مسلم بن أحمد**[٥]، **وأصبغ بن مثنى**[٦]، **ووهب بن مسرة**[٧]، **وأحمد بن عبد الرحمن القصرى**[٨]، **وفرج بن سلمة**[٩]. (لكلّ روايتان).

س - **فضل بن سلمة**[١٠]، **وسلمة بن الفضل بن سلمة الجهنى**[١١] **وسعيد بن عثمان**[١٢]**وسعيد بن يحيى**[١٣]**ومحمد بن إبراهيم بن الحباب**[١٤] **ومطرف بن عيسى**[١٥]**ومحمد ابن عبد العزيز**[١٦] **وعمر بن حفص**[١٧]، **وأحمد بن محمد بن عمر بن لبابة**[١٨]، **ومحمد بن إبراهيم بن حيون**[١٩]، **ومحمد بن حفص**[٢٠]، **ووليد بن إبراهيم بن لبيب**[٢١]، **وسعيد بن عثمان الأعناقى**[٢٢]، **وسعيد بن فحلون**[٢٣]، **وهرقل بن عبد الرحمن**[٢٤]، **وزرقون بن حزم**[٢٥]، **وموسى بن هارون**[٢٦]، **وعبد الله بن محمد بن قاسم**[٢٧]، **ومحمد بن ربيع الصباغ**[٢٨]، **ومحمد ابن عيسى بن رفاعة**[٢٩]، **وإسحاق بن إبراهيم الطليطلى**[٣٠]، **وعلى بن أبى شيبة**[٣١]، **وعبد الله بن إسماعيل البرقى**[٣٢]. (لكل رواية واحدة).

٢ - كتب طالعها الخشنى، ونقل عنها فى كتابه:

١ - **كتاب** (طبقات فقهاء الأندلس) لعبد الملك بن حبيب: وقد أشار المؤرخ الخشنى إلى نقله عنه فى (ثمانية مواضع)[٣٣].

---

(١) المصدر السابق (ترجمة ٧٣٠، صـ٧٣).
(٢) السابق: صـ٦١، ١٨٧.
(٣) السابق: صـ٨٥ (ترجمة رقم ٩٧).
(٤) السابق: صـ٣٤٠ - ٣٤١.
(٥) السابق: ١٩٤ - ١٩٥
(٦) السابق: ١٩٦ - ١٩٧.
(٧) السابق: صـ٢٠٤، ٣٤٣.
(٨) السابق: صـ٩٧، ٣٦٦.
(٩) السابق: ترجمة ١١٤، ٣٣٦.
(١٠) السابق رقم ٣٩٥ (صـ ٢٩٣).
(١١) السابق: صـ٢٩٧.
(١٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة رقم (٧٨).
(١٣) السابق: صـ٧٨.
(١٤) السابق: صـ٦١.
(١٥) السابق: ترجمة رقم (٣٣٤).
(١٦) السابق: ٢٧٦.
(١٧) السابق: ٢٧٦ - ٢٧٧.
(١٨) السابق: (ترجمة ٤٣١).
(١٩) السابق: صـ٣٢٣.
(٢٠) السابق: صـ٣٥٩.
(٢١) السابق: صـ٣٦٧.
(٢٢) السابق: (ترجمة رقم ٣٢٠).
(٢٣) السابق: رقم ٢٦٩).
(٢٤) السابق: رقم (٣٢٨).
(٢٥) السابق: رقم (٢٧٦).
(٢٦) السابق: الترجمة نفسها.
(٢٧) السابق: رقم (٢٧٨).
(٢٨) أخبار الفقهاء والمحدثين: رقم (٣٠٥).
(٢٩) السابق: صـ١٨٦ - ١٨٧.
(٣٠) السابق: ترجمة رقم ٨٥.
(٣١) السابق: صـ١٤١.
(٣٢) السابق: ترجمة رقم ١٨٢)، صـ١٦٢
(٣٣) السابق: (ترجمة ٧٣، صـ٧٤)، وترجمة (٨٧)، صـ٨٠، وترجمة (١٢٨)، (صـ١١٣)، وترجمة ٣١٣ (صـ٢٣٣ - ٢٣٤)، وترجمة ٣٧٠ (صـ٢٧٩)، وترجمة ٣٩٣ (صـ٢٩١)، وترجمة ٤٢٣ (صـ٣١١)، وترجمة ٤٩٢ (صـ٣٤٧).

٢ - **كتاب** (محمد بن عبد الملك بن أيمن)(١).

٣ - **كتاب** (عنكدة بن نوح الرعيني)(٢).

٤ - **كتاب** (أخبار علماء حفص)(٣).

٣ - الوثائق:

وبمتابعة ما ورد فى (أخبار الفقهاء والمحدثين) تبين لنا أن الخشنى لم يطالع بنفسه فى (الديوان) – فيما نعلم – إلا وثيقتين اثنتين: الأولى – شهادة المترجم له (سعيد بن عبد الله السبائى) على بعض ما عقده الأمير (عبد الرحمن بن معاوية)(٤). والثانية – كتاب الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦هـ) بمنح الأمان للفقيه (عيسى بن دينار)، وذلك بعد أحداث ثورة الرَّبَض الشهيرة (سنة ٢٠٢هـ)(٥).

والملاحظ أن هناك عدة وثائق أُخَر واردة فى كتاب (الخشنى)، **لكنه لم يطالعها بنفسه مباشرة، وإنما طالعها الرواة، الذين نقل عنهم مباشرة**، كما هو الحال فى كتاب كتبه (عبد الرحمن بن معاوية) لجَدِّ المترجَم له، الذى نقل عنه الخشنى ذلك(٦). وكذلك ما طالعه بعض الرواة، وحدّث به الخشنى، من أنه شاهد فى الديوان نص أمان الحكم بن هشام للفقيه (يحيى بن يحيى)، حيث أجابه إلى ما طلب من أمان نفسه، ورَدّ ما له إليه، وقبل شفاعته فى اثنين آخرين معه (وذلك بعد ثورة الربض)(٧).

وأخـــيراً، فـــإن الكتاب قد حوى **نوعية أخرى من الوثائق، لم ينقلها الخشنى عن الرواة الذين رأوها، وإنما وردت إليه من خلال رواة آخرين وسطاء**، مثل: نص كتاب موجز وضعه الفقيه (عبد الرحمن بن موسى الهوارى الإستجى)، وأرسل به إلى بعض الولاة، يوصيه فيه خيراً بأحد الناس، ويدعوه إلى قضاء حاجته التى كتمها من دونه، فإن كانت فى مرضـــاة الله قضاه

---

(١) السابق: صـــ٣٤٩ (قال محمد: قرأت تلك المواضع كلها فى كتاب (محمد بن عبد الملك بن أيمن).

(٢) قال محمد بن حارث: رأيت فى كتاب لعلكدة بن نوح الرعينى (السابق: صــ٣٦٣).

(٣) رأيت فى كتاب (أخبار علماء حمص). (السابق: صـــ١٨٧).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـــ٣١٦.

(٥) السابق: صـــ٢٧١.

(٦) السابق: صــ٧٣ (وقال لى – أى قال محمد بن عيسى بن عاصم - : بأيدينا كتاب، كتبه الإمام عبد الرحمن بن معاوية (رحمه الله)، يأمر فيه بعض عماله ألا يعرض لمولاه – لا لمواليه، كما حرفت - عاصم العريان فى سبب ذكره).

(٧) السابق: صـــ٣٦١.

إياها، وإلا فليؤثر رضا الله (تعالى) على رضا المخلوق. وفى النهاية، يذكّره بأنهم جميعاً موقوفون غداً بين يدى الله عز وجل[١].

٤ - الموارد المجهولة:

وهذه استخدمها الخشنى فى روايات كثيرة جدًّا يصعب حصرها، وجعل لها صيغاً متعددة، مثل: (ذكر بعض الرواة[٢]، وذكر بعض أهل العلم[٣]، وقال لى بعض أهل العلم[٤]، وأخبرنى غيره[٥]، وأخبرنى غير واحد من أصحاب أحمد بن خالد[٦]، وذكر بعض الرواة من أهل الثغر[٧]، وذكر غيره من أهل العلم[٨]، ويُحكى[٩]، وذُكِر لى[١٠]، وفيما أخبرنى مَنْ أثق به[١١]، وأخبرنى من أثق به من أهل العلم[١٢]، وذكر بعض أهل العلم والرواية[١٣]، وسمعت من أثق به يقول[١٤]، وفيما ذكر لى بعض أهله[١٥]، وقيل[١٦]، وأخبرنى مخبر[١٧]، ومما حفظتُ وحفظ الناس مما نُسب إلى ابن وَضّاح[١٨]، وسمعتُ على الاستفاضة من القول والفاشى من الذِّكْر[١٩]، وسمعتُ من يحكى[٢٠]، وقال لى غير واحد من إخوانى[٢١]، وأخبرنى غيرهما من مشائخنا[٢٢]، وسمعت بعض من كتبتُ عنه)[٢٣].

ملاحظات على موارد (الخشنى) فى كتابه:

أولاً - بالنســـبة للموارد الصريحة: يمكن بيان منهج الخشنى فى إيرادها، واستخدامها على النحو الآتى:

١ - الدقة فى انتقاء هذه الموارد:

لقد كان الخشنى حريصاً على التدقيق قبل النقل والاقتباس، وتلك سمة مهمة للغاية، ينبغى أن يتسم بها المؤرخ الحق. ومن هنا - وكما رأينا من قبل، ومن خلال تراجم أهم موارده -

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـ٢٣٥.
(٢) السابق: (ترجمة رقم ١)، صـ١٠، ترجمة ١٢٩ (صـ١١٥).
(٣) السابق: ترجمة ٢٤ (صـ٢٣)، وترجمة ٧٤ (صـ٧٥).
(٤) السابق: ترجمة ٢٥ (صـ٢٤).
(٥) و(٦) السابق: الترجمة، والصفحة نفسها.
(٧) السابق: ترجمة ٥١ (صـ٤٢).
(٨) السابق: صـ٤٨.
(٩) السابق: صـ٥٦.
(١٠) السابق: صـ٦٩.
(١١) السابق: ٧٤.
(١٢) السابق: ٧٨.
(١٣) السابق: صـ٩٥.
(١٤) و(١٥) السابق: صـ١١٣.
(١٦) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـ١١٣.
(١٧) السابق: صـ١١٤.
(١٨) السابق: صـ١٣٠.
(١٩) السابق: صـ١٣٢.
(٢٠) السابق: صـ١٣٣.
(٢١) السابق: صـ٢١٨.
(٢٢) السابق: صـ٢٧٩ - ٢٨٠.
(٢٣) السابق: صـ٣٥٩.

وجدناه ينقل عن العلماء الثقات؛ حتى تتوفر لكتابه ولتراجمه المصداقية المطلوبة. هذا بصفة عامة. فإذا خصّصنا القول، فإننا نقول: إنه كان يحرص على النقل عن مورد بينه وبين المترجم له صلة، كأن يكون ابناً له(١)، أو له معرفة حقيقية به(٢). وفي الوقت نفسه كان المورد – كخالد بن سعد مثلاً، وعنه نقل كثيراً جدّاً من التراجم – يدقق هو الآخر قبل تسجيل معلوماته، وقبل الرحيل إلى مصادره(٣)، وكان يستفسر عمن يترجم له، ويسأل عنه ويتحرى(٤)، ويدخل إلى مصدره بنفسه، فيسمع منه، ويروى عنه(٥).

ومما يحسب للخشني – في هذا الصدد – أنه كان – أحياناً – يذكر معلومة عن مورده الذي ينقل عنه كنوع من التعريف السريع به(٦)؛ بثّاً للطمأنينة في قلوب ونفوس قرائه، وقد يتعدى ذلك إلى ذكر معلومة تتصل بأحد أفراد الإسناد الخاص بالرواية المنقولة، توضح صلته بالمترجَم له(٧). وأخيراً، فإن الدقة تبلغ غايتها، عندما يكون المترجَم له معاصراً للخشني، فيتقدم إليه الخشني بالسؤال عند الترجمة له، فيكون مورده هو المترجَم له في آن واحد(٨).

٢ – **استخدم الخشني صيغاً متنوعة صدّر بها موارده غالباً**، مثل: (ذكر(٩)، وقال(١٠)، وحدثني(١١)، وسمعت(١٢) وحدثنا(١٣)، وأخبرنا(١٤)، وقال لي(١٥)، وحكى لي(١٦)). ولا

---

(١) السابق: صـ٢٩٧ (ترجمة رقم ٤٠٥).

(٢) السابق: صـ٣٦.

(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ١٢ (صـ١٦)، وفيها يسأل خالد بن سعد (سعيدَ بن عثمان الأعناقي)، عن أحمد ابن عمرو بن منصور قبل الرحيل إليه، فوصف له عنايته بالعلم، وأنه كان معهم عند (نصر بن مرزوق)، للتلقي عليه في مصر.

(٤) كدخوله إلى بلد (محمد بن جنادة) الفقيه بـ (إشبيلية) بعد وفاته بـ ٩ سنوات (٣٠٤هـ)، فرأى أهل بلده، يحسنون الثناء عليه. (السابق: صـ١٤٢).

(٥) السابق: صـ١٩٤ (ترجمة ٢٤٤)، وفيها يروى عن المترجَم له (أخبرني أبو عبيدة).

(٦) السابق: (ترجمة ٢٧٧)، صـ٢١٧، وترجمة ٤٧٨ (صـ٣٤٠).

(٧) السابق: صـ٣٦٩ (ترجمة ٤٩٤) لـ (يحيى بن معمر الألهاني): ولقد أخبرني محمد بن عبد الملك بن أيمن، عن عمه (وكان قريب الخاصة بابن معمر).

(٨) السابق: صـ١٧٦ – ١٧٧ (ترجمة محمد بن عيسى بن رفاعة)، ورقم ٢٠٨ (وذكر محمد هذا عن نفسه). وفي صـ١٧٨: توفي سنة ٣٣٧هـ (فهو معاصر للخشني).

(٩) المصدر السابق: صـ٩، ١٦، وغيرها.

(١٠) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـ١٠، ٢٠، ٢٢، ٢٥، ٥٩، وغيرها.

(١١) السابق: ترجمة رقم (١) صـ٩، وترجمة ٣٧٨ صـ٢٨٢.

(١٢) السابق: صـ١٩٢.

(١٣) السابق: صـ١٠ (ثلاث مرات).

(١٤) السابق: (ترجمة ٨٧)، صـ٨٠.

(١٥) السابق: صـ٧٣.

(١٦) السابق: صـ٣٧٨.

شك أنه – باعتباره ملمّاً بالثقافة الحديثية – كان حريصاً على الدقة فى أداء هذه الألفاظ. وكذلك كان دقيقاً فى بيان الطريقة التى وصلت بها إليه بعض الروايات، كقوله: (ووجدتُ اسمه – أى: المترجَم له – مثبتاً فى كتبهم. وقد كتبتُ عنهم من روايتهم عنه علماً كثيراً. فالذى أجدنى أحفظه هو ما أذكره من ذلك). ثم قال: (حدثنى)، وبدأ يذكر الموارد التى نقل عنها[١]. وبلغ حرصه – كذلك – درجة كبيرة عند أداء اللفظ الذى عبّر به المورد عن كيفية نقله للرواية، كما فى قوله: (قال لى عبد الله بن إسماعيل البرقى: شهدتُه – أو قال: أخبرنى من شهده)[٢].

٣ - كان الخشنى شديد الحرص على توثيق المعلومات التى يوردها فى كتابه، وكان يسلك لتحقيق ذلك طرقاً عديدة منها:

أ – تعدد الموارد المستخدمة فى الترجمة الواحدة، فهو يأخذ ويقتبس من كل مورد ما يناسبه ويحتاج إليه، فيما يتعلق بجزئيات الترجمة الواحدة[٣].

ب – الحـــرص فى مواضع عديدة على ذكر السند كاملاً (سواء كان المذكور بعده حديثاً نبويّاً، أم غير ذلك)[٤].

ج – الجمع والتنسيق بين المرويات المتشابهة، بحيث يذكر أكثر من مورد للرواية الواحدة؛ لتأكيد ما بها من معلومات[٥].

د – ذكـــر المورد الواحد أكثر من مرة، مهما تعددت النقول عنه فى الترجمة الواحدة (فقد تصـــل مرات ذكره إلى ست مرات مثلاً)[٦]. فالخشنى يوثق منقولاته، وقد يكتفى بلفظة (قال) عند تكرار ذكر المورد، أو يذكر اسمه مختصراً، وقد يذكره كاملاً[٧].

هـــ – الحرص فى ردوده أو تعليقاته، أو بيان تعدد وجهات النظر فى الأمر الواحد باسم مـــورد مـــا فى رواية ما؛ ليرد بذلك على ما جاء فى رواية سابقة، اعتمد فى إيرادها على مورد آخـــر[٨]. ويكمل هذه الجزئية ويطورها أن مؤرخنا كان يتحرى ويستفسر عن المسألة الواحدة

---

(١) السابق: ترجمة ١٩٣ (صـــ١٦٦).

(٢) السابق: ترجمة ١٨٢ (صـــ١٦٢).

(٣) السابق: ترجمة ١٥ (صـــ١٧ - ١٩).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ١٢ (صـــ١٥).

(٥) السابق: صـــ٣٧٠ (أخبرنى أحمد بن خالد، وعثمان بن عبد الرحمن، قالا).

(٦) السابق: ترجمة (٣٥٢).

(٧) عند تكرار المورد عنه بـــ (قال)، كما فى (المصدر السابق)، ترجمة (١٢٦)، وفيها: (قال عثمان بن محمد، ثم قال). وقد يختصر المورد عند تكراره هكذا: (قال لى محمد بن عبد الملك بن أيمن، ثم قال لى ابن أيمن (مرتين). (السابق: ترجمة ٢٣١). وقد يكرره كاملاً كما فى (محمد بن عمر بن لبابة). (السابق: ترجمة ٢٤١).

(٨) السابق: (ترجمة رقم ١١، صـــ١٤).

لدى أكثر من مورد[١]؛ كي تأتى تراجمه على درجة عالية من الصحة.

٤ - وأخيراً، فقد كان الخشنى يستعمل الطريقة التقليدية المتمثلة فى تصدر المورد نص الرواية، وقد يصدّر الاثنين بقولته المشهور: (قال ابن حارث)[٢]، أو (قال محمد بن حارث)[٣]، أو (قال محمد)[٤]. وثمة طريقة ثانية كان يستخدمها، فيها يصدّر بقولته المشهورة، ثم يذكر المعلومة، ثم يأتى بعدها برواية مصدرة بمورد، يدلل بذلك على صحة المعلومة المتقدمة[٥] (وقد يستخدم المورد عند ضرب الأمثلة والنماذج)[٦].

وهناك طريقتان أخريان فى مكان إيراد المورد، هما: الإتيان به وسط الرواية على هيئة جملة اعتراضية[٧]، أو يتقدم نص الرواية (وفى ختامها يذكر موردها المنقولة عنه[٨].

ثانياً - بالنسبة للكتب التى طالعها، ونقل عنها:

كان يعبر عن ذلك بلفظة (ذكر)، أو (رأيتُ)[٩]. وكان يذكر اسم الكتاب ومؤلفه قبل المنقول منه[١٠]، وقد يذكر اسم الكتاب بعد نهاية النقل عنه[١١]، أو يذكر اسم الكتاب، والنص المنقولة عنه، ثم السند الذى وصل به إليه[١٢].

ثالثاً - وبخصوص الموارد المجهولة:

فإننا لاحظنا كثرتها الكاثرة، وتعدد وتنوع الصيغ المعبّرة عنها، وجدّة بعضها[١٣]. ولبعضها

---

(١) السابق (ترجمة ١٣١)، (صـ١١٨)، وفيما يسأل (أحمد بن سعيد بن حزم)، ثم (محمد بن عبد الملك بن أيمن) عما يتصل بكذب المترجم له (محمد بن يوسف بن مطروح).

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: (صـ٢٦١).

(٣) السابق: صـ٢٦٢، ٢٧٦، ٣٧١.

(٤) السابق: صـ٢٠، ٣٤٩، ٣٦٣، ٣٦٧.

(٥) السابق: صـ٣٧١ - ٣٧٢.

(٦) السابق: صـ١٣١.

(٧) السابق: ترجمة ٨٥ (صـ٧٩): وكان حزم بن غالب - فيما ذكر لى إسحاق بن إبراهيم الطليطلى - صاحب رأى وفتيا.

(٨) السابق: صـ٢٣٠ (بعد انتهاء الرواية قال: هكذا روى أحمد بن مطرف بن المشاط).

(٩) السابق: رقم ١٢٨ صـ١١٣)، قال: ذكر عبد الملك بن حبيب فى كتابه). وفى صـ٣٦٣: (رأيت فى كتاب لعلكدة بن نوح).

(١٠) السابق: رقم ٣٧٠ (صـ٢٧٩).

(١١) أخبار الفقهاء والمحدثين: (ترجمة ٣١٣) صـ٢٣٣ - ٢٣٤.

(١٢) السابق: صـ١٨٧ (رأيت فى كتاب أخبار علماء حمص)، ثم ذكر الرواية، ثم قال: هكذا حكاه أبو بكر أحمد بن محمد بن عيسى البغدادى، روى ذلك بكر بن محمد بن حفص الشعرانى التنيسى المصرى.

(١٣) هناك صيغ جديدة مجهولة، جعلها الخشنى أساس قبول الرواية، مثل: مما حفظتُ وحفظ الناس (المصدر السابق) صـ١٣١، وسمعت على الاستفاضة من القول، والفاشى من الذكر (السابق: صـ١٣٢).

مدلـــول معـــين (مثل: " يقال " الدالة على عدم التأكد من الشئ، أو التشكيك فى صحته)[١].
وسلك الخشنى فى إيراد أماكن صيغها الطرق الثلاثة المعهودة (قبل، ووسط، ونهاية الرواية)[٢].

رابعاً، وأخيراً – وماذا عن الروايات ساقطة المورد ؟

الحق أن هذا النوع من الروايات موجود فى كتاب الخشنى، ويحتاج إلى تفسير، **نركزه من خلال ما يلى:**

أ – هناك تراجم كاملة خلت من ذكر الموارد، اكتفى فيها مؤرخنا بصيغتى: (قال محمد)، وقال محمد بن حارث). ويلاحظ أنه معاصر لأصحاب تلك التراجم، فالغالب أنه نقلها عنهم، فليس بحاجة إلى النقل عن غيرهم[٣].

ب – وقد يكون المترجَم له معاصراً للخشنى، لكن – فيما يبدو – لا ينقل عنه كل ما يحتاج من معلومات، فتأتى بعض أجزاء الترجمة مصدّرة بـــ (قال محمد)، بينما يأتى ذكر بعض الموارد فى أجزاء الترجمة الأخرى[٤].

ج – يسقط الخشنى اسم المورد – أحياناً – ويكتفى بـــ (قال محمد) عند تجميعه خلاصة ما ورد فى موضوع معين، كما فى إيجازه وتركيزه ما ورد بشأن (محمد بن عبد الله بن مَسَرَّة القرطبى)[٥].

د – يكتفى الخشنى فى بعض الأحيان بذكر (قال محمد) عند ذكر تاريخ وفاة أحد المعاصرين له[٦]، أو عند ذكر نسب[٧]، أو أصل المترجَم له[٨]، (فقد يكون ذلك النسب، أو الأصل مشهورين، بحيث لا يجد داعياً لذكر المورد أحياناً).

هـــ – هناك مواضع لا نستطيع تفسيرها سقطت فيها الموارد؛ لأنه يترجم لأناس غير معاصرين له[٩]، مما كان يستوجب عليه ذكر موارده، لكنه لم يفعل، إما خطأ، أو سهواً ونسياناً.

---

(١) تدل على الشك كما فى (المصدر السابق): ترجمة (٢١٣)، وعلى عدم التأكد من الشئ (السابق: ترجمة ٢٤٢).

(٢) قبل الرواية: (السابق) صـــ٣٥٩، ٣٢٣، ٥٢٣. وسط الرواية: وكان – فيما أخبرنى من وثقت به – أن. . . (ترجمة ٢٠٢). وقد يأتى الموارد المجهول آخر الرواية (حكى ذلك من وثقت به). (ترجمة ٢٣٣).

(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة (١٦) صـــ١٩ – ٢٠.

(٤) السابق: ترجمة (١٧) صـــ٢٠ – ٢١.

(٥) كما فى اختصاره مجمل ما ورد بشأن (محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبى) من آراء (السابق: ترجمة ٢٠٩ صـــ ١٧٨، مصدرة بـــ " قال محمد ").

(٦) السابق: ترجمة ٢٥، صـــ٢٤.

(٧) السابق: ترجمة ٢١، صـــ٢٢، وترجمة ٢٥، صـــ٢٤.

(٨) السابق: (ترجمة ١٩ صـــ٢١).

(٩) السابق: (ترجمة ٣ صـــ١١)، وترجمة ٧ صـــ١٢، وترجمة (٩) صـــ١٣، وترجمة (١٤) صـــ١٧. (وهى كلها مصدرة بـــ (قال محمد)، و(قال محمد بن حارث).

ثالثاً – ملاحظات نقدية عامة:

هــذه بعض الإلماعات الخاطفة، التي نلقي فيها نظرة سريعة على بعض الروايات الواردة في كتاب الخشني، مما يستلفت الانتباه، نوجزها فيما يلي:

١ – خطأ تاريخي:

ذكر الخشني أن (أحمد بن ميسرة) الفقيه (المتوفى سنة ٣٢٢هـ)، انصرف من رحلته في المشرق إلى الأندلس قبل سنة ٢٩٠هـ في عهد (إبراهيم بن أحمد بن الأغلب) صاحب إفريقية، وأنه كان في الرفقة، التي كان فيها (عُبيد الله المهدى الشيعى)، وأن أحمد بن ميسرة هو الذى نصح عبيد الله في طريق مصر أن يقتصر في مأخذه على نفسه، ويدع ما كان يُظهر من أبهة الملك، وحذّره لصوصَ البربر في أرض المغرب، فيُضيّع نفسه، ويضيّعهم. وتذكر الرواية أن عبيد الله استجاب لهذا النصح، وأنهم لم يسيروا إلا يسيراً، حتى خرج على الرفقة بعض البربر، فسلبوا ما معهم، ولم يبق من مال عبيد الله غير حملين من كتان، وصل بهما إلى أطرابلس[1].

وبالنظر إلى الأحداث المذكورة نلاحظ ما يلي:

أ – التاريخ المذكور للانصراف إلى الأندلس صحيح بالنسبة لتاريخ وفاة أمير الأغالبة المذكور، وإن كان الأدق منه أن يقال: (قبل ذى القعدة سنة ٢٨٩هـ)، على اعتبار أنه تاريخ وفاة ذلك الأمير[2].

ب – أما ما ورد بشأن مصاحبة المترجم له لـ (عبيد الله المهدى) في الطريق من مصر إلى المغرب، فغير صحيح؛ لأن الثابت هو أن المهدى مر بمصر في ولاية (عيسى النُّوشَرىّ) سنة ٢٩٦ هـ، وأنه أفلت من ذلك الوالى بالحيلة والمال[3]، فكيف يتفق ذلك – إذاً – مع التاريخ المحدد لعودة المترجم له إلى الأندلس ؟!. ولا يقول قائل: لعل المقصود (أبو عبد الله الشيعى)؛ لأن هذا وصل إلى أرض كُتامة منتصف ربيع الأول سنة ٢٨٠هـ[4]، أى: قبل التاريخ المذكور بعشر سنوات كاملة. ثم إننى أشك أن يكون ما ذكره الخشنى – وهو لم يذكر مصدر هذا الكلام، والغالب أنه لم يعاصره – صحيحاً بشأن مسير المهدى في أبهة الملك؛ لأنه قدم مستتراً جاداً في الهرب، بعدما تعرض في مصر لما تعرض له، لكن هذا لا يمنع من أن يكون قد قدم ببعض

---

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين، للخشنى: صـ١٧.

(٢) البيان المغرب ١/١٣٢.

(٣) الكامل، لابن الأثير حـ٦ صـ٤٥٣ - ٤٥٤.

(٤) المصدر السابق: ٦/٤٥١.

الأموال والأثقال، التي كان يخفيها، وأنه تعرض لسرقة بعض متاعه، وكتب وملاحم آبائه، كما ذكر ابن الأثير[١].

٢ - تناقض:

وذلك نلحظه في ترجمة (أحمد بن إبراهيم)، الذي وصفه الخشني بـــ (الفرضي)، أي: العالم بالفرائض وأحكامها (المواريث)، ثم إذا بنا نجد في مضمون الترجمة أنه ما كان إلا حافظاً لأحد المؤلفات في هذا الشأن، وأنه لم يكن بالوزن العلمي المتمشي مع هذا الوصف، إضافة إلى قول خالد بن سعد عنه: ولم يكن بارعاً في علم (الفرائض)[٢]. وكذلك ما رواه أبو عثمان (سعيد بن عثمان الأعناقي القرطبي) من أن ما رواه أصبغ بن خليل من حديث عن (القرآن) مفتعل، وأن ولي عهد المسلمين بن أمير المؤمنين (يقصد الحكم بن عبد الرحمن الناصر) ذكر لهم هذا الحديث، وبيّن وجه الخطأ في إسناده، مكتوباً بخط يده، مما أفاده عن الثقات من العلماء. ووجه الاعتراض هو: كيف يحضر أبو عثمان (المتوفى سنة ٣٠٥هـــ)[٣] مجلس الحَكَم (المولود سنة ٣٠٢هـــ) ؟!

٣ - خطأ في التوقيت:

جعل استشهاد المحدّث (محمد بن عبيد الجزيري القرطبي) في إحدى غزوات القائد ابن أبي عَبْدَة سنة ٣٥٠هـــ[٤]. والصواب: أنها كانت سنة ٣٠٥هـــ[٥].

٤ - **بعـــض روايات تحمل طابع التنبؤ[٦]، والخرافة[٧]، والغيبيات[٨]**: وكان يجب على مؤرخنا أن ينأى بنفسه عن مثل هذه الروايات الضعيفة، التي لا تمت للتاريخ الصحيح بصلة.

---

(١) السابق: ٦/٤٥٤.

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـــ١٠ - ١١ (ترجمة رقم ٢).

(٣) راجع ترجمته في (أخبار الفقهاء والمحدثين)، للخشني نفسه صـــ٣٢٢ - ٣٢٣ (رقم ٤٣٩)، حيث قال: (ولد سنة ٢٣٣هـــ، وتوفي سنة ٣٠٥هـــ)، وكذلك في تاريخ ابن الفرضي، ط.الخانجي ١/١٩٥ - ١٩٦.

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـــ١٦٦ ١٦٧ (ترجمة رقم ١٩٣).

(٥) المقتبس، لابن حيان: جـــ٥ صـــ١٣٥ ١٣٦. ويلاحظ أن محقق كتاب الخشني المذكور أشار إلى تاريخ الاستشهاد الصحيح في (صـــ١٦٧، هامش رقم ٢٩). وجدير بالذكر أن القائد المذكور استشهد - أيضاً - في هذه الموقعة أمام نصارى الشمال.

(٦) راجع (أخبار الفقهاء والمحدثين) للخشني صـــ١١٦.

(٧) راجع المصدر السابق: صـــ٢١٦ - ٢١٧ (ترجمة ٢٧٦).

(٨) راجع السابق: ص ٧٨، ٣٢٣ (خاصة الأخيرة التي بها رؤيا عن مصير المترجَم له في الآخرة، وأنه مع السَّفَرَة الكرام البَرَرَة (الملائكة)، وهو ما لا يجوز الخوض فيه، خاصة أنه ذكر - من قبل - رواية عن أحد العلماء يذكر فيما ما يلي: (مِنْ حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه). (السابق: صـــ٩٧).

رابعاً، وأخيراً - منهج الخشنى فى تأليف هذا الكتاب:

هــذه هــى القضية الأخيرة المثارة فى دراستنا للمؤرخ الأندلسى (الخشنى)، وفيها نرصد منهجه فى تقسيم كتابه وتبويبه، والعناصر التى تتكون منها تراجمه (وما يتصل بذلك من ملامح منهجــية)، ومــدى الترابط والتناسق فى العرض التاريخى داخل الترجمة الواحدة. وبعد ذلك، نبحث مدى اهتمام الخشنى بذكر التواريخ فى تراجمه، ومقدار ما يحويه الكتاب من حِكَم وفوائد تــبرز غايــة التاريخ وبغيته المهمة، ثم ننتقل لإبراز مدى نجاح الخشنى فى تصوير الحياة الثقافية بالأنــدلس إبّــان الفتــرة، التى يترجم فيها للعلماء من فقهاء ومحدّثين. وأخيراً، مدى حضور شخصيته فى كتابه، وتأثيره فيمن بعده.

١ - حول منهجه فى تقسيم الكتاب، وتبويبه:

لم نجــد مقدمــة لكتاب الخشنى، يشرح لنا فيها منهجه فى كتابه، والظروف الداعية إلى تألــيفه، وطــريقته فى تقسيمه وتبويبه. ويغلب على الظن أن رحلاً منهجياً كالخشنى لا تفوته مقدمة من هذا النوع، لكن الغالب أنها سقطت من مخطوطة الكتاب.

وبالنظر إلى (**أخبار الفقهاء والمحدثين**) فى طبعته التى بين أيدينا الآن، نجد أنه رتَّب تراجمه على (أبواب حروف الهجاء): (باب حرف الألف)[١]، وبعده (باب حرف الباء)[٢]، وهكذا حتى ننتهى من باب (حرف الدال)[٣]، فنجد باب (حرف الذال)، وبعده (باب حرف الراء)، وكُتب تحت عنوانهما: (فارغ لا اسم فيه)؛ مما يفيد أن الخشنى كان ينوى العودة إليهما لملء هذا الفراغ، وسد ذلك النقص فى التراجم، لكنه لم تُتَحْ له تلك الفرصة؛ ربما للظروف الصعبة، التى قاساها بعد وفاة الحكم المستنصر؛ مما آثّر بالسلب فى تفرعه للبحث، والدرس، والتأليف. ثم يأتى باب (حرف الزاى)[٤]، ثم نُفاجأ بتخطى أبواب (حروف السين إلى الضاد)، وبعد ذلك نجد باب (حرف الطاء)[٥]. أما باب (حرف الظاء) فكُتب تحته: (فارغ لا اسم فيه). ثم نفاجأ مرة ثانية بعدم وجود أبواب (حروف العين حتى القاف)، ونجد باب (حرف الكاف)[٦]، فاللام، فالميم، فالنون[٧]، ثم نجد —والصفحات أرقامها متتابعة متسلسلة— باب (حرف الصاد)[٨] وباب

(١) صـ١٠ - ٤٨.
(٢) صـ٤٩ - ٦٣.
(٣) صـ٨٧ - ٨٩.
(٤) صـ٩٥ - ١٠١.
(٥) صـ١٠٣ - ١٠٤.
(٦) صـ١٠٧.
(٧) تمتد هذه الأبواب الثلاثة من (صـ١٠٩ - ٢٠٤).
(٨) صـ٢٠٧ - ٢٠٩.

(حرف الضاد)[١]، وبعده باب (حرف العين)[٢]، فالغين، فالفاء، فالقاف[٣]. ثم بعده مباشرة يأتي حرف (السين)[٤]، و(الشين)[٥]، وبعدهما باب (حرف الهاء)[٦]، فـ(الواو)[٧]، فباب (حرف الياء)[٨].

ملاحظات على تقسيم الكتاب:

أ - من الواضح أن الخشنى رتب أبوابه على (حرف الهجاء)، وأن الخلل والاضطراب الحادثين فى ذلك الترتيب العام ليس راجعاً إليه، وإنما إلى فعل النساخ فى ترتيب الأوراق التى نسخوا[٩]. ثم جاء المحققان، فأبقيا على الترتيب بخلله كما هو فى (المخطوط) من باب الأمانة العلمية. وكان الأصوب – عندى – أن يعيدا ترتيب أبوابه على الوضع الصحيح، مع التنبيه إلى الخلل الحادث.

ب - قسّم الخشنى الأبواب الرئيسية إلى (أبواب فرعية) حسب كل (حرف هجائى). فمثلاً: باب (حرف الألف) جعل تحته (باب أحمد)[١٠]، فـ (باب أيوب)[١١]، فـ (باب أصبغ)[١٢]، فـ (باب أبان)[١٣]، فـ (باب أسامة)[١٤]. ومن البيِّن أن الأبواب الفرعية لا يُراعَى فيها الترتيب الهجائى، وكذلك التراجم المذكورة تحت (الأبواب الفرعية) لا يُرَاعِى فيها الخشنى الترتيب الهجائى[١٥].

---

(١) صـ٢١١.
(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـ٢١٣ - ٢٨٩.
(٣) تمتد هذه الأبواب الثلاثة فى (المصدر السابق) من صـ٢٩١ - ٣١٢.
(٤) السابق صـ٣١٣ - ٣٣٣.
(٥) السابق: صـ٣٣٥ - ٣٣٨.
(٦) السابق: صـ٣٣٩ - ٣٤٢.
(٧) السابق: صـ٣٤٣ - ٣٤٥.
(٨) السابق: صـ٣٤٣ - ٣٤٥.
(٩) ورد فى نهاية كتاب (أخبار الفقهاء والمحدثين) للخشنى ما يلى: (تم الكتاب، والحمد لله حق حمده، وصلّى الله على محمد، وعلى آله. وكان ذلك فى شعبان من عام ٤٨٣هـ). فهذا هو تاريخ نسخ هذه المخطوطة قبل تحقيقها، ونشرها، فلعل لناسخها دخلاً فى خلل ترتيب أبوابها.
(١٠) يلاحظ سقوط هذا العنوان: (باب أحمد) من الناسخ، وهو الباب الذى يمتد من (رقم ٢) إلى ترجمة رقم (٣٧)، صـ١٠ - ٣١. وكذلك سقط هذا العنوان: (باب سليمان)، وهو الممتد من (صـ٣١٣ - ٣١٥).
(١١) يمتد من (ترجمة رقم ٣٨ - ٤٠)، صـ(٣٢ - ٣٣).
(١٢) يمتد من (ترجمة رقم ٤١ - ٤٧)، صـ(٣٣ - ٤٠).
(١٣) يمتد من (ترجمة ٤٨ - ٤٩)، صـ(٤٠ - ٤٢).
(١٤) يمتد من (ترجمة ٥٠ - ٥١)، (صـ٤٢).
(١٥) الترتيب الداخلى الهجائى غير مُراعىً، فمثلاً: فى (باب أحمد)، ترجم لـ (أحمد بن إبراهيم)، برقم(٢) =

ج – عند وجود بعض الأسماء المتفرقة، التي لا تدخل تحت (الأبواب الفرعية)، يقوم الخشني بتجميعها ووضعها آخر الباب الهجائي التابعة له، ويقول: باب (أسماء مختلفة)[1]. وقد تكون جميع تراجم الباب من قبيل الأسماء المختلفة، كما في باب (حرف الجيم) مثلاً، فيقول: (وهي أسماء مختلفة)[2]، أي: وتراجم هذا الباب متباينة الأسماء، فلا تدخل تحت باب معين.

د – تتراوح أبواب الكتاب بين الطول والقصَر، بعضها محدود جدًّا، لا يتجاوز الصفحة[3]، وبعضها يطول جدًّا، كباب (حرف الميم). الذي أَعُدُّه أطول أبواب الكتاب[4]، ويليه باب (حرف العين)[5]، الذي يتسم بسمة، ينفرد بها، ذلك أن بأواسطه بابًا للأسماء المختلفة[6]، وهو خاص بـ (العبادلة)، ولم يوضح الخشني ذلك، ثم استؤنفت بقية أبواب هذا الحرف[7] ثم وضع باباً آخر للأسماء المختلفة[8]، وهو متعلق بالأبواب الأخرى المستأنفة، ولم يُميِّزه الخشني عن سابقه.

٢ – عناصر تكوين التراجم، ومدى تحقق التناسق بينها، والملامح المنهجية المتصلة بذلك:

١ – سوف أعرض – هنا – **العناصر المكونة للترجمة عند الخشني**، وسأراعي – ما أمكن – أن تكون لها صفة العموم والانطباق على كثير من تراجم الكتاب (معقولة الطول). **ويمكن ذكرها على النحو الآتي:**

أ – ذكر اسم المترجم له، ونسبه موجزاً، وأنه من أهل كذا (المدينة الأندلسية التابع لها)،

= صـ١٠ – ١١)، وبعده ترجم لـ(أحمد بن الوليد بن عبد الخالق)، برقم(٣) صـ(١١)، ثم ترجم لـ(أحمد ابن عبد الله بن خالد)، برقم(٤) صـ(١١)، ثم ترجم لـ(أحمد بن محمد اليحصبي) برقم(٥) صـ(١٢)، ثم عاد فترجم لـ(أحمد بن الحسن)، برقم(٦)، صـ(١٢)، ثم ترجم لـ(أحمد بن محمد بن عجلان)، برقم(٧)، صـ(١٢)، وهكذا دون ترتيب.

(١) راجع – مثلاً – ما ورد في آخر (حرف الألف)، حيث جمع تراجم (أسلم، وأسيد، وأسد، وأخطل، وأزهر، وأمية) بأرقام (٥٢ – ٥٧)، صـ (٤٣ – ٤٨). وكذا آخر (حرف الخاء)، برقمي (٩٨ – ٩٩)، صـ٨٦.

(٢) وفيه ترجم لـ (جعفر، وجابر، وجندب) بأرقام: (٦٥ – ٦٧)، (صـ٦٩).

(٣) مثل: باب (الجيم) السابق، وباب (الكاف) صـ١٠٧، وباب (اللام) صـ١٠٩.

(٤) ويمتد من ترجمة رقم (١٢٦ – ٢٦٠)، صـ(١١١ – ٢٠٢). ويلاحظ أن أطول أبوابه الفرعية هو باب (محمد)، وبه من ترجمة رقم (١٢٦ – ٢٣٠)، صـ١١١ – ١٨٥.

(٥) يمتد هذا الباب ككل من ترجمة (٢٧٢ – ٣٩٢)، (صـ٢١٣ – ٢٨٩). ويحوي في شقه الأول أسماء العبادلة في أبواب: (عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الملك، وعبد الأعلى، وعبد الجبار، وعبد الوهاب، وعبد المجيد، وعبد الكريم، وعبد الواحد، وعبد السلام). ويمتد هذا الجزء من ترجمة (٢٧٢ – ٣٤٧)، صـ٢١٣ – ٢٦٨.

(٦) ويمتد من ترجمة (٣٤٨ – ٣٥١)، صـ٢٦٩، وبه تراجم (عبد القادر، وعبد المؤمن، وعبد الودود، وعبد العزيز).

(٧) وبه أبواب: (عيسى، وعمر، وعمرو، وعامر، وعمران، وعميرة، وعثمان، وعباس، وعلي). ويمتد من ترجمة (٣٥٢ – ٣٨٨)، صـ(٢٧٠ – ٢٨٧).

(٨) وبه تراجم (علكدة، وعكرمة، وعبيدون، وعريف). ويمتد من ترجمة (٣٨٩ – ٣٩٢)، صـ (٢٨٧ – ٢٨٩).

والترحم عليه غالباً[١].

ب - بعد عنوان الترجمة السابق: يذكر - فى أحيان كثيرة - نسب المترجَم له، وهو موزع بين القصر[٢]، والطول المتوسط[٣]، وأحياناً يأتى به مطوّلاً مفصلاً[٤].وقد يردف ذلك بتناول أصله، وشرح ولائه (إن كان من الموالى)[٥].

ج - الاهتمام بذكر علم المترجَم له، وأى العلوم غالبة عليه (الفقه، أم الحديث)، وما قد يكون لديه من علوم أخرى[٦].

د - ذكر بعض أساتيذ المترجم له من الأندلسيين[٧]، ثم الاهتمام بذكر ما يتصل برحلته إلى المشرق، فإن لم يكن للمترجم له رحلة - وقلما يكون ذلك - ينص عليه[٨]، وإذا كانت له رحلة - وكثيراً ما يكون ذلك - بيّن لنا صحبته فيها - أحياناً[٩] - والبلاد التي زارها، وأساتيذه الذين تلقى عليهم فى كل بلد منها، على تفاوت فى ذكر هؤلاء الأساتيذ كثرة وقلة[١٠] (ربما حسب نشاط المترجم له، وجديته ومثابرته فى التلقى).

هـ - التعرض للصفات الطيبة من علم وزهد، وورع وعبادة، وغيرها[١١]. وإلى جانب ذلك يهتم بإبراز رأى العلماء فيه، وثنائهم عليه، ومدحهم إياه[١٢]. وغالباً ما تنتهى الترجمة

---

(١) راجع - مثلاً - فى (أخبار الفقهاء والمحدثين) تراجم أرقام ١ (صـ٩)، ٦ (صـ١٢)، ٨ (صـ١٣)، ١١ (صـ١٤).

(٢) السابق: رقم ٢ (صـ١٠)، ٦ (صـ١٢)، ١١ (صـ١٤).

(٣) السابق: ترجمة ١ (صـ٩).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ٢١ (صـ٢٢)، وترجمة ١٠٤ (صـ٩٥)، وترجمة ٢٤١ (صـ١٩١).

(٥) السابق:ترجمة ١٢ (صـ١٤):نسبه فى الأمويين،وأصله من تَرْحَلَة قيس (لعلها القرية المشهورة بين إربل والموصل،من أعمال الموصل).(معجم البلدان ٢/٢٥). وترجمة ١٩ (صـ٢١):أحمد بن يوسف بن عابس (سرقسطي الأصل).وكذلك ترجمة ١٢٦ (صـ١١١):محمد بن خالد بن مرتنيل.تناول أصل مرتنيل هذا (كان عبداً مملوكا للداخل، فأعتقه، وكان ليوسف الفهرى قبله. وكان مرتنيل يعمل لعبد الرحمن بن معاوية الجنان، التى كانت فى المكان الذي فيه - زمن الخشنى - دور بنى خالد داخل قرطبة). وأخيراً، عريف مولى ليث بن فضل (كان فقيهاً مناظراً مفتياً، وأصله من سبى الإفرنج، إذ كان طفلاً، فملكه ليث هذا، ورأى منه يقظة ونباهة، فعلّمه ونشّأه على حفظ القرآن، ومال للعلم، فساعده مولاه. (السابق: رقم ٣٩٢، صـ٢٨٨ - ٢٨٩).

(٦) راجع ما تقدم بهذا الشأن حول عنوان كتاب الخشنى ومحتواه.

(٧) السابق: رقم ٣ صـ١١، ورقم (٣٣)، صـ٣٠.

(٨) السابق: رقم ٦ صـ١٢، ورقم ٤٨٩ (صـ٣٤٥)، ورقم ٥٠٣ (صـ٣٧٧)، ورقم ٥٠٧ (صـ٣٧٩).

(٩) السابق: رحلة (أحمد بن محمد بن عجلان، وأخيه معاً)، (رقم ٧ صـ١٢)، ورقم ٧٥ (صـ٧٥)، ورقم ٨٧ (صـ٨٠).

(١٠) أحياناً، يذكر الخشنى عدداً قليلاً منهم (السابق: رقم ٢ صـ١١، ورقم ١٦٩ صـ١٥٤). وفى تراجم بعض العلماء المشهورين المطولة، يتوسع حدّاً فى ذكر أساتيذهم بكل إقليم، ويذكر أعدادهم (ترجمة بقى بن مخلد رقم ٥٨، صـ(٥٠ - ٥٥).

(١١) السابق: صـ١٨، ٢١، ٢٣، ٣١، وغيرها.

(١٢) السابق: رقم ١٠ صـ١٣، ورقم ١٣ صـ١٦، ورقم ١٨ صـ٢١، ورقم ٢١ صـ٢٣، ورقم ٤٨ صـ٤١، ورقم ٧١ صـ١٣٧، وغيرها.

بذكر تاريخ وفاة المترجَم له[١].

ملامح منهجية مرتبطة بطريقة الخشنى فى العرض التاريخى للتراجم:

أ - حول طول الترجمة:

منْ تَتَبُّع تراجم الخشنى فى هذا الكتاب، تَبيّن لى أن بعض تراجمه سطحية[٢] (نادرة المعلومات جدًّا)، فلعل الخشنى لم تسعفه مصادره بأكثر من هذا، أو لم تساعده ظروفه للعَوْد إليها؛ لتكملتها. وهى قليلة فى أعدادها على كل حال، إذا قيست بالطابع العام لتراجم الكتاب (قصيرة الطول)[٣]. وهناك تراجم محدودة معدودة أطال فيها الخشنى كثيراً، وفصّل القول فيها تفصيلاً[٤].

ومن حقنا أن نحاول استنباط المعيار، الذى كان يُحَكِّمه الخشنى فى تراجمه من حيث الطول والقصر.والحق أن وضع اليد على هذا المقياس غير ممكن بدرجة كافية؛ لأن الرجل لم نعثر له على مقدمة كتابه، التى يُتصور أنه يُضَمِّنها كثيراً من الإجابات عن العديد من التساؤلات المثارة حول كتابه، ومنها ما نحن بصدده الآن.وعلى كل، فلم أعدم وسيلة أو أخرى، أستشف منها جانباً من هذا المعيار.لقد رأينا الرجل يطيل جدًّا فى ترجمة (يحيى بن يحيى الليثى)[٥]، وكان مما جلب هذا التطويل إصراره على إثبات حوالى ثلاثين موضعاً فى أسانيد أحاديث الموطأ، رواها العالم المترجَم له، وانتُقدت وأُخذت عليه من جانب (محمد بن وضاح، وغيره من العلماء)[٦]، وقال مبرزاً وجهة نظره فى التطويل قبل أن يسرد هذه المواضع وقد رأيتُ أن أجتلبها على وجهها فى هذا الكتاب كثيراً مبسوطاً، فلا يُنْكَر فى مثله شدة الشرح، وكثرة التطويل)[٧]. فهو - إذن- يرى أن قضية انتقاد أسانيد مرويات المحدثين الكبار مما يجب تفصيله، ما دام كتابه يترجم للمحدثين.وقد رأينا أن المناقشات الفقهية المطولة -أيضاً- مما يرى ضرورة إثباته، ما دام الفقهاء يمثلون جزءاً كبيراً من تراجم هذا الكتاب[٨]. وبالنسبة لمواضع (**الاختصار**)، فقد رأينا

---

(١) وهذا كثير شائع فى مختلف تراجم الكتاب، والخروج عليه هو الاستثناء.

(٢) السابق:راجع تراجم أرقام:(٩٥، ٩٨، ١٧٦، ٢١٩، ٢٣٠، ٣٢٣، ٣٤٩، ٣٥٧، وغيرها.

(٣) راجع فى (السابق): أرقام (٢٠٦ - ٢٠٧، ٢١٣، ٣٦٩، وغيرها).

(٤) راجع تراجم (٣١، ٤١، ٥٢، ٥٨، ١٠٤، ١٣٧ - ١٣٨، ٣١٠، ٣٢٨، ٣٣٣، ٣٥٢، ٤١١، ٤٩٣).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـ٣٤٨ - ٣٦٧.

(٦) السابق: صـ٣٤٩ - ٣٥٧.

(٧) السابق: صـ٣٤٩.

(٨) يعد كتاب الخشنى صورة حية للمظاهر الحضارية الثقافية فى ذلك العصر، فإننا نجد به مجالس العلم والمناقشات بين العلماء (السابق: صـ١٨)، وبعض الفتاوى الفقهية الصادرة فى مجالسهم (السابق: صـ٩٦)، والردود الفقهية المطوّلة، والتأويلات المفصّلة (السابق: صـ٢٤٨ - ٢٥٤)، وجانبًا من الخلافات بين بعض العلماء (السابق: صـ٦٩، ١٠٠ - ١٠١)، والأخذ والرد فى حلقة العلم بين الأستاذ وتلامذته (صـ١٠٣ - ١٠٤)، ومظاهر الحركة =

الخشنى يؤثره ويرتضيه فى مواضع معينة، منها:

١ - عند التعليق على سند رواية سابق، يكتفى بالإشارة إلى مضمون الرواية المتقدمة، ويقول: (فذكر لى الحكاية)(١).

٢ - عند تلخيص خلاف الناس حول عقيدة أحد العلماء، (كما هو عندنا لخص اشتجار الناس حول اعتقاد ابن مسرة القرطبى، وحصر ذلك فى فرقتين، قام ببيان رأييهما فى إيجاز وتركيز)(٢).

٣ - عند التعرض لذكر الروايات المتصلة بمكارم العلماء، وفضلهم، وعلمهم: فقد رأيناه، يروى عدداً من الروايات التى تشير إلى فضل (يحيى بن يحيى الليثى)، وعلمه، وإجابة الله دعاءه. ثم توقف عن المضى عن ذكر المزيد من هذه النوعية من الروايات قائلاً: و(أخباره كثيرة غزيرة، لو استقصيناها واستوعبناها، لطال الكتاب جداً، يخرج عن حد ما بُنى عليه من معرفة العلماء)(٣). فكأن الخشنى يريد أن يوضح لنا أن جل اهتمامه فى هذا الكتاب مُنْصَبٌّ على تعريف القارئ بعلماء الأندلس (فقهائه، ومحدّثيه)، مع التركيز على مناقشة القضايا الحديثية والفقهية المرتبطة بهم، مع عدم المبالغة والتطويل فى ذكر الآثار المادحة علمهم وفضلهم؛ لأنها من الممكن أن تخرجه عن حيّز الموضوعية إلى الغلو والإسراف فى المدح والثناء.

٤ - عند الإشارة إلى المكان الذى يترله بعض العلماء، مكتفياً فى ذلك بأقل القليل(٤)، وعلى اعتبار أنه أشار فى صدر الترجمة إلى الكورة، التى ينتمى إليها العالم غالباً؛ إذ إن شرح الأماكن وتفصيل وصفها مما لا يشغل الخشنى هنا.

ب - مدى التزام الخشنى بموضوع الترجمة:

ونقصد بذلك: هل خرج الخشنى إلى (الاستطراد المعيب) فى تراجمه ؟ والحق أنه بالنظر إلى مجمل هذه القضية، فإننا نستطيع القول: إنه التزم — إلى حد بعيد — بموضوع الترجمة. وإذا كان يذكر أشخاصاً لهم صلة بالمترجَم له، فقد كانت إشاراته — إلى أخى(٥)، أو ابن(٦)، أو والد

- العلمية النشطة فى المساجد، وفى حلقات الفقه والقصّ (صـ٢١٧)، و(تأديب الصبيان فى المساجد، وتأديب أبناء الأمراء (صـ٨٧، ٣٤١)، وغير ذلك من مظاهر الحركة العلمية التى تموج بها الأندلس.

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـ٩٧.

(٢) السابق: صـ١٧٨.

(٣) السابق: ترجمة ٤٩٣ (صـ٣٦٧).

(٤) راجع: تراجم أرقام (٣٠، ٣٤٥، ٤٦٥، ٥١٧).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة (٧)، صـ(١٢)، ورقم ٧٥ (صـ٧٥).

(٦) السابق: ترجمة ٢٤ (٢٣).

صاحب الترجمة[١] - سريعة مقتضبة. وفى أحيان نادرة كان يطيل بعض الشئ[٢]. لكن الطابع العام لتراجمه هو (مراعاة الالتزام بموضوع الترجمة وصاحبها). ومن هنا، رأينا الخشنى يجعل للأب - مثلاً - ترجمة، وللابن ترجمة أخرى خاصة به[٣]. وأعتقد أنه يوجد تشتت فى توزيع تراجم الأسرة الواحدة[٤]، بناء على الترتيب الهجائى لأبواب الكتاب الذى اختاره الخشنى لتنظيمه، والذى فضّله على نظام الترتيب على (الطبقات)[٥].

ج - مدى القدرة على تنمية، وتعميق المعلومات الواردة بالترجمة:

كانت للخشنى أساليبه التى يستخدمها لتأكيد ودعم بعض المعلومات المذكورة فى الترجمة. ومن وسائل ذلك: **(الاستشهاد بالشعر)**. فقد أورد لنا عدة أبيات من الشعر فى مدح العالم (بقى بن مخلد)، في الرد على شانئيه الذامّين له[٦]، تأكيداً لمنزلته، وعلمه، وتميزه على غيره من العلماء.

ومما قاله بعضهم فى هذا الشأن:

رأيتُ بَقِيَّ الخير خيـرَ زمانـه   وغير بَقِيّ فى العلوم كَلاشِـى

أَبَى اللهُ إلا أنه أفضـل الورى[٧]   وأعلم كهـل فى البلاد وناشِى[٨]

وفى ختام ترجمة (بقىّ بن مخلد) أورد الخشنى المؤرخ موقف (محمد بن عبد السلام المحدّث) لمـا رأى الـناس قد خرجوا بنعش (بقى)، وما أصابه عند ذلك من هول الفجيعة، بحيث سقط

---

(١) السابق: رقم ٤٠ (صـ٣٣).

(٢) السابق: رقم ٧٧، صـ٧٦ (ذكر معلومة قصيرة عن المترجم له: حفص بن عبد الله الأنصارى، (ثم معلومتين أطول نسبياً عن ولده (يوسف) ثم (حفيده محمد). وكذلك ترجمة (٢٤٠) صـ١٩١ (فيها ذكر المترجم، وابن أخيه، وأولاده). وكذلك ذكر أخى المترجم له (صـ٢٤٨ - ٢٤٩).

(٣) السابق: (ترجمة الأب رقم ٣١٣، وترجمة ابنه أحمد برقم ٣٦،وابنه أيوب برقم ٤٠).

(٤) فمثلاً: يوجد تباعد بين ترجمتى الأب، والابن، رغم اتفاق أول (اسمهما فى الحروف على اعتبار أن الترتيب العام قائم على أساس (الحروف الهجائية). أما أساس ترتيب الأبواب الفرعية، فغير معروف لنا. (فترجمة الأب (محمد بن وضاح برقم (١٣٧ صـ١٢٢)، وترجمة الابن (محمد بن محمد بن وضاح) رقم ١٧٨ (صـ١٦٠).

(٥) وقد أشار الخشنى فى ترجمة (قاسم بن هلال) رقم (٤١٠)، صـ٣٠١ إلى أن المترجم له أنجب بنين نجباء فى العلم والزهد والخير، وأنه سيذكرهم مع طبقتهم فى موضوعهم من كتابه هذا (إن شاء الله). ولستُ أدرى أى تقسيم طبقى يعنى، وحتى إذا كان أساس تقسيمه التراجم الفرعية غير المعروف لنا، جعل أبناء المترجم له، يُذكرون مع طبقتهم من أهل العلم مثلاً، فإننا لم نجد خؤلاء الأبناء ذكراً، اللهم إلا ابناً له يسمى (يحيى) ورد برقم (٥٠٠) صـ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٦) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـ٥٨ - ٥٩.

(٧) هذه مبالغة ممقوتة، فلا أفضل فى الخَلْق من رسول الله، ولا يصح أن يقال: إن العلماء الآخرين - بجانبه - لا يساوون شيئاً.

(٨) السابق: صـ٥٩.

مغشيّاً عليه. فلما أفاق مشى حاسراً، وقال: (هكذا ينبغى أن يُمْشَى فى جنائز أهل العلم)[١].

وأعقب مؤرخنا ذلك بشعر لابن عبد ربه، يُعمّق فيه مكانة (بَقِيّ) فى النفوس والقلوب، مثل قوله:

إذا استلموا ركناً من النعش خِلْتَهُم قد استلموا رُكْناً مـن البيـت أسـودا

وسَـوَّوْا بأيديهم جوانـب قبـره فلما استوتْ خَـرُّوا على القبر سُجّدا[٢]

ومن وسائل الخشنى في تأكيد المعلومة الواردة في الترجمة – أيضًا – **إبرازه طبائع المترجَمين**.ومثال ذلك: أنه نقل عن بعض الرواة وصفهم المحدّث (محمد بن وَضّاح القرطبى ٢٨٧هـ) بأنه كان دمث الأخلاق منشرحًا، وأنه ربما مازَح وضحك، حتى يسيل لعابه، ثم أراد تأكيد ذلك ودعمه، فأردفه بمقارنة المترجم له بآخر هو (إبراهيم بن محمد القزاز)، الذي كان فَظّاً سَكُوتًا، لا ينشرح، فكان بعض الناس يقول في ذلك الوقت: "لو أن ابن وضاح، وابن القزاز عُمل منهما رجل، كان معتدلاً "[٣].

د - حـول درجـة تنظيم المادة التاريخية، وحسن توزيعها، ودقة أسلوبها، ومدى الترابط والتناسق الداخلى بها:

من خلال دراستنا السابقة لموارد الخشنى في كتابه، ومنهجه في عرضها، اتضح لنا أنه على قدر كبير من القدرة على تنسيق المادة العلمية وتجميعها، وتوثيقها بنسبتها إلى مصادرها المتنوعة. والآن، نحاول تلمس قدرته على توزيع مادة تراجمه في أماكنها المناسبة. والملاحظ أن مؤرخنا نجح في أكثر من موضع في ذلك. فمثلاً: ذكر في ترجمة (**أحمد بن سليمان بن نصر**): أنه ذُكر نسبه، حيث وقع ذكر أبيه[٤]. وفي ترجمة (أيوب بن سليمان بن نصر) قال: كان أبوه من أهل العلم. وقد وقع ذكره في (حرف السين) [٥]. وبالرجوع إلى باب (السين) المذكور، وجدنا ترجمة الأب – بالفعل – موجودة هناك [٦] ومن المشاهَد أن الخشنى لم يذكر نسب (أحمد بن سليمان)، باعتبار أنه ذُكر في ترجمة والده. وبالعود إلى ترجمة الأب السابق الإشارة إليها تبين أنه لم يزد على ما ورد في ترجمة ابنه إلا اسم (حامل)، مع الإشارة إلى أنه من (مُرّة غَطَفان). ولعل

---

(١) السابق: صـ٦١ - ٦٢.

(٢) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص ٦٢.

(٣) المصدر السابق: صـ ١٢٨.

(٤) السابق: ترجمة رقم (٣٦)، صـ (٣١).

(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة رقم (٤٠)، صـ (٣٣).

(٦) السابق: صـ٣١٣ (ترجمة سليمان بن نصر بن منصور الإلبيرى، رقم ٤٢٥).

بقية النسب سقط مع السَّقْط الوارد في المخطوطة. وكان الأوفق – في نظرى – ما دام الابن ذُكر في الكتاب أولاً في باب (أحمد) أن يُذكر نسبه كاملاً، ثم عندما تأتى ترجمة الأب في باب (السين) يشير – إذا أراد – إلى أنه سبق ذكر النسب في ترجمة ابنه الواردة من قبل، لكن يبدو أن الخشنى له وجهة نظر أخرى معتبرة أيضًا؛ لأنه – فيما يبدو – عَدّ الأب هو الأصل، ولوتأخرت ترجمته (حسب ترتيبه). وأحب أن أشير إلى أن هناك إحالات، ذكرها الخشنى في مواضع أخرى، وعند التثبت من مدى دقتها، لم نعثر لها على أثر[١]، وأحيانًا نجد جزءًا مما أشار إليه[٢]، فلعل الدقة خانته في بعض توزيع مادته، أو أن المخطوطة بها نقص بفعل الناسخ.

وثمــة لون آخر من التنسيق والتنظيم في عرض المعلومات، تمثل في **ذكر العنصر، ثم ضرب الأمثلة والشواهد الدالة عليه،** كما في ترجمة (بقى بن مخلد) في الروايات المتعلقة بكراماته[٣].

وإذا نظــرنا في ألفاظ الخشنى، التي يؤدى بها بعض جمله وتعبيراته، ألفيناه دقيقًا في انتقائها، أصيلاً في استخدامها، مع إيجاز وتركيز شديد. **ومن النماذج المعبّرة عن ذلك:**

١- قوله عن (أحمد بن عمرو بن منصور الإلبيرى): (وكان رجلاً صالحاً، ثبتًا فيما روى، حافظًا لما قَيّد) [٤].

٢- وتظهر وجازته، وجمله القصيرة المركزة في أسلوبه، عندما وصف (طاهر بن عبد العزيز القرطبي المحدث) بقوله: (وكان طاهر طَيِّبَ الخُلُق، حُلْوَ اللسان، بَليغَه فصيحَه، كريمَ المجالسة، غاية في رقة الأدب، وحسن معاملة الناس، وتقريب التلاميذ، والرفق بالمعتدى، والتواضع مع المروءة الظاهرة) [٥].

٣- قوله عن ابن أخى (مطرف بن حميد الوشقى): (وكانت فيه حركة عجيبة، وطلب باحث) [٦]. وهو تعبير دقيق عبّر به عن نشاط (حميد بن ثوابة بن حميد) في الرحلة إلى العراق، والحج، وطلب العلم، وجمعه، بينما كان عمه غير ذى رحلة. ومن هنا تبدو المفارقة بين الاثنين، ودور التعبير المستخدم في إظهارها.

---

(١) كما هو الحال في إشارته إلى خبر وقوع مجاعة بالأندلس سنة ٢٦٠ هـ، وشهامة أحد العلماء خلالها (السابق صـ ١١٥ - ١١٦)، وأنه سبق أن أشار إليها في كتابه هذا، وبالبحث – قدر الجهد – لم أجدها. كذلك لم أجد ما أشار إليه في ترجمة (٤١٥) صـ ٣٠٧، وكذلك ما أشار إليه في (ترجمة رقم ٣٥٧)، صـ ٢٧٣.

(٢) فقد وجدنا ابنًا واحدًا للعالم (قاسم بن هلال) المترجَم له رقم (٤١٠) صـ ٣٠١، وذكر أنه سيترجم لأبنائه الفقهاء، فلم نجد منهم سوى ابن واحد هو يحيى (ترجمة ٥٠٠ صـ ٣٧٥ – ٣٧٦).

(٣) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـ ٥٦، صـ ١٣٠ - ١٣١ (نماذج من زلات ابن وضاح في الحديث).

(٤) السابق: صـ ١٥ (جمع بين الرواية الشفهية، والدقة الخطية الكتابية، وتميز فيهما).

(٥) السابق: صـ ١٠٣.

(٦) السابق: صـ ١٩١.

وفي السنهاية، فباستعراض عدد من تراجم الكتاب، **والنظر إلى مدى مراعاة التناسق والترابط الداخلي بين عناصر الترجمة الواحدة**، ظهر لنا وجود هذا الترابط إلى حد بعيد في عدد من التراجم، مثل: ترجمة (أصبغ بن خليل القرطبي الفقيه) [١]، و(أسلم بن عبد العزيز القرطبي[٢]، و(بقي بن مخلد القرطبي) [٣]، و(محمد بن وضاح القرطبي[٤] مع بعض تحفظات يسيرة لنا. وأحيانًا، كان يختل الترتيب المنطقي لعناصر الترجمة، كما في ترجمة (أحمد بن دحيم ابن خليل القرطبي) [٥].

٣ - التوقيت:

اهتم مؤرخنا الخشني بتوقيت الأحداث المختلفة الواردة في معظم تراجم كتابه موضع الدراسة. وقد سلك في ذلك طرقا شتّى على النحو الآتي:

١- الاهتمام بذكر عدة تواريخ ترتبط بالمترجَم له داخل الترجمة الواحدة: مثل تاريخ رحيله للحج، ثم تاريخ دخوله بغداد، ومدة إقامته بها، ثم تاريخ عوده إلى بلده (الأندلس)، إضافة إلى تاريخ مولده، ووفاته[٦].

٢- الاهتمام بذكر تاريخ انصراف المترجم له من المشرق إلى الأندلس (ولو بالتقريب)، وتاريخ وفاته[٧].

---

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: رقم (٤١)، صـ٣٣ - ٣٩: وفيها بدأ بذكر أهم أساتيذه بالأندلس، ومكانته في الشورى، والعلم. ثم عاد فذكر اشتهاره بحب العلم منذ عهد عبد الرحمن بن الحكم، وذكر إجادته الفقه والوثائق، وبيّن حسن قياسه وحفظه، إلى أن تأثر الأخير آخر حياته. وذكر فقره وترفعه - رغم ذلك - عن قبول الهدايا، وشهادة علماء مصر له بالعلم، وقلة علمه بالحديث وأسماء الرجال، وورعه. وأخيرا، وفاته ودفنه، والصلاة عليه. ومن الواضح أن الترتيب مختل في بداية الترجمة؛ إذ كان الحديث عن مكانته وشوراه أولى به أن يتأخر بعد بيان طلبه العلم، وجدّه في الطلب، حتى عُرف ذلك منه.

(٢) السابق: ترجمة ٢د، صـ ٤٣ - ٤٧ (ويلاحظ - أيضًا - أنه صدّر ترجمته بيان منصبه القضائي، وهو ما حقه التأخير).

(٣) السابق: (ترجمة ٥٨، صـ ٤٩ - ٦٢). وقد بدأ - أيضًا - بذكر منزلته العلمية، ورحلته إلى المشرق، ومدة كل منهما. وكان الأولى البدء بمرحلة الطلب في الأندلس وشيوخه بها.

(٤) السابق: (ترجمة ١٣٧، صـ ١٢٢ - ١٣٢). ويلاحظ أنه صدّر ترجمته بالتدقيق في النقل عن الرجال، ثم ذكر أساتيده في رحلته إلى مختلف الأقاليم، ثم ذكر ميله للعرب ضد الموالي. وكان الأولى تقديم رحلاته، ثم بيان ما برع فيه من علم، وموقفه من الموالي بعد العود إلى الأندلس.

(٥) السابق: ترجمة ٣١ (صـ ٢٧ - ٢٩). وقد بدأ الترجمة بداية طيبة (النسب، ثم عجّل بذكر معرفته بالرأي والحديث، وكان الأفضل تأخيره، ثم ذكر أساتيذه بالأندلس، ورحيله لطلب العلم، وعودته للأندلس، ثم ذكر مولده ووفاته، ثم عاد وتذكر - فيما يبدو - أنه لم يسرد أسماء شيوخ المترجم له في الأقاليم التي ارتحل إليها، فذيّل بهم الترجمة (وهذا خلل واضح).

(٦) أخبار الفقهاء والمحدثين: (ترجمة أحمد بن دحيم بن خليل)، رقم (٣١)، صـ(٢٧).

(٧) السابق: (ترجمة أحمد بن ميسرة)، ترجمة ١٤ (صـ١٧)، قال عنه: انصرف قبل سنة ٢٩٠هـ.

٣-الاهتمام الأساسي بذكر تاريخ وفاة المترجَم له في غالبية التراجم. وله في ذلك عدة مناهج يتبعها في إيراده، منها:

أ- الاكتفاء بذكر سنة الوفاة آخر الترجمة، وبعدها يذكر ما يتعلق بعقب المترجَم له[١]، أولا يذكر[٢].

ب- ذكر سنة الوفاة، ثم شهرها الحادثة فيه[٣].

ج-ذكر سنة الوفاة، ثم يومها وشهرها، وما يتعلق بدفن المتوفى، والصلاة عليه، ومكان الدفن، والدعاء له بالرحمة[٤].

د- ذكر شهر، وسنة الوفاة، ومكان الدفن، ثم يوم الدفن[٥].

هـ - عمر المتوفى، والليلة التي توفى بها، وتاريخها تفصيلاً، وسنة الوفاة[٦].

و- الجمع بين تاريخ الوفاة تفصيلاً، ثم الميلاد تفصيلاً آخر الترجمة[٧].

ز - الاهتمام بذكر ظروف القتل، وتاريخه (في إيجاز شديد) [٨]، وأحيانًا ظروف الوفاة، والدفن (العود من غزو مع الناصر) [٩].

٤- هـناك عديـد من المواضع يأتي فيها التوقيت غير محدد تمامًا، منها: (قديم الموت[١٠]، وقديم الموت مات في بضع وثمانين ومائتين[١١]، وتوفى في أيام عبد الرحمن بن الحكم[١٢]، وتوفى في أخريات أيام الأمير محمد [١٣]، وكانت وفاته قريبًا من قدومه من رحلته[١٤]، وتوفى ولم يبلغ الأربعين[١٥].

(١) السابق: ترجمة رقم (٩) صـ(١٣)، وقال بعدها: (ولم يعقب)، وترجمة (٢٩)، صـ٢٦.
(٢) السابق: ترجمة ١٢ (صـ١٦)، وترجمة ١٣ (صـ١٦)، وترجمة ١٤ (صـ١٧).
(٣) السابق: صـ٢٤.
(٤) السابق: ترجمة ١٥ (صـ١٩).
(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ١٥ (صـ ٢٦).
(٦) السابق: ترجمة ٢ (صـ ١١).
(٧) السابق: ترجمة (٧٠).
(٨) السابق: ترجمة ٢٦ (صـ٢٥)
(٩) السابق: صـ ٣١.
(١٠) السابق: رقم ٨٤، ٩٦.
(١١) السابق: ترجمة ٦ (صـ١٢).
(١٢) السابق: ترجمة (٨٨).
(١٣) السابق: ترجمة (١٠١).
(١٤) السابق: صـ١٨٩.
(١٥) السابق: صـ١٠٩.

ملاحظات عامة:

أ - ليس لمؤرخنا منهج محدد في ذكر توقيت الأحداث، ولا تاريخ الوفاة والميلاد، وإنما هو يذكر التواريخ كيفما اتفق.

ب - قد يتجاوز الخشني المترجَم له، فيذكر تاريخ وفاة ابنه أيضًا، متتبعًا إياه خارج الأندلس (حيث توفي بمصر قبل وصوله إلى مكة سنة ٢٠٥هـ)[١]. وبالنسبة لتاريخ وفاة الوالد المذكور، فإنه يذكر له أكثر من تاريخ وفاة دون ترجيح[٢].

ج - هناك بعض التراجم لا نجد فيها ذكراً لتاريخ وفاة المترجمين. وقد يكون ذلك؛ لعدم وقوف الخشني عليه[٣]، أو لسقوطه من المخطوطة[٤].

٤ - مدى القدرة على رسم صورة واضحة للعلماء في الأندلس:

حرص المؤرخ الخشني في تراجم كتابه عن (الفقهاء والمحدثين) على إبراز جانبين مهمين يتعلقان بالعلماء في الأندلس:

أ - الجانب الأول: جانب الحكمة، والموعظة، والصواب: وذلك نلمسه من خلال كلمات يرويها المترجمون عن العلماء[٥]، أو من خلال تصرفات بعض المترجَمين[٦].

ب - والجانب الأخر: يتمثل في الدور الإيجابي الذي لعبه العلماء في المجتمع الأندلسي، فهم يتولون العديد من المناصب كالصلاة[٧]، والقضاء[٨]، والفتيا[٩]، والشورى[١٠]، وعقد الوثائق[١١]. وقد رسم لهم الخشني صورة مشرفة في كتابه، فهم ذوو جاه ومنزلة سامية بين الناس، ولدى الأمراء

(١) أخبار الفقهاء والمحدثين: ترجمة ١٠٤ (صـ ٩٨).

(٢) السابق: (توفي والده زياد بن عبد الرحمن سنة ١٩٣، أو ١٩٤هـ).

(٣) السابق: ترجمة (٣)، صـ(١١)، وترجمة ٤٣ (صـ٣٩)، وترجمة ٧٧ (صـ٧٦)؛ وترجمة ٨٣ (ص٧٨).

(٤) السابق: ترجمة ٥، صـ ١٢ (توفي أحمد بن محمد هذا. ولا يكمل العبارة)، وتوفي حوشب هذا (ترجمة ٨٩). وأحيانًا يقول: توفي (فقط)، كما في (ترجمة ٧ صـ١٢، وترجمة ٤٦، ٥٩، ٧٩). وقد يقول: توفي (رحمه الله). (ترجمة ٤٣، ٤٥، ٥١)

(٥) مثل: (إذا تردد الرجل على القاضي ثلاث مرات بلا حاجة، فلا تجوز شهادته). (السابق: صـ ٨٣). وكما في قول لآخر ورد في (صـ ٢٤١): .لو كان العلم كما يقول صاحبنا هذا، لكانت الفتيا أمرًا سهلاً؛ لاحتجاجه بسواد الكتاب، ونحن إنما نحب أن نعرف أين الحق).

(٦) مثل: تصريح الأستاذ بخطئه في المجلس التالي أمام تلاميذه (صـ١٠٤)، وصلابة عالم آخر في الحق، وتنفيذه على خاصة الأمير، والسوقة والعوام على السواء (صـ١١١)، والتوجه إلى ذى العلم في بيته ومجلسه، فـ (في بيته يُؤتَى الحَكَم) (صـ١١٨).

(٧) أخبار الفقهاء والمحدثين: ص٢٦، ٤١ (صلاة الجماعة بقرطبة)، ٥٠ (صلاة سرقسطة).

(٨) السابق: صـ٢٧ (قضاء طليطلة، وإلبيرة)، ورقم ٥٣ (قضاء إلبيرة)، ورقم ٦١ (قضاء تطيلة). ومنهم من ولى قضاء الجماعة بقرطبة (رقم ١٧ صـ ٢٠، ورقم ٥٢).

(٩) السابق: رقم ٣٧. (١٠) السابق: رقم ٤١، ٧٠. (١١) السابق: صـ ٣٥ - ٣٦.

فمكانتهم محفوظة وحرمتهم وافرة(١). والعلماء لهم دور – كذلك – في سياسة الحكام(٢)، وإصلاح شئون الناس(٣).

وهناك جانب سلبي لا يفوتني الإشارة إليه؛ لأن الخشني كان حريصًا على إظهاره؛ لتتم ملامح الصورة الواقعية للعلماء، فهناك رواية صورت لنا (صراع الأجيال من العلماء)، وتمثل ذلك في تخطئة (المحدث محمد بن وضاح) في بعض ما يرويه من جانب طلاب العلم، بل خطّأه ابنه نفسه، لكنه استنكف من العود إلى الحق والصواب، وقال لهؤلاء: (طلبنا نحن هذا الأمر، وأنتم في بطون أمهاتكم) !(٤).

٥ - مدى حضور شخصية الخشني في كتابه:

الحقيقة أن ما مضى من حديث عن مجهوده الذي بذله في جمع مادة كتابه من أوثق مصادرها المتاحة، والعمل على تنسيقها وتنظيمها يدلّل على حضور شخصيته في كتابه، وأنه لم يكن متواريًا سلبيًّا، قابعاً وراء مادة تراجمه. **إلا أن ذلك الحضور غير مباشر**. ونحن في هذه الجزئية الختامية من تناولنا منهج هذا الرجل في تأليف كتابه، نبحث عن (**الحضور المباشر**)، وقد تلمسناه واستقصيناه، فألفينا بعض نماذجه، نعرضها على النحو الآتي:

أ - التعليل:

حاول مؤرخنا أن يفسر ما أورد من معلومات في تراجمه. ومن خلال محاولة تتبع مواضع تعليله، ظهر لي أن **تعليلاته خفيفة ويسيرة ومحدودة، وموجزة جدًّا في غالبيتها**، مثل: تعليله إكرام الناصر للعالم (أحمد بن خالد)؛ لفضله، وتعظيمه إياه لعلمه(٥)، أو تفسيره عدم فصل قاضي شذونة (خلف بن حامد بن الفرج) بين اثنين في فترة قضائه، بأن ذلك يرجع إلى ورعه وفضله، فقد كان يفصل على جهة الإصلاح بين المتخاصمين فحسب(٦)، إلى غير ذلك من المواضع(٧).

---

(١) السابق: صـ ١١١ - ١١٢، ١١٧، ١٩٥.
(٢) السابق: صـ ٣٠٥.
(٣) السابق: رقم ٣٧، صـ ٣١ (يفتي بالبلد، ويوفّق)، أي: يصلح بين المتخاصمين.
(٤) السابق: صـ ١٣١.
(٥) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـ١٨.
(٦) السابق: صـ ٨٤.
(٧) السابق: صـ ٢٣٣ (علّل ولاية عبد الرحمن بن أبي هند الوزارة؛ بصدقه وبعده عن الوقوع في الكذب). وفي صـ٣٧٦: علل معرفة (يحيى بن عبد الرحمن) بـ (أبيض)؛ لبياض شعر رأسه، ولحيته، وحاجبيْه، وأشفار عينيْه).

وهــــناك موضـــعان لجأ فيهما الخشني **إلى ذكر أكثر من سبب في تفسير** بعض ما ورد في تراجمه، فيكون بذلك قد فَصَّل نوعًا ما في هذا المجال[١].

ب - **التعليق والاستدلال:**

وهذا ملمح أرقى من سابقه في اتضاح شخصية مؤرخنا الخشني؛ لأن التعليق على الروايات يحتاج إلى فهم للقضية المثارة، وعلم بجوانبها، وتكوين رأي فيها. وتزداد الشخصية وضوحًا إذا أتـــى المعلق برأي جديد صائب، واستدل على صحته بما يؤكده. **هذا، وقد تنوعت تعليقات، واستدلالات الخشني كما يلي:**

١- تعليق فيه استحسان لتصويب ذكره أحد العلماء[٢].

٢- تعلـــيق خفـــيف حـــذر (حـــول توقيت وفاة أحد العلماء[٣]، واسم عالم آخر[٤]، والاختلاف حول مضمون إحدى الروايات) [٥].

٣-تعلـــيق فقهي متميز (يتصل بمنهج بقي بن مخلد الفقهي[٦]، وآخر يرتبط بخطأ ورد في إحدى الوثائق) [٧].

---

(١) السابق: صـــ ١٠٣ (ذكر أن طاهر بن عبد العزيز كان على درجة محمد بن عبد السلام الخشني في رواية كتب أبي عُبيد إلا أن من روى عنه طاهر هذه الكتب بمكة (وهو على بن عبد العزيز) صاحب أبي عبيد وكاتبه، وهو أوعى وأوثق من (محمد بن وهب المسْغريّ المؤدب المجهول)، وهو أحد أصحاب أبي عبيد، وعنه نقل الخشني المذكور كتب أستاذه. وهناك سبب آخر لاشتهار طاهر: أنه كان من أسمح الناس بكتبه، فكثر الناس عليه، وكتبوا عنه). أما (محمد ابن عبد السلام الخشني)، فكان لا يعير أصوله أحدًا، ثم إن الخشني هذا مات، فانفرد طاهر برواية كتب أبي عبيد، فازداد شهرة، ثم إن (أحمد بن خالد) توفي أيضًا، وكان – فيما يبدو – يقطن (منية عجب)، التي كان يقطنها (أحمد ابن خالد)، فخلت الساحة هناك فكثر تلاميذه. وكذلك يوجد تعليل من هذه النوعية (صـــ١٧٨)، فقد علّل شهرة (محمد بن عيسى بن رفاعة)، الذي كان يسكن (ريّة)، واستقدمه المستنصر إلى (جامع الزهراء)؛ ليعلم الناس. علل الخشني نقل الناس عنه علمًا كثيرًا في مدة تسعة شهور أقامها عندهم (ربيع الآخر ٣٣٦ هـــ، ثم انصرف إلى بلده، فمات في ربيع الآخر سنة ٣٣٧هـــ)، فأدرك الناس عنه ما لم يدركه عن (أحمد بن خالد) في أعوام كثيرة، قال: (لصبره على الجلوس، ومثابرته على الخروج، إلى سماحة أخلاقه، وعذوبتها، وتواضعه، وقربه).

(٢) قال الخشني: (كذا كل صاحب همة، إنما يستفيد من باب همته، ويُنفق عنده ما أتاه من شكل صنعته). (صـــ١٤).

(٣) علّق على ما نقله عن صاحب (أخبار علماء حمص) بأن (معاوية بن صالح) توفي بالأندلس سنة ١٥٨ هـــ قائلاً: (إن صحت هذه الرواية، فإن معاوية مات في أيام الإمام عبد الرحمن - يعني: ابن معاوية – رحمه الله). (صـــ١٨٧).

(٤) قال في نهاية ترجمة (عبد الرحمن بن أبي هند): (يُخيل إليّ أن هذا الرجل هو الذي ذكرته في رجال قرطبة، وسميته سعيد بن أبي هند، فلا أدري أهما رجلان، أم رجل واحد). (صـــ٢٣٣).

(٥) قال محمد بن حارث: سمعت أحمد بن عبادة الرعيني قديمًا وحديثًا، يحكي فتوى (يحيى بن إبراهيم بن مزين) على غير هذا الوجه، فلا أدري إن كانت الحكايتان جميعًا عن محضر واحد فاختلفت، أو عن محضرين، فاشتبهت. (صـــ ٣٧١).

(٦) فقد ذكر أحمد بن بقي: أن أباه لا يتعدى مذهب مالك إلى غيره، ولا يخالف أصحابه فيه. فعلّق الخشني قائلاً: يمكن أن يكون هذا منه عند الشورى، والأحكام القضائية؛ لأنه يعلم أن الأحكام تجرى على مذهب مالك. أما مذهب بَقيّ في الحديث والنظر، فلا يقلد أحدًا من أهل العلم ما يظهر له الحق في غيره. (صـــ٥٥).

(٧) إذ لم يبين الأجل، الذي تنتهي إليه الوثيقة، وذكر رأي مالك في ذلك (صـــ١٤٥).

٤- تعليق فيه تصويب لبعض المعلومات التاريخية[١].

٥- الاستدلال على صحة معلومة[٢].

٦- تعليق، واستدلال على صحته برواية مسندة[٣]. وأخيرًا، فقد كان الخشني يكتفي بالسرد – أحيانًا قليلة – دون تعليق، كما في إيراده اختلاف الناس حول (ابن مسرة القرطبي) ما بين مُثْنٍ على علمه ومادح إياه، وما بين طاعن فيه، ومهاجم له[٤]. و لم يقم الخشني بتحقيق الأمر، ولا ترجيح رأي على آخر.

والخلاصـــــة:

١- أن الخشني نموذج للمؤرخ الذي لم يحصر اهتمامه في (مجال التاريخ) وحده؛ لأنه كان ذا اهتمامات بتحصيل الفقه، وشهود مناظراته، والمشاركة فيها، والتأليف والتدريس له[٥]. واهتمامه بالتأليف في تراجم الفقهاء والمحدثين نابع من اهتمامه بهذين العلمين.

٢- أن كتابه (أخبار الفقهاء والمحدثين) نموذج طيب لكتب التراجم في الأندلس في القرن الرابع الهجري (سواء في موضوعه، أم في محتوياته وموارده، أم في منهجه).

٣- أن هـــذا الكتاب سد ثغرة مهمة في المكتبة التاريخية الأندلسية، وحوى في ثناياه معلومات جديـــدة دقـــيقة، لا تتعلق بالأندلس فقط، بل تتصل بما رواه علماؤها أثناء رحلاتهم إلى

---

(١) في ترجمة (زياد بن عبد الرحمن اللَّخمي): ذكر أن هذا العالم كانت له صلة بالأمير (هشام بن عبد الرحمن)، فرد الخشني بأن صلة هذا العالم كانت مع الأمير (الحكم بن هشام) (صـــ ٩٦)، وأورد رواية عن ابنه تثبت أن رأي الخشني صواب. وفي موضع آخر ترجمة (عبد الملك بن حبيب) رقم ٣٢٨، صـــ٢٥٤، قال محمد (الخشني): ذكر بعض الناس أنه صلى على (عبد الملك) سليمانُ بن أسود القاضي. قال محمد: وهو وهم؛ لأن القاضي (سليمان بن أسود) لم يَلِ القضاء بعد ذلك إلا إلى أعوام كثيرة، وإنما كان القاضي – وقت وفاة (عبد الملك) – أحمد بن زياد، ثم من بعده (عمرو بن عبد الله)، ثم عُزل عمرو، وولي سليمان بن أسود. والمحفوظ أن الذي صلى عليه محمد (ابنه).

(٢) استدل على رواية (أحمد بن عمرو بن منصور) عن (يونس بن عبد الأعلى) في مصر برواية ابن فطيس، التي قال فيها عنه: (كان وسيلتَنا إلى يونس؛ لتقدمه عنده قبلنا). (ص١٦). وفي موضع آخر قال محمد: ومررت بحكاية لابن وضاح، رواها عنه أحمد بن زياد، دلّتني على أن (حسين بن عاصم)ولي الحكومات (الفصل في القضايا). (ص٧٤).

(٣) قال محمد: كان أحمد بن زياد وأخوه - ولا شك - تلميذين لابن وضاح، نسخا كتبه، فيمكن أن تكون الكتب في يد (أحمد بن زياد) إجازة. قال محمد: ودلّني على صحة ما توهمتُ من ذلك أن ابن وضاح كان أسمح الناس بإجازة الكتب. ثم دعم ذلك برواية مسندة، رواها الخشني عن أستاذه (عثمان بن محمد القَبْرى): أنه حضر ابن وضاح عند موته، وعنده جماعة، فأوصى حاضريه أن يُعلموا غيرهم أن كل من سمع منه وجالسه، فقد أجاز له كل كتاب عنده، فليحدّث به عنه (صـــ٢٤).

(٤) أخبار الفقهاء والمحدثين: صـــ١٧٨.

(٥) عَدّه مصطفى محمد إبراهيم في (رسالتــــه للدكتوراه): (الحياة العلمية في قرطبـــة على عهد الناصر والمستنصر) صـــ٤٢٣، مؤرخًا غير متخصص في مجال (التاريخ)، وجعل اهتمامه بالتأريخ للرجال فرعًا من اهتمامه بالعلم عامة في مجتمع، يحب العلم والعلماء.

المشـــرق [١]. ويضـــــاف إلى ذلـــك تأثير ذلك الكتاب بعيد الأثر في كثير من المؤرخين الـــتالين، الذين نقلوا عنه الكثير من نصوص تراجمه (وعلى رأس هؤلاء: ابن الفرضى [٢]، وابن حيان [٣]، وابن ماكولا [٤]، والحميدى [٥]، وعياض [٦]، والضبى [٧]، وابن الأبّار [٨]، وابن خلكان [٩]، وابن فرحون [١٠]).

****

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني

وأوله الفصل الثالث: المؤرخان الأندلسيان:

ابن جلجل، والزبيدي

(١) نقلت المصادر الأندلسية عنه كثيرًا من المعلومات، التي كان له الســـبق إليها، وسنرى – بعد قليل – مواضع التأثر بالخشني. ومما نقله ابن الفرضى عن الخشنى – مثلاً – أن حارث بن أبي سعد أول من أُحدثت له الشرطة الصغرى بالأندلس (كتاب الخشنى صـــ ٨٠)، نقله عنه ابن الفرضي في (تاريخه ط. الخانجى) ١٢٤/١. ويمكن التقاط معلومات مشرقية جديدة في ثنايا كتاب الخشنـــى، كالذي ذكره (أســـلم بن عبد العزيز) في ترجمة رقم ٥٢ صـــ ٤٣ – ٤٤، عن الربيع المـــرادى المؤذن في مصر، وما نسبه إليه من قول أثناء الأذان بالجامع في صومعته بمصر، وكذلك ابتداء مســـاجد مصر في الأذان بعد انتهائه منه نحواً من ٤٠ سنة. وكذلك ورد نص وصية مطوّلة عَهِـــد بها ابن حنبل عند وفاته، وهي – فيما أعلم – وثيقة جديدة، رواها أســـلم في رحلته إلى بغداد (صـــ٤٥ – ٤٦).

(٢) راجع (تاريخه، ط. الخانجى): ٢١٦/١، ٢١٩ – ٢٢٠، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٢، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٦٦، ٣١٩، ٣٢٦، ٣٢٩.

(٣) المقتبس: جــ٥ صـــ ٣٣، ٣٦ – ٣٧ (وهو نص موجود في كتاب الخشنى صـــ ١٧٨ عن ابن مسرة).

(٤) الإكمال ١٨٥/٥، ٢٨٠/٦.

(٥) الجذوة ٤١١/٢، ٤١٨، ٥٠٢، ٥٦٠، ٥٦٢ – ٥٦٣، ٥٧٠ – ٥٧٢، ٥٧٨ – ٥٧٩، ٥٨٣، ٥٨٥.

(٦) ترتيب المدارك ٣٤٧/١، ٣٥٠، ٣٥٣ – ٣٥٤، ٤٤٥/٢ – ٤٤٦، ٤٥٢ – ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٦٣، ٥٧١.

(٧) البغية صـــ ٢٣٩، ٢٤١، ٢٥٢، ٢٧٠، ٢٧٥، ٢٩٦، ٣٠٠ – ٣٠١، ٣١٢، ٣١٤، ٣١٦، ٣٤٢، ٣٣٧ – ٣٧٨.

(٨) تكملة كتاب الصلة (ط. الحسينى) ١٠/١، ١٧٨، ١٩١، ١٩٨ – ١٩٩، ٢٣٧، ٢٥٢، ٢٨٣. وفي المصدر نفسه (ط. مدريد): صـــ ١٧٣، ٢٥٩، ٢٧٤، ٢٨٥، ٣١٣، ٣٣١.

(٩) وفيات الأعيان ١٤٣/٦ – ١٤٦.

(١٠) الديباج ١٤٧/١، ٤٤٠.